

DAN BROWN

دان براون

مؤلف رواية «شيفرة دافنشي»

مكتبة

سر الأسرار

THE SECRET OF SECRETS

ترجمة: زينة إدريس

رواية خيال علمي



T4375



شركة الدار العربية للعلوم ناشرون للنشر
Arab Scientific Publishers



النسخة الأصلية
المعتمدة

DAN BROWN
دان براون

سر الأسرار

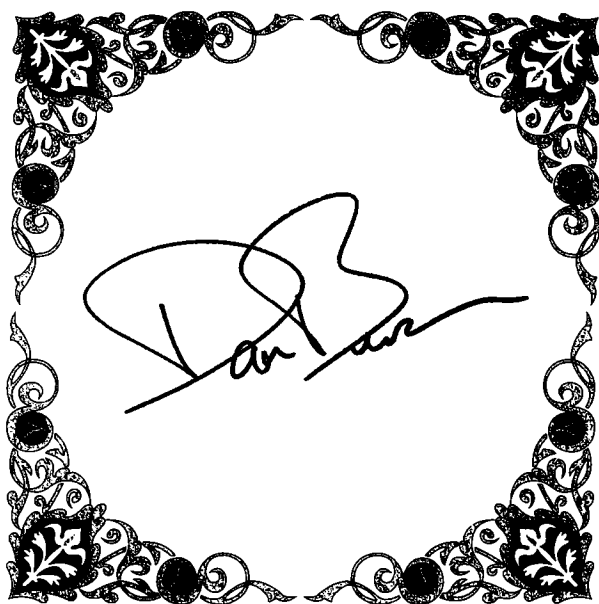
THE SECRET OF SECRETS

إهداء لـ..

إسراء.. لينا.. زينب

في ذكرى الأصل ٢٠١٨ | ٢

سر الأسرار ٢٠٢٦ | ٢



يَتَضَمَّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

THE SECRET OF SECRETS

حقوق التَّرجمة العربيَّة مرخَّص بها قانونيًّا من المؤلَّف Dan Brown

c/o SANFORD J. GREENBURGER ASSOCIATES, INC., Attention Heide Lange,
55 Fifth Avenue, New York, NY 10003, USA of the one part.

بمقتضى الاتفاق الخطِّي الموقع بينه وبين الدَّار العربيَّة للعلوم ناشرون للنشر - الرياض

Copyright © 2025 by Dan Brown

Jacket design by Will Staehle/Unusual Co.

All rights reserved

Arabic Copyright © 2025 by Arab Scientific Publishers., Riyadh, Saudi Arabia

الطَّبعة الأولى: كانون الأول/ديسمبر 2025م - 1447هـ

© الدار العربية للعلوم ناشرون للنشر، 1447هـ

براون، دان

سر الأسرار. / دان براون؛ إدريس، زينة - ط1. - الرياض،

1447هـ

584 ص؛ 17 × 24 سم

مكتبة

t.me/soramnqraa

2 1 2026

رقم الإيداع: 1447/8581

ردمك: 978-603-92334-7-3



شركة الدار العربية للعلوم ناشرون للنشر

Arab Scientific Publishers

السجل التجاري 1010921463

www.asp.sa

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة الدار العربية للعلوم ناشرون للنشر



facebook.com/ASPArabic



twitter.com/ASPArabic



www.aspbooks.com



asparabic

إخراج الغلاف: علي الفهوجي

DAN BROWN

دان براون

مؤلف رواية «شيفرة دافنتشي»

سّر الأسرار

THE SECRET OF SECRETS

مكتبة

t.me/soramnqraa

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحريّر

مركز التعريب والبرمجة



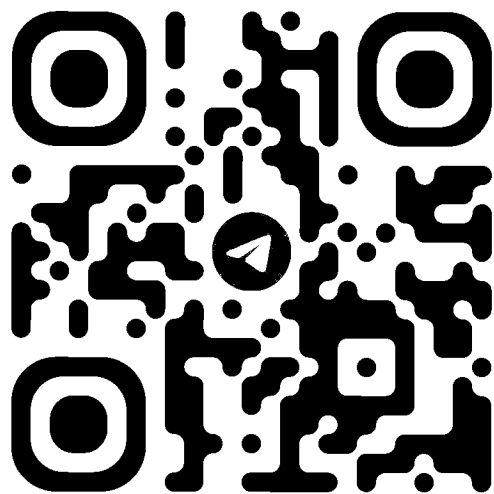
شركة الدار العربية للعلوم ناشرون للنشر
Arab Scientific Publishers



T4375

في اليوم الذي يبدأ فيه العلم بدراسة الظواهر غير الفيزيائية فإنه سيُحقّق
تقدُّمًا في عقد واحد، أكثر ممّا حقّقه في كلّ القرون السابقة.

—نيكولا تيسلا



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

حقائق:

جميع الأعمال الفنيّة والتحف والرموز والوثائق الواردة في هذه الرواية حقيقية.

جميع المواقع الوارد ذكرها في الكتاب حقيقية.

جميع المنظّمات المذكورة في هذه الرواية موجودة فعليًا.

شخصيات الرواية

روبرت لانغدون	بروفيسور في جامعة هارفرد، عالم رموز
كاثرين سولومون	عالمة متخصصة في مجال علم الوعي
بريغيتا غينير	دكتورة تشيكية في علم الأعصاب
ساسا فيسنا	مساعدة غينير ومريضة صرع أودعت في مصحة منذ صغرها
الغولم	شخصية غامضة متتكرة بهيئة مسخ طيني أسطوري
إفريت فينش	المُشرف على مشروع العتبة السري، وشغل سابقاً منصباً سرياً في المقر الأوروبي لمنظمة عالمية يُطلق عليها المُطلعون اسم "كيو"
غريغوري جاد	عضو سابق في مجلس الشيوخ الأميركي، ومدير وكالة الاستخبارات المركزية
هايد ه ناغل	السفيرة الأميركية في براغ
مايكل أوكو هاريس	ملحق السفارة الأميركية في براغ
دانا دانك	مسؤولة الإعلام في السفارة الأميركية
أولدرينغ ياناتشيك	نقيب في مكتب العلاقات الخارجية والمعلومات - المخابرات التشيكية
الملازم بافيل	يعمل تحت إمرة ياناتشيك
جوناس فوكمان	المحرر في دار نشر بنغوين راندوم هاوس
أليكس كونان	الفني من قسم أمن البيانات في دار نشر بنغوين راندوم هاوس
ديميتري سيسيفيتش	مريض آخر في المصحة العقلية مُصاب بالصرع
مالفيينا	ممرضة تعمل في المصحة العقلية حيث وُضعت ساشا
سكوت كيريل	رقيب من المارينز تحت إمرة السفيرة ناغل
سوزان هاوسمور	الضابطة الميدانية التي تعمل تحت إمرة فينش
مارك س. ذؤل	الحارس الليلي في برج راندوم هاوس
العميل أوغر	عميل تابع لفينش
العميل تشينبرغ	عميل تابع لفينش

لا بدّ أنني فارقْتُ الحياة.

هذا ما فكّرت فيه المرأة، وهي تنجرف عاليًا فوق أبراج المدينة القديمة. تحتها، كانت أبراج كاتدرائية القديس فيتوس المتلائة تشعّ وسط بحر من الأضواء البرّاقة. تتبّع بنظرها، هذا إذا كانت لا تزال تملك عينيّن، انحدارَ كاسل هيل بلطف نحو قلب العاصمة البوهيمية. هناك، تمتدّ متاهة من الأزقة المتعرّجة المُغطّاة ببساطٍ من الثلج المُتساقط حديثًا.

براغ.

شعرت بالضّياح، وبذلت جهدًا لتفهم ما حلّ بها.

قالت في مُحاولَة لتطمئن نفسها: أنا عالمة أعصاب، وأتمتع بكامل قواي العقلية.

غير أنّ هذا الادّعاء الثاني بدا لها مَوْضِع شكّ.

الأمر الوحيد الذي كانت الدكتوراة بريغيتا غُسْنِر واثقة منه، أنّها مُعلّقة الآن فوق مَسْقَط أسها، مدينة براغ. لم يكن جسدها معها، بل كانت بلا كتلة ولا شكل. ومع ذلك، كانت بقيّة كيائها - أي ذاتها الحقيقية، وعيها - سليمة ومُتقدّدة، تنجرف ببطء في الهواء باتجاه نهر فلتافا. لم تستطع غُسْنِر أن تتذكّر شيئًا من ماضيها القريب؛ باستثناء ذكرى باهتة من الألم الجسديّ. لكن بدا لها الآن أنّ جسدها لا يتكوّن إلّا من الهواء الذي تنساب عبره. كان الإحساس فريدًا، لم يسبق لها أن خبرته. وعلى الرّغم من كلّ ما تعرفه كعالِمة، لم تجد لذلك سوى تفسير واحد.

لقد مُتّت، وأنا الآن في العالم الآخر.

لكنّها سرعان ما رفضت هذه الفكرة.

في الواقع، بوصفها طبيبة، كانت على دراية وثيقة بالموت. ففي كليّة الطبّ، وفي أثناء تشريح الأدمغة البشرية، فهمت غُسْنِر أنّ كلّ ما يجعلنا ما نحن عليه - أي آمالنا، ومخاوفنا، وأحلامنا، وذكرياتنا - ليس إلّا مُركّبات كيميائية مُعلّقة بشحنات كهربائية. وعندما يموت الإنسان، ينقطع مصدر الطاقة في دماغه، وتذوب تلك المُركّبات، وتتحول إلى بركة سائلة بلا معنى، تمحو آخر أثرٍ لِمَا كان عليه ذلك الإنسان ذات يوم.

الموت نهاية الطريق.

لا رجعة منه.

لكنّها الآن، وهي تنجرف فوق حدائق قصر فالانشتاين المُتناسقة، كانت تشعر بأنّها حيّة تمامًا. راقبت تساقط الثلج من حولها - أم تُراه عبرها؟ - ولم تشعر بالبرد على الإطلاق؛

كما لو أنّ عقلها وحده هو الذي كان يحلّق في الفضاء، مُحْتَفِظًا بكلّ ما فيه من مَنْطِق وعقلانيّة.

فكرت في سرّها: ما دام عقلي يعمل، فلا بدّ أنّني ما زلت على قيد الحياة. واستنتجت أخيرًا أنّها تمرّ بتجربة تُسمّيها المراجع الطبيّة "تجربة وعيٍ مُغايرة"؛ وهي نوع من الهلوسة، تُصيب المرضى الذين يتعرّضون لإصابة خطيرة ويتمّ إنعاشهم بعد الموت السريريّ.

غالبًا ما تتجلّى هذه الظاهرة بالطريقة نفسها؛ أي الشعور بأنّ الإدراك انطلق مُحلّقًا بلا هيئة. وعلى الرغم من أنّ هذه الرحلات تبدو حقيقيّة تمامًا، إلّا أنّها ليست سوى أوهام، يُحرّكها عادةً التوتر الشديد، أو نقص الأوكسجين في الدماغ، أو حتّى أثر أدوية التخدير، مثل الكيتامين.

أنا من تتخيل هذه الصور، هذا ما أكّدته لنفسها وهي تُحدّق إلى المُنحني المُعتمٍ لنهر فلتافا الذي يعبر المدينة. لكن، إن كانت هذه تجربة وعيٍ مُغايرة... فلا بدّ أنّني أُحتَضِر. ولدهشتها، شعرت بالسكينة، ثمّ حاولت أن تتذكّر ما حدث لها.

أنا امرأة سليمة، في التاسعة والأربعين من العمر... ما سبب موتي؟ فجأة، ومضت في ذهنها ذكرى مُرعبة. إذ أدركت أخيرًا المكان الذي يرقد فيه جسدها الحقيقيّ في هذه اللحظة... والأفزع، ما كان يحدث له.

كانت مُستلقية على ظهرها، مُقيّدة بإحكام في آلة من اختراعها. وكان ثمة مسخ يقف فوقها، مخلوق أشبه بكائن بدائيّ خرج لتوّه من جوف الأرض. كان وجهه وجمجمته الصلعاء مُغطّيين بطبقة كثيفة من الطين القذر، مُشَقَّقة ومُكسّرة كسطح القمر. وحدهما عيناه - المليّتان بالكراهية - كانتا واضحتين خلف قناعه الطينيّ. وكانت على جبينه ثلاثة حروف مرسومة بخطّ بدائيّ بلغة قديمة.

صرخت غِسْنِر بذعر: "لماذا تفعل هذا؟ من أنت؟!" ما أنت؟! أجاها المسخ بصوت أجوف، ولهجة سلافية باهتة: "أنا حاميتها. لقد وثقت بك... لكنك خنتها".

صاحت غِسْنِر: "مَن هي؟!"

نطق المسخ باسم امرأة، فشعرت غِسْنِر بغصّة خوف. كيف له أن يعرف بما فعلته؟! فجأة، أحسّت بثقل بارد في ذراعيها، ففهمت أنّ المسخ قد بدأ العملية. وفي اللحظة التالية، انفجرت نقطة ألم رهيبية في ذراعها اليسرى، امتدّت على طول الوريد الأوسط، وزحفت ببطء نحو كتفها.

شهقت قائلة: "أرجوك، توقف!"
فقال ببرود: "أخبريني بكل شيء".
في هذا الوقت، كان الألم المُبرِّح يتمدّد إلى إبطها.
أجابت بصرخة مَحْمومة: "سأفعل!" فأوقف الآلة، وتجمّد الألم عند الكتف، لكنّه ظلّ مُستعيرًا.

راحت غِسْنِر تتكلّم بأقصى سرعة، وقد تملّكها الرعب، وتُفصّح عن أسرار أقسمت على ألاّ تبوح بها لأحد؛ لتكشف الحقيقة المُرعبة عمّا فعلته مع شركائها في أعماق مدينة براغ.
نظر المسخ إليها من خلف قناعه الطينيّ، ولمعت عيناه بوميض من الفهم... والكراهية.
أخيرًا، همس قائلاً: "لقد بنيتُم بيت رعبٍ تحت الأرض، وجميعكم تستحقّون الموت".
ومن دون أن يتردّد، أعاد تشغيل الآلة، وتوجّه نحو الباب.
"لا...!" صرخت وهي تلوّى من الألم الذي اجتاحت كتفها وامتدّ إلى صدرها. "أرجوك، لا تتركني... هذا سيقتلني!"

فقال من دون أن يلتفت: "صحيح، لكنّ الموت ليس النهاية".
وفي اللحظة التالية، تبخّر المسخ، ووجدت غِسْنِر نفسها تحوم مُجدّداً. فحاولت أن تصرخ طلباً للرحمة، لكنّ صوتها ضاع وسط هدير كالرعد، وانشقّت السماء فوقها، فشعرت بقوة غير مرئية - أشبه بجاذبية معكوسة - ترفعها عاليًا، وتسحبها بقوة نحو الأعلى.
لطالما سخرت الدكتورة بريغيتا غِسْنِر من مرضاها الذين زعموا أنّهم عادوا من أعتاب الموت. أمّا الآن، فراحت تتضرّع لكي تصبح واحدة من أولئك القليلين الذين رقصوا على حافة العدم، ونظروا إلى الهوّة، ثم تراجعوا خطوة إلى الوراء.
لا يمكنني أن أموت... عليّ تحذير الآخرين!
لكنّها أدركت أنّ الأوان قد فات.
فهذه الحياة قد انتهت.

الفصل 1

استيقظ روبرت لانغدون بهدوء، مُستمِعًا بنغمات الموسيقى الكلاسيكية الناعمة المُنبِعثَة من مُنْبَه هاتفه على الطاولة الجانبيّة. كانت مقطوعة "مزاج الصباح" لغريغ اختيارًا تقليديًا بلا شك، لكنّه لطالما وجدها أفضل أربع دقائق موسيقيّة لبدء النهار. ومع تصاعد نغمات آلات النفخ الخشبيّة، استساغ لانغدون تلك الحالة من الغموض؛ حين لا يتذكّر المرء تمامًا أين هو. أخيرًا، تذكّر، وابتسم لنفسه، آه نعم، مدينة الأبراج المئنة.

في الضوء الخافت، تأمل نافذة الغرفة المُقنطرة الضخمة، المُحاطة من الجانبين بخزانة ملابس عتيقة إدوارديّة الطراز، ومصباح من المرمَر. كانت بتلات الورد التي زين بها موظفو الفندق السرير في الليلة الماضية لا تزال مُثناثرة على السجادة الفخمة المنسوجة يدويًا.

وصل لانغدون إلى براغ قبل ثلاثة أيام. وكما في زيارته السابقة، نزل في فندق فور سيزنز. وعندما أصرّ المدير على منحه الجناح الملكيّ المُؤلّف من ثلاث غرف، تساءل عمّا إذا كان الأمر يتعلّق بولائه للعلامة التجاريّة، أم بسبب مكانة المرأة التي ترافقه.

قال المدير مُبتسمًا: "ضيوفنا المُميّزون يستحقّون إقامة مُميّزة".

كان الجناح يضمّ ثلاث غرف نوم مُنفصلة، مع حمّامات داخليّة، وغرفة معيشة، وغرفة طعام، وبيانو ضخّم، ونافذة مركزيّة بارزة إلى الخارج، تُزيّنها باقة فاخرة من أزهار التوليب الحمراء والبيضاء والزرقاء؛ كهديّة ترحيبية من السفارة الأميركيّة. وفي غرفة تبديل الملابس الخاصّة بلانغدون، وجد خفّين من الصوف الناعم، مُطرزَين بالحرفين الأولين من اسمه RL. فكّر وهو يُعانيهما بإعجاب، مُتأثرًا بهذه اللفتة الشخصيّة: في رأيي، لا يمكن أن يكونا اختصارًا لـ *الرف لورين*.

وبينما كان ينعم بدفء السرير، ويُنصِت إلى الموسيقى الهادئة، أحسّ بيدٍ ناعمة تلامس كتفه بركة.

قال صوت خافت: "روبرت؟"

استدار، وخفق قلبه بسرعة. كانت هناك، تبسم له، وعيناها الرماديتان لا تزالان شبه مُغمضتين، فيما تنائر شعرها الأسود الطويل حول كَتْفَيْهَا.

ردّ عليها قائلاً: "صباح الخير، أيّتها الجميلة".

مدّت يدها، ومسحت برفق على خدّه، وكان عبير عطر "بالاد سوفاج" لا يزال عالقًا على معصمَيْهَا.

تأمل لانغدون ملامحها الراقية. فمع أنها تكبره بأربع سنوات، إلا أنها كانت تزداد جمالاً كلما رآها؛ تجاعيد الضحك العميقة، خصلات الشعر الرمادي التي بدأت تظهر، عيناها المرحتان، وذكاؤها الأسر.

كان يعرف هذه المرأة الاستثنائية منذ أيامه في جامعة برينستون؛ حين كانت أستاذة مُساعِدة شابة، وكان هو طالباً جامعياً. حينذاك، مرَّ إعجابه الخجول بها في الأغلب من دون أن تلاحظه، أو ربّما تجاهلته. مع ذلك، ظلّت تربط بينهما صداقة ودّية طريفة طويلة تلك السنوات. وحتى بعد أن ازدهرت حياتها المهنية بسرعة، وصار لانغدون أستاذًا مرموقًا وذاع صيته في أنحاء العالم، لم ينقطعاً عن التواصل، ولو على نحو عابر.

التوقيت أساس كل شيء. أدرك لانغدون الآن هذه الحقيقة وهو لا يزال مذهولاً من السرعة التي انجذب فيها كلّ منهما إلى الآخر خلال هذه الرحلة المهنية العفوية.

ومع وصول مقطوعة "مزاج الصباح" إلى ذروتها، جذبها إليه بذراعه القويّة، وهمس قائلاً: "هل نمّت جيّداً؟ هل توقّفت الكوايس؟"

أومأت برأسها وتنهدت قائلة: "أنا مُحرجة جداً... فقد كان شعوراً فظيماً".

ففي وقت سابق من هذه الليلة، استيقظت مَذعورة من كابوس شديد الوضوح، واحتاج لانغدون إلى مواساتها لساعة تقريباً، قبل أن تتمكّن من معاودة النوم. وطمأنها بالقول إنّ شدة الكابوس غير العادية كانت نتيجة مشروبها البوهيميّ غير المدروس، والذي لطالما اعتقد أنّه يجب تقديمه مع تحذير؛ نظراً إلى تأثيره القويّ.

أكّدت له قائلة: "لن أكرّر ذلك ثانية".

مدّ لانغدون يده وأطفأ الموسيقى، ثمّ قال: "أغمضي عينيك. سأعود عندما يحين موعد الفطور".

مازحته وهي تتمسّك به: "ابقَ معي، يمكنك الاستغناء عن يوم سباحة واحد".

ارتسمت على وجهه ابتسامة مائلة وهو يجلس قائلاً: "ليس إن كنت تريدني أن أحافظ على شبابي ولياقتي".

كلّ صباح، كان لانغدون يُهرول مسافة ثلاثة كيلومترات إلى مركز ستراهوف للسباحة لممارسة تمارينه الصباحية.

ألحّت عليه: "الجوّ مُظلم في الخارج، ألا يمكنك السباحة هنا؟"

"أفي مسبح الفندق؟"

"لِمَ لا؟ فالماء ماء".

"لكنّه صغير؛ ضربتان وأصل إلى الجدار".

"أنا أمزح يا روبرت، لكنني سأتحلّى باللطف".

ابتسم وقال: "كم أنت مضحكة! عودي إلى النوم، وسألاقيك على الفطور".

فعبست، ورمت عليه وسادة قبل أن تُدير له ظهرها.

ارتدى لانغدون بذلته الرياضية المُخصّصة لأعضاء هيئة التدريس في جامعة هارفرد،

ثم توجه إلى الباب، مُفضّلاً استخدام الدرج على المصعد الصغير الخاصّ بالجنّاح.

في الأسفل، اجتاز الرواق الفاخر الذي يربط بين مُلحق الفندق الباروكي المُطلّ على

النهر وردة المبنى الرئيس. وفي طريقه، مرّ بصندوق عرض أنيق يحمل عنوان "مناسبات

براغ"، احتوى على سلسلة من المُلصقات المؤطرة لإعلانات الحفلات الموسيقية

والجولات والمُحاضرات لهذا الأسبوع.

والمُلصق اللامع الذي توسّط العرض جعله يبتسم.

سلسلة محاضرات جامعة تشارلز

ترحب في كاتدرائية براغ

بالعالمية العالمية البارزة في علم الوعي

الدكتورة كاثرين سولومون

قال في سرّه وهو يتأمل صورة المرأة التي تركها منذ قليل في الطابق العلويّ: صباح

الخير، أيتها الجميلة.

كانت مُحاضرة كاثرين في الليلة السابقة قد شهدت حضوراً فاق الطاقة الاستيعابية

للقاعة، وهو إنجاز بحدّ ذاته، نظراً إلى أنها أُلقيت في قاعة فلاديسلاف الأسطورية في قلعة

براغ؛ تلك القاعة المُقبّبة الفسيحة التي كانت تُستخدم في عصر النهضة لإقامة مسابقات

مبارزة داخلية بين الفرسان الذين يمتطون الخيول وهم بكامل عتادهم.

تُعَدّ هذه السلسلة من المحاضرات من الأهمّ في أوروبا، وغالباً ما تستقطب مُحدثين

بارزين وجمهوراً مُتحمّساً من شتى أنحاء العالم. ولم تكن الليلة الماضية استثناء، إذ ضجّت

القاعة بالتصفيق ما إن أُعلن اسم كاثرين.

قالت وهي تعطي المنصة بكلّ ثقة وهذوء: "شكراً لكم جميعاً".

كانت ترتدي سترة من الكشمير الأبيض، وسروالاً من تصميم راقٍ بدا وكأنّه صُمّم

خصيصاً من أجلها.

أردفت قائلة: "أودّ أن أبدأ الليلة بالإجابة عن أكثر سؤال يُطرح عليّ يومياً"، ثمّ

ابتسمت، وانتزعت الميكروفون من قاعدته مُتأبعة: "ما هو - حباً باللّه - علم الوعي؟!"

دوى الضحك في أرجاء القاعة، ثم هدا الحضور استعدادا للإصغاء.

قالت كاثرين: "ببساطة، يقوم علم الوعي على دراسة الوعي البشريّ. وعلى عكس ما يظنه بعضكم، هذا العلم ليس جديداً، بل هو أقدم علم على وجه الأرض. فمنذ فجر التاريخ، ونحن نبحث عن إجابات للأسرار القديمة للعقل البشريّ... أي طبيعة الوعي والروح. وعلى مدى قرون طويلة، كانت هذه الأسئلة تُطرح عموماً من خلال... عدسة الدين".

نزلت كاثرين عن المنصة، واتّجهت نحو الصفّ الأمامي من الحضور، ثم تابعت: "وبالحديث عن الدين، سيّداي وسادتي، لا يسعني إلّا أن ألاحظ وجود عالمٍ مرموق في علم الرموز الدينيّة بيننا الليلة، البروفيسور روبرت لانغدون".

سمع لانغدون همسات الحماسة تنتشر في صفوف الحاضرين. لكن، ما الذي ترمي إليه؟! قالت مُبتسمة بعدما وصلت إليه: "بروفيسور، هل يمكننا الاستفادة من خبرتك قليلاً؟ هل تمناع الوقوف؟"

وقف لانغدون بأدب، وابتسم لها ابتسامة هادئة كأنّه يقول: ستدفعين ثمن هذا. "أتساءل أيّها البروفيسور... ما الرمز الدينيّ الأكثر شيوعاً على وجه الأرض؟" كانت الإجابة بسيطة. وإما أن تكون كاثرين قد قرأت مقال لانغدون حول هذا الموضوع وعرفت ما سيحدث لاحقاً، أو أنّها على وشك أن تواجه خيبة أمل كبيرة. أخذ لانغدون الميكروفون، واستدار ليواجه بحر الوجوه المُتلهّفة تحت الإضاءة الخافتة للثريات المُعلّقة بسلاسل حديدية عتيقة. ثمّ قال بصوته الجهوريّ العميق، الذي دوى عبر مكبّرات الصوت: "مساء الخير جميعاً، وشكراً للدكتورة سولومون على هذه الدعوة المُفاجئة، من دون أيّ تحذير مُسبق".

انطلقت التصفيفات في القاعة. قال مُتابعاً: "حسناً إذاً، ما الرمز الدينيّ الأكثر شيوعاً في العالم؟ هل عند أحدكم أيّ تخمين؟"

رُفعت عشرات الأيدي. ابتسم لانغدون وقال: "ممتاز، وهل من تخمينات لا تتعلّق بالصليب؟" عندها، هبطت كلّ الأيدي.

ضحك لانغدون وقال: "صحيح أنّ الصليب رمز شائع جداً، لكنّه يظلّ رمزاً خاصاً بالمسيحيّة وحدها. أمّا الرمز الذي أتحدّث عنه، فهو رمزٌ كونيّ، يظهر في الأعمال الفنيّة في معظم الديانات عبر التاريخ".

تبادل الحاضرون نظرات الحيرة، بينما تابع قائلًا: "لقد رأيتموه مرارًا من قبل، ربّما في لوحة حوراختي المصريّة؟"
توقّف قليلاً، قبل أن يُواصل: "أو ربّما على تابوت كانيشكا البوذي؟ أو في لوحة المسيح ضابط الكلّ الشهيرة؟"

ساد صمت مُطبّق، فيما شخصت إليه أبصار الحاضرين.

قال في سرّه: ربّاه، من الواضح أنّ الجمهور ينتمي إلى خلفيّة علميّة بحتة.
تابع شارحًا: "يظهر هذا الرمز أيضًا في مئات من أشهر اللوحات في عصر النهضة: في النسخة الثانية من لوحة "عذراء الصخور" لليوناردو دافنشي، و"البشارة" لفرانجيليكو، و"الربّاء" لجوتو، و"تجربة المسيح" لتيتيان، فضلًا عن عدد لا يُحصى من لوحات العذراء والطفل..."
غير أنّ الجمهور ظلّ على حاله.

عندئذٍ، قال: "الرمز الذي أتحدّث عنه هو الهالة".

ابتسمت كاثرين، كما لو أنّها كانت تعرف سلفًا تلك الإجابة، بينما تابع لانغدون يقول: "الهالة قرصٌ من النور، يظهر فوق رأس الكائن المُتَنَوِّر. في المسيحيّة، نراها تعلو رؤوس المسيح ومريم والقديسين. أمّا في الماضي، فكانت قرصًا شمسيًا يعلو رأس الإله الفرعوني رع الأسطوريّ، وفي الديانات الشرقيّة كانت الهالة النورانيّة التي تُحيط برأس بوذا والآلهة الهندوسيّة الأسطوريّة".

قالت كاثرين وهي تمدّ يدها نحو الميكروفون: "رائع، شكرًا لك بروفيسور".

إلا أنّ لانغدون تجاهلها، وتراجع خطوة بلطف؛ وكأنّه يردّ لها الدّين بطريقته. لا توجّهي سؤالًا لأستاذ رموز إن لم تكوني مُستعدّة لسماع محاضرة كاملة.

تابع مُبتسمًا: "وأودّ أن أضيف أنّ الهالات تأتي بأشكال وأحجام وتمثيلات فنيّة متعدّدة. فمنها ما يكون قرصًا ذهبيًا صلبًا، ومنها ما يكون شفافًا، حتّى إنّ بعضها يتّخذ شكلًا مُربّعًا. وبعض أنواع الهالات المُتخصّصة تتّخذ شكل أشعة مُتلائة تنبعث منها... أي أشواك ضوئيّة تتّجه نحو الخارج من كلّ الجهات".

ثمّ استدار إلى كاثرين مُبتسمًا بدهاء، وقال وهو يُميل الميكروفون نحوها: "ربّما تعرف الدكتورة سولومون اسم هذا النوع من الهالات؟"

فأجابت من دون تردّد: "التاج الشعاعيّ".

من الواضح أنّها قامت بواجبها. هذا ما فكّر فيه لانغدون مُبتسمًا وهو يُعيد الميكروفون إلى فمه: "نعم، التاج الشعاعيّ رمز ذو أهميّة استثنائيّة. فقد ظهر عبر التاريخ على رؤوس حورس، وهيليوس، وبطليموس، وقيصر... بل وحتّى على رأس تمثال رودس العملاق".

ابتسم لانغدون للحشد ابتسامة مأكرة. "قليل من الناس يُدركون هذا، لكن أكثر ما يُصوّر في مدينة نيويورك بأكملها هو... تاج مُشرق".

بدأت الحيرة على الوجوه، حتّى على وجه كاثرين نفسها.

سأل لانغدون: "هل من تخمينات؟ أليس منكم من سبق له أن التقط صورة للتاج الشعاعي الذي يعلو ميناء نيويورك بثلاثمئة قدم؟"

صمت قليلاً، فيما بدأت همسات التعجب تسري بين الحضور. صاح أحدهم: "تمثال الحرّة!"

فقال لانغدون: "بالضبط. لتمثال الحرّة تاج شعاعي - وهو في الأصل هالة قديمة - ذلك الرمز الكوني الذي استخدمناه عبر التاريخ لتحديد الأشخاص المُميّزين الذين نعتقد أنّهم يتمتعون بالتّنوير... أو بدرجة مُتقدّمة من... الوعي".

أعاد لانغدون الميكروفون إلى كاثرين، فأخذته منه بابتسامة عريضة، وهمست له شاكراً بينما كان يعود إلى مقعده وسط تصفيق الحضور.

اعتلت كاثرين خشبة المسرح مُجدّداً وقالت: "مثلما أوضح البروفيسور لانغدون ببراعة، إنّ الإنسان يفكّر في الوعي منذ زمن بعيد. لكن، ومع تقدّم العلم، ما زلنا نواجه صعوبة في تعريفه. بل إنّ كثيرين من العلماء يخشون مجرد التطرّق إليه". ثم جالت بنظرها على الجمهور وهمست: "يسمّونه الكلمة الممنوعة".

عمّ الضحك القاعة من جديد، فيما أشارت كاثرين إلى سيّدة تضع نظّارة في الصفّ الأمامي وسألتها: "سيّدي، كيف تُعرّفين الوعي؟" فكرّت المرأة قليلاً ثم قالت: "أعتقد أنّه... إدراكي أنّي موجودة؟" "تعريف ممتاز. وما مصدر هذا الإدراك؟"

"دماغي، على ما أعتقد، أفكاري وتخيّلاتي... النشاط الدماغي الذي يجعلني الإنسانة التي أنا عليها".

"أحسنّ التعبير، شكراً لك". ثم رفعت نظرها مُجدّداً نحو الحضور وقالت: "هل يمكننا إذاً الاتفاق على الأساسيات؟ أي أنّ الوعي يتولّد داخل الدماغ؛ هذا العضو الذي يزن ثلاثة أرباط، ويضمّ ستة وثمانين مليار خلية عصبية، وعلى ذلك فإنّ الوعي موجود داخل رؤوسنا".

هزّ الجمهور رؤوسهم بالإيجاب.

قالت كاثرين مُبتسمة: "هذا رائع. لقد اتّفقنا جميعاً على النموذج العلمي السائد حالياً لفهم الوعي". صمتت لحظة، وأتبعَت كلامها بتهنيدة ثقيلة، قبل أن تُواصل قائلة: "لكنّ

المشكلة... أن هذا النموذج السائد حاليًا خاطئ تمامًا. فوعيكم لا يصدر عن الدماغ. في الواقع، وعيكم ليس موجودًا في رؤوسكم أصلًا".

ساد الصمت وسط الذهول التام.

سألت المرأة صاحبة النظارة بتردد: "لكن... إن لم يكن الوعي داخل رأسي... فأين تراه يكون؟"

ابتسمت كاثرين وقالت للحاضرين: "سُِررت بسؤالك. تهبّؤوا أعزائي الحاضرين، لأنّ رحلتنا الليلة ستكون مُشوّقة".

نجمة روك، هكذا وصفها لانغدون بينما كان يسير نحو ردهة الفندق، ولا تزال أصداء تصفيق الجمهور لكاثرين تدوي في أذنيه. فقد كانت مُحاضرتها عرضًا مذهلًا بكلّ المقاييس، إذ تركت الجمهور مَشدوهاً ومُتعطّشًا للمزيد. وعندما سألها أحد الحاضرين عن مشاريعها الحالية، كشفت أنّها أنهت حديثًا وضع اللمسات الأخيرة على كتاب تأمل أن يُغيّر المفهوم السائد عن الوعي.

كان لانغدون قد ساعد كاثرين في التوصل إلى اتفاق مع إحدى دور النشر، على الرغم من أنّه لم يطلّع بعد على مسودة الكتاب. غير أنّ كاثرين أفصحت له عن قدر لا بأس به من محتواه، بحيث تشوّق حقًا لقراءته، لكنّه شعر في قرارة نفسه أنّها احتفظت بالمفاجآت الكبرى لنفسها. مفاجآت كاثرين سولومون لا تنتهي.

والآن، بينما كان يقترب من ردهة الفندق، تذكر فجأة أنّ كاثرين حدّدت موعدًا عند الثامنة صباحًا مع الدكتورة بريغيتا غِسْنِر، عالمة الأعصاب التشيكية البارزة، التي دعتهَا شخصيًا للمشاركة في سلسلة المحاضرات. كانت دعوتها كريمة، لكن بعد أن قابلها لانغدون الليلة الماضية واكتشف مدى تعاليها، أخذ يتمنّى في سرّه أن تغفو كاثرين وتؤخّر عن الموعد، وتقرّر أن تتناول الفطور برفقته بدلًا من ذلك.

دفع تلك الأفكار عنه، ودخل الردهة، مُستمتعًا بعبير باقات الورود الفاخرة التي لطالما زينت المدخل الرئيس. إلّا أنّ المشهد الذي استقبله في الردهة كان أقلّ ترحيبًا بكثير.

كان ثمة شرطيان يرتديان ملابس سوداء يتجولان بحذر في المساحة المفتوحة، بمرافقة كلبين من نوع الراعي الألماني. وكان الكلبان يرتديان سترتين واقيتين من الرصاص تحملان كلمة "بوليسي"، ويشمّان المكان كما لو أنّهما يبحثان عن شيء ما.

فكّر لانغدون في سرّه: هذا لا يُبيّس بالخير، ثم توجه إلى مكتب الاستقبال وسأل: "هل كل شيء على ما يرام؟"

أجاب المدير، بمظهره الأنيق، وهو يندفع نحوه بحفاوة حتّى كاد أن ينحني احترامًا: "أوه، بالتأكيد، سيد لانغدون! كلّ شيء على خير ما يرام، بروفيسور. فقد واجهتنا مشكلة بسيطة الليلة الماضية، لكن تبين أنّه كان إنذارًا كاذبًا". وأكّد كلامه بهزّة من رأسه، مُضيفًا: "إنّنا نتخذ بعض الإجراءات الاحتياطية فحسب. فكما تعلم، الأمن هنا في فندق فور سيزنز براغ أولويّة قصوى".

ألقي لانغدون نظرة على رجلّي الشرطة وتساءل: مشكلة بسيطة؟ إذ لم يبدو له هذان الرجلان بسيطين على الإطلاق.

سأله المدير: "هل أنت مُتوجّه إلى نادي السباحة يا سيدي؟ هل أطلب لك سيارة؟" أجاب لانغدون وهو يتابع طريقه نحو الباب: "لا، شكرًا، سأذهب جريًا؛ فأنا أحبّ الهواء الطلق".

اعترض المدير: "لكنّها تثلج!"

نظر البروفيسور الذي نشأ في نيو إنغلاند إلى الخارج، مُتأمّلًا ندف الثلج الخفيفة في الجوّ، ثمّ ابتسم للمدير وقال مازحًا: "إن لم أعد خلال ساعة، فأرسلوا أحد هذين الكلبين لإخراجي من تحت الثلوج".

الفصل 2

كان الغولم⁽¹⁾ يعرج عبر الثلج، وهو يجزّ حاشية رداءه الأسود الطويل في الوحل القذر الذي غطّى شارع كابروفا. تحت العباءة، بدا حذاؤه الضخم ذو النعل المرتفع ثقيلًا، بحيث واجه صعوبة في رفع ساقه مع كلّ خطوة. وعلى وجهه وجمجمته، كانت طبقة سميكة من الطين قد تصلّبت في الهواء البارد.

مكتبة

t.me/soramnqraa

عليّ الوصول إلى بيتي.

فالأثير يتجمّع.

خشي الغولم أن يطغى عليه الأثير، فمدّ يده إلى جيبه، وأخرج العصا المعدنية الصغيرة التي يحتفظ بها معه دائمًا، ثمّ رفعها إلى رأسه وضغط بها بقوة على أعلى جمجمته، وراح يحفّها في دوائر صغيرة بالطين الجافّ.

قال في سرّه: ليس بعد، وأغمض عينه.

تبدّد الأثير - مؤقتًا على الأقلّ - فأعاد العصا إلى جيبه، ومضى في طريقه.

بضع مئات أخرى من الأمتار، وأتمكّن من تحريره.

كان ميدان البلدة القديمة - المعروف في براغ باسم ستاروماك - خاليًا في هذا الصباح المُظلم؛ باستثناء سائحَيْن اثنيْن يحملان قطع حلوى بالسكّر المحروق، ويتأملان الساعة الشهيرة من العصور الوسطى. كانت تلك الساعة القديمة تعرض في كلّ ساعة "موكب القديسين"؛ وهو استعراض ميكانيكيّ مُتقطّع يُظهر تماثيل القديسين ثمّ يُخفيها من خلال نافذتَيْن صغيرَتَيْن في واجهة الساعة.

فكّر الغولم: إنّها تعمل بلا توقف منذ القرن الخامس عشر، ومع ذلك ما زالت تجذب الخراف لتأمل هذا المشهد.

حين مرّ بجانب السائحَيْن، رمقاه بنظرة، ثمّ شهقًا تلقائيًا، وتراجعا إلى الخلف. كان قد اعتاد على هذا النوع من ردود الفعل من الغرباء. فهي تذكّره أنّ له هيئةً جسدية، حتّى إن لم يستطيعوا رؤية ما هو عليه حقًا.

أنا الغولم.

أنا لست من عالمكم.

(1) مخلوق أسطوريّ مُكوّن من مادّة طينية.

كان الغولم يشعر أحياناً كأنه مُنْفَلِت من عقاله، على وشك أن يطفو بعيداً، ولذلك كان يجد مُتعةً في لفّ جسده البشريّ برداء ثقيل. فنقل العباءة، وحذاؤه ذو النعل المُرتفع يُعزّزان فعل الجاذبيّة، ويُثبّتانه إلى الأرض. أمّا رأسه المَطْلِيّ بالطين، ورداؤه ذو القلنسوة، فجعلاه يبدو كائنًا غريبًا ومُخيفًا؛ حتّى في براغ التي تُعدّ فيها الأزياء التنكّريّة ليلاً أمراً شائعاً. لكنّ ما جعل الغولم مشهداً أسراً حقّاً كان الحروف الثلاثة القديمة المَدْموغة على جبهته... المَحْفورة في الطين بسكّين الرسم.

أنا

كانت الحروف الثلاثة - ألف، ميم، تاء - تؤلّف، من اليمين إلى اليسار، كلمة "إِمت". الحقّ. فالحقّ هو ما جاء بالغولم إلى براغ. والحقّ هو ما كشفت له الدكتورّة غِسْنِر في وقت سابق من تلك الليلة؛ اعترافٌ تفصيليّ بالفظائع التي ارتكبتها مع شركائها في أعماق براغ. كانت جرائمهم مُروّعة، لكنّها تضاءلت أمام ما كان مُخطّطاً له للمستقبل القريب. قال في سرّه: سأدمرها، وأحوّلها إلى رماد. تخيل الغولم صنيعتهم المُظلمة... وهي تُمحي عن بكرة أبيها... وتحوّل إلى حفرة مُتَفَحّمة في باطن الأرض. ومع أنّ المهمّة بدت شاقّة، إلّا أنّه كان واثقاً من قدرته على إنجازها. فقد كشفت له الدكتورّة غِسْنِر كلّ ما يحتاج إلى معرفته. قال في سرّه وقد بدأت الخطة تتبلور في ذهنه: عليّ أن أتحرّك بسرعة، فنافذة الفرصة لن تبقى مفتوحة طويلاً.

انعطف الغولم نحو الجنوب الشرقي، مُبتعداً عن الميدان، حتّى بلغ الزقاق الضيق الذي يتعرّج باتجاه شقّته. كان حيّ البلدة القديمة أقرب إلى متاهة من الأزقة الضيقة التي اشتهرت بحياتها الليليّة الصاخبة، ومقاهيها المميّزة: مقهى تينسكا الأدبيّ للكتاب والمُتقّفين، ومقهى أنونيموس لعشاق القرصنة والمؤامرات، ومقهى همنغواي لذوافة الكوكيتل...

فيما كان الغولم يعبر أزقة المتاهة، وجد أنّه لا يفكر في الأحوال التي أنزلها بالدكتورّة بريغيتا غِسْنِر، ولا في المعلومات الصادمة التي انتزعها منها، بل كان يفكر فيها هي. كان دائم التفكير فيها.

أنا حاميتها.

أنا وهي جُسيما مُتشابكان، مُتربطان إلى الأبد.

كانت حمايتها غاية المُنتهى بالنسبة إليه، لكنّها لم تكن تعرف بوجوده أصلاً. على الرغم من ذلك، عدّ فترة خدمته لها شرفاً عظيماً. فحملُ أعباء شخص آخر بحدّ ذاته مهمّة سامية؛ أمّا أن تفعل ذلك خفية، من دون نيل أيّ اعتراف... فذاك فعل مَحَبّة نقيّ وتجسيد حقيقيّ لإيثار الآخرين.

الحارس الخفيّ يتجلّى في صور شتى.

كانت قد منحت ثقتها بصدق، لكنّها وقعت من دون أن تدري في بئر من العلوم المُظلمة. لم ترَ أسماك القرش التي كانت تحوم حولها. صحيح أن الغولم قضى على إحدى تلك الأسماك الليلة، لكنّ الدماء باتت تعكّر صفو الماء الآن. ولن يطول الأمر قبل أن تخرج قوى جبارة من الأعماق لتقصّي ما جرى... لضمان سرّيّة ابتكارها.

قال في سرّه: سيكون الأوان قد فات. فبيت الرعب الذي بنّوه تحت الأرض سينهار قريباً تحت وطأة خطيّتهم... وبذلك سيكونون ضحيّة إبداعهم.

بينما كان الغولم يشقّ طريقه عبر الشوارع المَكسوّة بالثلوج، شعر بعودة الأثير الذي أخذ يتزايد حوله. ففرك العصا المعدنية على رأسه من جديد. وعد نفسه، قريباً.

* * *

في لندن، كان أميركيّ يُدعى السيد فينش يلّمع نظّارته من ماركة كارتييه بانثير، ويدّرع مكتبته الفاخر جيئةً وذهاباً. كان تبرّمه قد تحوّل إلى قلق عميق.

أين يمكن أن تكون غُسنير؟ لماذا لا أستطيع الوصول إليها؟

كان يعلم أنّ عالِمة الأعصاب التشيكيّة قد حضرت محاضرة كاثرين سولومون في قلعة براغ الليلة الماضية، قبل أن تُرسل إليه رسالة مُثيرة للقلق بشأن الكتاب الذي تعتزم سولومون نشره قريباً. لم تكن أخباراً سارّة. وقد وعدته غُسنير بأن تتّصل به لتُطلّعه على المُستجدّات. غير أنّه، حتّى هذه اللحظة، لم يسمع منها شيئاً، وكان الفجر على وشك أن يبزغ. فقد راسلها واتّصل بها مراراً، من دون جدوى.

ستّ ساعات مرّت... وغُسنير دقيقة في مواعيدها... هذا لا يشبهها إطلاقاً.

كان السيد فينش قد تعلّم الإصغاء إلى حدسه، ولا سيّما أنّه بلغ القمّة في مجاله بالاعتماد على إحساسه الداخليّ. غير أنّ حدسه يُنبئ الآن أنّ أمراً خطيراً قد وقع في براغ.

الفصل 3

كان هواء الشتاء مُنْعِشًا وقارسًا وهو يتسرّب إلى رثني روبرت لانغدون، الذي اندفع جنوبًا على طول شارع كريزوفينيتسكا، تاركًا خلف خطواته الطويلة أثرًا وحيدًا فوق الغطاء الثلجي الرقيق على الرصيف.

لطالما بدت له مدينة براغ غامضة؛ وكأنّها لحظة مُتجمّدة في الزمن. فبعد أن نجت من الدمار الكبير الذي أصاب مُدنًا أوروبيةً أخرى إبان الحرب العالمية الثانية، ظلّت العاصمة التاريخية لبوهيميا مُتلاثلةً بأفقي معماريّ أخاذ، يحتفظ بجميع أبنيتها الأصلية، التي كانت تشكيلة فريدة وأصيلة من الطرز الرومانسكي والقوطي والباروكي والآرنوفو والنيوكلاسيكي.

كان لقب المدينة -ستوفيجياتا- يعني حرفيًا "ذات الأبراج المثة"، وإن كان العدد الحقيقي للأبراج والقباب في براغ أقرب إلى سبعة. وفي الصيف، كانت المدينة تُضاء أحيانًا ببحر من الكشافات الخضراء؛ في مشهد مُبهّر قيل إنّه ألهم هوليوود في تصوير مدينة الزمرد في فيلم "ساحر أوز"؛ تلك الوجهة الأسطورية التي - شأنها شأن براغ - اعتُقد أنّها مكانٌ حافلٌ بالإمكانات الغامضة. أثناء عبوره شارع بلاتنيسكا وهو يُهرول، شعر كأنّه يجري بين صفحات كتاب تاريخ. إذ ارتفعت إلى يساره الواجهة الهائلة لمجمع كليمنتينوم؛ وهو مبنى يمتدّ على مساحة هكتارين، ويضمّ برج المراقبة الذي استخدمه الفلكيَّان تيخو براهي ويوهانس كبلر، فضلًا عن مكتبة باروكية بديعة تحتوي على أكثر من عشرين ألف مجلّد من المؤلفات اللاهوتية القديمة. كانت تلك المكتبة أحبّ غرفة إلى قلب لانغدون في براغ، وربّما في أوروبا كلّها. وقد زارها مع كاثرين في اليوم السابق لمشاهدة أحدث معارضها.

الآن، بينما كان ينعطف يمينًا عند كنيسة القديس فرنسيس الأسيزي، رأى أمامه مباشرة المدخل الشرقي لأحد أشهر معالم المدينة، مُضاءً بالوهج الكهربائي لمصابيح شوارع براغ الغازية النادرة. يُعدّ كارلوف موست، أو جسر كارل، من أكثر الجسور رومانسيةً في العالم. فقد بُني من الحجر الرملي البوهيمي، ويصطفّ على جانبيه ثلاثون تمثالاً لقديسين مسيحيين. يمتدّ الجسر لأكثر من نصف كيلومتر عبر نهر فلتافا الهادئ، محميًا من طرفيه بأبراج حراسة ضخمة. وكان في السابق طريقًا تجاريًا حيويًا بين أوروبا الشرقية والغربية.

ركض لانغدون عبر قوس البرج الشرقي، وخرج ليرى طبقةً ثلجيةً صافيةً تمتدّ أمامه. كان الجسر مُخصّصًا للمشاة فقط، ومع ذلك، في تلك الساعة، لم تُعكّر صفحة الثلوج البيضاء أيّ آثار أقدام.

فكر لانغدون: أنا وحيد على جسر كارل، هذه لحظة لا تتكرر.

كان قد وجد نفسه وحيداً من قبل في متحف اللوفر أمام الموناليزا، لكن الظروف آنذاك لم تكن مُمتعة بقدر ما هي الآن.

تمددت خطوات لانغدون أكثر وهو يستقرّ على إيقاع ثابت. وبحلول الوقت الذي بلغ فيه الضفّة الأخرى للنهر، كان يجري بخفّة من دون عناء. على يمينه، برزت الجوهرة الأثمن والأعزّ للمدينة، مُتلائيّة أمام الأفق المُظلم.

قلعة براغ.

تعدّ القلعة أضخم مُجمّع قلاع في العالم؛ فهي تمتدّ على أكثر من نصف كيلومتر من بوابتها الغربيّة إلى طرفها الشرقيّ، وتشغل مساحة تقارب خمسة ملايين قدم مربّعة. تُحيط أسوارها الخارجيّة بستّ حدائق رسميّة، وأربعة قصور مُنفصلة، وأربع كنائس مسيحيّة، من بينها كاتدرائيّة القديس فيتوس المهيبة، التي تُحفّظ فيها جواهر التاج البوهيميّ، إلى جانب تاج القديس فينسيلاس؛ الحاكم المَحبوب الذي خُلد اسمه في ترنيمة الميلاد الشهيرة.

وبينما كان لانغدون يمرّ تحت البرج الغربيّ لجسر كارل، ابتسم وهو يستعيد ذكرى الحدث في قلعة براغ في الليلة الماضية.

تعرف كاثرين كيف تكون لجوجة.

فقبل أسبوعين فقط، اتّصلت به لاستدراجه إلى براغ قائلة: "تعال إلى محاضرتي يا روبرت! إنّه التوقيت المثاليّ؛ ستكون في عطلة الشتاء، والرحلة هديّة منّي".

فكر لانغدون في عرضها المرح. فقد جمعت بينهما دائماً مودةً أفلاطونيّة واحترام مُتبادل، وكان يميل إلى إلقاء الحذر جانباً وقبول اقتراحها العفويّ.

أجاب: "العرض مُغرٍ يا كاثرين، فبراغ أسرة فعلاً، لكنني حقاً—"

غير أنّها قاطعتة قائلة: "دعني أختصر الأمر. في الحقيقة، أنا أحتاج إلى مُرافق، ها قد قلّتها بصراحة، أحتاج إلى رفيق في مُحاضرتي".

انفجر لانغدون ضاحكاً: "ألهذا السبب اتّصلتِ؟ عالمّة مشهورة عالمياً... وتحتاجين إلى مُرافق؟"

أجابت: "بعض الزيّنة، يا روبرت. ثمة عشاء رسميّ بالبذلات السوداء مع رعاة الحدث، ومن ثمّ سألقي كلمة في قاعة مشهورة؛ فلاد... شيء ما".

قال: "أقاعة فلاديسلاف؟ في قلعة براغ؟"

قالت: "بالضبط".

انبهر لانغدون حين سمع ذلك. فمحاضرات جامعة تشارلز الفصلية واحدة من أرقى الفعاليات في أوروبا، لكن يبدو أنها مرموقة أكثر مما تخيل.

قال: "هل أنت متأكدة من أنك تريدين اختصاصي رموز إلى جانبك في عشاء رسمي؟"

أجابت مزاحمة: "لقد دعوت جورج كلوني، لكنّ بذلته في المصبغة".

تأوّه لانغدون: "هل جميع علماء الوعي لجوجون هكذا؟"

قالت: "فقط المُميّزون منهم. وسأخذ جوابك على أنه مُوافقة".

يا للفرق الذي صنعه أسبوعان فقط! ابتسم لانغدون وهو يُفكّر في ذلك، وقد بلغ الجانب الآخر من جسر كارل. لقد أثبتت براغ فعلاً سمعتها كمدينة عجيبة... كمحفزة بقوى قديمة. لقد وقع أمر ما هنا...

لن ينسى لانغدون يومه الأوّل مع كاثرين في هذا المكان الغامض، وكيف ضاعا معاً في متاهة من الشوارع المرصوفة بالحصى... وركضاً يداً بيد تحت المطر الخفيف... واحتميا تحت قوس قصر كينسكي في ساحة البلدة القديمة... وهناك، وهما يلهثان، في ظلّ برج الساعة... تبادلّا أوّل عناق لهما، وبدا طبيعياً على نحو مُدهش بعد عقود من الصداقة.

سواء أكانت براغ هي السبب، أم التوقيت المثالي، أم تدبير قوّة خفية - لم يكن لانغدون يدري - لكنّ تلك اللحظة أشعلت تفاعلاً غير متوقّع بينهما، أخذ يزداد قوّة يوماً بعد يوم.

* * *

في الجهة الأخرى من المدينة، استدار الغولم عند المنعطف الأخير وبلغ مبناه مُنهكاً. ففتح الباب الخارجي، ودخل البهو الضيق لمسكنه.

كان المدخل مُظلماً، لكنّه اختار ألاّ يضيء المصباح. وبدلاً من ذلك، تسلّل عبر ممرّ ضيق إلى درج خفيّ، صعدته في العتمة، مُشبّهاً بالدرازين ليستدلّ به. كانت ساقاه تؤلّمانه، وتحتجّان مع كلّ خطوة، لذا شعر بالامتنان حين وصل أخيراً إلى باب شقّته. وبعد أن مسح الثلج بعناية عن حذائه، أدخل المفتاح في القفل، وفتح الباب، ثمّ ولج إلى الداخل.

كانت شقّته غارقة في ظلام دامس.

تماماً كما صنعتها.

كانت جدرانها وأسقفها مطليّة باللون الأسود القاتم، والنوافذ محجوبة بستائر ثقيلة. بدت أرضياتها المُلَمّعة باهتة ومُعتمّة، لا تعكس ضوءاً، والأثاث فيها شبه معدوم.

ضغط الغولم على المفتاح الرئيس، فاشتعل في أرجاء الشقّة اثنا عشر مصباحاً فوق بنفسجيّ، نشرت وهجاً بنفسجياً خافِئاً على الأشياء فاتحة اللون، فتحوّل منزله إلى مشهد من

عالم آخر - أثيرِي مُتلائي - وشعر بالراحة على الفور. كان التجوّل في هذا الفضاء يمنحه إحساسًا بالانجراف في فراغ عميق... يعوم من غرضٍ مُضيءٍ إلى آخر.

ولّد غياب الضوء الطيفي الكامل بيئة "مُحايدة زمنيًا"؛ عالمًا غير زمني، لا يتلقّى جسده فيه إشارات يومية. كانت واجبات الغولم تتطلب منه أن يعمل في ساعات غير مُنتظمة، وقد حرّر غياب الضوء إيقاعه الحيوي من تأثير الزمن التقليدي. أما الجداول المُنتظمة فترفّ يخصّ الأرواح الأكثر بساطة، غير المُثقلّة.

إنّها تحتاج إلى خدماتي في أوقات غير مُتوقّعة؛ ليلاً ونهارًا.

تابع سيره في العتمة، حتى دخل غرفة الملابس وخلع رداءه وحذاءه. أصبح عاريًا من العنق إلى أسفل، يتوهّج جلده بلون باهت تحت الضوء البنفسجي، لكنّه تجنّب النظر إليه. فقد تعمّد أن يكون ملاذّه بلا مرايا، باستثناء مرآة يد صغيرة يستخدمها لدهن الطين على وجهه.

فمنظر جسده المادي يُثير اضطرابه دائمًا.

هذا الجسد ليس جسدي.

لقد ظهرت فيه فحسب.

مشى الغولم حافي القدمين إلى الحمام، ثمّ فتح دوش الاستحمام ودخل تحته. نزع قلنسوته المُغطّاة بالطين الجافّ، وأغمض عينيه، رافعًا وجهه إلى تيّار الماء الدافئ. وجد الماء مُطهرًا وهو يُذيب الطين المُتجكّر، ليسيل على جسده، ويجري في البالوعة في دوامة داكنة.

وحين شعر أنّه تخلّص من كلّ آثار أنشطته في الليلة الماضية، خرج من الحمام وجفّف

جسده.

كان الأثير يشدّه بقوة أكبر الآن، لكنّه لم يمدّ يده إلى عصاه.

لقد حان الوقت.

كان الغولم لا يزال عاريًا حين شقّ طريقه عبر الظلام نحو الملاذ الذي أنشأه لتلقّي هذه الهبة. وفي الظلام الدامس، تقدّم إلى الفراش المصنوع من القنب، المُثبت في وسط الغرفة. وبكلّ الاحترام الواجب، تمدّد عليه عاريًا، واستلقى على ظهره في وسطه تمامًا.

بعد ذلك، أدخل كرة سيليكون تشنّباً وبُيبي مُثقّبة في فمه... وترك الأثير يتحرّر.

الفصل 4

وصل لانغدون إلى مركز ستراهوف للسباحة في اللحظة نفسها التي كان الموظف يفتح فيها المبنى، فقال في سرّه: أنا أول الواصلين هنا أيضًا. فبرأيه، ما من متعة أكثر ترفاً من أن يمتلك المرء حوضاً أولمبياً بطول خمسة وعشرين متراً له وحده. توجه إلى الخزانة التي استأجرها، وارتنى لباس السباحة الضيق، ثم أخذ حماماً سريعاً، والتقط نظارة فانكويشر الواقية، قبل أن يتوجه نحو الحوض.

كانت مصابيح الفلوريسنت العلوية قد اشتغلت حالاً، والقاعة لا تزال غارقة في عتمة شبه كاملة. فوقف لانغدون على حافة الحوض، وأصابه قدميه فوق الماء، يحدّق إلى الصفحة الملساء التي بدت أشبه بمرآة سوداء هائلة.

معبداً أثينا. فكّر مُستحضراً كيف كان الإغريق القدماء يمارسون العرافة بالانعكاس من خلال التحديق إلى برك مُظلمة لاستشراف المستقبل. تصوّر كاثرين نائمة في غرفتهما في الفندق، وتساءل إن كانت هي مستقبله؛ فوجد العازب القديم هذه الفكرة مُشوّقة ومُقلّقة في آنٍ.

شدّ لانغدون نظّارته الواقية على عينيه، وأخذ نفساً عميقاً، ثم ألقى بنفسه فوق الماء واخترق سطحه. تحت الماء، ظلّ يتزلّق لثانيتين، قبل أن يركل بأسلوب الدلفين لمسافة عشرة أمتار، ويخرج إلى السباحة الحرّة.

ركّز على إيقاع تنفّسه، فانجرف إلى حالة شبه تأملية طالما منحتة إياها السباحة. فارتخت عضلاته، وانساب جسده الرشيق في الماء، مُندفعاً بقوة عبر الظلمة بسرعة مُدهشة لرجل في العقد السادس من العمر.

عادةً، كانت السباحة تُفَرِّغ ذهن لانغدون تماماً. لكن في هذا الصباح، وبعد أربع جولات، ظلّ عقله مُزدحماً بالأفكار... يستعيد لحظات من محاضرة كاثرين الالفة في الليلة السابقة.

وعيككم ليس من صنع أدمغتكم. في الواقع، الوعي غير موجود أصلاً في الرأس. وقد أثارَت هذه العبارة فضول جميع الحاضرين، غير أنّ لانغدون كان يعلم أنّ محاضرتها خدشت فحسب سطح ما سيتضمّنه كتابها المُرتَقَّب.

ترعّم أنّها توصّلت إلى اكتشاف مُذهّل.

أيّا يكن اكتشاف كاثرين، فهو لا يزال سرّاً. لم تُطلع عليه أحداً بعد، ولا حتّى لانغدون، مع أنّها لمحت إليه عدّة مرّات في الأيام الأخيرة، وباحت له بأنّ البحث الذي أجرته من أجل كتابها قد أدّى إلى اكتشاف لا يُصدّق. وبعد محاضرتها الليلة الماضية، تولّد لديه شعور

متعاضلماً بأن كتاب كاثرين قد يشتمل على إمكانات هائلة.

قال في سرّه: إنها لا تتجنب الجدل. فقد استمتع بمشاهدتها وهي تشير حفيظة التقليديين في القاعة.

قالت بصوتها الذي دوى في أرجاء قاعة فلاديسلاف: "للعلم تاريخ طويل من النماذج المعبية؛ نظرية الأرض المسطحة، والأرض كمركز للنظام الشمسي، والكون الثابت... كلها نظريات باطلة، ومع ذلك، كانت تؤخذ على محمل الجد، ويُعتقد أنها حقائق. لكن، لحسن الحظ، إن أنظمتنا الاعتقادية تتطور عندما تواجه تناقضات لا تفسير لها".

أمسكت كاثرين بجهاز تحكّم صغير، فانطلقت الشاشة خلفها لتعرض نموذجاً فلكياً من العصور الوسطى؛ النظام الشمسي الذي يضع الأرض في المركز. قالت: "طوال قرون، كان هذا النموذج الجيو-مركزي يُعتمد كحقيقة مُطلقة. لكن مع مرور الزمن، لاحظ الفلكيون حركات كوكبية لا تنسجم معه. ومع تزايد هذا الشذوذ ووضوحه..". ضغطت زرّاً آخر، مُتابعة: "بنينا نموذجاً مختلفاً".

عندئذٍ، ظهرت على الشاشة صورة حديثة للنظام الشمسي. وهذه المرة، كانت الشمس في مركزه. أضافت: "هذا النموذج الجديد فسّر كلّ الظواهر الشاذة، وأصبحت مركزية الشمس واقعنا المُعتمد اليوم".

جلس الجمهور صامتاً، فيما تقدّمت كاثرين إلى مُقدمة المنصة.

قالت: "وبالمثل، مضى زمن كانت فيه فكرة كروية الأرض مثيرة للسخرية، لا بل هرطقة علمية. ففي النهاية، لو كانت الأرض كروية، أما كانت المحيطات لتنسكب خارجها؟ أما كان كثيرون منا مقلوبين رأساً على عقب؟ مع ذلك، بدأنا نرى تدريجياً ظواهر تتعارض مع نموذج الأرض المسطحة؛ كظل الأرض المُنحني في خسوف القمر، والسفن التي تغادر الأفق وتختفي من الأسفل إلى الأعلى، ثم، بالتأكيد، ماجلان الذي دار حول الكرة الأرضية". ابتسمت، قائلة: "عفواً، حان وقت نموذج جديد".

أوما الحضور برؤوسهم وقد ارتسمت على وجوههم ابتسامات مرحّة، فيما قالت كاثرين بصوت اكتسب نبرة جدية: "أيها السيّدات والسادة، أعتقد أن تطوّراً مُماتلاً يحدث اليوم في مجال الوعي البشري. فنحن على وشك أن نشهد تحوّلاً جذرياً في فهمنا لطبيعة عمل الدماغ، ولماهية الوعي... لا، بل ولطبيعة الواقع نفسه".

فكر لانغدون: طموح لا يُستهان به.

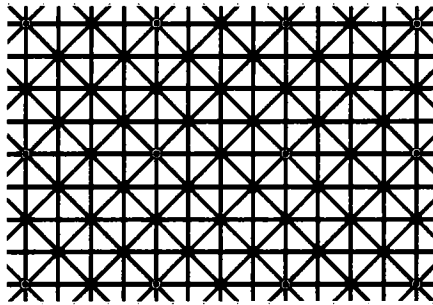
تابعت كاثرين: "وكما هو الحال مع كلّ النظريات البالية، يواجه النموذج الحالي للوعي البشري تحدياً مُتصاعداً بفعل ظواهر مُتواترة يعجز عن تفسيرها... ظواهر تحقّقت

منها بدقّة مُختبرات علم الوعي حول العالم، وظلّت البشريّة تشهدا على مدى قرون. ومع ذلك، لا تزال العلوم التقليديّة ترفض التعامل مع وجود هذه الظواهر، أو حتّى الاعتراف بها كحقائق. وتسارع، بدلاً من ذلك، إلى تسخيفها، على أساس أنّها مُجرّد مُصادفات شاذّة، لتُدْرَج باستخفاف تحت عنوان "ما فوق الطبيعيّ"، والذي بات مُرادفًا لعبارة، "هذا لا يمتّ إلى العلم بصلة".

أثارت عبارتها بعض التملّص في آخر القاعة، لكنّها واصلت الكلام غير آبهة. قالت بثقة: "في الواقع، أنتم جميعاً تعرفون هذه الظواهر ما فوق الطبيعيّة. لا، بل لها أسماء مثل: الإدراك الحسيّ الفائق... التوقّع... التخاطر... وعلى الرغم من تصنيفها على أنّها فوق طبيعيّة، إلّا أنّها في الحقيقة طبيعيّة تمامًا، لا بل تحدث يوميّاً، سواء أكان ذلك في مختبرات علميّة في إطار تجارب تخضع لأقصى درجات المراقبة... أم في العالم الحقيقيّ من حولنا". ساد القاعة صمتٌ مُطيق.

تابعت كاثرين تقول: "والسؤال المطروح اليوم ليس ما إذا كانت هذه الظواهر حقيقة أم لا؛ لأنّ العلم قد أثبت بالفعل أنّها كذلك. بل السؤال الحقيقيّ هو التالي: لماذا لا يزال كثيرون منّا عاجزين عن رؤيتها؟"

ثمّ ضغطت على أحد الأزرار، فظهر على الشاشة خلفها شكلٌ مألوف. شبكة هيرمان. عرف لانغدون هذه الخدعة البصريّة الشهيرة، التي تظهر فيها نقاط سوداء وتختفي بحسب موضع تركيز العين على الرسم. وبينما بدأ الحاضرون يخبرون الأثر بأنفسهم، سرت همسات الدهشة في القاعة.



قالت كاثرين في ختام حديثها: "أعرض عليكم هذا المثال لسبب بسيط، لتذكّر أنّ الإدراك البشريّ مُثقلٌ بالبقع العمياء. فكثيراً ما ننشغل بالنظر إلى الاتجاه الخاطئ... بحيث نعجز عن رؤية ما هو ماثل أمام أعيننا تمامًا".

كانت سماء الصباح لا تزال حاليّة السواد عندما غادر لانغدون مركز السباحة، وعاد أدراجه إلى أسفل التلّ. جعله تأمله المائيّ الذي استمرّ ثلاثين دقيقة يشعر بالسكينة، وسرعان ما أصبحت نزهته المُنفرّدة عائداً إلى الفندق من أوقات يومه المُفضّلة. وبينما كان يقترب من النهر، أضاءت الساعة الرقميّة في مركز المعلومات السياحيّة مُعلنة 6:52 صباحاً. قال لانغدون في نفسه: ما زال لديّ مُتسع من الوقت، وكان لا يزال يأمل العودة إلى كاثرين، وإقناعها بإلغاء اجتماع الثامنة صباحاً مع بريغيتا غِسنير. فقد أرغمت عالمة الأعصاب كاثرين تقريباً على القدوم إلى مختبرها في جولة هذا الصباح، وكانت كاثرين مُهذّبة للغاية بحيث لم ترفض.

عندما وصل إلى جسر كارل، رأى أنّ طبقة الثلج الناعمة لم تعد نقيّة، بل تخلّلتها آثار أقدام أشخاص آخرين استيقظوا باكراً. وحين وصل إلى الجسر، بدا برج جوديث إلى يمينه، وكان الجزء الوحيد الباقي من البناء الأصليّ الذي يعود إلى العصور الوسطى. وفي الأفق، ارتفع برج الحراسة "الجديد" العائد إلى القرن الرابع عشر. هناك، كانت تُعرّض الرؤوس المقطوعة على مسامير، كتذكير لكلّ من يشكّك في حكم آل هابسبورغ.

يقال إنّ المازّة ما زالوا يسمعون أنينهم.

كانت كلمة "براغ" تعني حرفياً "العتبة"، وكان لانغدون يشعر دائماً وكأنّه يعبر عتبة كلّما زار هذه المدينة. فعلى مدى قرون، ظلّت حكايات هذه المدينة الساحرة مُشبعة بالأساطير والأشباح والأرواح. وحتى اليوم، لا تزال كُتبيات الإرشاد السياحيّ تؤكد أنّ للمدينة هالةً خارجيّةً يمكن لكلّ من يفتح قلبه أن يشعر بها.

أنا لستُ واحداً منهم في الأرجح؛ هذا ما ظنّه لانغدون. ومع ذلك، بدا له جسر كارل هذا الصباح وكأنّه من عالم آخر، مع الثلج المُتساقط برفق، مُشكّلاً هالات طيفيّة مُضيئة حول مصابيح الغاز.

لطالما كانت براغ مركزاً للغموض في أوروبا. ففيها، مارس الملك رودولف الثاني علوم التحويل الخفيّة سرّاً في مختبره تحت الأرض المعروف بـ "مراة الخيمياء". وجاء إليها جون دي وإدوارد كيللي. وفيها وُلِد الكاتب الغامض فرانز كافكا، وكتب روايته السرياليّة الظلاميّة "المسخ". تابع لانغدون سيره على الجسر، فوق نظره على فندق فور سيزنز من بعيد، المُطلّ مباشرة على ضفّة نهر فلتافا، والذي تغوص أساساته عميقاً في مياهه. ومن فوق السطح المتلألئ، كانت نوافذ الطابق الثاني الذي يقع فيه جناحهما لا تزال غارقة في الظلام.

لا بدّ أنّ كاثرين لا تزال نائمة. لم يُفاجئه ذلك، بالنظر إلى الكابوس الذي أبقاها مُستيقظة معظم الليل.

عندما وصل إلى ثلث هذا الجسر الضخم تقريبًا، مرّ بالقرب من تمثال القديس يوحنا نبيوموك، فسرت قشعريرة في جسده وهو يتذكر: *لقد قُتِلَ في هذا المكان بالذات*. كان الملك قد أمره بانتهاك سرّ الاعتراف والإفصاح عمّا سمعه من الملكة، لكنّ رجل الدين رفض، فحكم عليه الملك بالتعذيب، ثم ألقى به من على هذا الجسر.

كان لانغدون غارقًا في أفكاره حين لفت نظره مشهد غريب أمامه. ففي منتصف الجسر تقريبًا، كانت ثمة امرأة مُشّحة بالسواد تقترب منه. خيّل إليه أنّها عائدة من حفلة تنكرية، إذ كانت تضع على رأسها قطعة زينة غريبة، أشبه بتاج تعلوه ستّ أشواك سوداء رفيعة تنبعث مباشرة من جمجمتها، مُتّجهة إلى الأعلى على شكل هالة سوداء تُحيط برأسها... ارتجف لانغدون. تاج شعاعي؟

كان هذا التزامن الغريب في رؤية تاج شعاعيّ هذا الصباح صادمًا بعض الشيء ومُقلِّعًا، لكنّه ذكر نفسه بأن ارتداء الأزياء الغريبة عادة شائعة في براغ. مع ذلك، كلّما اقتربت المرأة، بدا المشهد أكثر غرابة. إذ كانت تسير وكأنّها في غيوبة، تحدّق بعينيها الواسعتين أمامها من دون أيّ تعبير. كان لانغدون على وشك أن يسألها إن كانت بخير، حين لمح ما تحمله في يدها.

عندئذٍ، تجمّد في مكانه.

لكن هذا... مستحيل!

كانت المرأة تحمل رمحًا فضيًّا.

تمامًا كما في كابوس كاثارين...

حدّق لانغدون إلى السلاح المُدبّب، وتساءل برعب عمّا إذا كان هو نفسه يحلم الآن. وعندما مرّت بمحاذاته، أدرك أنّه توقّف عن المشي، وقد شلّته الحيرة. حين عاد إلى رشده، استدار نحوها ونادى مُحاولًا لفت انتباهها.

صاح: "عذرًا! يا آنسة؟!"

غير أنّها لم تتوقّف، كما لو أنّها كانت عاجزة عن سماعه.

"مرحبًا!" ناداها وهو واقف في مكانه، لكنّ المرأة مرّت بجانبه كطيفٍ هائم... كروح عمياء تنقاد عبر الجسر بقوة خفية.

همّ لانغدون بالركض خلفها، لكنّه لم يخطُ سوى خطوتين قبل أن يتوقّف فجأة؛ إذ باغته هذه المرّة رائحة ننته. ففي أعقاب تلك المرأة العجيبة، كانت تفوح رائحة لا تخطئها الأنوف... الموت.

كان تأثير الرائحة فوريًّا على لانغدون، إذ غمره شعور عارم بالخوف.

يا إلهي! لا... كاثرين!

بدافع عفوي، استدار لانغدون مُبتعدًا، وهو يُخرج هاتفه من جيبه بجنون، ويجري مُسرِّعًا على طول جسر كارل. وبينما كان يركض نحو الفندق، وضع الهاتف على فمه وصاح: "سيرى، اتصلي بالرقم مئة واثنى عشر!"

عندما أُجريت المكالمة، كان لانغدون قد عبر الجسر ووصل إلى شارع كريزوفينسكا. أعلن صوت: "معكم مئة واثنى عشر، ما حالتكم الطارئة؟"

صرخ لانغدون وهو ينعطف يسارًا وينطلق عَدْوًا على الرصيف المُظلم باتجاه الفندق: "فندق فور سيزنز براغ! عليكم إخلاء المكان حالًا!"

"عذرًا، ما اسمك من فضلك؟"

"روبرت لانغدون، أنا أمي—"

غير أن سيارة أجرة خرجت من مرأب أمامه، فاصطدم بجانبها بقوة، وسقط هاتفه على أرض الشارع المُغطاة بالثلج. فالتقطه على عجل، وتابع جريه، لكنّ الاتصال كان قد انقطع. لم يعد هذا مُهمًا، فمدخل الفندق يلوح أمامه مباشرة.

دخل البهو لاهثًا، فرأى المدير وناداه: "على الجميع الإخلاء فورًا!"
كان رجال الشرطة قد رحلوا، لكنّ بضعة نزلاء كانوا يستمتعون بقهوتهم الصباحية، فرفعوا رؤوسهم بدهشة.

عاود لانغدون الصّراخ مُوجِّهًا كلامه إلى المدير: "الجميع في خطر! اخرجوا!"
فأسرع الرجل نحوه، وملامح الرعب تعلو وجهه: "بروفيسور، أرجوك! ما الأمر؟!"
لكنّ لانغدون كان قد اندفع بالفعل نحو جرس الإنذار المُثبَّت على الحائط. ومن دون تردّد، حطّم الزجاج وشدّ المقبض.

على الفور، دَوّت أجراس الإنذار. فاندفع لانغدون خارج الردهة، وركض في الممرّ الطويل إلى المُلحق الذي يقع فيه جناحهما. عندما وصل إلى الجزء الخلفي من الفندق، تجاهل المصعد، وصعد الدرج المُؤدّي إلى الردهة الخاصة، ثمّ فتح الجناح الملكي، واندفع إلى الداخل وهو يُنادي بصوت عالٍ في الظلام.

صرخ لانغدون: "كاثرين! استيقظي! الحلم الذي رأيته...!" ضغط على مفتاح الإضاءة الرئيس، واندفع إلى غرفة النوم، إلّا أنّه وجد السرير خاليًا. أين هي؟! ركض إلى الحمام؛ لا أحد. فتملّكه اليأس، وراح يبحث في بقية أرجاء الجناح. ليست هنا؟!

في تلك اللحظة، بدأ جرس كنيسة قريبة يُقرع بنغمة جنائزية، فامتلاً قلب لانغدون برعب طاغٍ، وأحسّ أنّه لن يتمكن من الخروج من الفندق في الوقت المناسب. مدفوعًا

بفطرة البقاء وحدها، انطلق نحو النافذة البانورامية، وألقى نظرة إلى مياه فلتاها العميقة تحت المبنى.

امتدّت صفحة النهر السوداء الملساء تحته مباشرة، فيما ارتفع صوت الجرس أكثر. حاول أن يفكر، لكن لم يبقَ أيّ مجال للتفكير، بل وحدها فطرة الإنسان الأقوى-الرغبة في البقاء- كانت الحاكمة.

من دون تردّد، جذب لانغدون النافذة بعنف وفتحها، ثمّ تسلّق الحافة. فاندفع هواء الشتاء البارد والثلجيّ من حوله، لكنّه لم يُفْلِح في تهدئة هلعهِ. إنّها فرصتك الوحيدة.

وقف على طرف الحافة، ثمّ أخذ نفساً عميقاً، وألقى بنفسه في الظلام.

الفصل 5

شهق روبرت لانغدون وهو يلتقط أنفاسه.

فقد صدمت مياه نهر ثلثاها الجليدية جسده ببرودة كادت تشلّه. وبينما كان يكافح ليظلّ طافيًا، أحسّ بثقل ثيابه المُبتَلّة يجره إلى الأسفل. كاثرين...

نظر إلى الأعلى، نحو نافذة الطابق الثاني التي قفز منها، غير أنّ الانفجار الذي خاف منه... لم يقع. كان فندق فور سيزنز لا يزال قائمًا، سليمًا تمامًا.

في وهج أضواء الطوارئ الساطعة، كان النزلاء يتدفّقون من المخرج الجانبيّ إلى شرفة واسعة تُطلّ على أرصفة الفندق التي تعانق النهر.

وبينما كان يناضل ليطفو على سطح الماء، أدرك فجأة أنّ التيار يجرفه بعيدًا، وأنّ رصيف الفندق يُعدّ فرصته الوحيدة للصعود قبل أن يسحبه التيار مع مجرى النهر.

حاول أن يتماسك ويتجنّب الذعر، فجرّب السباحة الحرّة نحو الرصيف، لكنّه استطاع بصعوبة رفع ذراعَيْه؛ إذ كان قميصه القطنيّ المُشبع بالماء أشبه بمرساة تُثقل جسده، والماء البارد بدأ يضغط على جهاز دورته الدموية. وسرعان ما أحسّ بالإنذارات الأولية لانخفاض حرارة جسده من خلال الألم الذي استبدّ بكاخليّه ومِعصمَيْه.

اسبح، يا روبرت...

لجأ إلى سباحة الصدر بحركات مُربّكة، وهو يُصارع التيار في سبيل التقدّم نحو رصيف الفندق. ألقي نظرة إلى ما ورائه، وخشي أن يُسحب إلى الشلال القريب في مجرى النهر، مع أنّه كان يعلم أنّه سيغيب عن الوعي ويغرق قبل أن يبلغ الحافة بكثير.

حاول، تَبَا!

بينما كانت ذراعاه تدفعانه عبر الماء، عادت إلى ذهنه بقوة صورة المرأة ذات التاج الشعاعيّ الأسود. ربّما كان غطاء الرأس مُصادفةً عجيبة... لكن ماذا عن رمحها؟ ورائحة الموت؟

مستحيل.

لا تفسير لذلك.

للحظة، تساءل لانغدون عمّا إذا كان لا يزال نائمًا، عالقًا في كابوس شديد الوضوح؛ كذاك الذي عاشته كاثرين الليلة الماضية. لا. فقد أكّد له البرد القارس، ونبض قلبه المحموم أنّه مُستيقظ. وكما يمكن لأيّ شخص غاص في جليد البركة أن يشهد، إنّ بداية الانخفاض

الحادّ في حرارة الجسم جلبت معها سلسلة فريدة من الحالات العقلية: الصدمة، والذعر، والتأمل، وأخيرًا، القبول.

قال في سرّه: استغلّ حالة الذعر هذه، واسبح بجهد أكبر.

مال لانغدون بجسده مع التيار، وأخذ يسبح بحركات مضطربة باتجاه الرصيف، مُحاولًا تجاهل الألم المُتزايد. لكن، مع كلّ قدر من الجهد كان الألم يشتدّ، فيما بدا له أنّ صوت نظام إنذار الفندق يعلو أكثر. إنني أقرب. لسعت المياه الجليدية عينيه، وبدأ بصره يضعف.

صار الرصيف قريبًا الآن، أشبه بكتلة مظلمة في وهج أضواء الحراسة. فحثّ لانغدون نفسه على بلوغه، وبذل جهدًا أخيرًا. وحين لامست يده شيئًا صلبًا، لم تستطع أصابعه المُخدّرة أن تتحسّس الخشب الخشن إلّا بصعوبة، فما بالك أن تتمسّك به. وهكذا، جرّ نفسه بيديه على طول الرصيف حتّى بلغ السلم المعدنيّ الصغير المُثبت هناك. وبما تبقى له من قوّة، تسلّقه مُترنّحًا، ليسقط كجثة هامدة على الرصيف، فيما راحت المياه تنساب من ثيابه المُبتلة.

تمدّد لانغدون بلا حراك، مُرتجفًا ومُنهكًا، وقد أدرك أنّه لا يزال في خطر. سأتجمّد هنا سريعًا؛ عليّ أن أدفئ جسدي.

زحف على ركبتيه، ونظر إلى الفندق. كانت الشرفة قد امتلأت بالنزلاء، وكثيرون منهم يقفون على الثلج بأردية الحمام. استدار لينظر إلى جسر كارل، الذي بدا كأنّه بطاقة بريدية؛ بمصايحه الغازية التي تتوهج بدفء وسط الثلج المُتساقط.

لقد رأيت ما رأيت.

سمع وقع قدميّين مُسرعتيّن على الرصيف، ما لبث أن تلاه صراخ المدير وهو يقترب منه بعينين جاحظتين: "سيد لانغدون!" توقّف مُترنّحًا فوق السطح المُغطّى بالثلج، وتابع يسأل: "هل أنت بخير يا سيدي؟! ماذا حدث هنا؟!"

فأوما لانغدون برأسه وهو يرتجف: "أنا... ظننتُ... أنّه... حريق؟!"

هزّ لانغدون رأسه وهو يتنفّض من شدّة البرد: "لا..."

عندئذٍ، صاح الرجل بنبرة خرجت عن ودّه المُعتاد، وامتزجت بالغضب: "فلماذا ضغطت على جرس الإنذار إذًا؟!"

قال لانغدون بصوت مُتقطع: "ظننت... أنّه كان ثمة خطر."

سأله المدير: "خطر ماذا؟!"

حاول لانغدون أن يجلس، لكنّ رأسه كاد ينفجر من شدّة الصداخ، فيما بدأت أعراض انخفاض الحرارة تتجتاح جسمه.

ركض حارس أمن الفندق مُسرِّعاً على الرصيف، وانضمَّ إليهما. فمدَّ الرجل مفتول العضلات يده، وسحب لانغدون بعنف لينهض، رافعاً إياه بقبضتين قويتين من تحت إبطيه، بحيث شعر لانغدون أنه غير واثق ممَّا إذا كان الحارس يساعده على النهوض أم يقيد حركته.

قال المدير وهو يحدِّق إليه بإصرار: "لماذا ضغطتَ على جرس الإنذار يا سيدي؟" أجاب لانغدون، وقد بدأت أسنانه تصطك: "أنا آسف... كنتُ مُشوَّساً".

"أسبب رجال الشرطة في البهو؟ لقد أخبرتك أنَّ الأمر ليس بذي أهمية!" بدا المدير وكأنَّه يتمالك نفسه بصعوبة. "أحتاج إلى أن أعرف... هل من الآمن العودة إلى الداخل؟" رأى لانغدون أنَّ النزلاء ما زالوا يتدفقون من مخرج الطوارئ الخلفي، وتخيَّل الفوضى عند المدخل الرئيس للفندق. لا أستطيع أن أشرح لهم ذلك؛ سيظنون أنني فقدت عقلي.

قال المدير بنبرة تزداد غضباً: "بروفيسور لانغدون، أريد جواباً! لديَّ أربعمئة نزيل واقفين تحت الثلج. هل المبنى آمن، نعم أم لا؟ هل بإمكان النزلاء العودة إلى الداخل؟" ارتسمت أمام لانغدون من جديد صورة المرأة المُتوجِّعة بالتاج الأسود الشعاعي... والرمح الفضِّي... ورائحة الموت التنتنة. لا بدَّ من وجود تفسير آخر، فالعالم لا يسير بهذه الطريقة! تماسك يا روبرت.

أخيراً، أوماً لانغدون برأسه قائلاً: "نعم... أعتقد أنَّ المكان آمن. أنا آسف للغاية. كما قلت... كنتُ مُشوَّساً—"

قال المدير للحارس: "أطفئوا جهاز الإنذار!" فأفلت الحارس لانغدون على الفور. وبينما كان هذا الأخير يتمايل على ساقَيْه المرتجفتين، أخرج الحارس جهازه اللاسلكي وبدأ يصيح بالأوامر، في حين أجرى المدير اتِّصلاً عبر هاتفه المحمول.

خلال ثوانٍ، هدأت صفارات الإنذار، وحلَّ محلُّها هدير سيَّارات الطوارئ البعيدة المُقتربة. فأغمض المدير عينيه، وأخذ نفساً عميقاً، ثمَّ زفر ببطء من خلال شفَّتيه المَزمومَتين. بعد ذلك، أعاد فتح عينيه، ونفض بهدوء الثلوج عن بذلته الداكنة.

قال المدير هامساً من بين أسنانه المُطبقة: "بروفيسور لانغدون، عليَّ أن أستقبل السلطات. سيرافقك رجل الأمن إلى جناحك، لكن لا تبارح الفندق، فالسلطات ستحتاج إلى التحدُّث إليك".

أوماً لانغدون برأسه في إشارة تفهِّم. وفيما مضى المدير مُسرِّعاً، قاد الحارس لانغدون عبر مدخل خدمات أصغر إلى درج خلفي. كان حذاؤه الرياضي يصدر صوت خطيِّ مُبلِّلة وهو يتبع الرجل صعوداً إلى الجناح الملكي. هناك، وجد الباب مفتوحاً، والأنوار مُضاءة، تماماً كما تركها. أمره الحارس: "ريستانتني تادي"، مُشيراً بيده نحو الغرفة.

لم يكن لانغدون يتكلم التشيكية، لكن لغة جسد الحارس كانت واضحة وضوح الشمس: ادخل ولا تغادر الغرفة. أوماً لانغدون مُجدّداً، ثم دخل الجناح بمفرده، وأغلق الباب خلفه. كانت النافذة البانورامية التي قفز منها لا تزال مفتوحة على مصراعَيْها، فيما بدت الأزهار المُنسّقة على الحافة ذابلة من شدّة البرد. كانت أزهار التوليب الحمراء والبيضاء والزرقاء هدية من السفارة الأميركية إلى كاثرين تكريماً لها على محاضرتها المُرتقبة، وقد حملت ألوان العلمين الأميركي والتشيكي معاً.

فأغلق لانغدون النافذة، وهو يتذكّر أنّ عادة "التطريح" - أي رمي الضحايا من النوافذ العالية - هي التي أشعلت حروب الهوسيت وحرب الثلاثين عاماً. ولحسن الحظّ، كانت نافذة فندقه أدنى بكثير من برج قلعة براغ. وعلى الرغم ممّا سبّبه من فوضى هذا الصباح، إلّا أنّه شكّ في أن يشعل ذلك حرباً جديدة.

قال في سرّه: عليّ أن أتحدّث إلى كاثرين وأخبرها بما رأيته. فذلك اللقاء على جسر كارل شوّش أفكاره على نحو غير مُعتاد. وعلى الرغم من انفتاح كاثرين على كلّ ما يُسمّى الظواهر الخارقة للطبيعة، إلّا أنّه لا يتوقّع أن تتمكّن من إعطائه تفسيراً لما حدث. على أمل أن تكون قد أرسلت له رسالة لتخبره أنّها غادرت الفندق بسلام، مدّ يده إلى جيوب بنطاله الرياضي المُبلّل ليُخرج هاتفه، لكنّه لم يجده. في الأرجح، هو الآن في قاع نهر فلتافا.

ارتجف جسده من شدّة البرد وهو يُسرّع إلى غرفة النوم ليتّصل بها عبر هاتف الفندق. وبينما كان يمدّ يده إلى السّמاعة، رأى رسالة مكتوبة بخطّ اليد على الطاولة المجاورة للسريّر. غير أنّه في حالة الذعر التي انتابته، لم يلاحظها في البداية.

—

قررتُ الذهاب سيراً على الأقدام إلى مواعيدي في مختبر الدكتور غُسنير. كما ترى، لست الوحيد الذي يمارس الرياضة اليوم! سأعود عند الساعة العاشرة صباحاً. قدّم لي عصيراً عند عودتي! ☺

—ك

تنفّس لانغدون الصعداء.

كاثرين بخير. هذا كلّ ما أريد معرفته.

شعر بالارتياح، فذهب مباشرة إلى الحمام، ثم فتح صنوبر الدش، ووقف تحته بكامل ملابسه.

الفصل 6

كان الأثير قد انقضى، وتمدد الغولم عارياً فوق حصير القنب.

بلغت رحلته ذروتها، كما يحدث دائماً، مع موجات من النشوة وإحساس جارف بالارتباط الروحيّ بكلّ شيء. إذ كان تلقّي الأثير نشوة غير جسديّة؛ موجة مُتصاعدة من السعادة الباطنيّة التي تفتح بوابة تُمكنه من إلقاء نظرة على الحقيقة كما هي.

كثيراً ما يُسخر من رحلات كهذه بوصفها أوهاماً وهدياناً، لكنّ من رأى الحقيقة، لا حاجة له إلى ضيّقي الأفق. كان الغولم يعلم من خبرته أنّ الكون أكثر تعقيداً وأجمل بكثير ممّا يمكن لمعظم الناس أن يفهموا. فالعصريّون لم يقبلوا بعد الحقيقة التي أدركها القدامى بالفطرة... وهي أنّ الجسد البشريّ ليس سوى وعاء مُؤقّت لخوض تجربة هذا العالم الدنيويّ.

نزع الغولم الكرة المُثقّبة من فمه، ونهض وحيداً في ظلام مَلاذه. وفي غياب الضوء، تقدّم نحو الجدار المُقابل، وجثا على الوسادة أمام المزار الذي صنعه هناك.

تلمّس علبة الكبريت في العتمة، وأشعل عوداً، ثمّ أضاء الشموع الثلاث التي رتبها على الطاولة فوق مهد من الأزهار اليابسة. ومع تصاعد ضوئها المُرتجف، بانت الصورة المُعلّقة على الحائط أمامه.

ابتسم الغولم بحنان، وهو ينظر إلى وجهها.

أنتِ لا تعرفينني، لكنني هنا لأخلّصك من الشرّ.

كانت القوى الظلامية التي تُهدّدها هائلة، وذات نفوذ واسع. وهي الآن أشدّ ضعفاً من أيّ وقت مضى، ولا سيّما أنّها مُستتة.

فقد وجدت الحبّ.

أو هكذا تظنّ...

شعر الغولم بالغثيان وهو يدرك أنّها تهب نفسها لرجل لا يستحقّها.

إنّه لا يفهمك بقدري أنا.

لا أحد يفعل.

أحياناً، حين تكون مع حبيبها الجديد هنا في براغ، يسمح الغولم لنفسه بأن يراقب... كزائر في عقلها؛ فينظر بصمت، مُتمنياً بكلّ يأس لو يصيح في أذنّها: "إنّه ليس كما يبدو!"

لكنّ الغولم بقي صامتاً... مجرد فكرة في الظلال.

يجب ألا تعرف إطلاقاً أنّي هنا.

الفصل 7

تُعَدُّ دار نشر بنگوين راندوم هاوس، أكبر دار لنشر الكتب في العالم، إذ تُصدِر نحو عشرين ألف كتاب سنوياً، وتُحقِّق إيراداتٍ إجماليةً سنويةً تتجاوز خمسة مليارات دولار. يقع مقرُّها الرئيس في أميركا في شارع برودواي في وسط مانهاتن، ويشغل أربعةً وعشرين طابقاً من ناطحة سحاب زجاجية رمادية لامعة تُعرَف باسم برج راندوم هاوس.

في تلك الليلة، كانت المكاتب ساكنة. فقد تجاوزت الساعة منتصف الليل في المدينة، وحتى فرق التنظيف أنهت جولاتها. مع ذلك، أضواء مصباح وحيد في مكتبٍ في أحد أركان الطابق الثالث والعشرين.

كان المحرّر جوناس فوكمان بومة ليل. فعلى الرغم من بلوغه الخامسة والخمسين من عمره، إلّا أنّه ما زال يحيا بتوقيت مُراهق؛ يركض يومياً في سنترال بارك، ويذهب إلى عمله بينطال جينز أسود وحذاء رياضيّ. كان شعره الأسود المُتموِّج ما زال كثيفاً - لحسن حظّه - فيما بدأ الشيب يغزو لحيته التي يُحبّ أن يُشبَّهها بلحية جوزيف كورنراد.

أحبّ فوكمان صمت هذه الساعات المُتأخّرة؛ إذ يستمتع بعزلته وهو يُصارع الحبكات المُعقّدة والجُمل المُلتوية، ويكتب صفحات مُفصّلة من الملاحظات لمؤلّفيه. أمّا هذه الليلة، فقد أفرغ مكتبه ليُمضي ساعات الليل في أكثر ما يحبه في العالم... قراءة مخطوطة وصلت حديثاً من مؤلّفة جديدة.

إمكانات قائمة، وإن تكن لا تزال مجهولة.

تُشر معظم الكتب وتختفي من دون أن تترك أثراً، لكنّ القليل منها يأسر عقول القراء، ويصبح من الأكثر مبيعاً. وقد علّق فوكمان آمالاً كبيرة على هذا الكتاب الذي كان على وشك قراءته؛ فقد انتظر وصوله لأشهر. إذ كان الكتاب استكشافاً جريئاً لأسرار الوعي البشريّ؛ بقلم عالمة الوعي البارزة كاثرين سولومون.

في الواقع، قبل أكثر من عام بقليل، أحضر صديقه المُقرّب روبرت لانغدون كاثرين إلى نيويورك، لتعرض عليه فكرة كتابها أثناء الغداء. وكان عرضها مذهلاً بكلّ المقاييس، لا بل أكثر العروض التي سمعها فوكمان عن كتاب غير روائيّ حماسةً. وخلال أيام، سارع إلى إخراج الكتاب من السوق من خلال تقديم عقد نشر مُغرٍ لكاثرين.

كانت قد قضت السنة الماضية وهي تعمل في سرّية تامّة. وبعد ظهر هذا اليوم، اتّصلت به من براغ لتخبره أنّها أنهت تنقيح المخطوطة، وباتت جاهزة ليقرأها. وكان يشكّ في أنّ لانغدون

هو من شجّعها على التوقّف عن التعديلات المُتكرّرة واللجوء إلى رأي مُحرّرها. أيّا يكن السبب، إلّا أنّه واثق من أمر واحد: إن كانت مخطوطة كاثرين سولومون مُشوّقة ولو بنصف ما كان عليه العرض الذي قدّمته، فسيكون هذا الكتاب من أهمّ مشروعات حياته المهنيّة. *إنّه مُتور... وصادم... ومؤثّر على نطاق عالمي.*

كان السعي إلى فهم الوعي البشريّ يتحوّل سريعاً إلى الهدف الأسمى للعلم الحديث، لذا شعر فوكمان أنّ كاثرين سولومون على وشك أن تصبح صوتاً رائداً في هذا المجال. وإن صحّت نظريّتها، فإنّ العقل البشريّ ليس كما تخيّلّه الناس، والحقيقة ستُحدّث تحوّلاً عميقاً في نظرتنا إلى الإنسان، وإلى الحياة، لا بل وإلى الموت أيضاً. وتساءل فوكمان عمّا إذا كان على وشك أن يُحرّر عملاً بمستوى منشورات غيّرت مجرى الفكر. *تمهّل يا جوناس... فأنت لم تقرأه بعد.*

أعادته طريقة حادّة على بابه إلى الحاضر، فالتفت مُستغرباً قدوم زائر في آخر الليل. "سيد فوكمان؟" كان الشابّ الواقف عند بابه غريباً عنه. "نعم، من أنت؟"

فقال الشابّ مُعتذراً وهو يرفع بطاقته التعريفية التابعة للشركة: "آسف إن أخفّتك يا سيدي. أنا أليكس كونان، من قسم أمن البيانات. أنا أعمل ليلاً في الغالب، حين تكون حركة النظام مُنخفضة".

بدا الشابّ بشعره الأشقر الكثيف، وقميص بيتزا باباغاوي، أقرب إلى راكب أمواج منه إلى تقنيّ. فقال فوكمان: "كيف يمكنني مساعدتك يا أليكس؟" أجاب التقنيّ: "إنّه غالباً مجرد إنذار خاطئ، لكنّ نظامنا أطلق تنبيهاً بشأن بيانات تمّ الوصول إليها".

فكر فوكمان بانزعاج، بيانات تمّ الوصول إليها، لم يحدث أن تمّ اختراق بياناتنا. قال أليكس: "لا أظنّه أمراً مهماً، لكن أفلقتني إشارة مُستخدم غير موثوق، فهي نادرة لدينا. لكن الآن، بعدما رأيت أنّك فعلاً هنا في المبنى وقد سجّلت الدخول، شعرت بالراحة. ربّما كان السبب خللاً في حسابك لا أكثر".

فقال فوكمان مُشيراً إلى شاشته: "لكنني لم أسجّل الدخول، بل كان حاسوبي مُطفأً من أوّل الليل".

عندئذٍ، اتّسعت عينا الشابّ بشيء من الدهشة: "آه..."

بدأ القلق يساور فوكمان: "هل ثمة من اخترق حسابي؟"

قال التقنيّ بسرعة: "لا، لا. على الأقلّ ليس الآن. أيّا يكن المُخترق، فقد خرج".

"أَيَّا يَكُن؟ مَا مَعْنَى هَذَا؟!"

بدا الفنّي قلقاً الآن. "هذا يعني ببساطة أنّ أحدهم اخترق قسمك الشخصي، يا سيدي، من دون كلمة مرور أو بيانات اعتماد مُصرّح بها. ولا بدّ أنّ الفاعل يتمتع بمهارات قانونيّة، لأنّنا نملك جدار حماية عسكريّ -"

فقاطعهُ فوكمان وهو يستدير إلى مكتبه ويشغل حاسوبه: "مهلاً، إلّا أنّ تمّ الوصول بالضبط؟" فكّل حياتي المهنية محفوظة على ذلك الخادم اللعين!
قال الفتى: "لقد اخترق أحدهم أحد فضاءاتك الافتراضيّة الآمنة".
تجمّد فوكمان. هذا ليس الجواب الذي أردتُ سماعه.

كانت فضاءات العمل الافتراضيّة الآمنة (أو SVWs) ابتكاراً حديثاً نسبياً في بينغوين راندوم هاوس. فبسبب تزايد سرقة المخطوطات وقرصنتها، بدأ بعض محرّري الدار يشجّعون المؤلّفين الأكثر مبيعاً على العمل حصريّاً على خوادم الشركة للحصول على المزيد من الأمان. وكثير من أئمن المخطوطات لدى الدار كانت تُكتب وتُحرّر وتُحفّظ في مكان آمن واحد؛ ضمن نظام الشركة المُشفّر والمحمّي بجدران حماية في برج راندوم هاوس... إلى جانب نسخة احتياطية في ماريلاندا.

فكّر فوكمان في سرّه بقلق: لقد طلبتُ من كاترين سولومون أن تستخدم فضاء آمناً. كان قد شعر منذ البداية بإمكانات هائلة في اقتراحها، وشجّعها على الالتزام بأشدّ بروتوكولات الأمان صرامة في أثناء كتابة المخطوطة. وقد رحّبت بذلك، قائلة إنّها تحبّ فكرة تسجيل الدخول من بعد من أيّ مكان في العالم للعمل على كتابها، وهي مُطمئنة إلى أنّ كلّ موادّها محفوظة في مكان واحد، آمن ومؤمن بنسخ احتياطية تلقائيّة.

وكان معظم المؤلّفين يشاركونها هذا الشعور، مع تحفّظ واحد فقط: الخصوصية. إذ لا يرغب المؤلّفون عادةً في أن يراقب المُحرّر سير عمل مخطوطاتهم قبل أن تصبح جاهزة للعرض. ولهذا السبب، يستخدم كلّ مؤلّف فضاء افتراضياً يحميه بكلمة سرّ - رمز وصول لا يعرفه سوى المؤلّف - إلى أن يحين موعد تسليم المخطوطة.

قال فوكمان في نفسه: بالنسبة إلى كاترين، موعد التسليم اليوم.
إذ اتّصلت به في وقت سابق من براغ، وأعطته بارتباك رمز الوصول الخاصّ بها ليبدأ بالقراءة والتحرير. وسرعان ما أفرغ فوكمان مكتبه من أيّ عمل آخر، لكي ينغمس في مخطوطتها هذه الليلة، ويقرأها من الغلاف إلى الغلاف خلال عطلة نهاية الأسبوع. لكن، للمفارقة، جاءه هذا الفتى بقميصه القطنيّ من قسم أمن البيانات ليحمل له أنباء مُزعجة.
قال فوكمان، وقد جفّ حلقه: "أيّ فضاء عمل تمّت قرصنته؟ أيّ كتاب تحديداً؟"

أخرج الفتى قصاصة ورق من جيبه وبدأ يفتحها: "أظنه نوعاً من الكتب الرياضية؟"
ارتفعت معنويات فوكمان قليلاً، وشعر بشيء من الأمل.
قال أليكس وهو يقرأ الملاحظة: "ها هو، العنوان... SUM".
وعلى الفور، شعر المحرّر بالذُّعر.
تنفّس يا جوناس، تنفّس.
لم يكن SUM كتاباً رياضياً على الإطلاق، بل كان اختصاراً.
إنه يعني Solomon-Untitiled Manuscript، أي "سولومون -مخطوطة غير مُعنونة".

الفصل 8

أغمض روبرت لانغدون عينيه، مُستمتعاً بدفع نفّاثات دوش الاستحمام في الفندق، واستنشاق البخار الساخن عبر رئتيه. كان قد نجح أخيراً في التخلص من ثيابه المبتلة، لكنه لم يتمكن بعد من خلع غلالة الإرباك الذي أحاط بأحداث هذا الصباح.

فكّر في الاتصال بكاثرين لقطع جولتها في مختبر الدكتور غُسْنِر وإخبارها بما حدث، لكنه عدل عن ذلك. هذه مُحادثة غريبة علينا إجراؤها وجهاً لوجه عند عودتها. فحتى الآن، ومع أنه بدأ يستعيد دفء جسده وصفاء عقله، إلا أنه لم يتوصّل بعد إلى تفسير منطقي للشبح الذي رآه على جسر كارل، أو لردّ فعله.

كان من عادة لانغدون أن يواجه الضغوط بهدوء، لكن في هذا الصباح، استبدّ به الذعر، وتملكه خوف غريب طغى على عقله المنطقي... صورة المرأة، ورائحة الموت، والرمح، وقرع الأجراس الموحش. كانت الذكرى المروّعة تُعيد نفسها بلا انقطاع في رأسه.

كيف يُعقل أن يحدث ذلك؟

استعاد أحداث الليلة الماضية، قبل خمس ساعات فقط؛ حين صاحبت كاثرين باسمه، ونهضت من نومها مدعورة إثر رؤيتها كابوساً شديداً الوضوح. كان قد واساها وهي تروي له مدعورة كابوسها المُفزع.

لقد كان مُرعياً يا روبرت... كان ثمة ظلّ يقف عند طرف سريرنا. كانت مُتَشَبِّهة بالسواد... وعلى رأسها تاج شعاعيّ شائك... كما تحمل رمحاً فضياً. وكانت تفوح منها رائحة نتنه، كرائحة الموت. صرخت أناديك، لكنك لم تكن موجوداً! فهست المرأة في وجهي: "روبرت لن يبقَ ذلك". ثم دوى صوت انفجار هائل، وسَطَعَ وميض، واشتعلت الغرفة في سحابة من نار. لقد شعرت بجسدي يحترق...

حينذاك، وعلى الرغم من الرعب الواضح الناجم عن الكابوس، بدا كلّ عنصر فيه منطقيّاً بالنسبة إلى لانغدون. فالتاج الشعاعيّ كان قد ورد في محاضرة كاثرين تلك الليلة. وكان الرمح الفضّي موضوع حديث مع بريغيتا غُسْنِر بعد المحاضرة. ومن المحتمل أن تكون آثار رائحة الكبريت باقية من رحلتها إلى الينابيع الحارة في كارلوفي فاري. أمّا مشهد الانفجار في الفندق، فلا شك في أنه كان نتيجة أخبار مؤسفة شاهدها أمس عن تفجير في جنوب شرق آسيا.

كان لانغدون قد طمأن كاثرين، مُدكِّراً إيّاها بأنّ الشراب المحليّ الذي تناولته قويّ، وقد يسبّب الهلوسة، وأنّ توترها طبيعيّ؛ إذ كان المُحرّر على وشك قراءة مخطوطتها. قال

في سرّه: أعرف هذا التوتّر جيّدًا، وليس غريبًا أن تمرّ بليلة من الأرق.

لكن الآن، وهو واقف تحت دوش الاستحمام، بعد مرور ساعات على ذلك، لم يعد قادرًا على إيجاد أي تفسير منطقيّ لما رآه منذ قليل... على الأقلّ، وفق فهمه الحالي للواقع. وقد قيل إنّ الصدفة ليست إلّا ستارًا يُخفي ما نعجز عن إدراكه.

أنبأه حدسه بإصرار: ما رأيته لم يكن صدفة، فهذه استحالة إحصائية.

إما أنّ كابوس كاثرين توقع المستقبل... أو أنّ المستقبل تفاعل مع حلمها. أيّهما كان صحيحًا، ظلّ لانغدون في حيرة من أمره.

والأكثر غرابة أنّ محاضرة كاثرين الليلة الماضية تناولت هذه الظاهرة تحديدًا.

القدرة على استشعار أو توقّع الأحداث.

فمن على خشبة المسرح في قاعة فلاديسلاف، روت كاثرين بعضًا من أشهر الأمثلة على ذلك في التاريخ، بما في ذلك أحلام كارل يونغ، ومارك توين، وجان دارك. وأوضحت أنّ أبراهام لينكولن، قبل اغتياله بثلاثة أيام، روى حلمًا لحارسه الشخصي - وارْد هيل لامون - رأى فيه جثة مُغطّاة. وأعلن له الجندي الذي يحرسها: "إنّه الرئيس، لقد تمّ اغتياله على يد قاتل".

بعد ذلك، تابعت كاثرين وصف أغرب حالة على الإطلاق - مورغان روبرتسون - كاتب أميركيّ نشر رواية بعنوان عبث عام 1898، واستند فيها إلى كابوس حيّ راوده عن سفينة محيطات لا يمكن أن تغرق، تدعى تيتان، تصطدم بجبل جليديّ، وتغرق في إحدى أولى رحلاتها عبر المحيط الأطلسيّ. ومن المثير للدهشة أنّ الكتاب نُشر قبل أربعة عشر عامًا من كارثة تيتانيك. وقد وصف بناء السفينة ومسارها الملاحيّ وغرقها بدقة مُتناهية، ولم يتمّ تفسير هذه المصادفات قطّ.

قالت كاثرين وهي تُلقي نظرة مازحة باتجاه لانغدون: "أعلم أنّ في القاعة بعض المُشكّكين، لذا فكّرتُ في مشاركتكم تجربة أُجريت منذ سنوات على يد زميل لي في معهد علم الوعي. ومنذ ذلك الحين، أعادت مختبرات عدّة حول العالم تكرارها والبناء عليها. والفكرة كالآتي..."

وجّهت كاثرين جهاز التحكم نحو الشاشة خلفها، فظهرت صورة لمُتطوِّع يضع جهازًا لمراقبة الدماغ، جالسًا في الظلام أمام شاشة سينما صغيرة.

بدأت تقول: "بينما نقيس موجات دماغ هذا الشخص بأجهزة متخصصة، نعرض له سيلاً عشوائيًا من الصور. وتنقسم هذه الصور إلى ثلاث فئات واضحة: عنف مُروّع، أو هدوء ساكن، أو محتوى فاضح صريح. وبما أنّ كلّ نوع من الصور يُحفّز قسمًا مُختلفًا من الدماغ، يمكننا أن نراقب في الزمن الحقيقيّ اللحظة التي يُسجّل فيها وعيّه ظهورَ الصورة".

ضغطت مرّة أخرى، فظهر على الشاشة رسم بيانيّ لموجات دماغ تتخلّلها ذروات مُتقطّعة، مُلوّنة وفق نوع الصورة المَعروضة. قالت: "كما هو مُتوقّع، تضبيء الأجزاء المناسبة من الدماغ مع ظهور كل صورة. هل تتابعون معي؟" اهتزّت الرؤوس بحماسة.

قالت: "عظيم"، ثمّ كبرت المحور الأفقيّ للرسم البيانيّ. "هذا المُخطّط الزمنيّ شديد الدقّة، وهو يوضّح اللحظة التي عرض فيها الحاسوب كلّ صورة عشوائية، واللحظة التي قفز فيها نشاط الدماغ".

هنا، تساءل لانغدون إلى أين تريد أن تصل. غير أنّها أضافت وهي تضغط لعرض فترات زمنيّة أقصر على نحو مُتزايد: "إذا قمنا بتكبير الصورة أكثر، فسنصل إلى مستوى ألف جزء من الثانية... وسنكتشف وجود مشكلة كبيرة".

لم تقل شيئاً آخر، لكن بعد ثوانٍ، ارتفعت همسات الاستغراب في القاعة الواسعة، وكان لانغدون يُشاركهم الحيرة. فبحسب هذه الرسوم البيانيّة، كانت موجات دماغ المُتطوّع تقفز قبل أن يعرض الحاسوب الصورة.

قالت كاثرين: "كما ترون بوضوح، دماغ هذا الرجل يُسجّل كلّ صورة من الصور باكراً جداً. فالجزء المناسب من دماغه يُضيء قبل عرض الصورة بأربعمئة جزء كاملة من الثانية، وكأنّ وعيه يعرف مُسبقاً نوع الصورة التي سيشاهدها". ابتسمت مُضيفة: "وهذا ليس حتّى الأكثر إدهاشاً..."

ساد صمت مُطبّق.

قالت كاثرين: "اتّضح أنّ الدماغ لا يتفاعل قبل عرض الصورة فحسب... بل قبل أن يختار مُولّد الأرقام العشوائيّة في الحاسوب الصورة أصلاً! وكأنّ الدماغ لا يتوقّع الواقع... بقدر ما يولّده".

شأنه شأن بقيّة الحاضرين، أصيب لانغدون بالذهول. وكان يعرف أنّ هذه الفكرة تحديداً - أي أنّ الأفكار البشريّة تُشَيّ الواقع - تقع في صميم كثير من التعاليم الروحيّة الكبرى. بوذا: أفكارنا هي التي تشكّل عالمنا.

المسيح: كلّ ما تطلبونه حينما تصلّون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم.

الهندوسية: الإنسان يملك قوّة الإبداع.

وكان لانغدون يعلم أنّ صدى هذا المفهوم يتردّد أيضاً في كتابات المُفكرين العصريين والمُبدعين. فقد صرّح رائد الأعمال روبن شارما: "كلّ شيء يوجد مرّتين: أولاً في الذهن، ومن ثمّ في الواقع". أمّا بيكاسو، فقال في عبارته الشهيرة: "كلّ ما تستطيع تخيله فهو حقيقيّ".

فاجأه طرق على الباب، فغابت قاعة فلاديسلاف عن ذهنه. عاد إلى واقعه في الحمام، وسمع صوت بابه يُفتح. رأى لانغدون، من خلال باب الدش الشفاف صورة ضبابية لشخص يدخل، فتنفّس الصعداء. حمداً لله، لقد عادت باكراً. لا شك في أن كاثرين سمعت بحادثة الفندق وعادت بسرعة.

نادى وهو يُغلق الماء الساخن: "أنا هنا". وتجاوز عادته في الاغتسال بالماء البارد في آخر حمامه. لقد نلتُ ما يكفي من الماء البارد هذا الصباح. تناول المنشقة المعلقة خلف باب حجرة الاستحمام الزجاجي، ولقها حول خصره، ثم خرج نادياً: "كاثرين—" فجأة، توقف في مكانه.

لم تكن كاثرين هناك، بل كان يقف وجهًا لوجه أمام رجل حادّ القسّات، يرتدي سترة جلدية.

سأله لانغدون: "من أنتَ حَبّاً بالله؟!" وكيف دخلت إلى هنا؟! اقرب الدخيل بضع بوصات إضافية، وهو ينظر إليه بتعبير جامد: "السيد روبرت لانغدون؟" قالها بلهجة تشيكية ثقيلة. "صباح الخير، أنا النقيب ياناتشك من مكتب العلاقات الخارجية والمعلومات. لقد سمحت لنفسك بأخذ جواز سفرك من غرفة نومك والاحتفاظ به. أمل ألا تمنع."

أخذت جواز سفري؟ شعر بالعراء أكثر من أيّ وقت مضى، وهو واقف أمام هذا الغريب سائراً جسمه بمنشفة فحسب. قال بصوت مُرتجف: "عذراً، من أنتَ بالضبط؟" أشهر الرجل بطاقة تعريف، لكن بسبب البخار، لم يتمكن لانغدون من رؤية الكثير، باستثناء الشعار البارز للمنظمة؛ أسد يقف على قائمتيه الخلفيتين. قال في نفسه مُرتبكاً: الأسد الشامخ؟ كان هذا الرمز مألوفاً جداً، لا بل كان هو نفسه شعار مدرسته الإعدادية القديمة، غير أنه واثق تماماً من أن هذا الرجل ليس من أكاديمية فيليس إكستر.

قال الرجل بصرامة: "أنا من جهاز الاستخبارات الوطني التشيكي ÚZSI". قال لانغدون في نفسه: لكنك لا تبدو كعميل استخبارات. فقد كانت عيناه حمراوين دامعتين، وشعره الخفيف منكوشاً، وقيمه مُجعداً تحت سترته الجلدية.

قال المسؤول التشيكي، مُتقدماً خطوة ليجتاز خطاً غير مرئي بينهما: "سأقولها مرة واحدة فقط، سيد لانغدون. لقد أخليت منذ قليل فندقاً بخمس نجوم؛ إما أن تُقدّم لي سبباً وجيهاً لذلك، أو أعثقلك فوراً".

عجز لانغدون عن إيجاد الكلمات المناسبة، فقال مُتلعثماً: "أنا... أنا آسف للغاية، حضرة النقيب، من الصعب أن أشرح لك. لقد أخطأت".

ردّ الرجل بسرعة، من دون أن يُظهر أيّ تعبير على وجهه: "أتفق معك، لقد كان خطأً جسيماً. لماذا ضغطتَ على جرس الإنذار؟"

لم يجد لانغدون خياراً سوى قول الحقيقة: "ظننتُ أن انفجاراً سيقع".

لم يُبدِ الضابط أيّ ردّ فعل، باستثناء رعشة خفيفة حرّكت حاجبيّه الكثَّين. "هذا مثير للاهتمام. وما الذي كان سيُسبِّب هذا الانفجار؟"

أجاب لانغدون: "لا أدري... ربّما قنبلة".

قال الضابط: "فهمت، ربّما قنبلة. إذًا، خفتَ من وجود قنبلة في الفندق... ومع ذلك عدتَ راکضاً إلى الداخل وصعدتَ إلى جناحك؟"

أجاب لانغدون: "لتحذير صديقتي".

أخرج الرجل دفترًا صغيراً من سترته وقرأ منه: "أصديقتك هي الآنسة كاثرين سولومون؟"

شعر لانغدون بقشعريرة تسري في جسده لدى سماعه اسم كاثرين على لسان ضابط استخبارات تشيكيّ. كان الوضع يزداد خطورة لحظة تلو الأخرى. قال: "هذا صحيح، لكنّها كانت قد غادرت الفندق".

قال الرجل: "فهمت، فهمت. إذًا، بعد أن تأكّدت من أن صديقتك بخير، وبدلاً من النزول عبر السلالم، اخترتَ أن تخاطر بالموت غرقاً في نهر جليديّ، وتقفز من النافذة؟"

اعترف لانغدون: "لقد أصابني الذعر. فجأة، بدأت أجراس كنيسة تدقّ... بدا الأمر مشؤوماً".

قال الرجل بازدياء: "مشؤوم؟ اسمها صلاة التبشير يا بروفيسور. فالأجراس هنا تُقرع في ساعة مُحدّدة، لدعوة النّاس إلى صلاة الصّباح. ظننتُ أنّك تعرف ذلك".

قال لانغدون: "نعم، بالتأكيد، لكنّ فكري كان مُشوَّشاً، فقد جعلتني الأجراس أشعر وكأنّني... لا أدري... خارج الزمن. وكنتُ قد رأيتُ رجال شرطة في البهو سابقاً -"

"خارج الزمن؟ إذًا... قبلتك كانت موقوتة؟ مُعدّة للانفجار عند السابعة صباحاً؟"

لم تكن قبلتي! جاهد لانغدون ليُحافظ على هدوئه: "لا، كنتُ مُشوَّشاً فحسب، وتصرّفتُ تلقائياً. بالتأكيد، سأدفع تعويضاً عن -"

قاطعهُ الرجل، وقد لَان صوته قليلاً: "لا داعي للدفع يا سيدي. الناس تختلط عليهم الأمور، وهذه ليس مشكلة. ما أحاول فهمه هو سبب اعتقادك أن انفجاراً سيقع. من أين حصلتَ على هذه المعلومة؟"

قال لانغدون في نفسه: لا يمكنني إخباره. فالحقيقة غير معقولة، لا تُصدّق، والاعتراف الصريح قد ينقلب عليه. لن يصدّقني أبداً. فجأة، شعر لانغدون أنّه قد يحتاج إلى مُحامٍ.

ضغط الضابط قائلاً: "سيد لانغدون؟"

تحرك لانغدون في مكانه، مُمسِكاً منشفته حول خصره: "كما قلت، كنتُ مُربك الذهن؛ فقد وصلتني معلومات خاطئة".

ضيق النقيب عينيه، واقترب خطوة، ثم خفض صوته قائلاً: "في الواقع، بروفيسور، ليست هذه هي المشكلة. المشكلة هي أنك تلقيت معلومات صحيحة، لا بل صحيحة جداً".

قال لانغدون مذهولاً: "لا أفهم".

حدق الضابط إليه ببرود: "ألا تفهم؟"

فهز لانغدون رأسه نافيًا.

قال النقيب بنبرة جليدية: "في وقت مبكر من هذا الصباح، وفي هذا الفندق تحديدًا، عثرت فرقتي على قنبلة... وقامت بتفكيكها. كانت مُعدّة للانفجار عند الساعة صباحًا تمامًا".

الفصل 9

على ضوء الشموع الخافت، ألقى الغولم نظرةً أخرى على صورتها المُعلّقة على الحائط، ثم أطفأ الشموع، وخرج من مكانه.
أشعر وكأني بُعثت من جديد.

مغمورًا بوهج شقته، دخل غرفة ملابسه. كان رداؤه ذو القلنسوة وحذاؤه الضخم ذو النعل المُرتفع مُلقين على الأرض، بعد أن طرهما على عجل لكي يستقبل الأثير؛ وهي رحلة لا يخوضها إلا عاريًا، مُتجرّدًا، وفي عتمة تامة.

علّق الغولم زيّه من جديد بعناية، وهو ينفض عنه آثار الطين الجافّ العالق بالياقة. كان السياح غالبًا ما يجفلون لدى رؤيته، أمّا سكّان براغ، فيلقون عليه نظرة عابرة. فالمدينة مسرح للدراما والخيال، يجوب المُحتفلون شوارعها بانتظام، مُتَنكِّرين في هيئات شخصيّات مشهورة من تاريخها: أشباح، عشاق تعيسون، قديسون... وذلك المسخ الطيني الهائل.
أقدم أسطورة في براغ.

حارس غامض... مثلي تمامًا.

كان الغولم يعرف أسطورة المسخ الطيني عن ظهر قلب؛ لأنّها قصّته هو نفسه، روح حامية... حُبست في هيئة جسدية... وكُلّفت بالتخلّي عن راحة نفسها لتحمل آلام الآخرين. فبحسب الأسطورة التي تعود إلى القرن السادس عشر، استخرج رجل دين واسع النفوذ، عُرف باسم ماهارال براغ، طينًا رطبًا من ضفاف نهر فلتافا، وصنع منه مسخًا على أمل أن يحمي قومه. وبطقوس قديمة، نقش كلمة على جبهة الحارس الجامد، فانتفض المسخ الطيني فورًا، وقد امتلأ بروح من عالم آخر.

كانت الكلمة المحفورة على جبهته *Правда* —/ميت، وتعني "الحق".

سمّى الرجل صنيعة غولم - ومعناها "مادة خام" - في إشارة إلى الطين الذي جُبِل منه المسخ. ومنذ ذلك الحين، صار الغولم يجوب الشوارع، يحمي المُهدّدين، ويقتل الأشرار، ويصون أمن الجماعة.

لكن هنا، اتّخذت الأسطورة مُنعطفًا مظلمًا.

فقد غرق المسخ في الوحدة، وارتبك أمام العنف الذي ارتكبه، إلى أن انقلب على صانعه. نجا رجل الدين من هجوم المسخ بصعوبة، إذ مدّ يده بيأس ومسح أحد الحروف عن جبهة الغولم.

وبمجرّد محو حرف الألف (א)، تحوّلت كلمة ממת — إِمِت، الحقّ إلى מת میت، ومعناها مات.

מת מת صارت מת.

الحقّ صار... موتًا.

عندئذٍ، انهار المسخ جثّة هامدة. فوقف صانعه أمامه، ولم يُغامِر، بل سارع إلى تفكيك الجسد الطيني، وأخفى أشلاءه في علّية المَعبد القديم-الجديد في براغ. ويُقال إنّ الشظايا الترابيّة ما زالت موجودة حتى اليوم، تُطلّ على المقبرة العتيقة التي وُوري فيها رجل الدين الثرى.

فكّر الغولم وهو يُحدّق إلى زيه الداكن المُعلّق بلا حراك: تلك المقبرة هي التي بدأت رحلتي منها.

هو أيضًا كان قد استدعي ليكون حاميًا؛ وصيًا على المرأة التي علّق صورتها على جدار ملاذه. ولا يجوز لها أن تعرف بوجوده، أو بما فعله من أجلها. خصوصًا بما سَافعله قريبًا.

لقد قتل أساسًا واحدة من أدهى خونها، بريغيتا غُسْنِر. وما زال يسمع صدى صوتها وهي تبوح ببأس بكلّ ما اقترفته هي وشركاؤها المتآمرون.

كان بعض خونها هنا في براغ، في تناول يد الغولم. وآخرون على بعد آلاف الأميال؛ أصحاب نفوذ يتحرّكون في الظلال.

لن أجد الراحة حتى يُعاقب الجميع.

كان الغولم يعرف طريقة واحدة لتحقيق ذلك.

سأدمر كلّ ما أنشأوه.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل 10

هل قاموا بتفكيك قبيلة؟!

راحت أفكار روبرت لانغدون تدور في دوامة وهو يرتدي ملابسه في غرفة نومه في الفندق. لم يستطع أن يستوعب أن عملية التفجير قد أُحِبَّت فعلاً هذا الصباح، فضلاً عن الحادثة مع المرأة التي رآها على الجسر.

قبل دقائق قليلة، طلب إلقاء نظرة من كُتب على بطاقة هوية الضابط التشيكي، فسمح له الرجل بذلك على مضض، مؤكداً أنه أولدرينخ ياناتشك، ضابط برتبة نقيب، في الثانية والستين من عمره، ينتمي إلى جهاز المخابرات الوطني التشيكي. وأوضح له أن الاختصار يُشير إلى Úřad pro zahraniční styky a informac؛ أي مكتب العلاقات الخارجية والمعلومات ÚZSI، ويُنطق تمامًا مثل اسم الرشاش "أوزي".

كان شعار الوكالة، الأسد الشامخ، مُرفقًا بالشعار اللاتيني Sine Ira et Studio، أي "من دون غضب أو تحيز"، غير أن سلوك النقيب كان يشي بالاثنين معًا. أما ياناتشك، فكان واقفًا في مدخل غرفة نوم لانغدون طوال الدقائق الثلاث الماضية، يتجادل عبر الهاتف باللغة التشيكية، من دون أن يغفل عن مراقبته.

أتراه يظن أنني سأحاول الفرار؟

أنهى لانغدون ارتداء ملابسه، وشعر أخيرًا بالدفع في بطنه القطني الثقيل، وقميصه الصوفي ذي الياقة العالية، وكنزته السمكة من ماركة ديل. أخذ ساعة ميكسي ماوس العتيقة عن الخزانة ووضعها، مُدركًا أنه قد يحتاج اليوم إلى تذكير دائم ليبقى مرحًا.

صرخ ياناتشك غاضبًا في الهاتف: «Ne! Tady velím já»!

ثم أغلق الخط، واستدار إلى لانغدون قائلاً: "كان هذا chůva الخاص بك. إنه قادم إلى الغرفة".

chůva؟ لم يكن لانغدون يملك أدنى فكرة عما تعنيه الكلمة، لكن من الواضح أن النقيب غير مسرور بقدمه.

كان ياناتشك طويل القامة على نحو غير مألوف، مع انحناء في قامته تجعله يبدو وكأنه قد يهوي إلى الأمام في أي لحظة. تبعه لانغدون إلى غرفة الجلوس، وهناك، تصرّف الضابط كأنه في بيته؛ فأشعل المدفأة الغازية، وجلس على كرسي جلدي عميق، شابكًا ساقه النحيلتين كأرجل عنكبوت.

وما إن استقرّ في مكانه، حتى رنّ جرس باب الجناح، فأشار ياناتشك بيده إلى المدخل قائلاً: "افتح له".

تساءل لانغدون مرّة أخرى، وهو يسير في الردهة ليفتح الباب، *chûva*/الخاصّ بي؟ وقف في الردهة رجل أسود وسيم، في الثلاثين من عمره تقريباً، يماثل لانغدون في الطول - أي ما يزيد قليلاً على متر وثمانين سنتيمتراً - ذو رأس حليق، وابتسامة مُشرّقة، وملامح حادّة كأنّها منحوتة. كان أنيقاً على نحوٍ مثاليّ، في سترة زرقاء، وقميص ورديّ، وربطة عنق من ماركة فولار، ما جعله أقرب إلى عارض أزياء منه إلى الشخص الذي كان ياناتشك يُجادله عبر الهاتف قبل قليل.

مدّ الرجل يده وقال: "مايكل هاريس، تشرّفت بلقائك يا بروفيسور لانغدون". كانت لكتته أميركيّة، ربّما من ضواحي مين لاين. قال لانغدون وهو يصافحه: "شكراً لك". "نّياً تكون.

ابتسم هاريس قائلاً: "بادئ ذي بدء، أودّ الاعتذار. فقد كان على النقيب ياناتشك الاتّصال بمكتبي قبل استجوابك".

قال لانغدون: "فهمت"، مع أنّه لم يفهم شيئاً على الإطلاق. "مكتبك...؟" بدت الدهشة على هاريس: "ألم يُخبرك؟" "كلّا، بل قال إنّك *chûva* الخاصّ بي".

قطّب هاريس حاجبيه، ولم يتحرّك ليدخل الجناح: "لقد كان ياناتشك يسخر منك، *chûva* تعني/المرّيّة. أنا المُلحق القانونيّ للسفارة الأميركيّة، وقد جئت لمساعدتك". عندئذٍ، شعر لانغدون براحة بالغة لأنّه حصل على دعم قانونيّ، وأمل ألا يلاحظ الملحق أنّ لانغدون قد قضى تمامًا على أزهار التوليب باهظة الثمن التي أرسلتها السفارة كهدية ترحيب.

قال الملحق بهدوء: "تقتضي مهمّتي صون حقوقك كمواطن أميركيّ خارج البلاد، والتي - ممّا سمعته حتّى الآن - قد تمّ انتهاكها هذا الصباح". هزّ لانغدون كتفَيْه قائلاً: "كان النقيب ياناتشك قاسياً، لكن بالنظر إلى الظروف، أنا أتفهم سلوكه".

قال هاريس هامساً: "هذا لطفٌ منك، لكن أنصحك أن تكون حذراً. فالنقيب ياناتشك بارع في استغلال المجاملات بوصفها نقاط ضعف. ويبدو أنّ الوضع هنا... استثنائيّ؟" قال لانغدون في سرّه: ليست لديك أدنى فكرة، وكان المشهد الذي رآه على الجسر لا يزال يسبّب له الحيرة.

أضاف هاريس: "نصيحة أخرى... هذا الفندق وجسر كارل كلاهما يخضعان لرقابة مكثفة بكاميرات المراقبة، ما يعني أن ياناتشك يعرف بالفعل كل تفصيل مما جرى. إذاً، عليك قول الحقيقة؛ لا تكذب بتأتا".

دوى صوت ياناتشك من الداخل: "Čekám! هاريس!"

ردّ هاريس بصوت بدا وكأنه تشيكية ممتازة: "Už jdeme"، ثم التفت إلى لانغدون بابتسامة مطمئنة وقال: "هل نذهب؟"

وجدا ياناتشك جالساً أمام المدفأة، ينث دخان سيجارة بتر المَحليّة بهدوء، ويرفع رأسه لينفخ الدخان في الهواء.

هذا كثير على جناحنا المخصّص لغير المدخنين!

قال ياناتشك أمراً وهو ينقر سيجارته في أصيص نبات على الأرض: "اجلسا. بروفيسور، قبل أن نبدأ، أريد هاتفك". ومدّ يده الهزيلة.

فاعترض هاريس: "لا، حضرة النقيب، أنت لا تملك أيّ أساس قانوني— وهنا، تدخل لانغدون قائلاً: "هاتفي لم يعد معي، فقدته في النهر".

قال ياناتشك غاضباً وهو ينث سحابة دخان: "بالتأكيد! يا لها من مصادفة مريحة! اجلس".

جلس لانغدون وهاريس أمام ياناتشك.

قال النقيب: "بروفيسور، بينما كنت ترتدي ملابسك، انتقدت أسلوبني في التعامل مع هذا الموقف. قلت إنك صُدِمت لأنني لم أُخل الفندق فور عثورنا على القبلة".

قال لانغدون: "لقد فوجئت، لكن لم أكن أوجه لك انتقاداً—"

قاطعه ياناتشك مُوجِّهاً كلامه إلى الملحق: "سيد هاريس، يمكنك أن تشرح لأستاذنا أكثر؟" ثم أخذ نفساً آخر من سيجارته.

قال هاريس بهدوء: "بالتأكيد. هذه ملاحظة منطقيّة، ومع أنّني لا أستطيع التحدّث مباشرة عن أساليب النقيب ياناتشك الإجرائيّة، إلّا أنّني أوكد أنّ أفعاله تتوافق مع الاستراتيجية العامة لمكافحة الإرهاب. فالهجمات التي تحظى بتغطية إعلاميّة واسعة— حتّى لو فشلت— لا تؤدّي إلّا إلى تشجيع الإرهابيّين. والردّ الصحيح— إن أمكن— يتمثّل في إزالة التهديد، والتظاهر بأنّه لم يقع قطّ، وحرمان الإرهابيّين من أيّ دعاية".

قال لانغدون: "حسنًا". وتساءل في سرّه عن عدد الهجمات الإرهابيّة التي تُحبَط كلّ يوم من دون أن يعرف بها أحد.

مال ياناتشك إلى الأمام، وأسند مرفقيه إلى ركبتيه: "هل لديك أيّ أسئلة أخرى؟"

"لا، سيدي".

"جيد، لننتقل إذاً إلى سؤالي... لأنني أملك سؤالاً واحداً فقط، سؤالاً ما زلت ترفض الإجابة عنه حتى الآن". أخذ النقيب نفساً آخر من سيجارته، ثم تكلم ببطء، كما لو كان يكلم طفلاً: "بروفيسور... كيف عرفت بوجود القنبلة؟"

أجاب لانغدون: "لم أكن أعرف، كان الأمر مجرد -"

انفجر ياناتشك صائحاً: "لقد ضغطت على جرس الإنذار! كنت تعرف شيئاً! ورجاء يا بروفيسور، لا تقل لي مجدداً: الأمر مُعقّد. أعلم أنك باحث شهير، لكنني أيضاً رجل ذكي. وأعتقد أنني قادر على فهم تعقيداتك".

قال هاريس بهدوء: "سيد لانغدون، هذه لحظتك؛ قل الحقيقة فحسب".
أخذ لانغدون نفساً عميقاً، آملاً أن تنقذه الحقيقة.

الفصل 11

نقر المُحرّر جوناس فوكمان فأرة حاسوبه مرارًا؛ كآته يستجدي جهازه كي يبدأ التشغيل بسرعة أكبر. لم يكن من المُفترَض أن يمتلك حقّ الدخول إلى مساحة كاثارين سولومون الافتراضية الخاصة سوى شخصين على وجه الأرض: كاثارين نفسها، وفوكمان منذ هذا المساء فقط.

كيف يمكن لشخص ثالث أن يتمكّن من الدخول؟!

شعر فوكمان بالغثيان وهو يتخيّل ما يمكن أن يكون قد طاله الاختراق؛ كلّ أبحاث كاثارين العلمية، وملاحظاتها، والأهمّ من ذلك، المخطوطة نفسها. قال في نفسه وهو يراقب جهازه بقلق شديد في انتظار أن يعمل: **أسرع!**

خلفه، كان التقني الشاب يُطلّ من فوق كتفه، وهو يهمهم بتوتّر، ممّا زاد من اضطراب أعصابه. وحين أضاء الجهاز أخيرًا، انتقل فوكمان إلى المجلد المناسب، ونقر على الاسم المُستعار لقسم الخادم الذي يحمل اسم "SUM" أي "سولومون - مخطوطة غير مُعنّوة".

كان فوكمان قد كتب رمز دخول كاثارين على بطاقة ملفات، وحفظه بأمان في أحد الأدراج. ولكن قبل أن يتحرّك لاستعادته، أصدر الحاسوب صوتًا غير مألوف: ثلاث صفرات مُتقطّعة. فالتفت إلى الشاشة، مُتوقّعًا رؤية نافذة تسجيل دخول كاثارين، لكنّه فوجئ بدلًا من ذلك برسالة "خطأ" حمراء صارخة:

لم يتمّ العثور على القسم.

"ما هذا...؟!!" ضغط مجدّدًا على أيقونة SUM، فسمع ثلاث صفرات قصيرة، وتكرّرت الرسالة نفسها؛ لم يتمّ العثور على القسم. فاستدار نحو أليكس مذهولًا: "هل يعني هذا أن القسم بأكمله... اختفى؟!" لقد كان موجودًا بعد ظهر اليوم، حين جرّب كلمة مرور كاثارين. أين اختفى؟!

اتّسعت عينا التقني من شدّة ذهوله، فركع بجانب فوكمان مُستوليًا على لوحة المفاتيح والفأرة. حبس فوكمان أنفاسه، بينما راحت أصابع الشابّ تطير على الأزرار. بذل محاولة تلو أخرى، لكنّ النتيجة كانت نفسها. ثلاث صفرات عالية.

لم يتمّ العثور على القسم.

قال الشابّ مُحاولًا التماسك، لكنّ صوته كان يفضحه: "لا داعي للذعر، يا سيدي، فهذا يعني فحسب أن المخترقين - لإخفاء آثارهم - قاموا بتطهير القسم".

"تطهير؟"

"نعم، يا سيدي، أي حذفه. فبياناتكم -"

قاطعه فوكمان بغضب: "أعرف معنى الكلمة، شكرًا. أتقصد أن أحدهم حذف كل الأبحاث والمسودات المرتبطة بهذا العنوان؟"

"نعم، يا سيدي. فالحذف إجراء شائع بعد عملية الاختراق؛ لأنه يجعل تعقب الفاعلين أكثر صعوبة". وعاود الكتابة بسرعة محمومة، وأضاف: "لكن لا تقلق، فنحن نملك أنظمة احتياطية، وجميع بياناتكم محفوظة أيضًا في نسخة خارجية في مُستودع التوزيع التابع لنا بولاية ميريلاند. أنا الآن أحاول الدخول إليها لاسترجاعها".

تراقصت أصابع أليكس فوق لوحة المفاتيح وقال: "ما علينا سوى الوصول إلى القسم البعيد، ونقل -"

صدر مُجددًا الصوت المألوف لثلاث صفرات قصيرة، أعقبها المُربّع الحواريّ نفسه على الشاشة:

لم يتم العثور على القسم.

عندئذٍ، اتسعت عينا التقني أكثر، وحاول دخول الخادم الاحتياطي مرة أخرى، لكن النتيجة ظلت على حالها:

لم يتم العثور على القسم.

تمتم الشاب: "آه... لا".

شعر فوكمان أن الأرض تميد من تحته: هل حُذفت مساحة كائنين من كلا الخادمين؟! مع مخطوطتها وملاحظات؟!!

قفز أليكس كونان واقفًا، وتوجّه مُسرّعًا نحو الباب: "عليّ العودة إلى منصّتي فورًا يا سيدي. فأنا لم أر شيئًا كهذا من قبل، إنه اختراق بالغ الخطورة".
تبًا!

جلس فوكمان على كرسيه مذهولًا، فيما تلاشت خطوات الشاب في الرواق الفارغ. صرخ وراءه: "أحتاج إلى تلك الملفات يا أليكس! لقد وضعت مؤلّفتي عامًا كاملاً من عملها في عهدي!"

* * *

طوال الليل في لندن، كان السيد فينش يراقب مشهدًا مُتغيّرًا.

أولًا، بريغيتا غُسْنِر. فقد بعثت عالمة الأعصاب برسالة مُقلّقة للغاية بشأن مخطوطة كائنين سولومون، ثم اختفت بعد ذلك، وكأنّها تبخّرت. صمّت مطبق.

ثانيًا، كاثرين سولومون نفسها. فمنذ خمسٍ وثلاثين دقيقة فقط في براغ، أقدمت سولومون على فعلٍ غير مُتَوَقَّع، إلى حدٍّ لم يكن بالإمكان تجاهله. كان التدخّل الفوريّ أمرًا لا مَقَرَّ منه.

كان فينش قد فكّر في تنبيه رئيسه في الولايات المتّحدة، لكنّ الليل قد انتصف هناك، وقد مُنِح "سلطة عمليّاتٍ مُنفردة" لاتّخاذ قراراتٍ استراتيجيّة. كما أنّ مناصب رؤسائه في السلطة تطلّبت منهم إمكانيّة إنكار معقولة للعمليات الغامضة أخلاقيًا. عمليات كهذه، هذا ما فكّر فيه فينش، وهو يعلم أنّ زملاءه يفضلون ألا يعرفوا كيف يحقق نتائج.

لذلك، وبعد دقائق فقط من إطلاعه على ما أقدمت عليه سولومون، اتّبع حدسه، وضغط على الزناد، مُرسلاً كلمتين إلى الميدان. نفّذوا حالًا.

وقد أكّد اتّصاله الميدانيّ في براغ ونيويورك تلقّي الأمر.

الفصل 12

قال أولدرينغ ياناتشيك بحدّة، وهو يُلوّح بجهاز لوحيّ: "أهذه هي المرأة التي رأيتهَا؟" كانت الشاشة تعرض صورة فيديو مشوّشة لامرأة رأسها مطوّق بالأشواك السوداء وتحمل بيدها رمحًا.

جلس ياناتشيك والملحق هاريس أمام لانغدون بمواجهة المدفأة، فأجاب هذا الأخير، وقد عاوده الهلع: "نعم، هذه هي".

قال ياناتشيك: "وفقًا للكاميرات، كنتَ على الجسر، ثمّ مررتَ بهذه المرأة في منتصف الطريق، فتوقفتَ لتكلّمها، وفجأة، عدتَ جريًا إلى هنا وأخليتَ الفندق. ماذا قالت لك؟" قال لانغدون: "لا شيء. تجاهلتنني ومضت في طريقها".

ضحك ياناتشيك ساخراً: "ألم تقل شيئاً؟ بروفيّسور، ما دامت لم تنطق بكلمة... فما الذي أفرعك؟"

بدا الارتباك واضحًا على وجه هاريس أيضًا. قال لانغدون: "كانت ترتدي ذلك التاج الغريب ذا الأشواك... وتحمل رمحًا. وكانت تفوح من حولها أيضًا رائحة قويّة جدًّا..." أدرك لانغدون فورًا كم يبدو هذا الكلام غريبًا.

رفع النقيب حاجبيّه: "ألم تُعجبك رائحتها، فهربت؟"

"كانت تفوح منها رائحة... الموت".

حدّق إليه ياناتشيك: "الموت؟ وكيف هي رائحة الموت بالضبط؟"

"لا أدري... عفن، كبريت، تحلّل... الأمر مُعقّدٌ -"

قاطعها ياناتشيك بصوت غاضب: "بروفيّسور لانغدون! كيف عرفت أنّ هذا المبنى بحاجة إلى الإخلاء؟!"

تدخّل هاريس قائلاً: "حضرة النقيب، ماذا لو نُعطي الأستاذ لانغدون فرصة لشرح وجهة نظره؟"

أخذ ياناتشيك ينقر بقلمه على دفتريّه، من دون أن يُبعد نظره عن لانغدون الذي تنفّس بعمق. لا شيء لنخسره.

هكذا، بدأ يتحدّث بنبرة واقعيّة قدر الإمكان: "البارحة، ألقت زميلتي كاثرين سولومون مُحاضرة في قلعة براغ. وبعدها، عدنا معًا إلى هذا الفندق، وتناولنا شرابًا في المقهى بالأسفل. انضمت إلينا عالمة أعصاب تشيكيّة شهيرة - الدكتورة بريغيتا غِسْنِر - التي كان لها

دور أساسي في دعوة كاثرين إلى براغ. وأصرت الدكتورة غسنر على أن تجرب كاثرين الشراب المحلي، ففعلت، الأمر الذي سبب لها نومًا مضطربًا تلك الليلة".
كتب ياناتشيك ملاحظات مُقتَضِبة وقال: "تابع".

أردف لانغدون: "قراءة الواحدة والنصف من بُعد منتصف الليل، استيقظت كاثرين مدعورة من كابوس، وكانت غاية في الاضطراب. فأخذتها إلى هذه الغرفة، وأجلستها قرب المدفأة، ثم أعددت لها شايًا، وتركها تستعيد هدوءها. وعندما استراحت، عدنا معًا إلى النوم".
تمتم ياناتشيك ساخرًا: "كم هذا لطيف منك. لكن ما علاقة هذا بمسرحية الإخلاء التي قمتَ بها؟"

صمت لانغدون، مُفكِّرًا في أفضل طريقة لشرح الأمر. أخيرًا، استعدّ لردّ فعلهما، وقرّر قول الحقيقة، فقال بهدوءٍ قدر الإمكان: "كابوس كاثرين. فقد حلمت بانفجارٍ مُميت... في هذا الفندق". أدرك لانغدون أن أيًا من الرجلين لم يتوقع هذا الردّ.
قال هاريس بهدوء: "هذا أمر يبعث على القلق بلا شك... لكنّ تلك المرأة... على الجسر؟ لماذا هربت حين رأيتهما؟"

تنهد لانغدون وتحدّث ببطء: "في كابوس كاثرين، ظهرت امرأة قرب سريرنا في هذا الجناح. كانت مُتَشَبِّهة بالسود، وعلى رأسها...". أشار لانغدون إلى الصورة على الآياد، وتابع: "تمامًا ما تراه هنا؛ تاج أسود ذو أشواك. وكانت تحمل رمحًا فضيًّا، وتفوح منها رائحة الموت، وقالت إنّ كاثرين ستموت". توقّف قليلًا، ثم أردف: "وبعدها، في الكابوس، انفجر الفندق بأسره، ومات الجميع".
صرخ ياناتشيك: "هراء! بولُشيت! كما تقولون أنتم الأميركيّون... لا أصدّق كلمة مما تقول!"

ارتسمت على وجه هاريس أيضًا علامات الدهول.
قال لانغدون: "أنفهم ردّ فعلك. أنا نفسي ما زلت أحاول استيعاب الأمر، لكنني أقول الحقيقة. هذا الصباح، عندما رأيت المرأة نفسها التي ظهرت في حلم كاثرين مُتجسّدة أمامي، انتابني الذعر. خفت أن يكون الكابوس... لا أدري... إنذارًا".

ردّ ياناتشيك ساخرًا: "إنذار على شكل كابوس؟! ومتى وقع الانفجار في كابوس الآنسة سولومون العجيب؟" جعلت لكتته التشيكية الساخرة السيناريو يبدو أقلّ منطقيةً.
فكّر لانغدون قليلًا: "لا أعلم، لم تذكر وقتًا مُحددًا".

"ومع ذلك، قفرت من النافذة لتفرّ قبل الساعة صباحًا بالضبط؛ وهو الوقت نفسه الذي ضُبطت عليه القنبلة لتنفجر. كيف عرفت أنّ الانفجار سيقع في هذا الوقت؟!"

أجاب لانغدون: "لم أكن أعرف. لكن الأجراس بدأت تُقرع، ولسبب ما... اختلط كل شيء في ذهني -"

قاطعه ياناتشيك بحدّة، وهو يندفع نحوه مُهدّداً: "هراء! هراء! أنت تكذب!" فجأة، هبّ هاريس، ووقف في وجه ياناتشيك مُدافعاً: "حضرة النقيب، هذا يكفي." فاستدار نحوه ساخراً: "أحقاً؟ عند الساعة السابعة صباحاً، أي في التوقيت الدقيق الذي صُبِطَ عليه القنبلة، كان كلُّ من روبرت لانغدون وكاثارين سولومون خارج الفندق، وبمحض المصادفة. من الواضح أنّهما كانا خائفين على حياتيهما."

انفجر لانغدون غاضباً: "هذا كلام سخيف!"

"سخيف كحلم تفوح منه رائحة الكبريت؟!"

قال هاريس بحزم: "حضرة النقيب، لقد تجاوزتَ الحدود كثيراً."

صاح النقيب: "أي حدود؟! هجوم إرهابي كان على وشك أن يقع، والأدلة تشير إلى أنّ هذين الأميركيين كانا على علم مُسبق بالانفجار. أنا لا أقبل بحجة حلم سخيف كذريعة!" حدّق هاريس إلى ياناتشيك ولم يتراجع قيد أنملة. "أنت وأنا نعلم أنّه من غير المعقول أن يُخطّط روبرت لانغدون أو كاثارين سولومون لتفجير فندق؛ فهذا غير منطقي على الإطلاق."

"الأمر منطقي إذا أخذتَ في الحسبان أنّ لكاثارين دافعاً واضحاً."

هتف لانغدون مذهولاً: "أدافع لتفجير فندق؟!"

أجابه بإصرار: "بالتأكيد. ففي التحقيقات الجنائية، أ طرح دائماً على نفسي سؤالاً بسيطاً: من المستفيد من الجريمة؟ أيّا يكن ذلك الشخص، ومهما بدا احتمال ضلوعه في ذلك ضعيفاً، فهو يصبح المُشتبه به الأوّل بالنسبة إليّ."

تدخل هاريس مُعتزّضاً: "وأيّ فائدة يمكن أن تجنيها كاثارين سولومون أصلاً -"

قاطعه ياناتشيك وهو يلتفت مُجدّداً نحو لانغدون: "دعني أسألك، يا بروفيسور. فهمت أنّ الأنسة سولومون بصدد تأليف كتاب، أليس كذلك؟"

"صحيح". وعلى الرغم من أنّ كاثارين ذكرت كتابها ليلة أمس في محاضرتها، إلا أنّه شعر باضطراب إزاء معرفة هذا الرجل بأمره.

قال ياناتشيك: "علاوة على ذلك، فهمت أنّ هذا الكتاب يدعم وجود قوى خارقة للطبيعة مثل الإدراك الحسي الفائق، وتوقع المستقبل، وما إلى ذلك... وهو تخصص الأنسة سولومون. لذا، يبدو لي أنّ قصة إخباريّة عن حلم غامض أنقذ فندقاً مليئاً بالناس ستكون مُفيدة جداً لصدقة كتابها... ومبيعاته، أليس كذلك؟" حدّق لانغدون إلى الضابط غير مُصدّق.

قال هاريس مذهولاً: "حضرة النقيب، من الواضح أن كلامك -"

قاطعهُ ياناتشك: "هو التفسير الوحيد المُمكن".

قال لانغدون بنبرة هادئة: "سيدي... أتلمح إلى أن الإنذار والكابوس كانا... مجرد حيلة دعائية؟"

ابتسم ياناتشك ابتسامة ساخرة، وسحب نفساً طويلاً من سيجارته: "بروفيسور، بعد ثمانية وثلاثين عاماً من العمل في مجال التحقيق، ظننتُ أنني رأيت كل شيء. لكن اليوم، في عالمكم هذا، عالم وسائل التواصل، لا أفكّ عن الذّهل ممّا يفعله الناس من أجل التغطية الإعلامية... لكي يصبحوا "ترند" كما تقولون أنتم الأميركيون. كانت خطتكما بارعة في الواقع، لا بل آمنة وسهلة التنفيذ على نحو مذهل".

صرخ لانغدون: "أقول إن زرع قنبلة عمل آمن؟!"

لزم هاريس الصمت، بينما قال ياناتشك: "لقد ضمتُّما أن يكون آمناً. فالقنبلة التي عثرنا عليها صغيرة جداً، وموضوعة في القبر، بحيث تُلحق أقل قدر ممكن من الضرر. كما أبلغتُما عن وجودها بمكالمة من مجهول، لتتأكدا من العثور عليها قبل أن يُصاب أحد بأذى".

الكلاب البوليسية في البهو...

أضاف ساخراً: "وبالمناسبة، كان التاج الشائك لمسة ذكية؛ فهو لافت للغاية، ومن المستحيل أن يخفى عن كاميرات المراقبة".

انفضت معدة لانغدون وهو يقول: "سيدي، ما ذكرته أبعد ما يكون عن الحقيقة". ردّ ياناتشك: "إن كان هذا رأيك، فربّما لم تكن تعرف شيئاً من الحقيقة. وربّما أنت لا تعرف كاثرين سولومون بقدر ما تظنّ. ألا يمكن أن تكون قد دبّرت كل هذا من وراء ظهرك، واستعملت كاداة لها من دون أن تدري؟"

رفض لانغدون أن يهبط إلى مستوى الردّ، فتابع ياناتشك ببرود: "أنا بارع في كشف الحقيقة، بروفيسور، ولهذا أنا حريص على سماع رواية الآنسة سولومون. إذا كان كابوسها قد تحقّق فعلاً، فربّما هي بريئة، لكنّ هذا يعني أن كاثرين سولومون قادرة على توقّع المستقبل... وهذا سيجعلها مُميّزة جداً بلا شك. هل هي تتمتع بهذه القدرة المُميّزة يا سيّد لانغدون؟"

كانت نبرته الساخرة كافية لتُظهر بوضوح أن لانغدون وكاثرين دخلا معركة خاسرة سلفاً... مُدنيان حتّى تثبت براءتنا.

قال ياناتشك: "وهذا يقودني إلى سؤالٍ الأخير: أين الآنسة سولومون الآن؟"

أجاب لانغدون بحدة: "ذهبت للقاء زميلة".

"ومن تكون؟"

"عالممة الأعصاب التشيكية التي ذكرتها: الدكتورة غِسْنِر".

"وهل تلتقيان في مختبر الدكتورة غِسْنِر؟"

ارتبك لانغدون من معرفة الضابط بذلك.

قال ياناتشك: "اهدأ". ورفع ورقة في يده: "عثرتُ على هذه في غرفتكما، مع جوازَي سفركما".

إنها الورقة التي تركتها كاثرين. هذا يعني أن ياناتشك كان يختبره فحسب.

"في أي ساعة الاجتماع؟"

"الثامنة صباحًا".

نظر إلى ساعته مُشِيرًا: "أي بعد بضع دقائق فقط. وأين يقع هذا المختبر؟"

علم لانغدون الليلة الماضية أن مختبر غِسْنِر يقع في معَلم آمَن في براغ—يُدعى حصن الصليب—وهو حصن صغير يرجع بناؤه إلى العصور الوسطى، تمّ تجديده وتحويله إلى مُنشأة بحثية حديثة للغاية، على بعد أربعة كيلومترات من وسط المدينة.

شكّ لانغدون في أن ترغب كاثرين أن تُستجوب أمام غِسْنِر، لذا عرض عليه قائلاً: "سأتصل بكأثرين، أنا واثق من أنها ستعود فو—"

انفجر ياناتشك مُقاطِعًا: "أين المختبر؟!" ثم دفع هاريس جانبًا، ووقف على بُعد ستمِترات من وجه لانغدون قبل أن يُضيف: "سأعتلك في هذه اللحظة، بروفيسور، وستحتاج سفارتك إلى أسابيع لتخترق متاهة الإجراءات البيروقراطية".

بقي لانغدون ثابتًا في مكانه: "أرغب في التحدّث إلى السيّد هاريس على انفراد".

قال ياناتشك: "هذه فرصتك الأخيرة؛ أين يقع المختبر؟"

ساد صمت طويل، ثم جاء صوت المُتكلّم مثل طعنة في ظهر لانغدون. إذ قال هاريس ببرود: "حصن الصليب، على بُعد أربعة كيلومترات من هنا".

الفصل 13

شعر روبرت لانغدون أنه مجرم بينما كان النقيب ياناتشك يرافقه عبر ردهة الفندق. وعندما تجاوزا مكتب الاستقبال، رن هاتف ياناتشك، فانصرف النقيب ليُجيب على المكالمة.

همس هاريس في أذن لانغدون مُغتنِمًا لحظة انفراده به: "بروفيسور، أرجوك أن تفهم، النقيب ياناتشك يعرف مكان المختبر أصلاً، لكنه أراد أن يوقعك بتهمة عرقلة التحقيق. لذلك كشفتُ عن الموقع بنفسِي، كيلا يتمكن من اتهامك بعرقلة عمله، وإلا فسيعتقلك فوراً".
عليّ أن أشكركَ إذًا...؟

أنهى ياناتشك مكالمة وهو يصيح: "Dost řečí!", ثم اندفع عبر بهو الفندق نحو لانغدون مُضيقًا: "كفى كلامًا! سنغادر الآن!"

تبع لانغدون ياناتشك وهاريس بانضباط إلى الخارج، وكانت الثلوج تتناثر بخفّة. في فبراير، يتأخر بزوغ الفجر، لكنّ الشمس كانت قد أشرقت أخيرًا، ونشرت وهجًا رماديًا فوق المدينة. وبينما كانوا يتقدّمون نحو الرصيف، رفع هاريس نظره عن هاتفه وقال: "حضرة النقيب، لقد أبلغتُ السفارة".

ابتسم ياناتشك ساخرًا: "سعادة السفارة شخصيًا؟ ألسَتْ واثقًا من حكمك؟" ردّ هاريس ببرود: "حكمك هو الذي لا أثق به. وبالنظر إلى خطورة اتّهاماتك وإلى مكانة المتّهمين، من واجبي إشراك السفارة على أعلى مستوى".

فقال ياناتشك بازدراء وهو يلوّح بيده: "افعل ما تشاء. أنا والبروفيسور لانغدون سنتدبّر أمرنا من دونك".

ردّ هاريس بحزم: "أنت مُخطئ. سأصطحب السيّد لانغدون معي إلى السفارة. وسيكون في وسعه الانتظار هناك براحة أكبر، بينما تذهب لجلب الدكتور سولومون".

غير أنّ لانغدون لم تكن لديه أي نيّة في ترك كاثرين وحدها مع ياناتشك، وكان على وشك الاعتراض، عندما انفجر النقيب ضاحكًا: "سيّد هاريس، في وسعك الانصراف متى شئت. أمّا المُشتبه به، السيّد لانغدون، فسيرافقني إلى المختبر".

قال هاريس مُتحدّيًا: "المُشتبه به؟ لكنّك لم توجه إليه أيّ تهمة، وله كلّ الحقّ -" قاطعه ياناتشك بقسوة: "يسعدني أن أوجّه له تهمة إن أردت. الأمر ليس صعبًا، فقد أجلى نزلاء أحد أفخم فنادق براغ مُتذرّعًا بحجّة واهية عن حلم خيالي".

ساد الصمت، بينما كان هاريس يزن خياراته. وبعد لحظة، التفت إلى لانغدون، وأمارات القلق البالغ تكسو وجهه: "بروفيسور، لقد طلبتُ اجتماعًا طارئًا مع السفيرة. هل ستكون بخير بمفردك نصف ساعة تقريبًا؟"

أجاب لانغدون بثقة: "بالتأكيد".

قال هاريس: "حسنًا، سأطلع السفيرة على الوضع، ثم سألحق بك إلى المختبر، وربما ترافقني بنفسها".

ابتسم لانغدون بامتنان: "شكرًا لك. أنا واثق من أننا سنجد مخرجًا ما إن نتحدث إلى كاثرين".

التفت هاريس إلى ياناتشيك الذي كان قد أشعل سيجارة جديدة، وقال مُحذّرًا: "حضرة النقيب، اعلم أن السفارة تراقبك. قد لا نتمكن من منعك من التصرف بوقاحة، لكن إن تجرأت وتجاوزت أي خطّ أخلاقي أو قانوني—"

قاطعه ياناتشيك بجفاء، والسيجارة تتدلى من بين شفتيه النحيلتين: "وصلت الرسالة"، ثم استدار ولوّح بيده لسيارة مُتوقّفة في الجوار، ما لبثت أن تحرّكت واقتربت بسرعة، ثم توقّفت على بُعد بضعة سنتيمترات منهم.

تراجع لانغدون تلقائيًا إلى الخلف. انتبه!

كانت سيّارة سكودا سوداء، تحمل على جانبيها شعار جهاز الاستخبارات التشيكي ÚZSI. ففتح ياناتشيك الباب الخلفي، وأشار إلى لانغدون ليدخل.

وبينما كان لانغدون يصعد إلى السيارة، التفت ياناتشيك إلى هاريس قائلاً بلهجة مُتوعّدة: "تحذير أخير، أيّها الملحق. عليك أن تسرع، فأنا لا أنوي تأجيل استجوابي للآنسة سولومون".

* * *

خرجت سيارة الأجرة التي يستقلّها مايكل هاريس من فندق فور سيزنز. فشغل السائق إشارة الانعطاف يمينًا، وذكر أنّه أخطأ في اعتبار هاريس سائحًا أميركيًا غافلًا لا يعرف كيفية الوصول إلى السفارة الأميركية؛ ممّا يجعله هدفًا مثاليًا لأجرة باهظة.

صرخ هاريس بالعامية التشيكية الممزوجة بالشتائم: "اسلك الطريق الذي يمرّ عبر جسر مانيس، تَبًّا! أسرع!"

اتّسعت عينا السائق دهشة، وانعطف بسرعة إلى اليسار. غالبًا ما يُفاجأ التشيكيون حين يسمعون أميركيًا يتحدث لغتهم بطلاقة؛ خصوصًا إذا كان أميركيًا أسود البشرة، يتجاوز طوله ستّ أقدام، ويرتدي بذلة أنيقة.

نشأ مايكل أوخو هاريس في بيت ثريّ بمدينة فيلادلفيا، تحت رعاية مربّيته التي كانت مهاجرة من مدينة برنو. وباقتراح من والدّيه، لم تخاطبه المربّية إلّا بالتشيكية، فصار بحلول الخامسة عشرة يتقن لغتَيْن. وبعد أن أنهى دراسته في كلّية الحقوق بجامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس، قرّر أن يوظّف خبرته اللغوية في منصب بالسفارة الأميركية في براغ، تلك المدينة غريبة الطابع، التي تجمع بين الأطعمة الراقية، والنساء الفاتنات، والعمل المُحفّز. غير أن عمله في الأسابيع الأخيرة أصبح أكثر تشويقاً ممّا كان يرغب. وصبيحة هذا اليوم، تجاوزت الأحداث كلّ ما يمكن وصفه بالمُشوّق.

فقد ظلّت حادثة جسر كارل عصيّة على الفهم بالنسبة إلى هاريس. كما بدا له ادّعاء ياناتشيك أنّها مجرد حيلة دعائيّة لكتاب كاثرين سولومون المُقبل سخيّاً. ومع ذلك، لم يستطع إنكار أنّه يشتمل على شيء من منطق غريب؛ إذ لطالما أدهشته المُجازفات التي يُقدّم عليها الناجحون من أجل تعزيز مسيرتهم المهنية. تذكر هاريس، بمن فيهم أنا نفسي.

فمنذ عدة أشهر وهو يؤدّي مهمّة "غير رسميّة" لصالح السفارة. ومع أنّ هذه المهمّة لم تكن تشتمل على مخالفة صريحة للقانون، إلّا أنّها كانت على وشك أن تصبح كذلك... كما أنّها مُثيرة للاشمئزاز حتمًا. مع ذلك، ونظرًا إلى العائد الماليّ السريّ، ونفوذ السفارة الشخصيّ عليه، كان من المستحيل لهاريس أن يرفض. قال في سرّه: *أمل ألاّ يتقلب ذلك عليّ يومًا ما.*

لكن ساوره شعور ثقيل بأنّ ذلك اليوم آتٍ لا محالة.

الفصل 14

في البلدة القديمة، شقَّ الغولم طريقه خارجًا من المتاهة الضيقة للأزقة المحيطة بشقته. كانت الممرات المظلمة - وبعضها لا يتجاوز عرضها مترين - تتلوى بين أرجاء الحي العتيق كأغصان كرمة مُشابكة.

بينما كان يمضي، أخذ نفسًا عميقًا، دافعًا الهواء البارد إلى أعماق رئتيه، في محاولة لإعادة الصفاء إلى ذهنه. فتلقّيه الأثير كان يفصله دومًا عن واقعه الجسديّ، غير أنّه في الوقت نفسه يُنبّه حواسّه.

عليك أن تبقى مُتيقّظًا، فما زال أمامك عمل تؤدّيه.

كانت خطّته للانتقام تتطلّب معلومة مُعيّنة لم يحصل عليها بعد. وكان عليه أن يتقدّم بحذر بالغ؛ فلو خلف وراءه أيّ أثر بشأن ما يبحث عنه، سينكشف أمره. ولهذا، اختار وجهته التالية بعناية؛ مكانًا هادئًا يستطيع فيه الحصول على الأجوبة من دون أن تُكشف هويّته.

في ذلك الصباح، ارتدى ثيابًا عاديّة: سروالًا بسيطًا، وقميصًا، ومعطفًا سميكًا، كما اعتمر قبعة كلاسيكيّة، ووضع نظارة سوداء حجبت معظم ملامح وجهه. كان هذا الزيّ مألوفًا بالنسبة إليه أكثر بكثير من حلّته، وإن كان يستمتع بالساعات التي يمضي فيها في الشوارع مُتممّصًا شخصيّة الغولم، فيجعل مظهره الخارجيّ انعكاسًا لجوهره الباطن؛ حارس جبّار قادم من عالم آخر.

غير أنّ للزيّ فائدة دنيويّة أيضًا. إذ كانت براغ مدينة خاضعة للمراقبة، والكاميرات المزوّدة ببرامج التعرف إلى الوجوه مُنتشرة في الأماكن العامّة كافّة. وكثيرًا ما قيل إنّ شغف براغ بالأزياء والأفعية كان ببساطة مُحاوله من مواطنيها للاستمتاع بلحظة عابرة من التخفيّ. لذا، كلّما احتاج الغولم إلى إخفاء هويّته، استعان بطبقة سميكة من الطين، ممّا أتاح له رفاهية التنقل بحريّة في العالم المادّي.

في الليلة الماضية، ارتدى الغولم حلّته، لا ليُخفي ملامحه، بل ليُخفي وجهه عن الدكتور غسنير. ولأزرع الرعب في قلبها. ولم يكن لديه شكّ في أنّ مظهره المروّع ساعده على انتزاع أعمق أسرارها؛ حتّى إنّ ما زال يحاول استيعاب كلّ ما باحت به.

الفضاعة التي بنوها تحت الأرض...

هويّات شركائهما...

والطريقة العبقريّة، وغير المَقصودة، التي سَيتَمكّن بها من هدم كلّ ما صنعه فوق رؤوسهم.

خرج الغولم إلى زقاق أوسع يُعرَف باسم ميلانترىخوفا. كان الزقاق ضيقًا جدًّا، بحيث لا يسمح بمرور حتّى سيارة واحدة. وكانت المتاجر والمقاهي الموزّعة فيه قد شرعت للتوّ في فتح أبوابها، فيما بدأ عدد قليل من السيّاح بالتجوّل في المتاهة، وهم يحتسون القهوة ويلتقطون صورًا للممرّات المُتشعّبة الفريدة.

انعطف يمينًا، فمرّ بمتحف "آلات المتعة"، غير أنّه لم يُثر أيّ اهتمام في نفسه. صادف صورًا على إحدى الواجهات أيقظت في ذهنه مشاهدًا... وهي مع صديقها. ف شعر بالغثيان، وكان قد حسم أمره. فأرحم ما يمكن أن يقدّمه لها كان التخلّص من هذا الرجل سريعًا. صحيح أنّ رحيله سيُحزنها، لكن الغولم سيُحمّل عبء ألمها كلّهُ، وسيُعينها على النسيان. فوظيفة الغولم أن يحمل عن الضّعفاء أثقالهم.

حين بلغ الساحة الرئيسيّة، امتزج عبير الكستناء المشويّة بأصداء البوك؛ وهي آلة نفخ بوهيميّة صغيرة يُفضّلها العازفون المُتجوّلون هنا. كان الرصيف الحجريّ المُبتَلّ يزدحم تدريجيًّا بجموع السيّاح المُبكرين، وقد تجمّع بعضهم أمام الساعة الفلكيّة لمشاهدة استعراض القديسين عند الثامنة.

في الجوار، وقف رجال مُتَنكّرون بقبّعات عالية، ورداءات داكنة، ووجوه مدهونة بالأبيض، في ما عدا تجاويف أعينهم السوداء، لالتقاط الصور معهم لقاء إكراميات. /اتهاززيون، هذا ما فكّر فيه الغولم. فمنذ أن نشرت صحيفة "ديلي ميل" مقالها الشهير تحت عنوان: "داخل طقوس الهارلكين السوداء"، مصحّوّنًا بصور سرّيّة، والسيّاح يدفعون بسخاء مقابل التقاط صورة مع من يزعم أنّه منهم.

كان الدّين والغيبّيّات جزءًا من نسيج هذه المدينة التي يصادف الزائرون في شوارعها أشخاصًا مُتَنكّرين بأزياء شخصيّات دينيّة وأسطوريّة قديمة. وفي الساحة نفسها، اعتادت ممثّلة أن تتقمّص هيئة كائن أسطوريّ، وتبسّط جناحيها أمام فندق "يو برينس"، وتدعو الزوّار إلى النزول إلى مغارة الفندق الشهيرة، مقهى "بلاك آنجل".

في هذه الساعة، كانت قد غادرت إلى بيتها، وتركت المدخل الأنيق خاليًا؛ تمامًا كما توقّع الغولم. فدلف إلى الداخل، وبدأ يهبط السلالم الحلزونيّة المؤدّية إلى المقهى. هناك، كان ينوي أن يعثر على الأجوبة التي يبحث عنها.

يقع "بلاك آنجل" في كهف حجريّ قوطيّ يعود للقرن الثاني عشر، على بُعد عدّة طوابق أسفل الفندق. ووفقًا للروايات، عثر العمّال - أثناء عمليّة الترميم - على غرفة سرّيّة تحتوي

على صندوق يضمّ مذكّرات قديمة تعود لرجل يُدعى ألويس كرشا. تضمّنت المذكّرات وصفات لكوكتيلات غريبة وإكسيرات غامضة من عصور غابرة، يُشاع أنّ بعضها يتمتّع بخصائص عجيبة. وكان السيّاح يرتادون مقهى "بلاك آنجل" على أمل وجود شيء من الحقيقة في شعار المقهى الشهير: هنا المستحيل ممكن.

تمنّى الغولم في سرّه: ليكن ذلك حقًا. إذا سارت الأمور وفق الخطّة، فإنّ المعلومات التي يحتاج إليها لتحقيق المستحيل سيجدها في هذا القبو.

الفصل 15

وقف جوناس فوكمان وحيداً عند نافذة مكتبه في الطابق الثالث والعشرين، يُحدّق بنظرة خاطفة إلى أضواء مانهاتن عند الساعة الثانية صباحاً. المدينة التي لا تنام، فكّر المُحرّر في ذلك مُدركاً أنّ وقتاً طويلاً سيمضي قبل أن ينام إذا لم يتمكن من العثور على مخطوطة كاثرين الثمينة.

كان لا يزال يأمل أن يتّصل الفنّي في أيّ لحظة ليخبره أنّ "الاختراق" لم يكن سوى خلل رقمي، لكنّ فوكمان أحسّ أنّ أمراً أخطر من ذلك يحدث بالفعل. لم يتأثر أيّ قسم آخر. قسم كاثرين وحده...

مدّ فوكمان يده إلى هاتف مكتبه ليُجري اتّصلاً بكاثرين في براغ، لكنّه ما لبث أن أعاد السّماع إلى مكانها. فما زال الوقت مبكراً في أوروبا الوسطى، ووقع الخبر سيكون كارثة عليها. فقد وضعت ثقتها به، لذلك شعر بمسؤوليّة أخلاقيّة عميقة لإصلاح الضرر... خصوصاً بعد أن أقنعها بالعمل بأمان على الخادم التابع للشركة. من الذي سرق مخطوطتها؟

هل ستظهر في السوق السوداء خلال الساعات المُقبلّة؟

أجبر فوكمان نفسه على أخذ نفس طويل، ثمّ زفره ببطء. ذكرّ نفسه بأنّ أمراً واحداً فقط سار لصالحه هذه الليلة... بارقة أمل صغيرة... وسيتحتّم عليه أن يتصرّف بحذر وبسرعة. تقدّم نحو باب مكتبه، وأغلقه بإحكام، ثمّ أدار القفل. اتّجه بعد ذلك إلى مكتبته التي تكدّست عليها تذكارات النشر: لوحات دعائيّة، وألواح طباعة، وجوائز أدبيّة، وقوائم مؤطّرة للكتب الأكثر مبيعاً، هذا فضلاً عن نسخ قراءة مُسبّقة محدودة الإصدار. من الرفّ العلوي، أنزل أحد مُقتنياته الأعزّ على قلبه... كوب قهوة شخصياً.

كان الكوب يحمل رموز كأس، ومثلث، ووردة. وقد تلقاه هديّة من روبرت لانغدون بعد صدور أوّل كتاب نشره معاً قبل عقدَيْن من الزمن - رموز الأنوثة المُبجّلة المفقودة - ذلك الكتاب الذي باع ما يكفي من النسخ ليشتري لانغدون هذا الكوب لفوكمان... لا أكثر. على مرّ السنين، غدا الكوب رمزاً لصداقته الدائمة مع لانغدون، ولتعاونهما المهنيّ المُستمرّ. من داخل الكوب، أخرج فوكمان مفتاحاً، ثمّ عاد إلى مكتبه واستعمله لفتح الدرج السفليّ.

هناك، في مأمن داخل الدرج، تستقرّ رزمة سميكة من الأوراق المطبوعة - 481 صفحة من الأسطر مزدوجة المسافة - مرصوفة بعناية، ومربوطة بشريطين مطاطيين. أخرج فوكمان المخطوطة، ووضعها على مكتبه الخشبي الكبير. كانت صفحة العنوان تحمل سطرين فقط.

مخطوطة غير مُعَنَوَنة

بقلم كاثرين سولومون

تنفّس الصعداء لعلمه أنّه ما زال يملك نسخة واحدة، وقال في سرّه: حمدًا لله أنّني ما زلت أحرّر على الورق. فقد طبع نسخه التحريّريّة فورًا، بعد أن منحته كاثرين صلاحية الدخول إلى المخطوطة قبل بضع ساعات.

صحيح أنّ معظم المُحرّرين باتوا يستعملون المُعالجات النصيّة وميزة "تتبع التغييرات" لإدخال تعديلاتهم مباشرة على النسخ الرقميّة، لكنّ فوكمان ما زال يفضّل رزمة أوراق وقلمًا أزرق تقليديًّا. وللمرّة الأولى، بدا أنّ تمسّكه بالطراز القديم قد أنقذه.

مضى زمن في عالم النشر - ليس ببعيد - كان من المألوف فيه وجود نسخة واحدة فقط من أيّ مخطوطة. إذ كان المؤلّفون يكتبون بخطّ اليد، ويضعون أوراقهم في صندوق، ثمّ يسلمونه إلى مكتب الناشر. وروايات مثل "مرتفعات وذرينغ"، و"الأخوة كارامازوف"، و"لمن تُقرع الأجراس" بدأت حياتها بهذه الطريقة؛ نسخة ورقية أصلية واحدة.

قال في سرّه: اهدأ، إذا استطاع ماكسويل بيركتر أن يحافظ على نسخ مخطوطات همغواي وفيتزجيرالد سالمة، فبالأكيد أستطيع أن أفعل الشيء نفسه مع مخطوطة كاثرين سولومون.

أمّا الآن، فأول ما ينبغي له فعله إنشاء نسخة رقمية احتياطية. كانت العملية في السابق تتطلب إعادة طباعة المخطوطة بأكملها في برنامج مُعالجة النصوص؛ أمّا اليوم فالماسحات الضوئية القادرة على قراءة الحروف آليًّا تنجز الأمر خلال دقائق معدودة.

إجراء بسيط بانتظار أن تتمكّن الدار من معرفة ما جرى هنا.

لكن حين فكّر فوكمان في خطّته، أدرك أمرًا مثيرًا للقلق. فالماسحات الضوئية وآلات النسخ التابعة للدار تتصلّ كلّها بشبكاتها؛ وإذا نجح مُخترق في الوصول إلى خوادمها الأكثر أمانًا، فليس من المنطقيّ أن تكون أجهزة المسح الضوئيّ وآلات النسخ المُتّصلة بالشبكة آمنة. ومع ما جرى هذه الليلة، لم يكن فوكمان على استعداد للمغامرة.

نظر إلى ساعته، فوجدها تشير إلى 2:09 صباحًا. إذا توجّه إلى مكتب FedEx للطباعة والشحن القريب المَفْتُوح على مدار الساعة، فيمكنه استخدام أجهزتهم للنسخ والمسح

الضوئي على نحو مجهول ولا يمكن تتبعه، وهو خيار أكثر أمانًا بكثير من استخدام أجهزة الناشر المتصلة بالشبكة.

حين اطمأن فوكمان إلى خطته، لفّ المخطوطة بسرعة في مُغْلَفٍ مُبَطَّنٍ وأغلقه، ثم وضعه في حقيبة ظهره. وبعد أن ربط حذاءه الرياضي الأسود، وارتدى معطفه الصوفي الرمادي العتيق، حمل حقيبة الظهر على كتفيه وغادر مكتبه، مُغْلِقًا الباب خلفه. وبعد ثلاثين ثانية، كان يستقلّ المصعد إلى الطابق الأرضي.

حين خرج من المصعد، لوح للحارس الليلي الجالس خلف مكتب الأمن في البهو الفسيح، وقال: "أراك غدًا يا مارك".

فأجابه: "شكرًا، سيد فوكمان. أتمنى لك ليلة طيبة".

فكر فوكمان في سرّه: لقد تأخر الوقت على ذلك بعض الشيء.

أسرع باتجاه المخرج، ومرّ بين جدارين من رفوف الكتب الشاهقة التي تزيّن البهو، والتي عُرضت فيها كلاسيكيات دار راندوم هاوس منذ بداياتها في أوائل القرن العشرين، يوم أسسها بنيت سيرف ودونالد إس كلوبفر كدار صغيرة لإعادة طباعة الكتب. كانت أذواق المؤسسين الأدبية مُتنوّعة لدرجة بدت "عشوائية"، ومن هنا جاء اسم الدار، راندوم، أي عشوائي.

كانت بعض كتب فوكمان موضوعة على تلك الرفوف المرموقة. وحتى هذه الليلة، كان واثقًا من أنّ الطبعة الأولى من كتاب كاثرين ستجد مكانًا لها هناك أيضًا.

ذكر نفسه وهو يدفع الباب الزجاجي الدوّار الكبير ويخرج إلى الشارع: لديك مهمة واحدة الآن، ألا وهي حماية هذه المخطوطة.

كانت الليلة قارسة البرودة، والأرصفت خالية في هذه الساعة. فانعطف يمينًا إلى شارع برودواي، وسار بخطى سريعة نحو الشارع الخامس والخمسين، والريح الجليدية تنفخ أطراف معطفه.

بينما كان يعبر الجادة، كان ذهنه شديد الانشغال بما يجري إلى درجة لم يلحظ معها الشاحنة السوداء التي تبعته على مسافة مئة متر تقريبًا.

* * *

يقع مركز بينغوين لأمن البيانات في الطابق الرابع من برج راندوم هاوس، ويتألف من ست محطات آمنة تقع في عمق متاهة من رفوف الخوادم التي تصدر أزيزًا دائمًا. كان هذا المرفق الصغير مسؤولًا عن الحفاظ على جدار حماية منيع حول الخوادم الداخلية للناشر.

جلس فنّي أمن المعلومات، أليكس كونان، يطبع بسرعة مَحْمومة على لوح المفاتيح، بعد أن تأكد من اختفاء كلّ أثر لمخطوطات كاثارين سولومون ومجلّداتها البحثيّة. فقد تمّ تصفيرها ومسحها، وأصبحت غير قابلة للاستعادة.

قال في سرّه: لم تعد هذه مهمّة إنقاذ... فالهجوم لم يُبق ولم يدر.

الغريب في الأمر أنّ أنظمة كشف/ منع التسلّل لم تسجّل أيّ أثر لاستغلال ثغرات؛ لا إدخالات غير عاديّة في السجّل، ولا ملفّات مُعدّلة، ولا تغييرات في إعدادات النظام، ولا عمليات التقاط حُزَم مشبوهة. من الواضح إذاً أنّ المُتسلّلين يملكون مهارات فريدة. لكن من يكون هؤلاء الأشخاص؟!!

حرصاً منه على إبلاغ جوناكس فوكمان، اتّصل بمكتبه، لكن لم يجبه أحد. غريب. عندئذٍ، اتّصل بالحارس الليليّ في البهو: "مارك، معك أليكس كونان من قسم الأنظمة. هل تتكرّم بمناداة جوناكس فوكمان إلى مركز الأمن فوراً؟ الأمر مهمّ". أجاب الحارس بنبرته المرحّة المعتادة: "لن يسمعي، فقد خرج من المبنى قبل لحظات".

فوكمان خرج؟! لقد تمّ اختراقنا... بسبب كتابه!

افترض أليكس أنّ فوكمان خرج قليلاً لاستنشاق الهواء وسيعود، وتساءل عمّا إذا كان عليه إبلاغ قيادات الدار. غير أنّه لم يعد بمقدور أحد فعل شيء الآن، وربّما سيّقبلونه فوراً لوقوع حادثة كهذه في أثناء مناوبته.

قال في سرّه: عليّ السيطرة على حجم الخسائر، فما زال أمامي متّسع من الوقت لإصلاح الضرر.

كانت مهارات أليكس في مجال الاختراق قويّة، كما هي حال معظم فنّي أمن الأنظمة. وإن حصل على بضع ساعات وقليل من الحظّ، فقد يتمكّن من معرفة الجهة التي نفّذت عمليّة الاختراق، واعتماداً على ما يكتشفه، قد يجد طريقة ذكيّة لردّ الهجوم.

الفصل 16

شعر روبرت لانغدون، وهو مَحْشُور في المقعد الخلفي لسيارة سكودا أوكتافيا، كأنه مُحَاصَر. أمامه، كان النقيب ياناتشيك قد أرجع مقعده إلى أقصى حدٍّ ممكن، بحيث أوشكت ركبتا لانغدون أن تلتصقا بصدرة؛ لتتزايد مُعاناته مع رهاب الأماكن المُغْلَقَة. نفثت فتحات التهوية هواءً ساخنًا وخانقًا، مَمَزَّوجًا بدخان سجائر النقيب، وفرح لانغدون لأنَّه اكتفى بارتداء كتزة ديل، وليس سترة باتاغونيا السميكة.

كان ياناتشيك يتحدَّث على الهاتف مُجَدِّدًا، هامِسًا باللغة التشيكية، فيما انطلقت السيارة بسرعة على الضفة الجنوبية لنهر فلتافا. وكان السائق - وهو ملازم عشريني عريض العنق، يرتدي بزة كحليَّة خاصَّة بجهاز الاستخبارات التشيكي، ويعتمر قُبْعَة عسكريَّة مائلة - أقرب في هيئته إلى لاعب كمال أجسام، أو مصارع مُحترَف منه إلى ضابط تنفيذ قانون. راح يناور الآن بين السيارات بيد واحدة على المقود، كما لو أنَّه يحاول استعراض مهاراته أمام قائده.

بينما كانت السيارة تسرع على طول جادة ماساريكوفو نابريجي، شعر لانغدون بالغثيان، فأجبر نفسه على تحويل نظره نحو النافذة المُطَلَّة على الفضاء المفتوح. كانوا قد مرَّوا للتوَّ بجزيرة صغيرة في نهر فلتافا، يقبع عليها قصر زوفين الأصفر الزاهي، الذي يعود إلى عصر النهضة الجديد. وعلى النقيض تمامًا من هذا المبنى العريق، برز إلى يسارهم أشهر صرح معماريٍّ مُعاصِر في براغ. إنَّه "البيت الراقص"، المُؤلَّف من برجين صغيرين يميلان على بعضهما كأنَّهما يرقصان. أطلق المِعماريِّ فرانك جيري على بُرْجَيْهِ اسمَي فريد وجينجر؛ الأمر الذي بدا مبالغة في الخيال. لكن، مقارنةً بأسماء ناطحات السحاب في لندن - كـ "الغُرَّكين"، و"الووكي - تووكي"، و"الشيزغرايتِر" - قد يُعَدُّ هذا الثنائي الراقص نعمة.

في الحقيقة، لطالما أُعْجِب لانغدون بشغف براغ بالفن الطليعي؛ إذ تضمُّ بعضًا من أبرز المجموعات الفنِّية في العالم، مثل مركز دوكس، وقصر المعرض التجاري، ومتحف كامبا. غير أنَّ ما يُميِّز هذه المدينة هو مُنشأتها الفنِّية العفويَّة التي تظهر فجأةً في أرجائها، وبعضها - مثل "جدار لينون" و"منحوتات المظلة المُغلَّقة" - نال إعجابًا واسعًا، بحيث أصبح جزءًا دائمًا من المشهد.

قال ياناتشيك وهو يستدير فجأةً نحو لانغدون، ضاعِظًا بظهر مقعده أكثر على ركبتيَّي الأخير: "حين نصل إلى حصن الصليب، سأفصلك عن الأنسة سولومون، فأنا أريد استجوابها من دون وجودك. لا أريدكما أن تُسَّقا أفوا الكما".

أجاب لانغدون وهو يُحاول كبح انزعاجه: "أقوالنا؟! كل ما قلته لك صحيح تمامًا". قال ياناتشيك برود: "يسرني سماع ذلك. إذًا، لا داعي للقلق". ثم استدار مجددًا إلى الأمام. شعر لانغدون بالقلق حيال المُواجهة المُرتقبة بين كاثرين وهذا الضابط، الذي بدا وكأنه حسم أمره بأن هذين الأميركيتين - أو على الأقل كاثرين - كانا وراء تلك السلسلة الغريبة من الأحداث، طمعًا في مكاسب شخصية.

هذا محض جنون.

مع ذلك، بصرف النظر عن عدد المرات التي أعاد فيها لانغدون التفكير في الأمر، لم يجد تفسيرًا للكابوس كاثرين الذي سبق المشهد على جسر كارل.

هي لم تُخبر أحدًا بكابوسها... وعدنا مباشرة إلى النوم.

لم يبقَ أمامه إلا تفسير واحد، مهما يكن مستحيلًا في نظره: أن كاثرين رأت حلمًا استباقيًا حقيقيًا... شبيهًا بذلك الذي سبق كارثة تيتانيك.

كانت المُعضلة بالنسبة إلى لانغدون أنه لم يُصدّق يومًا أن للبعض قدرة على توقع المستقبل. صحيح أنه صادف مثل هذه الفكرة مرارًا في النصوص القديمة، لكنه كان يراها من أقدم أشكال الخداع في التاريخ.

فمنذ أن بدأ البشر يُسجلون التاريخ، كانوا يتوقون إلى معرفة ما يُخبئه الغد. فمنحوا أمثال نوستراداموس، وكاهنة دلفي، ومنجمي المايا مكانة عالية جدًا. وحتى اليوم، ما زال كثيرون من المُتعلّمين يلجؤون إلى أمثالهم.

معرفة المستقبل هوس بشري قديم.

في الحقيقة، كثيرًا ما يسأل طلاب لانغدون في مادة التاريخ عن نوستراداموس، الذي يُقال إنه الأشهر على مرّ العصور. إذ بدت قصائده الغامضة وكأنها توقّعت - من بين أمور أخرى - الثورة الفرنسيّة، وصعود هتلر، وانهار مركز التجارة العالمي. فأقرّ لانغدون لطلابيه أن حفة من رباعيّات نوستراداموس تضمّنت ما بدا وكأنه إشارات صادمة إلى أحداث مُستقبلية، لكنه يُذكرهم دائمًا أن نوستراداموس كتب "على نحوٍ غزير وغامض وشائع"، أي أنه كتب مجموعة كبيرة من 942 قصيدة منفصلة، مُستخدمًا لغة غامضة ومُبهمّة، وأشار إلى أحداث شائعة، مثل الحروب والكوارث الطبيعيّة والصراعات على السلطة.

قال لهم لانغدون: "لذا، ليس من المُستغرب أن نرى نقاط تطابق عرضيّة. فجميعنا نريد الاعتقاد بوجود شيء وراء هذا العالم، لذلك غالبًا ما نخدعنا عقولنا بتصديق أشخاص مثله".

لتوضيح وجهة نظره، كان لانغدون يبدأ ندوته السنويّة كلّ عام بالطلب من تلامذته إعطاءه تاريخ ميلادهم ووقته بدقّة. وبعد أسبوع، كان يُسلّم كلًّا منهم مُغلّفًا مُغلّفًا يحمل

أسماءهم، ويخبرهم أنّه أعطى معلومات ميلادهم لمُتَوَقِّعٍ معروف. وعندما يفتح الطلاب مغلفاتهم، كانوا يشهبون بدهشة من دقّة القراءات.

بعد ذلك، كان يطلب منهم تبادل الأوراق مع بعضهم بعضاً. فيكتشفون أنّ القراءات التي ورّعها عليهم مُتطابقة.

في الواقع، بدت تلك القراءات مُقنّعة ببساطة لأنّها احتوت على مُعتقدات شخصية شائعة: لديك ميل إلى انتقاد نفسك.

أنت تفتخر بكونك مُفكراً مُستقلاً.

أنت تشعر أحياناً بالريبة حيال ما إذا كنت قد اتخذت القرار الصحيح.

شرح لانغدون أنّ هذا التوق إلى إيجاد حقيقة شخصية في عبارات عامّة يُعرف بتأثير بارنوم؛ نسبةً إلى "اختبارات الشخصية" التي كان الاستعراضيّ بي تي بارنوم يستخدمها لخداع رواد السيرك، وجعلهم يظنون أنّه يمتلك قدرات نفسية.

انحرفت سيارّة الاستخبارات التشيكية فجأةً إلى اليسار، لتُخرج لانغدون من دوامة أفكاره، وبدأت تتسلّق المنحدرات المُشجّرة الشاسعة لمتنزه فوليمانكا؛ ذلك الفضاء العام مترامي الأطراف عند ضواحي براغ الوسطى.

على قَمّة التل، لمح لانغدون السور الحجريّ لحصن الصليب الذي يعلو السفح فوقهم. لم يكن قد سبقت له زيارة هذا الحصن الصغير الذي ظلّ مُتْهالِكاً لسنوات طويلة قبل أن يُرْمَمَ مُؤخراً، لكنّه بات الآن يعرف عنه أكثر ممّا يهتمّه، بعدما أصرت المُستأجرة الجديدة على أن تروي له أمس كلّ التفاصيل المُتعلّقة بالمكان.

الدكتورة بريغيتا غُسْنِر.

عالمّة الأعصاب التشيكية، وعضو مجلس برنامج المحاضرات في جامعة كارل، التي وجّهت إلى كاثرين الدعوة شخصياً لإلقاء المُحاضرة أمس. وبعد المُحاضرة، انضمت إلى كاثرين ولانغدون في مقهى الفندق. لكن بدلاً من تهنئة كاثرين على مُحاضرتها اللامعة، لم تذكرها تقريباً، بل انشغلت بالحديث عن إنجازاتها هي ومختبرها الخاصّ الجديد المُذهل.

قالت بحماسة: "الحصن صغير نسبياً، لكنّه مَوْقع مثاليّ لإقامة مركز أبحاث. فهو قائم على مُرتفع يُطلّ على مناظر خلّابة للمدينة، وأسواره السميكة توفر عزلاً ممتازاً للتدخلات الكهرومغناطيسية، ممّا يجعله مثاليّاً لعمليّ الدقيق في التصوير العصبيّ".

تابعت غُسْنِر مُتباهِية بأنّ نجاحها في تقنيات تصوير الدماغ وشبكات المعلومات العصبية منحها استقلالاً تامّاً في أبحاثها - مالياً وبرمجياً - وباتت تقضي وقتها وهي تعمل على "أيّ مشروع يخطر ببالها، وفي بيئة شديدة الخصوصية".

حين خرجت سيارة الاستخبارات من بين الأشجار، وبرز المُختبر فوق الجرف، شعر
لانغدون بوخزة قلق غير مُتَوَقَّعة على سلامة كاثارين. ولسبب ما، انتابه إحساس مفاجئ
بخطر داهم، فتمنّى في قرارة نفسه ألا يكون هذا تَوَقُّعًا.

الفصل 17

نفخ جوناس فوكمان في يديّه المُكوَّرتين وهو يسير شرقاً على طول الشارع الثاني والخمسين، الذي كان مهجوراً في هذه الساعة. كانت الليلة قارسة البرودة، وشعر بثقل المَخطوطة في حقيبتِه. لحسن الحظّ، كان مكتب فيديكس - الذي يعمل على مدار اليوم - على بُعد مبنى واحد فقط، عبر الجادة السابعة.

كان فوكمان لا يزال يُكافح لفهم سبب استهداف أحدهم كتاب كاثرين فحسب. إذ احتوت قاعدة بيانات الدار على عدد لا يحصى من الأهداف الأخرى الأكثر وضوحاً؛ كتب مَضمونة النجاح لمؤلفين مشهورين يعتمد عليها صافي أرباح المؤسسة. لم يكن الأمر منطقيّاً. هنا، بدأ فوكمان يتساءل عمّا إذا كانت هذه القرصنة لا تستهدف كتباً على الإطلاق، بل... أمراً آخر.

على بُعد عشرين ياردة أمام فوكمان، توقفت شاحنة سوداء إلى جانب الرصيف، وبقي مُحركها في وضع التشغيل. فأبطأ فوكمان من سيره تلقائياً، وشعر بعدم الارتياح في الشارع الخالي في هذه الساعة. لكن بعد لحظة، أدرك أنّ مخاوفه لا أساس لها؛ إذ قفز السائق من الشاحنة، وهو يصفر بمرح ويقرأ لوحة بيده. ومن دون أن يُلقي نظرة واحدة على فوكمان، ابتعد في الاتجاه المعاكس.

تنفّس فوكمان الصعداء، وتابع سيره مُتجاوزاً الشاحنة.

إلى الأمام قليلاً، توقف السائق ونظر إلى أرقام المباني، ثم أعاد التحقق من اللوحة في يده، قبل أن يستدير عائداً أدراجه. نادى وهو يقترب من الشاحنة: "يا صاح! ما العنوان المذكور في تلك الرسالة الإلكترونية؟ لا أرى أيّ مطعم سوفلاكي⁽¹⁾ هنا!"

فقال فوكمان مُشيراً بيده: "إنّه يبعد شارعاً واحداً فقط، بعد الشارع السابع -"

في تلك اللحظة، باغتته من الخلف لكمة قويّة على كليته اليمنى، فيما هوى كيس أسود على رأسه. ولم يكن فوكمان قد استوعب ما يجري بعد، حين انقضّت عليه أيادٍ غليظة، رفعته عن الأرض، وطرحته داخل الشاحنة. ارتطم بقوة بأرضيتها الصلبة، ف شعر بأنّ أنفاسه انقطعت تماماً. أخيراً، أُغلق الباب بعنف، وبعد ثوانٍ، شعر بالشاحنة تنطلق مُسرعة.

(1) طبق يوناني.

لهث المُحرّر المدعور، عاجزاً عن الرؤية، ومُحاولاً استعادة أنفاسه وتقدير وضعه. لقد حرّر ما يكفي من الروايات البوليسية ليعلم جيّداً ما يعنيه أن تُعصّب عينا شخصيّة من شخصيّات الرواية، وتُلقى في صندوق شاحنة. هذا ليس بشير خير.

* * *

على بُعد نحو ثلاثمئة متر، في برج راندوم هاوس، كان أليكس كونان قد اتّصل بكلّ أرقام فوكمان - المكتب، المنزل، الهاتف الخليوي - لكن من دون جواب.

لكن أين اختفى؟!

نحن في وسط أزمة!

يبدو أنّ فوكمان ببساطة أطفأ هاتفه وخرج يتجوّل في الليل؛ ربّما إلى مقهى "أون داروكس" المجاور، الذي اعتاد المحرّرون دائمو التوتّر ارتياده في أيّ ساعة من الليل لتهذئة أعصابهم.

حتى الآن، لم يُحرّز أليكس أي تقدّم في تحديد هوية القراصنة. فقد نقّب في الركام، من دون أن يعثر على ما يلفت الانتباه. قال في سرّه: أحتاج إلى وسيلة بحث أكثر دقّة. فالمحاولة التالية ستطلّب خوارزمية جنائيّة خاصّة مُصمّمة لتفحص آثار مُحدّدة ترتبط بالمخطوطة المفقودة - كلمات مفتاحيّة، مفاهيم، أسماء - لكنّ ذلك يستلزم منه التحدّث إلى فوكمان.

ثمّ خطرت بباله فكرة أخرى: ألا يمكنني الاتصال بكاثرين سولومون مباشرة؟

كانت بروتوكولات بنغوين راندوم هاوس تمنع ذلك، إذ تفرض أن تمرّ كلّ الاتصالات مع المؤلّفين عبر المُحرّر المسؤول وحده؛ لكونه الشخص الموثوق الذي يجيد التعامل مع طباع الكاتب ونزواته وهواجسه.

غير أنّه قال في سرّه: فليذهب البروتوكول إلى الجحيم. فالأمر لم يعد يقتصر على ضرورة معرفة المزيد عن كتاب كاثرين، بل رأى أنّها تملك الحقّ في معرفة أنّ مخطوطتها تعرّضت للقراصنة؛ خصوصاً إذا كان ذلك يعني أنّ حياتها هي نفسها مُعرّضة للخطر.

هكذا، فتح أليكس ملفّ كاثرين سولومون، وعثر على رقم هاتفها الخليوي، واتّصل. كان فوكمان قد ذكر أنّ كاثرين في أوروبا الآن، أي أنّها ساعات الصباح الباكر هناك، لكنّه أيقن أنّها ستفهم الأمر إذا أيقظها.

رنّ الهاتف أربع مرّات قبل أن يتحوّل إلى البريد الصوتي. عندها، ترك أليكس رسالة قصيرة عرّف فيها بنفسه، ورجاها أن تعاود الاتصال به فوراً.

بعد ذلك، أغلق الخطّ، وجرب مرّة أخرى الاتصال بفوكمان، لكن بلا جدوى.

هنا، تذكر ما قاله فوكممان، عن أنّ كاثرين تسافر برفقة مؤلّف آخر يتعامل معه؛
البروفيسور في جامعة هارفرد، روبرت لانغدون. فكّر أليكس: ملّقه موجود أيضًا في قاعدة
بيانات الدار، فقرّر أن يجرب حظّه.

فتح ملفّ لانغدون واتّصل بالرقم، إلّا أنّ خطّ لانغدون لم يرّن أصلاً، بل انتقل مباشرة
إلى البريد الصوتيّ.

عندئذ، أنهى أليكس الاتّصال، وشعر فجأة أنّه وحيد تمامًا.
أين اختفى الجميع؟

الفصل 18

في لندن، كان فينش قد تلقى للتو تأكيداً بأن خطته البديلة قد وُضعت قيد التنفيذ، في كل من براغ ونيويورك. وقد وصلت إليه الأخبار عبر منصّة اتصالات عالية الأمان من الدرجة العسكرية تُعرف باسم "سيغنال"، مطلوبة لجميع الاتصالات الميدانية، لأنها تؤمن تشفيراً شاملاً للرسائل النصيّة والمكالمات الصوتيّة.

كان فينش - ذو الجنسيّة الأميركيّة - يشغل منصباً سرّياً في المقرّ الأوروبي لمنظمة عالميّة يُطلق عليها المُطلعون اسم "كيو Q". وقد استُمدّ الاسم الغامض لهذه المؤسسة من شخصيّة في روايات جيمس بوند: المُخترع والمُبكر التكنولوجي "كيو" الذي كان يُطوّر ابتكارات فتاة لخدمة جلالة الملكة.

وكما هو حال نظيرتها الخياليّة، كانت منظمة "كيو" الواقعيّة تطوّر أيضًا تقنيّات مُتقدّمة لخدمة سلطة أعلى... سلطة تفوق نفوذ أيّ ملكة. فالكيان الذي أسّس "كيو" بسرّيّة في عام 1999م، كان يتمتّع بنفوذ غير مسبوق على مستوى العالم. ومع أنّ وجوده نادرًا ما يُلاحظ أو حتّى يُشتبه به، إلّا أنّ أعماله كثيرًا ما غيرت مجرى الأحداث العالميّة.

كان إفريت فينش، البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عامًا، يحمل تصنيفاً فيدراليّاً في الشطرنج يبلغ 2374، ويُجري تمارين تجذيف يوميّة لمسافة تسعة آلاف متر على جهاز "إيرغ"، ويُنهى فطوره بتناول قرص يحتوي على ثلاثمئة ميلليغرام من عقار "نوفيجيل" المُنشط للذهن، الذي يُحوّل عقله إلى سيارة "فورمولا وان" تنطلق وسط طريق مُزدحم بالحافلات الصغيرة.

وبعد أن أمضى العقد الأخير في منصب نافذ ضمن منظمة "كيو" الأمّ الهائلة، عُيّن قبل ثلاث سنوات على رأس مهمّة سرّيّة في مكتب لندن التابع لـ "كيو". وتمّ إبلاغه حينذاك أنّه سيُشرّف على تطوير واحدة من أكثر المبادرات طموحًا وسرّيّة على الإطلاق. العتبة.

قليل له إنّ هذا المشروع يتطلّب قدرًا من المرونة في ما يتعلّق بالقيود القانونيّة والأخلاقيّة، وقد تمّ اختياره بفضل خبرته في "المعايير الأخلاقيّة القائمة على أرجحية النجاح"؛ وهي نماذج أخلاقيّة تُعطي الأولويّة للنجاح على حساب نقاء الضمير. ولم يُفاجأ فينش عندما قرأ في خطاب تعيينه:

مهما شددنا على أهمية مشروع العتبة، فلن نوفيهِ حقّه. إنّه يستحقّ اتّخاذ أيّ تدابير استثنائية تراها ضروريّة لضمان نجاحه.

حينها، قال فينش في سرّه: لقد وصلت الرسالة، لا وجود للقواعد.

* * *

مرّت ثلاثون دقيقة منذ أن دخل الغولم فندق "يو برينس" وتوجّه نزولاً إلى مقهى "بلاك أنجل" الواقع تحت الأرض. وجد المقهى مُغلّقاً، وكانت فرق التنظيف تكنس الأرضيات، وتُلَمّع الأرائك الجلديّة، وتتنزع أعقاب السجائر العالقة في الجدران الحجريّة العتيقة الخشنة.

وقبل أن يلحظ أحد، تابع الغولم طريقه مُتجاوزاً المقهى، ثمّ انعطف عند زاوية تؤدّي إلى مساحة ضيّقة أشبه بخزانة، فيها مكتب وحاسوبان قديمان يظهر على شاشتيهما الباهتتين شعار "بلاك أنجل". كانت خدمة الإنترنت المُناحة على مدار الساعة من ميزات المقهى القديمة؛ فحين لم تكن الهواتف الخليويّة الأجنبيّة تعمل جيّداً في براغ، كان السياح يقصدون المكان لمجرّد إرسال بريد إلكترونيّ.

في وقتٍ سابق من ذلك اليوم، حين أدرك الغولم أنّه بحاجة إلى معلومات تقنية مُحدّدة لتنفيذ خطّته، خطر له على الفور المجيء إلى "بلاك أنجل". فما من أحد يراقب هذا الجهاز. والآن، وجدتُ ما جئت من أجله. قال ذلك في نفسه وهو يُحدّق إلى المعلومات التقنيّة المعروضة أمامه على الشاشة. فكثير من التفاصيل كانت تتجاوز فهمه، لكنّ ذلك لم يكن مهمّاً؛ إطلاق النار لا يحتاج إلى شهادة في علم المَقذوفات... بل مجرد الوصول إلى الزناد. وقد تمّ تحديد ذلك الزناد الآن.

كانت غِشِير قد أفشت الكثير من الأسرار في محاولتها إنقاذ حياتها؛ من بينها، وجود قطعة تقنية قويّة على نحو مدهش، محفوظة في أعماق مختبرهم تحت الأرض، داخل خزانة مُحكّمة الإغلاق، جدرانها من الخرسانة المسلّحة بسماكة مترين.

قطعة تقنية قادرة على جعل عالمهم بأكمله ينهار فوق رؤوسهم.

وبفضل المعلومات التي حصل عليها الآن، أصبح يعرف تماماً كيف يفعل ذلك. سارع الغولم إلى مسح سجلّ التصفّح، وإعادة تشغيل الحاسوب. وعندما صعد إلى الأعلى، وخرج مُجدّداً إلى الساحة، شعر بالحياة تدبّ فيه من جديد وهو يحلم بانتقام جريء سيتردّد صداه لمسافة آلاف الأميال من براغ... وسيشمل كلّ المسؤولين.

الفصل 19

يقع حصن الصليب في أعالي سلسلة جبال مُشَجَّرة تحدّ الحافة الشماليّة لمتنزّه فوليمانكا. ففي منتصف القرن الرابع عشر الميلاديّ، لفتت هذه القمة الشاهقة انتباه الإمبراطور الرومانيّ كارل الرابع؛ إذ وجدها الموقع الأمثل لبناء حصن يُطلّ على مدينته الحبيبة براغ- مسقط رأسه- التي كانت آنذاك جوهرة مُزدهرة في العالم المسيحيّ.

على طول هذا الحصن، بنى الإمبراطور سورًا حجريًّا يعلوه حصن صغير، لكنّه منيع، وأطلق على الحصن اسم "حصن الصليب".

واصلت سيّارة جهاز الاستخبارات التشيكيّ صعودها على الطريق المؤدّي إلى المدخل، وارتقت التلّ بثبات حتّى توقّفت أمام الحصن. نظر لانغدون بانبهار إلى القلعة العتيقة، التي أُعيد ترميمها بأسلوب حدائثيّ أنيق.

هل هذا مُختبر غِسنِر الخاصّ؟ من الواضح أنّ عالمة الأعصاب تجني من عملها أكثر ممّا تخيل.

قفز ياناتشك من المقعد الأماميّ، وفتح باب لانغدون بعصيّة، مُشيرًا له بنفاد صبر لينزل. فامثل لانغدون فورًا، مُتلهِفًا للخروج من السيارة الضيّقة، ولرؤية كاثرين التي ازداد قلقًا عليها.

بقي السائق شرس المظهر في مكانه، بينما قاد ياناتشك لانغدون عبر الثلج المُتساقط نحو المختبر. وعلى طبقة الثلج الخفيفة التي غطّت الطريق الحصويّ، رأى لانغدون آثار عدّة أقدام خفيفة، لا شكّ في أنّ من بينها آثار قدميّ كاثرين حين وصلت لمقابلة غِسنِر.

فوق المدخل الرئيس، علّقت لوحة برونزية أنيقة كُتِب عليها: معهد غِسنِر. أمّا باب الحصن، فكان لوحًا عريضًا أنيقًا من الزجاج المُصنّفَر المُقوّى، المُحاط بإطار فولاذيّ. شدّ ياناتشك المُقبَض، لكنّ الباب لم يتحرّك، فطرق على الزجاج السميك بقوة.

لا جواب.

التفت إلى جهاز الاتّصال المُجاور للباب الذي تضمّن ماسح بصمات حيويًّا، مُكبّر صوت، وزرّ اتّصال. أمّا من لوحة أرقام؟ تساءل لانغدون عن ذلك مُحترّأً، لا سيّما أنّ غِسنِر تفاخرت في الليلة الماضية بأنّ مُختبرها مُحصّن "برمز عبقرى ذكيّ".

لا بدّ أنّها كانت تشير إلى باب داخليّ.

ضغط ياناتشك على زرّ الاتّصال، فصدر طنين، وبدأ جهاز اتّصال داخليّ يرنّ في المبنى. فانتظرا، وبعد خمس رنّات، توقّف الجهاز.

عندئذٍ، تراجع ياناتشك خطوة إلى الخلف، ونظر من تحت ظلّ القُبعة إلى الكاميرا الأمنية المُثَبَّتة بخفاء فوق الباب، وكأنّه يتحدثها، ثمّ رفع بطاقة التعريف التابعة لجهاز الاستخبارات أمام الكاميرا، وضغط على الزرّ من جديد. فسُمت خمس رنّات إضافية، لكن من دون ردّ.

نظر لانغدون إلى الكاميرا، مُسأئلاً عمّا إذا كانت كاثرين تراقبه الآن.
لماذا لا تردّ غُسْنِر، أو تفتح لنا الباب؟ من الواضح أنّ المرأتين تستطيعان رؤية ياناتشك عبر الكاميرات، وقد استبعد لانغدون أن تكون رغبة غُسْنِر في السريّة شديدة إلى حدّ أن تمنع ضابطاً من جهاز الاستخبارات من الدخول.

قال ياناتشك وهو يُخرج هاتفه: "أعطني رقم كاثرين سولومون".
أملّى لانغدون الرقم عن ظهر قلب، فطلبه ياناتشك، وشغل مُكَبِّر الصوت. غير أنّ الاتصال تحوّل مباشرة إلى البريد الصوتي.

تساءل لانغدون: تُرى، هل تمنع تلك الجدران الحجرية السمكية وصول إشارة الهاتف؟ علماً أنّه من المُستغرب ألاّ تقوم شركة تكنولوجيا عملاقة مثل غُسْنِر بتجهيز مختبرها بمقويّات إرسال.

تمتم ياناتشك بشيء ما، ثم استدار وصرخ باتجاه السيارة: "پافيل!"
فقفز السائق عريض العنق من خلف المقود، وهرع إليه ككلبٍ ناداه سيّده:
"Ano, pane kapitáne?!"

أشار ياناتشك إلى الباب الزجاجي: "*Prostrělej dveře*".
أوماً الملازم پافيل، ثمّ أخرج مسدّساً، واتّخذ وضعيّة التصويب نحو الباب.
يا إلهي! قفز لانغدون إلى الوراء في اللحظة التي دوّى فيها صوت السلاح.

ستّ طلقات سريعة اخترقت مركز اللوح الزجاجي، على نحو دائريّ شبه مثاليّ. غير أنّ الزجاج المُقوّى لم يتحطّم، بل حافظت طبقته اللاصقة الداخليّة على تماسكه. عندئذٍ، لم يُضع پافيل الوقت، بل استدار بسرعة، وركل بحذائه الثقيل الدائرة التي خلفتها الطلقات، فتشقق الزجاج مثل شبكة عنكبوتيّة. وعندما ركل مُجدّداً، انهار اللوح بأكمله وسقط إلى الداخل، وانزلق على الأرض وسط وابل من شظايا الزجاج التي بدت مثل مكعبات سكر لامعة.

نظر لانغدون مذهولاً، ومُتسائلاً إن كان ياناتشك فكّر ولو للحظة في احتمال وجود شخص خلف الباب الزجاجي المُصنّف لحظة إطلاق النار.

أعاد پافيل تعبئة سلاحه، ودخل عبر الفتحة المُدْمَرَة، وهو يدوس بحذائه على الزجاج المُتناثر. نظر يميناً ويساراً، ثمّ أشار بأنّ المكان آمن، ودعا ياناتشك للدخول.

قال ياناتشيك: "تفضّل يا بروفيسور. إلّا إذا كنت تفضّل البقاء في السيارة؟"
لم تكن لدى لانغدون أدنى رغبة في ترك كاثرين وحدها مع ياناتشيك وهذا المسلّح
المجنون، فتقدّم نحو الفتحة المُحطّمة، وقلبه يخفق بعنف، مُتسائلاً عن عدد المرات التي تمّ
فيها اقتحام هذا الحصن العائد إلى العصور الوسطى عبر التاريخ.

الفصل 20

تقع سفارة الولايات المتحدة الأميركية في براغ في قصر شونبورن. ويتألف القصر من أكثر من مئة غرفة، كثير منها بجدران جصية أصلية، وأسقف بارترافع ثلاثين قدمًا. بُني القصر الفخم عام 1656م، على يد كونت ذي ساق واحدة يُدعى رودولف فون كولوريديو-فالدسي، ويحتوي على عدة منحدرات مكنت الكونت رودولف من الصعود إلى المبنى على سهوة حصانه. والآن، بعد أن أصبح القصر مقر السفارة الأميركية الرسمي، بات يضم ثلاثة وعشرين موظفًا يعملون في الموقع لخدمة المصالح الأميركية في المنطقة.

في هذا الصباح، كانت دانا دانك، مسؤولة الإعلام في السفارة، بمفردها في مكتبها، ترتب جدول الأعمال اليومي. كانت شابة في الرابعة والثلاثين من عمرها، من براغ، أتقنت الإنجليزية خلال عملها في مجال عرض الأزياء في لندن في العقد الثالث من عمرها. وبعد عودتها إلى براغ، وحصولها على شهادة في علوم الكمبيوتر، تقدّمت بطلب عمل في السفارة الأميركية، ووجدت نفسها في قسم العلاقات العامة.

كان المكتب أكثر برودة من المعتاد في هذا الصباح المثلج، فاقتربت دانا من المشعاع البخاري القديم، وانحنت لتشغيله للحصول على بعض الدفء الإضافي.

أُتاها صوت عميق من خلفها: "Pěkný výhled". منظر جميل.

فاستدارت، وداهما ذلك الشعور بالدوار الذي يتبناها دائمًا عندما ترى الملحق القانوني الجذاب مايكل هاريس. في المكتب، كان مايكل يُعاملها بطريقة رسمية؛ لكنّ ما أحبته فيه حقًا كان طريقة مُعاملته لها خارج المكتب، وتحديدًا في غرفته. بخلاف ذلك، كان مايكل يتمتع بخفة ظلّ تحسّن مزاجها دائمًا.

قالت مُمازحة: "أنت في الطابق الخاطيء". فقد سمعت أنه طلب لقاءً طارئًا مع السفيرة، لذا أضافت: "إنّها تنتظرك في مكتبها، في الأعلى".

ردّ بنبرة جدية غير مُعتادة: "هل يمكنني أن أطلب منك خدمة؟ فالأمر مهمّ".

أومأت دانا مُوافقةً، من دون تردّد. اطلب ما تريد، يا مايكل هاريس.

راح يشرح طلبه بسرعة، فيما حدّقت إليه دانا، وهي تحاول أن تفهم ما إذا كان يمزح.

قالت أخيرًا: "عذرًا... امرأة تضع تاجًا شائكًا؟"

هزّ رأسه إيجابًا. "كانت على جسر كارل قبيل الساعة صباحًا. أريد أن أعرف فحسب

من أين أتت، وإلى أين ذهبت لاحقًا".

كان هذا طلبًا غريبًا. ففنيًا، إنَّ وصول دانا إلى أنظمة المراقبة مَحْصُور بالأحداث التي قد تؤثر في صورة السفارة أمام الرأي العام؛ كالمظاهرات، والمسيرات، والاحتجاجات. وهذا الحدث... مُخْتَلِف.

قال مُوَكَّدًا:

"لا تقلقي، فأنا أحملك".

قالت في نفسها: *آمل ذلك حقًا*. فبينهما سرٌّ خطير - علاقة عاطفية غير مشروعة داخل المكتب - وهو أمر مَحْظُور تمامًا على مُوظَّفي السفارة. قالت: "سأرى ما يمكنني فعله".

فربت على كتفها بلطف: "شكرًا، سأمرُّ مُجددًا بعد الاجتماع".

راقبته دانا وهو يغادر. يريدني أن أتعب امرأة تضع تاجًا شائكًا... لماذا؟

في الأسابيع الأخيرة، بدا مايكل أكثر كتمانًا من المعتاد، خصوصًا بشأن أمسياته. إذ لم يعد مُتاحًا للقائها بعد العمل، وأصبح يُراوغ عندما تسأله عما يشغله؛ فبدأت دانا تشكُّ في وجود امرأة أخرى في حياته.

فاجأها إحساس بالغيرة، وتساءلت عما إذا كان طلبه لدوافع شخصية. غير أنَّ الفكرة بدت لها سخيفة. فمن بين كلِّ الناس، من غير الممكن أن يستغلَّ الملحق القانوني موارد السفارة لأغراضه الشخصية، أو أن يطلب من دانا بالذات أن تتحقَّق بشأن امرأة أخرى.

مع ذلك، فهو يستغلُّني، هذا ما كانت واثقة منه.

إلاَّ أنها جلست خلف مكتبها، ودخلت نظام المراقبة التابع للسفارة.

"حسنًا، مايكل، لنر ما يمكننا العثور عليه".

بعد انضمام جمهورية التشيك إلى حلف الناتو عام 1999م، نُصِبَت أكثر من سبعمئة كاميرا مراقبة في أنحاء براغ، ضمن شراكة سرّية بتمويل أميركي عُرفت باسم إيشلون. وعلى الرغم من القوانين التشيكية الصارمة بشأن استخدام هذه الكاميرات، فقد أنشأت الولايات المتحدة الشبكة، ومنحت سفاراتها - مع بضعة استثناءات - حقَّ الوصول الكامل؛ الأمر الذي أثار جدلًا حادًا لدى السلطات التشيكية.

حتَّى دانا دانك لم تكن مُرتاحة تمامًا لهذا النظام، ومع ذلك، لم يكن أمام سكَّان أوروبا الوسطى إلاَّ الرضوخ لأعين إيشلون الساهرة التي تُراقب تفاصيل حياتهم اليومية، بما في ذلك لحظات تسلُّل دانا سرًّا من وإلى شقة مايكل هاريس، في أيِّ ساعة من الليل.

طمأنت نفسها: لا أحد يُراقب تحرّكاتي، ناهيك عن أنَّ المعطيات كثيرة ببساطة، بحيث

لا يمكن تتبُّع كلِّ شيء.

مع ذلك، كانت حملات مدنيّة مثل استعد وجهك (@ReclaimYourFace) تُنظّم مظاهرات مناهضة لأميركا احتجاجًا على الكاميرات المُنتشرة في كلّ أنحاء براغ. أمّا ردّ السفارة فكان مُباشرًا وصادقًا: يُفَضَّل معظم الناس أن تتمّ مُراقبتهم... على أن يتمّ تفجيرهم على أيدي إرهابيين.

على هذا الأساس، حرّكت دانا المؤشّر على خارطة تفصيليّة لمدينة براغ، وتوجّهت نحو جسر كارل، ثمّ فتحت لقطات المراقبة المؤرشفة حديثًا.

الفصل 21

كان دويّ طلقات الرصاص لا يزال يتردّد في طبليّ أذنيّ لانغدون وهو يجتاز المدخل المُحطّم لحصن الصليب. وسحق حذاؤه شظايا الزجاج التي تُغطّي الأرضيّة الرخاميّة الوردية وهو ينضمّ إلى ياناتشك والملازم بافيل في المدخل الأنيق.

كان ثمة رواق يقودهم يمينًا، لكنّ ياناتشك بدا أكثر تركيزًا على الباب الفولاذيّ المهيّب أمامهم مباشرة. كان للباب الذي يحمل كلمة LAB، أي مختبر، نافذة صغيرة مُدعّمة ولوحة بيومترية.

قال ياناتشك وهو يتفحص الباب المُقفّل ويحدّق من خلال النافذة: "درج يؤدّي إلى المختبر في الأسفل".

نظر لانغدون حوله بحثًا عن مصعد؛ إذ راوده فضول لمعرفة كيفيّة نقل غُسنير المعدات العلميّة الثقيلة إلى منشأتها، لكنّه لم يجد شيئًا في البهو سوى هذا الدرج والممرّ الذي يمتدّ إلى اليمين. ولم يرَ حتّى الآن أيّ أثر للوحة المفاتيح التي قالت الدكتورّة غُسنير ليلة البارحة إنّها تستخدم "رمزًا ذكيًا" لتشغيلها.

كان ياناتشك يتفحص إطار الزجاج المقوّى المُهشّم المُلقى على الأرض. وبعد هنيهة، انحنى ورفع، ثم جرّه نحو مدخل المختبر، وأسندته على نحو غير ثابت إلى الباب. قال: "مُنبّه مؤقت، في حال فكّرت صديقتك في التسلّل في أثناء انشغالنا". لم يصدّق لانغدون أنّ ياناتشك يخشى أن تحاول كاثرين الهرب، لكنّه مع ذلك أعجب بحسّه العملي.

كان الملازم بافيل قد بدأ يتحرّك بحذر في الممرّ، ومسدّسه مرفوع كأنّه يتوقّع كمينًا في أيّ لحظة.

هتف لانغدون في سرّه: أنزل مسدّسك اللعين! فهؤلاء مجرد علماء عَزَل!

لحق به ياناتشك ولانغدون، بينما كان يفتح باب مرحاض صغير ليتفحصه. وبعد أن وجده خاليًا على ما يبدو، تابع تقدّمه إلى آخر الممرّ. هناك، انعطف الممرّ يسارًا، فاقرب الملازم من الزاوية ببطء، ومسدّسه لا يزال مرفوعًا. وبعد لحظة، أنزل سلاحه وأشار إلى قائده بحركة من كفيه قائلاً: "Nikde nikdo".

تبع لانغدون ياناتشك إلى ركنٍ ساحرٍ يغمره ضوء النهار الطبيعيّ. كانت الغرفة المؤنّثة كردهة فندقٍ فخم، تحتوي على أرائك بيضاء ناصعة، وطاولات نحاسيّة مصقولة، وركن

قهوة فاخر. ووفرت النوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف إطلالةً مهيبَةً عبر فناء الحصن الطويل على أفق براغ، وبرج بترين، وحصن فيشيهراد.

وبينما كان لانغدون يتفحص المكان، وقع نظره على قطعة فنيّة ضخمة على الجدار الخلفي؛ نحت جداريّ بأسلوب الوحشيّة المعماريّة، وقد تعرّف إلى طابعه فوراً. يا إلهي، هل هذه فعلاً قطعة أصلية لبول إيفانز؟

كان العمل المعدنيّ الصديّ يمتدّ على مساحة مُربّعة ضخمة، مُقسّماً إلى شبكة من التجاويف المُسطيلة، تضمّ كلّ منها منحوتة صغيرة مُستقلّة. كانت تجسيدا مُبتكراً لفكرة "خزانة التّخف". وبحسب تقدير لانغدون، فإنّ هذا العمل يساوي على الأقلّ ربع مليون دولار. صحيح أنّ غُسنير تباغت البارحة بعائدات براءاتها الطبيّة، لكنّه لم يتوقّع أن تكون أرباحها بهذا الحجم.

كان ياناتشك يتوجّه إلى الطرف الآخر من القاعة، نحو باب خشبيّ ضخم مفتوح على ما بدا أنّه مكتب الدكتور غُسنير. فنادى وهو يدخل: "دكتورة غُسنير؟"

لحق به لانغدون، على أمل أن يرى كاثرين، لكنّ المكتب كان خالياً.

كان مكتب عالمة الأعصاب مُزداناً بمجموعة من المطبوعات التجريدية النابضة بالحياة، يتضمّن كلّ منها شكلاً كروياً غير مُتّسق، تتوزّع فيه مناطق ملوّنة. فأدرك لانغدون على الفور أنّها صور رنين مغناطيسيّ للدماغ البشريّ. عندما يتحوّل العلم إلى فنّ.

تساءل لانغدون عمّا إذا كانت غُسنير مهووسة بنفسها إلى حدّ تعليق صورٍ لدماغها على الجدران. فقد انتشرت في الآونة الأخيرة صيحة البورتريهات الذاتية الحيويّة، مع ظهور شركات تصوير مثل DNA11 التي تُنتج لوحات فنيّة تستند كليّاً إلى صور مجهرية للحمض النوويّ الخاصّ بالزبون. وكانوا يروّجون لها بشعار: فنّ جينيّ، أي قطعة لا تتكرّر.

اقترب ياناتشك من مكتب غُسنير، ليتفحص جهازاً يشبه نظام الاتّصال الداخليّ مع ميكروفون. فضغط زرّاً وتحدّث قائلاً: "دكتورة غُسنير؟ أنا النقيب أولدرينخ ياناتشك من جهاز الاستخبارات التشيكيّ. كما تعلمين - على ما أعتقد - أنا هنا برفقة البروفيسور روبرت لانغدون. ومن الضروريّ أن تصعدي أنتِ والآنسة سولومون فوراً للتحدّث إليّ. أكرّر... فوراً. أرجو التأكيد."

ثمّ أفلت الزرّ، وانتظر وهو يحدّق إلى عين كاميرا مُثبّتة في السقف. ومع كلّ ثانية صمت تمرّ، كان قلق لانغدون يتعاظم. لماذا لا تردّ كاثرين؟ هل حدث أمر ما في الأسفل؟ هل وقع حادث؟

قال يانانتشك وهو يتقدّم ببطء نحو لانغدون: "بروفيسور، هل لديك أيّ تفسير لإهمال الأنسة سولومون الردّ عليّ؟ إنهما هنا بالتأكيد. فمكتب الدكتور غُسْنِر غير مُقفل، وثمة آثار أقدام جديدة في الخارج".

لم يكن لانغدون متأكدًا إن كانت تلك الآثار "جديدة" فعلاً، لكن بما أنّ اللقاء كان مُحدّدًا هنا، فقد بدا من المنطقيّ أن تكون كاثرين مع غُسْنِر في الأسفل. أجاب بصدق: "ليست لديّ أدنى فكرة".

عاد يانانتشك لانغدون إلى قاعة الانتظار، وأشار إلى إحدى الأرائك البيضاء: "اجلس". فامتل لانغدون، وجلس على الأريكة الطويلة بمحاذاة الجدار، بينما اتّصل يانانتشك هاتفياً، وراح يتحدّث بسرعة بالتشبيكة.

في أثناء الانتظار، عاود لانغدون النّظر إلى الصور المُلوّنة المُعلّقة في مكتب غُسْنِر. فكّر في سرّه وهو يتأمّل ثنایا الدماغ الغامضة وتشابكاته المُتداخلة: كلّ هذا العضو لا يتعدّى وزنه ثلاثة أرتال. ومع ذلك، لا يزال العلم عاجزاً عن تفسير كفيّة عمله. تذكّر كيف عرضت كاثرين في محاضرتها الليلة الماضية صورة أقلّ جاذبيّة بكثير لدماغ بشريّ؛ صورة مخبريّة قائمة لكتلة رماديّة مُتجمّدة وُضعت على صينيّة من الفولاذ.

قالت للحضور: "هذا دماغكم. أعلم أنّه يشبه قطعة "برغر" قديمة، لكنني أوكدّ لكم أنّ هذا العضو مُعجزة بكلّ ما للكلمة من معنى. فهو يحتوي على نحو ستّة وثمانين مليار خلية عصبية، تشكّل معاً أكثر من مئة تريليون تشابك عصبيّ قادر على معالجة معلومات مُعقّدة في لحظات. والأدهى أنّ هذه التشابكات تُعيد تنظيم نفسها بمرور الوقت وفق الحاجة. وهذه الظاهرة، التي تُعرف بالمرونة العصبية، هي التي تتيح للدماغ أن يتكيف، ويتعلّم، ويستعيد عافيته بعد الإصابات".

بعد ذلك، عرضت صورة أخرى لقرص DVD عاديّ موضوع على طاولة وقالت: "هذا القرص يتّسع لأربعة فاصلة سبعة غيغابايت من المعلومات، أي ما يُعادل نحو ألفي صورة عالية الدقّة. لكن، هل تعلمون كم قرصاً كهذا نحتاج لتخزين الذاكرة التقديرية لدماغ الإنسان العاديّ؟ سأعطيكم تلميحاً... لو رُصّت الأقراص بعضها فوق بعض"، وأشارت إلى السقف الشاهق في قاعة فلاديسلاف وتابعت: "فسوف تتجاوز سطح هذا المبنى بكثير. لا، بل في الواقع... ستبلغ الكومة... ارتفاع مَحطة الفضاء الدوليّة".

طرت كاثرين على جبهتها وقالت: "نحن نخزن ملايين الغيغابايت من البيانات هنا؛ من صوّر، وذكريات، وتعليم، ومهارات، ولغات... وكلّ ذلك مُنظّم ومُرتّب داخل هذه المساحة الصغيرة. بينما لا تزال التكنولوجيا الحديثة بحاجة إلى مستودعات بيانات لمُضاهاة ذلك".

أخيراً، أغلقت العرض المرئي، وتقدّمت نحو مُقدّمة المنصّة: "ما زال العلماء الماديّون في حيرة من أمرهم حيال قدرة هذا العضو الصغير على احتواء هذا الكمّ الهائل من المعلومات، وأنا أوافقهم الرأي؛ إذ يبدو هذا استحالة ماديّة... ولهذا السبب، أنا لستُ ماديّة".

سرت همهمة في القاعة، في حين ابتسم لانغدون بصمت. ها هي تعبث بوكر الدبابير مجدّداً. فهو مُعتاد على جرأة كاثرين في استفزاز مناقشيتها عندما يتعلّق الأمر بالفلسفتين المُتعارِضَتَيْن اللَّتَيْن تقسمان ميدان دراسة الوعي البشريّ. الماديّون مقابل علماء الوعي.

كان الماديّون يعتقدون أنّ جميع الظواهر - بما فيها الوعي - يمكن تفسيرها حصراً من حيث المادّة الفيزيائيّة وتفاعلاتها. فبرأيهم، الوعي ليس سوى ناتج ثانويّ للعمليات الفيزيولوجيّة؛ نشاط الشبكات العصبيّة إلى جانب التفاعلات الكيميائيّة في الدماغ. أمّا علماء الوعي، فتصوّرهم أقلّ حصراً بكثير؛ إذ كانوا يرون أنّ الوعي ليس من إنتاج الدماغ أصلاً، بل هو جانب أساسيّ من جوانب الكون؛ شأنه شأن الزمان والمكان والطاقة، وغير موجود داخل الجسد.

دُهِش لانغدون حين علم أنّ وزن الدماغ البشريّ لا يتجاوز 2٪ من وزن الجسم، ومع ذلك يستهلك ما يقارب 20٪ من كمّيّة الطاقة والأكسجين التي يحتاج إليها الجسم. وكان هذا التناقض الصارخ - في نظر كاثرين - دليلاً على أنّ الدماغ يقوم بوظيفة ما زال يتعذّر على البيولوجيا التقليديّة فهمها.

قال لانغدون في سرّه: ستخوض مخطوطتها في الأرجح في هذا اللغز. وتساءل إن كان جوناثان فوكمان قد بدأ بالقراءة بالفعل. بما أنّني أعرف جوناثان، فلا بدّ أنّه قضى الليل ساهراً، وربّما بلغ مُتَنَصِّف الكتاب الآن.

أنهى ياناتشيك مُكالمته الثانية، لكنّ نبرته المُتوتّرة لم تُخفّف شيئاً من قلق لانغدون المُتزايد. فنظر إلى ساعته، مُتمنّياً وصول هاريس والسفيرة بسرعة.

وبينما كان لانغدون جالساً على الأريكة، عاد بصره إلى منحوتة بول إيفانز الجداريّة الضخمة في الجهة المُقابلَة من الغرفة. كان هذا العمل باهظ التكلفة قد أزعجه منذ اللحظة التي رآه فيها؛ إذ كان يكره أولئك الأثرياء الذين يشترون تحفاً عالميّة، ثمّ يزعونها من أمان المتاحف ويعرضونها في إضاءة باهتة أو أماكن غير آمنة.

والأسوأ أنّ غِسنير عرضتها بطريقة خاطئة.

فمن الواضح أنّ بول إيفانز قصد أن تُعرض هذه المنحوتة كلوحة، في وسط الجدار. إلّا أنّ غِسنير وضعتها بتكاسل على الأرض، وأسندتها عموديّاً، ولم تثبتها إلّا من أعلاها

باستعمال عارضة حديدية؛ لمنعها من السقوط.

قال لانغدون في نفسه: "هذا الجدار صخريّ صلب، وبإمكانه حمل وزنها بسهولة".
لكن فجأة، استوقفته فكرة لم تخطر بباله من قبل.
إلا إذ...

أمعن النظر إلى القطعة بأكملها لثوانٍ أخرى، ثم نهض وتوجّه نحوها بخطى سريعة.
فجأة، قفز پافيل أمامه، شاهراً سلاحه مباشرة إلى صدره: "Nechte toho!"
فرفع لانغدون ذراعَيْه في الهواء على الفور. حبّاً بالله!
في تلك الأثناء، أنهى ياناتشك مكالمته، وأوماً بهدوء إلى مساعده، فأنزل پافيل سلاحه
وأعادته إلى مكانه.

صاح لانغدون غاضباً في وجه ياناتشك: "ما الذي يفعله حبّاً بالله؟!"
أجاب ياناتشك ببرود: "إنّه يقوم بعمله. هل كنت تحاول الرحيل عنا؟"
"الرحيل؟ لا، بل كنت..."
"كنت ماذا؟"

تردّد لانغدون قليلاً، ثمّ كذب مُجيباً: "كنت ذاهباً إلى دورة المياه". وعاد إلى مقعده
مُضيفاً: "لكن على ما يبدو، يمكنني الانتظار".

* * *

كان الغولم قد وضع نظّارته الشمسية وهو يعبر ساحة البلدة القديمة المرصوفة
بالحصى باتجاه موقف سيارات الأجرة. وعلى الرغم من قلة نومه، شعر بطاقة مُتجدّدة،
مُركّزاً تفكيره على ما يلزمه لتنفيذ عمله الانتقاميّ المُحرّر.
في الليلة الماضية، اعترفت له غُسنِر بحقيقة مُظلمة، وهي أنّ زملاءها شيدوا سرّاً منشأة
ضخمة، أشبه بكهف هائل، تحت أعماق مدينة براغ. يسمونها العتبة. كان نطاق المشروع
مُذهِلاً، لكنّ ما أدهش الغولم حقّاً كان موقعه الدقيق.
في قلب المدينة.

مئات البشر يعبرون فوقه يومياً... غافلين تماماً عن وجوده.

وعندما أصرّ الغولم على معرفة طريقة الدخول إليها، قاومت غُسنِر قليلاً، لكنّ الألم
سرعان ما أرغمها على الاعتراف: لا يمكن دخول العتبة سوى لمن يعرف مكان المدخل...
ويملك بطاقة نفاذ خاصّة تعمل بتقنية RFID.⁽¹⁾

(1) نظام لتحديد الأشياء وتتبعها لاسلكياً باستخدام موجات الراديو.

بضع دقائق من القسوة كانت كافية لينتزع منها الاثنتين: المعلومة... وكذلك بطاقتها الشخصية.

غير أنه اكتشف لاحقاً أنها أخفت عنه تفصيلاً أساسياً؛ فالبطاقة وحدها لم تكن كافية للدخول.

في تلك الليلة، عاد مُنهكاً إلى بيته والبطاقة عديمة الجدوى في جيبه. لكن في منتصف الطريق، خطرت بباله فكرة. وكلّما فكّر فيها، ازداد يقيناً أنها قد تكون الحلّ لمشكلته. ومع بزوغ الفجر، أصبح واثقاً تماماً.

أنا بحاجة إلى عنصر ثانٍ.

لحسن حظّه، كان يعرف مكانه بالضبط: في مختبر غُسْزِر الخاصّ، القابع على الحافة الصّخرية المُطلّة على المدينة.

قال للسائق وهو يركب التاكسي: "*Bastion u Božích muk*، خذني إلى حصن الصليب".

الفصل 22

شعر الملازم پافيل بشيء من الزهو وهو يدرك أنه أرعب روبرت لانغدون إلى درجة جعلته يعدل عن الذهاب إلى دورة المياه. كان الأميركيّ جالسًا الآن على الأريكة يُحدّق إلى الفراغ. إنّ مواجهة فوهة مسدّس كفيلة ببثرة الأفكار.

وبدافع الضغينة، اتّجه پافيل إلى دورة المياه في نهاية الممرّ، وترك الباب مفتوحًا ليسمعه لانغدون، حتّى أنّه بالغ في إحداث ضوضاء في أثناء ذلك، ثم ضغط على زرّ دفع المياه. حين خرج، صادف ياناتشك ينعطف في الممرّ. قال النقيب: "سأخرج لأدخن سيجارة".

كان پافيل قد عمل مع ياناتشك طويلاً، ويات يعرف أنّه يدخن حيشما يحلو له. هذا يعني أنّه خرج في الأرجح لإجراء مكالمة خاصّة. فقد اعتاد على كثير من هذه التصرّفات لديه. قال النقيب: "سيصل فريق التفجير بعد ثلاثين دقيقة ليفجّر هذا الباب". وأشار إلى البوابة الفولاذيّة التي تحمي الدّرج المؤدّي إلى المختبر.

فكّر پافيل في سرّه: شحنة واحدة مضبوطة كافية، وستتمكّن من الوصول إلى الطابق السفليّ.

كان إطار الباب المُحطّم لا يزال مُسنّداً إلى باب المختبر كإشارة إنذار، لكنّ پافيل كان واثقاً من أن أحداً لن يخرج من هناك بإرادته اليوم. فقد عصّوا أمراً مُباشراً من النقيب ياناتشك... ولم يبقَ أمامهم سوى خيارات ثمينة محدودة للغاية.

قال النقيب: "سأنتظر الفريق في الخارج. وأنت، ابقَ هنا وتأكد من أن أحداً لن يُغادر المختبر. ولا تدع لانغدون يغيب عن ناظريك". فصفق پافيل كعبيه. مَهْمُوم.

كان پافيل قد أصبح اليد اليمنى لياناتشك منذ ما يقارب خمس سنوات. وما لم يكن معروفاً على نطاق واسع في جهاز الأمن أنّه ابن شقيقته. ففي التاسعة من عمره، قُتل والده في حادث؛ إذ دهسه سائح على دراجة ناريّة. ففرقت أمّه بعد ذلك في الإدمان، وبدأ الصبيّ يقضي معظم وقته في الشوارع، يكسب رزقه من سرقات محلّيّة، ثم يفرض على أصحاب متاجر الحيّ دفع المال مقابل الحماية.

وحين اعتقل وهو في التاسعة عشرة من عمره ولم يظهر لأُمّه أثر، تدخّل شقيقها أولدرينخ ياناتشك لصالح ابن أخته الذي يكاد لا يعرفه. كان ياناتشك آنذاك ضابطاً صاعداً في

جهاز المخابرات، وقد أعجب بجرأة ابن أخته ودهائه، فخيرَه بين أمرين بسيطين: إما الذهاب إلى السجن وقضاء حياتك بين المجرمين... أو الالتحاق بالتدريب في جهاز المخابرات، وسأعلمك بنفسى كيف توقع بهم.

كان الخيار واضحًا، فاختار پافيل الطريق الثاني، وعمل بجد ليصبح خادمًا مُطيعًا للقانون. ومع أنه تخرّج بمرتبة متوسطة من صفّه التدريبي، إلا أنه ترقى بسرعة عبر الرتب، ليصبح الآن مُلازمًا؛ وهو منصب نادر لشاب في أواخر العقد الثالث من عمره. ومنذ ذلك الحين، لم ينادِ خاله إلا بـ "النقيب ياناتشك".

أنا أدين له بكل شيء، كان يعلم ذلك. فقد أصبح ياناتشك الأب الذي فقده پافيل، وكان الملازم الشاب مُعجبًا بجرأته وصلابته. أحيانًا يتطلّب تطبيق القانون أن تكون فوق القانون. عاش النقيب ياناتشك وفقًا لهذا الشعار، وغالبًا ما كان يثق بابن أخته ليغطّي آثاره كلما تجاوز الخطوط في تحقيق ما... كما فعل هذا الصباح.

هو يعلم أنني سأحميه حتى الرمق الأخير.

وقف پافيل الآن في البهو، يُراقب النقيب ياناتشك وهو يُغادر إلى ساحة الحصن المُغطاة بالثلوج. كانت مساحة مستطيلة وطويلة، تُحيط بها جدران حجرية مُنخفضة تحمي الزائرين من الهوائية المُمتدة تحت الحافة. وبينما كان النقيب يشق طريقه بين أشجار دائمة الخضرة مُصطفة في أوعية على العشب، رفع هاتفه وأجرى مُكالمة، وهو يتأمل أفق براغ من الطرف الآخر للساحة.

انتَهز پافيل الفرصة للتحقق من الرسائل التي وصلت على هاتفه، أملًا أن يصله إشعار من تطبيقه الجديد؛ منصّة المواعدة الافتراضية التي اكتسحت أوروبا. لم يتخيل پافيل قط أن الدردشة مع نساء مُصمّمات حاسوبياً ستثير اهتمامه، ومع ذلك - كغيره من الرجال - أصبح مُدمنًا على تلك المحادثات والصور والقصص الخيالية.

أحد عشر إشعارًا.

ابتسم، مسرورًا بوجود شيء يقرأه في أثناء انتظاره. فعاد إلى الردهة لحراسة لانغدون حاملًا هاتفه. ولكن ما إن دخل، حتّى فوجئ برؤية الأريكة التي كان يجلس عليها لانغدون فارغة. فاستدار يمينًا ويسارًا، مُفحصًا كل زاوية من المكان، قبل أن يهرع إلى مكتب غُسّير، لكنّه وجده خاليًا أيضًا.

سرعان ما تحوّل ارتباك پافيل إلى ذعر، فانطلق في أرجاء الغرفة بجنون، باحثًا خلف الأرائك والكراسي. لكن، أين اختفى؟! بدلا له وكأن روبرت لانغدون تبخر في الهواء.

على بُعد أقل من ستّة أمتار، كان لانغدون وإقفاً بلا حراك في الحجرة المُظلمة المَخْفِيّة خلف منحوتة بول إيفانز الجداريّة. فقبل لحظات، عندما وجد نفسه وحيداً، نهض عن الأريكة مُسرِعاً، وتوجّه إلى القطعة الفنّيّة ليتفحصها من كثب. وكما توقّع، لم تكن العارضة الفولاذيّة المُثَبّتة أعلاها دعامة تثبتت على الإطلاق.

كانت في الواقع سَكّة.

أشبه بباب حظيرة فخم.

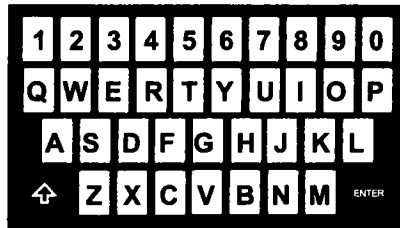
أمسك لانغدون بالحافة اليمنى للمنحوتة، ودفعها بقوة نحو اليسار، فانزلقت المنحوتة الضخمة بسلاسة، مُستندة إلى أسطوانات دقيقة عالية الجودة. وكما توقّع، ظهر خلفها مدخل خَفِيّ.

خطا سريعاً إلى الداخل، فأغلق اللّوح المُنزلق المُثَبّت بنابض خلفه بصمت.

وبينما كانت عيناه تتأقلمان مع الإضاءة الخافتة، سمع الملازم پايفيل يذرع غرفة الاستقبال جيئةً وذهاباً وهو يُطلق الشتائم بصوت عالٍ.

كانت الحجرة خلف المَنحوتة مُؤنّثة بالقدر نفسه من الفخامة والأناقة، تكسوها ألواح خشبية فاخرة، ويرتفع في وسطها عمود رخاميّ تعلوه شموع اصطناعيّة مُتلائيّة. أضاءت الشعلات المُتمايلة باباً معدنيّاً مَصقولاً.
إنّه مصعد خاصّ.

بدا هذا مدخلاً أنسب بكثير لمختبر غِسنِر الصغير من درج الخدمة، ولاحظ لانغدون أن باب المصعد مُؤمّن بلوحة مفاتيح مُضاءة.



على ما يبدو، لم تكن غِسنِر تبالغ بشأن تأمين مُختبرها برمز مرور ذكيّ. والآن، ما على لانغدون سوى اكتشاف ماهيّته.

الفصل 23

لم تكن لحظات الرعب جديدة على جوناس فوكمان؛ كالفز من طائرة مروحية بلا مظلة، ومواجهة احتمال الموت غرقاً على يد مريض نفسي، وتفادي الرصاص في أثناء التثبت بسقف شديد الانحدار. غير أن كل تلك السيناريوهات كانت مجرد أحداث خيالية على صفحات الروايات التثقيفية التي أشرف على تحريرها.

أما الآن، فالرعب حقيقي.

سبب له الكيس الذي يغطي رأسه اختناقاً بطيئاً، فيما كانت يدها موثقتين خلف ظهره. وكان مُمدداً على أرض معدنية صلبة، في الجزء الخلفي من مركبة تسير بسرعة على الطريق السريع منذ أكثر من عشر دقائق. سمع هاتفه يهتز في جيب معطفه مراراً، لكن لم يكن في وسعه أن يمدّ يده إليه. وبقدر ما استطاع أن يستتج، فقد اختطفه رجلان - بدت لكتهما أميركية - وفتّشا حقيبته.

لقد استوليا على المخطوطة.

اختلط خوفه بحيرة عميقة.

لكن لماذا؟

انحرفت الشاحنة فجأة عن الطريق السريع، وسارت بين شوارع فرعية، ثم توقفت على نحو مُباغت. وعندما انتزع خاطفوه الكيس عن رأسه، وجد نفسه وجهاً لوجه مع رجل قويّ البنية، في العقد الرابع من عمره، رأسه حليق على الطريقة العسكرية، ويرتدي ثياباً سوداء بالكامل. جلس على صندوق بلاستيكيّ أمامه مباشرة، يُحدّق إليه بعينين كالجلد.

ارتجف فوكمان رعباً، وحول بصره إلى النافذة الأمامية، فلم ير سوى الأشجار والظلام، وسمع دويّ آلات ثقيلة يتردّد من بعيد.

لكن، أين أنا؟

كان خاطفه الثاني - وهو أصغر سنّاً بقليل - جالساً على المقعد الأمامي إلى جوار السائق، يطبع على حاسوب محمول. وكان الرجل نفسه الذي رآه فوكمان سابقاً على الرصيف يحمل لوحة.

قال الرجل عند الحاسوب: "جاهز".

فمدّ شريكه ذو الرأس الحليق يده إلى كاميرا مثبتة في سقف السيارة، وأدارها نحو وجه فوكمان مباشرة. فقال هذا الأخير في سرّه: قاعدة النجاة الأولى، لا تُظهر خوفك إطلاقاً.

تمتم فوكمان: "كاميرا رائعة... هل نُصوِّر مَقْطَعًا على تيك توك؟"

فنظر إليه الرجل، وقد بدت عليه الدهشة من جرأته.

تابع فوكمان بنبرة هادئة: "أم إننا نُصوِّر فيديو تطلب فيه فدية لإرساله إلى عائلتي؟"

أجابته الرجل ببرود: "ليست لديك عائلة، ولست مُتزوِّجًا، تعمل ستّة أيام في الأسبوع، ولم تغادر البلد منذ أكثر من أربع سنوات."

يا إلهي! من يكون هؤلاء؟

ظنّ في البداية أنّهم عسكريّون أميركيّون، لكن لم يعد من السهل معرفة ذلك في هذه الأيام. فقد نشر قبل بضع سنوات كتابًا غير روائي عن عالم المُرتزقة المُعاصرين؛ وهم مُتعاقدون مُدربون على أعلى مستوى، يحملون أسماء غامضة مثل المياه السوداء (Blackwater)، والمظلة الثلاثية (Triple Canopy)، وكوخ الحراسة (Wackenhut)، وحلول التنمية الدوليّة. وهذان الرجلان قد يكونان تابعين لأيّ جهة.

أخرج ذو قصّة الشعر العسكريّة جهازًا لוחيًا من معطفه، وتصفّحه سريعًا، ثمّ دفعه أمام وجه فوكمان وهو يسأل: "هل تعرف هذا المكان؟"

ألقي فوكمان نظرة على الصورة، واستغرق لحظة قبل أن يُدرك ما يراه. ما هذا؟! إنّهُ منزله! غرفة المعيشة في شقّته الرحبة في "أبر إيسْت سايد" وقد تعرّضت للتخريب... لوحات مُلقاة على الأرض، مكاتب فارغة، أرائك ممزّقة، وطاولات مقلوبة.

قال الرجل: "خمن، عمّ كنّا نبحث؟"

نظر فوكمان إلى رأسه الحليق، وردّ بسخرية: "أعن حلاق أفضل؟"

فجأة، انقضّ الرجل بقبضته الهائلة على معدة فوكمان، فانحنى الأخير، ثمّ سقط على جانبه وهو يلهث طلبًا للهواء.

أوقفه الخاطف مُجدّدًا على ركبتيه وقال: "جرّب مُجدّدًا، عمّ كنّا نبحث؟"

قال فوكمان وهو يتنفس بصعوبة: "لا... أعلم."

تصفّح الرجل الثاني بعض البيانات على شاشة الحاسوب وهزّ رأسه قائلاً: "إنّه يكذب."

قال ذو الرأس الحليق: "سأطرح عليك السؤال لآخر مرّة، وقبل أن تُجيب، اسمح لي بأن أعرفك إلى أفاتار"، وأشار إلى الكاميرا فوقه، ثمّ تابع: "هذا محرّك ذكاء اصطناعيّ يتعقّب حركات عينيك وتغيّرات وجهك الدقيقة ووضعيات جسدك. إنّهُ نظام مُتقدّم لتحليل لغة الجسد."

نظام لتحليل لغة الجسد؟ قرّر فوكمان ألاّ يسخر من هذا الأحمق لإطلاقه مُصطلحًا رنانًا على جهاز عاديّ. على الأقلّ، صار لوجود الكاميرا تفسير واضح.

مال الرجل الجالس على الصندوق البلاستيكي إلى الأمام، حتى أصبح وجهه على بعد بوصات من وجه فوكمان: "نحن نعرف عنك كل شيء، يا جوناس. نعرف أنك تسهر في عملك، وتجري في سنترال بارك عندما لا تكون مُرتبطاً بغداء عمل، وتحسني الشراب مع أصدقائك الأدباء في وايت هورس. لذا، لا تراوغني، سأطرح عليك سؤالاً واحداً بسيطاً".
انتظر فوكمان، فيما كان الألم لا يزال قابضاً على معدته.

قال ذو الرأس الحليق: "المخطوطة التي وجدناها في حقيبتك، أهى نسختك الوحيدة؟"

أدرك فوكمان الجواب الذي يتمنيان سماعه، إلا أن قول الحقيقة الآن يعني خسارة ورقة التفاوض فوراً... وربما خسارة حياته.

هكذا، لم يجد سوى خيار واحد. فأغض عينيه، واستحضر صورة بطل إحدى السلاسل الشويقية التي نشرها؛ جاسوس كان ينجح دومًا في خداع أجهزة كشف الكذب عبر ثلاث خطوات بسيطة، حاول أن يقلدها الآن.
أولاً، أرخى كتفيه وحرّر بطنه من التوتر.
ثانيًا، شبك إبهامه وسبابته برفق، وأبطأ تنفّسه.

ثالثًا، تخيل بوضوح صورة للحقيقة التي يتمنى لو كانت صحيحة؛ وفي هذه الحالة، عدّة مخطوطات إضافية موضوعة بأمان على مكتبه في "راندوم هاوس".

عندئذٍ، شعر بهدوء أكبر، وقال بصوت مُتماسك: "لا، المخطوطة التي في حقيبتني ليست النسخة الوحيدة، بل ثمة نسخ أخرى كثيرة".

ألقى الرجل نظرة على شاشة حاسوبه، ثم هزّ رأسه على الفور: "يكذب".
اللعنة عليك يا جوناس! إنها تُسمّى رواية خيالية لسبب وجيه!

رفع ذو الرأس الحليق قبضته مُجددًا ليلكمه على معدته، فما كان منه إلا أن هتف: "مهلاً! كنت أعني النسخ الرقمية على خوادم الشركة".

فابتسم الرجل بسخرية: "سيد فوكمان، لقد حذفنا جميع النسخ الرقمية، ولهذا كنت تسرع إلى مركز النسخ، أليس كذلك؟"

ساد صمت ثقيل، فيما قلب فوكمان يخفق بجنون. كان لا يزال يسمع هدير الآلات خارج الشاحنة، والتي ربّما هي أزيز مُحركات صناعية.

قال الرجل بلهجة حاسمة: "سأبسط لك السؤال. بخلاف النسخة التي كانت في حقيبتك وتلك الموجودة على خوادم الشركة، هل تعرف بوجود أي نسخ أخرى ورقية، أو رقمية، أو غير ذلك؟"

هزّ فوكمان رأسه: "لا، النسخة الموجودة في حقيبتني هي الوحيدة الباقية".
صَحَّح الرجل: "كانت النسخة الوحيدة الباقية، فقد دمَرناها أساسًا".

* * *

كان أليكس كونان وحيدًا في مركز أمن دار النشر، وقد أصابه الذهول.
هذا مستحيل.

ضغط على لوحة المفاتيح لتحديث الصفحة، آملاً أن تكون المعلومات التي أمامه
خاطئة، لكن الصورة المُرَعِبَة نفسها ظلَّت تظهر مرارًا... وتكرارًا.
يا إلهي، لا...

قبل دقائق فقط، ومع غياب أيِّ أثر لفوكمان وعدم تمكُّنه من التواصل مع كاثرين
سولومون أو روبرت لانغدون، قرَّر أن يُقدِّم على خطوة جريئة.
لديك المهارات، ولديك وسائل الوصول.

وقد استخدمها جميعًا. وعلى الرغم من الشبهات القانونية التي أحاطت بوسائله،
تمكَّن من اختراق معلومات لم يكن مسموحًا له بالاطِّلاع عليها في سعيه إلى تعقبهم. والآن،
ظهرت أمامه على الشاشة صورة مُروَّعة. حاول أن يجد أيَّ تفسير بريء لما يراه، لكن عقله
ظلَّ يعود إلى الاستنتاج المنطقي الوحيد... استنتاج تقشعر له الأبدان.

من أراد القضاء على هذا الكتاب الذي سيصدر عن دار بنغوين راندوم هاوس... قد
قتل بالفعل إحدى مؤلِّفات الدار.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل 24

في عتمة الحجرة المخفية، راح لانغدون يتفحص لوحة الأرقام المضئية المثبتة على مصعد غِسْنِر الخاص، بينما كان يُعيد في ذهنه مشاهد لقائهما بها في الليلة السابقة. كانت غِسْنِر امرأة جادة الملامح، حادة الطباع، ذات بشرة شاحبة، وشفتين مشدودتين. وقد عقدت شعرها إلى الخلف بإحكام مثل راقصة فلامنكو. لم يشعر لانغدون بالارتياح لها منذ اللحظة الأولى. وكانت قد انضمت إليهما في مقهى فندق فور سيزنز، كوتوكروود، بعد انتهاء محاضرة كاثرين.

قالت كاثرين بحفاوة وهي تنهض عن مقعدها: "دكتورة غِسْنِر، شكرًا لك على انضمامك إلينا، كما أشكرك بالتأكيد على دعوتي لإلقاء محاضرة هنا؛ في مدينتك البديعة". اكتفت المرأة بابتسامة مقتضبة، وقالت بإنجليزية مشوبة بلكنة تشيكية: "كان الحضور كبيرًا الليلة. لقد صنعت لنفسك اسمًا مرموقًا".

تجاهلت كاثرين الإطراء بتهذيب، وأشارت إلى لانغدون قائلة: "هذا لطف منك. أعتقد أنك تعرفين زميلي، البروفيسور روبرت لانغدون؟" عندئذٍ، نهض لانغدون، ومدّ يده مُصافحًا: "تشرفتُ بلقائك".

غير أن غِسْنِر تجاهلت يده، وجلست إلى طاولتهما مباشرة، وقالت: "أمل ألا تكونا قد طلبتما الشراب بعد؛ فقد طلبت منهم أن يجلبوا بعض الأنواع المحلية". ثم التفتت إلى لانغدون وقالت: "بروفيسور، طلبت لك 'لوتشه'؛ إنه مزيج مُميز من المشروبات مع شراب القيقب، واللحم المُقدّد".

اللحم المُقدّد؟! كان لانغدون سيُفضّل كثيرًا شرابه المعتاد. تابعت غِسْنِر: "ولك أنت يا كاثرين، طلبتُ ستاروبلزنيتسكي؛ وهو شراب بوهيمي محليّ. نحن نقول مازحين: ما دمت قادرًا على نطق اسمه، فهذا يعني أنك بحاجة إلى كأس أخرى".

إنّها لعبة نفوذ مُتكررة بلباس الكرم، هذا ما رآه لانغدون. فما من مشروب أشدّ تأثيرًا من هذا الشراب البوهيمي، وكاثرين لا تتحمل هذه المشروبات كثيرًا.

قالت كاثرين بأدب: "هذا كرم منك، فقد استمتعتُ حقًا بوجودي هنا، وبإلقاء المحاضرة في مدينتكم الساحرة. كان هذا شرفًا كبيرًا لي". أعجب لانغدون برباطة جأشها، وبملاحمها المُتناسقة التي يُحيط بها شعرها الداكن الطويل.

هَزَتْ غَسْنِرَ كَتَفَيْهَا: "كانت مُحاضرة مُسلّية، لكنني وجدت موضوعها، كيف أُعبّر لك... ميتافيزيقياً بطريقة مُتوقّعة".

قالت كاثرين: "يُؤسفني سماع ذلك".

أردفت غَسْنِر: "لا أقصد الإساءة إلى علم الوعي، لكنّ العلماء الجاذين أمثالي لا يُعطون أيّ قيمة للمفاهيم الميتافيزيقية كالروح، والرؤى الروحية، أو الوعي الكوني. فنحن نعتقد أنّ التجارب الإنسانية كلّها ما هي إلّا تفاعلات كيميائية في الدماغ؛ فيزياء سببية. وما عدا ذلك... فمجرّد أوهام".

أحقّاً وصفت نفسها بالعالمّة الجادّة، وكاثرين بالواهِمة؟!!

شعر لانغدون بالاستياء، لكنّ كاثرين ابتسمت، وربّتت على ساقه من تحت الطاولة.

تابعت غَسْنِر: "من المُثير للاهتمام أنّك، بعدما حصلتِ على دكتوراه في علم الأعصاب - وهو أكثر التخصصات مادّية - انحرفتِ لاحقاً إلى عالم علم الوعي الغامِض".

فأجابت كاثرين مُمازحة: "أتقصد من معهد علم الوعي في كاليفورنيا؟ لعلّ هذا العلم جعلني أرغب في رؤية الصورة الكبرى".

لم يستطع لانغدون كبح نفسه أكثر فتدخّل: "عذراً، لكن إذا كنت تنظرين إلى علم الوعي بعين الاستخفاف إلى هذا الحدّ، فلماذا دعوتِ الدكتورة سولومون لإلقاء مُحاضرتها؟"

بدا السؤال مُسلّياً بالنسبة إلى غَسْنِر التي أجابت: "في الحقيقة، ثمة سببان لذلك. أوّلاً، اضطرتّ المُحاضرة الأصليّة، الدكتورة آفا إيستون من المجلس الأوروبيّ لأمراض الدماغ، إلى إلغاء مُحاضرتها. فكنّا بحاجة إلى مُتحدّثة أخرى بديلة، وتوقّعتُ أن تغتنم كاثرين هذه الفرصة. ثانياً، قرأتُ مُقابلةً اعترفت فيها كاثرين - بكرم بالغ - بأنّ إحدى مقالاتي كانت مَصدَر إلهام لها في جزء من كتابها المُقبِل".

قالت كاثرين: "هذا صحيح. كنت أَسْأَل عما إذا كنتِ قد لاحظتِ ذلك".

فأجابت غَسْنِر بنبرة مُتعالية كما لو أنّها تُخاطب طفلاً: "نعم، لاحظتُ يا كاثرين؛ مع أنّك لم تذكري أيّ مقال هو الذي ألهمك؟"

أجابت كاثرين: ""كيمياء الدماغ في حالات الصرع"، الذي نُشر في المجلة الأوروبيّة لعلم الأعصاب".

علّقت غَسْنِر: "أليس هذا خارجاً عن نطاق علم الوعي بعض الشيء؟ أمل فقط ألا تكوني قد حرّفتِ نتائج أبحاثي لتناسب استنتاجاتك الخاصة".

فردت كاثرين هدهود: "على الإطلاق".

أعجب لانغدون بقدرتها على التحلي بهذا القدر من اللباقة؛ أكثر مما يمكنني إظهاره لهذه المرأة.

قالت غسنير: "مع ذلك - وبحكم الزمالة - أفضل قراءة هذا الفصل مسبقًا. لا بد أنك تملكين نسخة من مخطوطتك".

فأجابت كاثرين بصدق: "في الواقع، ليست معي".

عندئذ، نظرت إليها غسنير بشيء من الشك: "حسنًا، ربّما يمكنك الحصول على نسخة من أجلي. وإن أعجبتني، فقد أقدم لك دعمًا علنيًا يزيد صدقيتك في هذا الكتاب الأول".

ابتسمت كاثرين بصبر بالغ وقالت: "هذا لطف منك، سأستشير محرّري في الأمر".

بدا الامتعاض واضحًا على وجه غسنير، لكنها قالت: "كما تشائين. على الأقل، اسمحي لي أن أدعوك غدًا إلى مختبري الخاص لأريك شيئًا من عملي الذي أظنّ أنّه سيُثير بصيرتك. وعندئذ، سأكون مسرورة لأنني حظيت بفرصة تنويرك".

تحرك لانغدون على مقعده بانزعاج، لكنّ كاثرين أمسكت بيده من تحت الطاولة، وضغطت عليها بقوة لافتة، مانعة إيّاه من الردّ، فيما قبلت دعوة غسنير.

بعد مرور عشرين دقيقة، كانت غسنير لا تزال تتحدّث... غير أنّ لانغدون أضاع مجرى الحديث. فبعد أن احتسى نصف شرابه، شعر وكأنّه تناول فطورًا وليس شرابًا. ولو طال الحديث أكثر، لاحتاج حقًا إلى كأس أخرى.

ربّما مشروب بالبيض المقلّي!

أمّا كاثرين التي لم تحتس سوى القليل من شرابها، فقد بدأت تفقد توازنها؛ إذ ثقل لسانها، وباتت تواجه صعوبة في فتح عينيّها.

قالت غسنير باستخفاف: "ونظرًا إلى الطبيعة المُبتكرة لأبحاثي، ستحتاجين بالتأكيد إلى توقيع اتفاقية "حفاظ على السريّة" قبل زيارة المختبر غدًا".

رأى لانغدون في ذلك شرطًا مُبالغًا فيه بين زملاء المهنة.

أضافت غسنير: "في الواقع، أحمل واحدة معي الآن". ثمّ أخرجت حقيبة جلدية صغيرة، وبدأت تفتح قفلها، مُضيفة: "يمكننا الانتهاء منها قبل اجتماع الغد -"

فقاطعها لانغدون قائلًا: "في الحقيقة، لا أظنّ أنّ كاثرين في وضع يسمح لها بقراءة وثيقة قانونيّة الليلة. ربّما غدًا، عند وصولها إلى مختبرك؟"

حدّقت إليه غسنير من فوق حقيبتها، كأنّها تقيس مدى صلابته، ثمّ قالت ببرود: "حسنًا، لا بأس".

ثم عاودت الحديث إلى كاثرين، فيما أخذ لانغدون يتساءل عن السبب الذي يدفع عالمة أعصاب، تحتقر عمل كاثرين، إلى إبداء هذا الحرص على استعراض مختبرها الخاص أمامها. أيًا كانت دوافعها، فقد قرّر لانغدون أن يقترح على كاثرين غداً الاعتذار عن هذه الزيارة بلباقة.

فجأة، قطعت عليه غِسنِر شروده بضحكة عالية: "الأمر ليس شخصياً يا كاثرين! أنت تعلمين أنني لم أخف يوماً ازدرائي للظواهر الخارقة وعلم النفس الموازي (Parapsychology / PSI). هل تذكرين ظهوري على غلاف سايتيفك أميركان؟"

ابتسمت كاثرين مُجيبة: "بالتأكيد. د. بريغيتا غِسنِر، لا تُنادوها neuro-PSI-entist". فضحكت غِسنِر بصوت عالٍ: "نعم، الكلّ شارك في النكتة. حتى إنّ أحد المُعجّبين أرسل لي لوحة فأرة حاسوب مكتوباً عليها: "لا وجود لـ PSI في العلم". ومازحني أحد الزملاء قائلاً إنّ عليّ أن أجعل كلمة السرّ في جميع حساباتي P-S-I؛ لأنّها آخر ما قد يخطر في بال أحد!"

قالت كاثرين وهي ترشّف من كأسها: "دعابة طريفة فعلاً". تابعت غِسنِر: "والأطرف أنني بعد سنوات، حين اضطرت إلى اختيار كلمة سرّ لمختبري الجديد، تذكّرت نصيحته... واخترت PSI ككلمة سرّ! عندئذ، رفع لانغدون أحد حاجبيه مُتشكّكاً: أتيهما أضعف احتمالاً، أن تختار كلمة سرّ من ثلاثة أحرف، أم أن تعترف لنا بها؟

غير أنّها سارعت تقول ضاحكة: "ليس حرفياً P-S-I بالتأكيد، بل شفرتها... براءة، إن جاز لي قول ذلك عن نفسي". لقد سبق وقلّته.

تابعت وهي ترمقه بنظرة جانبية: "بروفيسور، سمعتُ أنّك شغوف بالألغاز، أليس كذلك؟ ستعجبك طريقتي في التشفير". فقال لانغدون بصوت فاتر: "لا شك في ذلك".

أضافت غِسنِر مُتباهية: "أصِف شيفرتي العبقريّة بأنّها تحيّة عربيّة لإغريقيّ قديم مع انحناء لاتينيّة". ونزعت قشرة الليمون عن حافة كأسها، ثم تركتها تسقط على نحو دراميّ في شرابها. انتهى الحوار.

لم يفهم لانغدون ما تعنيه، فاكتفى بالقول: "تبدو شيفرة ذكيّة". قالت كاثرين وقد بدأ الشراب يؤثّر فيها: "روبرت يستطيع حلّها، فهو خبير في فكّ الشيفرات".

ابتسمت غُسْنِرُ ساخِرة: "أتحدّاه. أنا أقدر فرصته بأقلّ من واحد على ثلاثة ونصف تريليون".

ردّ لانغدون فوراً: "يبدو أنّها كلمة سرّ من سبعة أحرف وأرقام".

اتّسعت عينا غُسْنِر دهشة، وقد فاجأها برده السريع، فقهقهت كاثرين وقد ثقل لسانها: "قلت لك، إنّهُ بارع جدّاً في حلّ الشيفرات!"

تمتعت غُسْنِر، وقد فقدت شيئاً من ثقتها: "وكذلك في الحسابات على ما يبدو... حسنًا، بروفيسور، لا مزيد من التلميحات لك".

نهض لانغدون فجأة وقال: "على أيّ حال، أظنّ أنّ الوقت قد حان لإنهاء هذا اللقاء". ردّت غُسْنِر وهي تنهض بدورها تاركَةً معظم شراها: "آه، لقد أعلن الأب عن نهاية الحفل. أراك غدًا يا كاثرين، عند الثامنة صباحًا، في حصن الصليب". قال لانغدون في سرّه: سنرى.

وحين وقفت كاثرين، أفرغت ما تبقى من كأسها في فمها دفعة واحدة. فحسب لانغدون أنّ أمامه نحو ثلاث دقائق ليصطحبها إلى جناحهما قبل أن يقضي الشراب على توازنها تمامًا.

بعد أن ودّعا غُسْنِر، وساعد كاثرين على اجتياز الممر المؤدّي إلى جناحهما، لام لانغدون نفسه لأنّه تحمّل غُسْنِر طوال هذا الوقت. فقد عرف كثيرًا من الأكاديميين المتعجّزين، لكنّ بريغيتا غُسْنِر بلغت بغرورها مستوى غير مسبوق. تحيّة عربيّة لإغريقيّ قديم مع انحناء لا تينيّة؟ أمحقًا؟

تمنّى لو أنّه استطاع فكّ شيفرتها العبقريّة حينها، لمجرّد تحطيم غرورها. لكن، فات الأوان الآن. انس الأمر، فمن يأبه؟

حين دخلا جناحهما، توجّهت كاثرين إلى الحمام لتستعدّ للنوم، فيما أخذ لانغدون يذرّع غرفة الجلوس ذهابًا وإيابًا، مُدركًا أنّ توتره لن يسمح له بالنوم. ومع أنّه كان يرغب في نسيان غُسْنِر، إلّا أنّ انزعاجه من غطرستها أيقظ حسّه التنافسيّ. فبدأ عقله التحليليّ يعمل بالفعل، باحثًا عن سبيل لفكّ لغزها.

فكّر في سرّه، عليّ أن أفصل العناصر: تحيّة عربيّة... كان لانغدون يعلم أنّ الأبجدية الرّقميّة لا تتضمّن أحرفًا عربيّة. لذا، كان شبه متأكّد من أنّ غُسْنِر تشير هنا إلى الأبجدية العربيّة/الأخرى، أي الأرقام؛ لغة الحساب التي نشرها العرب قبل أكثر من ألف عام.

إدّا، لا بدّ أن تكون كلمة السرّ عددًا.

تمتم مُفكّرًا: "تحيّة عربيّة... لإغريقيّ قديم".

منطقيًا، إن كانت كلمة السرّ عددًا، فالمرجح أنّ "التحيّة" ذات طبيعة رياضيّة. ومن ثمّ، فالإغريقيّ المقصود مُرتبط بالرياضيّات.

أشهر ثلاثة رياضيين في العصور القديمة كانوا جميعًا من الإغريق.

وقد حُفرت أسماؤهم في ذهن لانغدون بعد أن أخبرهم أستاذ الرياضيّات في مدرسته الإعداديّة - السيد براون - أنّ اختصار مدرستهم الشائع، PEA، ليس اختصارًا لـ "أكاديمية فيليبس إكستر" كما اعتقد الجميع، بل هو تكريم سرّي لثلاثة من عمالقة الرياضيّات الأوائل: فيثاغورس، وإقليدس، وأرخميدس.

واصل لانغدون التفكير في سرّه: إذًا، من منهم قصدت غُسْنِر؟

فيثاغورس: مبرهنة فيثاغورس، نظريّة التناسب، كروية الأرض.

إقليدس: أبو الهندسة، القطوع المخروطية، نظريّة الأعداد.

أرخميدس: حلزونيّات أرخميدس، والعدد π (باي)، ومساحات الدوائر.

توقّف لانغدون لحظة، ثمّ قال بصوت مرتفع: "باي".

نادته كاثرين من الغرفة الأخرى: "فكرة ممتازة! اطلب خدمة الغرف، سأخذ فطيرة أنا أيضًا!" ارتسمت ابتسامة على ثغره، بل باي من نوع آخر. ثمّ دخل غرفة النوم، وساعد كاثرين التي كانت تترنّج تحت تأثير الشراب على الاستلقاء في الفراش. وبعد أن تمّنّى لها ليلة سعيدة، عاد إلى غرفة الجلوس، وأخرج ورقة وقلّمًا من المكتب الخشبيّ، ثمّ جلس على الأريكة، وقد استبدّت به رغبة قهرية في إكمال ما بدأه.

كان حلّ لغز غُسْنِر بعيدًا عن الوضوح، غير أنّ لانغدون أدرك أنّ تهجئة π ، العدد الأشهر في التاريخ، قريبة على نحو لافت من تهجئة PSI.

قالت غُسْنِر إنّ كلمة السرّ هي PSI... مُشْفَرة.

فأحسّ أنّه على الطريق الصحيح.

كتب على الورقة الشكل الأكثر شيوعًا للعدد "باي": 3.14159.

في الواقع، من الممكن حقًا وصف العدد π أنّه تحيّة لإغريقيّ قديم، وهو يُكتب أيضًا بالأرقام العربيّة، وبذلك يستوفي شرطين من شروط غُسْنِر الثلاثة.

تحية عربيّة لإغريقيّ قديم.

غير أنّ المشكلة كانت في الفاصلة العشريّة. أولًا، لا مكان للنقاط العشريّة في كلمات سرّ مؤلّفة من أبجدية رقميّة. ثانيًا، الفاصلة العشريّة لم تكن اختراعًا عربيًّا، بل ابتكرها عالم رياضيّ إسكتلنديّ يدعى جون نابيير.

بإمكانني حلّ المشكلتين بكلّ بساطة بحذف الفاصلة.

لكن تبقى مُشكلة واحدة: فالرقم 314159 يمثل π ... وليس PSI.
وما زالت "الانحناء اللاتينية" مفقودة.

بعد عشر دقائق من المحاولات غير المُجدية، قرّر أنّ الوقت قد حان بالنسبة إليه هو أيضًا لإنهاء السهرة. بالإمكان تأجيل كلمة سرّ غُسنير... أو حتّى نسيان أمرها.
وهكذا، تمّدّد لانغدون على الفراش، ونام بعمق بضع ساعات... قبل أن تستيقظ
كاثرين من كابوسها وهي تصرخ.

وكأنّ عمرًا قد مضى؛ هذا ما شعر به لانغدون وهو يقف الآن في الحجرة المظلمة،
يُحدّق إلى لوحة المفاتيح الرقمية، ويتمنّى لو أنّه تمكّن من حلّ لغز غُسنير الصغير المُزعج.
على الجانب الآخر من الجدار، سمع بافيل يصرخ بشتيمة، ويهرع إلى خارج البهو؛ في
الأرجح ليبحث عن يانانتشك. فأدرك لانغدون أنّ هذه قد تكون فرصته لمغادرة الحصن من
دون أن يلحظه أحد... لكن، إلى أين؟

فكّر في سرّه: لن أرحل من دون كاثرين. وقد بدأ يزداد خوفًا من احتمال تعرّضها
لمكروه. لا بدّ لي من النزول.

نظر مجددًا إلى لوحة المفاتيح، مُتسائلًا عمّا إذا كانت الساعات التي مرّت منذ البارحة
قد تمنحه فرصة أفضل لفكّ الشيفرة. فثمة سبب يدفعنا إلى "النوم" على المشكلة؛ وهو أنّ
العقل الباطن يملك قدرة مُدهشة على ربط الخيوط في أثناء النوم.
خلد لانغدون إلى الفراش، وهو مُقتنع بأنّ الرقم 314159 يمثل "تحية عربيّة لإغريقي
قديم".

ومع ذلك، لم يكن الحلّ كاملاً بعد.

ما زلتُ أفقّد إلى الانحناء اللاتينية.

كان يعرف أنّ معظم لغات العالم - بما فيها الإنجليزيّة - تستعمل نظام الكتابة
المعروف بالأبجدية الرومانيّة أو اللاتينيّة. وبينما كان يتأمّل أزرار الأرقام والحروف في لوحة
المفاتيح، أدرك أنّه انشغل بالأرقام حتّى نسي أنّ في وسعه استخدام الحروف أيضًا.
أيمكن أن تكون "الانحناء اللاتينية" حرفًا؟

وما إن فكّر في ذلك، حتّى ارتسمت في ذهنه أبسط الأشكال؛ انحناء الحرف S.

يا إلهي، الانحناء اللاتينية المفقودة!

في تلك اللحظة، خطر بباله مشهد غُسنير وهي تُسقط قشرة الليمون في وسط كأسها
بزهو، ولم يستطع إلّا أن يعترف بإعجابه قليلًا بدائها.

الحرف S هو القطعة الناقصة من الأحجية .

وما تبقى كان بسيطاً .

هكذا، تتحول PI إلى PSI!

كانت شيفرة غِسنِر مزيجاً من الرموز العربيّة واللاتينيّة - أرقام وحروف - وإن لم يخُنه حدسه، فإنّ الشيفرة لا بدّ أن تكون 314S159!

راجع منطقته على ضوء ما قالته غِسنِر . "تحية عربيّة لإغريقيّ قديم، مع انحناء لاتينيّة" . فالرقم 314159 تحيةً عربيّة صافية لعدد إغريقيّ قديم هو π ، بينما يشكّل الحرف S في الوسط الانحناء اللاتينيّة التي حوّلت PI إلى PSI، وهي كلمة سرّ غِسنِر، على حدّ قولها .
لو كانت ثمة لحظة تستحقّ أن يصرخ فيها صرخة أرخميدس الشهيرة "وجدتها!"، فهي هذه اللحظة، لكنّه لزم الصمت واقترب من لوحة المفاتيح .
حبس أنفاسه، وأدخل بحذر الشيفرة على الشاشة الرقميّة .

314S159

وبعد أن تأكّد من التسلسل، زفر وضغط زرّ الإدخال .

غير أنّ شيئاً لم يحدث .

اجتاحته على الفور موجة من اليأس، لكن بعد لحظات، تناهى إلى مسمعيه صوت نقرة خافتة، تلاها أزيز آليّ وراء الباب . وتدرّجياً، أخذ الصوت يعلو... كان المصعد يتحرّك إلى الأعلى .

سمح لنفسه بابتسامة ارتياح، وقال في سرّه: وجدتها... واحد من أصل ثلاثة تريليونات ونصف .

انفتح باب المصعد كاشفاً عن مقصورة واسعة مكسوّة بألواح خشبيّة . فتجاهل خوفه من الأماكن المُعلّقة، ودخل باحِثاً على الجدران عن زرّ ينقله إلى المختبر .
غير أنّ هذا المصعد لم يكن مُزوّداً بأيّ أزرار أو أدوات تحكم .
بدلاً من ذلك، أغلق الباب أوتوماتيكياً، وشعر برحلة النزول تبدأ .

الفصل 25

تسلَّت صور كاثرين سولومون إلى ذهن الغولم، بينما كانت سيّارة الأجرة تصعد التلال باتجاه حصن الصليب. كان لا يزال يراها على خشبة المسرح في قلعة براغ... تُلقِي محاضرتها اللائقة. حضر الغولم آنذاك، وجلس بهدوء في الخلف، مُرتديًا ملابس عادية، كما يفعل الآن. في أثناء المُحاضرة، شعر بانجذاب إلى أفكار كاثرين، لا بل أحسّ أحيانًا أنّها كانت تُخاطبه مباشرة. أنا دليل حيّ يا كاثرين على صحّة كلامك. ولأكثر من ساعة، أسرت كاثرين الحشد في قاعة فلاديسلاف، وملأتهم حماسة إزاء الإمكانيّات الجديدة... من خلال نظرة مُختلفة إلى كيفة عمل الوعي البشري.

وكان ثمة مَقْطَع بعينه ترك أثرًا في نفسه.

قالت كاثرين: "ثمة ظاهرة استثنائية تُثبت بما لا يدع مجالًا للشكّ أنّ نظرنا التقليديّة إلى الوعي خاطئة تمامًا. تُعرّف هذه الظاهرة بـ "متلازمة العبقرى المُفاجئ"، وتُعرّف طبيًا بالظهور المُفاجئ في عقل الإنسان لمهارة أو معرفة فريدة لم تكن موجودة لديه من قبل". ابتسمت وأضافت: "بعبارة أخرى، تتلقّى ضربة على الرأس فتستيقظ عازف كمان بارعًا، أو مُتقنًا للغة البرتغاليّة، أو عبقرًا في الرياضيات؛ في حين إنك لم تكن تملك أيًا من هذه المهارات من قبل". عرضت كاثرين بسرعة سلسلة من الشرائح ومقاطع الفيديو لأشخاص أصيبوا بـ "متلازمة العبقرى المُفاجئ".

روبن نسيمو؛ فتى أميركيّ في السادسة عشرة من عمره، أُصيب بركلة على رأسه خلال مباراة كرة قدم، فسقط في غيبوبة، ثم استيقظ وراح يتحدّث الإسبانية بطلاقة. ديريك أمانو؛ رجل في منتصف العمر، قفز في مسبح وصدّم رأسه، واستيقظ عبقرًا موسيقيًا، وعازف بيانو بارعًا.

أورلاندو سيريل؛ صبي في العاشرة من العمر، ضُرب بكرة بيسبول، ثم اكتشف فجأة أنّه يملك القدرة على إجراء حسابات تقويمية مُعقّدة على نحو مُذهِل.

قالت كاثرين: "والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يُمكن أن يحدث هذا؟ كيف تمنح ضربة على الرأس الدماغ القدرة على إتقان اللّغة الإسبانيّة فجأة؟ أو خبرة سنوات طويلة في العزف على آلة الكمان؟ أو القدرة على تحديد تواريخ دقيقة تعود إلى قرون مضت، أو تمتدّ إلى قرون قادمة؟ الجواب - وفق النموذج الحاليّ لفهم الدماغ - أنّ كلّ ذلك مُستحيل تمامًا.

ثم أشارت إلى شاب يلهو بهاتفه، وقالت: "سيدي، تخيل أنك رميت هاتفك على الحائط، وعندما التقطته وجدت في معرض الصور لقطات جديدة... لأماكن لم تزرها من قبل".
أجاب الشاب: "هذا مستحيل".

بطبيعة الحال، كان الغولم يفهم كيف يمكن لذلك أن يحدث. فقد كان يعرف سبب اختلاط الإشارات الكونية. ومن الواضح أن كاثرين سولومون تعرف أيضًا.
تابعت قائلة: "وبالتأكيد، هناك أيضًا قصة مايكل توماس بوترايت المدهشة.
هذه الظواهر لا تفسر لها، لكنها موجودة. إنها شذوذ حقيقي يهز أسس النموذج الحالي لفهم الوعي البشري. نحن عند مفترق طرق في مسيرة الإدراك الإنساني؛ يرى فيه جمع مُزايِد من العقول اللامعة - من علماء أعصاب، وفيزياء، وأحياء، وفلاسفة - أنه لا بد من تقبل هذه الحقيقة الصادمة... فبكل بساطة، لم تعد نظرتنا العلمية الراسخة إلى طريقة عمل العقل البشري كافية. وقد حان الوقت لتبني نموذج جديد. حان الوقت للاعتراف بأننا لا نعرف الإجابة عن سؤال غاية في البساطة: من أين تأتي أفكارنا ومواهبنا وإلهاماتنا؟ وهذا، يا أصدقائي، موضوع محاضرة الليلة".
في تلك اللحظة، انعطفت سيارة الأجرة التي يستقلها الغولم عند الزاوية الأخيرة باتجاه حصن الصليب، وظهر المُختبر في الأفق. لكن ما إن نظر أمامه، حتى ضرب بقوة على الحاجز البلاستيكي الفاصل وهو يصيح: "Zastavte! Zastavte!".
فتوقّف السائق فجأة.

ظنّ الغولم أنّه سيكون بمفرده هناك، غير أنّه فوجئ برؤية سيارة تابعة لجهاز المخابرات التشيكية متوقفة أمام المبنى. لم يكن ينبغي أن يوجد أحد هنا في هذه الساعة!
صرف سيارة الأجرة، وبدأ يتقدّم بين الأشجار المُحيطة بالمكان نحو الحصن سيرًا على الأقدام. وما إن اقترب، حتى رأى باب المدخل مُحطّمًا. كان مدخل البهو مفتوحًا على مصراعَيْه، والأرض مُغطاة بشظايا الزجاج.
هل اقتحم جهاز المخابرات مختبر غُسْنِر؟

إن كان الأمر كذلك، فمن المحتمل أن يواجه الغولم صعوبة في الحصول على ما جاء من أجله. من دونه، لن أتمكن من دخول العتبة.

لم يرَ أحدًا في البهو، لكنّه لمح حركة في آخر الباحة. فعلى بُعد خمسٍ وسبعين ياردة، كان ثمة رجل طويل القامة، يرتدي بذلة، ينظر من فوق الجدار المُنخفض وهو يتحدّث عبر الهاتف.

أهو ضابط في جهاز المخابرات؟

أم أحد معارف غُسْنِر؟

في كلتا الحالتين، وجوده هنا يطرح مُشكلة... ولا بدّ من تصحيحها.

الفصل 26

عند الطرف الآخر من فناء حصن الصليب، أنهى النقيب ياناتشك مكالماته الهاتفية، وألقى نظرة من فوق السور الحجريّ المُنخِفِض إلى الوادي السحيق أسفل المُنحَدَر. الغريب أنّه، في تلك اللحظة، شعر أنّه حيّ تمامًا. لا يهمّ ما إذا كان السبب هو المشهد الخطر أسفل قدميه، أم أحداث الصباح العجيبة؛ فالنتيجة واحدة.

لقد كان يومًا جيّدًا.

كان عمله في جهاز الأمن يُسبّب له إحباطًا مُتزايدًا مع اكتظاظ براغ بالسيّاح. فالجميع يُطالب بمدينة آمنة، وكان ياناتشك يبذل ما في وسعه في سبيل تحقيق ذلك، لكنّه يتعرّض للتوبيخ باستمرار؛ تارةً لضعف النتائج، وتارةً أخرى لفرط التشدّد.

قال في سرّه: إمّا قبضة من حديد وإمّا الفوضى، فليختاروا.

في الواقع، تمّ تجاهله، واستبعاده مرارًا من الترقية إلى منصب رئيس جهاز المخابرات؛ بعد الطريقة التي تعامل بها مع مجموعة من الطلاب الأميركيّين المُشاغبين قبل بضع سنوات. فعندما تحدّاهم، تصرّفوا بوقاحة وغطرسة، فما كان منه إلّا أن زجّ بهم في السجن ليلة كاملة، عازمًا على تلقينهم درسًا.

لكن لسوء حظّه، تبين أن أحدهم نجل عضو في مجلس الشيوخ الأميركيّ. فما كان من هذا الأخير إلّا أن اتّصل بالسفارة الأميركية غاضبًا. فأُفرج عن الفتیان فورًا، ثمّ رُفعت دعوى قضائية ضدّ ياناتشك بتهمة "استعمال القوة المُفرطة"، و"التسبّب بأذى نفسيّ".

ومنذ ذلك الحين، لم يتعافَ مهنيًا.

قال في سرّه: اليوم سأثبت للأميركيّين من الذي يملك زمام السيطرة.

كان فريق التفجير قد أكّد وصوله الوشيك، كما ربّ ياناتشك مُؤتمّرًا صحفيًا بعد ساعة. راح يتخيّل الصور التي ستُنشر له وهو يقتاد أستاذًا بارزًا من هارفرد، وعالمة أميركية إلى خارج حصن الصليب؛ وكلاهما بالأصفاد.

سيُعلن بقسوة: لقد عرّض هذان الأميركيّان أرواح الناس للخطر اليوم، وكلّ ذلك في سبيل الدعاية لكتاب.

صحيح أن ادّعاءاته لم تكن صادقة تمامًا، لكنّه واثق من أن كذبه ستظلّ طيّ الكتمان. فقد ساعده ابن شقيقه بافيل على طمس الآثار التي خلّفها وراءه، وكان أفراد جهاز الأمن كالإخوة، والجميع يعلم أن تطبيق القانون يستلزم أحيانًا تجاوز القواعد؛ لا سيّما في مواجهة

النفوذ الفاضح للسفارة الأميركية في هذا البلد.

وبينما كان ياناتشك يحلم بنصره الوشيك، رنّ هاتفه.

حين رأى هوية المُتّصل، ابتسم بثقة، وقال في سرّه: /ذكر الدّئب. لقد اصطدم بهذه المرأة في مناسبات عدّة، وخسر كلّ الجولات معها. أمّا اليوم، فلن يحدث ذلك.

ردّ على الاتّصال قائلاً: "سيّدتي السفيرة، إنّهُ لشرف دائم لي". لم يحاول حتّى أن يُخفي نبرة الاستهزاء في صوته عن الدبلوماسية الأميركية.

قالت السفيرة: "حضرة النقيب ياناتشك، هل أنت في حصن الصليب؟"

أجاب بتعجرف: "نعم بالفعل. إنني بانتظار فريق التفجير، وأنوي إلقاء القبض على أميركي واحد على الأقلّ."

فقالت السفيرة بصرامة: "الملحق هاريس معي هنا، وهو مُقتنع تمامًا بأنّه لا علاقة لكاثارين سولومون أو روبرت لانغدون بزرع أيّ قنبلة."

"إذا، لماذا تُقاوم سولومون الاعتقال؟"

قالت: "نقيب ياناشيك، سأقول هذا مرّة واحدة فقط. ثمة تعقيدات في هذه القضية لست على دراية بها—"

"تبّاً لتعقيداتكم الأميركية، سيّدتي السفيرة! ما أعلمه هو أنّ حصن الصليب يقع خارج نطاق سلطتكم، ولا شيء يمكنكم فعله لمنعي من الدخول—"

صرخت السفيرة بالعاميّة التشيكيّة: "*A DOST!*" بحيث أخرسته بانفجارها المُفاجئ.

بعد ذلك، تابعت بصوت خافت وشرس.

قالت سبع كلمات فقط... سبعاً لا غير.

فشعر ياناتشك كأنّ شاحنة صدمته.

وفي تلك اللحظة، تبدّل كلّ شيء.

الفصل 27

حين توقّف المصعد ببطء في الطابق السفليّ، كان قلب لانغدون يخفق بقوة، ليس فقط بسبب المقصورة الخائقة، بل أيضًا بسبب قلقه المُتعاظِم على كاثرين. لا بدّ أنّها هنا في مكان ما...

ما إن انفتح باب المصعد، حتّى وجد نفسه في ممّر طويل، تُحيط به جدران حجرية خشنة كجدران حصن عمره ثمانئة عام؛ وهو ما كان عليه هذا المبنى بالفعل. وفي تناقض صارخ، كانت أرضية الممرّ مُطعمّة بزخرفة مُتعرّجة وأنيقة من الخشب الصلب المطليّ، وتمتدّ أمامه مُضاءة بمصابيح صغيرة مُوزّعة بانتظام، ذات إضاءة خافتة ومضبوطة بعناية. نادى بصوت مُنخفض وهو يخطو خارج المصعد الضيق: "كاثرين؟" فيما بدأت عيناه تتكيّفان مع الإضاءة الخافتة.

وحين أغلق الباب خلفه، ألقي نظرة على الممرّ، ورأى خمسة أبواب خشبية جميلة مُصطفة على الجدار الأيمن، يُحيط بكلّ منها قوس حجريّ. كان المكان أشبه بفندق بوتيكّي فاخر منه بمختبر علوم عصبية. "دكتورة غِسْنِر؟!" ناداها مُدركًا أنّه من غير المُمكن أن يسمعه الملائم بافيل الموجود في الطابق العلويّ الآن.

فتح لانغدون أوّل الأبواب، فإذا به يُؤدّي إلى جناح واسع وأنيق، جدرانه من الحجر، وتغطّي أرضه سجادة فاخرة، تعلوها خزائن مُرتفعة. وعلى المكتب، كان ثمة حاسوبان، وهاتف أرضيّ، وأكوام من الأوراق. بدا له أنّ هذا هو المكان الذي تؤدّي فيه غِسْنِر عملها الفعليّ. نادى مُجدّدًا: "مرحبًا". وألقى نظرة على المكتب المُلاصق؛ والذي كان غرفة أصغر حجمًا، تُزيّن مكتبها صور فوتوغرافية، ونبته اصطناعية، وزجاجة ماء بنفسجية كُتب عليها: Пей воду! ومع أنّ لانغدون لم يعرف معنى هاتين الكلمتين، إلّا أنّه تعرّف إلى الأبجدية السيريلية، وتذكّر قول غِسْنِر إنّ مساعدتها روسيّة.

خرج من مكتب المُساعدة، وتابع تقدّمه في الممرّ مُتّجّهاً نحو الباب التالي، الذي كان يحمل رمزًا لم يفهمه على الفور.



للحظة، ظنَّ أنها علامة دائريّة مُعدّلة؛ الرمز القديم لدائرة ذات نقطة مركزيّة. كما بدت مُشابهةً بطريقة غامضة لشعار فريق فيلادلفيا فلايرز للهوكي. لكن بعد لحظة، أدرك أنها في الواقع رسمٌ تخطيطيٌّ حديث يُصوِّر شخصاً مُستلقياً ومُزَلَقاً في أنبوب كبير.

حينئذٍ، أدرك أنّه وصل إلى مختبر التصوير. فطرق الباب بقوة، لكن الصمت بقي مُخيِّماً.

قال بصوت هادئ: "كاثرين، هل أنت هنا؟"

أخيراً، دفع الباب وفتحه، فأضاءت مصابيح آلية كاشفةً عن غرفة تحكّم مُتطوّرة تُطلّ على جهازَين ضخَمَين للتصوير - ماسِح طبقيّ محوريّ، وجهاز رنين مغناطيسيّ - وكلاهما كانا خاليَين.

عندئذٍ، تراجع لانغدون إلى خارج الغرفة، وتابع سيره إلى الباب الثالث. هذه المرّة، منحته اللَّافنة بارقة أمل.

الواقع الافتراضيّ

تذكّر أنّ غِسْنِر قد تحدّثت عن عملها باستخدام هذه التقنيّة، وتساءل إن كانت المرأتان في الداخل مُنغمستَين في جلسة واقع افتراضيّ حسّيّة كاملة، ولم تسمعا نداء جهاز الاتّصال الداخليّ.

كانت تجربته الوحيدة مع الواقع الافتراضيّ غير مُريحة على الإطلاق. فقد أقنعه أحد طلابه ذات مرّة بتجربة مُحاكاة لتسلّق الصّخور تُدعى "التسلّق". وما إن اعتمر لانغدون الخوذة، حتّى وجد نفسه واقفاً على حافة صخريّة ضيّقة ترتفع آلاف الأقدام في الهواء. وعلى الرغم من يقينه أنّه واقف على أرض مُستوية وآمنة، إلّا أنّه تجمّد في مكانه مرعوباً، وقد اختلّ توازنه بالكامل، وعجز عن التحرك خطوة واحدة. والأمر المُثير للدهشة أنّ الواقع الافتراضيّ كان أكثر إقناعاً من الواقع الفعليّ الذي كان عقله يُدرك أنّه حقيقيّ.

فكّر في سرّه: لن أكرّر التجربة يوماً. وطرق بقوة على باب غرفة الواقع الافتراضيّ، ثمّ دفعه ليفتحه.

نادى وهو يدخل: "كاثرين؟ دكتورة غِسْنِر؟"

ما إن اجتاز المدخل، حتّى وجد نفسه في غرفة صغيرة مفروشة بالسجاد، جدرانها من الحجر، وفي وسطها كرسيّ استرخاء مُنفرد، أشبه بمقعد سينما منزليّ بلا شاشة. وعلى مسند الكرسيّ، علّقت خوذة واقع افتراضيّ ضخمة تدلّت منها أسلاك مُتّصلة بالجهاز.

قال في سرّه: هذا المكان مُثير للريبة... وكاثرين ليست هنا.

فغادر الغرفة بسرعة، وتقدّم بضع خطوات في الممرّ، مرورًا بحمّام مُجهّز بمغسلة طوارئ لغسل العيون، وحجرة استحمام، لكنّ المكان كان خاليًا أيضًا. تابع السير حتى وصل إلى الباب الأخير في الممرّ، فقرأ اللافتة:

TECHDEVELOPMENT

التطوير التقنيّ

إنّه مُصطلح عصريّ، شاع بين شركات التكنولوجيا الناشئة، ولم يعرفه لانغدون إلّا لأنّ جوناس فوكمان تهكّم عليه ذات مرّة واصفًا إيّاه بـ "الدمج الاعتباطي"، ساخِرًا من أنّ شابًا لا يُكلّفون أنفسهم عناء كتابة عبارة كاملة لا يستحقّون أن يُمنَحوا ملايين الدولارات لتطوير أي شيء.

طرق لانغدون الباب بخفّة، ودفعه ليفتحه. قال في سرّه: هذه هي الفرصة الأخيرة. وتمنّى أن تكون كاثرين خلفه. ما إن فتح الباب، حتّى باغته ضوء ساطع... وضوء عاليّة. كانت المصابيح الفلوريّة تتوهج بحدّة فوق أرضيّة من البلاط الأبيض، والمراوح الصناعيّة تهدر، فيما تعالٰى صفير مُتقطّع ملأ الأجواء كصفارة إنذار. فتوتّر لانغدون على الفور.

صرخ مُحاولًا أن يطفى صوته على الصّخب: "مرحبًا، كاثرين؟!" وحين لم يأتِه جواب، خطا إلى الداخل، فرأى مَنَاهة من الطاولات التي تكدّست عليها أجهزة إلكترونيّة، وأدوات، وقطع غيار، ورسوم هندسيّة؛ ممّا ترك لديه انطباعًا بأنّه دخل عرينَ عالمٍ مَجنون. وفي الجزء الخلفيّ من الغرفة، خلف الطاولات المُزدحمة، وقع نظره على مجموعة ضخمة من المُعدّات التي بدت كأنّها خليط عجيب يجمع بين حاسوب مركزيّ قديم ومُولّد كهربائيّ صناعيّ، انبعثت من داخله أصواتُ مراوح تبريد وصفير مُتواصل لا يهدأ.

صاح وسط الجلبة: "هل من أحد هنا؟!" اقترب من الجهاز، ولاحظ وجود صفائر ثقيلة من الأنابيب والأسلاك التي تخرج من جانبه، وتعرّج على الأرض لتتّصل بجهاز ثانٍ، أشبه بحاوية رفيعة مُنخفضة مصنوعة من البلاستيك الشفاف أو الزجاج. ومن داخله، انبعث وهج ناعم.

لكن، ما هذا؟

ذكّره حجمه وهيئته بكبسولة نوم.

ثم أدرك بقلق مُفاجئ، أو تابوت.

اقترَب أكثر، فرأى الغطاء الشفاف مَكسُوءًا بطبقة كثيفة من الضباب. وفيما استمرّ الصغير، انحنى لانغدون بحذر فوق الكبسولة، وراح يُحدِّق عبر الغطاء الزجاجي. غير أنه سرعان ما تراجع مَدْعورًا. داخل الكبسولة، استلقى جسد بشريّ بلا حراك، وبدت ملامحه باهتة تحت طبقة البخار الكثيفة.

يا إلهي... كاثرين؟!

الفصل 28

في الطابق الثاني من السفارة الأميركية، خرج مايكل هاريس من لقائه الخاص مع السفارة مضطرباً. كانت قد أطلعته جزئياً على بعض المعلومات السريّة، وما زال يحاول استيعاب ما تحمله من تبعات.

شعر أنّها لم تكشف له كلّ شيء، لكنّ أمراً واحداً بات واضحاً وضوح الشمس: ما يحدث اليوم يتجاوز مجرد إنذار بوجود قنبلة في فندق فور سيزنرز.

سيطر على نفسه بسرعة، وتوجّه إلى الطابق السفليّ نحو مكتب دانا، مُتمنياً لو أنّه تحدّث إلى السفارة قبل أن يُشركها في المسألة. وجدها أمام شاشة حاسوبها، مُنهكة في مراقبة عدّة مقاطع حيّة لجسر كارل.

نظرت إليه حين دخل، وقالت مُبتسمة: "عثرتُ على المرأة ذات التاج الشائك يا مايكل؛ إنّها جميلة حقّاً. لم تخبرني—"

غير أنّه قاطعها بحدّة وهو يسرع نحوها: "أطفئي يا دانا، لقد أخطأت."

"لكنّك طلبت—"

"أعلم، أنا آسف. أطفئي، حالاً."

رمقته دانا بنظرة حدّرة، ثمّ نهضت من مكانها. وبما أنّها عارضة أزياء سابقة، كان طولها يزيد على متر وثمانين سنتيمتراً؛ أي إنّها من بين قلة من النساء القادرات على النظر مباشرة إلى عينيّ مايكل هاريس. لكن، قبل أن تتفوّه بكلمة، جثا هاريس على ركبتيّه. فقالت ساخرة: "أحقّاً؟ هل تتوسل إليّ على ركبتيّ؟"

ليس تماماً. مدّ هاريس يده تحت مكتبها، وسحب القابس، فقطع التيار الكهربائيّ عن حاسوبها.

فصرخت غاضبة وهي ترى الشاشة تتحوّل إلى صفحة سوداء: "ما الذي تفعله حبّاً بالله؟! أجاب وهو يُعاود الوقوف: "أريدك أن تثقي بي."

"أرى أنّ أسراركَ أصبحت كثيرة في الآونة الأخيرة."

قال في سرّه: ليست لديك أيّ فكرة. ثمّ تابع بصوت خافت: "اسمعي... كلّ ما أطلبه منك أن تعودني إلى عملك، وتنسي أنّني طلبت منك أيّاً من ذلك."

حدّقت إليه دانا من دون أن يرفّ لها جفن، فأدرك أنّها لا تنوي ترك هذه المسألة تمرّ بهذه السهولة. فاستجمع ما لديه من خِفة ظلّ، ورسم ابتسامة مَرحة على وجهه، ثمّ قال

هامسًا: "للجدران آذان هنا. ما رأيك أن أخبرك بكل شيء في أثناء العشاء الليلة؟"
فلمعت عيناها، وانفجرت شفتاها المُمْتَلِتان بوعْدٍ مُبْطَنٍ: "أنطلب الطعام... في منزلك؟"
غمزها هاريس: "الطعام اختياري".

ابتسمت بخفة: "تعجبني أفكارك يا سيد هاريس".
فأرسل لها هاريس قبلة في الهواء وخرج مسرعًا.
بعد دقائق، كان يجلس في سيارة أودي A7 سوداء تابعة للسفارة، تنطلق به على طول
شارع ترجيشتيه. كان يتوقع أن يتوجه مباشرة إلى حصن الصليب، لكن السفيرة كلّفته بمهمة
أخرى قبل ذلك.

قالت له: "سيكون السيد لانغدون في أمان لبعض الوقت؛ فالنقيب ياناتشيك تحت
السيطرة الكاملة".

فكر هاريس في سرّه: أشك في ذلك. فقد كان شاهدًا على المُكالمة التي اتّسمت
بالفاظظة بين السفيرة والنقيب. لقد تمادى ياناتشيك... وخسر. لا بدّ أنّه يلحق جراحه الآن،
وسيحسن التصرف حتى عودة هاريس.

وعلى الرغم من فداحة ما عرفه من السفيرة منذ قليل، إلّا أنّه أحسّ وكأنّ ستارًا قد
أُزيح، كاشفًا عن صورة أوضح لترايط الأحداث... من عمله غير الرسميّ لصالح السفيرة...
ومختبر غُسْنِر في حصن الصليب... والمرأة على جسر كارل... وحتى الكتاب المُرتَقَّب
لكاثرين سولومون.

* * *

أمّا دانا دانك، فكانت تغلي غضبًا.
ليست لك أيّ سلطة على أفعالي يا مايكل هاريس. أنت صديقي، ولست مديري.
كان حديث الملحق - المعسول والمُتعالِي - عن اللقاء على العشاء قد أثار غضب دانا.
علاوة على ذلك، زاد سلوكه الغريب من فضولها بشأن المرأة الغامضة على جسر كارل.
لحسن الحظ، كان الجسر الشهير يخضع لمراقبة عدد من كاميرات الأمن يفوق أيّ
مكان آخر في براغ، من حيث الكثافة لكلّ قدم مربّعة؛ بما في ذلك زوج من الكاميرات
البانورامية التي تدور على محورها 360 درجة، والمُثبتة فوق أبراج الحراسة، وثلاث عشرة
كاميرا على مستوى النظر مُدمجة في المصابيح الغازية.

اختارت دانا إحدى اللقطات الجوّية، وأعادت شريط الأرشيف إلى الساعة 6:40
صباحًا. ولدهشتها، كانت المرأة ذات التاج المُسنن موجودة هناك بالفعل، تتجول عند

الطرف الشرقي من الجسر الخالي وكأنها تنتظر أحدًا.

لكن... من تنتظر؟

انتقلت دانا إلى لقطات إحدى الكاميرات الأرضية، وكبرت وجه المرأة، فانزعجت حين رأت أنها شابة جميلة ذات غمازتين عميقتين وعينين واسعتين بريئتين. كان جسدها رقيقًا ومُناسِقًا تحت معطفها الأسود الضيق.

ألهذا السبب يهتم بك مايكل؟

بدا من غير المَعقول أن يطلب منها مايكل البحث في أمر علاقة عاطفية، ومع ذلك ربّما كان يلهو معها بقسوة. فحدسها يُنبئها منذ أسابيع بأن مايكل على علاقة مع امرأة أخرى.

المرأة تعرف دائمًا...

بعد أن تأكدت من أنّ هاريس قد غادر الآن، انحنّت تحت مكتبها، وأعدت توصيل القابس، وتشغيل بوابة المراقبة.

ثم انتقلت مُجددًا إلى صورة المرأة الجميلة لمعرفة المكان الذي ذهبت إليه. لكن، كان ثمة سؤال أكثر إلحاحًا.

من تكونين؟

من المهام التي تؤدّيها دانا لصالح السفارة التحقّق من هويّات وخلفيّات أيّ زائر يقصد السفارة طلبًا للخدمة أو اللجوء. وكلّ ما تحتاج إليه صورة جواز سفر أو لقطة من كاميرات البوابة الأمنية، لينفتح أمامها عالم كامل من البيانات. ففي أيامنا هذه، وبفضل برمجيات التعرف المُتقدّمة إلى الوجوه، لم يعد تحديد هويّة أيّ شخص على الكوكب يستغرق سوى دقائق.

قالت في سرّها وهي تأخذ عدّة لقطات مُقرّبة عالية الجودة لوجه المرأة: آسفة يا جميلتي، لكنك لا تستطيعين الاختباء مني.

حمّلت الصور على قاعدة البيانات الدولية الخاصّة بالسفارة. فإذا كان لهذه المرأة أيّ سجلّ جنائيّ في مكان ما حول العالم، فسيظهر خلال ثلاثين ثانية. وإن لم يكن، فسُرسَل صورها عبر قاعدة ضخمة تضمّ صورًا مُجمّعة من جوازات السفر ورخص القيادة ووسائل الإعلام الكبرى.

أمّا إن فشل ذلك أيضًا، فسُتعرّض الصورة على أحدث وأشمل قاعدة بيانات في العالم؛ أي مليارات صور "السيلفي" التي يُحمّلها الناس بلا وعي على إنستغرام، وفيسبوك، ولينكدان، وسناب تشات، وغيرها من المنصّات.

قالت دانا في سرّها: وسائل التواصل الاجتماعيّ... أهمّ وسيلة استخباراتيّة.

الفصل 29

شعر لانغدون للحظة كأنه مَشلول، وهو يُحدِّق إلى الكبسولة والجسد البشري المُستلقي داخلها.

يا إلهي... كاثرين!

خرّ على ركبتيه، وأخذ يطرق على الزجاج بعنف، مُلصِّقاً وجهه بالسطح، في مُحاولَة لرؤية ما في الداخل.

لا بدّ أن أُخرجها من هنا!

تحت الغطاء، التصقت يد ساكنة بالزجاج من الداخل، أصابعها النحيلة شاحبة ومُتصلّبة، وقد غطاها الصقيع. وبدا وكأنّ معصمَيها مُقيّدان بأحزمة ثقيلة.

راح لانغدون يتلمّس الكبسولة الزجاجيّة بحثاً عن وسيلة لفتحها. ففتّش سطحها الأملس المُتجمّد، لكنّه لم يجد أيّ شقّ أو مقبض أو زر إطلاق من أي نوع؛ فيما واصل الإنذار الصاخب عويله.

افتحي، اللعنة عليك!

على بُعد بضعة بوصات من وجهه، كان الجسد يتلاشى ويظهر، وسط سحابة من الضباب الدوّار.

فجأة، سمع صوت خطوات خلفه، وكانت تقترب بسرعة فوق البلاط الصلب. فاستدار، ورأى امرأة طويلة القامة، ذات شعر أشقر يصل إلى كتفيها. كانت تركض نحوه وهي تحمل مِطفأة حريق فولاذيّة، مُهدّدة بتحطيمها على وجهه.

صرخت بصوت عالٍ طغى على الضجيج: "Co to sakra děláš?!"

رفع لانغدون يديه في وضع دفاعيّ وقال: "مهلاً!"

صاحت بلكنة روسيّة ثقيلة، وهي تلوّح بالمِطفأة فوق رأسه: "كيف دخلت إلى هنا؟!"

"رجاء، علينا أن نفتح—"

"كيف دخلت إلى هنا؟!"

هتف قائلاً: "رمز المصعد! أعطتني إِيّاه الدكتورة غِسنِر! أنا وصديقتي كاثرين سولومون—"

وفي الحال، أخفضت المرأة المِطفأة وقد بدا عليها ذهول صادق، ثمّ قالت: "بروفيسور لانغدون؟ أنا أسفة جدّاً... أنا ساشا فيسنا، مساعدة بريغيتا في المختبر—"

قاطعها لانغدون، مُشيرًا إلى الكبسولة: "كاثرين في الداخل! وتحتاج إلى مساعدة!"
بدا أنّ ساشا أدركت فجأة سماعها صوت الصافرات، فتحول وجهها من الحيرة إلى
الذعر. وعلى الفور، أفلتت المطفأة، فارتطمت بالأرض مُصدرةً صوتًا مُدويًا، ثم هرعت إلى
الجهاز الموصول بالكبسولة، وسحبت درجًا معدنيًا مُنزلًا، ثم فتحت حاسوبًا مَحمولًا،
وبدأت تضرب على لوحة المفاتيح بجنون.

"يا إلهي... لا!"

لم يكن لانغدون يفهم ما يجري، لكنّ هلعها ضاعف من خوفه، فصاح: "أخرجيها
فحسب!"

صرخت ساشا: "هذا خطر جدًّا! يجب عكس العملية أولًا!"
أيّ عملية؟! قال مُتوسِّلًا: "أخرجيها، أرجوك!"
بدأت المساعدة مُرتبكة، وهي تُلقي نظرات خائفة إلى الكبسولة. فقال لانغدون: "لا
أفهم... لماذا دخلت الدكتورة سولومون إلى هناك أصلًا؟"
راودت لانغدون رغبة جارفة في التقاط المطفأة وتحطيم الكبسولة بها. ما يحدث
مستحيل...

نقرت مساعدة غِسْنِر مُجددًا على لوحة المفاتيح، فتوقّف جرس الإنذار أخيرًا. وبعد
لحظات، هدأت المراوح، وبدأت الأنابيب التي تربط الكبسولة بالجهاز الأكبر تُصدر صوت
قرقرة. لم يكن لانغدون يعلم ما الذي يتوقّع رؤيته قادمًا عبر الأنابيب الشفافة، ولكنه بالتأكيد
لم يكن ينتظر رؤية السائل القرمزي الذي بدأ يتدفّق نحو الجسد.

سأل لانغدون بذهول وقد شعر بغثيان مُفاجئ: "أهذا... دم؟! ما هذا الشيء؟"
فقالت ساشا بصوت مُرتجف وهي تواصل الكتابة على لوحة المفاتيح، فيما تدفّق
السائل عائداً إلى الكبسولة: "EPR، إنه جهاز الحفظ والإنعاش في حالات الطوارئ! هذا
نموذج بريغيتا الأولي! ولم يحن وقت استخدامه بعد!"

وبينما كان الضباب البارد يلتفّ حول الجسد، أدرك لانغدون الآن أنّ غِسْنِر كانت قد
ذكرت جهاز الـ EPR في الليلة الماضية. فهذه التقنية المُنقذة للحياة كان قد اقترحها نظريًا
للمرّة الأولى الجراح صموئيل تيشرمان في كلية الطبّ بجامعة ميريلاند، لكنّ بريغيتا غِسْنِر
هي التي التقطت الفكرة البدائية، وصمّمت نموذجًا مُطوّرًا للغاية، وحصلت على براءة
اختراعه؛ براءة كانت تتباهى بأنّها تساوي ثروة.

حينذاك، قالت لهم غِسْنِر: "يُسبّب نقص الأوكسجين المُطوّل تلفًا دماغيًا، لكنّ جهاز
الـ EPR الذي اخترعته يستطيع حماية الدماغ من نقص الأوكسجين عبر إيقاف النشاط

الخلوي مؤقتًا؛ أي حالة من الشُّبَّات المُعلَّق. ويُعدّ جهازِي في جوهره نسخة مُعدّلة من جهاز ECMO؛ وهو وحدة أكسجة غشائيّة خارج الجسم، تبَدِّل الدم بمحلول ملحيّ فائق البرودة بمعدّل لترين في الدقيّقة، فيبرّد الدماغَ والجسد بسرعة إلى عشر درجات مئويّة، مانِحًا الفريق الجراحيّ ساعات لمُعالجة مُصابٍ بحالة حرجة، كان سيموت دماغياً لولا ذلك في غضون دقائق".

وقف لانغدون أمام كبسولة غُسنير، وشعر أنّه على وشك أن يتقيّاً.
فجأة، دوّى صوت مكثوم من داخل الكبسولة، ثمّ اندفع الدم وتناثر على طول الزجاج من الداخل، فقفز لانغدون إلى الورااء. إنها تنزف!

تمتّت ساشا بشتيمة روسيّة: "Блядь"، ثمّ تخلّت عن الحاسوب، واندفعت نحو لوحة طوارئ في الجدار الخلفي. كسرت ختمًا بلاستيكيًا، وضغطت بلا تردّد على زرّ أحمر لامع أسفله. فأطلقت الكبسولة هسيسًا، وارتخى الغطاء، ثمّ بدأ يرتفع إلى الأعلى؛ على غرار أبواب جناح النورس. ومع انقشاع الضباب، انحنى لانغدون فوق الحاوية.
يا إلهي...

عندما رآها، أدرك لانغدون أنّها رحلت. فقد كانت عيناها جامدتين بلا حياة، ووجهها مُتجمّدًا تكسوه ملامح الرعب. لم يتخيّل قطّ أنّ رؤية جثّة قد تمنحه هذا المزيج الطاعني من اليأس والارتياح في آنٍ واحد... لكنّ هذا بالضبط ما شعر به في تلك اللحظة.
فالجثّة المُمدّدة أمامه لم تكن جثّة كاثرين سولومون... بل بريغيتا غُسنير.

الفصل 30

أطلقت ساشا فيسنا صرخة دُعر، وانهارت على ركبتيها بجانب الجثة في الكبسولة. "بريغيتا! لا!" ثم غطت وجهها وبدأت تبكي بحرقة.

أما لانغدون، فلم يكن في وسعه سوى المشاهدة، وقلبه يعتصر حزناً عليها. فمن الواضح أنّ حزن هذه المرأة لدى رؤيتها الدكتور غُسْنِر كان طاغياً بقدر ارتياحه لأنّ الجثة في الكبسولة لم تكن كاثرين.

بعد لحظات من البكاء، رفعت ساشا رأسها، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الدُعر. ثم بدأت تتحسّس جيوبها، كمن أضاع شيئاً مهماً، وأخذت تنفّس بسرعة مُتقطّعة. تمتمت بشفَتَيْن مُرتعشتَيْن: "لا... ليس الآن!" وانكمش فكّها في تكشيرة مُتصلّبة.

أسرع لانغدون إليها: "ما الذي يجري؟!" حاولت ساشا أن تنهض وتتجه نحو الباب، لكنّها ما لبثت أن تهاوت مُجدّداً على ركبتيها. بدت وكأنّها على وشك أن تُصاب بنوبة ما، فسارع لانغدون إلى تثبيتها. وقال بقلق: "ما الذي يمكنني فعله؟!"

أصدرت ساشا أنيناً مكتوماً، وأشارت بيدها المُرتجفة إلى حقيبة يدها المُلقاة على الأرض، غير بعيدة عنها.

أُتِبح عن دواء؟ خَمَن لانغدون، وانطلق بسرعة نحو الحقيبة، يفتّشها بعجل وهو يُحضّرها إليها.

كانت غُسْنِر قد ذكرت في الليلة الماضية أنّ مساعدتها تعاني من صرع الفص الصدغي - TLE - لكنّ ملاحظتها بدت أقرب إلى التفاخر بعدد المرضى الذين شُفوا على يديها منها إلى التعاطف. قالت لهما: "النوبات ليست سوى عواصف كهربائية في الدماغ. وقد اخترعتُ وسيلة لإيقاف تلك العواصف؛ إنها علاج مثاليّ."

علاج مثالي؟ لا يبدو في هذه اللحظة أنّ الأنسة فيسنا "شُفيت" حقاً. أخذ لانغدون يُفتّش الحقيبة محمّوماً، فلم يجد سوى مفاتيح وقفّازات ونظارة ومناديل وأغراض مُتناثرة أخرى. لا زجاجات دواء، ولا حقن، ولا بخاخات... لا شيء نافع في هذا الوضع. فصاح وهو يعود إليها: "إلامَ تحتاجين؟!" غير أنّ الأوان كان قد فات. فقد استلقت ساشا الآن على جانبها، وهي ترتجف بعنف، وعيناها زائغتان، ورأسها يرتطم بالأرضية.

فات الأوان على الدواء، هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يركع على الأرض بسرعة، رافعاً رأسها بين كَفَّيه ليُبْعِدَه عن البلاط القاسي. فقد تلقى، بوصفه أستاذًا، تدريبًا على كيفية التعامل مع نوبة الصرع لدى الطلاب.

أولًا، لا تسبّب الأذى للمريض. فقد كان يعرف أنّه لا يجوز قلب المُصاب على بطنه، كما يفعل المُسعِفون في المسلسلات، خوفًا من أن "يتلع المُصاب لسانه"، فهذه خرافة قديمة لا أساس لها في الواقع. كما لا يُنصَح بإدخال حزام في فم المصاب. هذه ليست سوى طريقة لخنقه... أو لتعرّض أصابعك للعض. وسيلة الحماية الوحيدة المُصرَّح بها من إدارة الغذاء والدواء هي واقٍ قَمَويّ يُعرف باسم PATI، ولم يجد لانغدون ما يشبه ذلك في حقيبتها. يكفي مساعدة المريض حتّى تنقضي النوبة.

قال لها مُطمئنًا وهو يحتضن رأسها بين كَفَّيه: "لا بأس... أنا هنا".

وبينما كان يُثبّت رأسها، لاحظ أنّ أنفها قد كُسِر سابقًا وجبر العظم بطريقة سيّئة، وأنّ تحت ذقنها ندبة قرمزية، لا شكّ في أنّها إصاباتٌ من نوبات سابقة. كما لمح آثار ندوب أخرى تبرز من تحت خصلات شعرها الأشقر الكثيف، ناتجة حتمًا عن حوادث مُشابهة؛ فشعر بموجة تعاطف نحوها.

في الواقع، تُخلّف نوبات الصّرع آثارًا قاسية على الجسد، ولا خلاف في ذلك. لكنّ المُفارقة أنّ أثرها على الحالة الذهنيّة للبشر كان مُختلِفًا تمامًا، بل عكسيًّا؛ كما تمّ توثيقه عبر التاريخ.

كانت كاثارين قد ذكرت في محاضرتها الليلة الماضية أنّ الصّرع يُعدّ إحدى "الحالات المُغايرة" التي يمرّ بها الوعي البشريّ بطريقة طبيعيّة. فمشاهدة الدماغ على جهاز الرنين المغناطيسيّ خلال النوبة تكشف عن نمط كهربائيّ مُذهل يشبه إلى حدّ كبير ما يحدث عند تعاطي بعض المُهلوسات، أو في تجارب الموت الوشيك، بل وحتّى في لحظات النشوة.

واللافت أنّ بعضًا من أصحاب أعظم العقول الإبداعية في التاريخ كانوا مُصابين بالصرع، ومنهم فينسنت فان غوغ، وأغاثة كريستي، وسقراط، وفيودور دوستويفسكي. وقد أعلن الروائيّ الروسيّ يومًا أنّ نوباته كانت بالنسبة إليه مصدر "سعادة وانسجام لا يمكن تخيلهما في الحالة العادية". ووصف آخرون نوباتهم بأنّها "بوابة على عالم آخر..."، "تحرّر العقل بسعادة من قيود الجسد..." و"تمنح ومضات إبداعية غير دنيوية وعميقة".

لذلك، لم يكن غريبًا أن يظهر الصرع بكثرة في الأعمال الفنيّة المسيحيّة. فكثير من الروايات الكتابيّة عن التجارب الباطنيّة يصف بدقّة مُذهلة تجربة نوبة الصّرع؛ بدءًا من حزقيال، والقديس بولس، وجان دارك، والقديسة بريجيتا. وكذلك الأمر بالنسبة إلى لوحة رفائيل الشهيرة/التجلّي.

أخيراً، كَفَّتْ ساشا عن الارتجاف، وبدأ تنفّسها يعود إلى وتيرته الطبيعيّة. استمرّت النوبة نحو دقيقة واحدة، لتغدو بعدها جثة هامدة، فاقدة الوعي في الأرجح. كان لانغدون يعرف أنّ المطلوب الآن الصبر... ومنحها الوقت لتستعيد وعيها.

وبينما كان يُحدّق إلى الروسيّة فاقدة الوعي، شعر بالارتباك بسبب الانعطافة المُزعجة لأحداث هذا الصباح. فقبل ساعات فقط، كان يسبح بهدوء. وها هو الآن جالس على أرض مُختبرٍ خاص مع امرأتين لم يلتقِ بهما قطّ قبل أمس؛ إحداهما فاقدة الوعي بين ذراعيه، والأخرى ميتة في كبسولة.

والأمر الأكثر إثارة للقلق... أنّه لم يجد لكاثرين أيّ أثر.

* * *

وقف الملازم بافيل في مدخل الحصن، أمام الزّجاج المُحطّم، وقد استبدّ به القلق، وراح يجول بنظره على الفناء باحثاً عن أيّ أثر للنقيب. كان قد رأى ياناتشك قبل دقائق فقط على حافة التّل وهو يُجري مكالمة هاتفية. غير أنّه اختفى الآن. ناداه مرّتين، لكن لم يأتِه جواب.

هل اختفى ياناتشك أيضاً؟!

لحسن الحظّ، بدا أنّ لغز اختفاء لانغدون قد حُلّ الآن. فقبل لحظات، عثر بافيل على مصعدٍ مخفيٍّ وراء حائط مُنزلق في قاعة الانتظار. كان المصعد يحتاج إلى رمز دخول، لكن تمّ حلّ المسألة بسهولة؛ إذ يبدو أنّ شخصاً ما في الأسفل كان يُراقب لانغدون عبر كاميرات المراقبة، واستقلّ المصعد لإحضاره.

وجد بافيل في اختفاء لانغدون دليلاً على أنّ سولومون وغُسّير موجودتان فعلاً في الأسفل، وعصتا أمر النقيب ياناتشك مباشرة. فتساءل إن كان الأميركيان يُدركان حجم المتاعب التي يوشكان على مواجهتها.

وقف بافيل يتفحص الحجرة المخفية عندما سمع صوت تحطّم صاخباً في بهو المدخل، فعرف فوراً أنّه ناجم عن إطار الباب المكسور الذي أسنده النقيب بذكاء إلى مدخل درج المختبر؛ كإذار بدائيّ.

سولومون، ولانغدون، وغُسّير يهربون من المبنى!

شهر بافيل سلاحه واندفع خارج الحجرة، ثم انعطف عند الزاوية باتّجاه الممرّ صائحاً: "Stij، توقفوا!"

غير أنّه لم يجد أحداً هناك.

كان إطار الباب المُحطَّم مُلقًى على الأرض؛ ممَّا يُشير إلى أنَّ الباب قد فُتِحَ، ومع ذلك بدا البهو خاليًا.

اندفع بافيل إلى المدخل، ونظر إلى الخارج، غير أنَّه وجد المساحة الواسعة خالية. لا يمكن لأحد أن يقرَّ بهذه السرعة. فالتفت وهو واقف على الثلج نحو باب المختبر، وأدرك أنَّ الصوت الذي سمعه قد لا يكون صادرًا عن شخص يُغادر المختبر، بل عن شخص يدخله. أيَّا يكن ذلك الشخص، فمن الواضح أنَّه يمتلك بطاقة دخول بيومترية. أهو موظف مختبر؟ شعر بعرق بارد على جبينه وهو يتخيل كيف سيتلقَّى ياناتشك هذا الخبر. إذ لم يكتفِ بافيل بإضاءة أثر روبرت لانغدون فحسب، بل سمح أيضًا بدخول شخص آخر إلى المختبر.

كانت حركة غبية، فقد أمرني بالبقاء هنا وحراسة باب المختبر. انتابته قشعريرة من شدة البرد، فعاد إلى المدخل، يذرعه جيئةً وذهابًا ليُدْفِئ نفسه، وحذاؤه العسكري يُصدِّر صوت طقطقة على شطايا الزجاج. وكان على وشك أن يمدَّ يده إلى هاتفه عندما لاحظ شيئًا على لوحة الدخول البيومترية المُجاورة لباب المختبر. فكَرَّ وهو يُحدِّق إلى ضوء المؤشِّر الأخضر الصغير: هذا غريب.

كان الضوء على اللوحة مطفأً عندما وصلوا هذا الصباح ووجدوا الباب مُقفلاً. إنَّه واثق من ذلك. أمَّا الآن، فأصبح أخضر وواضًا. توجَّه بافيل إلى باب المختبر، وهو في حيرة من أمره، وأمسك بالمقبض، ثمَّ سحبه. فدهش حين انفتح الباب بسهولة، كاشفًا عن درج خلفه. يبدو أنَّ الباب لم يُقفَل جيدًا بعد دخول آخر شخص. وعند إلقائه نظرة إلى الأسفل، أدرك السبب؛ شظية سميكة من الزجاج المقوّى كانت قد علقت في إطار الباب.

لا بدَّ من إخبار النقيب فورًا، فقد بات بإمكاننا الدخول!

لكن بينما كان بافيل يحدِّق إلى الدرج الخالي، راودته فكرة أخرى. كانت فكرة عدوانية وربما مُحفوفة بالمخاطر، لكنَّها أشعلت حماسه؛ ولا سيَّما أنَّه خيَّب آمال قائده مؤخرًا في مناسبات عدَّة.

تخيل بافيل المشهد في الأسفل.

حفنة من الأكاديميين غير المُسلَّحين...

وتخيل فرحة ياناتشك عندما يعود ويرى الفارين مُصطفَّين على الأريكة تحت تهديد السلاح. مرَّ يده فوق مسدس CZ 75 D في جرابه، وبعث فيه ملمسٍ مقبضه الخشن إحساسًا بالأمان؛ كلمسة مطمئنة من صديق قديم.

لقد تلقَّيت تدريبًا خاصًا لهذه المهمة بالذات.

كان روبرت لانغدون معروفًا بخوفه من السلاح، ولا شك في أنّ الآخرين سيخشونه أيضًا. فقد أثبتت تجربة بافيل أنّ المدنيين الذين يُواجهون ضابطًا مُسلّحًا من جهاز المخابرات التشيكية يفعلون دائمًا الشيء نفسه تمامًا؛ يُنفذون بالضبط ما يأمرهم به الضابط.

* * *

في مكان ما بعيدًا أسفل التلّ، كان النقيب ياناتشك يغيّب عن الوعي ويستيقظ وهو يحذّق إلى السماء. لم يكن يعرف كم من الوقت مضى منذ أن طار جسده في الهواء، وسقط بسرعة رهيبية، ثم ارتطم بالصخور في قاع الوادي بعنف تقشّعر له الأبدان. كان الانتحار سيبدو شاعريًا في ضوء الأخبار التي تلقّاها من السفارة منذ قليل، لكنّ ياناتشك لم ينتحر.

لقد تمّ دفعي.

كان لا يزال يشعر، وهو مُمدّد على الصخور، مُحطّم الأضلاع ونازقًا، بموضع الكفّين على ظهره، الكفّين اللّتين دفعته بقوة، وأسقطته ليهوي من فوق الحائط الحجريّ المُنخفض. لم تكن لدى النقيب أيّ فكرة عمّن انقضّ عليه من الخلف، لكنّ الغريب في الأمر أنّ هذه الحقيقة بدت له غير ذات صلة في هذه اللحظة. إنها النهاية... أنا أُحتَصَر.

لكن لدهشته، بدا الانتقال طبيعيًا وهادئًا تمامًا. إذ لم يكن يعاني من ألم بدنيّ يُذكر. وكلّ المخاوف المُرّوعة التي استحوذت عليه قبل دقائق، بدت وكأنّها تبدّد... بما في ذلك مكالمته المُدمّرة مع السفارة الأميركية.

كانت الكلمات السبع التي تلفّظت بها لا تزال تتردّد في رأسه. نحن نعلم أنّ القنبلة كانت خدعة.

في الواقع، كان ادعاء ياناتشك عبثًا. جهاز المخابرات على قنبلة صغيرة مجرد كذبة... مُبالغة تهدف إلى منحه السيطرة التامة على الوضع. لقد فعلت ما طُلب مني.

فقد ورده اتّصال غريب من لندن في الصّباح الباكر، وأيقظه من نوم عميق. اعتذر الرجل الأميركيّ عن توقيت الاتّصال، وأمر النقيب بالتحقّق من رسائله النصّية. فنّفذ ياناتشك الأمر، ووجد مجموعة صور لوثائق تؤكّد أنّ هذا الرجل يعمل في أعلى مستويات السلطة. قال الرجل: "لديّ وضع طارئ، وأريد مساعدتك".

نفض ياناتشك آثار النوم عن عينيه مُحاولًا التركيز وقال: "نعم؟"

"ثمة أميركيّان بارزان في براغ في هذه اللحظة، وأريد منك أن تعتقلهما".

"أنت تعلم أنني لا أستطيع اعتقال أجنب من دون—"

"ستصلك كل المعلومات الاستخباراتيّة التي تحتاج إليها. أنصت جيّدًا".

وحين أصغى ياناتشك إلى ما كان الأميركيّان يُخطّطان له، شعر بغضب مألوف يشتعل في داخله. دعاية؟ تهديد بقنبلة في فندق فور سيزنز؟ هذا أمر فاضح! لقد سئم من مُعاملة الأجانب لبلاده كملعب خارج عن القانون.

قال ياناتشك مُحدّرًا: "عليّ الإشارة إلى أنّ التهمة الوحيدة التي أستطيع توجيهها هنا هي الإخلال بالأمن العام. وإن كان هذان الأميركيّان ثريّين أو معروفين، فسوف تتدخّل السفارة الأميركيّة فورًا".

أجابه الرجل مُطمئنًا: "انسَ أمر السفارة، سأهتمّ بالسفيرة بنفسي. ما عليك سوى تضخيم خطورة التهمة. وسأخبرك كيف تفعل ذلك".

كانت الفكرة التي طرحها الرجل بارعة— فهي بسيطة، ولا تترتّب عليها أيّ تبعات— مجرد إضافة طفيفة تُمكن ياناتشك من تنفيذ اعتقال لا تشوبه شائبة، ويظهر للسفيرة أنّ "كون الشخص أميركيًّا" لا يجعله فوق القانون التشيكيّ.

الكذبة البيضاء التي تخدم العدالة كذبة شريفة؛ هذا كان رأي ياناتشك. ولم يكن مُهتمًا بالمكافأة السخية التي عرضها الرجل عليه مقابل مساعدته. إذ فكّر في سرّه: إنّ مجرد التفوّق على السفارة سيكون مكافأة كافية. وكان لا يزال يشعر بالمرارة من مواجهات الماضي. وهكذا— تمامًا كما أشار المُتّصل— تجاوز ياناتشك الحدّ، وزاد على الحقيقة... زيادة طفيفة فحسب.

لم تكن هناك قنبلة، بل كان الأمر مُجرّد تهديد بوجود قنبلة، لكنّ هذا التغيير البسيط صعد التهم إلى مستوى أخطر بكثير.

والآن، وهو مُلقى مُهشّم الجسد في قاع الوادي، كان يُشاهد لحظة مَجْده تتبخر كالسراب. فبعد أن أُهين على يد السفارة، التي أعلنت أنّها ستّصل برؤسائه، ألغى مؤتمره الصحفي، وأوقف فريق التفجير. لقد حوّله رغبته في تنفيذ اعتقالٍ استعراضيٍّ إلى هدف سهل... لا، بل إلى بيدق مُطيع.

هل استغلّني الأميركيّ من أجل حساباته الخاصّة؟ كانت وثائقه سليمة، وكذلك الرقم الذي اتّصل منه.

لكن، لم يعد لأيٍّ من ذلك أهميّة الآن.

فها هو الآن مُمدّد على الصخور، يشعر بالدم الدافئ المُتدفّق بغزارة من مؤخّرة رأسه، ويدرك أنّ الحياة تتسرّب منه. وفي مفارقة غريبة، بدا الموت خيارًا أرحم من الإذعان للسفارة الأميركية، وخصوصًا مايكل هاريس المُتّعجّر.

قال في سرّه: هذه نعمة. واستغرب عدم إحساسه بالذّع. والأغرب أنّ النقيب شعر وكأنّه يبتعد تدريجيًا... عن نفسه. كان في حالة انفصال مريحة عن جسده المُتهشّم، غير مُثقل بالألم أو الإصابة، وكأنّه يعلو تاركًا تعقيدات العالم خلفه.

لم يكن ثمة خوف... بل موجة من السكينة؛ تجربة لم يعرف لها مثيلًا في حياته.

الفصل 31

ضاقَت دانا دَانِك ذرعًا ببطء قاعدة بيانات التعرّف إلى الوجوه في تحديد هويّة المرأة التي ظهرت على جسر كارل. فقد استغرقت العملية وقتًا أطول من المعتاد. وفيما هي تنتظر، عادت إلى لقطات المراقبة الجوية. شاهدت المرأة المُتوجّهة واقفة بلا حراك عند الطرف الشرقي للجسر... كما لو أنّها تنتظر شيئًا.

فجأة، عند الساعة 6:52 صباحًا، تلقّت اتصالًا، فأجابت فورًا، ولم تتكلّم إلّا لبضع ثوانٍ، قبل أن تُعيد الهاتف إلى جيبها. بعد ذلك، أخرجت من جيبها زجاجة صغيرة، وشاهدتها دانا بذهول وهي ترشّ مُحترها السائل على كتفَيها، وكُمَي معطفها الأسود.

أهو عطر؟ أم ماء؟

أخيرًا، أعادت الزجاجاة إلى جيبها، وعدّلت تاج الأشواك، ثم مدّت يدها إلى بطانة المعطف، وأخرجت عصًا معدنيّة لامعة بدت أشبه برمح فضي صغير.

هل تحمل سلاحًا؟

بدأت تمشي على الجسر الخالي ببطء، بخطوات مُتساوية أقرب إلى حركات الزومبي. وعندما بلغت مُنتصفه تقريبًا، دخل رجل طويل القامة داكن الشعر في الإطار، وراح يسير شرقًا نحوها. كان يرتدي ملابس رياضيّة، ويتنعل حذاء جري. ولدى اقترابه منها، توقّف فجأة، واستدار كما لو أنّه يكلمها. أمّا هي، فتابعَت سيرها غير آبهة، أو لعلّها لم تسمع. بدا الرجل مَشلولًا هنيهة. ناداها مرّة ثانية، من دون جواب، ثم استدار فجأة، وانطلق يجري مُبتعدًا في الاتجاه الذي كان يسلكه أصلًا... حتّى خرج من إطار الكاميرا.

ماذا جرى بالضبط؟

أعادت دانا الشريط لرؤية المشهد بكامله مُجددًا. راودها الفضول لمعرفة الاتجاه الذي ركض الرجل نحوه، لكنّها انشغلت بالتدقيق في صورة المرأة الغامضة. ففعلت خاصيّة "التبّع الآلي" في البرنامج، وهي خاصيّة تستخدم ميزة التعرّف إلى الوجوه، والذكاء الاصطناعي، وخوارزميات الإسقاط لتظلّ مُتمسكة بالهدف. ومع استمرار الفيديو، كان البرنامج ينتقل من كاميرا إلى أخرى، مُتّبعا المرأة ذات التاج الشائك على الجسر.

كانت قد وصلت إلى تمثال القديس أوغسطينوس حين توقفت فجأة. نظرت حولها وكأنّها تتأكّد من أنّها بمفردها، ثم نزعَت تاجها وألقته بلا مبالاة من فوق الجسر، إلى النهر في الأسفل، تلاه الرمح الفضّي، قبل أن تُخرج قبة صوفيّة بيضاء من جيبها وتعتمرها، وتُخفي

شعرها الداكن تحتها. أخيراً، خلعت معطفها الأسود، فظهرت من تحته سترةٌ صوفية حمراء سميقة. طوت المعطف ووضعتة عند قاعدة التمثال؛ إذ كان من المعتاد ترك تبرّعات للفقراء أو المحتاجين هناك.

بعد أن تبدّل مظهرها تماماً، انعطفت فجأة إلى اليسار، واختفت عبر درج ضيقٍ مُلاصق للجدار الخارجي للجسر، يتّصل بالضفة الغربية للنهر. أيّاً تكن هذه الحرباء، فهي بالتأكيد لا تريد أن يتعقبها أحد.

أسرعت دانا في تقديم اللقطات المؤرشفة، وتتبع المرأة على نحو سريع عبر ساحة ليختنشتاين المرصوفة... مروراً بمتحف كامبا بتمائيله الخارجية الغربية لثلاثة أطفال عمالقة من البرونز، تحمل وجوههم رموز شريط باركود، ومن ثم إلى عمق حديقة كامبا. هناك، تجوّلت قليلاً، قبل أن تشتري قهوة من أحد الأكشاك. وبينما كانت جالسة على مقعد ترتشف الشراب الساخن، تلقت اتصالاً.

لدى انتهاء المكالمة، هُرعت عائدة إلى جسر كارل الذي بدأ يعجّ بالمارة المُتوجّهين إلى أعمالهم. أسرعت المرأة عائدة من حيث أتت، وتركت الجسر، ثم انعطفت يساراً نحو شارع كريجوفيتسكا. وما إن بدأت تمشي على الرصيف، حتّى تباطأ التسجيل فجأة، وبدأت كلمة "مباشر" تومض على الشاشة. هنا، تحوّلت خطواتها السريعة إلى وتيرة سير طبيعية. الزمن الحقيقي. هذا يحدث الآن...

لم يكن لدى دانا أيّ ترخيص باستخدام منظومة المراقبة المُتطوّرة بهذه الطريقة، لكنّها لم تستطع أن تُبعد نظرها عن هذه المرأة الغريبة. فراقبتها وهي تعبر الرصيف، ثم تنعطف يساراً عبر موقف سيارات أنيق، باتجاه المدخل الرئيس لأحد أفخم فنادق براغ.

هل هي مُتوجّهة إلى فندق فور سيزنز؟

وبينما اختفت المرأة عبر الباب الدوّار للفندق، لفت انتباه دانا شيء غير مُتوقّع؛ سيارة أودي A7 مركونة في المواقف المُخصّصة للفندق. لم تكن لتلقي لها بالاً، لولا أنّ الحروف الحمراء الفريدة على لوحاتها تشير إلى أنّها سيارة دبلوماسيّة.

هل هذه إحدى سيارات سفارتنا؟

بعد لحظة، جاءها الجواب حين خرج مايكل هاريس بخطوات واثقة من السيارة، مُتّجّهاً بسرعة نحو الفندق.

حدّقت دانا مذهولة، وشعرت بمعدتها تنقلص.

تَبَّالْكَ يا مايكل. كنت أعلم!

كانت أمارات السرور لا تزال بادية على وجه مدير فندق فور سيزنز بعد اتصاله الشخصي الأخير مع السفارة الأميركية. فبعد أن شكرته على تكتّمه صباحًا بخصوص الحادثة المؤسفة مع لانغدون، طلبت منه خدمة إضافية.

فكر المدير وهو يرى الرجل الأنيق يتقدّم نحو مكتب الاستقبال، والخدمة وصلت الآن.

قال المدير وهو يمدّ يده مُصافِحًا: "سيد هاريس، لقد اتّصلت بي السفارة منذ قليل".

فردّ الرجل وهو يُصافِحه بقبضة قويّة: "شكرًا لك".

قال المدير: "رأيتك قبل قليل مع السيد لانغدون... ومع عناصر الاستخبارات. أمل أن تكون الأمور قد حلّت؟"

"بالتأكيد. كان سوء تفاهُهم مُؤسفًا، ونحن نعمل على تسويته. أنا هنا الآن - كما تعلم في الأرجح - لأنّ السيد لانغدون طلب من السفارة أن تجمع بعض أغراضه من جناحه ريثما تُنهي المسألة. ثمة دواء مهمّ، على ما—"

"بالتأكيد، لقد جهّزْتُ لك بطاقة الغرفة مُسبقًا يا سيدي. لكنني أحتاج إلى الاطلاع على بطاقة تعريفك؟ أعتذر عن طريقتي الرسميّة، لكنّ هذا إجراءً اعتياديّ وفق سياسة الفندق—"

قال الرجل مُبتسمًا: "لا بأس على الإطلاق". وأعطاه بطاقة تعريفه الصادرة عن السفارة. "أقدّر حرصك، وقد اعتادت السفارة على توقّع الأفضل دومًا من فور سيزنز".

ابتسم المدير وهو يُعيد إليه البطاقة. "هذا لطف منك. أعتقد أنّك تذكر كيفيّة الوصول إلى الجناح الملكيّ؟ وعندما تنتهي، يمكنك ترك البطاقة في الداخل وإغلاق الباب خلفك".

شكره الرجل القادم من السفارة، وصعد إلى الطابق العلويّ.

أمّا المدير، فعاد إلى عمله، من دون أن ينتبه إلى المرأة الجميلة ذات السترة الحمراء وهي تتبعه إلى الأعلى.

الفصل 32

تساءلت ساشا في سرّها: أين أنا؟

شعرت بوخزٍ مألوفٍ يسري في جسدها، على نحو لطيفٍ ومُمتعٍ، كفقاعات شراب تمرّ في عروقها. عندما تخرج من نوبة صرع، كانت تشعر في أغلب الأحيان أنّ دماغها يُعاد تشغيله؛ تمامًا كحاسوب يبدأ من نقطة الصفر، ويُحمّل البرامج بتأنٍّ؛ واحدًا تلو الآخر. تلقائيًا، بدأت طقوسها المعتادة بعد النوبة. "استعادة التركيز بعد النوبة"، كما أسمتها الدكتورة غِسنير، وكانت استراتيجية لإعادة الاتصال بالواقع عن طريق إجبار العقل على استحضار أحدث ذكرى يمكنه استعادتها.

صباح اليوم، كنت أحضّر الشاي. تذكّرت ساشا ذلك، مُستحضرةً رائحة الكركديه، وضوء الصباح المُتسلّل عبر نوافذ مطبخها، ومواء هريّتها السياميّين وهما يحتكّان بساقَيْها مُطالبيّين بالفطور. ببطء، ومع استعادة دماغها نشاطه، حاولت أن تتذكّر ما فعلته بعد إطعامهما، لكنّ تلك الذكريات اختفت، ورفضت الظهور.

كان قصور الذاكرة بين النوبات أمرًا شائعًا لدى كثير من مرضى الصرع؛ ويظهر على شكل فترات فقدان الذاكرة التامّة التي قد تمتدّ لساعات؛ كأنّ الدماغ نسي ببساطة تسجيل ما حدث. وبالنسبة إلى بعض المرضى، كان هذا الضعف في الذاكرة أشدّ وطأة من النوبات نفسها، لكنّ ساشا اختارت تقبّله. لا، بل كانت تتساءل أحيانًا عمّا إن كانت تلك نعمة. ثمّة أجزاء من ماضي لا أودّ أن أتذكّرها أساسًا.

حين كانت ساشا طفلة في روسيا، كان أقرانها يسخرون من نوباتها ويُطلقون عليها لقبًا بغضبًا. عرضها والداها على مُختصّين، لكنّ النتائج كانت واحدة: "ما من علاج لحالتها. ستموت ساشا وهي تعاني من هذه النوبات، لكنّها لن تموت بسببها". غير أنّ ساشا كثيرًا ما ردّدت في سرّها: لكنني أريد أن أموت.

فلمحظات السكينة التي كانت تتلو النوبات، وعلى الرغم ممّا فيها من غرابة، إلّا أنّها لا تُعوّض عن الألم العاطفي والإصابات الجسدية التي تُسببها هذه النوبات.

شخص الأطباء حالة ساشا في نهاية المطاف على أنّها إغماءات مُزمنة، واضطراب نفسيّ حادّ، واقتراحوا إيداعها في مؤسسة علاجية. وأفضل ما استطاع والداها فعله كان تسليمها إلى مصحّة نفسية حكومية مُتهالكة (بسيخوشكا) تقع في مكان ناءٍ قرب حدود روسيا الغريبة. هكذا، وفي ذكرى ميلادها العاشرة، تركها والداها هناك ولم يرجعا لزيارتها قطّ.

بكت ساشا لأسابيع في غرفتها الصغيرة، وكانت نوباتها تتكرر عدّة مرّات يوميّاً؛ فكان العاملون يُقَيِّدونها بقوة، من دون أيّ تعاطف. وكانت الوجبات التي يُقدِّمونها شحيحة، لكنّ الأدوية كانت وافرة. وعندما بلغت ساشا سنّ المراهقة، كانت تعيش على المُهدّئات القويّة، في وحدة قاسية.

أمضت أكثر من عقدٍ من الزمان على هذه الحال، منسيّةً ووحيدة. وفي تلك الفترة، كان ملاذُها الوحيد للهرب من الواقع هو الأفلام الأميركيّة التي تُعرّض بلا توقّف في الصالة المُشتركة. أحبّت الكوميديا الرومانسيّة، وغالبًا ما حلمت بالوقوع في الحبّ في مدينة نيويورك. فتعهّدت لنفسها قائلةً في سرّها: سأرى أميركا يومًا ما. ولطالما شعرت أنّ حلم السفر إلى هناك هو الذي كان يُعينها على الاستمرار.

ثمّ تحطّم حتى ذلك الحلم.

تمّ تعيين مُمرّضة جديدة لساشا في نوبات الليل؛ امرأة قاسية لا تعرف الرحمة تُدعى مالفينا. كانت مالفينا تلهو في ساعات الملل بأن تمنع عن ساشا أدوية النوبات، لتُشاهد تشنّجاتها كما لو كانت عرض سيرك، قبل أن تُبرحها ضربًا. لأسابيع طويلة، أساءت مالفينا إلى ساشا جسديّاً ونفسيّاً، وربّما بطرقٍ أخرى حجب عقل ساشا تفاصيلها.

وفي صباح أحد الأيام، بعد أن نجت ساشا بصعوبة من أحد اعتداءات مالفينا الوحشيّة، كانت تبكي في سريرها حين اقتحمت غرفتها ثلاث موظّفات، وقمن بجرّها عبر الممرّ إلى الصالة المشتركة.

صرخن في وجهها: "Priznavaysya!، اعترفي!"

عند قدَمِها، على أرض الصالة، كانت مالفينا جتّة هامد، ورأسها مُلتفّ إلى الخلف بالكامل تقريبًا.

أصرت ساشا على أنّها ليست الفاعلة، لكنّ الطاقم كان مُصمّمًا على أنّها المُذنبّة. لكن خشية من خسارة أموال الرعاية الحكوميّة، تمّ الإبلاغ عن أنّ وفاة مالفينا نتجت عن حادثة سقوط مُؤسّفة على أرضيّة زلقة، ورُجّت ساشا في الحبس الانفرادي عقابًا لها.

خلال ساعات وحدتها في العتمة، كثيرًا ما تساءلت عمّن قد يكون قتل الممرّضة. فالمؤسّسة تضمّ مرضى آخرين يُعانون من نوباتٍ هنا، ومن الممكن أن تكون مالفينا قد استفزّت الشخص الخطأ. ثمّ خطرت ببالها فكرة خياليّة: ربّما قتل أحدهم مالفينا لحمايتي. وجعلتها الفكرة تشعر أنّها أقلّ وحدةً.

بعد أسبوعين أمضتهما في الحبس الانفرادي، تمّ إخراجها مُجدّدًا، وإلباسها سترة التقييد، وأُبلغت أنّ لديها زائرة. لم يسبق لساشا أن زارها أحدٌ، ولا حتّى والداها. لقد تركاني هنا لمصيري.

كانت المرأة التي رأتها في قاعة الانتظار غريبة؛ امرأة قصيرة القامة، ذات شعر أسود فاحم، وملابس فاخرة، ووجه صارم. ويبدو أنها تتمتع بالسلطة؛ إذ وبخت الممرضات فوراً، وطلبت منهنّ نزع سترة ساشا، فنَفَذْنَ أمرها على الفور، وهي تراقب مذهولة. "Zvifata"، تمتمت وهي تطردهنّ بيدها. "وحوش".

ضاعت عينا ساشا وهي تُحاول التكيف مع ضوء النهار بعد أسابيع طويلة أمضتها في العتمة. سألت بالروسية: "Kmo my، من أنت؟" فسألتها المرأة: "هل تتكلمين التشيكية؟" هزّت ساشا رأسها نافية.

"إذاً، قليل من الإنكليزية؟" "قليلاً، أتابع المحطّات الأميركية". فهمت المرأة وكأنّها تشاركها سرّاً: "وأنا أيضاً، أليست رائعة؟" اكتفت ساشا بالتحديق إليها، فقالت المرأة: "اسمي الدكتورة بريغيتا غِسْنِر، وقد جئت لمساعدتك. فأنا جرّاحة أعصاب من أوروبا".

قالت ساشا على الفور: "لا يستطيع الأطباء مساعدتي". "يؤسفني سماع ذلك. هذا لأنّهم لا يفهمون حالتك". "أنا أعاني من الجنون والنوبات".

هزّت المرأة رأسها بحزم: "لا يا ساشا، أنتِ عاقلة تماماً. لديك حالة تُسمّى صرع الفصّ الصدغي (TLE)، وهو سبب نوباتك. غير أنّه من الممكن علاجه تماماً. وأنا أملك منشأة في براغ، وأريد اصطحابك إلى هناك". سألتها بتشكّك: "ألُصَلحي دماغي؟"

"أنتِ لستِ معطوبة يا عزيزتي. دماغك يمرّ بعواصف كهربائية عارضة فحسب، لكن يمكنني مساعدتك للسيطرة عليها. فقد عالجتُ عدداً كبيراً من مرضى صرع الفصّ الصدغيّ مثلك، وحققت نتائج ممتازة؛ ومن بينهم شاب يُدعى ديمتري من هذه المؤسّسة تحديداً".

"ديمتري؟" تذكّرت ساشا الرجل الطويل والجذّاب، لكنّها لم تره منذ مدّة. أتساءل أين ذهب؟ "هل عالجت ديمتري؟"

"نعم، فعلت. وقد عاد إلى دياره في روسيا". تمنّت ساشا بشدّة أن تصدّق ما تقوله الدكتورة غِسْنِر، لكنّ الأمر بدا لها مستحيلاً. "لكنّني لا أملك المال".

"العلاج مجّاني، يا ساشا، وهو بسيط للغاية".

شرحت الطبيبة إجراءً يتضمن زرع شريحة صغيرة في جمجمة ساشا. وحين تشعر باقتراب النوبة، يمكنها تنشيط الشريحة عبر فرك رأسها بعضاً مغناطيسية صغيرة، فتُطلق الشريحة نبضات كهربائية تقطع بداية النوبة... وتوقفها قبل أن تبدأ.

سألت ساشا وهي على وشك البكاء: "هل هذا ممكن حقاً؟"
"نعم، إنها تُسمّى شريحة التحفيز العصبي المُستجيبة. أنا اخترعتها."
"لكن، لماذا تُساعديني؟!"

مدّت الدكتورة غُسْنِر يدها عبر الطاولة، وأمسكت بكفّها. "ساشا، لقد كنتُ محظوظة في حياتي. وفي الحقيقة، مساعدتكُ تفيدني أنا أيضاً. فأنا أشعر بالرضا حين أساعد من هم بحاجة ماسة إليّ. وإذا كان بإمكانني إنقاذ حياة شخصٍ ما، فلماذا لا أفعل؟"
كانت ساشا تودّ لو تقفز لتعانق هذه المرأة، لكنّها خشيت أن تصدّقها. فنادرًا ما عاملها أحد بلطف خلال سنوات حياتها.

"لكن... ماذا لو لم يسمحوا لي بالخروج من هنا؟!"

قالت غُسْنِر بحدّة: "سيسمحون، فقد دفعت لهم ثروة صغيرة ليُفَرِّجوا عنك".
بعد أربعة أيام، استيقظت ساشا على سرير في مستشفى ببراغ، وهي تترنّج من أثر التخدير ومُسكّنات الألم، لكنّها كانت حيّة. وحين أخبرتها غُسْنِر أنّ العملية نجحت، تأجّجت مشاعرها وحفّزت - كما يحدث عادة - بدايات نوبة وشيكة. لكن بكلّ هدوء، أخرجت غُسْنِر العصا المغناطيسية، وفركت بها أعلى رأس ساشا. وبأعجوبة، أحسّت ساشا بالنوبة تتلاشى. كان الإحساس يشبه عطسة لم تحدث.
لم تصدّق ما جرى.

في الأيام التالية، راقبتها الدكتورة غُسْنِر من كُتب، وضبطت الجهاز ليعمل بكفاءة قصوى. وقد نجح تمامًا، وأدركت ساشا أنّها قد لا تُصاب بنوبة مُجددًا. حتّى إنّها تساءلت إن كانت ستفتقد يومًا إلى تلك السكينة والنشوة العابرة التي تلي النوبات، لكنّها بدت ثمنًا زهيدًا لقاء رفاهية العيش في العالم الحقيقي.

في إحدى الأمسيات، وبينما كانتا تُجريان اختبارات تشخيصية، قالت بريغيتا غُسْنِر بنبرة عابرة: "لا أدري شيئًا عن خططك المستقبلية يا ساشا، لكنني بحاجة إلى مُتدربة في المختبر، وبصراحة، أنتِ مُرشحة مثالية".

فسألتها ساشا ظنًا منها أنّها تمزح: "أنا؟"

ردّت غُسْنِر: "ولِمَ لا؟ فقد قضيت حياتك كلّها تقريبًا في مؤسسة طبية".

أجابت ساشا ضاحكة: "كَمَريضة! لا كطبيبة!"

ابتسمت غُسْنِر وقالت: "صحيح، لكنك امرأة ذكية. أنا لا أطلب منك أن تصبحي طبيبة أو تجري جراحات دماغ، بل أتحدّث عن أعمال مكتبية، وتعقيم معدّات، وما شابه. والأفضل من ذلك، أنّ وجودك في مختبري قد يتيح لنا تحسين حالتك".

قالت ساشا: "تحسينها! لكنني أشعر أنّي بخير تمامًا!"

أجابت غُسْنِر: "أحقّ؟ ألا تعانين من أيّ ضعف أو فقدان للذاكرة؟"

"آه... ما زالت ثمة فجوات في ذاكرتي".

تبادلت مع غُسْنِر ضحكة خفيفة، لكن في الحقيقة، كانت ساشا قد نسيت فعلاً. إذ لطالما كانت فجوات الذاكرة موجودة، وقد اعتادت على التعايش معها.

قالت غُسْنِر: "ضعف الذاكرة ما بين النوبات أمر شائع جدّاً لدى جميع مرضاي المُصابين بصرع الفص الصدغي. ولديّ بعض الأفكار حول كيفية إحراز تقدّم في هذا المجال... إذا سمحت لي بأن أراقب دماغك من وقت لآخر".

"بالتأكيد، ولكن—"

قاطعتها: "لدي شقة صغيرة في المدينة كنت قد اشتريتها لوالدي، لكنها رحلت منذ فترة ولم أنفّرغ لبيعها. يمكنك الإقامة فيها ما شئت. فهي مؤثّثة، لكن إن لم يعجبك طرازها، يمكننا—"

قاطعتها ساشا باندفاع: "بل أحبّ طرازها!" وكادت تنفجر باكية.

كان ذلك قبل عامين، ومنذ ذلك الحين، لم تغادر ساشا براغ. أصبحت في الثامنة والعشرين، وراتبها المتواضع - مع السكن المجاني - كان كافياً لإعالتها؛ وهو ما بدا لها حلماً تحقق. ومع مرور الوقت، انتقلت من تعقيم الأجهزة وإنجاز الأوراق، إلى مساعدة الدكتورة غُسْنِر في أبحاثها، وتعلّم تشغيل معدّات التصوير الأساسية.

كانت بريغيتا تفحص دماغ ساشا بانتظام لمتابعة تطوّر علاجها، وقد شمل ذلك مكملات غذائية وريدية، وتمارين تدريب للدماغ على مقعد الواقع الافتراضي. وأحياناً، كمكافأة، كانت غُسْنِر تسمح لها بخوض رحلات افتراضية إلى برج إيفل، والحيد المرحانيّ العظيم، وملاذها المُفضّل: مانهاتن. كانت تعشق التحليق فوق ناطحات السحاب، أو التجوّل في أرجاء سنترال بارك. يوماً ما، آمل أن أراه حقيقة...

"ساشا؟" تنهأ إليها صوت عميق من فوق رأسها. "هل أنت بخير؟"

كان الصوت قريباً، يسحبها إلى الحاضر. "ساشا؟"

بدأ دفء ما بعد النوبة يتلاشى... وفجأة، اجتاحتها موجة حزن مرير كسيل جارف.

تذكّرت كل شيء الآن.

لقد ماتت بريغيتا.

صديقتي الوحيدة.

فتحت عينيها فجأة، فرأت وجه الرجل الوسيم ذي الملامح الطيبة، الذي لا يزال يحتضن رأسها بين كفيّه. ابتسم لها برفق وهمس: "أهلاً بعودتك".

الفصل 33

كان جوّ الشاحنة يزداد برودةً مع مرور الوقت، وكان جوناس فوكمان يرتجف. كانت يده لا تزالان مُقيّدَتَيْن خلف ظهره، فيما تخذّرت أصابعه تمامًا. فقد مزّق خاطفوه معطفه الرماديّ الكلاسيكيّ قبل تقييده، وفتّشوا درزاته وجيوبه، ثمّ ألْقَوْه على الأرض بجانبه.

تساءل المُحرّر عمّا إذا كان هاتفه لا يزال في جيب معطفه. وكاد أن يصرخ: "هاي سيري! اتّصلي بالطوارئ!"
غير أنّ الرجل الضخم حليق الرأس كان جالسًا على صندوق بلاستيكيّ لا يبعد عنه سوى بضعة أقدام، فيما بقي شريكه على المقعد الأماميّ يطبع على هاتفه بين حين وآخر. يبدو أنّه يجري مُحادثة مع شخص ما.
أمع قائده؟

حاول فوكمان أن يجمع الخيوط، لكنّه لم يستطع أن يتخيّل من يكون هذان الرجلان، أو كيف تجرّأ على خطفه من الشارع. لقد سرقا مخطوطة مُحدّدة... ودمّرا جميع نسخ الناشر! حتى لو كان كتاب كاثرين سيغدو من أكثر الكتب مبيعًا، فهل يُعقل أن يُخترَق نظام شركة، وتُتلّف نسخ ورقية، ويُختطف أشخاص من أجل ذلك؟!
إنّه مجرد كتاب سينشر، حبًّا باللّهِ... لا فيلم داي هارد!
قال حليق الرأس وهو يرفع بصره عن جهازه اللوحي: "أودّ أن أطرح عليك بعض الأسئلة يا سيّد فوكمان".

ردّ فوكمان بخفّة: "نادّني جوناس، فالخطف لم يُعد رسميًا كما كان في الماضي".
غير أنّ حليق الرأس حدّق إليه ببرود، غير مُتأثّر بالدّعاية.
"هل كاثرين سولومون خارج البلاد؟"
"نعم".

"أين تحديدًا؟"
"أنتم تعرفون، لكنكم تضبطون جهاز كشف الكذب الصغير هذا بأسئلة تعرفون إجاباتها مُسبقًا".

كرّر حليق الرأس: "أين؟"
لم يكن المُحرّر يرغب في تلقّي لكمة أخرى، فقال: "إنّها في براغ".

"ممتاز"، ثم تابع القراءة من جهازه: "قبل الساعة صباحًا بتوقيت براغ، غادرت الدكتوراة سولومون جناحها في الفندق، ودخلت مركز الأعمال في فور سيزنز".
أحسّ فوكمان بذعر طفيف: "مهلاً... هل كنتم تتجسّسون عليها؟"
"فلنقل إنّنا كنّا نتابعها من كتب".
"أحقًا؟ ومن أنتم؟!"

إلا أنّ الرجل تجاهل السؤال وأردف: "في مركز الأعمال، استخدمت حاسوب الفندق للدخول إلى خادم الناشر، وفتحت أحدث نسخة من مخطوطتها".
وماذا في ذلك؟ فغالبًا ما يُصاب المؤلفون بالارتباك في اللحظات الأخيرة قبل إرسال مخطوطتهم للناشر، وربما أرادت كاثرين إعادة قراءة جزء من النصّ.

لكنّ حليق الرأس تابع: "لماذا لم تستخدم حاسوبها المحمول في جناحها الخاص؟"
"لأنّها ببساطة لا تملك حاسوبًا محمولًا. فهي تفضّل شاشة كاملة ولوحة مفاتيح وفأرة". وإن كنتم تراقبونها حقًا فلا شكّ في أنّكم تعرفون ذلك.
أومأ صاحب الحاسوب المحمول: "صحيح".

قال حليق الرأس وهو يُعيد النظر إلى جهازه: "بحسب سجلّاتنا، طبعت الدكتوراة سولومون هذا الصباح نسخة ورقية كاملة من المخطوطة - أربعمئة وإحدى وثمانين صفحة - ثمّ حملتها وغادرت الفندق".

تجمّد فوكمان هنيهة من دقّة المعلومات، قبل أن يتذكّر أنّهم سرقوا نسخة مكتبه. خدعة فاشلة.

"لم تطبع الدكتوراة سولومون أيّ نسخة، وأنتم تعلمون ذلك".
حدّق إليه الرجل الضخم الجالس على الصندوق طويلاً، ثمّ قوّس ظهره في حركة كشفت عن حزام كتف يضمّ مسدسًا ضخماً. لم يرَ فوكمان حركةً بهذه الشفافية منذ الصفّ الرابع، عندما حاول أن يحيط بذراعه كتفي لورا شوارتز في دار سينما إيوكا. ومع ذلك، كانت الرسالة واضحة.

قال حليق الرأس: "هل أنت متأكّد من أنّك تريد أن تعبت معي؟"
تدخّل الرجل الآخر من المقعد الأمامي: "مهلاً، النظام يؤكّد أنّه يقول الحقيقة. لم يكن على علم بأنّ سولومون طبعت نسخة".

ارتفع حاجبا حليق الرأس بدهشة وقال: "إذا... هل طبعت المخطوطة من وراء ظهرك؟"
محاولة رخيصة. فقد قام فوكمان بتحرير العديد من مشاهد استجواب الشرطة، لينخدع باستراتيجية "الشرطيّ الصالح والشرطيّ الشرير"؛ أي استراتيجية "فرّق تسد"

لإضعاف ثقته بكاثرين. لكن لسوء حظّ هذين المُهرّجين، بُنيت مسيرة فوكمان المهنية على تحليل سرديات القصص، وإظهار التناقضات. ولو قال خاطفاه إنّ كاثرين حرصت على طباعة نسخة لتحريرها في غرفتها بالفندق، لصدّقهما ربّما. إلّا أنّه تعلّم الاهتمام بالتفاصيل دائماً، وقد زعم هذان أنّ كاثرين حملت المخطوطة خارج الفندق. هذا ليس أمراً يمكن أن تُقدّم عليه كاثرين.

سأله حليق الرأس: "لماذا طبعت كاثرين المخطوطة؟ ومن أعطتها له؟"

فقال فوكمان بعفوية: "بل لمن أعطتها".

زمجر حليق الرأس: "هذا ما قلته".

"لا، ليس هذا ما قلته. والآن، هلّا تفكّان قيدي؛ فقد تخذّرت ذراعاي".

"لمن أعطتها؟"

هزّ فوكمان رأسه: "لا فكرة لديّ".

قال صاحب المَحْمُول من المقعد الأمامي: "إنّه لا يعرف".

بدت الحيرة على حليق الرأس. "هل تواصلت معك كاثرين؟"

"لا".

"وماذا عن روبرت لانغدون؟"

"لا".

ردّ صاحب المَحْمُول: "الإجابتان صحيحتان".

ارتبك حليق الرأس قليلاً، ثم حكّ رأسه، وهو يفكّر على ما يبدو في كيفية متابعة الاستجواب.

أمّا فوكمان، الذي بدأ يرتجف أكثر مع اشتداد البرد، فقال: "هل يمكنكما على الأقلّ تشغيل التدفئة؟"

ردّ حليق الرأس ساخراً: "آسف، أنت غير مرتاح؟" أخيراً، مدّ يده إلى لوحة القيادة وضغط زرّاً. لكن بدلاً من تشغيل جهاز التدفئة، انفتحت نافذة السائق، فاندفعت موجة هواء بارد إلى الداخل. "هل أنت أفضل حالاً الآن؟"

بدأ فوكمان يصدّق أنّه قد يكون فعلاً في خطر داهم هذه الليلة. ومن خلال النافذة المفتوحة، سمع مُجدّداً أصواتاً ميكانيكية أعلى هذه المرّة، وأدرك حقيقة ما يسمعه؛ هدير مُحرّكات طائرات نفّاثة.

يا إلهي! هل أنا في قاعدة جويّة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 34

تنفّس لانغدون الصّعداء حين فتحت ساشا فيسنا عينيّها. مرّت عدّة دقائق منذ أن اجتاحتها التّوبة العنيفة، لكن يبدو أنّها بدأت تستعيد وعيها تدريجيّاً.

قالت بصوت خافت وهي تنظر إليه: "شكراً لك".

أجابها: "أنا آسف جدّاً، لم أستطع العثور على الدواء في حقيبتك".

قالت: "لا بأس. ما كنتُ أحتاج إليه... في جيب سرّي؛ لكنني بخير الآن".

ساعدها على الجلوس، وإسناد ظهرها إلى الكبسولة الزجاجيّة، بينما أخذت تُحرّك أصابع يديّها وقدميّها برفق، كأنّها تحاول استعادة السيطرة على جسدها. كان الصمت المطبق يلفّ المكان بعد أن توقّفت مراوح التبريد وصفارات الإنذار، فور تعطيل عمليّة ال EPR.

أسندت ساشا رأسها إلى الكبسولة، وأغمضت عينيّها قليلاً وهي تنفّس بعمق؛ وكأنّها ما زالت بحاجة إلى بعض الوقت لتستعيد توازنها. وبعد عشر ثوانٍ فقط، فتحت عينيّها، فانتبه لانغدون إلى التغيّر في نظرتها؛ إذ بدت أقوى وأكثر تركيزاً، وكأنّها أجبرت نفسها على دفن ألمها والمُضَيّ قدماً.

قالت بصوت أكثر ثباتاً: "أحتاج إلى بعض الماء، من فضلك".

أجابها لانغدون بسرعة: "بالتأكيد". وتذكّر أنّ جفاف الفم من أكثر الأعراض شيوعاً بعد النوبات.

أشارت بيد مُرتجفة نحو الباب: "في مكثبي... زجاجة ماء".

أسرع لانغدون، ومَرّ من أمام الطاولة، فلاحظ حقيبة جلديّة موضوعة فوقها. إنّها حقيبة غِسْنِر من ليلة أمس. تابع طريقه إلى جناح المكتب، ووجد هناك الزجاجة البنفسجيّة ذات الكتابة السيريليّة التي رآها من قبل. كانت شبه فارغة، فتوجّه في طريق العودة إلى دورة المياه في المختبر لمليّها.

عند المغسلة، مدّ يده تحت الماء الجاري بانتظار أن يبرد، وحدّق إلى انعكاس صورة وجهه المُنهك في المرأة، مُحاولاً تهدئة أعصابه. لقد كان مشهد جثة غِسْنِر صادمًا، غير أنّه ضاعف مخاوفه على سلامة كاثرين.

أين تُراها تكون الآن؟

طافت برأسه أفكار مُقلّقة؛ فقد لمح قبل قليل حقيبة غِسْنِر على الطاولة قرب الحجرة، وتذكّر قولها الليلة الماضية إنّ عليها العودة إلى المختبر بعد السهرة لسبب ما. من المُحتمل جدّاً

أن تكون قد حوصرت في الكبسولة قبل وصول كاثرين إلى موعدها معها عند الثامنة صباحًا.

تُرى، هل وجدت كاثرين نفسها وجهًا لوجه مع قاتل غِسْنِر؟

بينما كان الماء يتدفق في الزجاجة، شعر لانغدون بحركة خلفه. وقبل أن يتمكن من الاستدارة مُبَعَّدًا عن المغسلة، أمسكت قبضة حديدية بذراعه، ولفتها إلى الخلف، ثم ضغطت رأسه على المرأة، فسقطت زجاجة الماء من يده على الأرض.

سأله الرجل: "أين هما؟!" وضغط بكتفه على ظهر لانغدون وهو يُثَبِّت رأسه بقوة على المرأة.

شعر لانغدون بفوهة مسدس تنغرس في ضلوعه، ورأى على المرأة وجه الملازم بافيل المُتَجَهِّم.

سأله ضابط المُخابرات وهو يلوي ذراعه بقسوة أكبر: "أين غِسْنِر وسولومون؟ أعلم أنهما هنا... مع شخص آخر وصل منذ قليل."

تمكّن لانغدون من التكلّم من بين أسنان مُطَبَّقة: "كاثرين ليست... هنا. وغِسْنِر... ميتة". صرخ بافيل: "هراء!" وبدا صوته شبيهًا تمامًا بصوت قائده. فتساءل لانغدون عمّا إذا كان ياناتشك في طريقه إلى هنا هو الآخر.

قال لانغدون وهو يئنّ، وقد خشي أن تُكسّر ذراعه: "ولم أكذب؟" فردّ بافيل بصوت خشن وهو يلوي ذراعه حتى أوشك على خلع مرفقه: "هذه فرصتك الأخيرة. أخبرني أين—"

فجأة، دوى صوت ارتطام معدنيّ ثقيل، فارتخت قبضة الملازم، وانهار أرضًا، وسقط مسدّسه ليستقرّ بعيدًا. استدار لانغدون بسرعة، فرأى ساشا فيسنا خلفه، تمسك بطفاية الحريق نفسها التي كانت قد هدّته بها من قبل. كان الخوف مُرتَسِمًا على وجهها وهي تُحدّق إلى الملازم المُمدّد بلا حراك عند قدميها.

قالت مُتردّدة: "لم أعرف ماذا أفعل... فقد كان يُؤذيك!"

نظر لانغدون إلى بافيل، فلاحظ أنّه لا يتزف، لكنّه بدا فاقد الوعي تمامًا. فقال وهو يلتقط أنفاسه: "لا بأس"، ثم أخذ الطفاية من يد ساشا بذراعه المُتألّمة، ووضعها على الأرض. سأله: "من يكون؟"

أجاب لانغدون وهو يلتقط مُسدّس الملازم، ويضعه في المغسلة بعيدًا عن متناول اليد: "إنّه مُلّاّرِم في جهاز الاستخبارات التشيكيّ. سيحتاج إلى طبيب."

قالت بثقة: "إنّه بخير. فالصدمة أصابت القشرة الجدارية الخلفيّة؛ سيظلّ فاقد الوعي بضع دقائق، ثمّ سيصحو مع صداع شديد."

عندئذٍ، تذكر أنّ ساشا تعمل مع عالِمة في مجال الأدمغة.

سألته ساشا: "لكن، كيف دخل إلى هنا؟!"

لم يكن لانغدون يملك جوابًا. ربّما وصل فريق التفجير التابع لجهاز الاستخبارات واقتحم الباب، وربّما لم يسمع صوت الافتحام بسبب ضوضاء أجهزة الإنذار. والآن، أنا مُتورّط على نحو مباشرة في اعتداء على ملازم في جهاز الاستخبارات.

قال وهو يدرس خياراته على عجل: "ساشا، يجب أن أتواصل مع السفارة الأميركية في أسرع وقت. فثمّة رجل يساعدني هناك، يدعى مايكل هاريس".

بدت الدهشة على ساشا: "أنا أعرف مايكل؛ إنه صديق مُقرّب".

"أتعرفينه؟!" فوجئ لانغدون لأنّ هاريس لم يذكر قطّ أنّه يعرف مساعدة غُسنير.

قالت ساشا: "إنّها صداقة لا تُعلن عنها. موظّف في الحكومة الأميركية... وروسية أصيلة..."

قال لانغدون في سرّه: بالتأكيد، فالسياسة انطباع. في الواقع، مع تصاعد التوتر بين الولايات المتحدة وروسيا، كانت رؤية مسؤول في السفارة يمضي وقتًا مع مساعدة مختبر روسية كفيلة بإثارة الشبهات.

قالت ساشا: "على أيّ حال، لا يمكننا الذهاب إلى السفارة من هنا، فالأمر خطير للغاية. سيكون رجال الاستخبارات قد ضربوا طوقًا حولها، ولا بدّ أنّهم يفتشون كلّ سيارة تقترب من المبنى. لذا، من الأفضل أن نرسل رسالة إلى مايكل ليأخذنا من شقّتي بسيارة السفارة الرسمية. سيكون ذلك أكثر أمانًا".

خطر في بال لانغدون أنّ هذه المرأة- التي أنهكتها نوبة شديدة قبل قليل - تفكّر الآن بصفاء ذهنيّ أكثر منه. إذًا، إلى شقّتها. فكّر في ذلك وهو يشعر بالامتنان لمساعدتها، وأمل أن يتمكن من التواصل مع كاثرين قريبًا. فسأل: "أما من مخرج آخر غير الباب الرئيس؟" هزّت رأسها قائلة: "كلّا، إنه الطريق الوحيد". ثمّ التقطت مسدّس پافيل من المغسلة ووضعت في حقيبتها.

قال لانغدون بقلق: "تمهلي، فأنا لست متأكّدًا من أنّه من الحكمة سرقة سلاح تابع للاستخبارات—"

أجابت: "لن أستخدمه. لكنّ هذا العميل سيستفيق خلال دقيقة، وإن قرّر مطاردتنا، فأنا أفضل أن يكون أعزل".

لن أجادلها في ذلك. إذ كان پافيل قد بدأ يتأوّه ويحرك أطرافه.

التقطت ساشا زجاجة البنفسجية التي تهشمت تحت حذاء پافيل في أثناء العراك، ونظرت إليها بأسى. ثمّ قالت وهي تتأمل الكتابة الروسية بخط اليد: "بريغيتا هي التي أهدتني إياها، لتذكّرني بشرب الماء؛ فأنا أنسى دائمًا. مكتوب عليها: اشربي الماء".

وضعت ساشا الزجاجاة عند مدخل مكتبها، وقادت لانغدون إلى السلالم، فصعدا في صمت حتى بلغا أعلاه، وكان لانغدون يخشى أن يجد ياناتشك في الردهة. عند الباب الأمني، توقّف قليلاً، متوقّفاً أن يجده مُحطّماً. غير أنّه لم يكن كذلك.

ألقت ساشا نظرة حَذِرَة عبر النافذة الصغيرة، وحين لم ترَ شيئاً، دفعت الباب وخرجت. أشارت إليه كي يتبعها، فخرجا إلى الردهة قارسة البرودة التي كانت خالية. ومع انغلاق الباب خلفهما، أطلق اللوح الأمني صفيراً خافتاً، وأضيء باللون الأحمر. تقدّما فوق الزجاج المُحطّم، وغادرا المبنى إلى الممشى. كان الصمت مُطْبِقاً. ومع أنّ سيارة ياناتشك ما زالت متوقّفة أمام المبنى، إلّا أنّهما لم يجدا أثراً للنقيب. قالت ساشا بعد قليل من التفكير: "تعال معي".

قادته نحو اليمين، بعيداً عن الحصن، حتى وصلا إلى فتحة في السور الحجريّ. من هناك، هبطا درجاً حجريّاً قادهما إلى مُنحَدَرٍ مُغطّى بالأشجار. كان هذا الجزء من التلّ أقلّ انحدرًا من الجرف المحيط بفناء الحصن، ومع ذلك، كان الثلج زَلَقاً تحت الأقدام، وبدأ لانغدون يجد صعوبة في التوازن بحذاءه الأملس.

كان لانغدون قد ارتدى هذا الصباح سترة صوفيّة من "ديل"، وانتعل حذاءً أنيقاً، بنية زيارة مختبر علمي... لا للهروب عبر مُنحَدَرٍ جبليّ. وبينما كان يتعثّر مُحاولاً شقّ طريقه بين الأشجار، انحصر تفكيره في الوصول إلى أسفل المُنحَدَر من دون التعرّض للأذى. غير أنّه أدرك الآن أنّ هذا السفح يقود مباشرة إلى متنزه فوليمانكا. ومن هناك، سنستقلّ سيارة أجرة إلى شقّة ساشا.

* * *

في تلك الأثناء، كان الغولم يقف في موقع مُرتفع يتيح له أن يرى بوضوح البروفيسور الأميركيّ وهو يتعثّر في هبوطه نحو متنزه فوليمانكا. في الواقع، لم يكن وجود روبرت لانغدون المُفاجئ هذا الصباح في الحصن، إلى جانب رجلّي الاستخبارات، سوى عقبة أخرى على طريق تنفيذ خطّته.

لذا، سيتعيّن عليه تأجيل خطّته لدخول العتّبة قليلاً؛ إذ إنّ فرصة جديدة قد لاحت أمامه الآن. فرصة لا أنوي التفريط فيها إطلاقاً. هكذا، وبخطوات مُحسوبة، بدأ الغولم يهبط المُنحَدَر الزلّقي، واثقاً من أنّ لانغدون وساشا لا يدركان وجوده خلفهما.

الفصل 35

كان بهو فندق فور سيزنز عابقًا برائحة كرائحة الورود.

قالت دانا دانيك في سرّها وهي تتقدّم نحو مكتب الاستقبال: تمامًا مثل الورود التي كان مايكل يُهديني إياها. كانت قد فتّشت البهو والمطعم بالفعل، لكنّها لم تعثر على مايكل ورفيقته الجميلة في أيّ مكان.

إِذَا، في الأعلى...

اقتربت من موظّف الاستقبال بابتسامة مُتكلفة، وقَدّمت له بطاقة تعريفها الدبلوماسية قائلةً بلطف: "صباح الخير سيّدي، أعذر عن الإزعاج. أنا موظّفة في السفارة الأميركية هنا في براغ، ورئيسي مايكل هاريس موجود في الفندق الآن. طلب منّي أن أسألهم غرضًا لسبب ضروريّ، فهل صدف أن رأيته يدخل قبل نحو خمس عشرة دقيقة؟ إنّه رجل أميركيّ من أصول إفريقيّة، طويل القامة، مع—"

أعاد الموظّف البطاقة إليها وردّ مُبتسمًا: "نعم، بالتأكيد. السيّد هاريس في الجناح الملكيّ. هل تودّين أن أوصل له شيئًا؟"

فقالت دانا بلطف مُصطنع: "لا، شكرًا. إنّه مُستند دبلوماسيّ حسّاس، لذا عليّ تسليمه إياه بنفسي. ذكّرني من فضلك، ما رقم الجناح الملكيّ؟"

أرشدتها الموظّف إلى كيفة التوجّه إلى الجزء الخلفيّ من الفندق. وبعد دقيقة، كانت دانا قد صعدت درجًا خاصًا يقود إلى بهو صغير، لتقف أمام أفخم أجنحة الفندق.

أحقًا يا مايكل؟ الجناح الملكيّ؟!

طرقت الباب بخفّة، وقالت بلهجة مُصطنعة: "Üklid"، خدمة الغرف! لم تكن تطيق الانتظار لرؤية ملامح مايكل حين يراها أمامه. وحين لم يفتح أحد، وضعت أذنها على الباب وأصغت، فسمعت حركة في الداخل.

طرقت مُجددًا بقوة أكبر: "خدمة الغرف!"

اقتربت خطوات من الداخل، ثمّ فُتح الباب قليلًا، لتطلّ منه عينان واسعتان مألوفتان. قالت المرأة التي كانت صباحًا على الجسر: "آسفة، هل يمكنك العودة—"

اقتحمت دانا الغرفة بكلّ قوّتها، دافعة المرأة بقامتها القصيرة إلى الخلف، فسقطت هذه الأخيرة أرضًا، ثمّ تابعت طريقها إلى داخل الجناح، وتوجّهت مباشرة نحو غرفة النوم الرئيسة.

فارغة.

فتشت الحمام المُلحق.

فارغ أيضًا.

لا أثر لمايكل في أيّ مكان.

كان الجناح في حالة فوضى عارمة - أدراج وحقائب مفتوحة، بما في ذلك خزانة الفندق - وكأنّ الغرفة... تُفتّش بعناية.

عندما عادت إلى غرفة المعيشة، كانت المرأة بانتظارها، تحدّق إليها من وراء فوهة مسدّس أسود موجهة مباشرة إلى جبهتها.

يا إلهي!

قالت المرأة بنبرة هادئة على نحو مُريب: "سأطرح عليك سؤالًا واحدًا فقط. ماذا تفعلين هنا؟" كانت لكتتها الأميركية واضحة.

بدا من ثبات يد المرأة، وصوتها، أنّها مُعتادة على استخدام السلاح. أما دانا، فكانت تحدّق إلى فوهة مُسدّس مُصوّب نحوها للمرّة الأولى في حياتها، والتجربة كانت صادمة.

تمتّت بتردد: "أنا... أبحث عن... مايكل هاريس".

بقي المسدّس ثابتًا في مكانه: "ليس هنا".

كانت دانا قد لاحظت - عند دخولها الفندق - أنّ سيارة السفارة لم تعد مُتوقّفة في الخارج. لكنّها افترضت أنّ مايكل طلب من سائقه أن يركنها في مكان آخر لتجنّب لفت الأنظار.

قالت المرأة بحزم أكبر: "عليك الرحيل فورًا؛ هذا الأمر لا يعينك".

فأجابت، مُستحضرة ما تبقى من شجاعتها: "بل يعينني تمامًا. فأنا موظّفة في السفارة الأميركية، وأنتِ تصوّبين سلاحًا نحوي. والأسوأ أنّك تفتّشين جناح فندق ينزل فيه مواطنان أميركيّان".

خطت المرأة خطوة إلى الأمام، والمسدّس لا يزال ثابتًا، وكرّرت قائلة: "قلت لك، هذا لا يعينك".

من أنت، حبّاً بالله؟! لم يكن بحوزتها سوى ورقة واحدة لتلعبها، فالتفتت نحو النافذة الكبيرة التي تُطلّ على جسر كارل وقالت: "أنا أعلم بما حدث على الجسر هذا الصباح. أين إكليل الشوك؟"

لم يظهر على وجه المرأة أيّ انفعال. لا، بل لم يرمش لها جفن. عوضًا عن ذلك، اقتربت من دانا أكثر، وقالت بصوت حازم: "أيّا كنتِ، أنصحك بالعودة إلى السفارة، والتحدّث إلى سفيرتك، قبل أن تذكرني هذا الأمر لأيّ إنسان".

"أخبريني أولاً، أين مايكل هاريس؟"

"أرسلته سفيرتك إلى هنا ليفتح لي هذا الجناح. ففتحه، ثم رحل. هذا كل ما أعرفه".
ثم أشارت برأسها إلى الباب، وتابعت قائلة: "والآن، اخرجني، وأغلق الباب خلفك".

* * *

انتظرت الضابطة الميدانية سوزان هاوسمور حتى أُغلق الباب مُصدِّراً نغمة، قبل أن تُنزل سلاحها، وتضعه في جرابه الخفي أسفل ظهرها. بعد ذلك، أخرجت هاتفها، وأجرت مكالمة آمنة مع السيد فينش في لندن.

* * *

في الجهة الأخرى من المدينة، كان مايكل هاريس جالساً على المقعد الخلفي لسيارة السفارة المُتَّجِّهة بأقصى سرعتها نحو حصن الصليب. شعر بالارتياح لإنجازه المهمة الغريبة التي كلفته بها السفارة في فندق فور سيزنز. فقد تسلمت المرأة - التي طُلب منه أن "يساعدها" - مفتاح الغرفة بسرّية تامة، ومن دون حتى أن تتبادل مع هاريس نظرة واحدة. مِهْنِيَّةٌ حَتَّى الْعِظَم.

وما إن لاح له الحصن بين الأشجار، حتى سرَّ لعدم وجود أي أثر لفريق تفجير، أو لسيارات إضافية تابعة للاستخبارات التشيكية. يبدو أن مكالمة السفارة مع ياناتشك قد أوقفته عند حده.

كان هاريس مُتَشَوِّقاً للقاء روبرت لانغدون من جديد، كما وعده. غير أنه ما إن ترجل من السيارة، حتى توقف في مكانه مُتَوَجِّساً؛ إذ كان الباب الأمامي للمختبر مُحَطَّماً ومفتوحاً على مصراعَيْهِ.

لكن، ماذا حدث هنا؟!

أسرع باتجاه المدخل، ففوجئ بخروج ملازم من الاستخبارات وهو يترنح، مُمَسِكاً رأسه بين يديه. وسرعان ما تبين له أنه المُلازم الضخم الذي كان يقود سيارة ياناتشك صباحاً عند فندق فور سيزنز.

أمسك به هاريس لِيُسِنْدَهُ: "هل أنت بخير؟ ماذا حدث؟! ومن حطَّم الباب؟"

تمتم الرجل: "كاثرين سولومون... ضربتني..."

لم يكن هذا الكلام مَنْطِقِيّاً على الإطلاق: "أأنت مُتأكِّد من أنها كانت الدكتورة سولومون؟"
فقال الضابط وهو يلهث: "رأيتها في المرأة... طويلة... شقراء..."

بالتأكيد ليست كثرين. كان هاريس يعرف امرأة شقراء واحدة تملك إذن الوصول إلى المختبر، وهي ساشا فيسنا، مساعدة غُسْنِر. ومع ذلك، من الصعب أن يتخيل أن ساشا قادرة على استعمال العنف.

سأله بقلق: "وأين روبرت لانغدون؟"

أجابه الرجل: "لقد هرب... معها".

بدأت القصة أشبه بالهذيان، لكنّ نظر هاريس وقع في تلك اللحظة على سلسلة آثار أقدام تمتدّ عبر الطريق الأمامي، وتتّجه نحو الغابة. هل قرّ لانغدون فعلاً؟! "هل رأيت أحداً آخر في الداخل؟" /الدكتورة غُسْنِر؟

"لا... بل خرجتُ فوراً لأبلغ قائدي". وأشار الملازم إلى طرف الباحة، مُضيفاً: "إنّه هناك".

نظر هاريس نحو الحافة، لكنّه لم يرَ أيّ أثر لياناتشك. "لا أراه".

"خرج إلى هناك ليُجري مكالمة..."

لم يُفاجأ هاريس. لا بدّ أنّه كان يحاول السيطرة على الأضرار بعد حديثه إلى السفيرة. "حقاً! عليك أن تجلس قليلاً أيّها الملازم".

غير أنّ الرجل واصل سيره نحو الحافة، فأخذ هاريس حفنة من الثلج ولحق به. "هاك، ضع هذه على رأسك".

أخذ الرجل كرة الثلج وضغطها على الجهة الخلفيّة من جمجمته وهو يتابع السير. "كان هنا يجري مكالمة... لكنّه لم يعد".

رأى هاريس آثار أقدام مُتشابكة على حافة التلّ، كما لو أنّ لياناتشك كان يتمشّى أو ربّما انضمّ إليه أحد، لكنّ المكان خالٍ الآن. وعندما اقتربا من الحافة، انحنى الملازم والتقط جسماً معدنيّاً عن الأرض. مسح عنه الثلج، ثمّ حدّق إليه بقلق. "إنّه هاتفه!"

لماذا قد يترك لياناتشك هاتفه؟

تابعا السير ببطء حتّى بلغا الحافة، وحدّقا إلى الأسفل. كان المشهد مُروّعاً. ففي قاع الوادي، كان ثمة جسد ببذلة داكنة، مطروح بعشوائية، ومُهشَّم فوق الصخور. كان رأسه مُحاطاً بالثلج الأحمر المُنتشر عدّة أقدام من حوله. وحتّى من هذا الارتفاع، لم يشكّ هاريس لحظة واحدة في أنّ الرجل قد فارق الحياة... ولا في هويّته.

يا إلهي! هل انتحر لياناتشك؟

بجواره، استدار الملازم وصرخ كحيوان جريح، فتردّد صدى صوته في الوادي ممزوجةً بألم الفقد... وبغضب عارم.

الفصل 36

خفض لانغدون رأسه في مواجهة الريح، بينما كان هو وساشا فيسنا يهبطان المنحدر المكسو بالشجر، مُبتعدَيْن عن الحصن. وقر غطاء الأشجار الكثيف أرضًا أكثر جفافًا، ممّا أتاح للانغدون النزول بسهولة أكبر ممّا توقع. مع ذلك، انزلق عدّة مرّات على الثلوج، لكنّه حافظ على وتيرة ثابتة.

بحلول الوقت الذي خرجا فيه من الغابة إلى متنّزه فوليمانكا، كان حذاؤه قد أصبح مغطّى بالثلج، وقدماه مُجمدَتَيْن. وعلى دروب المتنّزه، ظهر بعض المارّة، يسرون برؤوس مُنحنية، في طريقهم إلى أعمالهم.

تقدّمته ساشا بصمت عبر المتنّزه، مُتّجهة جنوبًا. وعندما مرّا بنافورة فوليمانكا، تمت بصوت مُنخفض: "أنا واثقة من أنّ كاثرين لم تدخل الحصن هذا الصباح... فبحسب شاشة كبسولة التجميد، كانت بريغيتا داخلها منذ الليلة الماضية، وهذا أطول بكثير ممّا يمكن لأيّ إنسان تحمّله".

تمنّى لانغدون أن يعني هذا أنّ كاثرين وصلت إلى المختبر، وحين لم تلقَ جوابًا عند قرع الجرس، عادت أدراجها إلى الفندق. لعلّي التقيتُ بها في الطريق، قال ذلك في سرّه، مُحاولًا تجاهل الإحساس المُزعج بأنّ خطبًا ما أصاب كاثرين فعلاً. فمجرّد احتمال فقدها بعث الرعب في قلبه.

في الواقع، وعلى مدى الأيام الثلاثة الماضية، لم يفترقا لحظة واحدة. والمدهش أنّ صداقتهما - الممتدّة منذ خمسة وثلاثين عامًا - اشتعلت فجأة، وتحوّلت إلى علاقة طبيعيّة مُتأجّجة بالعاطفة، بحيث فاجأتها معًا.

لقد استمتع لانغدون خلال تلك الأيام معها. كما عاشت كاثرين بدورها نشوة الإنجاز خلال تلك الفترة، بعد انتهائها من مخطوطتها. وبشيء من الحماسة الممزوجة بالتحفّظ المرح، أخبرته عنها بإيجاز، مُتجنّبة بعناية الإفصاح عن تفاصيلها لكي لا تُفسد عليه عنصر المفاجأة. لكنّ ما شغلها أساسًا - كما تذكّر لانغدون - كان قلقها من مدى تقبّل القراء والنقاد لأفكار جديدة.

قالت أمس، وهما يحتسيان الإسبريسو في مقهى "لا بويم" الأنيق: "لنكن صريحيْن، العقل البشريّ يكره التغيّر... ويبغض التخلّي عن معتقداته الراسخة".

ابتسم لانغدون، وفكّر في سرّه: لهذا السبب تعيش بعض الديانات قرونًا طويلة، على الرغم من جبال الأدلة التي تناقض معتقداتها.

تابعت كاثرين مُتذمّرة: "تخيّل أنّه منذ ثلاثين عامًا، أثبت الفيزيائيون أنّ الاتصال بين جُسيمين متشابكين يتمّ على نحو آنيّ، ومع ذلك، ما زلنا نُدرّس مقولة أينشتاين إنّهُ "لا شيء أسرع من الضوء!"

تذكّر لانغدون التجربة الأصليّة التي اعتمدت قلبَ قطبيّة أحد الجُسيمين مغناطيسيًّا، فانعكست قطبيّة "توأمة" فوراً؛ سواء أكان في الغرفة نفسها أم على بُعد أميال. بعد ذلك، رفع الصينيون مستوى التحدّي من خلال إعادة التجربة عبر الأقمار الصناعيّة، وأثبتوا أنّ الجسيمين المُتَشابِكين يبقيان "متّصلين آنيًّا" عبر مسافة بلغت ألفاً ومئتي كيلومتر. ونشرت مجلة "ساينس" الخبر تحت عنوان: "الصين تحطّم الرقم القياسي "للفعل الشبحي من بعد"؛ في إشارة إلى وصف أينشتاين لهذه الظاهرة في ثلاثينيات القرن الماضي.

أضافت كاثرين: "ومنذ عقود ونحن نُثبت مراراً أنّ الفكر البشريّ، حين يُركّز، يستطيع حرفياً أن يُغيّر كيمياء الجسد. مع ذلك... يواصل الأطباء رفض فكرة العلاج من بعد بعدّها خرافة".

فكّر لانغدون في سرّه: *إذا تصلّب العقل غداً جيّلاً لا يتزحزح.*

قال لانغدون: "لديّ طالبة يبلغ مُعدّل ذكائها مئة وثمانية وأربعين، ومع ذلك تُصرّ على أنّ عمر الأرض ستّة آلاف عام فقط. فاصطحبتها إلى قسم الجيولوجيا، وأريتها أحفورة عمرها ثلاثة ملايين عام. غير أنّها اكتفت بهزّ كتفيها قائلة: "أعتقد أنّ هذه الأحفورة وُجدت على الأرض لا اختبار إيماني".

فههكت كاثرين وقالت: "إن كنت تظنّ أنّ بعض النّاس مُتشبّثون بمعتقداتهم بلا منطق، فعليك أن ترى مدى تزمّت أساتذة الجامعات القدّامي".

قال مازِحاً: "أنا أستاذ جامعة قديم!"

"لكنّك كنتَ دائم التشكّك يا روبرت. صحيح أنّك تقليديّ، لكنّك جذّاب".

"تقليديّ؟! أنا أصغر منك... أكره تذكيرك بذلك".

ابتسمت ابتسامة أسرة: "حذارٍ... فقد حضرتَ حلقتي الدراسيّة مرّتين، ولا أظنّ أنّك كنتَ تحدّق إلى شرائح العرض حينذاك".

ضحك لانغدون عاليّاً: "أعترف أنّي مُذنب".

أردفت: "المغزى أنّ أحداً لا يحبّ التغيّر. والأساتذة المُتشبّثون بآرائهم يميلون إلى التمسّك بالراحة التي توفّرها مُعتقداتٌ عفا عليها الزمن؛ حتّى بعد أن تصبح نماذجهم بالية. لهذا السبب، إنّ تأسيس نموذج علميّ جديد - كنموذج الوعي البشريّ - يصبح عمليّة بطيئة ومُحِبطة للغاية".

تذكر لانغدون كتاب توماس كُون الكلاسيكي الصادر عام 1962، "بنية الثورات العلمية"، الذي شرح فيه كيف أنّ التحوّلات الجذريّة لا تحدث إلّا بعد تراكم كتلة حرجة من الظواهر المُناقضة للنظرية السائدة. وكانت كاثارين تأمل أن يُضيف كتابها ثِقلاً حاسماً إلى هذا التراكم.

قال لانغدون: "بالنسبة إلى مخطوطتك... لم تخبريني بعد ما هو تحديداً الاكتشاف الكبير".

ابتسمت كاثارين قائلة: "صبراً، أظنّك ستجد الأمر مُشوِّقاً للغاية؛ لكنني أفضل أن تقرأه بنفسك وتعطيني ملاحظاتك".

دوى بوق سيارة، فتبدّدت الذكريات الدافئة عن المقهى، وعاد لانغدون إلى برد متنزه فوليمانكا. ارتجف وهو يتبع ساشا نحو بوابة حديدية، وسرّ حين رأى صفّاً من سيارات سكودا الصفراء مركونة في موقف سيارات الأجرة.

استقلّ أوّل سيارة، وشعر لانغدون بالامتنان للدفع الذي يسود في الداخل. وما إن أعطت ساشا السائق عنواناً، حتّى انطلقت السيارة نحو شارع سيكانينوفا.

بعد ذلك، أخرجت هاتفها، وأجرت اتّصالاً عبر مُكبّر الصوت. فجاء صوت مايكل هاريس المؤلف: "ساشا؟!"

هتفت بصوت مُضطرب: "مايكل! لقد حدث أمر مُروّع لبريغيتا!" ثمّ روت له ما اكتشفاه وهي تُغالب دموعها.

قال هاريس مذهولاً: "أنا آسف جداً... لم تكن لديّ أدنى فكرة. أنا الآن في الحصن".

قال لانغدون في سرّه: "تَبّاً، لقد خرجنا قبله بلحظات".

أضاف هاريس: "رجال الاستخبارات هنا أيضاً، ولا فكرة لديهم أنّ بريغيتا قد ماتت".

إِذًا، پافيل لم يرَ الجثة.

فقال هاريس فجأة: "ساشا، هل هاجمتِ أحد ضباط الاستخبارات؟!"

تردّدت لحظة، مَصدومة: "لقد هاجم روبرت لانغدون! لم أعرف ما ينبغي لي فعله حينها".

"لانغدون؟! أهو معك؟"

"نعم، أراد أن يستقلّ سيارة أجرة إلى السفارة، لكن —"

"فكرة سيّئة؛ سيعترض طريقه رجال الاستخبارات".

"أعلم، لهذا أنا أصرّطحه إلى —"

فقاطعها هاريس بصرامة: "لا تقولي عبر الهاتف! أنا أعرف وجهتكما. بلّغي هاري

وسالي سلامي. سأكون هناك خلال عشرين دقيقة في الأكثر. ابقيا بعيداً عن الهاتف".

وانقطع الاتصال.

سألها لانغدون: "هاري وسالي؟"

"لديّ هرّ وهرّة. لم يُرد أن أقول إنّنا متوجّهان إلى شقّتي".

ذكّي. "يبدو أنّك تعرفينه جيّدًا".

هرّت رأسها، بشيء من الحرج: "منذ بضعة أشهر".

"ومن الواضح أنّك تثقين به".

أجابت وعيناها تغرّورقان فجأة. "نعم، أثق به. وهو سيعرف كيف يساعدك".

أراك أكثر حاجة منّي إلى المساعدة. أميل أن تكون السفارة قادرة على حماية امرأة روسيّة؛ على الرغم من اعتدائها على ضابط استخبارات تشيكيّ. وتمنّى لو سألت هاريس عن أيّ خبر جديد عن كاثرين، لكن بدا أنّه - على غرار ساشا - لا يثق بالهواتف، ولن يقول شيئًا على أي حال.

سأتحدّث إلى هاريس شخصيًا في منزل ساشا.

بجواره، أغمضت ساشا عينيّها، وارتاحت على مقعدها، وما لبثت أن بدأت تُورّجج جسدها برفق، كما لو كانت تحاول مُواساة نفسها. فكّر لانغدون في سرّه: إنّها بحاجة إلى الراحة. فقد مرّت لتوّها بنوبة صرع، وصدّام جسديّ مع ضابط استخبارات، وها هي تخاطر بحياتها لإيصاله إلى برّ الأمان بعد أن شهدت موت مديرها البشع.

نظر لانغدون إلى ساعته، فرأى ذراعَي ميكي ماوس تشيران إلى أنّ الوقت قد تجاوز التاسعة صباحًا بقليل... أي مرّت بضع ساعات فقط منذ أن استيقظ بجانب كاثرين بسلام. لكن بدا له وكأنّ عمراً قد انقضى.

الفصل 37

استرخى جسد لانغدون بفعل دفء سيارة الأجرة. فبعد عبور متنزه فوليمانكا، كان يرتجف من شدة البرد، فخلع حذاءه الذي بلّله الثلج، وراح يُدلك أصابع قدميه المُجمّدة، بينما جلست ساشا إلى جانبه بصمت، وعيناها لا تزالان مُعَمَّصَتَيْن.

ظَلَّت المرأة التي رآها على جسر كارل تطارده. فقد كان في ذلك اللقاء العابر ما يبعث على الاستغراب والخوف معاً... بدءاً من طريققتها في السير كما لو كانت شبحاً، إلى نظراتها الخاوية، ورائحة الموت التي تنبعث منها، هذا ناهيك عن عدم إصغائها إلى ندائه... كأنها تعيش في واقع مُوازٍ.

في هذه المدينة التي يكثر فيها الغموض، كثيراً ما يُبلّغ عن رؤية أشباح ليلية، والأكثر شيوعاً أشباح المشاهير المَحَلِّيِّين؛ كفارِس الهيكل مُقَطَّوع الرأس الذي يهيم على جسر كارل سعيّاً إلى الانتقام من جُلَّاديه... والسيدة البيضاء من قلعة براغ التي تسير على الأسوار مُحاولَةً الفرار من سجنها بعد اعتقالها بتهمة التجديف... ومسَخ الغولِم الطيني الذي ما زال يتسلَّل بين الظلال قرب المعبد القديم لحماية الضعفاء.

لكن لا وجود للأشباح. كان لانغدون واثقاً من ذلك. وبالتأكيد، لا تترك الأشباح آثار أقدم على الثلج. أيّاً يكن ما رآه على جسر كارل، فقد كان حتماً من لحم ودم.

في الواقع، لطالما استمتع لانغدون بقصص براغ الخارقة للطبيعة، حتّى لو رفضها فطريّاً. وهذا الصباح، شقَّ منطقهُ العقلائيّ طريقه عبر الغموض، وتوصّل إلى استنتاج قاطع. ثمة ثلاثة تفسيرات معقولة لا أكثر لوجود المرأة الغريب على جسر كارل.

كان الاحتمال الأوّل أن يكون حلم كاثرين رؤية استباقية خارقة لحدث مُستقبليّ. ولو صحّ ذلك، تكون كاثرين قد عاشت إحدى أدقّ التجارب الاستشرافيّة التي سجّلها أحد على الإطلاق. احتمال شبه معدوم، لذا فهو مُستبعد.

أمّا التفسير الثاني، فلم يكن أقلّ استبعاداً؛ المُصادفة. تعبر امرأة الجسر بعد ساعات من حلم كاثرين، وهي تضع هالة على رأسها، وتحمل رمحاً، وتفوح منها رائحة الكبريت... احتمال يكاد أن يكون مُستحيلاً إحصائياً إلى حدّ عبثيّ.

بقي السيناريو الثالث - وإن كان مُقلّفاً - إلّا أنّه التفسير العقلائيّ الوحيد. فكما قال شرلوك هولمز: حين تَسْتَبْعِد المُستحيل، فالباقي - مهما بدا غير معقول - لا بدّ أن يكون الحقيقة. والحقيقة غير المعقولة في هذه الحالة أنّ أحداً ما اطّلع على حلم كاثرين... ودبر المشهد.

تمثيل.

لكن لماذا؟

وكيف؟

ظَلَّ السبب لغزًا، بينما بدت الكيفية أكثر وضوحًا. فقد حُذِر لانغدون، خلال جولة ترويجية لكتاب في روسيا قبل أعوام، من أن معظم أجنحة الفنادق الفخمة في موسكو مُزوَّدة بأجهزة تنصّت حكومية. هل يمكن أن تكون براغ مُشابهة؟ صحيح أن هذه المدينة لا تبدو شبيهة بموسكو، لكن التاريخ يُلقي بظلاله الثقيلة؛ فمنذ وقت ليس ببعيد، أمضت براغ خمسة وأربعين عامًا خلف الستار الحديدي، وباستثناء "ربيع براغ" القصير، فرض المُتشدّدون السوفييات سيطرتهم الكاملة، وكانت رقابة كي جي بي شاملة. وإن وُجد جناح واحد في براغ يستحقّ التنصّت على نزلائه، فهو الجناح الملكي في فور سيزنز؛ الوجهة المُفضّلة للأثرياء وزعماء العالم والدبلوماسيين.

أكان أحدهم يستمع حين روت لي كاترين الحلم؟

ارتعد لانغدون لمجرّد تخيُّله ما قد تكون الميكروفونات قد التقطته أو ما سُجِّل من لحظات خاصّة في الأيام الماضية التي قضّاها معها.

لكن، من قد يكون المُتنصّت؟ أهو ياناتشيك، أم الاستخبارات التشيكية؟

مهما كان الدافع لإعادة تمثيل ذلك الحلم المُروّع، فقد ركض لانغدون على الطريق نفسه على جسر كارل، وفي التوقيت نفسه طوال الأيام الثلاثة الماضية، وكان قد أخبر كاترين هذا الصباح أنّه سيعود عند الساعة السابعة.

توقيت مُحسوب بدقّة.

وبهذا المنطق، بات أكثر اقتناعًا بأنّ كلّ ما حدث كان مَشهدًا مُدبّرًا. وللمفارقة، كان ذلك أشدّ إثارة للرّعب في نظره من احتمال وجود الأشباح.

الفصل 38

كان فينش غاضباً أشد الغضب.

فقد تلقى اتصالاً من عميلته الميدانية في براغ، تُبلغه فيه أنّ مهمّة بسيطة في فندق فور سيزنز انقلبت رأساً على عقب. كانت العميلة سوزان هاوسمور عيني فينش وأذنيه وذراعيه في كلّ ما يتعلّق بمشروع "العتبة" في المنطقة. وعلى الرغم من أنّ معرفتها بالمشروع كانت مُجرّأة، إلّا أنّها كانت تُدرك أنّ السريّة أمر حيويّ.

ما الذي حدث، حبّاً بالله؟

بالنسبة إلى شخص بمهاراتها، كان من المُفترَض أن تكون المهمّة تافهة، لكنّها انتهت بمواجهة مُسلّحة مع موظّفة في السفارة.

يا إلهي!

وبينما كان يستشيط غضباً، أجرى فينش اتصالاً آمناً بسفيرة الولايات المتّحدة في براغ.

* * *

في الجناح الملكي في فور سيزنز، ألقت سوزان هاوسمور نظرة أخيرة حولها للتأكّد من أنّ كلّ شيء عاد إلى نصابه أخيراً. كانت مُرهّقة بعد ليلة بلا نوم، لكنّها شعرت بالاطمئنان لأنّ مهمّتها هنا أُنجِزت؛ على الرغم من تلك المُقاطعة المؤسّفة.

بدأت الأحداث الغريبة قرابة الرابعة فجراً، حين أيقظها اتصال من فينش أصدر فيه توجيهات كانت الأكثر غرابة في مسيرتها. ولما كانت أكثر دراية من أن تطرح الأسئلة، نهضت فوراً، والتقطت الطرد الذي أُرسل إليها، ثمّ أخرجت منه "العناصر" المُخصّصة المطلوبة لأداء هذه المهمّة.

بعد السادسة صباحاً بقليل، غادرت شقّتها وهي تشعر بأنّها مُتوجّهة إلى موقع تصوير فيلم، لا لتنفيذ عمليّة سريّة. فقد كانت تلتحف بالسواد من رأسها إلى أخمص قدميّها، وتحمل تاجاً مُسنّناً، ورمحاً فضيّاً مُخيفاً. كما وضعت في جيّها قارورة سائل كريبه الرائحة، حتّى إنّها كادت تنقيأ حين فتحت غطاءها لتشمّه. ومهما كانت الغاية من العمليّة، فقد شدّد فينش على تنفيذها بحذافيرها.

اتّبعَت الضابطة الميدانية تعليمات فينش حرفيّاً، وعبرت الجسر كمن يسير في نومه حين جاءها الأمر. ومع أنّ ذلك لم يعنِ لها شيئاً، إلّا أنّه أربع روبرت لانغدون إلى أبعد الحدود.

ثم عمت الفوضى.

رجحت هاوسمور أنّ الفوضى كانت في الأرجح ما يسعى إليه فينش. فهو استراتيجي مُتمرس، اشتهر بإعجابه بمناورات شخصيات مثل سون تزو ونابوليون وغيرهما، والتي تقوم على انتهاز كلّ فرصة لتعزيز فاعلية العمليات الميدانية عبر تكثيف الحرب النفسية. ف"العمليات النفسية" وسيلة فعالة لتشتيت العدو؛ لكونها بلا دماء ومحدودة المخاطر. زعزعة الاستقرار ونشر الإرباك. فالعدو المُشتّت بالفوضى يتخذ قرارات خاطئة ويسهل التلاعب به.

لقد أُنجزت المهمة. فقد أُبلغت أنّ روبرت لانغدون سحب جرس الإنذار، وأخلّى الفندق.

والآن، ها هي تضع آخر اللمسات. فبعد إجراء تفتيش منهجي للجناح، أكدت لفينش أنه لا وجود لأيّ نسخة ورقية من المخطوطة، لا في الغرفة ولا في خزانة الفندق المفتوحة وغير المستعملة. ثم رتبت المكان، وأعادته إلى ما كان عليه. لكن بقي أمر أخير قبل المغادرة.

تقدّمت هاوسمور من النافذة الكبيرة، وحدّقت إلى باقة أزهار التوليب الحمراء والبيضاء والزرقاء الفاخرة، التي أُرسلت قبل ثلاثة أيام إلى كاثرين سولومون من السفارة الأميركية. كانت بطاقة التهنئة بخط اليد من السفيرة هايدة ناغل مُلقاة على الأرض.

كانت أزهار التوليب قد تدلّت قبل أوانها، بفعل الهواء الشتويّ القارس، ومالت سيقانها الواهنة في كلّ اتجاه، بحيث أخفت بصعوبة الجهاز الإلكترونيّ المزروع بينها.

مدّت هاوسمور يدها بحذر، وانتزعت بعناية ميكروفون المراقبة المكافئ من سينهايزر وجهاز إرسال إف إم. وكان جهاز التنصّت قد وُضع هناك بطلب من فينش عبر مكتب السفيرة الأميركية.

دست الجهاز في جيب معطفها، ورتبت الأزهار الذابلة، ثم ألقت نظرة أخيرة على الجناح.

أخيراً، غادرت متوجّهة إلى منزلها، بعد أن أنهكها الإرهاق، لتتال قسماً من النوم.

الفصل 39

من خلال نافذة الشاحنة المفتوحة، سمع جوناس فوكمان الصغير الحاد لمُحرّكات الطائرات النفاثة. كان يعلم أنّ بروكلين تضمّ قاعدة عسكرية أميركية غير معروفة على نطاق واسع، قريبة على نحو مُدهش من مانهاتن، لكنّه لم يتذكّر إن كان في قاعدة فورت هاميلتون مدرّج للطائرات. أيّا يكن المكان الذي أتوا به إليه، فقد بدا واضحاً أنّ خاطفيه مُتورّطون في أمر أخطر بكثير من مُجرّد قرصنة كتب.

ثمة من يريد، وبِقوّة، الحيلولة دون نشر مخطوطة كاثرين سولومون. لكن من؟ أهم علماء منافسون، مثلاً؟

بينما كان فوكمان يرتجف على أرضية الشاحنة المعدّية الجليديّة، حاول استحضار أيّ خيط يقوده إلى جواب، وراح يتذكّر اللحظة التي سمع فيها للمرّة الأولى عن المخطوطة. حينذاك، اتّصل به روبرت لانغدون ليسأله إن كان مُستعدّاً للقاء صديقه العبقريّة كاثرين سولومون على الغداء، والاستماع إلى عرض لكتابتها المُذهل. فوافق فوراً؛ علماً منه أنّ كلمتي "عبقريّة" و"مُذهل" ليستا من التعابير التي يُطلقها برويسور هارفرد جزافاً. التقوا في الركن الخلفيّ المُفضّل لفوكمان، في مطعم "تراتوريا ديلارته" في مانهاتن، الذي يُقدّم أطباقاً إيطاليّة أصيلة، في قاعة مُزيّنة كمُحترف فنان، علّقت فيها لوحات ومنحوتات تُصوّر أنوفاً إيطاليّة شهيرة. كان قد اطّلع على السيرة الذاتية التي أرسلتها كاثرين، وانبهر بإنجازاتها العلميّة، ومقالاتها المنشورة، وشهادة الدكتوراه التي نالتها في العلوم الإدراكية، هذا فضلاً عن مكانتها المرموقة في مجالها.

وما إن جلسوا معاً، حتّى أدرك فوكمان خلال دقائق أنّ كاثرين سولومون تفوق على أرض الواقع كلّ ما كُتب عنها. كانت - مثل لانغدون نفسه - ودوداً، ومُتواضعة، وحادة الذكاء. كما أنّها تتمتع بخصال تجعلها مثاليّة لعالم النّشر في القرن الحادي والعشرين؛ لا متلاكها مزيّجاً نادراً من العاجزيّة والجمال الأخاذ وقوّة الحضور، وهي عناصر حاسمة للترويج للمؤلّف في عصر التواصل الاجتماعيّ. وبعد قليل من الدردشة الخفيفة، وفتح زجاجة من شراب لانغدون المُفضّل، اتّجه الحديث بطريقة طبيعيّة نحو فكرة كتابها.

قالت كاثرين: "ببساطة، سيكون الكتاب استكشافاً لوعي الإنسان. فهو يعتمد على أبحاثي على مدار الأعوام العشرين الماضية... بالإضافة إلى عدد من اكتشافاتي العلميّة الحديثة". توقّفت لحظة لترتشف من شرابها، ثم تابعت: "كما تعرفان، لطالما ساد اعتقاد بأنّ

الوعي البشريّ نتاج عمليّات كيميائيّة في الدماغ، أي أنّ الوعي لا يمكن أن يوجد بلا دماغ".
فكّر فوكمان في سرّه: هذا مُثير للاهتمام، لكنّه بدهي نوعاً ما. فقد كان عمله يقوم على التشكيك حتّى يُبهره الطرح فعلاً.

ابتسمت كاثرين ابتسامة غامضة وتابعت قائلة: "المشكلة أنّ هذا النموذج التقليديّ للوعي خاطئ".

هنا، أصبح الرجلان أكثر اهتماماً.
"وأنا أنوي تأليف كتاب يُسلّط الضوء على نموذج ثوريّ جديد للوعي، ستكون له تبعات على كلّ ما نعرفه عن الحياة... لا بل عن طبيعة "الواقع" نفسه".

ارتفع حاجبا فوكمان بإعجاب، وقال مُبتسماً: "من منظور النشر، ما من شيء يُضاهي الطموح العالي". ثمّ نظر إليها مُفحصاً وأضاف: "لكن، لديّ سؤال واحد. يعرض كثيرون كتباً عن نظريّات جديدة، فهل...".

غير أنّها قاطعته بابتسامة وإثقة: "بالتأكيد، أبحاثي مدعومة بكثير من الأدلة العلمية الدقيقة".
قال بإعجاب: "أنتِ تقرئين أفكارٍ".

فأجابته بحزم: "لن أضيع وقتك لو لم أكن أملك البراهين".
بدا لانغدون مُستمتعاً بقدرة كاثرين على الدفاع عن فكرتها بهذا الإتقان، بينما قال فوكمان: "حسناً، لقد جذبت اهتمامي بالتأكيد. فما هو هذا النموذج الثوريّ للوعي البشريّ؟"

أجابت: "في البداية، سيبدو الأمر مُستحيلاً. لذا، لأهيتكما وأرسي خطأ أساس..."
وأخرجت جهاز "آياد" من حقيبتها التي تحمل علامة كويانا، وتابعت قائلة: "سأعرض عليكم أولاً مثلاً عن شيء أظنّ أننا سنُتفق جميعاً على أنّه... مُستحيل".

تبادل فوكمان النظرات مع لانغدون، الذي بدا مذهولاً بقدرة، فيما نفرت كاثرين على الجهاز اللّوحي بضع مرّات، قبل أن تضعه على الطاولة أمامهما. فبدأ الرجلان يُشاهدان شاشة مقسومة إلى نصفين، تعرض فيلمين مُتزامنين لحوضيّ سمك مُنفصلين، يحتوي كلّ منهما على سمكة ذهبية وحيدة تسبح بكسل في دوائر.

سمكتان ذهبيتان... ما المستحيل في ذلك؟
قالت كاثرين: "هاتان لقطتان لبثّ حيّ من مختبري في كاليفورنيا، بكاميرتين ثابتتين مُنفصلتين".

راحا يتأملان السمكتين اللّتين تسبحان في حوضيّن شبه مُتطابقين، فيهما حصيّ زرقاء في القاع، ومنحوتة صغيرة مغمورة بالماء، لا يختلفان إلّا في المنحوتة الموضوعة في كلّ حوض؛ فالأولى منحوتة لكلمة "نعم"، والثانية لكلمة "لا".

غريب... نظر فوكمان إلى كاثرين سولومون بانتظار تفسير، فاكثفت بهزّ رأسها طالبةً منه أن يواصل المُشاهدة. فأعاد نظره إلى الشاشة بكلّ تهذيب، وهو يتساءل: سمكتان تسبحان في دوائر... ما الذي يُفترض بي أن أراه هنا؟ همس لانغدون إلى جانبه: "مُذهِل..."

وفي تلك اللحظة، انتبه فوكمان هو الآخر. فعلى نحو عجيب، كانت السمكتان تتحرّكان بتناغم تامّ. فكلّما توقّفت إحداهما أو اندفعت أو سبحت إلى السطح، قامت الأخرى بالفعل نفسه في الحوض الآخر... وفي اللحظة نفسها تمامًا! كانت حركاتهما مُتزامنة، حتّى تلك الأكثر دقّة. راقب فوكمان بذهول السّمكتيّن الذهبيّين وهما تسبحان بهذا الانسجام التامّ طوال خمس عشرة ثانية على الأقلّ، قبل أن يهزّ رأسه وينظر إلى الأعلى قائلاً: "حسنًا، هذا... مستحيل".

ابتسمت كاثرين وقالت: "يسرّني أنّك تراه كذلك". سألتها: "كيف يُعقل أن تفعل السمكة شيئًا كهذا؟!" أجابته بابتسامة هادئة: "هذا مُذهِل، أليس كذلك؟ والجواب في الواقع بسيط للغاية". جلس لانغدون وفوكمان بانتباه، ينتظران تفسيرها. "بادئ ذي بدء، كم سمكة تريان هنا بالمجموع؟" نظر فوكمان إليهما وردّ: "سمكتيّن".

"وأنت يا روبرت؟" فأجاب لانغدون: "سمكتيّن". ابتسمت: "ممتاز، أتمنا تريان ما يراه معظم الناس، وما هو معروض أمامكما: سمكتان مُنفصلتان في حوضيّن مُنفصلين".

فكّر فوكمان في سرّه: وكيف يمكن رؤية الأمر بطريقة أخرى؟ حوض فيه "نعم" والآخر "لا"، لكنّ السمكتيّن تتحرّكان بتناغم تامّ.

قالت كاثرين: "والآن، ماذا لو أخبرتكما أنّ هذا الانفصال مجرّد وهم؟ ماذا لو قلت لكما إنّ هاتين السمكتيّن هما في الحقيقة كائن واحد... جسم مُوحّد مُرتبط بالوعي نفسه ويتحرّك في انسجام تامّ؟"

توقّع فوكمان أن يسمع الآن شيئًا من هراء العصر الجديد عن الترابط الكونيّ للكائنات الحيّة. لم يكن يعرف كيف ارتبطت حركات السمكتيّن، لكنّه واثق من أنّ الأمر لا علاقة له بوعي كونيّ مُشترك. ما الذي كنتَ تتوقّعه يا جوناس؟ إنّها باحثة في علم الوعي من كاليفورنيا!

تابعت كاثرين: "وجهة النظر اختياري، والاختيار هو المفتاح لفهم الوعي. وقد اخترتُ أن ترياً هنا سمكتيّن تسبحان في تزامن تامّ، لكن إن غيرتُما منظوركما ورأيتُهما كسمكة

واحدة، وعقل واحد، وكائن مُوحَّد يسبح... يصبح الأمر عاديًا جدًا".

ارتسم القلق على وجه لانغدون خشية أن تخرج حجَّتُها عن مسارها، وقال: "ليس الأمر خيارًا حقًّا يا كاثرين. سمكتانِ ذهبيتانِ مُنفصلتانِ لا يمكن النَّظر إليهما ككائن واحد". أجابته: "صحيح. لكنَّهما ليستا كائنينِ مُنفصلينِ يا بروفيسور، بل هما كائن واحد. هل تكافني بساعة ميكى ماوس إذا استطعت أن أثبت لك وجهة نظري علميًّا... وبما لا يدع مجالًا لأيِّ شك؟"

عاود لانغدون تأمل التسجيلين المباشرين: حوضانِ مُختلفانِ، سمكتانِ مُختلفتانِ. قال أخيرًا: "قبلت. أقتعني أنَّهما كائن واحد". مكتبة سُر من قرأ ابستم كاثرين: "حسنًا. دعني أقتبس مقولة لأحد علماء الرموز المُفضَّلين لدي: أحيانًا، لا يلزم سوى تغيير في المنظور لكشف الحقيقة".

ثمَّ لمست شاشة الجهاز اللوحيّ قائلة: "هذا بث مباشر ثالث من المختبر نفسه. وها هي زاوية الرؤية الجديدة، أيُّها السيّدان".

وظهر على الشاشة حوض سمك واحد، من الأعلى، شبيه بالحوضين السابقين؛ حصى زرقاء، ومنحوتة صغيرة، وسمكة ذهبية تسبح في دوائر. لكنَّ الغريب أنَّ هذه اللفظة الجويّة أظهرت وجود كاميرتين مُثبتتين على جانبيّ الحوض، كلُّ منهما تلتقط المشهد من جهة مُختلفة.

قال فوكمان بارتباك: "لا أفهم".

أجابت كاثرين: "لقد كُتبتا نظرانِ إلى تسجيلينِ لحوض واحد؛ أي سمكة واحدة، ومنظورانِ مُختلفانِ، والانفصال كان مجرد وهم. إنَّهما كائن حيّ واحد".

احتجَّ فوكمان: "لكن من الواضح أنَّهما كانا حوضينِ مُختلفينِ! ماذا عن منحوتتي نعم/ لا؟ إنَّهما حوضانِ مُختلفانِ... كيف يُعقَّل أن يكونا حوضًا واحدًا؟!"

أطرق لانغدون برأسه وقال هامسًا: "ماركوس رايتس... كان عليّ أن أدرك ذلك".

أخرجت كاثرين من حقيبتها المنحوتة المألوفة - نسخة عن منحوتة "نعم" التي ظهرت في الحوض الأوّل - ورفعتها ليقراها فوكمان، ثمَّ أدارت المنحوتة تسعين درجة، فشقق فجأة؛ إذ بدت من الزاوية الجديدة مُختلفة تمامًا. فمن هذا الاتجاه، أصبحت... "لا".

قالت كاثرين: "هذا العمل للنحات ماركوس رايتس، الذي - تمامًا كهذا الكون الذي نعيش فيه - يتقن فنَّ الوهم".

كان لانغدون قد بدأ بالفعل بفكّ ساعة ميكى ماوس من معصمه، فضحكت كاثرين قائلة: "احتفظ بها يا روبرت، فأنت تعرف أنَّني لا أملك أولادًا. أردتُ فقط أن أوضح وجهة نظري

بشأن ما هو مستحيل. فما سأخبركما به عن الوعي البشري سيبدو في البداية مُستحيلاً - كسمكتين ذهبيتين تسبحان بحركات مُتزامنة - لكن إن غيّرتما منظوركما، فسيصبح كل شيء منطقيًا فجأة، وستغدو الأمور التي كانت تبدو غامضة في السابق واضحةً وضوح الشمس".

بدءًا من تلك اللحظة، وجد فوكمان نفسه مأخوذًا بكل كلمة تقولها. امتدّ الغداء ثلاث ساعات من الاكتشافات المُذهلة... ووعدته كاثرين ضاحكة أنّ كتابها سيُعرض سلسلة من التجارب العلمية الرائدة التي أجرتها، والتي لم تُؤكّد فحسب هذا النموذج الجديد، بل أشارت أيضًا إلى أنّ تجربتنا الإنسانية الراهنة محدودة للغاية قياسًا بما يمكن أن تكون عليه.

وعند نهاية الغداء، لم يكن فوكمان متأكدًا إن كان دوران رأسه بسبب أفكار كاثرين الثورية أم بسبب كثرة الشراب، لكنّه كان مُتيقّنًا من أمر واحد: سأنشر هذا الكتاب حتمًا.

وشكّ في قرارة نفسه في أنّ هذا الغداء قد يكون أفضل استثمار مهنيّ قام به في حياته. لكن الآن، بعد مرور عام، وهو مُقيّد اليدين على أرضية شاحنة، يكاد يتجمّد من شدة البرد، بدأت شكوك جدية تُساوره بشأن قراره. لم يكن قد قرأ كلمة واحدة من المخطوطة بعد، ولم يعرف شيئًا عن تجاربها الغامضة، ومع ذلك، لم يفهم السبب الذي يجعل أحدهم راغبًا في إتلافها.

إنّه كتاب عن الوعي البشري، لا أكثر!

كان خاطفاه يجلسان غير بعيدين عنه، مُنْشَغِلَيْن بأجهزتهما. قال مُحاولًا فتح حوار، وهو يرتجف بردًا: "أيّها السيّدان، ما المميّز في هذا الكتاب؟ أنتما تعلمان أنّه علمي، أليس كذلك؟ لا صور فيه". غير أنّه لم يتلقَ جوابًا.

"اسمعا، أنا أتجمّد هنا. هذا جنون؛ إن أخبرتماني فقط عن سبب اهتمامكما بهذه المخطوطة، فربّما أستطيع —"

قاطعهُ حليق الرأس قائلاً: "نحن لا نهتمّ بها على الإطلاق، بل مُستخدِمُنا هو المُهمّ". قال فوكمان ساخرًا: "وهل دارث فيدر⁽¹⁾ يقرأ؟"

ضحك حليق الرأس بخفة: "نعم، ويريد التحدّث إليك. لدينا طائرة تستعدّ للإقلاع؛ سنغادر قريبًا إلى براغ".

(1) دارث فيدر هو الشرير الرئيس في سلسلة الخيال العلمي حرب النجوم.

توتر فك فوكمان فجأة. "مستحيل! أنا لست ذاهبًا إلى براغ! جواز سفري ليس معي!
وعليّ إطعام هرّي!"
فابتسم حليق الرأس بازدراء: "لقد سرقتُ جواز سفرك من شقتك، كما أنّني قتلتُ
هرّك".
ارتعد فوكمان بصدق هذه المرّة: "هذا ليس مُضحكًا... ليس لديّ هرّ أصلاً. هل يمكننا
التحدّث في الأمر؟"
ردّ حليق الرأس بابتسامة وقحة: "بكلّ تأكيد. لدينا مُتّسع من الوقت للدردشة على متن
الطائرة".

الفصل 40

كان سوق هافلسكي يعجّ بحركة مرورّية خانقة. على بُعد بضعة مئات من الأمتار من وجهتهما، ترَجَل لانغدون وساشا من سيّارة الأجرة، وسارا عبر الطرق والأرقة المُتشابكة التي تُشكّل الحيّ السكنيّ في البلدة القديمة. وبينما كان لانغدون يتبع ساشا نحو شقّتها، فوجئ عند معرفته أنّ منزلها- في الواقع - ملك لبريغيتا غُسْنِر؛ وأنّ هذه الأخيرة سمحت لها بالإقامة فيه من دون دفع إيجار.

فكّر لانغدون في أنّها لفتة لطف غير مُتوقّعة، وتساءل عن سبب إصرار بريغيتا غُسْنِر على مساعدة هذه الشابة. إذ بدت بريغيتا لغزاً بحدّ ذاتها؛ ففي حين أظهرت كرمًا وتعاطفًا مع ساشا، كانت أمس - خلال تناول الكوكبيل - مُزعجة إلى حدّ لا يُطاق. فبينما كان لانغدون يحتمي شرابه الغريب بنكهة اللحم المُقدّد بشروء، التفتت غُسْنِر إليه فجأة، ووضعت في موقف مُحرج.

قالت ببرود: "بروفيسور لانغفورد"، مُشوّهة اسمه عمدًا بلا شكّ، "نختلف أنا وكاثرين حول مسألة، ونريدك أن تحسم الأمر بيننا".

فتململت كاثرين بضيق، غير راغبة في إشراك لانغدون، غير أنّ غُسْنِر تابعت: "أنت رجل مُتعلّم، ورأيك في هذا الموضوع سيكون ذا قيمة. نحن نختلف حول قضية تقع في صميم الجدل بين المادّيين وعلماء الوعي، ألا وهي... ماذا بعد الموت؟" رتّباه...

ضغطت غُسْنِر أكثر: "إذا، أخبرنا، ما رأيك؟ حين يموت الإنسان، أهى النهاية، أم ثمة شيء... آخر؟"

تردّد لانغدون، مُحاولًا أن يجد صيغة ينجو بها من هذا المأزق. إلّا أنّ غُسْنِر سبقته وقالت: "كما قلتُ مرارًا، أرى أنّ الحياة بعد الموت مجرد وهم فارغ، خدعة لاستقطاب ضعاف القلوب والعقول".

يا إلهي! لستُ معنيًا بالخوض في هذا...

أضافت بلا اكتراث: "وكما تعلم جيّدًا، صرّحت كاثرين علنًا بأنّها ترى في تجارب الوعي المُغايرة دليلًا قويًا على أنّ الوعي يُقيم خارج الدماغ، وبالنتيجة، يمكن أن يستمرّ بعد الموت. بعبارة أخرى... حياة الآخرة حقيقة". ارتشفت من كأسها ببرود، مُضيفة: "فما رأيك، بروفيسور؟"

قال لانغدون مُتردِّدًا: "ليست لديّ فكرة حاسمة. فقد درستُ علم الموت، لكنّ هذا ليس اختصاصي المباشر—"

قاطعتُه باستهزاء: "السؤال بسيط. لو كنتَ تُحتَضِر، ووجدتَ نفسك تنظر من الأعلى إلى جسدك المُمدّد على طاولة العمليّات، هل كنتَ ستُعَدّ ذلك دليلًا على وجود حياة أخرى، أم مجرد هלוسة ناتجة عن نقص الأوكسجين؟"

لم أختبر يومًا تجربة الموت الوشيك... ولا فكرة لديّ عمّا سأظنّه.

كانت خبرة لانغدون الوحيدة مع تجارب الموت الوشيك لا تتعدّى صفحات الكتاب الأكثر مبيعًا الذي صدر عام 1975 لريموند مودي، *الحياة بعد الحياة*، والذي يُنسب إليه إقناع العلماء بالنظر بجديّة أكبر إلى احتمال ألا يكون الموت نهاية الرحلة... بل بدايتها.

جمع الكتاب مئات الحالات المؤثقة طيبًا لأشخاص شارفوا على الموت، ثم استفاقوا من غيبوبتهم ليرووا تجارب مُشابهة جدًّا لتجارب الوعي المُغايرة؛ شعور بالتحليق، والصعود في نفق مُظلم، والتوجّه نحو نور ساطع، والأهمّ من ذلك كلّهُ، الإحساس بسكينة مُطلقة ومعرفة لا حدود لها.

بعد صدور كتاب مودي، لم يعد السؤال ما إذا كان الناس يمرّون فعليًا بتجارب وعي مُغايرة... بل ما الذي يُسبّبها؟ وما الذي تعنيه؟

كان لانغدون يُدرك أنّ الحياة بعد الموت تُعدّ حجر الأساس لكلّ الروحانيّات قديمة العهد. وعلى اختلاف هذه الفلسفات جميعًا، فهي تلتقي عند عقيدة واحدة، أنّ الروح... خالدة. مع ذلك، حين يتعلّق الأمر بالاعتقاد بالحياة بعد الموت، لم يتمكّن لانغدون يومًا من الانفصال عن معسكر المادّيين. إذ كان يرى أنّ فكرة الحياة الآخرة ليست سوى حكاية مريحة، آليّة للتأقلم، ولو أراد أن يجيب غُسْنِر بصدق لقال:

تجارب الموت الوشيك... ليست سوى هلوسات.

فبوصفه باحثًا في الفنون المُستلهمة من الدين، كان لانغدون مُطلّعًا بعمق على الروائع الفنّية التي تصوّر رؤى لعالم يتجاوز عالمنا. وكان المؤمنون يَعدّونها لقاءات حقيقيّة مع عوالم أخرى، لكنّ لانغدون اعتقد في قرارة نفسه أنّها شيء آخر؛ رؤية حيّة مُقنّعة تُولّد لها رغبةً روحيّة عميقة.

ولطالما ردّد لطلّابه أنّ ثمة سببًا لظهور سراب الواحات لعابري الصحراء الذين يكابدون العطش، لا لطلّاب يسيرين في رحاب حرم جامعيّ. فنحن نرى ما نريد أن نراه.

أمّا بالنسبة إلى الرغبة، فقد تخيل لانغدون أنّ معظم البشر - حين يواجهون سكرات الموت - يريدون أمرًا واحدًا أساسيًا، ألا وهو عدم الموت. وبطبيعة الحال، الخوف من

الموت ليس حكرًا على المُحتَضِرِينَ، بل هو خوف كونيّ، لا بل ربّما هو الخوف الكونيّ الأكبر.

إنّ ما يُعرَف بالوعي لحتميّة الموت مُخيف؛ ليس لأنّنا نخشى فقدان أجسادنا، بل لأنّنا نخشى خسارة ذكرياتنا وأحلامنا وروابطنا العاطفيّة... بعبارة أخرى، أرواحنا. وقد اتّضح منذ زمن بعيد أنّ العقل البشري، حين يواجه احتمال العدم الأبديّ المرعب، يُصبح قادرًا على تصديق أيّ شيء تقريبًا. ولكن، ماذا يحدث بعد الموت؟

ما زال هذا السّرّ، بلا منازع، أعظم أسرار الحياة... السّرّ الذي طالما تاق الجميع إلى معرفته. والمفارقة أنّ الجواب ينكشف لكلّ واحد منّا في النهاية... لكن من دون أيّ سبيل للعودة لإفشائه.

قالت غِسنير ساخِرة: "هل أكلت الهرة لسانك؟" ردّ لانغدون بحدّة: "ليس تمامًا، إنّما أجد من الغريب أن تتعاملني مع فرضيّة لا يمكنك إثباتها بوصفها حقيقة مُطلّقة. ففي عالمي، نسَمّي هذا... اعتقادًا، لا علمًا". ردّت غِسنير بحدّة: "أعلم أنّك مادّيّ، بروفيسور. وبقليل من الحظّ، حين تأتي كاثرين إلى المُختبر غدًا، سأقنعها بالانضمام إلينا في العالم العقلانيّ". عند ذلك، فتحت غِسنير حقيبتها الجلديّة، وأخرجت بطاقة عمل، ووضعتها أمام كاثرين. قرأ لانغدون ما كُتِب عليها:

الدكتورة بريغيتا غِسنير

معهد غِسنير

حصن الصليب، 1

براغ

قالت غِسنير وهي تدفع البطاقة نحو كاثرين: "أعطي هذه البطاقة لسائقك صباح الغد. مُختبري خاصّ، لكنّ موقعه معروف. فالحصن مشهور للغاية". تأفّف لانغدون في سرّه: مشهور في القرن الرابع عشر ربّما...

وبينما كانت غِسنير تُغلّق حقيبتها الجلديّة، لمح لانغدون محتوياتها المرتّبة بدقّة: وثائق مُختلفة في ملفّات، قلم مُثبّت في حلقة، هاتف ذكيّ مُربوط بحزام جلديّ، ومجموعة من بطاقات الائتمان والهويّات وبطاقات الدخول، جميعها مُصطَفّة في حافِظات شفّافة مُتناسقة. غير أنّ رمزًا شدّ انتباهه.

"ما تلك البطاقة؟" سأل مُشيرًا إلى بطاقة سوداء بارزة قليلاً من غلاف مُبطّن بالرصاص، ومُصمّم لحماية البطاقات المُزوَّدة بتقنيّة التعرّف بالتردّدات اللاسلكيّة. لم ير سوى نصف ستُمتر من أعلاها، لكنّ الأحرف الستة المطبوعة عليها بالخطّ العريض أثارت فضوله.

PRAGUE

تردّدت غُسنِر لحظة وهي تحدّق إلى البطاقة، ثم قالت: "آه، لا شيء مُهمّ. هذه بطاقة نادٍ صحّيّ"، وسارعت إلى إغلاق الحقيبة.

قال لانغدون وهو يُقطّب حاجبيّه: "أحقّاق؟ شعرتُ بالفضول. فالحرف الثالث... ما كان؟" نظرت إليه باستغراب: "أتقصد الحرف A؟"

أجاب بثقة لأنّه رآه بوضوح: "لم يكن A، بل كان رمح فيل".

بدت الحيرة على المرأتين، فقالت غُسنِر: "عذراً؟"

شرح لانغدون: "الفرق في الخطّ العرضيّ. فالحرف A العاديّ له خطّ واحد، لكنّ هذا الشعار يحتوي على ثلاثة خطوط عرضية ونقطة. متى رأيت نصلاً مُوجَّهاً إلى الأعلى، يشبه الحرف A الكبير، ومعه ثلاثة خطوط ونقطة، فهو رمز خاصّ ذو معنى محدّد".

تساءلت كاثرين، بنبرة غلب عليها الشراب: "هل يعني الصحّة؟"

قال لانغدون في سرّه: "على الإطلاق". "وفق الأساطير، رمح فيل رمز هندوسيّ يُشير إلى القوّة. رأس الرمح يُمثّل التنوير، والعقل المصقول، والبصيرة المُتفوّقة القادرة على شقّ ظلمات الجهل وهزيمة الأعداء. وقد حمل إليه الحرب الهندوسيّ موروغان هذا الرمح معه دائماً".

بدت الدهشة صادقة على وجه غُسنِر.

قالت كاثرين: "قتل الأعداء بالبصيرة؟ رسالة غريبة لنادٍ رياضيّ".

أوافقك الرأي تمامًا.

سخرت غُسنِر قائلة: "إنّها محض مصادفة، بلا شكّ. فأنا واثقة من أنّ النادي لم يدرك المعنى، وأُعجب بالتصميم فحسب".

ترك لانغدون المسألة عند هذا الحدّ، لكنّه كان واثقاً من أنّ غُسنِر تخفي شيئاً ما. فقد بدت البطاقة المحميّة بمثل هذا الغلاف عالي التقنية مُفتاح دخول غريباً لنادٍ رياضيّ. ولم تكن غُسنِر في نظره من النوع الذي يتقبّل التدرّب بين حشود مُبتلّة بالعرق. ثم إنّ نادياً محليّاً في براغ كان سيستخدم في الأرجح التهجئة التشيكيّة "PRAHA"، لا الإنجليزيّة.

قالت غُسنِر بنبرة مُتبرّمة وهي ترتشف من كأسها: "من الواضح أنّ علماء الرموز وعلماء الوعي مُناسبون لبعضهم. فكلّاكما تقرأن إشارات لا وجود لها".

الفصل 41

كانت شقة ساشا فيسنا التي تقع في الطابق الأول صغيرة الحجم، لكنها بدت دافئة ومريحة. إذ كانت مؤنثة بذوق، ومُنظمة بعناية، تغمرها إضاءة طبيعية وفيرة. وما إن خطا لانغدون إلى الداخل، حتّى التقط أنفه رائحة دخان خفيفة عالقة في الأجواء.

قالت ساشا، كأنها تعتذر عن أثر الرائحة: "شاي Russian Caravan، ولديّ قُطان...". ما إن أتت على ذكرهما، حتّى ظهر هرّان سياميان رشيقان في أقصى الرواق، واتجهتا نحوهما بخفة. فانحنى لانغدون لمداعبتهما، وسارعا إليه، مُتلهّفين للحصول على الاهتمام. ابتسمت ساشا قائلة: "إنهما يحبان الرجال". ثمّ ما لبثت أن أضافت بشيء من الحرج: "هذا لا يعني أنّهما مُعتادان على رؤية كثيرين منهم!"

فابتسم لانغدون بأدب وقال: "إنهما جميلان فعلاً". أشارت قائلة: "تلك سالي، وذاك هاري. سمّيتهما تيمناً بفيلمي المفضّل". وأومات مُشيرة إلى مُلصق قديم مُعلّق في مكان قريب. "أهدتني إياه الدكتورة غِسْنِر".

كان العنوان مكتوباً بالروسية، لكنّ لانغدون تعرّف بسهولة إلى ميغ رايان وبيلي كريستال وهما يقفان مُتقابلين على خلفية أفق نيويورك. لم يكن قد شاهد الفيلم الكلاسيكي When Harry Met Sally، لكنّه سمع عن المشهد الشهير في أحد مطاعم نيويورك.

قالت ساشا: "لطالما أحببت الكوميديا الرومانسية الأميركية؛ هكذا تعلّمت الإنجليزية". ثمّ وقفت لحظة تتأمّل المُلصق، قبل أن يغشى الحزن عينيها. "الهرّان أيضًا هدية من الدكتورة غِسْنِر... لكي لا أبقى وحيدة".

قال لانغدون: "إنّها بادرة طيبة منها".

خلعت ساشا حذاءها الثقيل، وتركته على حصيرة عند المدخل. فحذا لانغدون حذوها، مُمتنّاً للمرّة الثانية لأنّه تخلّص من حذائه المُبتلّ.

قالت ساشا مُشيرةً إلى ممرّ صغير في منتصف الرواق: "الحمام هناك إذا أردت". "شكرًا، لن أرفض العرض".

قالت وهي تتبعد: "أمّا أنا، فسأحضر بعض الشاي"، ثمّ اختفت في آخر الممرّ. وقف لانغدون لحظة يتأمّل المُلصق، وعادت صورة كاثرين إلى ذهنه. أفق نيويورك وشعار "كولومبيا بيكتشرز" - امرأة بثوب طويل ترفع مشعلًا - استحضر في ذهنه صورة تماثل الحرّية... ومُحاضرة كاثرين في الليلة الماضية.

تساءل وهو يتوجّه إلى الحمام: تُرى، أين أنتِ الآن؟ كان مُتلهّفاً للاتّصال بفندق فور سيزنز ليتأكّد إن كانت قد عادت. لكن كما لمّح هاريس، لا شكّ في أنّ عناصر الاستخبارات يبحثون عنه وعن ساشا الآن بتهمة الاعتداء على ملازم والفرار من مسرح الحادثة. إذًا، عليه أن ينتظر وصول الملحق.

كان الحمام ضيقاً لكنّه مُرتّب. غير أنّ لانغدون شعر بشيء من الحرج لاستخدامه مساحة ساشا الخاصّة. لذا، بعد أن غسل يديه، جفّفهما بينطاله، مُتجنباً مناشفها المُرتّبة بعناية. حين نظر إلى المرأة، شعر أنّه يحدّق إلى غريب. إذ كانت عيناه حمراوين، وشعره أشعث، وتجاعيد القلق العميقة تكسو جبينه. تبدو في حالة يُرثى لها يا روبرت. ولم يكن هذا مُستغرباً بالنظر إلى صباحه العاصف. كلّ ما عليك فعله هو الوصول إلى السفارة والعثور على كاثرين.

حين عاد إلى المطبخ، كانت ساشا تضع طعام القطط الجافّ في وعاءين على المنضّدة. ففزز هاري وسالي بخفّة، وانكبّا على تناول الطعام بنهم. بعد ذلك، توجّهت ساشا نحو الموقد، ووضعت الغلاية على النار. سألتها: "كيف تحبّ الشاي؟"

ودّ لو يجيب: مع القهوة، لكنّه قال: "من دون حليب أو سكر، شكرًا". وضعت ثلاثة أكواب مع أطباقها وملاعقها، ثم قالت وهي تتوجّه نحو الباب: "سأستعمل الحمام، وبعدها سأصّب الشاي. من المفترض أن يصل مايكل بعد ربع ساعة تقريباً".

ثمّ سمع وقع خطاها في الممرّ، تلاها إغلاق باب الحمام. عقب ذلك، خيّم صمت ثقيل في الشقّة، لا يقطعه سوى صوت الماء في الغلاية. جلس لانغدون وحده في المطبخ، ووقع نظره على هاتف ساشا المحمول على الطاولة، فراودته رغبة في الاتّصال بفندق فور سيزنز، لكنّه سرعان ما تراجع عن الفكرة. من المرجّح أن يكون ياناتشيك قد نشر رجاله هناك، ولا أحد يعلم أين قد تكون كاثرين في هذه اللحظة.

كان الماء قد بدأ يغلي حين سمع طريقة حادّة على باب الشقّة. فكّر لانغدون في سرّه: هذا غريب، مُستبعداً أن يكون هاريس قد وصل بهذه السرعة. وسرعان ما اجتاحه شعور بالذعر من أن يكون ياناتشيك أو بافيل قد تبع أثرهما، أو خمن منطقيّاً أنّ ساشا قد تعود إلى شقّتها.

أسرع نحو زاوية الردهة، بينما كانت ساشا تخرج من الحمام وهي تُجفّف يديها. بدت قلقة، وهمست للانغدون بصمت: "هل طرق أحد الباب؟" فأوماً لانغدون بالإيجاب.

من نظرة ساشا، أدرك أنّها لا تتوقّع مجيء زائر. انتظرا خمس عشرة ثانية في صمت تام، لكن لم يطرق أحد الباب مرّة أخرى. عندئذٍ، سارت ساشا ببطء نحو الباب، وألقت نظرة من الثقب. بعد لحظات، التفتت إلى لانغدون وهزّت كتفَيها. لا أحد.

في تلك اللحظة، رأى لانغدون قصاصة ورق بيضاء صغيرة على الأرض، بارزة من تحت الباب، فهمس مُشيرًا إليها: "أحدهم ترك لك شيئًا".

نظرت ساشا إلى الأسفل، فرأت الورقة. وبشيء من الحيرة، انحنّت والتقطتها. بدا للانغدون، ممّا رآه من بعيد، أنّها مكتوبة بخطّ اليد.

نهضت ساشا، وما إن وقع نظرها على الرسالة، حتّى شهقت. وبأصابع مُرتعشة، ناوّلت لانغدون الورقة قائلة: "إنّها لك".

لي أنا؟ أخذ لانغدون القصاصة وقرأها، ف شعر بانقباض في صدره في الحال. على الفور، فتح الباب وقد اعتراه الخوف، واندفع إلى المدخل الخالي، ثم ركض إلى خارج المبنى وسط الثلوج، وهو لا يلبس سوى جوربيّه. أخذ يدور في المكان وهو يصرخ في الفراغ: "من أنت؟! ماذا فعلتَ بها؟!"

* * *

على بُعد عشرين ياردة، كان الغولم يُراقب من بين الظلال. لقد أدّت الرسالة التي وضعها عند باب ساشا فيسنا النتيجة المرجّوة. وإن سارت الأمور بحسب الخطّة، فسوف يهرع روبرت لانغدون قريبًا بمفرده إلى مكان مهجور. ما من دافع أقوى من الخوف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 42

كان مايكل هاريس لا يزال يسمع صدى المُكالمة اليايسة التي أجرتها معه ساشا؛ وهو يندفع على الطريق عائداً من حصن الصليب.

أنا مع روبرت لانغدون! نحن بحاجة إلى مساعدتك!

حين بلغ الطريق العام، انعطف إلى اليمين وهو يسرع شمالاً باتجاه شقة ساشا. إنه مكان أعرفه أكثر مما ينبغي، قال ذلك في سرّه مُحسّراً؛ بعد أن زارها مرّات عدّة، ودائماً على غير قناعة منه.

كان قد تعرّف إلى ساشا قبل شهرين في مقهى "ديفيد ريو تشاي لاتي"، الذي اعتادت المرور به كلّ صباح في طريقها إلى العمل. يومذاك، كانت تجلس بمفردها إلى طاولة عالية، فاقرب منها بابتسامة.

قال بالروسية: "بريفيت، ساشا". مرحباً يا ساشا.

رفعت الشقراء الطويلة رأسها، وعلامات القلق بادية على وجهها، ثم سأله قائلة: "كيف عرف اسمي؟"

فابتسم هاريس، مُشيراً إلى كوبها الورقي الذي كتب عليه النادل: SAŠA. عندئذٍ، تمت ساشا بخجل: "آه... لكنها بقيت مُحفّظة". لكن... كَلَمَنِي بالروسية!

"مُجرّد تخمين، فقد سمعتُ لكنتك عندما طلبت مشروبك".

بدا عليها الإحراج الآن وقالت: "صحيح. عذراً إن بدوّت مُرتابة؛ فأبناء وطني ليسوا محبوبين كثيراً في براغ".

ردّ مُبتسماً: "جرّبي أن تكوني أميركية!" ولوّح بكوبه الذي كُتب عليه MICKALE. "أنا واثق من أن النادلة تعمّدت كتابته على نحو خاطئ". ابتسم، ثم بذل أفضل ما في وسعه لتقليد بوغارت، وقال: "من بين كلّ المقاهي في كلّ مدن العالم، دخلتُ هذا المكان".

أشرق وجه ساشا وقالت: "كاز/بلانكا! أعشق ذلك الفيلم".

على مدى نصف الساعة التالية، تجاذبا أطراف الحديث. فروت له ساشا قصّتها المؤلّمة عن صرع مُنْهَك، وكيف تخلّى والداها عنها في طفولتها، وأودعاها مصحّة عقليّة روسيّة... إلى أن أنقذتها جراحة دماغ وجلبتها إلى براغ.

سألها هاريس: "هل غُسِر هي التي عالجتك؟"

أجابت بعينين تلمعان بنظرات الامتنان: "تمامًا. فقد ابتكرت غرسة دماغية أستطيع تفعيلها بعضًا مغناطيسيةً أمررها على جمجمتي كلِّما أحسست بالضباب".
"الضباب؟"

"نعم، فقبل نوبة الصرع مباشرةً، يشعر المريض وكأنَّ ضبابًا خيمَ عليه، يُرافقه وخز غريب... كالوخز الذي يسبق العطاس. عندها، أحفَّ العصا فوق رأسي، فينشط المغناطيس الشريحة المَزروعة في دماغي". صمتت فجأةً وقد بدا عليها الإحراج، ثمَّ قالت: "آسفة، أعرف أنَّ الحديث غير مُمتع".

أجاب هاريس بصِدق: "بل على العكس، لا أرى شيئًا مُزعجًا في ذلك. وإن كان ذلك يترك أثرًا، فهو مخفِّفٍ تمامًا خلف ذلك الشعر الأشقر الجميل".

كان إطرَاء عفويًا، لكنَّ ساشا أشاحت بوجهها وقد بدا عليها الارتباك. "لا أصدِّق أنَّني أخبرتك بهذا كلِّه. يا للحرج! فأنا لا أتكلَّم مع كثير من الناس عادةً... على أيِّ حال، عليَّ أن أتوجَّه إلى عملي". هكذا، أنهت كوب الشاي بسرعة، وبدأت بجمع أغراضها.

قال هاريس: "وأنا أيضًا عليَّ الذهاب، لكنني استمتعت بالحديث. وإن رغبتِ يومًا بتناول الغداء، فسأكون سعيدًا بالتحدُّث أكثر".

ارتبكت ساشا: "لا... لا أظنَّ أنَّها فكرة جيِّدة".
فتمتم هاريس مُرتبِّكًا: "بالتأكيد، عذرًا. أنا لم أقصد موعدًا غراميًا بالضبط، بل... على أيِّ حال، لعلَّك مُرتبطة، لذا—"

"أنا؟ لا، لستُ مُرتبطة"، ثمَّ أضافت مُتلعِّمة: "إنَّما..."
فجأةً اغرورقت عينها بالدموع، وكادت تنهار.
قال مُرتبِّكًا: "أوه، لم أقصد إزعاجك!"

أجابت بصوت مُتهدِّج: "الذنب ذنبي... أنا آسفة... في الواقع، أخشى، إن تعرَّفت إليَّ أكثر... أن تصاب بخيبة أمل".
"ولماذا تقولين ذلك؟"

مسحت دموعها وقالت: "مايكل، أنا لست بارعة في... العلاقات. قضيت معظم حياتي وحيدةً، وتحت تأثير أدوية قويَّة. كما أعاني ضعفًا في الذاكرة، ولديَّ ندوب قبيحة بسبب النو—"
قاطعها قائلاً: "توقفي من فضلك، فأنا أجدك رائعة الجمال. وبالنظر إلى ما مررت به، فإنَّ الحديث معك سهل على نحو مُدهش".

"أحقًا؟" احمرَّت وجنتاها. "إِذَا، الفضلُ للرفقة".
تبادلا الحديث قليلًا بعد، وأخيرًا قبلت أن تراه مرَّةً أخرى.

وبعد أسبوعين، إثر غداء وعشاء ونزهة مسائية في حديقة فالينشتاين، شعر هاريس بأنه عرف كل ما يمكنه أن يعرفه عن ساشا فيسنا. فقد كانت امرأة بسيطة، بلا أصدقاء، تمضي وقتها إما في مختبر غسّير، أو في البيت تشاهد أفلاماً قديمة مع هُرّثها. ساشا فتاة وحيدة... وبائسة. لكنّ شعوراً مُتزايداً بالذنب بدأ ينهش هاريس. لوعرفت السبب الحقيقي وراء اهتمامي بها، لدمرها ذلك. وراح يلوم نفسه على قبوله هذه المهمة. لقد حان الوقت لإنهاء هذه المهزلة. هكذا، استجمع شجاعته، وصعد الدرج الرخاميّ مُتوجّهاً إلى مكتب السفيرة. طرق بابها المفتوح، فأشارت له بالدخول.

كانت السفيرة هايدة ناغل، ذات الأعوام الستة والستين، خريجة حقوق في جامعة كولومبيا. جاءت إلى أميركا في الرابعة من عمرها، مع والدين ألمانيين مُهاجرين، وترقّت حتّى بلغت ذروة مسيرتها الدبلوماسية. وكان المُعلّقون كثيرًا ما يردّدون أنّ لقبها الألمانيّ، ناغل، يعني حرفياً "المسامير"؛ في إشارة إلى صلابتها.

بعينها الغاضبتين، وأسلوبها الدبلوماسيّ الهادئ، كانت تُشعر خصومها بالاطمئنان، قبل أن تحسم المواجهة لمصلحتها. وحتّى مظهرها اليوميّ بدا مدروساً ليقبّل من شأن نفوذها؛ إذ اقتصر على بذلات سوداء بسيطة، وأحذية مُريحة، ونظّارة قراءة مُعلّقة بسلسلة، بحيث بدت أقرب إلى أمانة مكتبة منها إلى دبلوماسية رفيعة المستوى. أما شعرها الأسود، فكانت تُصفّفه بتسريحة تُبرز فيها غُرّتها المُستقيمة، وتستعمل القليل جدّاً من مساحيق التجميل.

قالت وهي تُغلّق حاسوبها المَحمول: "مايكل، ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟" دخل هاريس، ووقف أمام مكتبها: "سيّدي، أخشى أنّني لم أعد مُرتاحاً للمهمة غير الرسمية التي أوكلتموها إليّ".

"أوه؟" نزلت ناغل نظّارتها، مُشيّرة إليه أن يجلس: "وما المشكلة؟"

تنحّج وجلس، ثمّ قال: "كما أبلغتكم، ساشا فيسنا شابة ساذجة، عانت من ماضي قاسٍ وإهمال فادح، وهي تحاول بكلّ بساطة أن تعيش حياة طبيعيّة. وبما أنّها لن تمدّني بمزيد من المعلومات بعد الآن، أشعر أنّ الاستمرار في الكذب عليها بات أمراً... غير أخلاقيّ". فمع أنّه لم يسمح لعلاقتهما بأن تتجاوز حدوداً مُعيّنة، إلّا أنّه كان يُدرك أنّ قلب ساشا بدأ ينفّج له.

قالت ناغل: "فهمت. لوهلة، ظننت أنّك ستقول إنّه بات خطراً. فأنت تعلم أنّه لو كان خطراً، لسحبك من هذه المهمة فوراً".

كان هاريس يُصدّقها؛ فهي تدير السفارة بقبضة حديدية، لكنّها حريصة على سلامة مُوظفيها. قال مُطمئناً: "لا، سيّدي، لا أرى أيّ خطر. المشكلة أنّ ساشا بدأت تتعلّق بي. ومن الناحية الأخلاقيّة، أشعر أنّ الأمر بات..."

"خداعاً؟" قاطعته السفيرة بابتسامة ساخرة. "أجد من المفارقة، يا مايكل، أن تتذرع بالأخلاق لإنهاء علاقتك بساشا".
"عذراً؟"

عندئذ، نهضت السفيرة، وتوجّهت إلى زاوية المشروبات في المكتب. فصبت كوباً من مياه فينيسنتكا المعدنية وقدمته له، قبل أن تعود إلى مقعدها وتنظر إلى عينيّه مباشرة.

قالت ببرود: "أظنّ أنّ السبب الحقيقيّ لرغبتك في الابتعاد عن ساشا هو خوفك من أن تكتشف مسؤولية العلاقات العامة، دانك، أنّك تمضي وقتاً مع امرأة أخرى".

تجمّدت تعابير هاريس. السفيرة تعرف بأمرى مع دانا؟!

أيّ مكانة أخلاقيّة رفيعة كان هاريس يأمل في احتلالها تبخّرت في تلك اللحظة.
قالت ناغل: "أعتقد أنّك تعلم أنّ هذه السفارة تعتمد سياسة عدم التسامح إطلاقاً تجاه العلاقات بين الموظفين". صمتت قليلاً، كأنّها تذكّرت فجأة: "آه، بالتأكيد أنت تعلم... فقد ساعدت بنفسك في صياغة هذه السياسة".
اللجنة.

تابعت بهدوء: "اهدأ، أنا لا أنوي طردك. كلّ ما في الأمر أنّني أستغلّ نقطة ضعفك في خدمة بلادي".

تمتم: "هذا تعبير مُلطّف للإكراه".

"أنت محام يا مايكل؛ عدّه تفاوضاً فعّالاً. وصدّقني، لم أكن لأضغط عليك لو لم يكن رؤسائي يُمارسون عليّ الضغوط نفسها".

اعترض قائلاً: "مع احترامي، سيّدتي، من الصعب أن أصدّق أنّ رئيسنا يهتمّ بامرأة روسيّة مُصابة بالصرع، تربّي هرّين اسماهما هاري وسالي".

"أولاً، البيت الأبيض ليس الجهة النافذة الوحيدة التي تُصدّر لي الأوامر. ثانيّاً، لم يُحدّد لي رؤسائي ما يثير اهتمامهم في ساشا فيسنا؛ كلّ ما يريدون معرفته هو ما تبوح به للأشخاص الذين تثق بهم".

أصرّ هاريس: "لكن ليس لدى ساشا أسرار! حياتها كتاب مفتوح، وهي سعيدة بوجود من يُصغي إليها فحسب".

"بالضبط، وقد رسّخت نفسك الآن في هذا المَوقع، وهذا أمر لا يُقدّر بثمن. لذا، واصل التحدّث إليها، وأنا في المقابل سأتغاضى عن علاقتك بدانك، وسأطلب من رؤسائي أن يضاعفوا مكافأتك على هذه المهمّة".

ذُهل هاريس؛ فمكافأته الحالّية كانت سَخِيّة للغاية أساسًا. من الذي يحرص إلى هذا الحدّ على مُراقبة ساشا فيسنا؟ ولماذا؟

قالت ناغل وهي تُحدّق إلى عينيّه مباشرة: "أيضًا، مايكل، إذا شعرت يومًا ما أنّ هذه المهمّة تشتمل على خطر، ولو كان ضئيلاً، أخبرني فورًا، وسأوقفها. هل اتّفقنا؟"

ظلّ يُحدّق إلى يدها الممدودة، وقد فوجئ بالطريقة التي حاصرتها فيها ببراعة، حتى باتت في موقع "كش ملك". وعلى الرّغم من ارتياحه الداخلي، أيقن أنّه إن لم يقم هو بالمهمّة، فسيُكلّف بها شخص آخر، وقد يتخذ تدابير أكثر قسوة. ساشا لا تستحقّ ذلك. وهكذا، مدّ يده أخيرًا وصافح السفيرة.

في الأسابيع التي تلت ذلك، تطوّرت علاقة هاريس بساشا بطريقة طبيعيّة إلى علاقة عاطفيّة جسديّة مُربّكة. ولحسن الحظّ، كانت ساشا قليلة الخبرة للغاية، وأصرّ هاريس على أن يأخذ الأمور برويّة. فحتى ذلك الحين، اقتصرت لحظّاتهما الحميميّة على الاستلقاء بين أحضان بعضهما بعضًا في سريرها، بملابسهما في الغالب، ومشاهدة الأفلام الكوميديّة الرومانسيّة الأميركيّة القديمة حتى يغلبهما النعاس.

الآن، بينما كان هاريس ينطلق شمالاً للقاء ساشا ولانغدون، كان يُفكّر في كلّ ما عرفه هذا الصباح من السفيرة. إذ كان نطاق العمليّة الجارية في براغ يفوق أسوأ كوابيسه. وحتى من دون معرفة التفاصيل، أدرك أنّه غارق حتّى أذنيّه.

لقد حان الوقت للانسحاب.

وحين اقترب من البلدة القديمة، أخذ على نفسه عهدًا صارمًا.

مهما تكن العواقب، لن أزور ساشا فيسنا مُجدّدًا... ما حييت.

الفصل 43

كان روبرت لانغدون يذرع مطبخ ساشا فيسنا الصغير بقلق، مُخلفًا آثار جوربيّه المُبتَلِّين على أرضية البلاط.
هذا لا يُصدّق.

حدّق مُجدّدًا إلى القصاصة الورقيّة التي دُسّت منذ لحظات تحت باب ساشا. كانت الكلمات المكتوبة بخطّ اليد قد قلبت عالمه رأسًا على عقب.

كاثرين معي.
تعال إلى برج بترين.

تسارعت في رأسه أسئلة يائسة.

من أنت؟ ماذا فعلتَ بها؟ ولماذا برج بترين؟

كان البرج الحديديّ، الذي يبلغ ارتفاعه مئتي قدم، قائمًا على تلّ تُغطّيه غابة كثيفة غير بعيد عن مركز براغ. ولم يُسهّم تاريخ الغابة الغامض - الحافل بالتضحيات بالعداري - في التخفيف من توتره.

لم يستطع لانغدون أن يتصوّر أيّ دافع قد يكون وراء اختطاف كاثرين سولومون. تعالّ إلى برج بترين... لماذا؟

قالت ساشا بصوت مُرتجف: "لا بدّ أنّ أحدهم قد تعقّبنا إلى هنا. ربّما من موقف سيارات الأجرة؟ قد يكونون عناصر الاستخبارات، لكن -"

"ولماذا تختطف الاستخبارات كاثرين؟!"

هزّت ساشا رأسها بيأس: "لا أعلم... لكنّ مايكل سيعرف ماذا -"

فقاطعها لانغدون: "لا أستطيع انتظار مايكل!" واندفع عبر الرواق باحثًا عن حذائه. "عليّ الذهاب حالًا". كاثرين في خطر، وعليّ الوصول إليها فورًا. وفيما كان يدسّ جوربيّه المُبتَلِّين داخل حذائه، فتحت ساشا خزانة الرواق وأخرجت معطفها.

لكنّه قال بحزم: "لا، يا ساشا، الأفضل أن تبقي هنا وتنتظري مايكل. دعيه يصطحبك إلى السفارة الأميركية لتخبريهم بكلّ ما تعرفينه... كلّ شيء، بما في ذلك ما جرى مع بريغيتا، وعميل الاستخبارات، فضلًا عن هذه الرسالة، وذهابي إلى برج بترين. لا تستثني شيئًا".

كان لانغدون قد شاهد بنفسه انفعالات ساشا العنيفة المُفاجئة، ولم يكن في وسعه أن يواجه المجهول في برج بترين مُصطحباً معه ورقة غير مضمونة.

قالت على مَضض، وهي تبحث في حقيبتها: "حسنًا... لكن إن كنت ستذهب وحدك، فعلى الأقل خذ هذا". وأخرجت مسدس پافيل.

ترجع لانغدون إلى الورااء تلقائياً؛ فلطالما أزعجته الأسلحة، وكان يعرف أن خوض مواجهة مُسلّحة لن يزيد الأمور إلّا تعقيداً. بالإضافة إلى ذلك، لم يرغب في حمل سلاح مسروق من الاستخبارات التشيكية في شوارع براغ، ولا سيّما أن الطريقة الوحيدة لنقله كانت دسّه في حزام بنطاله؛ وهي حيلة كان يجدها، كلّما شاهدها في الأفلام، جنوناً خالصاً.

قال لانغدون: "سأطمئن أكثر إن احتفظت به. فمن الواضح أن من ترك هذه الرسالة يعرف عنوانك. أخفيه في إحدى خزائن المطبخ... وإن اضطررت بشدّة إلى استعماله، فستجدينه".

فكرت ساشا قليلاً، ثمّ أومأت مُوافقة: "حسنًا، لكن خذ هذا على الأقل". وتقدّمت نحو مشجب على الحائط، وأنزلت سلسلة مفاتيح بلاستيكية علّق فيها مفتاح واحد. "هذا مفتاحي الاحتياطي. إن احتجت أنت وكاثرين إلى مكان آمن تلجآن إليه أو تختبئان فيه، فتعاليا إلى هنا. فأنا لا أعرف ما الذي سيقترحه عليّ مايكل، وقد لا نكون في الشقة حينها، لكن على الأقل ستكون بحوزتك وسيلة للدخول".

كان لانغدون يشكّ في أنّه سيعود، لكنّه مع ذلك، قبل العرض قائلاً: "شكراً لك". لاحظ أن سلسلة المفاتيح البلاستيكية كانت على شكل قطعة ممدودة القوائم، كُتب عليها "Krazy Kitten"، فدسّ المفتاح في جيبه وأضاف: "سأبحث عن هاتف، وأتصل بك حالما أعرف ما يجري".

"ستحتاج إلى رقمي".

"لديّ رقم مايكل الخلوي".

ف نظرت إليه بدهشة: "هل أعطاك رقمه الخاص؟"

أجاب لانغدون: "رأيتك تطلبينه في السيارة".

"وحفظته؟!"

ابتسم لانغدون قائلاً: "عقلي غريب، فأنا لا أنسى شيئاً".

تنهّدت قائلة: "لا بدّ أن هذا مُريح. أمّا أنا، فعلى عكسك تماماً... فأنا لا أتذكّر الأشياء. ذكرياتي مُشوَّشة، وفيها فجوات كثيرة".

"أسبب الصرع؟"

"نعم، لكنّ بريغيتا كانت تعمل معي على حلّ هذه المسألة..."
ابتسم لانغدون ابتسامة مُشجّعة: "يبدو أنّ الدكتوراة غُسْنِر كانت بالغة الطيّبة معك".
فقالت ساشا بنبرة حزن: "لقد أنقذت حياتي؛ أمل ألا أنساها يوماً هي الأخرى".
طمأنها لانغدون وهو يمدّ يده إلى الباب: "لن تنسي. وصدّقيني، تذكّر كلّ شيء قد
يتحوّل إلى نقمة أحياناً".

الفصل 44

منذ اللحظة التي أُلقي فيها جوناس فوكمان في هذه الشاحنة، حاول السيطرة على خوفه بسخرية مُصطنعة، لكنّ الصمود أصبح صعبًا في مُواجهة الشعور المُريب بأنّه على وشك أن يُخَطَف إلى براغ. فهدير مُحرّك الطائرة القريب، بالإضافة إلى فقدانه الإحساس بيديّه، جعلاه على وشك الإصابة بنوبة ذعر.

قال حليق الرأس لشريكه: "سأخبر الطيارين أننا مُستعدّون، ثمّ سنضعه على متن الطائرة". وما لبث أن فتح الباب المُنزلق وخرج، تاركًا إيّاه مُفتوحًا على مصراعيه، لمُعاينة فوكمان على وقاحته على ما يبدو.

قال فوكمان للرجل الآخر: "البردُ قاتِلٌ..."

لكن، لم يأتِه أيّ ردّ.

أصبح أزيز المُحرّكات النَّفاثة أعلى بكثير الآن، وتمكّن فوكمان أخيرًا من رؤية محيطه. كانت السيارة مُتوقّفة على طريق فرعيّ تحفّه الأشجار، خلف مبنى أبيض لا يبعد أكثر من بضعة مئات من الياردات. كان قد تخيل أنّه في قاعدة جويّة سرّيّة، على وشك أن يستقلّ طائرة عسكريّة، لكنّ اللافّة المُضيئة على المبنى روت حكاية مُختلفة تمامًا.

SIGNATURE AVIATION / TETERBORO

سيجنشتر للطيران / مطار تيتربورو

يا للمصيبة! هل أنا في نيو جيرسي؟!

كانت "سيجنشتر" صالة طيرانٍ خاصّة شهيرة في مطار تيتربورو بولاية نيو جيرسي. وكانت تبعد عشرين دقيقة فقط عن مانهاتن، وتُشكّل مركزًا للأثرياء المدينة، يستقلّون منه طائراتهم الخاصة، سواء أكانت رحلاتهم بدافع العمل أم لقضاء العطلات في بيوت معزولة على منحدرات آسبن أو شواطئ ويست بالم.

للوهلة الأولى، شعر فوكمان بالارتياح لأنّه ليس في قاعدة عسكريّة، لكنّ الحقيقة ما لبثت أن استقرّت في ذهنه، فتساءل عمّا إذا كان هذا أسوأ. فعلى الأقلّ، يتبع الجيش بروتوكولات مُعيّنة، وفوكمان مواطن أميركيّ. أمّا لو كان هؤلاء الأوباش مُرتزقة يعملون لحساب جهةٍ دوليّةٍ ثريّةٍ - أيّا تكن - فلن تكون ثمة قواعد اشتباك.

بإمكانهم إخراحي من البلد... ولن يعلم أحدٌ باختفائي!

وفيما اندفعت هبة جديدة من رياح الشتاء عبر الباب المفتوح، وضع الرجل الجالس في المقدمة حاسوبه جانبًا، وصعد إلى الجزء الخلفي بين المقعدين، ثم أغلق الباب المنزلق قائلاً: "معك حق يا صاح، الجو بارد".

كان ذا ملامح أكثر رقة من شريكه الحليق، ومن أصولٍ آسيويةٍ مختلطة. ومع ذلك، كان يحمل مسحةً عسكريةً واضحةً مثله. سأله: "كيف حال يديك؟"

أجاب فوكمان: "بصراحة، إن استمر هذا الوضع أكثر، فقد أخسرهما".
عندئذٍ، قال الرجل وهو يلتف خلفه ليتفقد رصغيه: "نعم... هذا سيئ". ثم أخرج سكينًا عسكريةً. "ابق ساكنًا. سأقصّ الرّباط، وأثبت واحدًا أكثر ارتخاءً بقليل، هل اتفقنا؟"
أوماً فوكمان، فيما كان ذهنه لا يزال مشغولاً بما رآه للتوّ في الخارج.
قال الرجل: "إياك أن تقوم بحركاتٍ سخيفة، ولا تعبت معي. تذكر أنّ السكين بيدي".

"مفهوم".

بعد لحظةٍ، تحرّرت يدا فوكمان، فحرّك ذراعيه إلى الأمام بحذر، وشرع يُحرّك أصابعه ليعيد جريان الدم فيها.
دار الرجل حوله مُجدِّدًا، وجلس على الصندوق البلاستيكي، مُمسِكًا السكين في حالة تأهب.

قال: "أمنحك ستين ثانية".

"شكرًا". تأوّه فوكمان وهو يشعر بالوخز المؤلم يعود إلى رصغيه وأصابعه، فيما قال الرجل: "آسف بشأن شريكي. فباستطاعة أوغر أن يكون... حادًا قليلًا".
ردّ فوكمان: "المصطلح الأدبيّ المناسب هو: أرعن".
فانفجر الرجل ضاحكًا.

ساد الصمت وهما يجلسان، فيما واصل فوكمان تدليك يديه. كانت أصابع قدميه مُتجمّدة أيضًا؛ فحذاء الركض الذي انتعله حين غادر مكتبه لا يقيه من البرد.
سأله الرجل: "أتريد أن ترتدي معطفك قبل أن أربط معصميك برباطٍ جديد؟"

نظر فوكمان إلى معطفه المُلقي على الأرض. بكلّ سرور!
نهض جزئيًا، ثم أدخل بصعوبة ذراعيه المُتألّمتين في المعطف، واستطاب دفأه. حاول إغلاق الأزرار، لكنّ أصابعه شبه المُتجمّدة خانتها، فقال وهو ينظر إلى خاطفه الجالس على الصندوق والسكين في يده: "هل لي بمساعدة بسيطة؟"
هزّ الرجل رأسه مُجيبًا: "أتريد مني أن أضع سلاحِي جانبًا؟ آسف يا صاح، لا أثق فيك".

فقال فوكمان وهو يلفّ المعطف حوله قدر المستطاع، فَرِحًا بأنّ هاتفه الخليوي لا يزال في جيبه حيث تركه: "أعتقد أنّك تُبالغ كثيرًا في تقدير بطولاتي".
قال الرجل: "حسنًا، لنُعِد تثبيت الرباط".
"هلاًّ تمنحني دقيقة إضافية؛ فأنا أشعر بألم قاتل في يدي".
قال الرجل أمرًا: "بل الآن. استدر".

فامتثل فوكمان للأمر، واستدار 180 درجة ليوافقه الجهة الخلفيّة للساحنة. وبذلك، صار بإمكانه أن يرى بوضوح من خلال نافذة الباب الخلفي. رأى مبنى "سيجنشر أفياشن"، كما رأى مَوْقِف السيارات الذي رُكِنَت فيه مركبةٌ واحدة رباعيّة الدفع، مُحَرَّكها مُشغَل، والعاذِم ينفث بخاره في هواء الصباح المُثلج. كان باب السائق مَفْتُوحًا، لكنّ المقعد خالٍ. يبدو أنّ السائق في الصالة الصغيرة.

قال الرجل وهو يُعيد تقييد معصمي فوكمان: "سأترك الرباط مُرتَخِيًا الآن، لكن علينا إحكامه حين يعود شريكِي".
"شكرًا".

أنهى الرجل العقدة، فحرّك فوكمان رَسْغِيهِ قليلًا، واندesh حين اكتشف أنّ الرباط مُرتَخٍ جدًا لدرجة تسمح له - في الأرجح - بالتخلّص منه.

قال الرجل: "سأعود حالًا... عليّ تلبية نداء الطبيعة"، ثمّ خرج من الباب الجانبي وأغلقه. راقب فوكمان عبر الزجاج الأمامي كيف مرّ الرجل أمام السيّارة، وخطا بضع ياردات بين الأشجار، ثمّ فكّ حزامه، قبل أن يبدأ بقضاء حاجته على جذع شجرة.

وبما أنّ فوكمان حرّر جميع كتب لانغدون عن الرموز والعلامات والمعاني الخفيّة، لم يشكّ كيف كان البروفيسور سيُصنّف هذه اللحظة.

إشارة واضحة.

أمّا هو فقد يُسمّيها بطريقة أقلّ شاعريّة.

فرصتي البائسة الأخيرة.

كانت محاولة الفرار من رجلين مُسلّحين ضربًا من الجنون... لكنّها ليست أكثر جنونًا من تركهما يقتادانه إلى خارج البلد من دون مقاومة. وفي أسوأ الأحوال، سيمسكان به مُجددًا ويرميانه في الطائرة.

كان الرجل لا يزال مُشغَلًا؛ كما بدا له عبر الزجاج الأمامي.

متى بدأت، من الصعب التوقّف.

وما لم تتوقّف، سيكون من الصعب أن تلحق بي.

حسم فوكمان أمره فوراً، وشعر بالامتنان لساعات الجري التي قضاها في سنترال بارك.
إن حاولا إطلاق النار... فسأكون هدفًا مُتحرِّكًا. وما لبث أن حرَّر يديه من الرباط، وتحقَّق
مرةً أخيرة من أن الرجل لا يراقبه.
هيا...

أمسك بمقبض الباب الخلفي للشاحنة، وخفضه، ثم فتح الباب بهدوء. بعد ذلك،
انحنى وقفز إلى الخارج. وفي اللحظة التي لامست فيها قدماه الأرض الصلبة، انطلق في
جري سريع على طريق الوصول، مُتجاهلاً الألم في ساقيه المُتشنَّجَتَيْن. كان عداءً ماهراً، وقد
استجابات ساقاه للجهد المُفاجئ بسهولة، فيما انتفخ معطفه الصوفي خلفه وهو يُضَاعَف
سرعته، مُركِّزاً نظره على السيارة رباعية الدفع المركونة بعيداً.
ألقى نظرة من فوق كتفه، فرأى خاطفه يحاول اللحاق به وهو يرفع سحباً بنطاله على
عجل. فكفَّر في سرِّه وهو يشعر بالريح تصفع وجهه: لا فرصة لديه.

كان الرجل يجري خلفه وهو يصرخ، بينما اقترب فوكمان من السيارة. فجأة، دوى
طلق نارٍ، وأزت رصاصةٌ فوق رأسه.

يا إلهي!

ما إن بلغ فوكمان السيارة رباعية الدفع، حتَّى ألقى بنفسه على مقعد السائق، وأغلق
الباب بعنف، ثمَّ جهَّز السيارة للانطلاق. ضغط على دواسة الوقود بقوة، فصدر صرير عالٍ
عن العجلات وهي تقفز فوق الفاصل الوسطي، لتنزل خارج الموقف باتجاه إندستريال
أفينيو.

وبينما كان يبتعد مُسرِّعاً، تاركاً سيجتشر أفياشن وخاطفيه خلفه، أخرج هاتفه من
جيب معطفه، وقربه من فمه، ثمَّ صاح قائلاً: "سيري! اتصلي بروبرت لانغدون!"

* * *

على بُعد مئة ياردة، توقَّف العميل تشينبرغ عن الجري، وأنهى إغلاق سحاب سرواله
بهدوء، ثمَّ أخذ يراقب مركبة الدفع الرباعي وهي تختفي في عتمة الليل. وما إن غابت السيارة
عن ناظره، حتَّى عاد بخطوات ثابتة إلى الشاحنة.
قال: "الوضع آمن".

عندئذٍ، خرج أوغر - ذو الرأس الحليق - من مخبئه وسأله: "والهاتف؟"
"كل شيء على ما يرام. أخذه معه."
"عمل مُتقَن".

على الرغم من خبرة فوكمان الواسعة في تحرير روايات التشويق، غير أنه وقع ضحية أبسط حيل الاستجواب على الإطلاق؛ حيلة الهارب.

فحين تُهدّد حياة إنسان، سيلجأ دوماً إلى الخيار المَحْتوم إذا أُتيحت له الفرصة؛ الهرب. لم تكن ثمة طائفة بانتظاره، ولا رحلة إلى براغ. فقد أوقفا شاحتهما ببساطة على طريق فرعيٍّ مُلاصِقٍ لخدمات "سيجنتشر أفياشن" في مطار تيربورو، واستعانا بعنصرٍ ثالثٍ ليتظاهر بدور السائق، ثم صنعا وهما بلحظة فرارٍ مثاليّة.

لقد ابتلع فوكمان الطعم... فالسيارة التي قرّبها مُزوّدة بجهاز تعقّب.

في بعض الأحيان، قبل أن يسمحوا لأسيرٍ بالهرب، يزرعون على جسده جهازاً للتنبّص. لكن الأمر لم يكن ضروريّاً مع فوكمان؛ إذ كان يحمل أصلاً جهاز إرسالٍ واستقبالٍ ثنائيّ الاتجاه مُزوّداً بنظام تحديد المواقع (GPS) يتمثّل في هاتفه الذكيّ.

فبينما كان معصوب العينين، نزع العميلان هاتفه بهدوء من جيب معطفه، وشبكاه بالحاسوب المَحْمول، ثم تخطّيا رمز المرور، وحملّا عليه برمجيّات خاصّة، قبل إعادته إلى جيبه.

قال تشينبرغ، وعينه تتلألآن أمام ضوء شاشة الآيباد: "لدينا نشاط". كان الجهاز يعرض واجهة مراقبة لهاتف فوكمان، بما في ذلك موقعه، ورسائله النصيّة، ومكالماته الصوتيّة، والبيانات الواردة والصادرة.

فجأة، انبعث صوت فوكمان عبر مُكبّر الصوت، وكان يُسجّل رسالة صوتيّة: "روبرت، أنا جونا... اتّصل بي حالاً! أنت في خطر، وكذلك كاثرين. سيبدو الأمر جنونياً، لكن أحدهم اخترق خادمنا وحذف مخطوطتها... ولا أعرف السبب بعد. لقد اختطفوني من الشارع قرب مكتبي. سأتصل بكاترين الآن، لكن عليك أن تبقى حيث أنت. لا تتحدّث إلى أحد!"

وما إن انقطع الاتّصال، حتّى تلاه اتّصالٌ آخر على الفور، هذه المرّة بهاتف كاثرين. ترك فوكمان رسالةً أخرى عاجلة، شبيهة بالأولى، مع إضافة واحدة.

"كاثرين، قال الخاطفان إنك طبعتِ المخطوطة هذا الصباح؟ إن كان هذا صحيحاً، فاحفظيها في مكانٍ آمن. إنّها النسخة الوحيدة المُتبقّية! فقد اختفت كلّ النسخ الأخرى... كلّها بلا استثناء. اتّصلي بي فور استلامك هذه الرسالة".

ثم ساد الصمت.

قال أوغر بابتسامة مُتباهِية: "ها قد ظفرنا بمعلومة إضافية... تأكيد بأنّ المخطوطة في براغ هي النسخة الوحيدة المُتبقّية".

أجاب تشينبرغ وهو يُخرج هاتفه: "سيسرّ فينش بسماع ذلك، سأبلغه حالاً".

الفصل 45

كان رأس الملازم پافيل لا يزال يُؤلمه من شدة الضربة التي تلقاها بمطفأة الحريق، لكن ذلك لم يكن يُضاهي الألم الذي اجتاحه وهو يُحدّق إلى جثة خاله المُمَدّدة في قاع الوادي. اعتقد المُلحق في السفارة - مايكل هاريس - أنّ النقيب ألقى بنفسه، لكنّ پافيل كان يعرف الحقيقة. *ياناتشيك لم يكن يعرف الخوف... ولم يكن ليستسلم. لقد قُتِل... وأنا أعرف تمامًا من يكون الفاعل.*

كانت قائمة جرائم روبرت لانغدون في حقّ جهاز الاستخبارات تزداد طولاً منذ مسرحيته في الفندق: مُقاومة الاعتقال، والاعتداء على ملازم، وسرقة سلاح للاستخبارات، والآن، إذا صحّ ظنه بشأن آثار الأقدام المُشابهة على حافة الجرف، ستُضاف إليها جريمة قتل النقيب ياناتشيك والفرار من مسرح الجريمة.

كان پافيل بمفرده في الحصن، يتعافى على الأريكة الوثيرة في غرفة استقبال غُسر. فقد أعطاه هاريس كيساً من الثلج، وأوصاه بعدم الحراك، ثم غادر مُتوجّهاً إلى السفارة الأميركية، ووعده بالاتصال فوراً بمقرّ جهاز الاستخبارات للإبلاغ عن مصرع ياناتشيك.

غير أنّ پافيل كان يعلم أنّ تلك السقطة لم تكن حادثاً، كما كان واثقاً من أنّ هاريس كاذب، وأنّه لا ينوي إجراء ذلك الاتصال إطلاقاً؛ بل كان يُماطل فحسب لكسب الوقت، حتّى تتمكن السفارة من حبك أكاذيبها قبل أن يسمع الجهاز بخبر وفاة ياناتشيك.

أخرج پافيل هاتفه ليتصل بالمقرّ بنفسه، لكنّه توقّف بعد لحظة تفكير. إذ لم يكن لديه شكّ في أنّ اعتقال أميركيّ بارز سينتهي كالعادة - على نحو مثير للغضب - حين تتدخل السفارة الأميركية وتستولي على زمام الأمور، وتجد ثغرة قانونية تُقلّص بها من أيدي الجهاز. قال پافيل بصوت مسموع: "Ok o za o k o". فقد كان يعرف أنّ النقيب الراحل، لو كان مكانه، لتصرّف على هذا النحو تمامًا. *العين بالعين.*

لم يكن أحد قد علم بعد بموت ياناتشيك، وهذا ما منح پافيل فسحة ضيقة من الوقت ليُصنّف حساباته مع لانغدون بنفسه. لكنّ أوّلاً، عليّ إيجاده. إذ كان العثور على فاز في مدينة بهذا الحجم شبه مستحيل... لولا ورقة رابحة في جعبته... ستقلب الموازين ضدّ الأميركيّ في لمح البصر.

لقد علّمني ياناتشيك كيف أطرّع القوانين... وأرتجل من أجل تحقيق المصلحة العليا. من الناحية التقنية، لم يكن پافيل يمتنع بما فيه الكفاية من الصلاحيّات لتنفيذ ما يدور

في ذهنه، لكنّه كان يحتفظ بهاتف النقيب ياناتشك الشخصي، الذي عثر عليه فوق حافة الجرف المكسوة بالثلوج.

بكذبة صغيرة واحدة، في وسعه أن يقلّب المُعادلة رأساً على عقب. وحينها، لن يجد لانغدون ملاذاً يأوي إليه.

* * *

عادت دانا دانك إلى مكتبها في السفارة وهي تغلي غضباً، إثر المُواجهة التي حدثت في فندق فور سيزنز. فالمرأة الشبح التي ظهرت على جسر كارل أُرعبتها حقاً، وهو أمر لا يحدث بسهولة.

لقد صوّبت مسدساً لعينا على وجهي!
تحوّلت غيرة دانا إلى غضبٍ مُتأججٍ.
تُرى، من تكون تلك المرأة؟

كانت دانا تعرف أنّ الجواب بانتظارها على شاشة حاسوبها، من خلال نتائج بحث التعرف إلى الوجوه، الذي أطلقته قبل ساعة تقريباً باستخدام لقطة شاشة من جسر كارل.

أسرعت نحو مكتبها، وجلست أمام الجهاز. وكما توقّعت، كان البرنامج قد أتمّ دورته الكاملة.

غير أنّها راحت تُحدّق إلى الشاشة بذهول.
لا بدّ من وجود خطأ ما...

اكتمال البحث

النتائج: 0

لم يحدث يوماً أن أعطى مُحرك البحث نتيجة فارغة. ففي عالم اليوم، من المستحيل عملياً وجود شخص بلا أي أثر رقمي.

كان السبيل الوحيد لإبقاء أي شخص خارج قاعدة بيانات إيشلون يتمثّل في ما يُعرّف بـ "التبييض الرقمي". إذ كانت هذه الشبكة مملوكة من الولايات المتحدة، وخاضعة لإدارتها؛ ممّا يعني أنّ الحكومة الأميركية تستطيع تحويل أشخاص مُعيّنين إلى "أشخاص غير مرئيين" عبر استبعاد وجوه مُعيّنة من نتائج البحث. وتُستعمل هذه التقنية عادةً لضمان خصوصية وأمن كبار المسؤولين الحكوميين، أو رجال الأعمال الأميركيين البارزين، أو العسكريين والعملاء السريين.

تذكرت دانا باقة الأزهار الغريبة - باللون الأحمر والأبيض والأزرق - التي رأيها في الجناح الملكي. كانت تلك الأزهار الهدية الرسمية المعتادة من السفارة الأميركية لكبار الزوار الأميركيين في براغ. ونظرًا إلى كون دانا مسؤولة العلاقات العامة، كانت تتولى عادة ترتيب عملية تسليمها بنفسها. لكن المشكلة أنها لم تسمع شيئًا عن هذه الباقة تحديدًا.

هل رتبت السفارة أمر تسليمها بنفسها؟

"أنسة دانك!" تناهى إليها صوت حازم عند الباب. فاستدارت بسرعة، وقد عرفت صاحبة الصوت فورًا. "سيدتي السفارة؟! كنت فقط —"

"هل كنت في فندق فور سيزنز؟!"

فتحت دانا فمها، لكن الكلمات تجمّدت في حلقها.

"هل تبع السيد هاريس إلى هناك؟"

صاحت دانا: "لا! في الواقع... نوعًا ما... فقد ظننتُ..."

"ماذا ظننت؟" كان بريق عيني السفارة يخترقها كالسيف.

حدّقت دانا إلى الأرض، عاجزة عن الإجابة. اللعنة.

قالت السفارة ببرود قاطع: "أنسة دانك، لهذا السبب تحديدًا العلاقات بين الزملاء ممنوعة لدينا".

الفصل 46

بينما كانت سيارَة الأجرة التي تُقَلّ لانغدون تصعد التلّ المَكسُوَ بالأشجار باتجاه برج بترين، أدرك أنّه لا يزال قابِضًا على الورقة التي دُسَّت تحت باب ساشا.

كاثرين معي.
تعال إلى برج بترين.

الشخص الذي ترك هذه الرسالة يملك حِسًا بالرّمزية يتّسم بالكآبة؛ فالبرج يقبَع على تلة اشتهرت بتاريخها المُرَوَّع الحافل بالموت والقرايين البشرية.
تحديدًا، موت النساء... على أيدي المُنَعَصِّين.

فوفقًا للأساطير، كان ثمة مَذْبَح للقرايين يقع على قِمّة تلّ بترين. وكان الوثنيون يحرقون العذارى الصغيرات إرضاءً لألهتهم. وقد استمرّت تلك الطقوس قرونًا؛ إلى أن جاء المسيحيّون، فهدموا المَذْبَح، وشيّدوا على أنقاضه كنيسة القديس لورانس. غير أنّ الحرائق الغامِضة لا تزال تندلع بين الحين والآخر على التلّ، ويُعتَقَد أنّها من فِعَل أشباح النساء اللواتي قُدِّمن كقرايين، وأنّ أرواحهنّ لا تزال تجوب تلك الغابات بالأمثا.

* * *

كان سائق سيارة الأجرة، رجلًا في العقد الخامس من عمره، ربط شعره في تسريحة ذيل حصان، وراح يقود السيارة عبر المُنْعَطَفَات الضيّقة المؤدّية إلى قِمّة التلّ، وهو يُلقِي نظرات سريعة إلى الراكب عبر مرآة الرّؤية الخلفية. بدا الرجل الجالس على المقعد الخلفي مُتوتّرًا، إذ كان يمدّ عنقه بقلق ويحدّق بعصبية إلى قِمّة برج بترين.
إن كنت تخشى المرتفعات يا صديقي، فلا تصعد.

كان الراكب طويل القامة، ذا شعر داكن. ومع أنّ لكتته الأميركية وسترته الفاخرة تشيران إلى أنّه سائح، إلّا أنّه قفز إلى السيارة بعجل، كهارب من حريق. وعلى الرّغم من أنّ السائق نَبّه إلى أنّ البرج قد يكون مُغلَقًا في مثل هذه الساعة، وأنّه لا يرتدي ملابس مُناسبة تقيه الرياح الباردة، إلّا أنّ الرجل أصرّ على الذهاب.

كما تشاء... ففي النهاية، لا يهمني سوى الأجرة.

تابع السائق صعود التلّ وهو يطرق بسعادة على المقود، مُواكِبا إيقاع الأغنية التي تنبعث من هاتفه؛ أغنيته القديمة المُفضّلة "Klokoči". لكن عند وصولها إلى مقطع

الكلارينيت الشجي، انقطع اللحن فجأة، وحلّت محلّه سلسلة من النغمات الحادة.

"!!Sakra!!" شتم السائق بغضب، مُتَزَعِّجًا من هذا التشويش المُفاجئ.

فقد اعتادت جهات إنفاذ القانون التشيكية بثّ هذه "التنبيهات العامة" المُزعجة على أمل استقطاب مُساعدة الجمهور في عمل الشرطة المحليّة. وكانت الموجة الأولى من التنبيهات تُرسل دائمًا إلى مُوظّفي النقل، والمطارات، والمستشفيات المحليّة.

امتعض السائق وهو يفكر في سرّه: لِدَيّ عملي، فلماذا أقوم بعملكم؟!!

كان مُتَزَعِّجًا لأنّ مُعظم دول أوروبا تبنّت نظام الإنذارات الأميركيّ "AMBER Alerts"؛

على الرّغم من أنّ اختصاره يعني حرفيًا: America's Missing: Broadcast Emergency Response. (مفقودو أميركا: استجابة طوارئ إذاعيّة).

مدّ السائق يده ليُعلّق التنبيه ويعود إلى أغنيته، لكنّ الشريط الوايض على شاشة هاتفه أثار قلقه. فقد كان هذا الإنذار مُرمّزًا باللّون الأزرق، وهو أمر نادر الحدوث في براغ. فعادةً ما تكون الإنذارات باللّون العنبريّ أو الفُضّي، لطلب مساعدة الجمهور في العثور على طفل مفقود أو مُسِنَّ تائه. أمّا الأزرق، فهو أخطر بكثير؛ إذ يعني أنّ ضابطًا قد قُتل، وأنّ القاتل لا يزال طليقًا.

أُقْتِل ضابط في براغ؟!!

ثمّ ما لبث أن وقع نظره على صورة المشتبه به.

هذا الرجل!... إنه يركب سيّارتي!

تأكّد من الأمر بنظرة خاطفة إلى مرآة الرّؤية الخلفيّة، ثمّ التقط هاتفه بهدوء وأجرى مكالمة على الرقم الوارد في التنبيه، ناقلاً المعلومات بهدوء باللغة التشيكية إلى الضابط الذي أجاب على اتّصاله.

* * *

كان رأس الملازم بافيل ينبض ألماً وهو يندفع خارج حصن الصليب ويقفز إلى مقعد القيادة في سيّارة الاستخبارات. فقد أثمر التنبيه الأزرق الذي أطلقه من هاتف ياناتشك عن ردّ خلال دقائق معدودة... وقد أتاه الردّ - تمامًا كما خطّط - على هاتف النقيب مباشرةً. لا أحد غيري يعرف المعلومة التي تلقّيتها الآن.

كان روبرت لانغدون في طريقه إلى برج بترين، وفي حين إنّ بافيل لم يستطع أن يتخيّل السبب، إلّا أنّه وجد فيه المكان المثاليّ ليكون ساحة مُواجهة. فالمنطقة المُحيطة بالتلّ معزولة وواسعة، والأهمّ أنّها ستكون شبه خالية في هذا الصباح الشتويّ الباكر.

سيكون من دواعي سروري أن أقضي على لانغدون.

ولا ينقصني سوى السلاح.

وجد مسدّس ياناتشك في صندوق القفازات. وبينما كان يدسّه في جرابه الجانبي الفارغ، راح يتخيّل اللحظة الحاسمة التي سيُطلق فيها النار بمسدّس النقيب نفسه، ليقتل الرجل الذي اغتال ياناتشك بدم بارد.

العين بالعين.

الفصل 47

كان مَسْؤُولُو مدينة براغ قد زاروا عام 1889 المعرض العالمي في باريس، وشاهدوا برج غوستاف إيفل الذي أدهش العالم، فقرروا بعد ذلك بوقت قصير بناء نسختهم "المُصَغَّرَة" عنه في براغ. أنشئَ برج بَترين عام 1891 فوق التلّ الذي يحمل الاسم نفسه، ولم يكن في الحقيقة مُصَغَّرًا على الإطلاق. فقد ارتفع مَتَنِي قدم فوق تَلّ يزيد ارتفاعه أصلًا على ألف قدم.

وعلى غرار نظيره الباريسي، بُنيَ برج بَترين بهيكل شبكيّ مُفتوح، بوساطة عوارض فولاذيّة مُثَبَّة بالمسامير. وباستثناء اختلاف الارتفاع، بدا البرجان مُتَشَابِهَيْن في المَظْهَر، مع فارق واضح وحيد، ألا وهو القاعدة المُرَبَّعة لبرج إيفل مُقابل القاعدة المُثَمَّنة لبرج بَترين. عندما وصلت سيارة الأجرة أخيرًا إلى الموقف الخشبيّ عند قاعدة البرج، أخذ لانغدون يسمح المكان بنظره بقلق، باحثًا في الساحة الخالية عن أيّ أثر للحياة. كاثرين معي. تعالَ إلى برج بَترين.

دفع لانغدون الأجرة بسرعة، وأضاف إليها بقشيشًا سخيا، ثم طلب من السائق أن ينتظره. غير أنّ الأخير تمتع بكلمات مُتَوَثِّرة بالتشكيّة، وانطلق بالسيارة مُتَبَعِدًا ما إن أغلق لانغدون الباب خلفه، تاركًا إِيَّاه وحيدًا في ساحة الانتظار التي تعصف بها الرياح. شكّرًا جزيلًا.

كان برج بَترين أعلى ممّا يتذكّره لانغدون. واليوم، بدا وكأنّه يتمايل تحت السماء الرماديّة. كانت الغابة المُحيطة بالبرج، والمَكْسُوّة بطبقة خفيفة من الثلوج ساكنة ومهيبة، واقتصرت الحركة فيها على قَلّة من العمّال والموظفين الذين يُباشرون يومهم. لم يرَ لانغدون أيّ أثر لكاثرين، ولا لأيّ شخص مُريب، فحاول أن يتناسى تاريخ هذا التلّ المُلَطَّخ بدماء القرابين البشريّة، واندفع بخطوات سريعة نحو البرج، وهو يأمل - بقلب يعتصره الألم - أن تكون كاثرين في مكان ما هناك... والأهم، أن تكون بخير.

تحت برج بَترين، يقع مركز الزوّار؛ وهو بناء مُنخفض مُثَمَّن الشكل، تحتضنه قوائم البرج الثماني الضخمة. وكان للبناء سقف مائل قليلًا، يخترقه مُجَسَّم عموديّ الشكل رفيع يصل إلى قَمّة البرج. مصعد صغير. عرف لانغدون ذلك، لكنّ الخيار الثاني لم يكن أكثر إغراء؛ إذ تمثّل بسَلَمٍ حلزونيّ ضيّق ومَكشوف يلتفّ حول بئر المصعد وصولًا إلى القمة. وبينما كان لانغدون يقترب من البرج، سمع صرير تروس المصعد، واحتكاك المعادن بعضها ببعض مع صعود المَقْصُورة عبر بئر المصعد.

قال في سرّه بترقب: يبدو أنّ أحدهم يصعد الآن. أهّي كاثرين؟
أسرع إلى قاعة الزوّار؛ وهي قاعة مُثَمَّنة الجدران، رُيِّت بصور تاريخيّة لبناء البرج.
كانت القاعة خالية إلّا من موظفة شابّة تفتح صناديق تذكارات براغ.

قالت بمرح: "Dobré ráno! صباح الخير!"
أجاب لانغدون: "صباح الخير. هل البرج مَفْتُوح؟"

"لقد فتح أبوابه منذ قليل. ثَمّة شخصان فقط في الأعلى، هل تريد تذكرة؟"
فخفق قلب لانغدون بشدّة. شخصان. لم يسعه سوى التساؤل عمّا إذا كانا كاثرين
وخاطفها. هل يُفْتَرَض بي الصعود؟ لم يكن في الملاحظة ما يوضّح ذلك، لكنّه لم يجرو
على المجازفة. فمجرّد تخيل كاثرين في قبضة مجنون، على منصّة مكشوفة، من على هذا
الارتفاع الشاهق أثار في نفسه الذعر.

اشترى لانغدون تذكرة، وانتظر خارج باب المصعد. في مكان ما فوقه، كان المصعد
يهبط بصخب. وعندما فُتِح بابه أخيرًا، وجد لانغدون نفسه يُحدّق إلى مقصورة صغيرة غريبة
الشكل، تبدو وكأنّها لم تُجدّد منذ القرن التاسع عشر.

تلقائيًا، حوّل نظره إلى الدرج الحلزونيّ القريب، المُحاط بشريطٍ مُزَيّن ولافتة كتب
عليها ZAVŘENO / مُغْلَق. وحذرت لافتة أخرى من أنّ درجات السَلَم البالغ عددها 299
شديدة الانحدار.

سأل لانغدون: "هل يمكن استعمال السلالم؟" راجيًا أن تكون الموظفة قد بدأت
بالعمل الآن ولم تنزع اللافتة الموضوعة بعد.

أجابت: "إنّها مُغلّقة في الشتاء. فالرياح قويّة... وثَمّة جليد وثلوج اليوم!"
عظيم. نظر لانغدون إلى مقصورة المصعد الضيّقة على مضض، وتردّدت في ذهنه
كلمتان.

كاثرين معي.

فما كان منه إلّا أن أخذ نفسًا عميقًا، ودخل إلى المصعد. ضغط الزّرّ، فأغلق الباب
بتثاقل. ومع اهتزاز المقصورة صُعودًا، ركّز نظره على اللوحة المعدنية المُثَبَّتة على الجدار،
والتي راحت تومض بأضواء حمراء مُتعايِبة لتبيّن مسار صعوده.

مع ارتفاع المصعد، شعر لانغدون أنّه أقلّ استعدادًا لما قد يجده في القمّة. وراوده
شعور بأنّه تصرّف بحماقة حين رفض أخذ المسدّس من ساشا. ماذا لو كان الخاطف
مُسَلّحًا؟ وكلّما ارتفع المصعد، شعر أنّ جدرانه تُطبّق على أنفاسه. فأغمض عينيه، وراح
يُدنن بأغنية ريفيّة بعنوان "فضاءات رحبة".

حين تباطأ المصعد أخيراً وتوقف، تَهَيَّأ لانغدون وفتح عينيه. صدرت قعقة حين انفرج الباب المعدني، فشرع بارتياح فوري لخروجه إلى الهواء الطلق. لكن سرعان ما تبدد هذا الشعور، وحلت محله خيبة الأمل. إذ كان على المنصة زوجان في العقد الثالث من العمر، من أصول هندية، يستمتعان بالتقاط صور لبراغ.

لم تكن كاثرين هنا.

حَثَّ نفسه على التحلي بالصبر؛ فقد غادر شقة ساشا مباشرة بعد تلقيه الرسالة، ووصل إلى المكان بسرعة. وصلتُ باكراً، هذا ما استنتجته، ولعلّه أفضل من بعض النواحي. هكذا، أتمكن من رؤيتهما قادمين. ثم تقدّم من الدرازين، وحدّق إلى موقف السيارات في الأسفل. كانت الرياح تشتدّ، فيما ضاعف البرج المُتمائِل من حدّة اضطرابه. وبينما كان يذرع المنصة الضيقة المحيطة بالمصعد، مرّ بمدخل السلم الحلزوني الهابط، وكان مدخله مُحاطاً بشريط تحذيري ولافتة تحمل صورة شخص تطيح به الرياح عن البرج. فقال في سرّه: لا، شكرًا. عثر لانغدون على بقعة مَحْمِيّة من الرياح، تطلّ على غابات متنزّه بُترين. كان الموقع السياحي الشهير يوفّر عددًا كبيرًا من عوامل الجذب للأطفال، بما فيه من حديقة سرّيّة، وملعب مليء بحبال، وأراجيح، ودوّامة خيل يجري تجهيزها لذلك النهار. لكنّ نظره وقع على كنيسة القديس لورانس في الأسفل، التي قامت على أنقاض مذبح القرايين الوثنيّة، فعادت إلى ذهنه الشائعات عن الأشباح الهائمة والعدراوات المقتولات.

فكّر في سرّه: ليس بالضبط مكانًا ملائمًا للعائلات. نظر إلى الأعلى، مُتَبَّعًا بانوراما براغ الكلاسيكيّة... من برج فيشيهراد التوأَمين، وبرج البارود، وجسر كارل، إلى كاتدرائيّة القديس فيتوس الشامخة التي تحيط بها أسوار قلعة براغ.

كانت كاثرين قد ألقت محاضرتها في القلعة ليلة أمس، وأخذ يتساءل إن كان اختطافها مُرتبطًا بما قالته في المُحاضرة... أو بما توصّلت إليه في أبحاثها العلميّة. ولو صحّ ذلك، لم تكن لديه أدنى فكرة عن السبب.

خطر بباله أيضًا احتمال آخر. فقد بدأ يرتاب في صدقية رسالة الفدية التي وصلت إليه عن كاثرين، ولا سيّما أنّها بدت له غير منطقيّة. من أنت؟ ولماذا برج بُترين؟ لم يجد أيّ تبرير معقول لذلك، وربّما كانت الرسالة مجرد خدعة غريبة.

قاطعه صوت من خلفه: "سيدي؟"

استدار لانغدون، فرأى الزوجين الهنديّين. ابتسمت المرأة وهي تمدّ إليه هاتفها قائلة: "هل يمكنك التقاط صورة لنا؟ فقد تركتُ عصا السيلفي في الفندق". وقال الشاب مُعتذرًا: "آسف... لا شهر عسل من دون إنستغرام".

استجمع لانغدون شتات أفكاره وقال: "بالتأكيد".

وقفت المرأة إلى جانب زوجها عند الدرابزين، وأعطت لانغدون إشارة البدء. وبعد أن التقط لهما صوراً عدّة، همّ بإعادة الهاتف، غير أنّ المرأة طلبت منه أن يستمرّ في التصوير وهما يبدّلان الوضعيّات والتعبير.

عندئذٍ، قال الزوج الذي بدا عليه الإحراج الشديد: "لديها كثير من المُتابعين".
ففكّر لانغدون في سرّه وهو يلتقط الصور: *الاستمرار من خلال الشهرة*. وتذكّر شكسبير وهو ميروس وهوراس، الذين أجمعوا على أنّ الرغبة في الشهرة التي يتفرّد بها البشر، ليست سوى نتيجة لصفة إنسانية أخرى أكثر عمقاً، ألا وهي خوفنا من الموت. فالشهرة تعني أنّ الناس سيذكرونك طويلاً بعد رحيلك...

قالت الزوجة وهي تمدّ يدها لتأخذ هاتفها: "أعتقد أنّ هذا يكفي! دعني أتحقّق من الصور!"

أعاد لها لانغدون الهاتف، ولاحظ بحرّاً من الإشعارات الحمراء على تطبيقاتها كافة. معيار الشعبيّة الجديد في العالم؛ التصنيق الرقمي.

تصفّحت الصور سريعاً، وأومات برضاً: "إنّها ممتازة! شكراً لك!"
فابتسم لانغدون رغماً عنه وقال: "تهانينا".

توجّه العروسان نحو المصعد، إذ صعدا فقط لالتقاط صور سريعة قبل الانتقال - في الأرجح - إلى موقع التصوير التالي. كان لانغدون يشعر أحياناً أنّ الدافع الوحيد وراء القيام بأيّ شيء هذه الأيام هو نشره ليراه العالم.
وما إن فُتح باب المصعد، حتى خطرت بباله فكرة، فناداهما قائلاً: "عذراً... هل لي بخدمة صغيرة؟"

توقفاً عند المدخل، مُمسِكَيْنِ بالباب، ونظرا إليه، فقال: "كان من المفترض أن ألتقي صديقتي هنا، لكنّها لم تصل بعد. وقد أضعت هاتفني هذا الصباح، لذا، أتساءل إن كان بإمكانني استخدام هاتفكما لإجراء مكالمة سريعة؟"

بدت المرأة وكأنّه طلب منها حمل وليدها، لكن بعد إشارة مُشجّعة من زوجها، سلّمته الهاتف على مضض.

وتحت رقابتهما المُشدّدة، أسرع لانغدون بطلب الرقم الذي رآه مراراً على مكتب استقبال فندق فور سيزنز. وما إن رنّ الهاتف للمرّة الأولى، حتّى أجاب مدير الفندق بصوته المألوف.

"شكراً لاتّصالكم بفندق فور—"

قاطعه لانغدون بحدة: "صباح الخير، سيدي. أنا روبرت لانغدون، وأحتاج إلى التحدث إلى كاثرين سولومون فوراً. الأمر مهم".

"آه، أهلاً بروفيسور". خمدت حماسة المدير فجأة. "لا أظن أن الدكتورة سولومون هنا، فقد غادرت الفندق هذا الصباح بينما كنت تسبح".

"ألم تعد بعد ذلك؟"

"لم أرها، سيدي. سأجرب الاتصال بغرفتكما".

ومع رنين الهاتف في جناحهما من دون إجابة، اضطر لانغدون إلى مواجهة الحقيقة المفزعة: ربما لم تعد كاثرين إلى الفندق هذا الصباح. أين ذهبت إذًا؟ وبينما كان يحاول تصوّر مكانها، راودته فكرة أخرى.

لا أصدق أنني لم أفكر في هذا من قبل...

كان الرنين في الطرف الآخر لا يزال مستمرًا، فيما بدا الزوجان الهنديان أكثر ضيقًا وهما يُمسكان بباب المصعد بانتظار النزول.

فجأة، صاح لانغدون بصوت مرتفع، مُتظاهرًا أنه يكلمها: "عزيزتي! أين أنت؟! أنا في برج بترين و—" ثم تظاهر بالإصغاء، واتسعت عيناه بدهشة مُصطنعة. "ماذا؟! تمهلي... تحدثني إلي..."

وأشار بيده إلى أنه بحاجة إلى بعض الخصوصية، ثم استدار مُبتعدًا عن الزوجين، ووقف خلف عمود المصعد، ثم فتح مُنصفُ الإنترنت مباشرة.

ربما حاولت كاثرين التواصل معي هذا الصباح...

كان اضطراب الصباح قد شغله عن التفكير السليم، غير أن الإشعارات التي لمحها على هاتف المرأة ذكّرتَه بإشعارات مُماثلة كان يراها على حاسوبه المحمول؛ البريد الإلكتروني. فمُنذ سنوات، قبل هذه الرحلة، اعتاد هو وكاثرين على التواصل بهذه الطريقة. ومع أن كاثرين وجدتها وسيلة قديمة الطراز، إلا أنه كان يمقت الإلحاح الضمني للرسائل النصية، فلجأ إلى البريد الإلكتروني.

وقد أدرك أنه إذا حاولت كاثرين الاتصال به هذا الصباح عن طريق الهاتف أو الرسائل النصية ولم يُجب، فمن المحتمل أن تكون قد أرسلت إليه بريدًا إلكترونيًا يمكنه الاطلاع عليه من حاسوبه المحمول.

لم أتفقَ بريدي هذا الصباح!

أسرع إلى فتح موقع gmail.com وأدخل حسابه، فبدأ صندوق الوارد بالتحميل، لكن ببطء شديد.

هَيَّا...

كان المصعد يطنّ احتجاجًا على بقاءه مفتوحًا طوال هذا الوقت. وأخيرًا، تمّ تحديث الشاشة، وظهر بريده الوارد.
لديك 31 رسالة غير مقروءة.

تمتم غاضبًا من صندوق رسائله المُتخَم، وبدأ يتصفّح سريعًا قائمة الرسائل الواردة من زملاء وأصدقاء ومصادر مُتفرّقة، إلى أن بدأ الأمل يخبو.
أخيرًا رآها. أجل!
من: كاثرين سولومون.

كان توقيت الرسالة يُشير إلى الساعة 7:42 صباحًا، أي بعد مغادرتها الفندق، وقبل لقائها غُصنير.

الغريب أنّ عنوان الرسالة كان فارغًا.
خفق قلبه بعنف وهو يفتحها، فإذا بها فارغة أيضًا. أما من شيء هنا؟! لكن سرعان ما لمح أيقونة تُشير إلى وجود ملف مُرفَق بالرسالة. هل أرسلت صورة؟ ضغط عليها على الفور، وبدأ المؤشّر بالدوران، ليتّم تحميل الصورة ببطء. إذ لم يُظهر الهاتف سوى خطّ واحد من إشارة الشبكة.

جاءه صوتٌ من خلفه: "سيدي؟"
رفع لانغدون رأسه، فرأى الشابّ يقترّب منه.
سأله: "ماذا تفعل؟! قلت إنّك تريد إجراء مكالمة! هل تتصفّح هاتفها—"
قاطعه لانغدون: "لا! بل أحتاج إلى التحقق من رسالة واردة. أنا آسف، فالأمر مهمّ جدًا". رفع الشاشة الفارغة، مُضيفًا: "إنّها قيد التحميل... سأعيده إليك حالًا".
قال الرجل وهو يخطو نحوه: "أريد الهاتف الآن، أيها السيّد".

وواصل المصعد إصدار طنينه المُزعج.
هَيَّا! حَبًّا بِاللَّهِ!

اشتدّت الرياح، وسمع المرأة تنادي زوجها.
"سيدي!" مدّ الرجل يده مُطالبًا بالهاتف.

فقال لانغدون مُتوسِّلًا، فيما المؤشّر لا يزال يدور: "رجاء... ثانية واحدة فقط، عليّ أن أرى—"

صاح الشاب: "الآن! لا يحقّ لك—"
صرخ لانغدون أخيرًا، والصورة تتشكّل أمام عينيّه: "ها هي!"

لم يعرف إن كان البرج قد اهتزّ بفعل الريح، أم إنّ ركبتيّهما اللتان خارتا، لكنّ توازنه
اختلّ فجأة. كانت الصورة التي ارتسمت على الشاشة صادمة، لم يتخيّل قطّ أن تُرسل إليه
كأثرين شيئاً من هذا القبيل.
حدّق إليها طويلاً، تاركاً ذاكرته التصويريّة تلتقط لها صورة ذهنيّة، ثم أغلق المُتصفّح،
وأعاد الهاتف إلى الشابّ الذي انتزعه بغضب، ومضى مُبتعداً.
بعد بضع ثوانٍ، سمع لانغدون المصعد يبدأ رحلته هبوطه.

الفصل 48

وصل مايكل هاريس إلى باب شقة ساشا فيسنا وهو يتساءل عن عدد المرات التي وقف فيها هنا من قبل، مُثَقَّلًا بالخجل، وأقسم إنها ستكون زيارته الأخيرة. شحذ عزيمته، وطرق الباب بقوة، فلم يجبه أحد. فما كان منه إلا أن جرّب المقبض، ووجد أن الباب غير مُقفل.

ليس الأمر مُفاجئًا، فهي بانتظاري.

نادى وهو يدخل: "ساشا؟ لقد وصلت!"

لم يجد سوى هاري وسالي يتقدّمان نحوه في الممرّ. فخطا إلى الداخل، وأغلق الباب كي لا يهربا.

"ساشا؟ بروفيسور لانغدون؟"

لا أحد.

تابع سيره باستغراب نحو المطبخ. وهناك، رأى ثلاثة أكواب مُعدّة للشاي، والبخار يتصاعد من الغلاية.

غريب... هل خرجا؟

لكن، ما إن هم بالعودة إلى الممرّ، حتى صرّ لوح خشبيّ خلفه، وفي اللحظة نفسها، اخترق ظهره تيار كهربائيّ جارف. أُصيب بشلل فوريّ، فسقط على ركبتيه، ثم هوى على وجهه أرضًا.

للحظات عدّة، ظلّ ذهنه فارغًا، والطين يملأ أذنيه، فيما تبيّست عضلاته. وبينما كان يستعيد قدراته الذهنيّة ببطء، لم يخطر بباله سوى أن أحدهم قد خرج للتوّ من خزانة المطبخ الصغيرة وصعقه بجهاز كهربائيّ.

ماذا جرى لساشا ولانغدون؟!

تمتم بصوت خافت يكاد لا يُسمَع: "سا... شا!"

فجاء صوت عميق أجوف من فوقه: "ساشا لا تستطيع سماعك... ليس من مكانها الآن."

لا... وقبل أن يتمكّن هاريس من الالتفات ليرى مُهاجمه، شعر بِسنيّ الصاعق تستقرّان عند أسفل جمجمته.

فجأة، انطلقت صعقة حارقة... وغرق عالمه في عتمة حالكة.

وقف الغولم أمام جسد مايكل هاريس المَشلول، المُمدّد على وجهه فوق الأرضيّة الخشبيّة. كانت صاعقة مسدّس "فايرتيك" قد أفقدته الوعي، فخطأ بحيث أصبح جسد الرجل القويّ بين ساقيه، ثمّ جثا فوقه، وأخرج كيسًا بلاستيكيًّا سميكًا عثر عليه في الخزانة، ووضعه فوق رأس هاريس. أخيرًا، لفّه بإحكام حول عنقه ليقطع عنه الأوكسيجين. بعد ثلاث دقائق، أفلت الغولم قبضته.

لم يعانِ كثيرًا.

ستُقدّر ساشا ذلك. كان الغولم قد حبسها بعيدًا، عازمًا على إبقائها هناك إلى أن يحين موعد خطوته الأخيرة.

نهض واقفًا وهو يشعر بالأنير يتجمّع، كما يحدث في لحظات الجهد. فسارع إلى إخراج العصا المعدنيّة التي لا تُفارقُه، ومسح بها أعلى رأسه هامسًا: "Ne seychas، ليس الآن".

على الأنير أن ينتظر... فما زال ثمة عمل ينبغي إتمامه في هذا العالم. ترك الجثة مُمدّدة على الأرض، ورمى الكيس البلاستيكيّ في سلّة المطبخ، ثمّ توجّه إلى مكتب صغير في الممرّ وجلس ليكتب. لم يجد سوى ورقة من قرطاسيّة ساشا المُزيّنة بالهررة الصغيرة. ومع ذلك، خطّ رسالة قصيرة، ودسّها في ظرفٍ مُتناسق. بعد ذلك، كتب على الظرف بأحرف واضحة اسم رئيسة مايكل هاريس.

إلى السفيرة الأميركيّة هايدة ناغل.

وقبل أن يُغادر، ألقي الظرف فوق جثمان الملحق القنصليّ، ثمّ ترك باب شقّة ساشا مفتوحًا، واتّجه إلى منزله.

الفصل 49

كان لانغدون وحيدًا الآن على قمة برج بترين، يستند إلى الدرابزين في مواجهة الرياح التي تعصف بالمنصة. وفي حين كانت عيناه تحدّقان إلى المدينة المُكلّلة بالثلوج في الأسفل، إلّا أنّ الصورة التي ارتسمت في مُخيّلتَه لم تكن لمدينة براغ إطلاقًا، بل للّقطة التي أرسلتها كاثرين إليه صباح اليوم عبر البريد الإلكترونيّ.

بالنسبة إليه، لم تكن الاستعادة التصويريّة تختلف في شيء عن الرؤية المُباشرة. فقد زوّدته ذاكرته التصويريّة بقدرة على استعادة دقيقة وكاملة لأيّ مشهد بصريّ. وقد اشتق اسمها من الكلمة اليونانيّة "إيدوس" التي تعني "الشكل المرئيّ".

أعاد في ذهنه تأمل الصورة التي وصلت إليه منها، والتي بدت لقطة شاشة لهااتفها. كانت على الشاشة سلسلة مُتوهّجة من سبعة أحرف.

ⱮⱮⱮⱮⱮⱮ

تعرّف لانغدون إلى اللغة القديمة على الفور، غير أنّه لم يستطع تخيّل سبب وجودها على هاتف كاثرين.

هل أرسلت إليّ شيئًا... باللغة الإنوكيّة؟

كانت اللّغة الإنوكيّة قد اكتُشفت هنا في براغ عام 1583، على يد اثنين من الإنجليز، جون دي وشريكه إدوارد كيللي، اللّذين زعما أنّها اللغة التي تتيح لهما الحصول على "الحكمة من العالم الآخر".

والسبب الوحيد الذي جعل كاثرين تعرف بوجود هذه اللغة، أنّ لانغدون أخبرها عنها أمس فقط. فبينما كانا يسيّران في الشوارع، وقع نظرهما على مُلصق يروّج لمعرض بعنوان صناعة الذهب. وبجانب النّصّ اللافت للانتباه، كانت ثمة رموز إنوكيّة. سألتَه كاثرين عن ماهيّتها، فروى لها القصّة الغريبة لشغف دي وكيللي بالخيمياء واستخدامهما لغة خاصّة بهما؛ الإنوكيّة.

قال لها لانغدون: "كانا في الأرجح محتالّين انتهازيّين، لكنّهما اشتُهما في زمنهما. حتّى إنّ الإمبراطور رودولف الثاني استدعاهما لمساعدته في اتّخاذ قرارات سياسية رشيدة".

ابتسمت كاثرين وقالت: "هل جرّب ساستنا المعاصرون ذلك؟"

ردّ لانغدون: "الأمر ليس صعبًا. فثمة تطبيق إنوكي متاح على الهاتف".

هتفت كاثرين ضاحكة: "تطبيق روحانيّ من عصر النهضة؟!"
ناولها لانغدون الهاتف بعدما نزلّ التطبيق المجانيّ سريعاً: "ها قد أصبح بمقدورك التواصل مع بعدٍ آخر".

قالت بازدرء خفيف: "هذا سخيف للغاية".
فابتسم مازحاً: "سخيف؟ هل وجدنا أخيراً فكرة غامضة لا تؤمنين بها؟"
قالت بنبرة ساخرة: "أنت ظريف جدّاً، بروفيّسور".
فطبع قبلة على خدّها هامساً: "تبدّين جدّابة عندما تتحدّثين بنبرة ساخرة".
والآن، وهو يرتجف فوق برج بترين، استنتج أنّ كاثرين قد تكون استخدمت تطبيق الترجمة الإنوكيّة لابتكار رسالة، ثم أرسلت إليه لقطة شاشة منها.
لكن لماذا؟ هل تمازحني؟

لم يجد لانغدون في الأمر أيّ طابع هزلّي، وهو يقرأ الإنوكيّة فوق تلة مُشَبَّعة بالأساطير عن الأشباح، خلال بحثه عن امرأة مفقودة. من المحتمل أنّ كاثرين لم تكن تمزح على الإطلاق، بل تعمّدت أن تُشفّر رسالتها حفاظاً على سرّيّتها. غير أنّ المشكلة تكمن في أنّ أيّ شخص يملك قاموساً أو تطبيقاً للإنوكيّة كان سيتمكّن بسهولة من فكّ رموزها.
أبقى لانغدون الصورة ثابتة في ذهنه.



كانت الترجمة من الإنوكيّة إلى الإنجليزيّة في الواقع مجرد نظام استبدال بسيط وسهل للغاية. ولطالما وجد لانغدون أنّه من المُريب أن تكون اللغة الغامضة التي اكتشفها عرّاف بريطانيّ ليست سوى مُقابلة حرفيّة لكل حرف من الأبجدية الإنكليزيّة.
كان لانغدون قد حفظ منذ زمن بعيد "مفتاح" الإنوكيّة، ولم يحتاج سوى إلى ثوانٍ قليلة لينجز المُطابَقة، ويحوّل الرموز في رسالة كاثرين إلى أحرف إنكليزيّة. غير أنّ النتيجة التي ظهرت أمامه بدت بلا معنى.

LXXEDOC

تأمل لانغدون السلسلة الغريبة من الأحرف، التي بدت وكأنّها رقم رومانيّ، باستثناء أنّه لا وجود للحرفين E و O في ذلك النظام العدديّ، كما أنّ الأحرف الأخرى لم تكن بالتسلسل الصحيح.

أيّا يكن ما حاولت كاثرين أن تخبرني إيّاه... فهذا ليس المقصود.

والمشكلة أنّها- لو أخطأت في الترجمة- فلن تلاحظ الخطأ أبدًا، إذ إنها لن ترى سوى الرموز التي أرسلتها.

بإحباط واضح، نظر لانغدون إلى مشهد الغابة الممتد أمامه، مُحاولًا تحديد خطوته التالية. وفي تلك اللحظة، انطلق فجأة سرب ضخم من الطيور من بين الأشجار، وارتفع في كتلة واحدة، ثم دار في اللحظة نفسها، مُحلّقًا كما لو كان طائرًا واحدًا.

الكون يوجّه إليّ رسالة، فكّر لانغدون في ذلك وهو يُراقب السحابة الحيّة المُتميّلة في السماء. كانت كاثارين قد درست في أبحاثها تزامن حركة أسراب الزرزور، واعتبرت هذه الظاهرة دليلًا علميًا على وجود صلة خفية تربط بين الكائنات الحيّة.

قالت لجوناس في جلسة الغداء العام الماضي: "الانفصال ليس إلّا وهما"، ثم عرضت مقطعًا مُذهلاً لطيور الزرزور وهي تتحرّك كأنها كيان واحد. "تُسمّى هذه الظاهرة التزامن السلوكي، وتحدث في الطبيعة على نطاق واسع".

مرّرت بعد ذلك عدّة مقاطع فيديو أخرى: سرب من أسماك القنبر يمتدّ ميلًا كاملاً؛ تنعطف كلّها يمينًا ويسارًا في تزامن تامّ، وقطيع لا نهاية له من الغزلان المُهاجرة؛ تقفز وتعدو بانسجام، وأسراب من اليراعات تتوهّج ويخبو ضوءها جميعها في اللحظة نفسها، وعشّ يضمّ مئات بيوض السلاحف البحريّة تفقس كلّها في ثوانٍ مُتقاربة. قال فوكمان مدهوشًا: "هذا لا يُصدّق".

ابتسمت كاثارين: "إنّها لا تكفّ عن إدهاشي. يزعم بعض العلماء التقليديّين أنّ التزامن السلوكي مجرد وهم... وأنّ هذه الكائنات لا تفعل سوى الاستجابة بعضها لبعض بسرعة هائلة تجعل الفاصل الزمني غير ملحوظ". ثم هزّت كتفَيها مُضيفة: "وللأسف، أثبت زوج من الكاميرات عالية السرعة، مُتصلّتين بساعات ذريّة وُضعتا في مقدّمة ومؤخّرة سرب أسماك، أنّ سرعة ردّ الفعل هذه تتجاوز سرعة الضوء".

قال لانغدون ساخرًا: "يا للهول!"

أومأت كاثارين مُبتسمة: "تمامًا، فهذا يتناقض مع النموذج الحالي للفيزياء والواقع. غير أنّني أعتقد أنّ ثمة منظورًا لا تبدو منه هذه التزامنات عجبية على الإطلاق. فإذا نظرت إلى سرب الزرزور لا بوصفه طيورًا مُنفصلة، بل ككائن واحد مُتكامل، يصبح التزامن أمرًا طبيعيًا ومُتوقّعًا. فهي تتحرّك كواحد لأنّها في الأصل واحد... منظومة مُترابطة لا تعرف الانفصال؛ تمامًا مثل الخلايا الفرديّة في جسدك، التي تُكوّن معًا الكيان المُتكامل الذي هو أنت".

بدا فوكمان مأخوذًا تمامًا.

تابعت كاثرين بحماسة مُتزايدَة: "وأعتقد أنّ الأمر ينطبق علينا نحن البشر أيضًا. إذ نحسب أنفسنا أفرادًا معزولين، فيما نحن في الواقع جزء من كيان أشمل وأكبر. وشعورنا بالوحدة ليس إلّا عجزًا عن إدراك الحقيقة... حقيقة أننا جزء لا يتجزأ من الكل. فالانفصال ليس سوى وهم مُشترك".

ثم لمست جهازها اللوحي قائلة: "لكن، لا تأخذ بكلامي فحسب. إليك ما قاله أحد أعظم المُفكرين عبر التاريخ"، وظهر على الشاشة اقتباس لألبرت أينشتاين.

إنّ الكائن البشريّ جزء من كلّ ندعوه "الكون"...

يختبر نفسه، وأفكاره، ومشاعره،

وكأنّه منفصل عن البقيّة،

في نوع من الوهم البصريّ لوعيه.

وهذا الوهم ما هو إلّا سجنٌ لنا.

قالت كاثرين: "حتى إنّ أعظم عالم في التاريخ صرّح بأنّ وعينا يخدعنا، ويجعلنا نرى الانفصال حيث لا وجود إلّا للوحدة".

تذكر لانغدون أنّ ليوناردو دافنشي كان قد قال شيئًا مُشابهًا. أدرك أنّ كلّ شيء مُرتبط بكلّ شيء آخر.

تابعت كاثرين: "وعلى مرّ العصور، أعلن روحانيّون كثر الفكرة نفسها، لكنّ الجديد اليوم أنّ عددًا مُتزايدًا من فيزيائيّ الكم يُردّدون أنّهم يعتقدون بتربط جميع الأشياء... وجميع البشر". ابتسمت لفوكمان مُضيفَة: "أعترف أنّه من الصعب تصوّر هذا الارتباط، لكن صدّقني، الأجيال القادمة ستفهم. سيأتي يوم ندرك فيه أنّ شعورنا بأننا وحيدون في هذا العالم لم يكن سوى أضخم الأوهام المشتركة للبشرية".

ألحّ فوكمان بسؤالها: "وماذا عن تجاربك؟ تلك التي لم تُخبرنا عنها بعد، هل تؤكّد هذا الترابط؟"

ابتسمت كاثرين، ولمعت عيناها بالحماسة: "أيّها السيدان، نتائج تلك التجارب لن تذكرنا فقط بأننا مُتصلون، بل ستضيء لنا الطريق نحو فهم جديد بالكامل لواقعنا، وللقدرات الكامنة في الإنسان".

في تلك اللحظة، دوى صرير حادّ وأعاد لانغدون إلى واقعه على قمّة برج بترين الذي تعصف به الرياح الباردة. للوهلة الأولى، ظنّ الصرير صادرًا عن المصعد، لكنّه ما لبث أن نظر إلى الأسفل، ورأى سيارة تنزل فجأة، وتتوقّف بعنف عند قاعدة البرج.

كانت سيارة سوداء مألوفة على نحو يُنذر بالسوء. والشعارات المُثَبِّتة على أبوابها
أكّدت شكوكه.

الاستخبارات التشيكية.

لم يستطع لانغدون تمييز ملامح الرجل بالزيّ الرسمي الذي قفز من مقعد القيادة،
وأخذ يركض عبر الموقف نحو البرج، لكنّ العين لم تُخطئ بنيتة العضلية الضخمة، ولا
المسدّس الكبير الذي كان يقبض عليه بيده.

الفصل 50

اندفع الملازم پافيل إلى قاعة الزوار في برج بترين، شاهراً مسدّسه.

صرخ بالتيشيكية في وجه الموظفة الواقفة خلف المنضدة: "Kde je ten Američan?" فتراجعت المرأة مذعورة، وأسقطت رزمة الكتيبات التي كانت ترتبها على رفّ العرض. أخيراً، أشارت إلى الأعلى وهي ترتجف، بعدما وصف لها پافيل ملامح لانغدون، وهتفت وهي تنكمش على نفسها خوفاً: "لقد صعد!"

كان پافيل يسمع بوضوح حركة المصعد داخل العمود، وكان الصوت يزداد ارتفاعاً. المصعد في طريقه إلى الأسفل. أما السلالم فكانت مُغلقة بشريط التحذير. ممتاز.

رنّ جرس المصعد، فثبّت قدميه وأشهر سلاحه. وما إن انفتح الباب، حتّى وجد نفسه يُصوّب فوهة المسدّس نحو زوجين شابين من أصل هندي، ارتدّا إلى الوراء مُجفّلين عند رؤيتهما السلاح.

أمرهما پافيل: "اخرجا فوراً!"

وما إن هرعاً مُبتعدين، حتّى اندفع إلى داخل المَقصورة، وضغط زرّ الخيار الوحيد المتاح: الأعلى. كان سلاح النقيب مُحشّواً، وجاهزاً للاستعمال.

خلال صعوده، راح يذرع المَقصورة الضيقة جيئةً وذهاباً كوحشٍ حبيس، إلى أن ارتجّ المصعد وتوقّف أخيراً. فُتح الباب مُطلقاً سراحه، فاندفع إلى الخارج ورفع سلاحه، واضعاً إصبعه على الزناد. التفت يمنة ويسرة، ومسح المنصّة بعينه بحثاً عن هدفه. لا أحد. وبما أنه واثق من أن لانغدون لا يمكن أن يكون إلّا هنا، اندفع يعدو حول عمود المصعد في حركة دائرية، مُتّجّهاً إلى الجهة الأخرى من البرج. لكنّه لم يجد أحداً هناك أيضاً. فتابع جريه حتّى أتمّ دورة كاملة حول المنصّة الصغيرة، ليعود إلى حيث بدأ.

كان المصعد مفتوحاً... وفارغاً.

أين ذهب هذا اللعين؟!

أخيراً، توقّف پافيل وخفض سلاحه.

كانت المنصّة خالية تماماً.

اشتدّ النبض المؤلم في جمجمة پافيل فجأةً بسبب الجهد الذي بذله، ورافقته موجة غضب جديدة. هبّت الرياح وهي تصفّر بصوت عالٍ، لكن فوق ذلك العويل الحزين، سمع پافيل صوتاً آخر، أشبه بطرق مُتكرّر في مكان ما أسفل المنصّة. للوهلة الأولى، ظنّ أن عاملاً

يطرق على شيء معدنيّ، لكنّ الوتيرة كانت مَحْمومة وسريعة للغاية.
عندها رآه.

ففي أعلى السّلم الحلزونيّ الهابط، كان الشريط التحذيريّ مُلقًى على الأرض، وإلى جانبه آثار أقدام جديدة على الدرج المعدنيّ.
لقد أخطأت، أيّها البروفيسور.

قفز باقيل إلى داخل المصعد في اللحظة التي كان بابه على وشك أن يغلق فيها. فحتّى لو نجح لانغدون في النزول عبر الدرج المَكشوف من دون أن يهوي من فوق الدرايزين، فلن يجد أيّ منفذ للهرب عند وصوله إلى الأسفل.

* * *

على بُعد ستين قدماً تحت منصّة المُرَاقبة، خشي لانغدون أن يكون قد ارتكب خطأ فادحاً. فقد كان يهبط على السّلم الحلزونيّ الضيّق والمَكشوف بسرعةٍ جنونيّة، فيما لم يساعده حذاؤه الجلديّ الأملس على تثبيت خطواته، ناهيك عن أنّ صوت ارتطامه على الدرجات المعدنيّة كان يتردّد عاليًا وسط الصقيع. فوّه مباشرة، كان المصعد قد عاد إلى الحركة من جديد، وراح يهبط في البئر المُغلّقة التي كان لانغدون يلتفّ حولها.
أسرع يا روبرت.

كانت يداه تتجمّدان بسرعة وهما تنزلقان على الدرايزين المعدنيّ من جانبيّ السّلم الخطر، إذ كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لتجنّب زلّة قدم قاتلة. ومن الأعلى، بدا أنّ صوت المصعد يقترب منه تدريجيّاً، الأمر الذي دفعه إلى التساؤل عمّا إذا كان سيتمكّن من الفوز في هذا السباق إلى الأسفل. فأيّ تعادل لن يصبّ في مصلحته؛ وذلك لأنّ الملازم مُسلّح، ولا يساوره أدنى شكّ في أنّ الضربة التي تلقّاها على رأسه لم تمنحه أيّ قدر إضافيّ من ضبط النفس.
إلى أين سأهرب أصلاً؟ فمن الواضح أنّه لن يتردّد في إطلاق النار.

الخيار الوحيد الذي لمحه لانغدون كان متنزّه بترين، خلف مركز الزوار. والسبيل الوحيد للوصول إليه هو الاندفاع بأقصى سرعته عبر البهو، ومنه إلى خارج المبنى قبل أن يُفتَح باب المصعد.

لكنّه سرعان ما أدرك أنّ الأوان قد فات.

فبينما كان يهبط السّلم الحلزونيّ، بدأ عمود المصعد المجاور يهتزّ بصوت لا لبس فيه؛ صرير المصعد وهو يتجاوزته نزولاً.

* * *

اندفع الملازم پافيل إلى مركز الزوّار كثور هائج يقتحم حلبة مُصارعة. وكانت الموظّفة والزوجان الهنديّان مُتكوّرينَ في أحد أركانه.

صرخ پافيل: "أين هو؟ أين الأميركي؟"
هزّت الموظّفة المَدعورة رأسها يائسة، ورفعت كتفَيها.
فكّر پافيل في سره: جيّد... ما زِلْتُ فوقّي.

فتقدّم إلى أسفل السّلم الحلزونيّ، ووجّه سلاحه إلى الأعلى في الفراغ، مُترقّبًا ظهور لانغدون. لكن بعد عشر ثوانٍ فقط، أيقن أنّ ثمة خطبًا ما... فالضجيج المعدنيّ لخطوات لانغدون قد توقّف.

وحلّ صمّتٌ مُطبق.
وفجأة... سمع صوت ارتطام ثقيل آتٍ من فوق رأسه مُباشرة.

* * *

هبط لانغدون على سطح مركز الزوّار بقوة أكبر ممّا توقّع. فعندما توقّف عند النقطة التي يدخل فيها السّلم إلى السطح، أمسك بالدرابزين، وأرجح ساقَيْه إلى الأعلى واليسار، دافعًا جسده من فوق الحاجز المُنخفض، ليهبط بخشونة على السطح المائل برفق.
تدحرج على بطنه، وانزلق نحو الحافة، ثم أنزل قدمَيْه أوّلًا من فوق المزراب، ليسقط من تلك المسافة القصيرة على الأرض خلف المبنى. وكان على يقين أنّ حركاته البهلوانيّة الخرقاء لم تمرّ من دون أن يلحظها أحد في الداخل. لذا، لم يُضِع الوقت، بل انطلق يعدو نحو الغابة مُبتعدًا عن البرج بأقصى سرعته.

لم يكدّ يتعدّ ثلاثين ياردة، حتى سمع صراخ پافيل وهو يقتحم الغابة المَكسوّة بالثلوج خلفه، مُحدّثًا جلبة قويّة. لقد كان سريعًا للغاية. إذ كان لانغدون يأمل بمهلة أطول، كما تمنّى لو أنّ حذاءه كان من صنع Nike لا Tod's.

وبينما كان يشقّ طريقه مُسرّعًا بين الأشجار، تملّكه شعور مُزعج بأنّ برج بترين كلّه لم يكن سوى فخّ. فخلال دقائق من وصوله، ظهر عملاء الاستخبارات. فأخذ يتساءل عمّا إذا كانت الرسالة من پافيل. هل كان يحاول عزلي ليطلق النار عليّ؟ هل ثمة من يريد قتلي فعلاً؟

كاثرين معي. تعالَ إلى برج بترين.
من الواضح أنّ كاثرين لم تكن هنا، وقد بدا له ذلك غير مُرجّح أصلاً. لا شيء كان منطقيًا، حتّى رسالة كاثرين الإنوكيّة.

ما الذي تحاول أن تقوله لي؟

على مسافة غير بعيدة، لمح فسحة تتوزع فيها بعض معالم الحديقة؛ دوامة خيل، وإسطنبول مهور، وحديقة ورود، وكنيسة صغيرة. فخرج من الغابة إلى الباحة الحصوية، مُمتنًا لأنه يدوس أخيرًا على أرض صلبة، مع أنه كان يسمع وقع خطوات المطاردة الثقيلة خلفه. اندفع لانغدون مُتجاوزًا الإسطنبول والحديقة نحو الكنيسة، التي كان برجها يرمز تاريخيًا إلى "الملاذ"، لكنّ القفل المُعلّق على بابها حمل رسالة أخرى. ومن دون أن يُخفّف سرعته، مسح الساحة بنظره بحثًا عن مأوى آخر. وحين لمح ثلاثة أبنية أمامه، حسم قراره على الفور.

كان الأولان في الأرجح مُغلَقَيْن في هذه الساعة المبكرة؛ كنيسة كالفاري وكنيسة القديس لورنس. أمّا المبنى الثالث فكان قلعة مُبتدلة أشبه بقصور الحكايات الخرافية، مَطلية بالأصفر الزاهي، تُرفرف فوق أبراجها الوهمية التي تعلو أسوار القلعة المُزخرفة رايات مُلوّنة تحمل شعارات النبالة. خلف الجسر المُعلّق المُزَيَّف، كان ثمة رجل يرتدي زيًا من العصور الوسطى، يرفع البوابة الحديدية، فاتحًا المكان لزوّار هذا اليوم. وفوق المدخل، علّقت لافتة كتب عليها: VÍTEJTE / WELCOME.

فكر لانغدون في سرّه: أحيانًا، يرشدك الكون إلى الطريق.

سواء أكان الأمر إشارة كونية إلى الطريق الصحيح أم لا، لم يجد لانغدون خيارًا آخر للاختباء. نظر خلفه سريعًا، فإذا بإفيل قد خرج من الغابة عند طرف الساحة، وتابع اقترابه بسرعة. فحشد قواه، وانطلق عبر الجسر المُعلّق الزائف، مُتجاوزًا الموظف المذهول، لينزلق إلى قاعة صغيرة يتصدّرها شبّاك تذاكر غير مأهول يحمل لافتة:

ZRCADLOVÉ BLUDIŠTĚ.

لم يكن لانغدون يعرف معنى العبارة، لكن لا أهميّة لذلك؛ إذ لم يكن في القاعة سوى حاجز دوّار واحد يسدّ ما بدا أنه المدخل الوحيد إلى القلعة؛ قنطرة ضيقة تقود إلى رواق مُعتم.

قال في سرّه: سامحيني يا سندريلا، ثمّ قفز من فوق الحاجز واندفع عبر الفتحة، يجري في ممرّ حجريّ، ثمّ انعطف بقوة إلى اليسار، ليجد نفسه فجأة في قاعة سداسية مُتألّثة. فتوقّف مذهولًا حين رأى ما يحيط به.

ما هذا!؟...

كان ستة رجال يقفون في دائرة حوله، تفصل بينهم مسافة مُتساوية، وجميعهم يُحدّقون إليه مباشرة.

والأغرب أنّ هؤلاء الستّة كانوا جميعًا روبرت لانغدون نفسه.

حينها، أدرك معنى عبارة ZRCADLOVÉ BLUDIŠTĚ، وتمنّى بشدّة لو أنّه اختار وجهة أخرى.

الفصل 51

كان في الوهج البنفسجيّ في شقّة الغولم ما يبعث على السكينة بعد الطّريقة العنيفة الّتي أنهى بها حياة مايكل هاريس. وبعد أن اغتسل على عجل، وارتدى رداءً طويلاً، جثا بصمت في ملاذه المُعتم؛ تلك الحجرّة الّتي أقام فيها مزاراً لها.

تحتيّة للمرأة الّتي وُلدتُ لكي أحميها.

أشعل عود ثقاب، وأوقد الشموع الثلاث الموضوعة بين الأزهار المُجفّفة على الطاولة. ومع ازدياد حدّة ضوئها المُتراقص، رفع بصره إلى الصّورة المُعلّقة فوق المزار.

ابتسم الغولم بحنان وهو يتأمل وجهها.

أنا هنا لأرعاكِ... مع أنّك لا تعرفيني.

لم تكن المرأة تتمتع بملامح جميلة بالمعنى الكلاسيكيّ، بقسماتها السلافية الحادة، وشعرها الأشقر المُنسدل على كتفيها، وأنفها المكسور... ومع ذلك، كانت ساشا فيسنا عالم الغولم بأسره.

أنا حارسكِ يا ساشا.

في الواقع، لم تكن ساشا تعلم أنّ لقاءهما حدث منذ سنوات، في مصحّة عقليّة روسيّة، خلال لحظة عنف مُروّعة. يومذاك، كانت ساشا وحيدة، وعاجزة عن الدفاع عن نفسها، تتلقّى ضرباً مُبرّحاً من ممرّضة ليليّة عديمة الضمير تدعى مالفينا. فدخل الغولم الغرفة، وقد عجز عن تحمّل الإساءة مدّة أطول. هكذا، مدفوعاً بفيض من الغضب العارم، تدخل وانقضّ على الممرّضة بوحشيّة، وكسر عنقها.

لحسن الحظّ، كانت ساشا فاقدة وعيها، ولم تكتشف حقيقة ما حدث في تلك الليلة. فانسحب الغولم في الظلام بصمت، من دون أن يلحظه أحد... لكنّ تلك اللحظة ربطت روحيهما إلى الأبد، وأخذ على نفسه عهداً بحمايتها.

منذ أن أنقذتُ حياتها في تلك الليلة... أصبحتُ حارسها.

قبل فعلته تلك، لم يكن سوى وعاء فارغ، شبح هائم على غير هدى. غير أنّه في تلك اللحظة، شعر أنّ حياته تبدأ، كما لو أنّ شعاع طاقةٍ من عالم آخر اخترقه، وأدرك فوراً من يكون، وما طبيعة الصّلة الغامضة الّتي ربطته بساشا فيسنا.

أنا حاميتها.

إنّها سبب وجودي، ومعاناتي، وبقائي.

مع ذلك... يجب ألا تعرف أبداً.

حتى اليوم، لم تكن ساشا تدري بوجود الغولم أصلاً... فما بالك بتدخله في حياتها، ومراقبتها سرّاً؛ ليحمي روحها البريئة من أهوال هذا العالم. فقد أساءت بريغيتا غُسْنِر إلى ساشا جسدياً وعقلياً. أمّا مايكل هاريس فخان قلبها؛ وتلك أقسى الخيانات.

قبل عشرين دقيقة فقط، همس الغولم وهو يضغط على عنق الرجل المَغْشِي عليه، مُحْكِمًا الكيس البلاستيكي حول رأسه: "مايكل... كانت خيانتك هي الأشدّ قسوة. فقد رأيتك وأنت تستغلّ وحدة ساشا. رأيتك في فراشها، وبين ذراعيها، تتظاهر أنّك تحبّها".

وأحكم قبضته من دون رحمة، وشعر بأصابعه تنغرس في لحم الرجل، ثمّ أضاف بصوت خافت: "سينفطر قلب ساشا حين تعلم بموتك... لكنّ ذلك لا يُقَارَن بإحساسها حين تعرف الحقيقة القاسية... أنّ الرجل الوحيد الذي أحبّه كان يستغلّها... ويخدعها... ويتجسّس عليها".

ومع تباطؤ نبض مايكل هاريس، أدرك الغولم - من خبرته مع الموت - أنّ روح الرجل تغادر جسده الآن، لتحوم في هذه الغرفة، وتشهد لحظة هلاكه. عندها، رفع الغولم نظره إلى السقف، مُوجِّهاً حديثه مباشرة إليها: "إنّها طفلة يا مايكل... تخلّى عنها والداها... وحُيِسَتْ في مصحّة... واستُدرِجت إلى براغ على يد وحش. جميع من في حياتها خانوها... باستثنائي!"

وحين لفظ هاريس آخر أنفاسه، انحنى الغولم نحوه، وهمس ببرود، مُردِّداً الكلمات نفسها التي سمع ساشا تهمس بها في أذن هاريس وهو يغضو بين ذراعيها: "*Spokoynoy noch, milyy*، تصبح على خير، يا حبيبي".

لقد نجح هذا الجزء من خطة الغولم. فقد حاصر مايكل هاريس وهو بمفرده، فيما كانت ساشا مَحْبُوسَةٌ بأمان، وذهب البروفيسور الأميركي روبرت لانغدون بعيداً. لم يكن لانغدون يستحقّ الموت، لكنّ وجوده في شقّة ساشا كان سيجعل قتل هاريس مُستحيلاً. لذا، ارتجل الغولم، وترك رسالة عند باب ساشا سبّبت الإرباك للانغدون، ودفعته إلى الذهاب بحثاً عن كاثرين سولومون.

غير أنّه لن يجدها في برج بترين، بالتأكيد.

فكّر في سرّه: ثَمّة احتمال كبير بأنّ لا يعثر عليها أبداً. وتذكّر ما باحت به غُسْنِر الليلية الماضية؛ وهي تتلوّى تحت وطأة الألم، بينما كان المحلول الملحي البارد يُمزّق عروقها.

قالت غُسْنِر بصوت مُتقطّع: "كاثرين لا تدرك حجم الخطر الذي يُهدِّدها... فالذين أعمل لحسابهم... لن يتورّعوا عن فعل أي شيء لإسكاتها".

الفصل 52

يقع ملعب ميتلايف على بُعد بضعة أميال إلى الجنوب من مطار تيتربورو في إيست روثرفورد، بولاية نيو جيرسي، ويُعدّ من أعلى الملاعب دخلًا في العالم. وهو يستضيف فريقَي كرة القدم الأميركية نيويورك جاينتس ونيويورك جيتس، وقد بُني ليكون قابلاً للتحوّل؛ إذ يُبدّل أسبوعياً شعارات الأعلام وإضاءة المدرجات وألوانها؛ تارة إلى الأزرق (ألوان جاينتس)، وتارة إلى الأخضر (ألوان جيتس)، بحسب الفريق المضيف.

هذه الليلة، بدا الملعب المهجور إلى يمين فوكمان أشبه بسفينة فضائية عملاقة مظلمة، متروكة في وسط ساحة ضخمة لركن السيارات. تفحص مرآة الرؤية الخلفية ليتأكد من عدم وجود من يتبعه، ثم انحرف بالسيارة المسروقة عن طريق 17، والتفّ خلف الملعب، ليركنها في أحد المواقف الشاغرة التي يُناهِز عددها ثلاثين ألفاً.

التقط أنفاسك يا جوناس... وفكّر.

كان يقود سيارته بسرعة تسعين ميلاً في الساعة، قابضاً على المقود بشدّة حتّى ابصّرت عُقد أصابعه؛ الأمر الذي أدهق أعصابه. لذا، كانت هذه الاستراحة مُرحّباً بها؛ خصوصاً مع بدء دفء المقعد بالتسرّب إلى جسده.

جلس وحيداً الآن في الموقف الخالي، وراح يتفحص هاتفه بقلق لعدم تلقيه أيّ اتصال من لانغدون. ففي هذه الساعة، لا بدّ أن يكون مُستيقظاً... إذ إنّها التاسعة صباحاً في براغ. لم يُظهر سجلّ مكالماته أيّ مكالمات فائتة، باستثناء عدّة مكالمات من فرع تكنولوجيا المعلومات التابع لدار نشر بينغوين راندوم هاوس، والتي لا يمكن إلّا أن تكون من فني الأمن المعلوماتي، أليكس، في تلك الساعة.

ضغط زرّ إعادة الاتصال، آملاً أن يُزوّده الفني ببعض المعلومات التي تُلقي بعض الضوء على ما يجري. فجاءه صوت أليكس كونا المألوف على الفور.

"سيّد فوكمان! أين كنت؟ هل أنت بخير؟!"

لستُ بخير على الإطلاق، يا بُنيّ.

قال أليكس لاهثاً: "عليّ تحذيرك، فالقراصنة الذين حذفوا مخطوطتك... أعتقد أنّهم غاية في الخطورة".

فكّر فوكمان ساخراً وهو يلمس بطنه الذي ما زال يؤلمه من شدّة الضربة: لا حاجة لتخبرني بذلك. "توصّلتُ إلى الاستنتاج نفسه، يا أليكس."

فتردّ أليكس قليلاً قبل أن يُضيف بصوت مُتهدّج: "أنا... آسف جدّاً لإخبارك بذلك... لكن..."

تصاعد قلق فوكمان. بَمَ تخبرني؟
"أنا... أعتقد أنّهم ربّما قتلوا أحد مؤلّفيك".
شعر المُحرّر بدمه يتجمّد، مُتمنّياً أن يكون قد أخطأ السمع. وبينما كان الفنّي الشاب يروي تفاصيل ما توصّل إليه، أصغى إليه فوكمان مصدوماً، واعتراه إحساس بالغثيان.

* * *

على بُعد ميل واحد فقط، كان العميلان أوغر وتشينبرغ قد تتبّعا هاتف فوكمان من مسافة آمنة، وركنا سيارتهما في شارع سكنيّ هادئ في إيست روثرفورد بولاية نيوجيرسي، بمحاذاة ملعب ميتلايف. بعد ذلك، جلسا ينتصّتان إلى المكالمات عبر جهاز الآيباد. وما سمعاه كان مُقلّقاً بالنسبة إليهما أيضاً.
هل قُتِل أحد المؤلّفين الأميركيين في براغ؟ أهولانغدون أم سولومون؟ من الواضح أنّ أمرًا مُروّعًا قد وقع.

مع ذلك، كان السيّد فينش قد أوضح - بما لا يدع مجالاً للشكّ - أنّ الاستيلاء على مخطوطة كاثرين سولومون أمر بالغ الأهمية. وفينش ينجز مهمّته دائماً؛ مهما كلفه ذلك.

الفصل 53

بُنيت متاهة المرايا التاريخية - Zrcadlové Bludiště - في براغ عام 1891، بمناسبة معرض يوبيل براغ، ولا تزال حتى يومنا هذا وجهة شهيرة للسياح والأطفال. وعلى الرغم من قصرها - وفقًا للمعايير الحديثة - إلا أن التنقل فيها قد يكون صعبًا بسبب تصميمها المربك وجدرانها العاكسة المائلة.

توقف روبرت لانغدون في الحجرة الأولى... مُحاطًا بانعكاسات لصورته يبدو فيها مَدْعورًا. فحث نفسه قائلًا في سرّه: *بافيل خلفك مباشرة*. استغرقه الأمر مجرد لحظة ليُدرك أن أحد الانعكاسات كان أصغر بقليل من الأخرى، فاندفع نحوه، واكتشف أنه مرآة غائرة إلى الداخل مسافة عدّة أقدام، تُخفي وراءها فتحة ذكيّة التصميم، يمتدّ منها ممرّ مكسوّ بالمرايا في كلا الاتجاهين.

تساءل في سرّه: *هل أتجه يسارًا أم يمينًا؟* لطالما كره لعبة التخمين العشوائي في المتاهات. فإحصائيًا، في عالم يميل إلى استخدام اليد اليمنى، يختار معظم الناس الاتجاه الأيمن، ممّا يعني أن مُصممي المتاهات يحرصون غالبًا على جعل المنعطف الأول إلى اليمين فخًا دائريًا. وهكذا، اندفع لانغدون يسارًا. وبينما كان يجري، أبقى يده اليمنى مُلاصقة للجدار، ومُلاصقة سطح المرايا. لا ترفع يدك عن الجدار البتّة.

كان قد تعلّم هذه الحيلة منذ الطفولة؛ بفضل شغفه بالأساطير اليونانية، لا سيّما أسطورة متاهة المينوتور الشهيرة في جزيرة كريت. كانت الفأس المزدوجة (لابريس) رمزًا للاختيار. وفي الواقع، كان عبء الاختيار هو ما يصعب عبور المتاهة. لكنّ المينوتور⁽¹⁾ الأذكى أزالوا عبء الاختيار باعتماد استراتيجية "اليد على الجدار"؛ إذ لا حاجة إلى التفكير في هذه الحالة، بل يكفي تتبّع الجدار إلى حيث يقودك. وصحيح أن هذه الاستراتيجية لا تضمن سلوك الطريق الأقصر إلى الخارج، لكنّها تضمن عدم القيام بالاختيار نفسه مرّتين، وبالتالي الخروج بصورة أسرع... وفي حالتهم، للنجاة من المينوتور.⁽²⁾

حين وصل لانغدون إلى المُفترق التّالي، لم يتردّد، بل أبقى يده على المرآة وهو يعدو؛ مُستسلمًا للاتّجاه الذي يقود خطاه. وراح ينعطف مرارًا وتكرارًا، ويتوغّل في جوف المتاهة.

(1) الحضارة المينوية هي أقدم وأوّل حضارة مُتقدّمة في أوروبا، وقد ازدهرت في جزيرة كريت في العصر البرونزيّ (حوالي 2600-1100 ق.م).

(2) المينوتور كائن أسطوريّ إغريقيّ نصفه رجل ونصفه الآخر ثور.

كان يسمع وقع أقدام پافيل الثقيلة في ممرّات قريبة، وأنفاسه الصاخبة التي لا يفصله عنها أحياناً سوى مرآة رقيقة. ركض لانغدون بهدوء قدر الإمكان، مُدركاً أنّه إن كان قد أخطأ بالانعطاف يساراً منذ البداية، فهذه الاستراتيجية ستعيده في نهاية المطاف إلى الممرّ نفسه، لكن من الاتجاه الآخر... ليصطدم مباشرة بِپافيل.

فجأة، انفتح أمامه فضاء أوسع، إذ وصل إلى غرفة أكبر، مليئة بمرايا مُلتوية ومُشوّهة، كمرايا ملاهي المهرجانات. هنا، لم تعد المرايا مُتصلة بالجدار، بل مُتفرّقة وقائمة بذاتها؛ الأمر الذي عطّل استراتيجيته. وكان صوت العميل يقترب على نحو مُثير للقلق. لكن، بينما كان يمسح بنظره المساحة الجديدة، رأى وهجاً رمادياً مألوفاً في أقصى أحد الممرّات. ضوء النهار! فسحب يده عن الجدار، واندفع نحو الضوء. غير أنّه لم يصل.

فقد ظهر فجأة الجسد الضخم للملازم پافيل أمامه، عن يمينه. التقت نظراتهما، ثم رفع پافيل سلاحه مباشرة، وصوّبه إلى صدر لانغدون.

صرخ هذا الأخير وهو يتوقّف، ويرفع ذراعَيْه عالياً: "مهلاً!" لكنّ پافيل ضغط على الزناد.

دوى صوت الطلقة، وتراجع لانغدون مُتوقّعا إصابته. لكن بدلاً من ذلك، سمع دويّ زجاج يتحطّم، ثم تلاشت صورة پافيل من أمام عينيه. تناهت إليه صرخة پافيل المُحبط في مكان قريب.

لم ينتظر لانغدون ليفكّر في سلسلة الانعكاسات المُلتوية التي جعلته يظن أنّه يواجه پافيل وجهاً لوجه، بل انطلق هارباً على الفور. اندفع مُجدّداً نحو الفتحة الرمادية، وكاد أن يرتطم بمرآة أخرى، قبل أن يلمح المخرّج الحقيقيّ إلى يساره، فركض نحوه، وخرج إلى الهواء الطلق.

بخطوات مُتسارعة، اندفع عبر الممرّ المُعبّد مُبتعداً عن القلعة. ومن خلفه، علا دويّ الطلقات، تبعه صوت تناثر الزجاج. ثلاث رصاصات مُتتالية. يبدو أنّ الملازم قرّر أن يشقّ لنفسه مخرجاً بالقوّة.

انعطف الدّرب مُتوغّلاً في الغابة، فركض لانغدون مُتجاوزاً مجموعة من السياح المسنّين الذين كانوا يصعدون الدّرب. لهنيهة، ظنّ أنّهم صعدوا تَلّ بترين سيّراً على الأقدام، لكن سرعان ما أدرك كيف وصلوا. فأمامه، كان ثمة مبنى صغير من الجصّ، يقع بجانب سكة حديد شديدة الانحدار، تقف عليها عربة واحدة مائلة بزاوية مُخيفة.

قطار بترين الجبلي المُعلّق.

لم يسبق للانغدون أن جرّب هذا القطار من قبل، لكنّ اللحظة بدت مناسبة للقيام برحلته الأولى. كان الباب على وشك الإغلاق حين وصل لاهثًا، فانزلق إلى الداخل في اللحظة الأخيرة. وحين بدأ القطار هبوطه، أدرك لانغدون أنّ دخوله متأهه المرايا أنقذ حياته في الأرجح.

لعلّ الكون كان على حقّ في النهاية.

* * *

جلس الغولم في شقّته، وألقى الغطاء المطّاطي فوق رأسه، ثمّ تناول دلو الطين الرطب الذي أحضره من نهر ثلثا، والذي يُخبّثه تحت المغسلة. غمس يده في دلو الماء، وغرف قبضة من الطين الناعم الموحل. وبعناية بالغة، بدأ بوضع طبقة سميكة منه على قلنسوته، ومن ثمّ على وجهه بالكامل، باستثناء عينيه.

وحين اكتمل قناعه الطينيّ، مدّ يده إلى الدُرج، وأخرج شظيّة من الزجاج العاكس - المرأة الوحيدة في منزله - ثمّ استعان بأداة معدنيّة دقيقة، ونقش على جبهته الأحرف الثلاثة.

אמת

الحقّ.

كان الغولم قد اختبر الحقّ كثيرًا في الآونة الأخيرة.

لطالما ساورته الشكوك في أنّ بريغيتا غُسنير لم تكن الروح النبيلة والخيرة كما رأتها ساشا، فسعى إلى مُراقبتها بطرق شتى؛ ليفهم الأسباب الكامنة وراء سخاء عالمة الأعصاب تجاه ساشا.

وما اكتشفه عنها كان صادمًا على نحو غير متوقّع.

فكّر في إخبار ساشا، غير أنّ الصدمة ستفوق قدرتها على الاحتمال.

ساشا بحاجة ماسّة إلى مُرشّد... إلى شخص تُصدّقه.

أما مايكل هاريس، فكانت حقيقته أشدّ وقعا. إذ راقب الغولم خطوات الأميركيّ الوسيم المَحسوبة نحو ساشا، وكشف خداعه لها منذ اللحظة الأولى. إلّا أنّ ساشا كانت من السداجة بمكان بحيث لم تُدرِك أنّ رجلاً مثل هاريس لا يمكن أن يختارها يومًا.

لكنّهما نالا جزاءهما الآن.

وبينما كان يتحقّق من متانة طبقة الطين حول فمه وأنفه، استعداد الإحساس بالنشوة الذي شعر به في الليلة الماضية حين تعقّب غُسنير من محاضرة كاثرين سولومون، إلى مقهى فور سيزنز، ومن ثمّ إلى مختبرها... وهناك، باغتها بعنف، وارتجل وسيلة استجواب فعّالة ومُدْمرة.

ملأت اعترافات غَسْنِرِ القسرية ثغراتٍ في فهمه للأمور... وكانت الخيانات أفضع بكثير مما توقع. فقد كشفت له عن هويّة شركائها النافذين، وعن التفاصيل المروّعة لما بنوه تحت مدينة براغ. العتبة.

استشاط الغولم غضبًا. وما إن غادر مُختبرها، حتّى بدأ بالتخطيط على الفور. كان رأس الأفعى رجلًا أميركيًا يدعى فينش، وهو الذي يُصدر الأوامر مباشرة إلى غَسْنِر. يعمل فينش من مكتب آمن في لندن، ويتنقل حول العالم.

سأدمر أولًا ابتكارك في براغ... ثم سأستمتع بمطاردتك، أينما كنت. كانت غَسْنِر قد كشفت له موقع المنشأة تحت الأرض، لكن لسوء حظّه، تبين أنّ بطاقتها الشخصية غير كافية لمنحه حقّ الدخول.

أنا بحاجة إلى شيء آخر. كان قد قام بالفعل بمحاولة فاشلة للحصول عليه من حصن الصليب، لكنّه في هذه الزيارة سيكون أكثر استعدادًا لأيّ عائق.

وما إن خرج إلى الزقاق العاصف خارج بيته، حتّى شعر بالطين الرطب على وجهه يجفّ سريعًا ويشدّ بشرته. أمّا حذاؤه الضخم ذو النعل العريض فما زال مُبتلًا من ليلة أمس، غير أنّه تجاهل الإزعاج الذي يُسببه له. فربّما كان خصومه يراقبون... لذا، لا مجال لأيّ مخاطرة قد تكشف هويّته.

أنا أتحرك الآن بذاتي الحقيقية.

وأشعر بقوة تلك الحقيقة.

كان يعلم أنّ مهمّته اليوم تتطلّب تركيزًا استثنائيًا. ولهذا، كان عليه أولًا أن يُجدّد طاقته من خلال زيارة الموقع الذي شعر فيه بنبض القوة الأكثر غموضًا في براغ. هناك، في حقل مهيب للموتى، سيركع الغولم فوق التراب البارد، ويستمدّ عزيمته من مُلهمه وحامل اسمه... الغولم الذي سبقه.

الفصل 54

بينما كانت دانا دانك تصعد السلم المؤدي إلى مكتب السفارة الأميركية، راودها شعور بأن هذا الاستدعاء سيكون الأخير لها. فقد استدارت السفارة على عقبيها واختفت بعد أن واجهت دانا بغضب بشأن زيارتها فندق فور سيزنز، وعلاقتها الشخصية بمايكل هاريس. طرقت الباب بخفة وهي تقول في سرّها: أنا على وشك أن أفصل من عملي. قالت السفارة: "ادخلي، وأغلق الباب خلفك".

فأطاعت دانا، ثم استدارت لتواجه رئيسها. كما هو الحال دائماً، كان أسلوب السفارة ناغل في العمل يشبه مظهرها الخارجي غير المتكلف؛ أي إنه عملي تماماً. وكانت دانا تجد ناغل مهيبة حتى خارج مكتبها، فكيف بها الآن، وهي جالسة خلف مكتبها المصنوع من خشب الماهو غاني، تتوسط علكمي الولايات المتحدة وجمهورية التشيك؟ لقد بدت السفارة هايدة ناغل أشبه بأسد على وشك الانقضاض على فريسته.

حدّقت السفارة إلى دانا من فوق نظارتها التي اعتادت أن تبقّيها منخفّضة على أنفها، ثم قالت: "أطفئي هاتفك، وضعيه على مكّتي".

قالت دانا: "هل سيتمّ طردي؟" ردّت السفارة: "ينبغي ذلك، لكن لنر ما سيحدث". أطفأت دانا هاتفها ووضعت على مكتب السفارة.

قالت السفارة، وهي تدفع بوثيقة عبر سطح المكتب: "ستحتاجين إلى التوقيع على هذه الوثيقة".

تفحّصت دانا الوثيقة وقالت: "لا أفهم". "إنّها اتفاقية عدم إفشاء. وبموجبها، لا يجوز لك مناقشة ما سأخبرك إياه الآن مع أحد".

فقالت دانا: "بالتأكيد، سيدي. لكنني لست متأكّدة من وجوب توقيع شيء من هذا القبيل من دون—"

"هل تودّين أن يُراجعه مايكل نيابةً عنك؟" تبا. كانت السفارة بارعة في الوصول إلى صلب الموضوع. وهكذا، ما كان من دانا إلا أن تناولت القلم ووقّعت على اتفاقية عدم الإفشاء.

قالت السفيرة: "آنسة دانيك، زيارتك إلى فندق فور سيزنز كانت مُتهوِّرة... ومؤسِّفة. لم يكن ينبغي لك أن تري ما رأيته".
خَمَنْتُ ذلك أنا أيضًا، عندما رفعت تلك المرأة فوهة مسدِّسها في وجهي. قالت دانا:
"سيِّدتي، يسعدني أن أنسى ما رأيته وأتابع ببساطة—"
قاطعتها السفيرة مُجدِّداً: "فلنكن صريحتيْن؛ أنتِ لن تنسي ما رأيته. ولهذا، لم تركي لي خياراً سوى إفهامك حقيقة ما رأيته".

الفصل 55

جلس لانغدون على المقعد الأخير من قطار بترين الجبلي المُعلّق، بينما كان القطار شبه الخالي يهبط المُنحدر الحاد. وبعد أن أيقن أنّه أفلت من پافيل - حاليًا على الأقل - أغمض عينيه، وأخذ نفسًا عميقًا؛ مُحاولًا استيعاب ما حدث.

من الواضح أنّ من استدرجه إلى برج بترين كان يعلم أنّ كاثرين مَفقودة. كاثرين معي. وسواء أكان محتوى تلك الرسالة صحيحًا أم لا، فقد بدا من المُحتمل تمامًا الآن أن يكون الهدف منها عزل لانغدون... أو ربّما عزل ساشا.

شعر لانغدون بالذنب لأنّه ترك الشابة الروسية وحيدة من دون حماية، مع أنّ مُواجهتها مع پافيل أظهرت بوضوح أنّ ساشا فيسنا قادرة على الدفاع عن نفسها. وهي الآن مُسلّحة بمسدّس پافيل، تذكّر ذلك، مُتمنّيًا أن يكون مايكل هاريس قد وصل إلى شقّتها في تلك الأثناء. كما أمل أن يحمل هاريس بعض المعلومات عن مكان كاثرين.

ركّز لانغدون مُجدّدًا على المعلومة الوحيدة التي يملكها؛ الرسالة المُشفّرة التي أرسلتها إليه كاثرين في وقتٍ سابق من صباح اليوم عبر البريد الإلكتروني. لكن، حتّى هذا بدا بلا فائدة؛ مجرد مجموعة من الأحرف المُبهمة. ومضت الصورة في ذهنه من جديد.

BLX777C

وللتأكّد من أنّه لم يرتكب أيّ خطأ، أعاد إجراء التحويل من الأبجدية الإنوكية، لكنّه انتهى إلى السلسلة نفسها من الأحرف التي لا معنى لها.

LXXEDOC

هل تُراها أخطأت بين الجهة الأمامية والجهة الخلفية؟ فكّر في ذلك الاحتمال، مُحاولًا أن يتخيّل سبب عدم منطقيّة رسالتها.

الجهة الأمامية والجهة الخلفية - recto/verso - كانا مُصطلحين يستخدمهما رسّامو الأيقونات لتحديد الصفحة التي تجب قراءتها أولًا من كتاب مفتوح... بتعبير آخر، الاتجاه الذي يجب أن تُقرأ به لغة ما. وكانت اللغة الإنوكية لغة تُقرأ من اليمين إلى اليسار - تمامًا مثل العربية والفارسية - بعكس اللغة الإنجليزية. فهل من الممكن أن يكون التطبيق قد فشل في عكس اتجاه النصّ في أثناء التشفير؟ أو ربّما كاثرين هي التي قلبت الاتجاه عن طريق الخطأ، فتسبّبت بتشفير مزدوج أفسد النتيجة؟

أعاد لانغدون تحويل الأحرف، لكن هذه المَرّة بطريقة مَعكوسة، وسرعان ما تأكّد له أنّ حدسه كان صائبًا.

BLATTC

لقد ظهرت كلمة جديدة في ذهنه.

CODEXXL

كان *Code XXL* - الرمز XXL - أقرب بكثير إلى الإنجليزية. ومع ذلك، لم تكن لدى لانغدون أدنى فكرة عمّا تشير إليه عبارة *Code XXL*. ما الذي أغفلته بعد؟ أغمض عينيه، واسترجع السطر مُجدّدًا.

CODEXXL

فجأة، اتضح له الأمر، وأدرك خطأه. لقد وضعتُ الفراغ في غير موضعه... لم تكن كاثرين تقصد CODE XXL... بل CODE XL. وكان هذا تلميحًا يفهمه تمامًا؛ وكذلك كاثرين. فـ "Codex XL" كانت إشارة مرجعية واضحة لقطعة أثرية غامضة موجودة هنا، في قلب براغ. وقد سبق لهما أن زاراهما أمس فقط.

المخطوطة الضّخمة!

كان هذا الكتاب - المعروف رسميًا باسم Codex Gigas - تحفة غامضة ذات تاريخ غريب، يدّعي البعض أنّه مسكون. كان أكبر مخطوطة في العالم؛ إذ يبلغ ارتفاعها نحو متر، وعرضها قرابة ستين سنتيمترًا، ويصل وزنها إلى خمسة وسبعين كيلو غرامًا. تُعرّض المخطوطة عادةً في المكتبة الوطنية السويدية، لكنّها معروضة حاليًا في مكتبة كليمنتينوم هنا في براغ على سبيل الإعارة. وفي أثناء زيارتهما المعرض يوم أمس، أخبر لانغدون كاثرين أنّ لهذه المخطوطة أكثر من اثني عشر اسمًا تاريخيًا مختلفًا، حتّى إنّ أحد طلابه أطلق عليها اسمًا ساخرًا مُختصرًا، "Codex XL"، في إشارة إلى ضخامة حجمها.

وفيما كان القطار يهبط من الجبل، أدرك لانغدون أنّ رسالة كاثرين المُشفّرة بذكاء كان يُفترّض أن توفر له بعض الوضوح، لكنّها - بدلًا من ذلك - فتحت أمامه بابًا جديدًا من الأسئلة. هل تخشى أن يقرأ أحدهم رسائلها الإلكترونية؟ أم إنّها تحاول تذكيري بشيء عن ذلك الكتاب... أو ربما بشيء حدث هناك أمس؟

استعاد لانغدون في ذهنه مشهد المعرض الذي زاراه. كانت المخطوطة الضخمة التي لا تُقدَّر بثمن محفوظة في خزانة عرض ضخمة، مُقاومة للرصاص والنار، داخل مكتبة كليمنتينوم، على بُعد ميل تقريباً من مكانه الحالي. وكان قد شاهد هذه المخطوطة للمرة الأولى قبل أعوام، في السويد، في مكتبة كونغليغا. لكن حين علم بوجودها في جولة مُوقَّعة في براغ، أصرَّ على اصطحاب كاثرين لرؤيتها.

قال لها بحماسة وهما واقفان أمام ذلك المُجسَّم المهيِّب: "تعني عبارة Codex Gigas حرفياً الكتاب العملاق". وأشار إلى طرفه السميكة مُتابعاً: "غلافه مصنوع من ألواح خشبيَّة، ويضمُّ أكثر من ثلاثمئة صفحة من الرقِّ المصنوع يدوياً، والمُستخرج من جلود مئة وستين حماراً. كُتبت الصفحات بخطَّ دقيق، وتتضمَّن نصوصاً دينيَّة باللغة اللاتينيَّة، بالإضافة إلى نصوصٍ طبَّية وتاريخيَّة، ونصوص غامضة—"

قالت وهي تبتسم وتشدُّ على يده برفق: "توقَّف يا روبرت، فقد أسرتني منذ أن ذكرت الحمير المئة والسِّتين!"

فضحك مُجيباً: "كما ترين، أنا أستمع بتدريس هذه المادة".
فقبل شهر واحد فقط، وفي صفٍّ جامعيٍّ بعنوان التذهيب: فنَّ المخطوطات الوسيطة، عرض لانغدون عدَّة شرائح تتعلَّق بهذه المخطوطة، بدأها بأشهر صفحاتها.
قال وهو يعرض رسماً غريباً لـ"شيطانٍ بقرتَين يجلس القرفصاء على نحو أخرق": "هذه الصفحة رقم 290، ومن هذه الصفحة تحديداً، استمدَّ الكتاب أقدم ألقابه".
قال أحد نجوم لاعبي اللاكروس في هارفارد مازِحاً: "شيطان المثرر؟"
وانفجرت القاعة بالضحك.

أجاب لانغدون بصبر: "محاولة طريفة يا فتى، لكنَّ الاسم هو المخطوطة الضخمة. فالصورة تُظهر الشيطان مُرتدياً مِزْراً من فرو القاقم، وهو رمز الملكيَّة".

علَّقت إحدى الطالبات: "مهلاً... هل يعني هذا أنَّ الشيطان يظهر هنا كملك؟"
قال لانغدون مُبتسماً: "أحسن، ملاحظة ذكيَّة. فالصورة تحمل بالفعل دلالة غير مألوفة، لكنَّ لهذه الوثيقة قصَّة أكبر، وظهور الشيطان عاملٌ مؤثِّر فيها. وبحسب الشائعات، فإنَّ هذه المخطوطة الضخمة كُتبت في ليلة واحدة، على يد راهب واحد، تمكَّن من إنجاز هذه المهمة المُستحيلة".

قال لاعب اللاكروس: "هل بإمكان الشيطان مساعدتي في الامتحانات النصفية؟"
ردَّ عليه لانغدون مازِحاً: "سوف أُسكتك بالطريقة نفسها التي أُسكت بها هذا الراهب؛ الموت حبساً خلف الجدران".

نظر إليه الطالب بدهشة، فعرف لانغدون أنه لم يسمع بهذه العقوبة من قبل. "هل سمع أحدكم بذلك؟" سألهم وهو يجول بنظره في القاعة. "لا؟ في الواقع، لم تُعد النظم القضائية الحديثة تستخدم هذه العقوبة لأنها قاسية للغاية. فالكلمة مُشتقة من أصل لاتيني in murus، وتعني..."

توقّف هنيهة وسأل: "من يجيب؟"

قال أحدهم: "أتعني داخل الجدار؟"

"صحيح. الحبس داخل الجدار حرفياً."

قالت طالبة: "هذا مُقرّر... يشبه قصة برميل أمونيتا دو."

"بالضبط". أوما لانغدون برأسه مسروراً لأنّ طلاب هارفرد ما زالوا يقرأون لإدغار آلن بو.

سأله طالب آخر: "وهل حسوه بسبب رسمه للشيطان؟"

أجاب لانغدون: "لا، بل بسبب خرقه لنذره الرهبانيّ بالعفة. لكن، بحسب الرواية، وقبل وضع الطوبة الأخيرة في الجدار، توسّل الراهب وطلب الرحمة، فعرض عليه رئيس الدير فرصة للخلاص. ترك مكان الطوبة الأخيرة خالياً، وأخبره بأنه سيُطلق سراحه إن ألف في ليلة واحدة كتاباً يحتوي على كلّ معارف العالم."

تمتم أحدهم ساخراً: "يا له من عرض سخّي!"

تابع لانغدون: "نعم، لكن في صباح اليوم التالي، حين عاد رئيس الدير وأطلّ من الفتحة، وجد السجين جالساً فوق مخطوطة ضخمة. فأطلق سراح الراهب على الفور - غالباً بدافع الرعب - وأصبحت "المخطوطة الضخمة" على الفور تحفة لا تُقدّر بثمن. سُرق الكتاب في بداياته، وتمّ استرجاعه، ورُهن عدة مرّات، ليصبح في النهاية ملكاً للرهبان السيستريين في سيدليك. ربّما سمعتم بهم؟ إنهم مشهورون ببناء... هذا."

وانتقل إلى الشريحة التالية، وكما في كل مرة، أجفل كلّ من في القاعة.

قال أحدهم مصعوقاً: "ما... هذا... حباً بالله؟"

كانت الصورة المعروضة لمذبح مصنوع من عظام بشرية، تتدلى فوقه ثياباً من العظام البشرية أيضاً، وتحيط به أربعة أهرامات ضخمة من الجماجم البشرية وعظام الفخذ، وكل ذلك داخل كنيسة جدرانها وسقفها مغطاة بالكامل بعظام الموتى.

قال لانغدون: "إنّها مُستودع عظام الموتى في سيدليك، كنيسة العظام. تحتوي على هياكل عظمية لما يُقدّر بسبعين ألف شخص، معظمهم من ضحايا الموت الأسود. إذا زرتهم جمهورية التشيك يوماً ما، فهي تستحقّ الزيارة؛ إنّها تقع على بُعد نحو خمسين ميلاً خارج براغ، والموقع مُذهّل."

تمتم أحدهم: "ومُقرّر للغاية."

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال لانغدون: "Memento mori، تذكر أن الموت قادم... وعش حياة طيبة".

ثم مضى يشرح كيف نُقلت المخطوطة الضخمة من سيدليك إلى براغ عام 1594، ووُضعت في مكتبة الإمبراطور رودولف الثاني. بقيت هناك حتى عام 1648، حين استولى عليها السويديون ضمن غنائم الحرب، ونُقلت إلى المكتبة الملكية السويدية في ستوكهولم لتظل هناك إلى الأبد.

وختم لانغدون حديثه: "لثلاثة قرون ونصف، عرض السويديون المخطوطة تحت حراسة مسلحة. ثم في عام 2007، وبضغط من الحكومة التشيكية، أعيدت المخطوطة مؤقتًا إلى براغ لعرضها ضمن معرض استمر أربعة أشهر في المكتبة الوطنية التشيكية، وحضر خلاله أكثر من مئة ألف شخص لرؤية المخطوطة.

تمتم لاعب اللاكروس: "كم هم كثر أولئك السذج".

فَصَل لانغدون عدم ذكر الملايين الذين عبروا القارات والمحيطات لرؤية ما يُقال إنها أعاجيب، مثل كفن تورينو في لورد، أو تماثيل "العذراء الباكيا" المُنتشرة حول العالم. فلطالما كانت الأعاجيب والغموض وقودًا للأمل... أو كما يحب لانغدون أن يُسميها أحيانًا، "مُلطّفات الواقع".

قال لانغدون: "لكن مهما يكن رأيكم بأصل هذا الكتاب، ثمة أسرار أخرى مهمة فيه. فإحدى أكثر السمات الغامضة في Codex Gigas هي الجودة الاستثنائية للخط. إذ قام أكثر من اثني عشر خبيرًا في الخطوط بفحص المخطوطة خلال القرن الماضي، وأجمعوا على أن الكتاب بأكمله كُتب بيد واحدة، من قبل ناسخ واحد".

انتظر لانغدون ليتسنى لهم استيعاب ما قاله، لكنّ جملة لم تلقَ الصدى المرجو. فحثهم قائلاً: "يا جماعة! كتاب بهذه الضخامة والتعقيد كان سيستغرق إنجاز ما يُقدَّر بخمسين عامًا".

ردّ أحدهم: "هذا أفضل من الادّعاء أنّه أُنجز في ليلة واحدة".

قال لانغدون: "أنفق معك، لكنّ المنطق يشتمل على مشكلة كبيرة. ففي القرن الثالث عشر، كان معدل العمر المُتَوَقَّع لا يتجاوز ثلاثين عامًا، وإتقان المهارة الفنيّة المعروضة في هذا الخطّ والرسوم التوضيحية كان سيستغرق نصف هذه السنوات على الأقلّ. والأغرب من ذلك، أنّ المُتخصّصين يؤكّدون أنّ فنّ الخط مُتَسِّق بطريقة مذهلة في مُجمل الكتاب، من دون أيّ تدهور من بداية المخطوطة إلى نهايتها... ومن دون علامات تعب، أو ضعف في الرؤية، أو تراجع في الحركة، أو شيخوخة، أو خرف. كلّ هذه العوامل مُجمّعة تطرح أمامنا لغزًا يُعدّ مستحيلًا من الناحية التقنيّة".

ساد الصمت في القاعة.

أخيرًا، سأل أحدهم: "وأنت، يا بروفيسور... ماذا حدث برأيك؟"
فكّر لانغدون طويلًا، ثم قال بصدق: "لا فكرة لديّ. فالتاريخ مليء بالحالات الشاذّة
غير القابلة للتفسير، وهذه واحدة منها".

قال طالب يجلس في الصفّ الأماميّ بصوت هادئ: "لهذا السبب أدرس الفيزياء".
ضحك لانغدون وقال: "أكره أن أثبط عزيمتك، لكنّ العلم لا يجيد كثيرًا تفسير
الغرائب. ربّما يمكنك أن تشرح لنا مثلاً تجربة الشقّ المزدوج؟ أو مشكلة الأفق؟ أو قطّة
شروودنغر—؟"

فاستسلم الطالب عن طيب خاطر قائلاً: "أنا أنسحب!"

قال لانغدون وسط ضحك الحاضرين: "إنّها علامات على حياة ذكيّة، في النهاية. على
أيّ حال، في عام 2007، حين أرسلت المخطوطة المَسروقة إلى براغ، خشي السويديّون ألاّ
تعيدها الحكومة التشيكيّة، لكنّها أعادتها كما وعدت، وأصبحت هذه البادرة الإيجابية سببًا
في الاتفاق على أن تزور نسخة "المخطوطة الضّخمة" مدينة براغ لمدة ستّة أشهر مرّة كلّ
عشر سنوات، شرط ألاّ يتمّ إخراجها بتاتًا من خزنتها الزجاجةيّة مُحكّمة الإغلاق".

وصل القطار الجبليّ إلى أسفل تلّ بترين، وتوقّف باهتزازة خفيفة. فنظر لانغدون إلى
الأعلى، وهو لا يزال يُفكّر في المخطوطة وفي رسالة كاثرين. كانت الرسالة تُلمّح بوضوح
إلى ضرورة عودته إلى "المخطوطة الضّخمة"... لكنّه لم يجد سببًا منطقيًا يدفعها إلى طلب
ذلك.

إلاّ إذا...

هل يُعقل أن تكون كاثرين هناك، بانتظاري؟

الفصل 56

يُعدّ جسر جورج واشنطن أكثر جسور السيارات ازدحامًا في العالم. ويربط مُنحدرات نيو جيرسي شديدة الانحدار بشواطئ نيويورك، وتوفّر مساراته المروريّة الأربعة عشر ممرًا آمنًا لأكثر من مئة مليون مرّكبة سنويًا.

مع ذلك، هذا اليوم، في ظلام ما قبل الفجر، كان جوناس فوكمان العابر الوحيد تقريبًا؛ وهو ينطلق بسرعة صاروخية نحو مانهاتن بسيارته رباعيّة الدفع المَسروقة. حوّل نظره مرارًا وتكرارًا إلى مرآة الرؤية الخلفيّة، باحثًا عن أيّ إشارة تدلّ على أنّه مُلاحق. فقد كان يأمل أن يصل إلى برّ الأمان نسبيًا في برج راندوم هاوس؛ قبل أن يُبلّغ أحدهم عن اختفاء هذه السيارة.

كان فوكمان قد تلقّى خبرًا مُرعبًا آتيا من براغ، عن طريق أليكس؛ التقنيّ في شركة النشر. ولم يكن في وسعه سوى الدعاء كيلا يكون ما اكتشفه فنيّ المعلومات صحيحًا. قال في سرّه: "أيعقل أن يكون الاكتشاف الذي تحدّثت عنه كاثرين في كتابها يستحقّ القتل؟" ثمّ راح يستعيد ما شرحته له في جلسة الغداء في نيويورك عن نظريّتها حول الوعي. كانت نظريّة جريئة حتمًا، وخارجة تمامًا عن النموذج الفكريّ السائد، لكنها لم تبدّ له خطرة بأيّ شكل من الأشكال.

قالت كاثرين: "تُدعى النظرية 'الوعي غير الموضوعي'، وتنطلق من فرضيّة أنّ الوعي ليس مُتمركزًا في الدماغ، بل هو موجود في كلّ مكان، أي إنّ الوعي يسري في أرجاء الكون، ويُعتبر في الواقع من اللبّات الأساسيّة التي يتكوّن منها العالم". فردّ فوكمان، وقد بدأ يجد صعوبة في متابعتها: "حسنًا..."

تابعت قائلة: "في هذا النموذج غير الموضوعي، لا يقوم الدماغ بتوليد الوعي، بل يختبر ما هو موجود أصلًا من حوله"، ثمّ نظرت إلى فوكمان ولانغدون بالتناوب، قبل أن تتابع: "بكلمات مُبسّطة، تتفاعل أدمغتنا مع مصفوفة وعي موجودة أساسًا".

فقال فوكمان وقد بدت عليه الحيرة: "أهذه لغة مُبسّطة؟"

قال لانغدون: "أنت محظوظ، فهي قادرة على إفساد غداثنا إن حاولت شرح النموذج الدواميّ ثلاثيّ الأبعاد".

عقبت كاثرين مازحة: "أحقًا يا روبرت؟ أيعقل ألاّ يتمكّن رجلٌ بقدراتك الفكرية من فهم واقع حجميّ كموميّ، مُكوّن من تسعة أبعاد، ومُدّج في استمراريّة لا نهائية؟!"

قال لانغدون وهو ينظر إلى الأعلى: "أرأيت؟"

قال فوكمان وهو يرفع يديه مازحاً: "مهلاً أنتما الاثنان... هذا ليس وقت الشجار".

أعاد لانغدون ملء الكؤوس، بينما تابعت كاثرين: "إليك طريقة أكثر تبسيطاً لفهم الأمر، انظر إلى مُكَبِّر الصوت هذا"، وأشارت إلى مُكَبِّر صوت لاسلكي مُصَغَّر موضوع على رفٍّ مجاور، يبتّ موسيقا كلاسيكية، وقالت: "لتخيل أنّ موزارت انتقل إلى زمننا فجأة، وجلس معنا الآن إلى هذه الطاولة. سيرى هذا المُكَبِّر، وسيندهش عند سماعه الموسيقى وهي تصدر من هذا الصندوق الصغير. ففي عالمه، لم تكن ثمة تسجيلات، بل تُعرَف الموسيقى مباشرة، بحضور أوركسترا. وعند رؤيته هذا الجهاز، سيُرجّح أنّ ثمة أوركسترا مُخْتبِئة خلف الجدار، أو حتّى أوركسترا مُصَغَّرة داخل الصندوق نفسه، ولن يتمكن من تصوّر أيّ خيارات أخرى. ولن يخطر بباله إطلاقاً أنّ الموسيقى تحوم حولنا بصمت على شكل موجاتٍ لاسلكية، وأنّ هذا المُكَبِّر يلتقطها فحسب".

نظر فوكمان حوله وكأنّه يحاول تخيل الغرفة مليئة بالموجات غير المرئية، فيما تابعت كاثرين قائلة: "قد نحاول شرح واقعنا له، لكنّ ذهنه سيفتقر إلى المرجعيّات اللازمة لفهمه؛ فحتّى أوّل تقنيّة بدائيّة للتسجيل لم تُكتشف إلّا بعد قرن من وفاته. ما أودّ قوله هو أنّنا جالسون الآن هنا حول هذه المائدة، في قلب مانهاتن الحديثة، ومع ذلك، فإنّ شرح الوعي غير الموضوعيّ لكما يُشبه محاولة شرح الموجات اللاسلكية لموزارت. ففي عالمه، لا تنشأ الموسيقى إلّا حين يعزفها الموسيقيّون عزفاً حيّاً، ولا وجود لاحتمالات أخرى".

خيّم الصمت على المائدة للحظة، بينما كان الرجلان يحاولان استيعاب تلك الأفكار. بعد ذلك، تابعت كاثرين وهي تميل نحوهما قليلاً: "لكن في واقعنا... الأمر مختلف. ففي عالم الوعي غير الموضوعيّ، الموسيقى تُحيط بنا في كلّ مكان، وما تفعله أدمغتنا هو أنّها "تضبط التردّد" فحسب لتتمكّن من سماعها".

فكّر فوكمان مُطوّلاً، ثمّ قال: "أيعني هذا أنّ الوعي أشبه بخدمة بَثّ تشترك فيها أدمغتنا؟" "تقريباً... بل هو أشبه بقرص راديو هائل إلى حدّ لا يُقاس. تخيل الوعي كسحابة لا نهائية من موجات الراديو في هذه الغرفة، ودماعك جهاز استقبال... مضبوط على تردّد فريد، تردّد يحمل في حالته اسم محطة جوناس فوكمان".

قطّب فوكمان حاجبيه وقال: "أعرف أنّني سأبدو مثل موزارت، لكنّ هذا يبدو... مُستحيلًا".

قال لانغدون: "لا أملك. لكن، إن أردنا أن نكون مُنصفين، فعلينا أن نُقرّ بأنّ عددًا كبيرًا من الاكتشافات العلميّة اعتُبرت مُستحيلة في بداياتها؛ مثل دوران الأرض حول

الشمس، وكروية الأرض، والنشاط الإشعاعي، وتمدد الكون، ونظرية الجراثيم، والوراثة غير الجينية، وغيرها كثير... فعلى مر التاريخ، بدأ كثيرٌ من الحقائق العظيمة كمستحيلات. وإن لم يكن بمقدورنا أن نتخيل حاليًا صحة أمر كهذا، فهذا لا يعني أننا لن نراه يتحقق أمانًا. فالإغريق مثلاً، أعلنوا أن الأرض كروية قبل نحو ألفي عام من مجيء نيوتن الذي شرح بدقة أن المحيطات لا تنسكب في الفضاء بفضل الجاذبية.

قال فوكمان مُبتسمًا: "لقد أقنعتني. لم يكن يجدر بي مُجادلة بروفيسور في هارفرد".
قالت كاثرين: "ما يعنيه روبرت - حسب ما أعتقد - أنه في حين أننا ما زلنا نكتشف طريقة عمل الوعي غير الموضوعي، إلا أننا مع ذلك أثبتنا أن هذه النظرية تزودنا بتفسيرات واضحة لعدد كبير من الظواهر التي نعجز عن فهمها وفقًا للنماذج الحالية".
"حسنًا..."

تابعت كاثرين: "والأهم، أنك - خلافًا لموزارت - تعيش في عالمٍ تتفاعل فيه يوميًا مع نموذج مُشابه جدًا".

"مُشابه للوعي غير الموضوعي؟! لم يرَ في الواقع أي شيء مُشابه في حياته اليومية."
قالت كاثرين: "ماذا لو قلتُ لك إنني أستطيع تخزين كلِّ معلومات العالم في وعاء بحجم رزمة أوراق لعب؟ هل تعتبر كلامي صحيحًا أم خاطئًا؟"
أجاب فوكمان: "مستحيل، هذا خاطئ بالتأكيد".

فرفعت كاثرين هاتفها المحمول وقالت: "كلُّ شيء موجود هنا، ما الذي تريد معرفته؟"
ابتسم فوكمان وقال: "ملاحظة ذكية... لكنَّ هذه المعلومات ليست داخل الهاتف فعليًا، بل إنَّ الهاتف يتصل ببيانات مُخزَّنة في عدد لا يُحصى من الخوادم حول العالم".
قالت: "بالضبط". وشعر بأنها تستدرجه إلى... شيء ما. تابعت: "ملاحظتك دقيقة. والآن، ماذا لو قلتُ لك إنني أستطيع تخزين ملايين الغيغابايتات من البيانات داخل كتلة صغيرة من النسيج البشري، بحجم... لنقل... دماغ إنسان؟"

قطب فوكمان حاجبيه. لقد أثبتت وجهة نظرها بسرعة؛ كش ملك بثلاث نقلات.
قالت بثقة: "إنه المفهوم نفسه. فالقدرة التخزينية التي لا تُصدَّق للدماغ البشري استحالةٌ فيزيائية، كما لو أنك تحاول تحميل كلِّ أغاني العالم في هاتفك. لا معنى لذلك، إلا إذا..."
أقر فوكمان بوجهة نظرها قائلاً: "إلا إذا كان الدماغ يستمد المعلومات من مكان آخر".
قال لانغدون وقد بدا عليه الانبهار بالفكرة: "بطريقة غير موضعية".

ابتسمت كاثرين وأردفت: "بالضبط. فدماغك ليس سوى جهاز استقبال - جهاز بالغ التعقيد، وفائق التقدم - يختار الإشارات التي يريد استقبالها من سحابة الوعي الكوني

المُحيطة بنا. وتماثراً مثل إشارة "اي فاي"، فإنّ هذا الوعي الكونيّ موجود دومًا حولنا، كاملٌ غير متقوص، سواء أقررت الوصول إليه أم لا".

قال لانغدون، وقد بدأ يرى عِدّة أوجه شبه لهذه الفكرة عبر التاريخ: "لا شك في أنّ القدماء شعروا بذلك أيضًا. فمعظم التقاليد الروحية حول العالم اعتقدت بوجود وعي كونيّ: الحقل الأكاشي، والعقل الكونيّ، والوعي الكونيّ، هذا على سبيل المثال لا الحصر".

قالت كاثرين: "بالفعل! فهذه النظرية تتقاطع مع بعض من أقدم معتقداتنا الدينية". هكذا، مضت قدّمًا لتشرح كيف أنّ مفهوم الوعي غير الموضوعيّ بات يحظى بدعم مُتزايد من اكتشافات علمية في مجالات مُعدّدة، مثل فيزياء البلازما، والرياضيات غير الخطية، وأثروبولوجيا الوعي. كما بدأت مفاهيم جديدة، مثل التراكب والتشابك، تكشف أنّ الكون فيه كلّ شيء، في كلّ زمان، وكلّ مكان. بعبارة أخرى، إنّ للكون الذي نعيش فيه طبيعة مُوحّدة، أو كما وصفها عنوان أحد الأفلام، الفائز بجائزة أوسكار مؤخرًا: كلّ شيء، في كلّ مكان، وفي آنٍ واحد.

تابعت كاثرين: "ما يثير الدهشة حقًا هو أنّ هذا النموذج الجديد يُقدّم تفسيرات منطقية لكلّ الظواهر الخارقة التي حيّرت النموذج التقليديّ طويلًا، مثل الإدراك الحسيّ الفائق، ومُتلازمة العبقريّ المُفاجئ، والعمى البصريّ⁽¹⁾، وتجارب الوعي المغايرة... والقائمة تطول".

قال فوكمان مُتحدّيًا: "لكن، كيف يمكن لأيّ نموذج أن يُفسّر حالة وليدٍ عاديّ، يتلقّى ضربة على الرأس، فيستيقظ عبقرياً في عزف الكمان؟" "حسنًا، هذا يحدث فعلاً. وقد تمّ توثيق متلازمة العبقريّ المفاجئ طبيًا في حالات عِدّة".

ضحك وقال: "نعم، قرأت عنها، وقررتُ تجاهلها!" قالت كاثرين: "بالضبط... هذه طريقتنا نحن البشر في التعامل مع الظواهر التي لا تتناسب مع واقعنا؛ إذ نتجاهل الحالات الشاذة بدلًا من الاعتراف بأنّ نموذجنا خاطئ من أساسه".

"وهل ترين أنّ الوعي غير الموضوعيّ يُفسّر كلّ هذا؟ هل يفسّر كيف يمكن لشخص تعرّض لحادث أن يبدأ فجأةً بتكلّم لغة الماندرين الصينية بطلاقة؟" هزّت رأسها مؤكّدة: "نعم، إذا كان الدماغ جهاز استقبال، فتخيّله كراديو قديم يُضبط باستخدام قرص يدويّ. أنت تضبطه عادة على محطة روك كلاسيكيّ، وتسمع بشأ واضحًا

(1) حالة عصبية يتمكّن فيها الشخص من إدراك موقع جسم ما رغم عجزه عن الرؤية القشرية.

لمحتوى مألوف. وذات يوم، تمرّ فوق حفرة في الطريق، فيهتزّ الجهاز قليلاً، وينزاح المؤشر. وفجأة، تبدأ بسماع موجتين معاً؛ موسيقا روك مع صوت مُذيع أخبار إسبانيّ من محطة مُختلِفة تماماً".

بدت الحيرة على وجه فوكمان، فيما واصلت كاثرين شرح وجهة نظرها قائلة: "دعنا ننظر إلى الأمر بالطريقة التالية: إلّا ما نحتاج لتصبح عازف كمان عبقرياً؟"
قال: "التمرّن".

"ولتصبح لاعب غولف مُحترفاً؟"
قال: "التمرّن".

قالت كاثرين: "وكيف يُحسّن التمرّن أدائك في لعبة الغولف؟"
"يساعد على تطوير ذاكرة العضلات، ويحسنّ ضربة العصا".

قالت كاثرين: "خطأ، لا وجود لما يسمّى بذاكرة العضلات؛ إنها عبارة مُتناقضة. فالعضلات لا تمتلك ذاكرة. في الواقع، حين تتمرّن، فأنت تقوم بضبط دماغك بدقة... تُعيد برمجته تدريجياً ليستقبل المعلومات بوضوح وثبات أكبر من وعي كونيّ شامل، فيتمكّن بدوره من إصدار أوامر دقيقة لعضلاتك كي تنقبض بنمط مثاليّ لأداء حركة معيّنة".

قطّب فوكمان حاجبيه وقال: "أتعنين أنّ ثمة محطة غولف في الوعي الكونيّ؟"
"ما أعنيه هو أنّ كلّ شيء موجود هناك أساساً... والتمرين يساعد على توضيح الإشارة التي يستقبلها دماغك. هذه هي الطريقة التي نصبح بها أكثر براعة؛ فنحن نكتسب تدريجياً إشارة جديدة مُحَدّدة. علماً أنّ بعض الأدمغة تولد وهي مُبرمجة مُسبقاً لاستقبال إشارات مُعيّنة، ولهذا نجد رياضيين خارقين، وفنانين مُبدعين، وعابرة في مجالاتهم".
"مفهوم..."

"والأمر نفسه ينطبق على كثيرين ممّن يعانون من متلازمة أسبرجر أو التوحد. إذ من شأنهم امتلاك مستقبلات شديدة التخصص تمنحهم مهارات مُذهلة، ولكنّها - في الوقت نفسه - تجعل أداء المهام اليوميّة البسيطة أمراً بالغ الصعوبة بالنسبة إليهم. فالأمر أشبه بوضع منظار مُقرّب بدلاً من نظارة طبيّة؛ يمكنك أن ترى أبعد من الجميع... لكنّ ما حولك يبدو زائغاً".
تأمل فوكمان في الأمر. منظور فريد حقاً.

سألها: "وهل تعنين أنّ هذا النموذج يُفسّر أيضاً الإدراك الحسيّ الفائق؟"
أجابت كاثرين: "تماماً. فالحاسة "الإضافيّة" التي ننسبها إلى الإدراك الحسيّ الفائق ليست سوى دماغ يلتقط معلومات تتمّ تصنيفها عادةً. ووفق هذه النظريّة، عندما تشعر بحدس أو إحساس داخليّ، فذلك يشبه تماماً جهاز الراديو الذي يلتقط موجة سريعة من بثّ

محطة أخرى غير التي يلتقطها عادة. وفي بعض الحالات، إذا التقط الدماغ إشارات متعددة بوضوح تام، فإن التجربة قد تصبح مربكة بشدة، بل مُدمرة نفسياً. وهذا ما يُفسّر الفصام، واضطراب الهوية التفارقي، والأصوات في الرأس، وتعدد الشخصيات؛ فكلها يمكن تفسيرها من خلال هذا النموذج.

تدخل لانغدون قائلاً: "مثير للاهتمام. وماذا عن التجارب الغامضة الأخرى؟" أجابت: "في بعض الأحيان، ترتد موجات الراديو داخل الغلاف الجوي، فتولد أصداً وتأخيرات زمنية. ووفقاً لهذا النموذج، تتجلى هذه الظاهرة في أذهاننا على هيئة إحساس تمّ اختباره سابقاً (déjà vu)، أو بالعكس".
جلس فوكمان صامتاً هنيهة، يُثقل نظره بين لانغدون وكاثارين. أخيراً، قال مُبتسماً: "أظنّ أنّ ليلتنا ستطول".

الآن، بعد مرور عام على ذلك الحديث، عاد وعي فوكمان - أيّا كانت طبيعته - إلى الطريق المُمتدّ أمامه. وبينما هو يقود سيارته فوق المسلك العلويّ من جسر جورج واشنطن، لم يكن متأكّداً من القناة التي يتّصل بها دماغه الليلة، لكنّها بالتأكيد قناة غريبة.
حين اقترب من منتصف الجسر، أنزل النافذة ليُنقذ ما طلبه منه فتّي الشركة. إذ قال له أليكس: "تخلّص من هاتفك، فثمة احتمال كبير بأن يكون تحت المراقبة".
بتردد، رمى فوكمان الهاتف في ظلام الليل، فطار فوق الحاجز الحديديّ وبدأ هبوطاً حُرّاً من ارتفاع 212 قدماً، باتجاه نهر هدسون.

في أثناء سقوط الهاتف، استعاد فوكمان في ذهنه الكلمات الأخيرة التي قالها الفتّي: "حاول العودة إلى هنا بأسرع ما يمكن... فقد اكتشفتُ من اخترق نظامنا".

الفصل 57

انفتحت أبواب القطار الجبلي المائل أسفل تلة بترين، وترجل منه لانغدون ليجد نفسه في محطة أويزد، وهي محطة تقاطع مُزدحمة - على نحو مُستغرب - بسيارات الأجرة والحافلات وعربات الترام. وحرصًا منه على إبقاء مسافة تفصله عن الملازم بافيل، راح يفكر في خياراته.

في الواقع، انتهت رحلتاه الأخيرتان بسيارة الأجرة على نحو سيئ، فقرّر أن الترام قد يكون الخيار الأكثر أمانًا، ولا سيّما أنّه يُتيح له أن يضيع وسط الزحام. كان الترام رقم 22 هو الوحيد الذي اصطفّ الناس لركوبه، ووفقًا للآفة المثبتة على واجهته الأمامية، كان مُتجهًا نحو وسط براغ.

نحو كليمتينوم...

كان لانغدون يود كثيرًا أن يصدّق أنّ رسالة كاثرين المُشفّرة كانت نداءً للقائه في المكان الذي تُعرّض فيه "المخطوطة الضخمة"، لكنّه انتبه إلى مشكلة صغيرة؛ فقد أرسلت كاثرين بريدها الإلكترونيّ قبل أكثر من ساعتين، أي قبل افتتاح المتحف بوقت طويل. ومن المعروف أنّ المتاحف في براغ لا تفتح أبوابها عادةً قبل العاشرة صباحًا، أي بعد بضع دقائق. تُرى، هل كانت تنتظر في الخارج طوال هذا الوقت؟

على الرغم من الشكوك التي كانت تعصف بلانغدون، إلّا أنّه استقلّ الترام رقم 22، وتوجّه نحو المتحف الذي يحتضن "المخطوطة الضخمة". وبينما كان يعبر النهر، راوده الأمل بأن يعثر على ضالّته - كما حدث معه مرارًا من قبل - بمعونة كتاب عتيق.

* * *

حين عاد الملازم بافيل إلى سيارته المركونة عند قاعدة برج بترين، كان رأسه ينبض بألم شديد، حتّى إنّ رؤيته كادت تتشوّش. فجلس خلف المقود، وأغمض عينيه، وراح يفكر في خطواته التالية.

كان يشعر أنّه بحاجة إلى الذهاب إلى المستشفى، لكنّ مطاردته لانغدون بدت له أكثر إلحاحًا من أيّ وقت مضى، ولم يكن مُستعدًا للاستسلام، ولا للتخلّي عن انتقامه للنيب. على الرغم من سمعة البروفيسور الأميركي بوصفه أكاديميًا هادئ الطباع، فقد تبين أنّه مُجرّم خطير وواسع الحيلة إلى درجة لا تُصدّق. ومع ذلك، يستحيل أن يستمرّ بالفرار إلى ما

لا نهاية. فصحيح أنه طليق الآن، ولكن بعد التنبيه الأزرق الذي أرسله بافيل، ستستمر المعلومات بالوصول مباشرة إلى هاتف النقيب الذي يحمله في جيبه.

مع الأسف، لن يستغرق الأمر طويلاً قبل أن تكتشف الجهات الأخرى - من جهاز الاستخبارات التشيكي، والسفارة الأميركية، والشرطة المحلية - أن لانغدون مطلوب. وسرعان ما ستتدخل هذه المنظمات، وستعامل لانغدون بلين لا يستحقه.

كان بافيل يعلم أن فرصة انتقامه تضيق تدريجياً... ولم يكن أمامه إلا سبيل واحد لتكريم ذكرى النقيب.

عليّ العثور على لانغدون، قبل أن يسبقني إليه أحد.

* * *

شهدت مُحَصَّلة التذاكر على متن الترام رقم 22 في براغ كثيراً من المواقف الغريبة خلال مسيرتها. وعادة، لم تكن تُعير اهتماماً كبيراً للسائح أخرق ينتعل حذاءً رسمياً ويرتدي سترة خفيفة في منتصف الشتاء. غير أن هذا الرجل ترجل من الترام، وعبر أمام نافذتها مباشرة، فلفت نظرها بحسن ملامحه، ولم يترك لديها أدنى مجال للشك؛ إنه الوجه نفسه الذي وصلت صورته إلى هاتفها قبل أقل من ساعة عبر "تنبيه أزرق".

الفصل 58

كان الحارس الليليّ مارك س. دُول يستمتع بعمله في برج راندوم هاوس. فمِنذ عامين، وهو يقوم بحراسة هذا المبنى، ويشعر بالفخر كلّما ارتدى سترته الزرقاء واعتمر قبعته، واحتلّ موقعه خلف مكتب الحراسة الضخم في الردهة. كان في الثامنة والعشرين من عمره، وقد وعد زوجته بالانتقال إلى الدوام النهاريّ مع بلوغه عامه الثلاثين.

أكثر ما أحبه في عمله هنا كان مكتبة الموظفين المجانيّة؛ وهي عبارة عن مخزن في الطابق السفليّ يعجّ بأعمال كلاسيكيّة وقديمة، إلى جانب الروايات العصريّة المُشوّقة. ومنذ تسلّمه الوظيفة، أنهى قراءة ما يزيد على ثلاثين كتابًا. والليّلة، كان غارقًا بين صفحات رواية *عناقيد الغضب* لشتاينبك، وهو مُمتنّ لامتهانه وظيفة يستطيع من خلالها إعالة أسرته من دون أن يتأثّر بتقلّبات الطقس.

رفع دُول نظره عن الكتاب حين توقّفت سيّارة سوداء رباعيّة الدفع بحدّة أمام المدخل الرئيس. لم يسبق له أن رأى مشهدًا كهذا، لا سيّما عند الساعة 3:48 فجرًا. والأغرب من ذلك، أنّ الرجل الذي قفز من المقعد الأماميّ لم يكن سوى المُحرّر جوناس فوكمان. لم يتذكّر دُول أنّه رآه يقود سيّارة للمجيء إلى العمل من قبل، وبالنظر إلى الطريقة الفوضويّة التي ركن بها السيارة، كان ذلك جيّدًا في الأرجح.

وقف فوكمان الآن خارج الباب الإلكترونيّ، يفتّش جيوبه بجنون. لقد سبق للحارس أن رأى هذه الرقصة من قبل... *من الواضح أنّه نسي بطاقته*. فضغط دُول على زرّ تحت المنضدة، وصدر صوتٌ عن الباب وهو يُفتّح.

اندفع فوكمان إلى الداخل، وقد بدا عليه الهلع. قال دُول: "هل كلّ شيء على ما يرام، سيدي؟" أجابه المُحرّر: "بخير، بخير"، مع أنّ مظهره كان يشير إلى العكس تمامًا. فقد بدا، بشعره الأشعث، وتعبير وجهه المُنهك، كمن أمضى الليل على الأفغانيّة في كوني آيلاند. "لقد أضعتُ حقيبتِي، وكانت بطاقتِي فيها".

قال الحارس: "هذا مؤسف. سأصنع لك بطاقة مؤقتة"، ثمّ سحب بطاقة بلاستيكيّة جديدة ووضعها في جهاز المغنطة، بينما كان فوكمان يتكئ بثقله على الطاولة، مُغمَض العينين، وهو يتنفس بعمق.

سأله دُول: "هل أنت مُتأكّد من أنّك بخير، سيد فوكمان؟"

فتح المُحرّر عينه وقال: "نعم، آسف يا مارك... كانت ليلة طويلة فحسب".
ناوله البطاقة الجديدة، وسأله: "هل تعمل على مخطوطة صعبة؟"
أوماً فوكمان إيماءة تنم عن الإنهاك، ثم توجه إلى المصعد قائلاً: "تبين أن هذه
المخطوطة أصعب مما توقعت".

* * *

في تلك الأثناء، كان العميلان أوغر وتشينبرغ قد تمكّنا من اللحاق بسيارة فوكمان
المسروقة، بعد أن تعقبا إشارة هاتفه قبل أن يُلقيه من النافذة. ومن هناك، تبعوا السيارة سرّاً
حتى توقفت عند تقاطع الجادة السادسة والخمسين مع برودواي. وهي الآن مكونة بزاوية
مائلة أمام برج راندوم هاوس.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف يتصرّفان الآن؟
أوقفا سيارتهما في الجهة المُقابِلة من الشارع، وأجرى أوغر مُجدّداً مكالمة آمنة مع
فينش، فأثاه الردّ مُقتَضِباً: "تكلم".

قال أوغر: "سيدي، فقدنا إمكانية تتبّع المكالمات الصوتية للمحرّر، لكننا اعترضنا
معلومة مُقلّقة. إذ يبدو أنّ فني دار النشر قد علم أنّ أحد الأميركيين في براغ قد مات".
سكت فينش لحظة، ثم قال بنبرة خالية من الانفعال: "ومن أين حصل على هذه
المعلومة؟"

نقل أوغر فحوى المكالمات التي دارت بين الفتي وفوكمان.
قال فينش: "هذا ليس من شأنكما. هل من شيء آخر؟"
أجاب أوغر، وكان يحتفظ بالأسوأ إلى النهاية: "يزعم الفني أيضاً أنّه عرف من يقف
خلف اختراق خوادهم".

فشهق فينش بحدة وقال: "أعطني تشينبرغ".
رفع أوغر الهاتف، ووضع على وضعية مُكبّر الصوت.
قال تشينبرغ: "سيدي، نعتقد أنّ معلومات الفني خاطئة. فهو لم يذكر أيّ تفاصيل
دقيقة، ولا نعلم ما إذا كان بالفعل على الطريق الصحيح".
سأله فينش: "هل تواصلت مع فريق الاختراق؟"

أجاب: "نعم، فعلت منذ قليل، وأكدوا لي أنّ عملية الاختراق كانت نظيفة". تردّد قليلاً
قبل أن يُضيف: "لكنهم أشاروا إلى أنّ تنفيذ العملية في ظلّ قيود زمنية صارمة دفعهم إلى منح
الأولوية للسرعة والكفاءة على حساب تدابير إخفاء الهوية المُكرّرة".

"عفوًا! هل تركوا ثغرات؟"

"لا، سيّدي، بل نفّذوا أفضل عمليّة مُمكنة ضمن الإطار الزمنيّ المُتاح. وهم على ثقة عالية من نجاحها؛ كما أكّدوا لي".

ردّ فينش بنبرة جليديّة: "ثقة عالية؟ بحسب تجربتي، هذه العبارة لا يستخدمها إلّا من يفتقرون إلى الثقة". ساد الصمت ثلاث ثوانٍ، قبل أن يتابع: "اكتشفنا ما يعرفه هذا الفنّي... واحتويا الوضع فورًا، بأيّ وسيلة تريانها مناسبة".
ثمّ قُطع الاتّصال.

رّمق تشينبرغ زميله وعلّق قائلاً: "اللعنة".

أجابه أوغر ساخراً: "ثقة عالية؟"

"كفّ عن التذاكي".

نظر أوغر عبر الشارع إلى ردهة ناطحة السحاب الشاهقة: "إن كان فينش يريد معلومات، فسيحتّم علينا الدخول".

كان يُفترَض أن تكون مهمّتهما بسيطة، تقتصر على تفعيل الميكروفون من بعد في هاتف فوكمان، والاستماع إلى المحادثة التي ستدور بينه وبين الفنّي. لكن مع الأسف، نفّذ فوكمان حركة أمنيّة ذكيّة هي الأولى له في تلك الأمسية، وها هو هاتفه الآن مُستقرّ في قاع نهر هدسون، تحت جسر جورج واشنطن.

لم يجد أوغر خيارًا آخر، فوضع عدّة أغراض في جيوب سترة العمليّات الخاصّة السوداء وحقيبة ظهره. لقد انتهى الجزء المُخصّص للتقنيّات في هذه الأمسية، وحان الوقت ليشمّر عن ساعديه.

الفصل 59

في براغ، وقفت السفارة الأميركية هايدة ناغل أمام نافذة مكتبها، تحدّق بتعب إلى فندق الكيميسست الواقع في الجهة المُقابلة من شارع ترجشتيه. كانت قد انتهت منذ قليل من إطلاع دانا دايك على تفاصيل العملية السريّة التي تورّطت فيها عن غير قصد في وقتٍ سابق من صباح اليوم، ثم أرسلتها إلى مكتبها بانتظار تعليمات لاحقة. ولم تستغرب أن تشعر دانا بالخوف ممّا عرفته.

فكرت ناغل في سرّها: لا بأس، فالخوف قد يكون السبيل الوحيد لكبح جماحها. تناهت إلى مسمعيها طرقة خفيفة على الباب، فالتفتت ورأت أحد عناصر المارينز واقفاً بزيّه الأزرق والأبيض الرسميّ. كانت فرقة الأمن التابعة لقوات البحرية الأميركية والمؤلّفة من ثمانية عناصر، جزءاً من الفريق المسؤول عن حماية السفارات الأميركية والدبلوماسيين المهمّين حول العالم.

قال الجندي: "سيدتي السفارة، لدينا حالة طارئة".
قالت في سرّها: لا تأتي المصائب فرادى... فأنا مُبتَلاة بحالة طارئة أساساً. غير أنّها أوّمأت له للدخول.

دلف الرجل إلى داخل مكتبها وقال: "سيّدي، لقد أصدر القائد ياناتشك من جهاز الاستخبارات التشيكية إشعاراً عاماً بحقّ مواطن أميركيّ"، ثم تفحص بطاقة ملاحظاته وأضاف: "اسمه روبرت لانغدون".

أغمضت ناغل عينيّها، غير مُصدّقة أنّ تهديدها بفضح ياناتشك لم يكن كافياً لإيقافه. أيّ عقل أن يغامر ياناتشك بكلّ شيء في سبيل الإيقاع بروبورت لانغدون؟ تبّاً! من الواضح أنّ تهديدها لم يكن مُقنعاً أو مُخيفاً بقدر ما تخيلت.

قال الجنديّ: "والمذكّرة من نوع التنبيه الأزرق؛ أي أنّ الجهاز يزعم أنّ لانغدون قتل أحد عناصره".

فانفجرت قائلة: "هذا محض كذب!"

تابع الجنديّ بصوت مُنخفض: "إذا لم نعرثر على لانغدون فوراً... فسيقضي عليه أحدهم".

أخذت ناغل عدّة أنفاس عميقة، ثم أوّمأت له شاكرة. "سأصدر لك التعليمات قريباً. أغلق الباب خلفك، من فضلك".

استدار الجنديّ وغادر المكتب، فيما سارعت ناغل للاتّصال بالسيد فينش عبر تطبيق سيغنال.

أجاب فينش بعد الرّنة الأولى قائلاً: "تكلّمي".
نقلت إليه مُلخّصاً سريعاً عن تدهور الوضع في براغ:
جهاز الاستخبارات يطارد روبرت لانغدون بنّيّة قتله.
كاثرين سولومون مفقودة.

الملحق هاريس توجّه إلى حصن الصليب، لكنّه لم يعد يُجيب على هاتفه.
وكما هو متوقّع، استشاط فينش غضباً: "ظننتُ أنّك تدبّرت أمر جهاز المخابرات! أيّ
عملية فاشلة تديرينها هناك؟!"

ردّت ناغل بانفعال: "إنّها عمليتك أنت! وهذه الفوضى من صنع يدك!"
وما إن تفوّت ناغل بهذه الكلمات، حتّى أدركت أنّها تجاوزت حدودها. إذ بدا صوت
فينش هادئاً على غير العادة وهو يقول: "هايده..."، مُتجنباً استخدام لقبها الرسميّ، كما لو
كان يُدكّرُها بأنّها مُجرّد بيدق في عالمه: "أنصحك بأن تتذكّري من الذي وضعك في هذا
المنصب... ولماذا".

* * *

لم تَمِ العملية الميدانيّة هاوسمور سوى أقلّ من ساعة.
وها هي الآن واقفة أمام مغسلتها، بعينين مُتعبتين، وقد استيقظت على مكالمة أخرى
من السيد فينش، أصدر فيها أوامر جديدة.

اذهبي إلى حصن الصليب فوراً، وأُمني مختبر غسنير.

كانت معرفة هاوسمور بتفاصيل عملية براغ مُجرّأة، وتنحصر بصلاحيّاتها. فصحيح
أنّها كانت تعلم أنّ غسنير شخصيّة أساسيّة في مشروع العتبة، لكنّها كانت تدرك أيضاً أنّ
المنشأة التي بناها فينش تحت الأرض تقع في مكان آخر من المدينة. لماذا يريد تأمين مختبر
غسنير إذًا؟

وبالإضافة إلى هذا الأمر الجديد، زفّ لها فينش خبراً مُفاجئاً مفاده أنّه آتٍ إلى براغ
شخصياً. وإذا كان العقل المُدبّر نفسه في طريقه إلى براغ... فهذا يعني أنّ المهمة قد خرجت
عن مسارها تماماً.

* * *

حين اجتاز الغولم ساحة المدينة القديمة، مرّ بحشد من السيّاح المُتجمّعين حول تمثال برونزيّ، يحسّسون شراباً ساخناً من أكواب بلاستيكيّة. كان صوت مرشدهم السياحيّ يجلجل من خلال مُكبّر صوت يدويّ.

قال المرشد: "تمثّل هذه التحفة الفنّيّة المصنوعة على طراز الفنّ الجديد (آرت نوفو) زعيم حركة الإصلاح الشيكّيّة - يان هوس - الذي أُحرق حيّاً عام 1415 لرفضه الانصياع لأوامر البابا".

وكان المرشد على وشك مُواصلة شرحه، حين لمح الغولم يمرّ بالقرب منهم، بمظهره القاتم. ومع أنّ براغ تعجّ بالممثلين المُتكرّرين الذين يتخذون وضعيّات تصوير مقابل الإكراميات، إلّا أنّ المرشد قرّر على ما يبدو أن يغتنم الفرصة لإضفاء لمسة دراميّة على جولته. وهكذا، أعلن بحماسة: "سيّداتي وسادتي، لدينا زائر غير مُتوقّع هذا الصباح! إنّه إحدى أشهر الشخصيات الأسطوريّة في براغ!"

استدار السيّاح فوراً، وكأنّهم يتوقّعون رؤية إيفان ليندل أو مارتينا نافراتيلوفا، غير أنّهم رأوا بدلاً من ذلك رجلاً مكسوّاً بالطّين، يرتدي عباءة قاتمة.

هتف صبيّ صغير: "إنّه مسخ الغولم! لقد أخبرتنا عنه قبل قليل!"
ابتسم المرشد وقال: "ممتاز. وهل تذكر ما معنى الأحرف التي على جبينه؟"
أجاب الصبيّ: "الحقّ! إلى أن محا رجل الدين أحد الحروف وقتله!"
قال المرشد: "ممتاز". ثمّ أضاف وهو يراقب الغولم يتعد: "حسنًا، يبدو أنّه لا فرصة اليوم لالتقاط صورة معه، لكن من يذكر لنا ثاني أشهر وحش في براغ؟"
لم يُجب أحد.

فقال المرشد بطريقة دراميّة: "الصّرصار! فقد كتب فرانز كافكا رواية قصيرة، هنا في هذه المدينة، بعنوان المسخ، يستيقظ فيها شابّ ذات صباح ليكتشف أنّه تحوّل... إلى صرصار عملاق!"

سارع الغولم إلى الابتعاد عن المجموعة، مُغادرًا الساحة ومُتّجّها نحو الشمال. وبينما كان يسير، وجد نفسه يُفكّر في فرانز كافكا، وتذكّر الممرّة الأولى التي رأى فيها التمثال الشهير المُخيف للكاتب في براغ؛ عملاق مُلتحف بعباءة، بلا رأس... يحمل على كتفيه رجلاً أصغر منه بكثير.

مخلوق بلا وجه، يحمل على كاهله عبء روح أضعف منه.
شعر الغولم حينذاك برابط روحيّ مع التمثال. فالرجل الصغير المَحْمول يُمثّل كافكا، الذي اعتمد - في قصّته وصف صراع - على صديق كان يحميه، أشار إليه بـ "أحد معارفه".

وقد أدرك الغولم أنّ ذلك الصديق حمل كافكا؛ تمامًا كما حمل الغولم المظلومين.
تمامًا كما أحمل ساشا.
حين تذكّر ساشا، عاد فكرُه إلى مهمّته الحاليّة.
اليوم، سأتسلّل إلى العتبة.
لم تكن ساشا ضحيّتهم الأولى... ولن تكون الأخيرة. لذا، لا بدّ من تدمير كلّ شيء،
إلى غير رجعة.

الفصل 60

حَثَّ لانغدون خطاه على الرصيف باتّجاه كليمتينوم، وهو يتفحص الوجوه القليلة من حوله بحثًا عن أيّ أثر لكاثرين. أخذ الهواء البارد يلفح وجهه من جديد، فيما كان يتّجه نحو برج الرصد الفلكيّ التابع للمتحف، الذي كان يعلو المباني الأخرى، ويقع على بُعد أقلّ من كيلومتر.

مرّ بفندق موزارت براغ الفخم، الذي عزف فيه موزارت نفسه عددًا من الحفلات الخاصة. وتذكّر لانغدون كيف رأى ذات مرة واجهة الفندق الباهتة تتحوّل بطريقة عجيبة إلى مُدوّنات موسيقيّة شاهقة تمرّ أمام العيون على إيقاع مقطوعة *Eine kleine Nachtmusik* التي كانت تُعزّف عبر مكبّرات الصوت. ففي شهر أوكتوبر من كلّ عام، تحتضن براغ مهرجان سيغنال Signal Festival، ضمن أسبوع تتحوّل فيه المعالم المعماريّة إلى لوحات عرض باستخدام تقنيّات الإسقاط الضوئيّ، والعرض الضوئيّ على الواجهات.

لكن حين مرّ لانغدون بالفندق، توقّف فجأة، وقد جذب نظره كشك إعلانيّ في حديقة صغيرة. إذ كان ثمة مُلصّق يُصوّر جيشًا مُستقبليًّا من الجنود الذين يسرون على كوكب مقفر، وقد كُتبت فوق رؤوسهم كلمة واحدة، بدا ظهورها في هذه اللحظة مصادفةً مُربكة.

HALO (هالة).

هل يسخر الكون مني؟

لم يكن هذا المُلصّق يشير - بطبيعة الحال - إلى رمز مُضِيء للعقل المُستنير، بل إلى سلسلة ألعاب إلكترونيّة شهيرة، كانت - بحسب ما أخبره طلابه - قد استغلّت براءة الدلالة الثقافيّة من خلال استخدام مصطلحات كتابيّة مثل "العهد"، و"الفلك"، و"الأنبياء"، و"الطوفان"، بالإضافة إلى نسيج غنيّ من الإشارات الدينيّة المُعمّقة. قال لانغدون لطلابه حينذاك: "قد تروق لي، على ما يبدو".

فردّ أحدهم ما زحّا: "بل على العكس، فالوحوش الضارية ستقضي عليك فورًا بأسلحتها الفتّاكة".

لم يفهم لانغدون ما قصده الطالب، وقرّر أن يبقى مُخلّصًا للعبة الطاولة على الإنترنت. مع ذلك، في تلك اللحظة تحديداً، وفي قلب براغ، بدا ظهور كلمة "هالة" كأنّه تلميح غامض إلى كاثرين. ولكن، هل يَعدّها بشارة خير أم نذير سوء؟ لم يعرف، ولا سيّما أنّهما تحدّثا عن هذا الموضوع قبل يومين فقط.

قالت له آنذاك: "غالبًا ما يُساء فهم الهالات تمامًا. إذ لطالما صُوِّرت على أنّها أشعة من النور تحيط بالرأس، وترمز إلى الطاقة المُنبِعة من عقل مُستَثير. لكنني أعتقد أنّنا نُخطئ في تفسيرها. فهذه الأشعة تمثّل حُزماً من الوعي... تتدفّق إلى الداخل... لا إلى الخارج. والقول إنّ أحدهم يتمتّع بعقل مُستَثير، ليس سوى طريقة أخرى للقول إنّهُ يملك جهاز استقبال أكثر فاعليّة".

كان لانغدون قد درس الهالات لعدّة سنوات بوصفها رموزاً دينيّة بارزة، ومع ذلك لم يخطر بباله يوماً هذا التفسير الذي عرضته كاثرين. وكغيره من الناس، لطالما افترض أنّ الأشعة تنبعث إلى الخارج. أمّا هذه الرؤية المعكوسة، فبدت له مُربكة. مع ذلك، لم يملك إلا الاعتراف بأنّ الكتب الدينيّة وصفت الأنبياء دائماً بأنّهم يتلقّون الحكمة الإلهيّة... لا بأنّهم يصوغونها بأنفسهم أو يثيّنونها إلى النّاس من داخل ذواتهم.

ففي سفر أعمال الرسل، الإصحاح التاسع، وُصِف اعتناق الرّسول بولس للمسيحيّة على طريق دمشق أنّه نتيجة دفع من الطاقة. وفي الإصحاح الثاني من السفر نفسه، اكتسب الرسل القدرة الفوريّة على التكلّم بلغات مُتعدّدة ليتمكّنوا من نشر تعاليمهم. /هي متلازمة العبقرّيّ المفاجئ؟

كان رمز الهالة مُرتبطاً على نطاق واسع بالأديان، لكنّ كان لانغدون يعلم أنّ لهذا الرمز نُسخاً مَوْغلة في القدم - من المثرائية والبوذية والزرادشتيّة - صُوِّرت أشعة طاقة تحيط بشخصيّاتها. وعندما تبنّت الأديان هذا الرمز، أزيلت الأشعة تدريجيّاً، واستُعيض عنها بقرص بسيط يطفو فوق الرأس. هكذا، ضاع من التاريخ أحد أهم العناصر الرمزيّة للهالة. وكانت كاثرين ترى أنّ هذا الشكل المفقود قد يحمل في طيّاته فهمًا منسيّاً وحكمة قديمة... الفهم الضائع لما يُعرف اليوم بنظرية "الوعي غير الموضعيّ".

ليس الدماغ سوى مُستقبل... يتدفّق الوعي إليه، لا منه. قالت له مازحة: "ما زلت لا تصدّق هذه الفكرة تمامًا، أليس كذلك؟ ما زلت تنتظر دليلاً قاطعاً يُثبت أنّ دماغك مُجرّد مُستقبل".

تأمل لانغدون في كلامها. في الواقع، لم يتمّ يوماً إثبات النماذج العلميّة بالمعنى المُطلَق، وإنّما اكتسبت القبول لأنّها فسّرت وتوقّعت الملاحظات باستمرار على نحوٍ أفضل من النماذج البديلة. وكانت فكرة كاثرين مُقنّعة، وقد تُفسّر العديد من الظواهر الخارقة، مثل الإدراك الحسّي الفائق، وتجارب الوعي المُغيّرة، ومتلازمة العبقرّيّ المفاجئ.

قالت كاثرين: "إن أردت رأيي، فأنا أعتقد أنّ ذاكرتك الصوريّة أكبر دليل على ذلك يا روبرت. أنت تعتقد أنّ دماغك خزّن كلّ صورة رأيّها في حياتك؛ لكنّ الاسترجاع الكامل

للصور - من الناحية الفيزيائية - أمر مستحيل. فكُمُ الصور الحيّة التي تحتفظ بها في ذاكرتك كافٍ لملء مستودع كامل، حتّى باستخدام أكثر وسائل التخزين الرقمية تطوُّراً. ومع ذلك، أنت قادر على تذكّر تلك الصور بدقة مذهلة. لكن في الحقيقة، دماغ الإنسان - وحتّى دماغك أنت - أصغر بكثير من أن يحتوي على هذا الكمّ من المعلومات".

استحوذت كاثرين على انتباه لانغدون، فعلق قائلاً: "هل تعنين أنّ ذاكرتنا تعمل على غرار الحوسبة السحابية؟ وأنّ بياناتنا المُخزّنة تنتظر في مكان آخر... ريثما نتمكن من الوصول إليها؟"

قالت: "بالضبط. إذ يتمّع دماغك الصوريّ بآلية مُتقدّمة للغاية للوصول إلى هذه البيانات وسحبها. فجهاز الاستقبال لديك مُتطوّر ودقيق جدّاً في الوصول إلى الصور"، ثم ابتسمت وأضافت: "لكنّه، في الأرجح، أقلّ دقّة في التقاط الثقة".

ضحك لانغدون وقال: "لكنّني أثق فيك، وفي أنّك ستطلعيني على تجاربك العلميّة قريباً... وتخبريني بما اكتشفته تحديداً".

قالت مُبتسمة: "مُحاولة ذكيّة، بروفيسور، لكن عليك أن تنتظر وتقرأ الكتاب".

الفصل 61

شُيِّدَ مبنى كليمنتينوم - كغيره من المباني الباهرة في أوروبا - تمجيداً للديانة المسيحية. ففي القرن السادس عشر، وسعيًا إلى تعزيز حضور الكنيسة الكاثوليكية في بوهيميا، دعا الإمبراطور فرديناند الأول أعضاء جمعية اليسوعيين المُتنامية إلى براغ، وعرض عليهم أرقى عقارات المدينة لبناء كلية يسوعية عليها. وبحلول نهاية القرن، أصبح مبنى كليمنتينوم اليسوعي - الذي سُمِّيَ تيمناً بالقدّيس كليمنت - أحد أكبر المجمّعات المعماريّة في البلاد، بعد قلعة براغ.

اشتهرت جامعة كليمنتينوم بتفانيها في خدمة العلوم، وضمت لاحقًا برجًا فلكيًا بلغ ارتفاعه ثمانية وستين مترًا، ومكتبة علميّة ضخمة احتوت على آلاف الكتب، وغرفة ميريديان المُبتكّرة، التي استخدمت الهندسة وأشعة الشمس لتحديد توقيت الظهيرة بدقّة كلّ يوم. وفي ذلك التوقيت، كان ضابط الوقت الرسمي يُطلق قذيفة مدفعية ليُعلن عن حلول منتصف النهار لسكان المدينة جميعًا.

في العصر الحديث، بات كليمنتينوم مقرّ المكتبة الوطنيّة التشيكيّة، ومتحفًا تاريخيًا. وكان السيّاح المُتمرّسون الباحثون عن أفضل إطلالة على براغ، يتسلّقون 172 درجة ليصلوا إلى قمة البرج الفلكي. وهناك، يكافؤون بإطلالات آسرة، بالإضافة إلى معرضٍ جذاب للأدوات الفلكيّة العائدة إلى القرن الثامن عشر.

كان روبرت لانغدون يُسرّع على الطريق المؤدّي إلى المتحف، من دون أن يُفكّر في الكنوز الكثيرة التي يحتويها. فقد كان تركيزه مُنصبًّا على كاثرين، والرسالة الغامضة التي قادته إلى هنا. وحين مرّ ببوابة جسر كارل الشرقيّة، أدرك أنّه يسير على الرصيف نفسه الذي ركض عليه قبل بضع ساعات فقط.

أنا أدور في حلقة مُفرّغة، تمامًا مثل سمكة كاثرين الذهبيّة.

حين وصل إلى مدخل كليمنتينوم الرئيس، كانت الساعة 9:55 صباحًا، فأخذ يفتّش المكان بحثًا عن كاثرين. لم تكن هناك، لكنّه فوجئ برؤية عاتلة تدخل من الباب الرئيس.

هل فتح المتحف أبوابه؟!

اجتاحته موجة من الأمل، فربما كانت كاثرين تنتظره في الداخل. اندفع عبر الباب مُستمتعًا بدفء الردهة التي توقّع أن تكون شبه خالية في هذا الوقت المبكر، لكنّه وجدها تعجّ بالسيّاح، وكثيرون منهم يجلسون فوق حقائقهم، يحتسون القهوة ويتناولون الكعك المُحلّى. فبدا المشهد أشبه بصالة مطار منه بردهة دير يسوعي من القرن السادس عشر.

ما الذي يجري هنا؟!

اقتربت منه موظفة نشيطة وهي تبسم، ومدّت إليه صينيّة أكواب قائلة: "قهوة؟"
على الرغم من حيرته، قبل الشراب الساخن بامتنان، ولفّ أصابعه المتجمّدة حول
الكوب الورقيّ الدافئ، ثمّ قال: "شكرًا، لكن... ما الذي يحدث هنا؟"
أشارت المرأة برأسها إلى لافتة مُعلّقة على الحائط.

كليمنتينوم

يفتح أبوابه الآن منذ الساعة 7 صباحًا!

قالت بمرح: "إنّها مبادرة تسويق جديدة! فمعظم الرحلات القادمة من الولايات
المتحدة تصل عند الساعة السادسة صباحًا، ممّا يجبر السياح على الانتظار لساعات قبل
تسجيل الدخول إلى فنادقهم. لذا، قرّرنا أن نوَقِّر لهم خدمة نقل من المطار، ومستودعًا
للأمتعة، وقهوة، وكعكًا... وهذه هي النتيجة!" وأشارت إلى الردهة المُزدحمة. "نبذل ما في
وسعنا لجذبكم أيّها الأميركيّون إلى المتاحف، ما رأيك؟!" ثم مضت في طريقها.
كانت ملاحظتها ستبدو أكثر إساءة لولا أنّ لانغدون سمع من قبل أنّ أحد أكثر الأماكن
جذبًا للسياح في براغ بات الآن ميدانًا لإطلاق النار تحت الأرض، يتيح للأميركيّين إطلاق
النار بطريقة قانونيّة من مجموعة غريبة من الأسلحة الآليّة.

مع ذلك، شعر لانغدون أنّ قطعة من الأحجية قد استقرّت في مكانها.

حين أرسلت كاثارين بريدها... كان المتحف مفتوحًا!

بل كان لا بدّ لها أن تمرّ مباشرة من أمام المدخل في طريقها إلى مختبر غِسْنِر.

هل دلّفت إلى الداخل... وحاولت استدعائي؟ Codex XL...

تحمّس لاحتمال أن تكون كاثارين لا تزال في مكان ما في هذا المُجمّع، فبدأ يمسح
بنظره الردهة باحثًا عن شعرها الأسود الكثيف. وحين لم يرها، سارع إلى شبّاك التذاكر
لشراء بطاقة دخول شامل. حدّقت إليه الموظّفة للحظة بنظرة مُتفحّصة، ثم سلّمتها البطاقة من
دون اعتراض. فعلقها لانغدون على كتفته، وانطلق عبر مجموعة من الممرّات المُزخّفة
باتجاه هدفه.

المعرض الخاصّ

المخطوطة الضخمة

حين بلغ المدخل الرئيس للمكتبة، أوقفه أحد المُرشدين. وبعد أن تفحص بطاقة الدخول،
أضاف إليها مُلصقًا أحمر وقال: "لديك ساعة واحدة فقط، سيّدي. استمتع بجولتك".

كان لانغدون قد نسي أن دخول المكتبة الباروكية مُقسَّم إلى فترات زمنية مُحدَّدة، وهذا يعني أن كاثرين، إن كانت قد أرسلت بريدها الإلكتروني من الداخل... فلا بد أن وقتها قد انتهى منذ زمن. أرجو أن تكوني ما زلت هنا... في مكانٍ ما.

دلف بسرعة عبر المدخل، إلى ما وصفه الكاتب خورخي لويس بورخيس ذات يوم أنه "أروع مكتبة في أوروبا".

وعلى الرغم ممّا كان يشعر به من توتر واضطراب، لم يسعه إلا أن ينبهر بالقاعة الأسرة. فقد كانت الغرفة مُستطيلة وطويلة، يزيّن سقفها رسم جداريّ أسر بلون أزرق باهت يصوّر سماء مشمسة، تطوف فيها مجنّحات بدت وكأنها مُعلّقة في الهواء. وقد أعطى الخداع البصري انطباعاً أن ضوء الشمس يتخلّل البناء نفسه.

أما جدران المكتبة، فقد ارتفعت لأكثر من تسعة أمتار، وامتلأت برفوف الكتب التي ضمت أكثر من عشرين ألف نسخة تعود إلى قرون مضت. وكانت رائحة المخطوطات العتيقة - المصنوعة من الرق - تفوح من الطابق الثاني. هناك، اصطفت الكتب ذات الأغلفة البيضاء والرموز الحمراء، التي لا يمكن الوصول إليها إلا عبر سلّم سرّي يؤدّي إلى الشرفة العلوية المُحيطة بالمكتبة. وكانت الأرض مكسوّة بألواح الخشب المُطعم الذي ينافس في تعقيدته جميع الأرضيات التي رآها لانغدون في حياته؛ بما في ذلك أرضية غراند غاليري، أو القاعة الكبرى، في متحف اللوفر.

توقّف لانغدون بعد خطوات قليلة داخل القاعة الهادئة، وأخذ يبحث وسط الحشد الكبير عن أي أثر لكاثرين. لا شيء. تابع السير داخل الغرفة المُزخرفة، مروراً بموكب الكرات الأرضية العتيقة الضخمة التي اصطفت في الوسط، على طول القاعة. وكانت تتخلّل صفّ الكرات لافتات تحمل رمزاً بليغاً لا يحتاج إلى تفسير.



من ذا الذي يُشعل عود كبريت في قاعة مليئة بالمخطوطات القديمة؟! حين توغل أكثر في الداخل، ظهر أبرز المعروضات بكل وضوح، مُحاطاً بالزوّار.

المخطوطة الضخمة.

كان الكتاب الضخم موضوعاً داخل خزانة زجاجية من البليكسي، مُكعبة الشكل، بدت أقرب إلى صالة تدخين في مطار منها إلى حاوية لحماية مخطوطة. وكان جمع من السيّاح

يحيطون بها وهم يتهامسون، ويلتقطون الصور، ويتأملون المخطوطة الغامضة المفتوحة على الصفحة الشهيرة، تلك التي تظهر فيها صورة شيطان يرتدي مئزراً من فرو القاقم. لكن حين وصل لانغدون إلى هناك، لم يهتمّ لأمر المخطوطة، بل راح يتأمل وجوه الزوّار مُفَتِّشاً.

هل أنت هنا يا كاثرين؟

كان كثيرٌ من الزائرين لا يزالون يرتدون معاطفهم، وبعضهم ينفخون في أيديهم. إذ كانت المكتبة شديدة البرودة - برودة عَدَّها معظم الناس غير مريحة - كما علّقت كاثرين أمس. فشرح لها لانغدون أنّ القيمينَ على المتاحف يلجؤون أحياناً إلى تبريد القاعات المُكْتَظَّة بالزائرين لإجبارهم على الحركة السريعة، وبالتالي تسريع الدوران؛ وهي حيلة في إدارة الحشود تبنّتها لاحقاً مطاعم الوجبات السريعة. /دخل و/أخرج.

ناداها بصوت خافت: "كاثرين؟"

فالتفت إليه بعض الزوّار بنظرات فضوليّة. ونظر بعضهم إليه مرّتين، كما لو أنّهم تعرّفوا إليه. بخلاف ذلك... لم يأتيه ردّ.

هل تراها جاءت ورحلت؟

نظر إلى الشرفة العليا الخالية، ثم نادى بصوت أعلى: "كاثرين سولومون؟" عندئذٍ، تقدّم منه أحد المرشدين، وطلب منه الصمت بإشارة من إصبعه. ففي نهاية المطاف، هذه مكتبة. فأوماً لانغدون مُعتدِراً، وواصل البحث بنظره بصمت في كلّ الاتجاهات. وبعد أن أتمّ دورتين كاملتين في القاعة، لم يجد لها أثراً. غاص قلبه وهو يفكر في مدى اتّساع هذه المدينة، وقلة ما يملكه من خيوط يهتدي بها. إن لم تكوني هنا، فأين أنت؟

* * *

فكر بافيل في سرّه وهو يوقف السيارة فجأة خارج كليمتينوم، لا صفارات إنذار. كان التنبيه الأزرق بشأن لانغدون قد منحه حتى الآن أربع إشارات منفصلة. فقد أفادت مُحَصِّلَة تذاكر ترام قرب المسرح الوطني أنّها رأت لانغدون يتّجه شمالاً بمحاذاة النهر.

وأشار سائق أجرة قرب ساحة فيرجين ماري أنّه رآه يدخل كليمتينوم. مخبأً ممتاز، قال ذلك في سرّه، وهو يفكر في مدى خبرة المؤرّخ بهذا المجمّع المعماري. لا يهمّ، فأنا أملك أعيناً في كلّ مكان.

اندفع بافيل إلى داخل المتحف، وأبرز صورة لانغدون للمرأة عند شبّاك التذاكر. فزوّدته بمعلومة ثمينة، إذ لم تؤكّد له فحسب أنّ الرجل اشترى تذكرة، بل أخبرته أيضًا بالغرفة التي يُرَجَّح أن يكون فيها الآن.

لقد وقع في المصيدة، هذا ما فكّر فيه بافيل وهو يتحقّق سرًّا من أنّ سلاحه محشو، قبل أن ينطلق إلى داخل المتحف.

صرخ مخاطبًا أحد المرشدين في الردهة الرئيسة: "Barokní knihovna!", المكتبة الباروكية! أين تقع؟!"

الفصل 62

كان الحارس الليلي، مارك دُول، يعرف معظم وجوه الأشخاص الذين يُسمَح لهم بدخول برج راندوم هاوس. إلّا أنّ الرجلين اللذين استخدمتا بطاقة مرور لفتح باب الردهة المهمة لم يبدوا مألوفين له البتّة. كما أنّ توقيت وصولهما؛ في منتصف الليل، بعد دقائق معدودة على دخول فوكمان الدرامي، كان مُريبًا بحدّ ذاته. أمّا ما أيقظ حدسه الأمنيّ فعلاً، فكان زيّهما العسكريّ الأسود.

قال وهو يهَبّ واقفاً: "أيّها السيّدان، كيف يمكنني مساعدتكما؟" وكيف/استطعتما فتح الباب؟!/

أجابه أحدهما بصوت حازم: "لديكم حالة طارئة". واندفع نحو مكتب الأمن بخطى واثقة، حاملاً حقيبة ظهر سوداء بدت ثقيلة. وأضاف: "لقد أطلق جهاز التوازن في المبنى إنذاراً تلقائياً لدى بلدية المدينة؛ ما يعني أنّ ثمة خطراً بنيوياً يُهدّد سلامة البرج".

احتاج دُول إلى بعض الوقت لاستيعاب ما قاله الرجل. فمعظم ناطحات السحاب في نيويورك كانت مُزوّدة بالفعل بجهاز يُسمّى "الكتلة المُخمّدة المُضبوطة"، وهي كتلة ضخمة مُثبتة في أحد الطوابق العلوية، لتعمل كثقل مُوازن يمنع المبنى من الاهتزاز بفعل الرياح العاتية أو الزلازل. وفي حالة برج راندوم هاوس، كانت الكتلة المُخمّدة المُضبوطة خزان مياه سعة ثمانمئة طن مُعلّقاً في الطابق الخمسين.

خلل بنيوي؟! ولماذا لم أتلقَ أيّ إنذار على مكنتي؟

قال الرجل بالحاح، وقد وصل إلى مكتب الاستقبال: "عليكم الإخلاء فوراً، كما عليّ الصعود إلى الأعلى".

"لكنني لا أفهم—"

لم تُنح له الفرصة لإتمام جملته. ففي لحظة خاطفة، انهالت قبضة على صدره، وقطعت الهواء عن رئتيه. سقط دُول بعنف على ظهره، وراح يلهث بشدّة على الأرض، وقد غاب عن الأنظار خلف المكتب. وفي لمح البصر، انحنى الرجل فوقه، وجثا على ركبتيه، ثم ضغط فوهة مسدّسه على صدره وهو يهمس بصوت مُنخفض: "إيّاك أن تصرخ".

بعد ذلك، مدّ يده إلى جيب دُول، وانتزع بطاقة الدخول الرئيسة من سترته، ثمّ رماها من فوق المنضدة لرفيقه.

ظَلَّ دُؤْلُ مُمَدَّدًا عَلَى ظَهْرِهِ، يُحَدِّقُ إِلَى السَّقْفِ الْمُرْتَفِعِ لِرُدْهَةِ الْبَرْجِ، وَهُوَ يَسْمَعُ وَقَعَ أَقْدَامُ تَتَلَاشَى بِسُرْعَةٍ، تَلْتَهُمَا صَفْرَاتُ الْكَتْرُونِيَّةِ مَأْلُوفَةٍ؛ لَقَدْ اسْتَعْدَمَ الرَّجُلُ الْآخِرَ الْبَطَاقَةَ لِتَجَاوُزِ الْبَوَابَةِ الْأَمْنِيَّةِ وَدُخُولِ الْمَصْعَدِ.

هَمَسَ الرَّجُلُ الْجَائِي فَوْقَهُ: "لَا زِمَ مَكَانَكَ بِصَمْتٍ، وَلَنْ يُؤْذِيكَ أَحَدٌ". بَعْدَ ذَلِكَ، قَيَّدَهُ بِرِبَاطٍ بِلَاسْتِيكِيٍّ، وَالتَقَطَ قَبْعَةَ الْحِرَاسَةِ عَنِ الْأَرْضِ، وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِهِ، ثُمَّ جَلَسَ بِثِقَةٍ عَلَى مَقْعَدِ الْحَارِسِ، وَالسَّلَاحِ فِي حِجْرِهِ.

كَانَ صَدْرُ دُؤْلٍ يُولِمُهُ بِشِدَّةٍ وَهُوَ يَحَاوِلُ أَنْ يَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهُ. مَنْ يَكُونُ هَذَانِ الرَّجُلَانِ؟ فَهَمَّا لَمْ يَسْتَغْرِقَا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ ثَوَانٍ لِلْسَيْطَرَةِ عَلَى مَوْقِعِهِ، وَسُرْقَةِ بَطَاقَةٍ تَتِيحُ لِهَمَا الْوَصُولَ إِلَى أَرْكَانِ هَذَا الْمَبْنَى كَافَّةً.

* * *

فِي الطَّابِقِ الرَّابِعِ، خَرَجَ جُونَاَسُ فَوْكْمَانُ مِنَ الْمَصْعَدِ، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْبَابِ الْفُولَادِيِّ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ: مَرْكَزُ أَمْنِ الْبَيِّنَاتِ. كَانَ الدُّخُولُ يَتَطَلَّبُ بَطَاقَةً خَاصَّةً، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ طَرَقَ الْبَابَ بَعْنَفٍ حَتَّى فُتِحَ أَخِيرًا، وَظَهَرَ خَلْفَهُ وَجْهُ مَأْلُوفٍ.

بَدَأَ أَلِيكْسُ كُونَانُ كَمَنْ خَرَجَ مِنْ مَعْرَكَةٍ. وَقَالَ بِنبرة مُتَوَثِّرَةٍ: "حَمْدًا لِلَّهِ، لَقَدْ عَدْتُ سَالِمًا".

"هَلْ مِنْ أَخْبَارٍ عَنِ لَانْغِدُونِ وَكَاثَرِينِ؟" كَانَتْ عِبَارَةُ الْفَنِيِّ الْمَحْمُومَةِ لَا تَزَالُ تَتَرَدَّدُ فِي ذَهْنِهِ: الْقِرَاصِنَةُ الَّتِي حَذَفُوا مَخْطُوطَتَكَ... رَبِّمَا قَتَلُوا أَحَدَ مَوْلَيْكَ.

قَالَ أَلِيكْسُ: "سَأُشْرِحُ كُلَّ شَيْءٍ، لَكِنْ لَدَيَّ أَخْبَارٌ سَارَّةٌ؛ لَمْ يُقْتَلْ أَحَدٌ. فَقَدْ كُنْتُ مُخْطِئًا".

شَعَرَ فَوْكْمَانُ بِرَاحَةٍ عَمِيقَةٍ تَجْتَاحُهُ، وَانْحَنَى إِلَى الْأَمَامِ، وَاضْعًا يَدَيْهِ عَلَى رِكْبَتَيْهِ، ثُمَّ رَاحَ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ. حَمْدًا لِلَّهِ.

قَالَ أَلِيكْسُ وَهُوَ يُدْخِلُهُ إِلَى مَرْكَزِ الْأَمْنِ: "الرَّجُلُ الَّذِي ظَنَنْتَهُ مَيِّتًا... كَانَ لَانْغِدُونِ. لَكِنِّي تَوَاصَلْتُ مِنْذُ قَلِيلٍ مَعَ مَدِيرِ فَنْدُقِ فُور سِيزَنْزِ، وَأَكَّدَ لِي أَنَّ رُوبَرْتِ لَانْغِدُونِ لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ... مَعَ أَنَّهُ - عَلَى مَا يَبْدُو - فِي وَرْطَةٍ مَعَ السُّلْطَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ".

وَرْطَةٌ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ؟ تَسْأَلُ فَوْكْمَانُ عَنْ ذَلِكَ فِي سِرِّهِ، لَكِنْ شَعُورُهُ الْعَارِمُ بِالْأَرْتِيَاكِ طَغَى عَلَى فَضُولِهِ.

مَدْفُوعًا بِالْأَخْبَارِ السَّارَّةِ، تَبَعَ أَلِيكْسُ عَبْرَ دَهْلِيزٍ مِنْ رَفُوفِ الْحَوَاسِيْبِ الشَّاهِقَةِ الَّتِي تُضْجِعُ بِهَمِهْمَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ. وَمَا لَبِثَا أَنْ وَصَلَا إِلَى غُرْفَةٍ مَفْتُوحَةٍ تَتَوَسَّطُهَا مَحْطَّةٌ عَمَلٍ وَاسِعَةٌ،

تتوزع عليها عدة شاشات مُنظمة، اصطفت في شكل نصف دائرة، ووُضعت أمام الشاشات كراسٍ مُنجدة عالية الظهر؛ فشعر فوكمان وكأنه دخل مركز قيادة مُصغراً.

على الحائط خلف المكتب، علقت لوحة كبيرة لباخرة ضخمة... تغرق في محيط من الأرقام الثنائية واحد وصفر، وكُتبت تحتها عبارة: "LOOSE BITS SINK SHIPS". في محاكاة ساخرة لشعار شهير من زمن الحرب العالمية الثانية، كانت اللوحة تُذكر بضرورة حماية البيانات من مصدرها، لئلا "تُغرق الثرثرة السفن".

فكر فوكمان في سرّه: لقد فات الأوان على ذلك، فالمخطوطة ضاعت.

في هذا الوقت، سحب أليكس مقعدًا دوّارًا ثانيًا بجانب مقعده، وجلس الرجلان، ثمّ أدارا مقعديهما للجلوس مُتقابلين. قال الفنّي الذي علت وجهه ملامح التوتر: "حسنًا... لقد حدث الكثير. سأبدأ من البداية".

كان فوكمان يدرك أنّ البدء من البداية أسوأ طريقة لسرد القصص، لكنّه كتم تعليقه.

قال أليكس: "لم أشأ الإفصاح عن كلّ شيء عبر الهاتف. فبعد اختفائك، شعرت بالخوف، وظننت أنّ عليّ تحذير كاثرين سولومون فورًا بأنّ مخطوطتها مُهدّدة، وأنّها قد تكون في خطر مُباشر".

"حسنًا".

"فسحبتُ ملفّها الوظيفيّ، واتصلت بها على هاتفها، لكن لم يُجِبن أحد، والأمر نفسه حدث مع روبرت لانغدون. وعندما فشلْتُ في التواصل مع أيّ منكم، أصبت بالذعر، وقرّرت تتبّع أماكنكم عبر هواتفكم".

"مهلاً... أيمكنك فعل ذلك؟"

قال أليكس وهو يستدير إلى حاسوبه ويبدأ بالكتابة: "ليس في حالتك، ولا في حالة الدكتورة سولومون. لكنّ أمر السيّد لانغدون كان سهلاً. فقد لاحظتُ أنّه يستخدم عنوان بريد iCloud، وأنّه اختار كلمة السرّ نفسها في أكثر من حساب على خوادم بينغوين. وبصراحة، فاجأني أنّ رجلاً بذكائه يستخدم كلمة مرور واحدة، خصوصًا حين تكون بهذا الضعف، Dolphin123".

كلمة سرّ لانغدون هي Dolphin123؟ أطارق فوكمان رأسه بيأس.

لماذا نستخدم بروتوكولات أمان أصلاً؟ كان لقب لانغدون في جامعة هارفارد "الدولفين"، لأنّه ما زال قادرًا على التفوق على نصف فريق كرة الماء في السباحة. لكن، في الوقت نفسه، لم يكن يُخفي ارتياحه من التكنولوجيا. فهو أستاذ في التاريخ الكلاسيكيّ، يعيش في الماضي، وعلاقته مُتردّدة مع المستقبل. ما زال يحتفظ بدفتر أرقام هواتف قديم، ويضع ساعة ميكى ماوس، يا لغرابة أطواره!

تابع أليكس: "سعت يائساً لتحديد موقع أحدكم، فاستعملت كلمة مرور لانغدون لاختراق تطبيق "اعثر على جهازي FindMy"، وحددت موقعه بدقة".

كتب أليكس أمراً إضافياً، فظهرت على الشاشة خارطة مفصلة لمدينة براغ.

قال وهو يواصل الشرح: "بحسب بيانات iCloud، كان هاتف لانغدون خارج التغطية تماماً، وهذا أمر غير معتاد. وإذا تحققنا من آخر موقع معروف لهاتفه... فسنحصل على صورة مُقلقة". نشط الشاشة وقرب الصورة أكثر. "تشير البيانات إلى أن آخر موقع معروف للهاتف كان صباح اليوم، عند الساعة ودقيقتين صباحاً، وكان تماماً... في هذا الموضع"، وأشار إلى نقطة زرقاء صغيرة على الخارطة. "ولا شيء بعد ذلك".

حدّق فوكمان إلى النقطة وقال: "عذراً؟ أتقول إنه كان وسط نهر فلتافا؟"

"نعم! وبما أننا تعرّضنا إلى هجوم من قراصنة على مستوى عسكري، وكنت مفقوداً، ولانغدون لا يجيب..."

"ظننت أنه غرق؟ لانغدون سباح عالمي! ربما رمى هاتفه فحسب".

قال أليكس: "أردت تصديق ذلك. لكن لو رمى الهاتف، لأشارت بيانات الموقع إلى مسار مُستقيم. لكن ما ظهر كان مُختلفاً؛ فقد تحرك المسار وتعرج، بل وعاد إلى الخلف قبل أن ينقطع! بدا الأمر وكأنّ لانغدون أخذ إلى وسط النهر، وألقي هناك، ثم حاول السباحة عائداً إلى الضفة، لكنه غرق وسحب الهاتف معه إلى القاع".

كان السيناريو مُقلقاً بالفعل، لكنّ استنتاج أليكس مقتل لانغدون بناء على "آخر موقع معروف" لهاتفه كان يفترق إلى بعض الخطوات المنطقية. غير أنّ تلك الفرضية لا تبدو أغرب من حقيقة أنّ هاتفَي فوكمان ولانغدون استقرّا كلاهما في قاع نهرين على جانبيين مُختلفين من الكوكب.

قال أليكس: "أعلم أنني بالغت في ردّ فعلي في نظرك، لكن بالنظر إلى هوية الجهة التي اخترقنا... كان لديّ ما يُبرّر قلقي. وما زلت قلقاً في الواقع".

فقال فوكمان بحدة وهو ينحني إلى الأمام: "ومن الجهة التي اخترقنا؟"

"لهذا أردت التحدّث إلى كاثرين؛ لأعرف إن كانت لديها أي فكرة عن الجهة التي تستهدفها، لأتمكّن من بناء خوارزمية مُخصّصة، والبحث عن مؤشرات رقمية محدّدة".

يا إلهي! هذا الشاب بحاجة إلى مُحرّر. قل لي فحسب من اللعين الذي فعلها!

تابع أليكس: "لكن قبل أن أتمكّن من بناء الخوارزمية، أعطاني المسح الذي أجرّيته على FTK نتيجة إيجابية. فأحد مؤشرات الهجوم كان مُطابقاً لإدخالات في قاعدة MISP ترتبط بهويات معروفة..."

قاطعه فوكمان: "أليكس، أنا لا أفهم—"

"كلّ ما تحتاج إلى معرفته أنّ من اخترق أنظمتنا كان على عجلة من أمره! فقد وفرّ الوقت باستخدام جزء من شيفرتهم المُعاد تدويرها؛ أي سلاسل مُكرّرة يُسمّيها القراصنة copy pasta! صحيح أنّها تُوفّر الوقت، لكنّها قد تفضح—"

فجأة، قفز أليكس من مكانه واستدار، وحدّق بقلق إلى ممرّ بين رفوف المعدات، باتجاه المدخل، ثم صرخ: "أليسون؟!"

كان فوكمان مُشدود الأعصاب أصلاً. "من أليسون؟"
"مديري. إمّا أنّها وصلت باكراً، أو أنّني أتخيّل سماع أصوات". ونظر إلى ساعته وسأله: "هل سمعت رتّة الباب حين فُتح؟"

هزّ فوكمان رأسه نافيّاً. لم أسمع شيئاً منذ الخامس من أكتوبر عام 1987. صفت المقاعد الرابع، فرقة بينك فلويد، ماديسون سكوير غاردن. كان غيلمور⁽¹⁾ رائِعاً.

قال أليكس: "مهلاً"، واختفى وسط متاهة الخوادم.
فكّر فوكمان في سرّه وهو ينتظر بنفاد صبر: هذا لا يُصدّق.

عاد الشابّ بعد عشر ثوانٍ، وقال: "اعذرنِي، أنا كثير الارتباك الليلة". وبدأ وجهه شاحباً وهو يجلس من جديد، وتابع: "فالأشخاص الذين نتعامل معهم لا يُستهان بهم". ثمّ دفع كرسيّه إلى حاسوب قريب، وأشار إلى فوكمان ليقترّب، ففعل الأخير ذلك. قال أليكس وهو يفتح المُتصفّح: "سأريك شيئاً لن تصدّقه—"

غير أنّ فوكمان مَدّ يده فجأة وأمسك بذراع الفنّي، مُشيراً إليه بأن يصمت. لا تتفوّه بكلمة!
فقال أليكس وهو يتراجع: "ما الأمر؟!"

ردّ فوكمان بصوت مُرتفع لكنّه هادئ: "أريد أن أتحقّق من أمر سريع على الإنترنت". ورفع إصبعه إلى شفّتيّه، وحدّق مباشرة إلى وجه الشابّ بعينين تحثّانه على الصمت. وحين أوماً أليكس أنّه فهم، استولى فوكمان على لوحة المفاتيح، وفتح المُتصفّح على صفحة بحث عاديّة، ثمّ كتب بخط كبير:

أنا وأنت لسنا بمفردنا هنا... كن حذراً.
فاستدار أليكس إليه وعينه تشعّان ذعراً.

فكّر فوكمان في سرّه: نعم، أنا خائف أيضاً. فقد أدرك منذ قليل أنّ صوت الباب الذي سمعه أليكس لم يكن وهمًا. لا بدّ أنّ أحدهم قد دخل غرفة التحكم، ويختبئ الآن خلف رفوف المعدات.

(1) ديفيد جون غيلمور، عازف جيتار ومُغنٍّ وكاتب أغاني إنجليزيّ، وهو عضو في فرقة الروك بينك فلويد.

وهو الآن يُصغي إلينا . فقبل لحظة فقط، لمح فوكمان نقطة ضوء زرقاء باهتة للغاية مُنعكِسة على زجاج اللوحة المُعلَّقة بالقرب منه. لقد أثمر تحريره لروايات التجسّس. قد يظنّها البعض شعاع ليزر من بندقية، لكنّ هذا الضوء أزرق، لا أحمر، وهو مُوجّه إلى لوح زجاج.

قال فوكمان بنبرة عادية وهو يمسخ الرسالة الأولى: "هذا الموقع مثير للاهتمام"، ثمّ كتب من جديد:

من الجهة المسؤولة عن الاختراق؟

دفع لوحة المفاتيح إلى أليكس، الذي بدا شاحبًا كشبح. فتنفّس الشاب بعمق، وبدأ يكتب الردّ.

نظر فوكمان إلى الكلمة الغريبة التي ظهرت على الشاشة. كانت غامضة وغير مألوفة، فألقى على أليكس نظرة استغراب، وتتمم بشفتيه: "من... هذا؟"

كتب أليكس من جديد؛ هذه المرّة اختصارًا. فحدّق فوكمان إلى الشاشة بصدمة صامتة. مُستحيل.

في أيّ صباح آخر، ما كان فوكمان ليصدّق عينيه. لكن، بعد كلّ ما حصل هذه الليلة، جاءت هذه المعلومة لتشرح الكثير. تَبًا.

السؤال الآن: كيف سيخرج فوكمان من مأزقه؟ وشكّ في أنّ الإجابة تكمن في مهاراته الحوارية... وفي فهمه الدقيق للفارق الخفيّ بين كلمتين مُتشابهتين جدًّا: المعلومات المُضلّلة، والمعلومات المَغلوطَة.

الفصل 63

وقف لانغدون في المكتبة الباروكية، وراح يتفحص وجوه الزوّار مرارًا وتكرارًا، إلى أن اقتنع أخيرًا بأنه وصل مُتأخّرًا. لقد رحّلت.

كان قد مضى أكثر من ساعتين على الرسالة المُشفّرة التي أرسلتها كاثرين، والتي تدعوه فيها للحضور إلى هذا المكان. وإن كانت قد وصلت قبله فعليًا، فلا شكّ في أنّ صلاحية بطاقتها قد انتهت، وطلب منها الموظفون المغادرة.

نظر لانغدون إلى المخطوطة الضخمة المعروضة في صندوق زجاجي واقٍ، وقد فُتحت على إحدى صفحاتها. البارحة فحسب، وقفا هنا- هو وكاثرين- يدًا بيد، يتبادلان الأحاديث بسعادة حول أسرار هذا الكتاب العجيب.

كانت كاثرين مَفْتونة بأسطورة المخطوطة الضخمة، لكنّ أكثر ما أثار إعجابها كان هندسة هذه المكتبة الغنية. فراحت تسأله، مأخوذة بجمالها، عن الأرضية الخشبية، والرسوم الجدارية، وما وصفته بـ "الشرفة الزائفة".

سألها لانغدون باستغراب: "ماذا تقصدين بكلمة 'الزائفة'؟" فأشارت إلى الشرفة المُرتفعة التي تُحيط بجدران القاعة وقالت: "إنّها للزينة، أليست كذلك؟ انظر... ما من طريقة للوصول إليها، لا سلالم ولا أبواب تؤدي إليها من الأعلى".

ضحك لانغدون. هذا بالضبط ما يُميّز العلماء؛ فهم يُلاحظون التناقضات. إذ إنّ معظم السياح الذين يُعجبون بالمشي المُعلّق المُحيط بالغرفة لا يلاحظون المُفارقة الواضحة: لا سبيل ظاهر للوصول إليه.

همس لها وهو يوميء برأسه إلى اليمين: "تعالى". قادها إلى ركن المكتبة، وبعد أن تأكّد من انشغال الزوّار بالمخطوطة، أمسك برفق بجزء من رفوف الكتب وسحبه نحوه. فانفتح بهدوء نحو الخارج، كاشفًا عن فجوة مُظلمة، يصعد منها سلّم لولبيّ إلى فتحة في أرضية الشرفة.

قالت كاثرين وهي تنظر إلى الأعلى: "وبالتأكيد، كنتَ تعرف هذا". إلّا أنّ دفء هذه الذكرى تلاشى فجأة حين دوى صوت سلطويّ عند مدخل المكتبة. صرخ رجل بصوت جهوريّ: "*Dámy a pánové! Opusťte výstavu! Požární poplach!*".

تبادل عدد من الزوّار التشيكيّين نظرات الذهول، وبدأوا يغادرون على الفور. أما السيّاح الأجانب القلائل، فنظروا إليهم ثمّ حذوا حذوهم.

تابع صاحب الصوت: "إنذار حريق! توجّهوا إلى المخرج حالاً!"

حريق! لم يشمّ لانغدون شيئاً. أحقّاً؟

نظر إلى الحشد الذي تجمّع عند المخرج الوحيد. خلف تلك الجموع، في الممرّ، وقف رجل مفنول العضلات بزّي الاستخبارات التشيكية الأزرق، يُراقب عملية الإخلاء... ويتأمل وجوه المُغادرين واحداً تلو الآخر، بل ويؤقف بعضهم للتدقيق في ملامحه أكثر.

عرفه لانغدون على الفور. الملازم بافيل.

لم يفهم كيف تمكّن الرجل من تحديد موقعه بهذه السرعة، أو بهذه الدقّة، لكنّه الآن هنا، يُدقّق النّظر إلى وجوه الحاضرين.

خمنّ لانغدون أنّ الإنذار كاذب. مُجرّد ذريعة ليوقع بي.

ونظراً إلى أنّ بافيل أطلق عليه النار سابقاً في متاهة المرايا، لم يكن ثمة ما يضمن ألا يُطلق النار عليه مُجدّداً فور خروج الزائر الأخير من المكتبة.

بحث لانغدون عن مكان يختبئ فيه، فلم يجد سوى صفّ الكرات الأرضية، وعلبة العرض الزجاجيّة للمخطوطة؛ لا هذا ولا ذاك سيوفّر له الحماية. وفي لحظة يأس، رفع نظره إلى الشرفة العالية، ومن ثمّ إلى الباب السريّ في الزاوية.

حتى لو صعد إلى الشرفة، فما من مخرج هناك. طريق المكتبة مَسدود. لكنّ الاختباء قرب السَلَم السريّ قد يمنحه بضع دقائق إضافيّة. ستعثر عليه الشرطة حتماً، لكنّ هذا أهون من مواجهة ضابط مُسلّح ومُضطرب بمفرده.

وقبل أن يراه بافيل، انسحب بهدوء من بين الحشد المُتّجه إلى الخارج، وتسلّل عائداً إلى زاوية المكتبة. وحين وصل، أمسك بالمقبض وشدّه نحوه.

غير أنّ الرّف لم يتحرّك.

وقف مُتعبجاً، وسحب المُقبَض من جديد.

هل أقفلوا الباب؟

لا يبدو وضع قفل على هذا الرّف أمراً منطقيّاً على الإطلاق، ثمّ إنّّه كان مفتوحاً أمس عندما جاء مع كاث—

في تلك اللحظة، خطر بباله احتمال غير مُتوّع.

غير قابل للتفسير... ومع ذلك...

فاجأه الاحتمال، فما كان منه إلّا أن قرّب فمه من الحاجز وهمس: "كاثرين؟"

تناهت إليه خشخشة من الداخل، كما لو أن أحدهم يفكّ ما كان يُقفل الباب. وبعد لحظات، انفتح الباب السريّ ببطء.

وإذا به يُحدّق إلى عينيّ كاثرين سولومون المُبلّلتين بالدموع.

ومن دون تردّد، اندفع لاحتضانها، تاركًا الباب السريّ ينغلق خلفهما. وبينما كانا يتعانقان في ظلمة الفجوة الضيقة، سمعها تبكي بصمت.

قالت بصوت مُتهدّج: "حمدًا لله، ظننتك قد متّ".

فهمس لها قائلًا: "أنا هنا".

الفصل 64

في ظلمة الفجوة الصغيرة، احتضنت كاثرين لانغدون، وتشبّثت به بقوة، من دون أن ينبس أيّ منهما بكلمة. وبصرف النظر عن الفوضى التي كانت تجري في الخارج، فقد أصبحا الآن وحدهما في هذا العالم، ولو للحظة عابرة، آمنين... معًا.

فكرت كاثرين في سرّها: ظننتُ أنّني لن أراه مُجدّدًا.

شعرت وكأنّها مُخبّئة هنا منذ دهر. فقد كانت خائفة على حياتها، ومُدْمرة من احتمال خسارتها الرجل الذي بدأت تقع في حبّه؛ فخسارته الآن ستكون مُفارقة قاسية. إذ لطالما شعرت - طوال سنوات - بانجذاب عميق إلى عفوية لانغدون، ومع ذلك، قاومت دائمًا تحوّل صداقتهما إلى علاقة عاطفية. ربّما كانت تخشى أن تخسره كصديق، لكن مع ذلك، كلّما التقيا، كانت تتساءل في سرّها إن كان سيحين يوم - بعد عقود من الصداقة - تتغيّر فيه الأمور.

وها قد جاء ذلك اليوم أخيرًا.

غمرتها مشاعر عميقة، فضمّته بقوة أكبر، مُستمتعة بذلك الانسجام التام في عناقهما، وبدفء جسده.

همس لانغدون: "جسدك بارد... هل أنت بخير؟ أين معطفك؟"

أجابت: "استعملته لربط الباب". إذ كانت قد لقت أحد كمّيه حول درابزين السلم الحلزوني، والكمّ الآخر حول المقبض، كي لا يتمكن أحد من فتح الباب السريّ. "كانت هذه الزاوية هي المكان الوحيد الذي خطر ببالي الاختباء فيه".

قال بارتباك: "لكن، لم تختبئين؟!"

راحت كاثرين تروي له أنّها تلقت هذا الصباح رسالة صوتيّة يائسة من أحد فنّيي الأنظمة في دار بينغوين، ويُدعى أليكس. وعندما اتّصلت به مُجدّدًا، أخبرها بقلق أنّ أحدهم قد اخترق خادم الشركة... ومحا كلّ أثر لمخطوطتها.

هتف لانغدون: "ماذا؟! هل تعنين أنّ مخطوطتك قد اختفت؟!"

قالت: "على ما يبدو، نعم. وكان الفنّي مذعورًا. قال لي... "صمتت لحظة، وقد اختنق صوتها بعاطفة مُفاجئة، "روبرت... قال لي إنّه يعتقد أنّك غرقت".

تراجع لانغدون، مُحاولاً أن يرى وجهها وسط العتمة. "أقال لكِ إنني مت؟!"
أجابت بصوت مُرتجف: "كان يخشى ذلك، نعم. قال إنه تتبّع هاتفك حتّى وسط نهر
فلتافا... ثم اختفى الإرسال. وتحت وقع الصدمة، لم أ طرح أيّ سؤال. طلب منّي أن
أتخلّص من هاتفي فوراً، وأن أغادر الشارع وأختبئ في أيّ مكان آمن ريثما يحصل على مزيد
من المعلومات. المشكلة أنّه لم يتمكّن من التواصل معنا إطلاقاً، كما بدا له أنّ من حذف
مخطوطتي كان يلاحقنا نحن الثلاثة! إذ أخبرني أيضًا أنّ جوناس اختفى تمامًا!"
عجز لانغدون عن استيعاب ما يسمعه. جوناس مفقود؟ "لكن، لماذا يستهدف أحدهم
مخطوطتك؟ أو أيّاً منّا؟!"

فقال وهي تشدّه إليها أكثر، بحيث لا مس شعرها العطر خدّه: "لا أدري... المهمّ أنّك
بخير".

همس لها: "كاثرين، لا أدري ما الذي يجري هنا... لكنني آسف جدّاً لما عانيتّه". كان
يعلم أنّ عليه أن يحدثها عمّا جرى له صباحاً، لكنّه كان لا يزال يحاول معرفة ما ينبغي فعله
الآن. فسألها: "وهل أنت واثقة من أنّ مخطوطتك... اختفت؟"

أجابت: "بحسب أليكس، نعم؛ فقد حُذفت من كلّ الخوادم. لكنّ الخبر الجيّد الوحيد
أنّني، صباح اليوم، وبينما كنت أغادر الفندق، لاحظتُ أنّ مركز خدمات رجال الأعمال كان
خالياً، فقرّرت استغلال الفرصة، وطبعْتُ نسخة ورقية لتقرأها أنت".

كانت كاثرين قد أخبرته في الأيام الماضية أنّها أصبحت شبه جاهزة لإعطائه نسخة
للقراءة، لكنّ البروتوكولات المُعتمدة في النشر تفرض أن يتسلّم المُحرّر المخطوطة أولاً...
وقد فعل.

"طبعْتُ نسختك، ولكن عندما هممت بالصعود لوضعها في خزانة جناحنا، انطلق إنذار
الحريق في الفندق، واضطرتُّ إلى مغادرة المبنى".

عندئذٍ، أدرك لانغدون بدهشة أنّ كاثرين كانت على بعد أمتار منه، في مركز خدمات رجال
الأعمال، عندما اندفع هو عبر الردهة وشغل جهاز الإنذار. يا إلهي! كدت أصطدم بها.

كان عاجزاً عن الرؤية بوضوح في الظلام، فسألها: "والنسخة الورقية التي طبعتها... هل
وضعتها في مكان آمن؟"

ردّت: "إنّها معي في الحقيبة! حين أخبرتُ أليكس بذلك، قال إنّها قد تكون النسخة
الوحيدة المُتبقيّة، وطلب منّي الحفاظ عليها جيّداً إلى أن نفهم ما يجري. وبما أنّني كنتُ في
الجوار... فقد جئت فوراً إلى هنا".
ضمّهما لانغدون إليه بقوة.

"كنتُ واثقة من أنَّك ما زلت على قيد الحياة، روبرت. كنت أشعر بذلك، مهما قال أليكس عن غرقك. وقد أردت أن أتصل بك وأخبرك بمكاني، لكنه حذّرني من أن اتّصالاتنا قد تكون مُراقَبة في الأرجح".

فقال لانغدون، وقد بدأت قطع الأحجية تكتمل في ذهنه: "لذا، أرسلت إليّ رسالة مُشفّرة قبل أن تتخلّصي من هاتفك، أليس كذلك؟"

أجابت: "نعم. استعملتُ الإنوكية وCodex XL. فقد أردتُ أن أجعل الرسالة غامِضة قدر الإمكان، لكنني كنت واثقة من أنَّك ستفهمها".

لم يسعه سوى الابتسام: "كانت حركة ذكيّة جدًّا، كاثرين سولومون".
ضحكت وقبّلت خدّه بلطف: "لم يكن ذلك صعبًا. سألت نفسي فحسب: ماذا كنت ستفعل أنت؟"

* * *

في الرواق خارج المكتبة الباروكيّة، راح الملازم بافيل يراقب آخر فوج من السيّاح يغادر القاعة.

تُرى، أين اختفى روبرت لانغدون؟

فقبل خمس دقائق، كان بافيل قد عرض صورة لانغدون على مرشد المتحف المسؤول عن التّحقّق من تذاكر الدخول عند مدخل المكتبة، فأكد له أنّ الأميركيّ الطويل قد دخل المكتبة فعلاً قبل وصول بافيل بقليل، وبحسب علمه، لم يره يغادرها حتى الآن.
أين اختفى إذن؟!

سأل بصوت غاضب: "هل من مخرج آخر؟ *Jiný východ*؟!"

هزّ الموظّف المدعور رأسه نافيًا: "*Žádný tu není*".

دخل بافيل عبر الباب، وأخذ يتفقّد القاعة المستطيلة الطويلة. كانت أشبه بممرّ عريض تحيط به جدران من الرفوف الشاهقة، ممّا يعني أنّه لا مكان للاختباء. وكان ثمة صفّ من الكرات الأرضيّة العتيقة في منتصف القاعة، يمتدّ باتّجاه خزانة عرض زجاجيّة ضخمة، لا تُخفي شيئاً هي الأخرى.

عندها، لاحظ بافيل وجود الشرفة.

أنت ذكيّ جدًّا، أيّها البروفيسور.

كانت الشرفة المُحيطة بالمكتبة مُرتفعة بما يكفي بحيث يمكن للانغدون الاختباء عن الأنظار ببساطة، عبر الاستلقاء أرضاً في تلك الطبقة العليا. فنظر بافيل حوله، لكنه لم يرَ أيّ

درج أو باب أو وسيلة وصول مباشرة إلى هناك.

عندئذٍ، استدعى الموظف وسأله وهو يشير إلى الشرفة: "كيف يمكن الصعود إلى هناك؟" قال ذلك بنبرة مُنخَفِضة، وهو يُحدِّق بقامته الضخمة إلى الشاب النحيل.

أجاب الموظف بخوف وهو يُشير إلى زاوية القاعة، إلى يسار المدخل: "ثمّة باب سرّي في رفوف الكتب... يقع خلفه سلّم حلزوني".

راح پافيل يدرس خياراته، ثم أمره قائلاً: "أغلق المكتبة! اخرج فوراً وأبقِ الأبواب موصدة. فالرجل الموجود في الداخل شديد الخطورة. لذا، لا تفتح هذه الأبواب تحت أيّ ظرف؛ مهما سمعت! حتّى لو سمعت طلقات نارية. هل هذا واضح؟!"

شحب وجه الموظف وهزّ رأسه موافقاً، قبل أن يهرع إلى الخارج ويغلق الأبواب خلفه بقوة.

تردّد الصدى في القاعة الفارغة، ثم سمع پافيل أصوات الأقفال الثقيلة وهي توصد واحداً تلو الآخر.

حين أصبح بمفرده، استدار ليووجه الصمت المُحيط به.

لقد أصبحنا وحدنا، بروفيسور... في مربّع الموت الجميل هذا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 65

يقع المعبد التاريخي القديم - الجديد في حيّ يوسفوف، الذي كان في ما مضى الحيّ اليهودي الأصلي في براغ، والذي تُحيط به الأسوار. ويُعدّ أقدم معبد لا يزال يُستخدم في أوروبا؛ إذ ظلّ شاهدًا صامتًا على تقلّبات التاريخ منذ أواخر القرن الثالث عشر. وعلى الرغم من جور الزمن، وما شهدته براغ من أحداث مُضطربة، بقي المعبد سالمًا من كلّ أذى.

واحة روحية... في صحراء مادّية، قال الغولم ذلك في سرّه، وهو يحدّق إلى الواجهة الحجرية البسيطة للمعبد، المُحاطة من الجانبين بواجهات محالّ هيرميس ومون بلان وفالتينو. لقد غزت مظاهر العالم الحديثة كلّ زاوية من زوايا هذا الحيّ القديم، وابتلعت منازل الكنيّة، فلم يبقَ من شوارعه الخطرة التي حرسها الغولم الأسطوريّ الأوّل الماضي سوى القليل.

بشكل من الأشكال، وُلد الغولم هو الآخر في هذا المعبد. فبعد وقت قصير من وصوله إلى براغ، كان يهيم على غير هدّى بالقرب من المبنى، حين سمع دليلًا سياحيًا يروي أسطورة الحارس العظيم لهذا الحيّ؛ المسخ الطينيّ. بدت الحكاية مألوفة، لا بل شخصية. وكما لو حصل ذلك بفعل قوة خفية، دخل المعبد.

في الداخل، كان الهواء ساكنًا تمامًا، مُشبّعًا بطاقة روحية شبه باطنية. خلف المذبح، وُضع التابوت كالحارس الأمين، يحتضن اللفائف القديمة. شعر الغولم بالراحة وسط السكون والضوء الخافت، فجلس على مقعد خشبيّ نُحِت سطحه بفعل أجيال من الذين جلسوا عليه. وهناك، تحت الضوء الخافت للثريات العائدة إلى القرون الوسطى، التقط كتيبًا صغيرًا... وبدأ يقرأ.

شدّته أسطورة الغولم وصانعه، رجل الدين المعروف باسم ماهارال براغ. فإلى جانب كونه عالمًا دينيًا، كان أيضًا رياضيًا وفيلسوفًا ألف العديد من الكتب.

في تلك الليلة، قرأ الغولم بهدوء نصّ رجل الدين الذي اشتراه من متجر للهدايا في الجوار. وما إن بدأ بقراءته، حتّى دُهِش لاكتشافه أنّه موجود - هو نفسه - في كلّ صفحة من صفحاته... الحقّ كما فهمه أساسًا!

لأنّ الواقع يتجلّى على مستويات عدّة.

في تلك الليلة المصيرية، أدرك الغولم أنّه - تمامًا كالغولم الأوّل - أتى من دون مقدّمات إلى هذا العالم، روح خاوية استيقظت في جسد مادّي بدا له غريبًا ومُفّرًا.

تذكر لحظته الأولى في ذلك المصحّ العقليّ الكئيب، حين استلهم - من فعل وحشيّ لا يوصف - إحساسًا بذاته، وغاية لوجوده... عندما نهض ورأى امرأة عاجزة تتعرّض للضرب المبرح على يد ممرّضة ليلية، فانقضّ على الممرّضة وطرحها أرضًا، ثم خنقها حتى فارقتها الحياة.

بعد ذلك، وقف أمام ضحيّته مُتَشَبِّهًا بانتصاره، وهو يتلذّذ بأولى الخدمات التي قدّمها في هذا العالم. لم تكن المرأة التي أنقذها واعية لتشهد على عمله البطوليّ، ولم تشعر به وهو يحمل جسدها المُنْهَك إلى سريرها، ويداوي جراحها، ثم يتوارى في الظلام... وقد بدأ يُدرك من هو، ولماذا تمّ استدعاؤه.

أنا حارسها.

منذ تلك اللحظة، أصبح حارسًا صامتًا داخل جدران ذلك السجن، يراقب متواريًا خلف الظلال، ويحرص على سلامتها. ولم يُدرك السبب الحقيقيّ لشعوره العميق بالانتماء إلى أسطورة الغولم... ولا سرّ مجيئه إلى براغ، إلّا حين قرأ كلمات ماها رال براغ.

أنا الغولم.

تخيّل المسخّ الطينيّ وهو يصحو من دون سابق إنذار، مدفوعًا بهدف واحد: الحماية.

قصّتي هي قصّته.

وكما شعر الغولم الطينيّ القديم بالغيرة والعزلة، شعر بذلك هو الآخر. وهو أيضًا صارع الجنون. كان الغولم يتوق أحيانًا إلى نيل الاعتراف بتضحياته، لكن لم يكن ذلك من حقه. وهكذا، واصل التجوّل في عالمها مُتَخَفِيًا.

أمّا اليوم، فقد واجه تحدّيًا مختلفًا تمامًا. لقد قتل مرشدتها... وقتل حبيبها أيضًا - وهما وحشان خدعاها واستغلا ثقتها - لكن لا ينبغي أن تعلم ساشا شيئًا عن أفعاله من أجلها.

لن تغفر لي أبدًا... ولكن تفهم.

لهذا السبب، اتخذ الغولم قراره. حبس ساشا في الظلام برفق، لكي لا تُدرك ما يجري... ولا ما يوشك على فعله.

وبينما كان يقترب من المعبد، شعر بثقل؛ علمًا أنّ العبء الذي يحمله لم يكن روحيًا فحسب، فقد كانت جيوب رداءه مُمتلئة: مسدّس صاعق من نوع "فايرتاك"، وسكين قابلة للطّي، وعصا معدنية للسيطرة على الأثير. وكان الغولم يشكّ في أنّه سيحتاج إليها جميعًا.

قبل أن يصل إلى المعبد، انعطف فجأة إلى اليسار في شارع شيروكا، إذ لم يكن يقصد المعبد اليوم، بل قطعة الأرض المجاورة له؛ ثلاثة أكرات من التراب، يُحيط بها سور حجريّ عالٍ. ذلك المكان، المُحاط بالمهابة والخوف، بات معروفاً في أرجاء العالم... بوصفه أكثر الأماكن المُرعبة على وجه الأرض.

الفصل 66

في ظروفٍ مُختلفة، ربّما كان الملازم بافيل سيحاول الاستمتاع بهدوء هذه المكتبة العريقة، لكن لم يعد في حياته مُتسعٌ للسكينة. فالغضب المُتصاعد في داخله لم يكن يُشبه أيّ شعور اختبره من قبل.

قائدي، وخالي... قُتل.

صرخ في الفراغ: "بروفيسور!" ثم شَهَر سلاحه وهو يُمعِن النظر إلى الشرفة التي تعلوه. "أعلم أنّك هناك! اخرج!"

غير أنّ السكون ظلّ مُخيّماً.

وكذلك الصمت.

"اخرج حالاً!"

دار ببطء، تاركًا مسدّسه يرسم قوسًا بطيئًا حول محيط الممشى بالكامل.

لا شيء.

اتّجه نحو الزاوية، إلى حيث أشار المرشد إلى وجود سلّم مخفي، وراح يتحرّك بخفّة على الأرض، حتّى عثر على جزء من الرفوف مُصمّم على هيئة باب، فأمسك بالمقبض النحاسي الصغير وجذبه، لكنّ الباب بالكاد تحرّك قبل أن يتوقّف.

فجرب مجدّدًا، إلّا أنّ الباب كان موصدًا بشكل من الأشكال من الداخل.

شدّ على المقبض بكلّ ما أوتي من قوّة، فتحرّك الباب نصف بوصة فحسب، قبل أن ينفصل المقبض عن الرف التاريخي، ويسقط بافيل إلى الخلف، على أرضيّة الخشب. فتسبّبت السقطة بموجة ألم لازعة اخترقت جمجمته التي كانت تؤلمه أصلًا.

فما كان منه إلّا أن هبّ واقفًا، وهو يستشيط غضبًا، ووجّه سلاحه نحو الباب ثم أطلق النار. فدوى صوت الرصاصة التي اخترقت الخزانة وارتطمت بشيء معدني في الجهة الأخرى، ربما كان السلّم الحلزوني الذي تحدّث عنه المرشد.

لم يسمع بافيل صوت ارتطام جسدٍ بالأرض، ففكّر في إفراغ سلاحه بالكامل في خزانة الكتب، لكنّه تراجع. إذ تخيل النقيب يهمس له: *Trpělivost*، ليكن الصبر سلاحك.

فخفف بافيل سلاحه.

ما دام صوت الرصاص لم يستدع المرشدين، فلن يفعل ذلك أيّ شيء آخر. الوقت في صالحه، وكانت لديه خطة.

ففي الجهة الأخرى من القاعة، وقع نظره على سلّم خشبيّ قديم مُسند إلى أحد الرفوف. صُمّم السلّم للوصول إلى الرفوف العلويّة في الطابق الأرضي، لكنّه لم يكن طويلًا بما يكفي لبلوغ الشرفة.

انتقل نظره إلى صندوق العرض الشفّاف في آخر الغرفة. كان المكعّب السميك المصنوع من الزجاج المقوّى بارتفاع پافيل تقريبًا، وبدا مقاومًا للرصاص، الأمر الذي يجعل منه قاعدة مثاليّة لتثبيت السلّم. وإذا تمكّن پافيل من جعل السلّم يبلغ الشرفة، فسيكون في وسعه أن يتسلّقه، ويدور حول السلّم الحلزونيّ من أعلاه... ويهاجم من فوق.

قال في سرّه: *Trpělivost*، صبرًا أيّها النقيب.

* * *

في الفجوة خلف الباب السريّ، كان لانغدون وكاثرين جاثيّن في الظلام، مذعورين، بعدما سمعا رصاصة تخترق المساحة الضيقة وتصيب السلّم المعدنيّ تحتكما. انفجرت الرصاصة مُصدرة صوتًا مُدويًا وتطاير منها الشرر الساطع.

قبل دقيقة، حين سمعا صوت پافيل وارتطام أبواب القاعة الخارجيّة وهي تُقفل، أعاد لانغدون ربط معطف كاثرين الطويل حول الدرابزين بأقصى قوّته. بعد ذلك، صعدا معًا السلّم الحلزونيّ، وصولًا إلى المنصّة بين الطابقين، بحيث يمكنهما الفرار صعودًا أو نزولًا. فقد أوضح پافيل تمامًا أنّه سيُطلق النار أولًا، ويطرح الأسئلة لاحقًا.

لقد حوصرنا في هذه المكتبة مع مجنون.

تساءل لانغدون: هل إصابة رأس پافيل قد جعلته يخرج عن السيطرة تمامًا، أم إنّ الضابط حصل على تفويض رسميّ باستخدام القوة القاتلة؟ ممّن التفويض؟ وبالنظر إلى ما أصبح يعلمه الآن، راوده شعور مُزعج بأنّ پافيل قد تلقّى أوامر بملاحقة مخطوطة كاثرين وتدميرها.

والقضاء علينا معها.

أدرك لانغدون أنّ أملهما الوحيد يتمثّل في تنبيه السفارة أو الشرطة المحليّة فورًا. لكن لم يكن بحوزتهما هاتف، وإن صرخا طلبًا للمساعدة، فلن يسمعهما سوى پافيل.

همس لانغدون في الظلام: "هل أنت بخير؟"

أجابته كاثرين: "بتاتًا، وأنت؟"

أمسك بيدها وضغط عليها: "لا تتحرّكي. ابقِي هنا، وسأصعد لأرى إن كان ثمة مخرج

آخر."

في الظلام الدامس، تحسّس لانغدون السّلم حتى بلغ باب فتحة بمستوى الأرض في الأعلى، فدفعه برفق، وانفرج قليلاً، وتسَلَّل النور عبر الفتحة. أغمض عينيه لحظة، قبل أن يُعاود رفع الغطاء تدريجيّاً. أخيراً، أطلّ من الشّق، وراح يتفحص الشرفة بحثاً عن أي مخرج، حتى لو كان نافذة تفضي إلى السطح. لكن لا شيء، مجرد جدران من الكتب القديمة التي ترتفع وصولاً إلى جداريّة السقف المُقوّس فوقه.

فتح لانغدون الغطاء بهدوء تامّ، ووضع على الأرض، ثمّ صعد درجةً إضافية، حتى أصبح بإمكانه النظر عبر حافة الشرفة. في الأسفل، عند الطرف الآخر من المكتبة، رأى بافيل يقف مديراً ظهره إليه، وقد ألصق وجهه بخزانة عرض المخطوطة الضخمة... كما لو كان يتأمل التحفة بإعجاب.

غير أن بافيل لا يبدو من النوع الذي قد يهتمّ بالمخطوطات القديمة، لا سيّما في هذه اللحظة. فجأة، سمع لانغدون صوت صرير حادّ، ورأى الخزانة تتحرّك عدّة إنشات. عندئذٍ، أدرك أنّ الملازم لم يكن يتأمل المخطوطة، بل كان يحاول دفع خزانة العرض الضخمة على الأرض.

لماذا؟ فهذا المكعب يزن نصف طن على الأقل!

أثارت الخدوش التي خلفتها خزانة العرض على الأرض الخشبيّة الفاخرة استياءه، لكنّ الأهم كان السّلم العتيق المُلقي قرب الخزانة. فسرعان ما اتّضحت نوايا بافيل. إنه قادم إلينا. من الواضح أنّ المكعب بدا له متيناً بما فيه الكفاية ليحمل قاعدة السّلم. وعلى ما يبدو، كان بافيل يملك القوة اللازمة لتحريكه. تحرّكت الخزانة بضعة إنشات أخرى، ومع كلّ دفعة، كان يزداد اقتراباً منهما. سيستغرق تحريكها مسافة كافية وقتاً وصبراً، لكن يبدو أنّ بافيل يملك فائضاً من كليهما.

إذا نجح في الوصول إلينا، فلن يكون أمامنا مكان آخر للاختباء. لا مفرّ من هذه الغرفة المُغلّقة.

أخذ لانغدون يبحث بيأس عن مخرج، وارتفع نظره إلى السقف، كما يفعل دائماً حين يبحث عن إلهام. راح يتأمل مساحة الرسوم الجداريّة التي تُزيّن القبة، حتى استغرق تماماً في جمالها؛ لوحة تصوّر قدّيسين يسوعيين⁽¹⁾ مُستغرقين في القراءة والكتابة وسط الغيوم، في مشهد يُمجّد المعرفة.

فكّر يا روبرت.

(1) من أعضاء جمعية يسوع (Jesuits)، التي أسّسها القديس إغناطيوس دي لويولا.

في أثناء شروده في الرسوم المذهلة، توقّف نظره فجأة عند جسم غير مألوف يختبئ بين
السُّحُب المُتناثرة للجداريّة.
كان قرصًا معدنيًا صغيرًا.
هالة براقّة من نوع ما...

كان لانغدون واثقًا من أنّ هذا القرص المعدنيّ لم يكن جزءًا من العمل الأصليّ
للفنان. وبالرغم من انزعاجه من هذا الدخيل غير المُنسجم مع محيطه، إلّا أنّه - حين وقع
بصره عليه - شعر كأنّ السَّقْف انشقّ... وفتح له طريقًا إلى الخلاص.

الفصل 67

وصلت الضابطة الميدانية هاوسمور إلى حصن الصليب لتجد المكان خاليًا تمامًا من السيارات، ومن أي أثر للحياة، فضلًا عن أنّ الباب الأمامي كان مُحطَّمًا. تُرى، ما الذي جرى هنا؟ رفعت مسدسها بحذر، ثمّ خطت إلى المدخل المكسوّ بشظايا الزجاج، فأصدرت خطواتها صوت طحن واضحًا.

شعرت بالارتياح حين وجدت باب المختبر الفولاذي لا يزال سليمًا ومقفلاً، فتقدّمت عبر الرواق نحو مكتب غُسّير وغرفة الاستقبال التابعة له.

أين الجميع؟

أجرت اتصالًا عبر تطبيق سيغنال مع السيّد فينش، وأبلغته بما رآته. قال فينش، وصوته مشوب بتوتّر غير مألوف: "طائرتي غادرت لندن منذ قليل. أغلقتي المبنى، وامنعني الدخول والخروج. استعملي القوة القاتلة إن لزم الأمر". وما لبث الاتصال أن انقطع.

* * *

في الطابق الرابع من برج راندوم هاوس، وسط متاهة من أجهزة الكمبيوتر التي تُصدر أزيزًا عاليًا، عدّل العميل تشينبرغ سمّاعتي الرأس على أذنيه، وأصغى بانتباه إلى المحادثة التي كانت تجري على بُعد نحو 12 مترًا، بين جوناس فوكمان وأليكس كونان. كان مُوجّه الليزر الخاص به يتركّز على أنعم سطح استطاع إيجاده، ألا وهو سطح زجاجي يغطّي لوحة تصوّر سفينة غارقة. ولحسن الحظّ، كانت اللوحة تتضمّن محيطًا أزرق، ما أخفى تقريبًا البقعة الزرقاء الصغيرة الناتجة عن شعاع الليزر. والأهم من ذلك، أنّ اللوحة مُعلّقة على الحائط قرب المكان الذي كان فوكمان والفني يتحدثان فيه، بحيث سبّب صوتاهما اهتزازات دقيقة على سطح الزجاج، ولدت بدورها تردّدات دقيقة في شعاع الليزر، ليقوم مقياس التداخل بتحليل أنماط التداخل في شعاع الضوء و"ترجمة" الاهتزازات مجددًا إلى صوت.

كان تشينبرغ يسمع كل كلمة. ولست الوحيد الذي يُصغي.

ففي مكان ما، فوق أوروبا، كان السيّد فينش على متن طائرته الخاصة، يستمع إلى المحادثة مباشرة في اتصال صوتي عبر الأقمار الصناعية وتقنيّة الصوت عبر شبكة Wi-Fi.

وكان تشينبرغ متأكدًا من أنّ رئيسهما سيُسرّ بما يسمعه. فقبل لحظات فحسب، ساورتهم مخاوف جدّية من أن يكون فنّي بينغوين قد توصل إلى دليل يكشف هوية Q بوصفه المسؤول عن الاختراق. على العكس تمامًا.

ابتسم تشينبرغ بسخرية وهو يُصغي إلى رئيس التحرير الذي انفجر غاضبًا في وجه الفنّي الشاب قائلاً: "Library Genesis! هل تمّ اختراقنا من قِبل مكتبة جينيسس اللعينة؟! إحدى أكثر شبكات القرصنة شهرة في العالم! كيف سمحت لهم باختراق خوادمنا يا أليكس؟!"

كان تشينبرغ قد سمع من قبل بهذه المنظمة الغامضة، المعروفة بين القراصنة باسم LibGen. فقد تأسست المنظمة منذ أكثر من عقد من الزمن على يد علماء روس، وهي تُعدّ اليوم أكبر "مكتبة سرّية" للكتب المقرّصة على الإنترنت؛ سواء أكانت أكاديمية أم أدبيّة. وعلى الرغم من الدعاوى القضائية الكثيرة التي رفعتها كبرى دور النشر ضدها، إلّا أنّ المنظمة ظلّت صامدة بفضل بنيتها اللامركزية الذكيّة من مواقع النسخ المطابقة والاحتياطية. لقد أخطأ الفنّي التقدير؛ نحن في منأى عن الشبهات.

تنفّس تشينبرغ الصعداء، إذ كان بإمكان الأمور أن تسلك منحى آخر. فاختصارًا للوقت، استعان فريقه بشيفرة قديمة جرى تعديلها، لكنّها في هذا العصر الجديد من البحث المُعزّز بتقنيات الذكاء الاصطناعيّ على الشبكة، كان من الممكن أن تترك أثرًا يقود إلى قسم العمليات التابع لـ Q.

لحسن الحظّ، لم يكتشف الفنّي شيئًا.

وكان أقرب تفسير منطقيّ أنّ LibGen حاولت اختراق خوادم بينغوين في الماضي القريب، والليلة، اكتشف الفنّي أثرًا رقميًا من ذلك الاختراق القديم.

في تلك الأثناء، واصل فوكرمان صبّ جام غضبه على جماعة القرصنة الشهيرة، بينما كان الفنّي يطبع على لوحة المفاتيح بسرعة، إمّا بحثًا عن مزيد من المعلومات... أو ربّما لصياغة رسالة استقالته.

فكر تشينبرغ في سرّه: تابع البحث يا أليكس، أنت تلاحق دليلًا خاطئًا.

في تلك اللحظة، شعر تشينبرغ باهتزاز هاتفه، فألقى نظرة على الشاشة.

كانت رسالة مُشفّرة من السيّد فينش، يبدو أنّه اكتفى بما سمعه.

المهمّة أُنجِزت. انسحب حاليًا.

في الطابق السفلي من البهو، كان حارس الأمن مارك دُول مُمدِّدًا خلف المنضدة، عاجزًا عن الحركة، يلوم نفسه بشدة لأنّه لم يُحسِّن التعامل مع الموقف.
حدث كل شيء بسرعة... فشلتُ حين كانت اللحظة تتطلب الثبات.
كان ذلك البلطجيّ مفتول العضلات، الذي سرق مقعده وقبعته الأمنيّة، يفتش الآن في هاتفه ومحفظته، ويدوّن الملاحظات.

تمنّى دُول لو أنّه امتلك بعد النظر الكافي ليتّصل بالرقم 911 عندما وصل هذان الرجلان. فمركز شرطة ميدتاون نورث لا يبعد سوى بضعة شوارع، وكان بإمكان الدوريات الوصول خلال دقائق.

رنّ جرس المصعد، وسمع دُول صوت المُتسلّل الثاني عند عودته إلى البهو.
قال الوافد: "كل شيء على ما يرام. إنهم مُقتنعون بأننا مجرد قراصنة كتب؛ نحن بأمان".

فردّ الضخم ساخرًا وهو يستدير ويبحث إلى جانب دُول: "هذا مضحك. رؤساؤك أغبياء يا مارك. أمل أن تكون أنت أذكى... أذكى بما يكفي لكي لا تذكر لأحد أننا كنّا هنا".
فحدّق دُول إلى عينيّه القاسيتين.

أضاف الرجل: "بالمناسبة، أولادك لطفاء. أرى أنّك تسكن في سانست بارك. بروكلين ليست بعيدة عن العمل، ومنزلك في الشارع السادس والأربعين قرب الحديقة. هذا مناسب لأولادك. أنت تعيش حياة هادئة".
وصلت الرسالة.

رفع الرجل مارك عن الأرض، وأعاد وضع القبعة على رأسه، ثم فكّ الأصفاد البلاستيكية، ووضع المحفظة والهاتف على المنضدة الأماميّة.
وقال بنبرة ساخرة: "لم يحدث شيء. والآن، عُدّ إلى عملك".

راقب دُول الرجلين وهما يعبران البهو بهدوء باتجاه الأبواب الأربعة؛ بابان متأرجحان وآخران دوّاران. كانا في طريقهما إلى الباب المتأرجح الذي دخلا منه، لكن قبل أن يبلغا الهدف، مدّ دُول يده إلى أحد الزرّين تحت المنضدة، وضغطه بصمت، مُفعِّلًا القفل التلقائي لكلّ الأبواب.

وحين وصل الرجل مفتول العضلات إلى الباب ووجده مُغلّقًا، صاح بغضب: "افتح الباب!"

فأجابه دُول ببرود: "لا أستطيع".
استدار الرجل مصدومًا: "أحقًا؟ أتريد أن تحسبنا هنا معك؟"

"لا، أنا أعني حرفيًا أنني لا أستطيع. فأنا لا أتحكم بالأبواب، إنه نظام آلي... مبنى أخضر وما إلى ذلك، يُحافظ على حرارة الردهة. في الشتاء، الأبواب الدوّارة وحدها..."
"لكننا دخلنا عبر هذا الباب اللعين!"
"ببطاقة موظف. أما عند الخروج، فكلّ الموظفين مُلزَمون باستخدام الأبواب الدوّارة. حتّى الحمقى".

فقال الرجل مُهدّدًا وهو يندفع نحو الباب الدوّار مع شريكه: "أنت محظوظ لأننا على عجلة من أمرنا".

ضغط دُؤل الزرّ مُجدّدًا، ففتّحت الأبواب الأربعة بصمت.

كانت الأبواب الدوّارة في برج راندوم هاوس كبيرة الحجم، ممّا يعني أنّه بإمكان مجموعة صغيرة أن تشارك القسم نفسه. وكان دُؤل سعيدًا برؤية الرجلين يدخلان حيّزًا واحدًا، ويتقدّمان إلى الأمام. ثمّ بدأ الباب بالدوران بعكس اتّجاه عقارب الساعة. راقبهما بهدوء، وإصبعه تحوم فوق الزرّ. وحين أكمل الباب ربع دورة، ضغط الزرّ مرّة ثالثة، مُعيدًا تفعيل كلّ الأقفال؛ فتوقّف الباب فجأة، عالِقًا في منتصف الدورة، ومُحكّمًا حبس الرجلين في زنزانة زجاجيّة صغيرة.

وبينما طلب دُؤل الرقم 911، دوى عبر البهو سيلٌ مكتوم من الشتائم.
فكّر الحارس في سرّه: /اشتما بقدر ما تشاء/، فلا أحد يهدّد أولادي.

* * *

ظلّ جوناس فوكمان يواصل مسرحيّته ويصبّ جام غضبه على قراصنة الكتب بعد اختفاء نقطة ميكروفون الليزر وانغلاق الباب، لمجرّد التأكّد من أنّ المُتنبّص قد غادر بالفعل. كان واضحًا أنّه لا علاقة لقرصنة الكتب باختراق خوادم بينغوين، لكنّ الحقيقة كانت أسوأ بكثير.

في الواقع، ما زال فوكمان مذهولًا من الاختصار الذي كتبه أليكس، ولم يفهم بعد سبب شنّ مجموعة كهذه حملة مُنسّقة دوليًا ضدّ كاثرين سولومون وكتابتها غير المُشور. وكان واضحًا أنّهم يملكون ما يلزم من الموارد والنفوذ لفعل ذلك.

داهمه شعور بالخوف حين أدرك فجأة أنّ هلع أليكس بشأن روبرت لانغدون وكاثرين لم يكن مُبالغًا فيه على الإطلاق. كما خطر له أنّ من اقتحم برج راندوم هاوس لا بدّ أنّه مرّ بالحارس الليليّ الودود، مارك دُؤل.

فما كان منه إلّا أن اتّصل بمكتب الأمن للاطمئنان عليه، لكن لم يجبه أحد. تبا.

عندئذٍ، خشي الأسوأ، فانطلق يجري نحو المصاعد. وما إن وصل إلى الطابق الأرضي، حتّى اندفع إلى البهو، مُتوقِّعًا مُصيبة بانتظاره. غير أنّ المشهد أمامه كان هادئًا تمامًا، ومُفاجئًا. إذ كان الحارس الليليّ مارك دُول حيًّا يُرزق، يعطي إفادته بكلّ برودة أعصاب لاثنتين من عناصر الشرطة.

الشرطة هنا؟

تنفّس فوكمان الصعداء حين رآه سليمًا، ثم حوّل نظره فورًا إلى الرجلين المُقيدين بالأصفاد على الأرض قرب الباب الدوّار، وكلاهما يستشيطان غضبًا.

يا إلهي! أهما...؟

لم يستطع تخيل ما حدث هنا، لكنّه لم يُخفِ سروره وهو يقترب من الرجلين المُقيدين والمُمدّدين على جنبيهما.

قال بابتسامة عريضة: "مرحبًا، أهلاً بكما في راندوم هاوس! لم أكن أعلم أنكما من عشاق القراءة".

قال حليق الرأس من بين أسنانه وهو يحدّق إلى فوكمان: "لا تُقدِّم على هذه الخطوة. أنت لا تعرف من لمصلحته نعمل".

فصحّ له فوكمان بعبوس: "بل لمصلحة من تعملان، ظننتُ أننا حللنا هذه المسألة". صاح الرجل غاضبًا، وعيناه تقدحان شررًا: "اغرب من هنا!"

فانحنى فوكمان نحوه وابتسم قائلاً: "أتعرف، أيّها الأصلع، لو كنت تزور المكتبة بقدر ما تزور النادي الرياضي، لعرفت أن كلّ القصص العظيمة تنتهي بالطريقة نفسها"، ثمّ غمزه مُضيفًا: "الأشراار يخسرون دائماً".

الفصل 68

ارتاحت كاثرين عند رؤيتها لانغدون يهبط من الشرفة، وجسده يلوح كظلٍ خافت بفعل الضوء الخفيف المُنبعث من الباب المفتوح فوقهما.
قال لها بالبحاح وهو ينضم إليها على منصّة السلم: "علينا إشعال نار. قولي لي إنك تحملين معك ولّاعة أو أعواد ثقاب".

نظرت إليه بدهشة: "عذرًا، ماذا؟"
"دخان، نحتاج إلى دخان إن أردنا الخروج من هنا".
نظرة لانغدون وحدها أوصلت الرسالة بوضوح. فما رآه من الشرفة أقلقته... غير أنّه ألهمه أيضًا بحلٍّ مُحتمَل.
قال: "كاثرين، أمامنا دقيقتان في الأكثر، قبل أن يندفع مُسلّحٌ مُختلّ عبر هذا السلم".

"أنا... لا أعلم ما إذا كان لديّ شيء. حقيتي في الأسفل —"
"إذا، فلنحضرها حالًا!"

تقدّمت كاثرين بخطى سريعة، وقد بدأت تدرك ما يُفكّر فيه. إن لم تكن أصوات الطلقات قد استرعت انتباه موظفي المتحف، فلن يفلح شيء آخر... سوى التهديد بحريق داخل مكتبة أثرية.

أمس، حين زارت المكان برفقة لانغدون، أشار إلى اللوحة الجدارية المُتقنة التي رسمها يان هيبيل على السقف، مُبدّيًا انزعاجه من الأقراص المعدنية القبيحة التي أُضيفت في السبعينيات. غير أنّ كاثرين كانت شبه واثقة من أنّه الآن مُمتنّ لوجودها؛ على الرغم من التشويه الذي تلحقه بالجدارية.
كوأشف الدخان.

وصلت إلى أسفل السلم، فوجدت حقيبتها، ورفعتها إلى الدرجة الأولى. كانت أثقل من المعتاد اليوم، إذ تحتوي على مسوّد كتابها - أكثر من أربعمئة صفحة - وزجاجة ماء كبيرة. راحت تفتش قاع الحقيبة بيدها في الظلام بحثًا عن أيّ وسيلة لإشعال النار. ومع أنّها كانت تعرف أنّها لا تحمل أعواد ثقاب أو ولّاعة في حقيبتها، إلّا أنّها تعلّمت من برامج النجاة التلفزيونية أنّه بالإمكان إشعال النار باستعمال أشياء كثيرة؛ كالهواتف، والعدسات المكبّرة، والبطاريات، والليفة المعدنية. غير أنّ بحثها لم يثمر عن شيء.

همست للانغدون الذي كان يقف على السلم فوقها: "لا أملك شيئاً؛ لا ولّاعة، ولا أعواد ثقاب، وهاتفي في مكبّ النفايات. لديّ زوج من القفّازات، ومرطب شفاه، ومنشور تعريفيّ عن المتحف، ولوح غرانولا، وزجاجة ماء—"

"لوح غرانولا؟ أهو من الفندق؟"

"نعم، من ميني بار."

"ينفع."

وهل الغرانولا قابلة للاشتعال؟

تابع لانغدون: "ألديك بطاريّات؟ أيّ جهاز إلكترونيّ؟ مصباح، مفتاح إلكترونيّ، سماعات، أيّ شيء؟"

"لا، أسفة يا روبرت". وبعد صمت قصير، أضافت: "مع أنّ الحقيبة... أتت مع شاحن مُدمج. لا أدري—"

"شاحن مُدمج؟ ماذا تقصدين؟"

أجابت وهي تفتح الحقيبة: "شاحن هاتف للحقائب". ثمّ وضعت مخطوطتها الضخمة جانباً، وأرت لانغدون طرف سلك شاحن هاتف بارزاً من بطانة الحقيبة الداخلية. "ميزة تسويقية من شركة كويانا، لكنّها عملية. شحنته قبل الرحلة، لكنني لا أعرف كم—"

قال لانغدون وهو يأخذ منها الحقيبة: "ابقي مكانك، سأخبرك بما عليك فعله بعد قليل".

ومن دون أن يقول المزيد، اندفع مجدّداً إلى أعلى السلم الحلزونيّ.

* * *

قال لانغدون في سرّه: أرجو أن تسامحني على ذلك.

كانت قد مرّت ستون ثانية منذ أن ترك كاثرين في الأسفل، وها هو الآن ينحني على المنصّة في منتصف الدرج. وجد لوح الغرانولا ووضعه جانباً مع مجموعة صفحات المخطوطة. بعد ذلك، بدأ يتحسّس بطانة الحقيبة الحريرية، إلى أن وجد مستطيلاً قاسياً في جيب صغير يُعلّق بشريط لاصق، فأخرجه من مكانه. أهذا شاحن؟ فقد بدا شاحن كاثرين الرقيق أكثر شبهاً ببطاقة ائتمان وردية مزوّدة بذيل. أمل أن يكون ما زال مشحوناً.

رفع الشاحن إلى فمه، ووضع السلك بين أسنانه، ثمّ شدّ بقوة حتّى نزع القابس. بعد ذلك، فصل السلكين، وجردهما بأسنانه، ثمّ قرّب الطرفين المكشوفين أحدهما من الآخر. فجأة، اندلعت شرارة ساطعة أضاءت الظلام للحظة عابرة، فأمل أن تكون كافية.

وضع الشاحن فوق أوراق المسوّدة، وأمسك بلوح الغرانولا الذي كان مُغلّفًا بورق قصدير رقيق؛ كما توقع. فمزّق الغلاف، واقتطع منه شريطًا صغيرًا، ولفّه بأصابعه حتى صار خيطًا معدنيًا. عندئذٍ، وصله بأحد السلكتين العاريّتين، وترك الطرف الآخر مُتدليًا. نظريًا، عند وصل الطرف الثاني، سيمرّ التيار عبر سلك القصدير. ولأنّه موصل رديء، ستنشأ مقاومة حراريّة، تؤدّي إلى تراكم الحرارة... وفي النهاية، اشتعال القصدير. لبضع ثوانٍ فقط.

مع الأسف، ستحترق المادّة فائقة الرقة للحظة فقط، وهذه المدّة لا تكفي لإشعال منشور مُغلّف بطبقة عازلة أو حتى ورقة من أوراق المخطوطة. أمّا إن أراد لانغدون إشعال النار، فسيحتاج إلى شيء سريع الاشتعال... سريع الاشتعال للغاية.

* * *

عند أسفل السلالم، كانت كاثرين تزداد قلقًا كلما طال انتظارها بصمت تعليمات لانغدون التالية. إذ قال لها قبل أن يصعد، /بقي مكانك... سأخبرك بما عليك فعله بعد قليل. كان يتحرّك فوقها على السّلم إلى أن تمرّكز أخيرًا في منتصف الدرج، على الفسحة المعدنية التي كانا يقفان عليها.

بالإضافة إلى صوت حركته فوقها، كانت تسمع أصواتًا أخرى آتية من المكتبة، صريّرًا عاليًا ومُقطّعاً؛ وهو الصوت الذي قال لانغدون إنه ناتج عن نقل خزانة العرض. لقد توقّف الصوت الآن، أدركت كاثرين ذلك، وشعرت أنّ الوقت قد شارف على النفاد.

بقلق مُتصاعد، نظرت مُجددًا إلى الشبكة المعدنية التي كان لانغدون يعمل فوقها. لكنّها فوجئت بتغيّر الضوء المُتسلّل عبر الفجوات؛ إذ لم يعد باهتًا ومُنبعثًا فقط من فتحة الباب أعلاههما... بل صار وهجًا مُترقّصًا.

أهي نار؟

هل فعل ذلك؟!

حبست أنفاسها بدهشة، تنتظر...

وفي غضون ثوانٍ، بدأ الضوء يزداد سطوعًا، فزفرت كاثرين زفرة أمل. لم تكن تدري أيّ حيلة من حيل الكشافة استعمل لانغدون لإشعال النار، لكنّها كانت ترى بوضوح أنّ الشبكة المعدنية التي أشعل النار فوقها وفّرت تهوية مثاليّة من الأسفل. لكنّ دهشتها ما لبثت أن تحوّلت إلى قلق.

كانت رقعة النيران تتسع بسرعة، وتغمر جزءاً أكبر من الفسحة. وسط الضوء المُتوهج، رأت كاثرين أن لانغدون لم يعد فوق الفسحة، بل جثا على درجتين أسفلها، مُواصلاً تغذية النار من الجانب. ومع اتساع رقعة اللهب، بدأت تشعر بسُحب الدخان تتسرب من تحت الباب السريّ، وتندفع صعوداً كتيار هوائي داخل مِدخنة، فتزيد من قوّة اللهب.

لم يكن همّ كاثرين الأوّل في تلك اللحظة ما إذا كان ذلك آمناً أم لا، بل خطر ببالها سؤال آخر تماماً: ماذا يحرق؟! فشدة تلك النيران لا يمكن أن تكون ناتجة عن منشور متحف أو بعض المناديل الورقيّة أو ما شابه من محتويات الحقيبة. ماذا يستخدم كوقود؟! وصلها الجواب بعد لحظة، حين حطّت أمامها على السلم قصاصة ورق مُحترقة جزئياً، وقد طُبعت عليها عبارات لا تزال بعض كلماتها مقروءة. وما لبثت كاثرين أن عرفت الكلمات.

روبرت، لا!

اندفعت إلى أعلى السلم وهي تناديه لكي يتوقّف. وفي طريقها الحلزونيّ إلى الأعلى، أدركت فجأة أنّه طلب منها البقاء في الأسفل لأنّه كان يعلم أنّها لن توافق على خطّته. إنّه يحرق مخطوطتي!

شعرت بحرارة اللهب حين وصلت إلى أسفل الفسحة. ومن خلال الشبكة المعدنية، رأت كومة من صفحات المخطوطة التي كان لانغدون يُواصل تغذية النار بها. كانت الصفحات تحترق بسرعة مُولّدة لهباً ساطعاً.

قالت بصوت لاهث: "توقّف! هذه نسختنا الوحيدة! لا يمكننا خسارتها!" نظر لانغدون إلى الأسفل، وعيناه تلمعان بفعل اللهب، وقال: "لقد خسرتها أصلاً يا كاثرين... أنا أسف. فهذه النسخة الورقيّة ستُصادر فور خروجنا من هذا المكان. وإن حصل ذلك، فسيتبقي كلّ شيء. لذا، من الأفضل أن نستغلّها لإنقاذ حياتنا".

"لكن، ما من نسخة—"

غير أنّه قاطعها وهو يواصل حرق الصفحات: "أرجوك، أصغي إليّ. ثمة أمور لم أخبرك بها بعد، لكنّ ثمة أناس قُتلوا اليوم بسبب هذا الكتاب. وما دمتنا نحمل هذه المخطوطة، فنحن مُستهدفان. لقد نجونا من الطلقة الأولى، لكنّ الثانية لن تخطئنا".

كرّرت قائلة: "يا إلهي! أنتم أناس قُتلوا؟! أسبب مخطوطتي؟!!"

"كاثرين، لقد أقدم مُحترفون على اختراق خادم إلكترونيّ مؤمّن لمحو المخطوطة. واتّهمني ضابط وحدة الاستخبارات التشيكية هذا الصباح بأننا دبّرنا حملة إرهابيّة دعائيّة

لهذا الكتاب. أما بريغيتا غِسْنِر - التي طلبت نسخة مُسَبَّقة - فقد تمّ تعذيبها وقتلها الليلة الماضية. ويبدو أنّ جوناس اختفى. ووحدة الاستخبارات تطاردنا منذ—" بريغيتا غِسْنِر ماتت؟! "

أوماً لانغدون بوجه مُتجهّم: "لا أدعي أنني أفهم كلّ ما يجري، لكن لا شيء يستحقّ أن نصحّي بحياتنا، أو ببعضنا من أجله. ما نفعله الآن هو القرار الصائب، لذا ثقي بي." فكرت في سرّها، وهي ترى الكومة الصغيرة المُتبقّية من الأوراق: تأخّر الوقت على الثقة، فقد سبق لك أن أحرقت معظمها.

* * *

كان رأس الملازم پافيل ينبض من شدّة الإجهاد. فقد أنهى لتوّه دفع خزانة العرض الضخمة على أرضيّة المكتبة، ونجح أخيراً في وضعها أسفل الشرفة. كان المكعب الشفاف أثقل بكثير ممّا يبدو عليه، ويُحتمل أنّ معظم وزنه ناتج عن الشيء الهائل الموجود داخله.

توقّف پافيل هنيهة ليلتقط أنفاسه، وهو يُحدّق عبر زجاج البليكسي السميك إلى الكتاب الضخم داخل المكعب. كان الكتاب شهيراً بما يكفي لجذب الحشود، لكنّه كان مَفْتُوحاً على صفحة غريبة.

هل يدفع الناس المال لرؤية هذا الشيء؟

غير أنّه سرعان ما انصرف عنه، مُتلهّفاً للصعود إلى الشرفة. فحمل السلّم، ورفعهُ ليضعه فوق خزانة العرض، وسرّ حين رأى أنّه أصبح بإمكانه الآن الوصول إلى حافة الشرفة. وقبل أن يباشر بالصعود، التفت ليُلقي نظرة أخيرة نحو الشرفة، ليرى ما إذا كان لانغدون قد عاد إلى رشده وخرج من مخبئه. وبينما كان يسمح بنظره محيط القاعة العلويّ، على طول الشرفة، توقّف فجأة.

في تلك اللحظة، تمنّى پافيل لو أنّ ما يراه مجرّد هלוسة.

ففي الزاوية المُقابِلة من الشرفة - فوق الباب السريّ - رأى عموداً من الدخان الأسود، وبدا له وكأنّه يتصاعد من العدم... وينجرف إلى أعلى نقطة في السقف المُقوّس... ليتجمّع في سحابة سوداء تتقدّم الآن نحو اللوحة الجدارية الثمينة.

لا...

لكنّ الألوان كان قد فات.

فبعد ثانية واحدة، دوّت أجهزة إنذار الحريق.

الفصل 69

ما إن انطلق إنذار الدخان، حتّى سمع الملازم پافيل المرشد وهو يفتح أقفال أبواب المكتبة الباروكية بجنون.

اشتعل پافيل غضبًا: كانت أوامري واضحة! ابقَ في الخارج!

لكن على ما يبدو، إنّ خطر اندلاع حريق في مكتبة عتيقة يتجاوز حتّى أوامر جهاز الاستخبارات التشيكية؛ إذ اندفع المرشد إلى الداخل بجنون، وراح يتلفت في كلّ اتجاه بحثًا عن مصدر الدخان.

كان پافيل في أقصى طرف القاعة، واقفًا على صندوق العرض، يستعدّ لتسلّق السلم نحو الشرفة. غير أنّ المرشد لم يلاحظه مطلقًا، بل راح يجري نحو الدخان المتصاعد من فوق الشرفة، وتوجّه مباشرة إلى الباب المخفيّ خلف رفوف الكتب، مُحاولًا عبثًا فتحه.

فكر پافيل في سرّه، وهو يبدأ بتسلّق السلم: ما زلت أستطيع قتل لانغدون. العين بالعين. دخل موظفان آخران من المتحف، يحملان مظفّاتي حريق، وهما يصرخان ويحاولان فتح الباب السريّ من دون تحطيمه، لكن بلا جدوى. غير أنّ الدخان المتصاعد من باب السقف بدأ يخفّ بسرعة، كما لاحظ الجميع.

كان پافيل قد بلغ مُنتصف السلم حين رآه أحد المرشدين، فاندفع الرجل المُسنّ نحوه، وقد بدا عليه الدُعر عند رؤيته شخصًا يتسلّق سلمًا باليًا موضوعًا فوق تحفة لا تقدّر بثمن.

فصرخ المرشد بالتشيكية وهو يقترب منه: "Co to sakra děláš?!"

ماذا تفعل، حبّبالله؟!

تجاهله پافيل، ومضى في طريقه.

وحين اقترب من القمّة، شعر بالدخان يخترق رثّيته. كان الضباب الكثيف قد تجمّع فوقه مباشرة، عند قبة السقف، غير أنّ مراوح التهوية بدأت تعمل بفاعلية، وسرعان ما راحت تُبدّد الدخان.

وصل پافيل إلى أعلى السلم، وأطلّ من فوق حاجز الشرفة نحو باب السقف في الطرف الآخر، والذي كان لا يزال مفتوحًا بالكامل. كانت خدعة الدخان التي نفّذها الأميركيّ ذكيّة، لكنّها على وشك أن تنقلب عليه. لانغدون لن يراني قادمًا إليه. وحتى لو فُتح لانغدون الباب واندفع إلى قاعة المكتبة، فإنّ پافيل يملك الآن أفضلية الأرض المُرتفعة... وذلك لأنّه في موقع مثاليّ لإطلاق رصاصة قاضية.

صبرًا، هكذا أوصاه النقيب، وها هو الصبر يؤتي ثماره. مدّ يده ليمسك بالحاجز الحديديّ للشرفة، استعدادًا لتخطّيه، حين علا صوت نسائيّ من مدخل المكتبة، بنبرة امرأة: "ملازم پافيل! قف مكانك!"

تجمّد پافيل في مكانه على أعلى درجة من السّلم، واستدار نحو مصدر الصوت. راح يرمش بجفّتيه مرارًا، مُحاولًا أن يفهم ما يجري الآن. فمشهد المرأة التي كانت تقترب منه بدا أقرب إلى سراب، بحيث ظنّ أنّه ناتج عن هلوسات بسبب الدخان وضربة الرأس التي تلقّاها.

كانت القادمة امرأة أنيقة، ذات شعر داكن، فاتنة الجمال، لا بل من أجمل النساء اللواتي وقع عليهنّ نظره. تقدّمت بخطوات واثقة، بساقيّها الرشيقَتين، كما لو كانت عارضة أزياء على منصّة العرض. كان من الممكن أن تكون صورة من تخیلات پافيل... لولا مشكلة صغيرة؛ إذ كانت تسير وإلى جانبيّهما عنصران من المارينز، بكامل عتادهما.

* * *

في بئر السّلم، عند منصّة السّلم الحلزونيّ، وقف لانغدون فوق كومة الرماد التي يتصاعد منها الدخان، للتأكّد من أنّ آخر شرارة قد انطفأت تمامًا. كان هذا الحريق برعاية بروكتر آند غامبل؛ فكّر في ذلك مُمتنًا للعبوة الصغيرة من مُعقّم اليدين التي وجدها في قاع حقيبة كاثرين.

كان الهلام المُعقّم يحتوي على ٨٠٪ من الكحول، وقد مسح به لانغدون الصفحة الأولى من مخطوطة كاثرين بسخاء، قبل أن يلفّ الورقة على شكل أنبوب، ليركّز الأبخرة القابلة للاشتعال. بعد ذلك، أدخل الأنبوب في الشبك المعدنيّ لتثبيتته بوضعية عموديّة، وأشعل ورق القصدير الموضوع فوق فوّته بوساطة الشاحن. وكما توقّع، احترق ورق القصدير بسرعة، لكنّ تركيز الأبخرة الكحوليّة انفجر بوميض خاطف، فاشتعل الأنبوب المُبلّل بالهلام.

والباقي حدث بسرعة.

احترق ورق الطابعة التشيكيّ الخفيف أسرع ممّا توقّع لانغدون، وللحظة، خشي أن يكون قد ارتكب خطأ فادحًا وعرض المكتبة الثمينة كلّها للخطر. فقد استعر اللهب خلال ثوانٍ قليلة. وفي أثناء تغذيته النار بمزيد من الصفحات، أفرغ أيضًا ما تبقى من عبوة الماء الخاصة بكاثرين، وألقى العبوة البلاستيكيّة على صفحات المخطوطة، فانبعثت سحب كثيفة من الدخان الأسود مع ذوبانها.

نادرًا ما كان لانغدون يستشهد بشكسبير، لكنّ ما حدث بدا وكأنه يستحقّ سطرًا من أعماله. كلّ شيء حسن إن انتهى على خير. قالها في سرّه مطمئنًا نفسه، وهو يفكر في أنّه كان على بُعد خطوة من حرق مكتبة لا تقدّر بثمن، أو تلقّي رصاصة قاتلة.

والآن، بعد أن تأكّد من أنّه لم يترك أثرًا للنار خلفه، حمل حقيبة كاثرين، التي باتت أخفّ وزنًا بكثير من دون المخطوطة والماء. كانت قد هبطت السّلّم بصمت، مُنهّزة عند رؤيتها صفحات عملها تحترق. غير أنّ لانغدون كان واثقًا من أنّها ستفهم في النهاية أنّه استخدم الوسائل المُتاحة لهما بأفضل ما يمكن.

ما زلنا على قيد الحياة.

في أثناء نزوله الدرج، سمع أصوات مُحادثات عدّة من الجهة الأخرى لباب المكتبة، وتمنّى أن يكون من بينهم عناصر أمن المتحف.

في تلك اللحظة، دوى صوت رجولي عبر الباب، ولكنه أميركيّة واضحة:

"سيد لانغدون؟! أنا الحارس مورغان ددلي من عناصر المارينز التابعين للسفارة!"

تبادل لانغدون وكاثرين نظرة ذهول. هذا كان سريعًا.

تابع الرجل: "يمكنك الخروج الآن، يا سيدي. أوكد لك أنّ الملازم التابع لجهاز الأمن التشيكيّ، الذي هدّدك، قد سلّم سلاحه، وأنّ التنبيه الأزرق قد ألغي".

لم يكن لانغدون يعلم شيئًا عن التنبيه الأزرق، لكنّ وجود عناصر من السفارة بدا له أفضل بالتأكيد من عناصر الاستخبارات.

تابع الصوت من الخارج، بنبرة مُهدّبة ولكن حازمة: "افتح الباب، يا سيدي".

سارعت كاثرين إلى فكّ كمّ معطفها الطويل عن مقبض الباب. غير أنّ لانغدون همس لها وقد انتابه بعض التردّد: "مهلاً، قد يكون ضابطًا من جهاز الاستخبارات، يتحلّ صفة أميركيّ".

سواء أكان الرجل في الخارج يقرأ الأفكار أم إنّهُ سمع التعليق، لم يعرف، لكن في اللحظة التالية، انزلت من تحت الباب بطاقة تعريف بلاستيكيّة. لم يتمكّن لانغدون من قراءة النصّ الصغير في الإضاءة الخافتة، لكنّ ما أراحه بحقّ كان الرمز المحفور عليها: نسر يحمل درعًا من النجوم والخطوط.

* * *

خارج الباب السريّ، كانت دانا دانك تنتظر فتح الباب بقلق. إذ لم تكن قد مضت عشر دقائق على اقتحام السفارة ناغل مكتبها، لتصدر لها أمرًا عاجلاً، أن ترافق عنصرين من المارينز إلى كليمنتينوم لإنقاذ حياة أميركيّ.

فَكَرَّت دانا: وَقَدْ أُنجِزَت المهمةُ، وإنْ بصعوبةٍ.

كان قد تمَّ إخراج الملازم پافيل من المكتبة، واقتياده إلى غرفة احتجاز، فضلًا عن إبلاغ رؤسائه بالأمر. أمّا الجهاز، فقد ساد فيه سخط شديد إثر تدخّل السفارة الأميركية في قضية تنبيه أزرق رسميّة - مهما كانت خلفيّاتها - لكن لم يكن أمامهم خيار سوى "سحب التنبيه" فورًا.

وعندما فُتِح الباب السريّ أخيرًا، ظهر روبرت لانغدون من العتمة خلفه، مُغمضًا عينيه قليلًا وقد بهره الضوء. فتنفّست دانا دانيك الصعداء لرؤيته سالمًا، لكنّها ما لبثت أن فوجئت عندما رآته يخرج برفقة امرأة. وقد عرفت ملامح وجهها الراقية على الفور. كاثرين سولومون.

الفصل 70

بعد البرد الذي قاسته كاثرين على السلم الحلزوني، استمتعت بالدفع النسبي في أروقة كليمنتينوم، بينما كانت الأنسة دانك الجذابة- مسؤولة العلاقات العامة في السفارة- تُسرّع بهما نحو مخرج المتحف.

كان عنصر المارينز قد فتّش المكان المحيط بالبواب السريّ، والتقطا صورًا لكومة الرماد على منصّة السلم، وجمعا القصاصات المُتفحّمة من صفحات المخطوطة المُبعثرة على الأرض. واهتمامهما الواضح بتلك البقايا المُحترقة- مهما بدا غير معقول- يُعزّز ما قاله لانغدون عن أنّ مخطوطتها كانت فعلًا في صلب ما يحدث هذا اليوم.

لكن لماذا؟

بدأت كاثرين تشعر بأنّ لانغدون قد يكون اتخذ القرار الصائب؛ فالمخطوطة جعلتهما هدفًا، والتخلّص منها أنقذ حياتيهما.

على الرغم من ذلك، إنّ مجرد التفكير في اضطرابها إلى إعادة كتابة مخطوطتها من جديد ملأها برعب لم تكن قادرة على مُواجهته في تلك اللحظة. في الواقع، كان لانغدون قد لمّح إلى أنّ دار بينغوين قد تتمكّن من استرجاع نسخة رقيّة من الخادم الذي تعرّض للاختراق، أو أنّ القرصنة قد يُطالبون بفدية معقولة. فأملت أن يكون مُحقّقًا، أو ربّما تحدث أعجوبة غير مُتوقّعة.

قالت في سرّها: المهمّ أنّنا على قيد الحياة... وهذا كافٍ للمضيّ قُدّمًا.

لكنّها لم تصدّق أنّ بريغيتا غُسّير قد ماتت، ومن الواضح أنّ لانغدون لم يخبرها بعد كلّ شيء عن صباحه الحافل. فقد أبلغ دانا دانك قبل قليل أنّه يشعر بقلق بالغ على سلامة شخصيّين: مايكل هاريس؟ ساشا فيسنا؟ لم يكن الاسمان مألوفين لديها.

والأغرب من ذلك، حين طلب لانغدون من الأنسة دانك استعارة هاتف للاطمئنان على جوناس فوكمان رفضت؛ قائلة إنّ السفارة أصرت على منع أيّ اتصال خارجيّ إلى أن يُنقل لانغدون وكاثرين إلى مكان آمن، وتتمّ إحاطتهما بالكامل بحقيقة الوضع... حفاظًا على حياتيهما.

حفاظًا على حياتيّنا؟!

كان لانغدون يسير بجانبها، فمدّت يدها وأمسكت بيده. تقدّمت المجموعة، بقيادة جنديّ المارينز المُسلّحين، عبر سلسلة من الباحات المُقنطرة والأروقة الحجرية، وصولًا

إلى ساحة ماريان المُزْدَحِمَة. أمامهم مباشرة، كانت أعلام مبنى بلدية المدينة الجديد ترفرف بفعل الرياح القارسة، بينما راحت صفّارات سيّارات الإسعاف والشرطة تزداد ارتفاعاً من بعيد. وبدأ أنّ جنديّ المارينز سمعا هذه الصفّارات أيضاً، إذ أخذا يحثّان المجموعة على الإسراع. فشدّ لانغدون على يد كاثرين أكثر، وتبعا الجنديّين بسرعة عبر الساحة نحو السيارة التي كانت تنتظرهم.

فكرت كاثرين في سرّها بدهشة: *أهذه سيارتنا؟ من المستحيل ألا يلاحظنا أحد.* كان أحد عنصريّ المارينز يفتح باب سيارة ليموزين سوداء فارغة، تحمل شعار السفارة الأميركيّة على جانبها، وعلى مقدّماتها علّمان صغيران، أحدهما تشيكيّ والآخر أميركيّ، وكلاهما ملوّنان بالأحمر والأبيض والأزرق. وكانت السيارة قد بدأ تستقطب الأنظار في الساحة.

قالت الأنسة دانيك: "اعذرانا على هذا الطابع الرسميّ... لكنّ السيارات الدبلوماسية توفّر مستوى من الحماية من السلطات المحليّة، وقد وجدت السفيرة الخيار الأسلم. تفضّلا بالصعود".

ومن صوت صفّارات الإنذار المتصاعِد، أدركت كاثرين أنّ الحصانة الدبلوماسية قد تكون فكرة جيّدة فعلاً. لكن حين همّت بالتقدّم نحو السيارة، أوقفها لانغدون بلطف، مُمسِكاً يدها بإحكام.

في تلك الأثناء، اقتربت صفّارات الإنذار أكثر. قال أحد عنصريّ المارينز: "سيّدتي، عليكما الركوب فوراً". إلّا أنّ يد لانغدون بقيت ثابتة لا تتحرّك، وعيناه مُتسمّرتان على العلم الأميركيّ المُرفرف فوق غطاء مُحركّ السيارة. لم تكن كاثرين تعرف ما يدور في خلده، لكن لسبب ما، بدا لانغدون مُتردّداً حيال ركوب السيارة.

صاح جنديّ المارينز فجأة: "اصعد حالاً، سيّدي!" فقد ظهرت عند ناصية الشارع سيّارات سوداء تابعة لجهاز الاستخبارات التشيكيّة، وكانت تتقدّم بسرعة بأضوائها الواضحة. "حالاً!"

نقل لانغدون بصره بين العلم، ومقصورة السيارة، وأضواء السيارات القادمة... أخيراً، وبحذر من يختار أهون الشّرّين، ساعد كاثرين على الركوب، قبل أن يصعد بعدها. أغلّق الباب خلفهما بقوة، تزامناً مع وصول قافلة الاستخبارات، وهي تخترق بصوت صفّاراتها صباح المدينة البارد.

وقفت دانا دَانِك على الرصيف، تراقب سيارة السفارة وهي تنطلق مُبتعدة بسرعة. لم تكن مُتأكدة ممّا تسبّب في تردّد لانغدون قبل أن يصعد، لكنّ الأمر لم يعد مُهمًّا الآن. فبما أنّ الاثنين أصبحا تحت سلطة السفارة، تكون دانا قد أدّت مهمّتها بالكامل.

كانت قد اتصلت فعلاً بالسفيرة ناغل، التي بدا الارتياح في صوتها حين علمت أنّ لانغدون وكاثرين سولومون لا يزالان على قيد الحياة. لكنّ دانا كانت تملك الآن معلومة إضافية... مُقلقة للغاية، فانسحبت إلى ركنٍ هادئ خلف تمثال عند زاوية مبنى البلدية، واتّصلت مجدّداً بالسفيرة.

قالت حين تمّ تحويل المكالمة إلى السفيرة: "ثمّة أمر آخر عليّ إبلاغك به، سيّدي. فقد تكلمت مع البروفيسور لانغدون، وقال إنّّه يشعر بقلقي بالغ حيال سلامة ساشا فيسنّا..." صمتت قليلاً - وقد غصّ صوتها بالعاطفة - قبل أن تتابع: "وكذلك بشأن... مايكل هاريس".

ردّت ناغل باستغراب: "هاريس؟ وهل أخبرك لانغدون عن سبب قلقه؟" باتت دانا على علم الآن بطبيعة "العلاقة" الحقيقيّة بين مايكل وساشا فيسنّا. وعلى الرغم من ارتياحها لأنّ تلك اللقاءات لم تكن باختياره، إلّا أنّها شعرت بغضب داخليّ شديد لأنّ السفيرة زجّت به في هذا الموقّف أصلاً. حبّاً بالله! إنّهُ مجرد ملحق ثقافيّ، وليس عميلًا ميدانيًا مُدربًا!

ردّت دانا: "لم يتسنّ لنا الوقت للحديث، لكنّه أخبرني أنّه كان من المفترض أن يلتقي بمايكل وساشا في شقة هذه الأخيرة، لكنّ أمرًا ما حصل. وطلب منّي أن أرسل أحدًا إلى هناك للاطمئنان عليهما، كما أعطاني مفتاح شقّتها".

"أبحوزته مفتاح شقة ساشا؟"

نظرت دانا إلى سلسلة المفاتيح زهيدة الثمن من Krazy Kitten التي أعطها إياها لانغدون، وقالت: "هي من أصرّت عليه كي يحتفظ به... تحسّبًا، إن احتاج إلى مكان آمن".

ساد صمت غير مألوف من طرف السفيرة، إلى أن قالت أخيرًا: "حسنًا، سأرسل سكوت كيربل فورًا ليصطحبك. يمكنه مرافقتك إلى شقة ساشا".

أنا؟! لم تتوقّع دانا أن يتمّ إرسالها هي شخصيًا، ولم تعرف ما إذا كان ذلك عقوبة لها أم ثقة بها. على أيّ حال، قرّرت ناغل أن تُرسل معها أحد أكثر عناصر المارينز مهارة وثقة لديها، حرصًا منها - على ما يبدو - على ألاّ تتدهور الأمور أكثر في هذا اليوم.

على الرغم من الهواء الدافئ المُتدفّق من فتحات التهوية في الليموزين، كانت القشعريرة لا تزال تسري في أوصال كاثرين سولومون وهي تستمع إلى رواية روبرت لانغدون لما حصل له صباحًا.

"يا إلهي! روبرت... لا أجد ما أقوله". فمشهد المرأة على الجسر - وهي تعيد تمثيل كابوسها - أفقدها القدرة على التعبير.

وبينما كانت السيارة تشقّ طريقها على طول النهر باتجاه السفارة، أخبرها لانغدون أمرًا مُزعجًا آخر؛ وهو ما جعله يتردّد قبل أن يركب الليموزين.

شعار السفارة الأميركية على جانبي السيارة.

وفي أثناء شرحه ما حدث، أدركت كاثرين أنه تعرّض لما يُعرّف في علم الوعي باسم "المعالجة البصرية المتأخّرة"، وهي ظاهرة شائعة عند أصحاب الذاكرة التصويرية. فهوّلاء يسجّلون كمًّا هائلًا من التفاصيل البصرية، ممّا يجعل الدماغ يعالج المعلومات في وقت لاحق وليس في لحظتها. وفي الواقع، فإنّ معظم ما يُخزّنه بصريًا لا يُسترجع إلّا إذا حاول الشخص استحضاره على نحو ناشط.

أو... إذا ظهر مُحفّز مُعيّن.

في الواقع، أعاد شعار السفارة الأميركية على باب السيارة إلى ذهن لانغدون ذكرى من ذلك الصباح؛ ذكرى بطاقة صغيرة مطبوع عليها الشعار نفسه، مُرفّقة بباقتين من أزهار التوليب الحمراء والبيضاء والزرقاء، أرسلت إلى الفندق من قبل السفارة الأميركية.

قال لانغدون: "حين عدت إلى الغرفة صباحًا، كانت النافذة المُطلّة على الخليج لا تزال مَفْتُوحَة على مصراعَيْها. ولاحظتُ أنّ بطاقة السفارة سقطت على الأرض. كانت الغرفة باردة للغاية، وقد بدأت الأزهار تذبل بفعل شدّة الريح. وبينما كنت أُغلق النافذة، لمحت عودًا معدنيًا، يعلوه قمع بلاستيكيّ شفاف... كان مخفيًا بين سيقان الأزهار".

مرّر لانغدون يده في شعره الداكن، مُحاولًا استرجاع مزيد من التفاصيل. "في ذلك الوقت، لم أعر الجهاز اهتمامًا، وحسبته مجرد مقياس للرطوبة أو ما شابه ذلك. لكن الآن، وبعد كلّ ما حدث، أدركت أنّني رأيت جهازًا مُماثلًا في قاعة بوسطن السيمفونية... ميكروفونًا شبه كرويّ يُعلّق فوق الأوركسترا لالتقاط أدق نغمات العزف".

قالت كاثرين مُتلعثمة: "مهلاً... هل تعتقد أنّ الأزهار كانت مُزوّدة بجهاز تنصّت؟! "فهزّ رأسه: "كنا نجلس قربها تمامًا عندما تحدّثنا عن كابوسك ليلة البارحة؛ إنّهُ التفسير الوحيد. إن سمع أحدهم ما قلّته عن الكابوس —"

قاطعته مُحْتَجَّة: "لَكِنَّ الْأَمْرَ غَيْرَ مَنْطِقِيٍّ إِطْلَاقًا! لِمَاذَا تَتَنَصَّصَت عَلَيْنَا سَفَارَتَنَا نَحْنُ؟! وَحَتَّى لَوْ كَانُوا يَتَنَصَّصُونَ وَاسْمَعُوا مَا حَلَمْتُ بِهِ، فَلِمَاذَا يُقَدِّمُونَ... عَلَى إِعَادَةِ تَمَثِيلِهِ؟"
"لَا أَعْرِفُ، لَكِنِّي أُنَوِي سَوْالَ السَّفِيرَةِ حَالِمًا نَصِلُ إِلَى السَّفَارَةِ".
قَالَتْ كَاثَرِينَ: "نَحْنُ لَسْنَا ذَاهِبِينَ إِلَى السَّفَارَةِ. فَقَدْ سَمِعْتَ دَانَا وَهِيَ تَطْلُبُ مِنَ السَّائِقِ أَنْ يَصْطَحِبَنَا إِلَى مَقَرِّ إِقَامَةِ السَّفِيرَةِ".

نَظَرَ إِلَيْهَا لَا نَغْدُونَ بَدَهْشَةً: "وَلِمَاذَا؟"
هَزَّتْ كَتَفَيْهَا: "رَبَّمَا ظَنَنْتَ أَنَّ مَنَزْلَهَا سَيَكُونُ مَرِيحًا أَكْثَرُ؟"
لَكِنْ مِنْ مَلَامَحِ الْقَلْقِ الَّتِي بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ، فَهَمَّتْ أَنَّهُ رَأَى فِي ذَلِكَ الْعَكْسَ تَمَامًا.
قَالَ هَامِسًا: "لَا تُطَبَّقْ تَدَابِيرُ الْحِمَايَةِ الْخَاصَّةُ بِالْمَوَاطِنِينَ الْأَمِيرَكِيِّينَ إِلَّا دَاخِلَ مَبْنَى السَّفَارَةِ نَفْسِهِ، وَالسَّفِيرَةِ تَعْرِفُ ذَلِكَ. وَاللِّقَاءُ فِي مَقَرِّ إِقَامَتِهَا يَعْنِي أَنَّنَا مَا زَلْنَا أَنَا وَأَنْتِ... بِلَا حِمَايَةٍ؛ مَكْشُوفَيْنَ".

شَعُرَتْ كَاثَرِينَ بِوُخْزَةٍ ذَعَرَ. مَا الَّذِي قَدْ يَرِيدُونَهُ مِنَّا؟ وَتَمَنَّتْ لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَوَافِقْ عَلَى طَلْبِ غَسْنِيرٍ بِالْقَاءِ مُحَاضِرَةٍ فِي بَرَاغٍ.
مَالَ لَا نَغْدُونَ نَحْوَهَا وَهُوَ يُحَدِّقُ إِلَى عَيْنَيْهَا: "مَهْمَا كَانَ السَّبَبُ، فَكُلُّ مَا يَجْرِي يَتَمَحَوَّرُ حَوْلَ كِتَابِكَ يَا كَاثَرِينَ. لِذَا، عَلَيْنَا أَنْ نَتَحَدَّثَ فِي الْحَالِ. بَقِيَتْ أَمَامَنَا بَضْعُ دَقَائِقٍ فَقَطْ، وَيَجِبُ أَنْ تَخْبِرَنِي بِكُلِّ شَيْءٍ. مَا الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ الْمَخْطُوطَةُ؟ مَا الَّذِي اكْتَشَفْتِهِ؟"
كَانَتْ كَاثَرِينَ تَأْمُلُ أَنْ يَقْرَأَ لَا نَغْدُونَ تَجَرِبَتَهَا وَاسْتِتَاجَاتَهَا بِتَأْنٍ، لَكِنَّ هَذِهِ الرِّفَافِيَّةَ لَمْ تَعُدْ مُتَّاحَةً.

لَمْ يَعُدْ لِلْمَخْطُوطَةِ وَجُودٌ... وَلَمْ يَعُدْ لِدِينَا وَقْتُ.
هَمَسَتْ وَهِيَ تَقْتَرِبُ مِنْهُ عَلَى الْمَقْعَدِ: "حَسَنًا، سَأُخْبِرُكَ".

الفصل 71

في قلب حيّ التسوّق الراقي في براغ، تختبئ رقعة صغيرة من الأرض التي لم يمسه أحد، تطوّقها جدران حجرية. لخمسة قرون، ظلّت هذه البقعة شاهداً صامتاً على تعصّب البشرية. المقبرة اليهودية القديمة، دخل الغولم عبر البوابة إلى هذا الملاذ المكسو بالطحالب، والذي تتوزّع فيه الأشجار.

امتدّ أمامه المشهد المخيف، الذي تلاصقت فيه شواهد القبور؛ أكثر من اثني عشر ألف شاهد في هذه المساحة الضيقة. كانت الشواهد القديمة متراصة بإحكام، لدرجة أنّ عددًا كبيرًا منها كان يلامس بعضه بعضًا... مائلًا في كلّ اتجاه، بحيث بدا المكان أشبه بمخزن لشواهد القبور، منه بأيّ نوع من المدافن.

ومع أنّ المساحة لا تتجاوز ثلاثة أكرات، إلّا أنّ ترابها يحتضن أكثر من مئة ألف جثة. ففي القرن الخامس عشر، كان يُفرض على اليهود في براغ العيش على هامش المجتمع، معزولين في حيّ خاص. وحين احتاجوا إلى مكان لدفن موتاهم، لم يُمنحوا سوى هذه الرقعة الصغيرة.

ولمّا كانت الأعراف اليهودية تحرم نبش القبور، فقد تمّ اللجوء - عند امتلاء المقبرة - إلى جلب طبقة جديدة من التراب، وفُرسّت فوق القديمة، مع رفع الشواهد القائمة إلى مستوى جديد. وقد تكرّرت هذه العملية مرارًا على مرّ القرون. وفي كلّ مرّة، نتجت طبقة جديدة من القبور، ومجموعة جديدة من الشواهد، حتى غدت بعض الجثث مطمورة تحت اثنتي عشرة طبقة. ويقال إنّ لولا الجدران التي تحيط بالمكان، لفاضت المقبرة القديمة المتخمة منذ زمن بعيد، ولألقت بخمسة قرون من العظام البشرية في الشوارع المُجاورة.

تقدّم الغولم داخل المقبرة، وتوقّف أمام صندوق خشبيّ كبير، ثمّ اختار منه "كيباه"؛ قلنسوة الرأس اليهودية التي يضعها الزائرون احترامًا للمكان. أنزل قبة عباءته، ووضع الكيباه على جمجمته المُغطّاة بالطين اليابس، غير أنّه بنظرات الزوّار القلائل وهمساتهم. كان يدرك أنّ مظهره قد يُفهم على أنّه ازدراء، لكنّه لم يشعر إلّا بالإجلال لهذا المكان، ولرجل الدين الذي صنع أوّل غولم من نوعه.

بخطى مدروسة، شقّ الغولم طريقه بين الفوضى العشوائية لشواهد القبور، وحرص على عدم الانزلاق على الحجارة المرصوفة الزلّقة بفعل الطحالب. ومع اقترابه من الجدار الغربيّ للمقبرة، اتّجه إلى قبر الماهارال.

كان شاهد قبر الماهارال ينتصب على ارتفاع مِترَيْن تقريباً، تُزيّنه زخارف مع رمز أسد، في إشارة إلى كنيته "لوف" التي تعني "أسد". وعلى الحافة الضيقة عند أعلى الضريح، تناثرت عشرات القصاصات الورقية الصغيرة، التي طَواها الزوّار بعناية، وتركوها هناك بعد أن خطّوا عليها دعواتهم. أمّا من لم يكن يحمل ورقة، فترك حصاةً، تماشياً مع التقليد اليهودي. هناك، أمام الضريح الأنيق، ركع الغولم على الأرض الباردة، وفتح ذهنه ليستشعر الصَّلّات الخفية في هذا الكون التي يعجز الكثيرون عن إدراكها... بل يرفضون تصديقها. وبيطء، بدأ يشعر بوجود مُتنام، إلى أن أحسّ أخيراً كما لو أنّ قوّة الغولم الأصلي تتصاعد من التراب وتملأ روحه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 72

حين انعطفت سيارة السفارة إلى يسار جسر مانيس، فتحت كاثرين زجاجة "كوفولا كولا" من براد السيارة، وأخذت منها جرعة كبيرة. انتظر لانغدون بصمت، بينما كانت تُحدّق إلى أبراج قلعة براغ، وكأنّها تُنظّم أفكارها قبل أن تتكلّم.

قال في سرّه: أريد أن أعرف كلّ شيء. وكان لا يزال عاجزاً عن تخيل ما اكتشفته كاثرين، ودفع أحدهم إلى تدمير مخطوطتها، أو ارتكاب جريمة قتل...

قالت كاثرين، بعد أن أنزلت الزجاجة عن فمها والتفتت إليه: "ثمة ظاهرة علمية تدعى "أزمة التكرار"، هل سمعت بها من قبل؟"

كان لانغدون قد سمع هذا المصطلح من زملائه في قسم العلوم. "إن لم أكن مُخطئاً، فهي تُشير إلى نتائج تجريبية تظهر مرّة واحدة ولا يمكن تكرارها".

قالت: "بالضبط. على مدى الأعوام الخمسين الماضية، توصل عدد كبير من العلماء المرموقين إلى نتائج مخبرية تدعم بقوة مفهوم الوعي غير الموضعي، وبعض تلك التجارب كان مُذهلاً فعلاً... لكنّ محاولات تكرارها إما فشلت أو جاءت بنتائج غير حاسمة".

فكر لانغدون في سرّه: مثل الاندماج البارد.

قالت كاثرين بصوت يشوبه الإحباط: "الأمر مُحير جداً. فمعظم هذه النتائج غير القابلة للتكرار جاءت من تجارب دقيقة، وخضعت لمراجعات علمية، ونفّذها علماء مُحترِفون يتمتعون بصدقية عالية".

"ومع ذلك، تُعتبر نتائجهم باطلة، أليس كذلك؟"

"تماماً. وتدور حرب فكرية مُحتمدة في مجالي بين أنصار الوعي الموضعي وأنصار الوعي غير الموضعي. وقد أصبح عجز الباحثين في علم الوعي عن تكرار بعض النتائج حجةً يستخدمها الماديّون في كل مكان؛ مثل غشّير التي لا تتوانى عن وصف تجاربنا بالمُخادعة، ونعتنا بالدجالين أو المُحتالين".

في الواقع، لم يُفاجأ لانغدون؛ ففي مجاله المُتخصّص بتاريخ الأديان، لطالما دُحضت الادّعاءات المنشورة بقسوة. وكان التزوير أمراً شائعاً. فقد تمّ الإثبات بوساطة الكربون المُشعّ أنّ كفن تورينو - الذي قيل إنّ كفن المسيح - يعود إلى ما بعد المسيح بألف ومئتي عام. كما تبين لاحقاً أنّ نقش تابوت يعقوب،⁽¹⁾ الذي شغل العالم سنة 2002، مُزيّف. أمّا

(1) يعقوب العادل، شخصية من القرون الميلادية الأولى.

المرسوم الإمبراطوريّ الشهير المعروف بـ "هبة قسطنطين" فلم يكن سوى وثيقة تمّ تزويرها ببراعة لتعزيز السلطة الدينيّة.

نحن ننشر الحقائق التي تخدم مصالحنا.

قالت كاثرين: "ثمة تجربة واحدة بعينها في مجال الإدراك الفائق أصبحت محطّ جدل في هذه العاصفة الفكرية. أُجريت للمرّة الأولى في أوائل الثمانينيات على يد فريق علميّ مرموق، ونُفّذت بدقة كبيرة، وأسفرت عن نتائج لا تُصدّق. لكن مع الأسف، لم يتمكن الفريق من تكرار تلك النتائج؛ على الرغم من المحاولات المتكرّرة".
"تجربة غانتسفيلد؟"

فنظرت إليه كاثرين بإعجاب وقالت: "أعرفها؟"
أقرّ قائلاً: "مؤخراً فحسب. فبعد العرض المذهل الذي قدّمته عن كتابك، وفكرة الوعي غير الموضوعيّ تحديداً، قرّرتُ أن أقرأ قليلاً في هذا المجال".
"يجدر بي أن أشعر بالإطراء، لكن أعتقد أنّك كنت تتحقّق من سلامتي العقلية".
ضحك لانغدون وردّ قائلاً: "على الإطلاق، بل كنت مهتماً بالموضوع فعلاً".

اكتشف لانغدون أنّ تجربة غانتسفيلد تقوم على وضع شخص داخل غرفة عزل حسّي، والطلب من شخص آخر أن "ينقل إليه ذهنياً" مجموعة من الصور. أُجريت التجربة على جلسات عدّة، وأظهرت النتائج - على نحو قاطع - وجود تخاطر ذهنيّ. لكنّ الغريب أنّ ذلك النجاح الإحصائيّ المدهش للسلسلة الأولى من المحاولات لم يتكرّر قطّ، حتّى على يد الفريق نفسه؛ ممّا أثار عاصفة من الانتقادات والاتهامات بالخداع.

قالت كاثرين: "وإذا كنت قد قرأت عن غانتسفيلد، فلا بدّ أنّك قرأت أيضاً عن العالم الاجتماعيّ داريل بيم؛ وهو أحد أبرز المدافعين عن التجربة، ومؤلف المقال المُثير للجدل الذي نُشر عام 2011 تحت عنوان "الإحساس بالمستقبل".

أوما لانغدون: "قرأته"، وأضاف مُتذكّراً العنوان الفرعيّ: "أدلة تجريبية على تأثيرات رجعية شاذة في الإدراك والعاطفة".

يتناول مقال بيم تجربة طلب فيها من المشاركين حفظ قائمة من الكلمات العشوائية، ثمّ أخفاها وطلب منهم تذكّر أكبر عدد ممكن من الكلمات من تلك القائمة. وفي اليوم التالي، أعطى المشاركين مجموعة قصيرة من الكلمات المختارة عشوائياً من القائمة الأصلية، وطلب منهم حفظها. والمثير للدهشة أنّ نتائج الاختبار من اليوم الأوّل أشارت بوضوح إلى أنّ المشاركين كانوا أكثر ميلاً بكثير إلى تذكّر الكلمات التي سيرونها مرّة أخرى في اليوم الثاني؛ بعد الاختبار!

مهلاً! تذكر لانغدون أمراً سبّب له الحيرة. هل يمكننا أن ندرس بعد الامتحان؟! هل المستقبل يُؤثّر في الماضي؟!

شعر لانغدون بالارتباك بعد قراءة المقال، فعرض نتائج بيم على زميل له في قسم الفيزياء، خرّيج من جامعة أوكسفورد، ويدعى تاونلي تشيشولم. إلّا أنّ هذا الأخير لم يُبدِ أيّ دهشة، بل أكّد له أنّ "السببية العكسية" ظاهرة حقيقية، وقد تمّ رصدها في عدّة تجارب، منها تجربة تُدعى "ممحاة الكم ذات الخيار المُؤجّل".

وصف تشيشولم تلك التجربة أنّها "نسخة مُعدّلة من تجربة الشقّ المزدوج الكلاسيكية". كان لانغدون يعلم أنّ التجربة الأصلية قد أذهلت العالم بإثباتها أنّ الضوء الذي يمرّ عبر حاجز ذي شقّين يمكنه أن يتحرّك إمّا كجسيم أو كموجة... والأكثر إشارة للدهشة، أنّه "يُقرّر" طريقة سلوكه بناءً على ما إذا كان ثمة مَنْ اختار أن يراقبه أم لا.

أوضح تشيشولم أنّ تعديل "الاختيار المُؤجّل" تضمّن استخدام فوتونات مُتشابكة ومرايا لـ "تأخير" اختيار المُراقب في الوقت الفعليّ ما إذا كان سيراقد أم لا... إلى ما بعد اللحظة التي سيكشف فيها الضوء عن السلوك الذي سيّخذه.

في وقت لاحق، وبعد أن أجرى لانغدون بحثاً عن التجربة عبر الإنترنت، لم يستطع فهمها بالكامل، لكنّه توصّل على الأقلّ إلى قناعة بأنّ عدداً من أصحاب العقول اللامعة يعتقدون فعلاً أنّ الأحداث المُستقبلية يمكن أن تؤثر في الماضي... وأنّ من شأن الزمن أن يجري عكسياً.

قال لانغدون وهو ينظر إلى كاثرين عابساً: "أعترف أنّ مجرد التفكير في السببية العكسية يُصيّبني بخلل معرفي".

أجابته: "لست وحدك؛ عليك رؤية ردود فعل زوّاري على اللوحة المعلّقة فوق مكتبي، والتي كُتب عليها: تجارب اليوم نتيجة لقرارات الغد".

لكن على الرغم من محاولات لانغدون توسيع آفاق تفكيره، إلّا أنّه عجز عن تقبّل فكرة أنّ الزمن يمكن أن يتحرّك إلى الوراء. قال لها: "لكنّ جريان الزمن عكسياً أمرٌ غير منطقيّ! لا بدّ من وجود تفسير آخر".

"ثمة تفسير بالفعل، لكنك لن ترتاح إليه أكثر. إذ يُفيد التفسير الآخر أنّ جميع أولئك المهووسين بالوعي الكوني كانوا مُحقّقين... وبحسب هذا التصرّو، فإنّ الكون غير مُقيّد بالزمن الخطّيّ كما نراه نحن البشر، بل يعمل كوحدة لا زمنية، يتعايش فيها الماضي والحاضر والمستقبل في آنٍ واحد".

بدأ لانغدون يشعر بالصداع، فقال: "وماذا عن كتابك؟ كنت تتحدثين عن أزمة التكرار وكيف أنها تؤثر في أبحاث الإدراك الفائق وعلم الوعي".

"نعم، تؤثر بشدة، أكثر من أيّ حقل آخر، وهذا ليس عادلاً". أخذت رشقة من مشروبها وتابعت: "فكّر مثلاً في مجال الرياضة. إذا حقق رياضيّ نتيجة مُبهرة في الألعاب الأولمبية، وكسر رقماً عالمياً لم يُسجّل من قبل، ولا يستطيع أحد تكراره من بعده، لا نقول إنّ الكاميرات خدعتنا أو إنّ الجمهور مُصاب بالهلوسة، بل نعتبر الأمر ببساطة نتيجة استثنائية. فعدم قدرتك على أداء الشيء نفسه مرّتين لا يعني أنّه لم يحدث".

"أنت مُحققة... لكنّ هذا في الرياضة. أمّا في المنهج العلميّ، فالتكرار عنصر أساسي".
أومات كاثرين: "صحيح، وأنا أوافق تماماً على أنّ التكرار معيار منطقيّ على المستوى العياني".⁽¹⁾ أمّا على المستوى الكموميّ، فالأمور تسير بطريقة مختلفة يا روبرت. فنحن نفهم العالم الكموميّ على أنّه غير قابل للتوقع. لا، بل إنّ عدم إمكانية التوقع هي أكثر السمات المُتفق عليها في هذا المجال".

أدرك لانغدون أنّها مُحققة في هذه النقطة أيضاً.

قالت كاثرين بحماسة مُتزايدة: "لغة العالم الكموميّ هي حرفياً لغة عدم اليقين: موجات الاحتمال، والتقلّبات الكمومية، ومبدأ عدم اليقين، والنقص الاحتماليّ، والفوضى، والتداخل الكموميّ، وفكّ الترابط، والتراكبات، والازدواجيات... كلّها تصبّ في فكرة فضفاضة واحدة: نحن لا نعرف ما الذي سيحدث؛ لأنّ القوانين الكلاسيكية للفيزياء لا تنطبق!"

"حسناً، وماذا عن الوعي؟"

"الوعي ليس عضواً مادّياً من لحم ودم في جسدك، بل هو موجود في المجال الكموميّ. ولهذا السبب، من الصعب جداً ملاحظته على نحو مبنّي على الانتظام أو التكرار. فبإمكانك أن تستخدم وعيك لمراقبة كرة ترتدّ، لكن حين تحاول أن تستخدم وعيك لمراقبة وعيك... تدخل في حلقة ارتجاع لا نهاية لها. فالأمر يشبه أن تحاول معرفة لون عينيّك من دون استخدام مرآة؛ فمهما كنت ذكياً أو مُصِراً لن تعرف، لأنّك لا تستطيع أن ترى عينيّك بعينيّك؛ تماماً كما لا يمكنك أن تراقب وعيك بوعيك".

"فكرة مثيرة للاهتمام. وهل عرضت هذه النقطة في كتابك؟"

"نعم، إلى جانب حجة تفيد بأنّ عدّ التكرار شرطاً لإثبات الوعي يُعدّ عائقاً غير منطقيّ، لا بل إنّهُ يُلحق الضرر بالمجال، ويُدمّر مسارات مهنية واعدة".

لم يعرف لانغدون بماذا يجيب. كانت الفكرة مُشوّقة، لكنّه توقّع - بعد كلّ ما حدث في ذلك اليوم - أن تكون اكتشافات كاثرين أكثر إثارة للجدل... أو أكثر خطورة، لتستحقّ هذا النوع من الاهتمام الذي اجتذبتّه. قال مُتسائلاً: "إذا، أهدأ جوهر... اكتشافك؟"

ضحكت كاثرين بصوت عالٍ: "بالأكيد لا! كنت أشرح فحسب السبب الذي يجعل من الوعي وحشاً مُراوِغاً يصعب اصطياده. أما اكتشافي فهو مَلْموس، وقد توصّلتُ إليه عبر سلسلة من التجارب". مالت نحوه وابتسمت مُضيفَةً: "وبالمناسبة، نعم... لقد تمكّنت من تكرار تلك التجارب".

* * *

في برج راندوم هاوس، رنّ جرس المصعد، وخرج جوناس فوكمان إلى أرضيّة مغطّاة ببلاط ملوّن كأنّه لوحة فسيفساء. كان دخول الطابق السابع أشبه بدخول بُعْدِ موازٍ، مكان يعرف فيه تماماً أنّ توتره سيتلاشى. فلا وجود هنا للرفوف المُرتّبة، ولا للألوان الهادئة، ولا للخطوط المُستقيمة التي تميّز الطوابق الأخرى في دار بنغوين. إذ كان الطابق السابع أقرب إلى متاهة مُتعرّجة من محطّات العمل ذات الألوان الزاهية، المُزيّنة بالرسومات الكرتونيّة، وأشجار النخيل القابلة للنفخ، وأرائك الحبيبات، والدمى المحشوة.

كتب الأطفال: ديكور مرح، لعمل جاد.

والى جانب الجو المرح اللطيف الذي يميّز هذا القسم، كان فوكمان يُقدّر سمة أخرى غير طفوليّة على الإطلاق، ألا وهي آلة القهوة الخاصّة به؛ آلة احترافيّة من نوع Franke A1000 مُزوّدة بتقنيّة FoamMaster لإنتاج الرغوة، بعيدة كلّ البعد عن كبسولات نسبريسو المُستخدّمة في الطوابق الأخرى.

ففي بعض الليالي، كان فوكمان يتسلّل إلى هذا المكان في ساعة مُتأخّرة، حاملاً معه إحدى المخطوطات التي يعمل عليها، ويُعدّ لنفسه فنجان إسبريسو مُردوجاً. بعد ذلك، يسترخي على أريكة حبيبات لتحرير النصّ تحت أنظار الدبدوب ويني الضخم الذي يُراقبه من جهة، والقطّ ذي القبة الذي يبتسم له بمكر من الجهة الأخرى، بطوله الذي يفوق المترين.

وفي هذه الليلة، وبينما كانت الآلة تطحن حبوب القهوة، تنشقّ فوكمان عيبرها، مُحاولاً أن يُهدئ مخاوفه. إذ كان يفتَرّض بالقبض على العميلَيْن في الطابق السفليّ أن يبعث في نفسه الارتياح، لكنّه لم يشعر بالطمأنينة حقّاً. فموقع روبرت وكاثرين ما زال مجهولاً، وكان قلقه عليهما يقبّض مضجعه.

صحيح أن أليكس كونان أجاب عن سؤالٍ مُحيِّر:

من سرق مخطوطة كاثارين؟

لكنّ الجواب الصادِم استدعى سؤالاً آخر.

لماذا؟

وقد وضع جوناس فوكمان خطة لكشف هذا اللغز.

الفصل 73

علينا أن نسرع. قال لانغدون ذلك في سرّه، بينما كانت سيارة الليموزين تصعد المنعطفات الحادة عبر حدائق تشوتيك. كان حيّ "براغ 6" الذي يضم مقر إقامة السفيرة، على بُعد دقائق قليلة، وكان لانغدون يرغب بشدة في معرفة كلّ ما يمكنه معرفته عن كتاب كاثرين واكتشافها، قبل أن نواجه السفيرة، فهو لا يزال غير واثق من الأشخاص الذين يمكنه الوثوق بهم.

تابعت كاثرين حديثها قائلة: "في نموذج الوعي غير الموضعي، يُشبّه الدماغ بجهاز راديو، يتلقّى الوعي. وكغيره من أجهزة الراديو، فهو يتعرّض في كلّ لحظة لعدد لا حصر له من المحطّات التي تبثّ في الوقت نفسه. لذا، يمكنك أن تفهم فوراً سبب حاجة الراديو إلى قرص ضبط التردّدات؛ وهي آلية تتيح له اختيار تردّد واحد فقط ليستقبله. فالراديو، بحدّ ذاته، قادر على استقبال جميع المحطّات، لكنّ من دون وسيلة لتصفية الموجات التي يستقبلها، فإنّه سيبتّلها كلّها دفعة واحدة. والدماغ البشريّ يعمل بالطريقة نفسها؛ إذ يملك سلسلة مُعقّدة من المُرشّحات التي تمنع العقل من الانهيار تحت وطأة المُحفّزات الحسيّة المفرطة... ليركّز على شريحة صغيرة من الوعي الكوني".

فكر لانغدون في سرّه: هذا منطقيّ تماماً؛ فإدراكنا للصّوت والصّمت يمرّ عبر مُرشّحات. إذ كان يعلم أنّ معظم البشر يجهلون أنّهم لا يختبرون سوى جزء ضئيل من نطاق التردّد العمليّ والطيف الكهرومغناطيسيّ، فيما يمرّ الباقي بنا مُتجاوزاً نطاق أقرص الضبط لدينا. قالت كاثرين: "الانتباه الانتقائيّ مثال واضح على هذه التصفية الدماغية، ويُعرف باسم تأثير حفلة الكوكتيل. تخيل نفسك في حفلة مُزدحمة، لا تركّز سوى على كلمات الشخص الذي تُحدّثه، ثمّ تشعر بالملل فجأة، فيتحوّل انتباهك بسلاسة إلى مُحادثة أكثر تشويقاً في جزء آخر من القاعة. وهذه الآلية هي التي تُمكنك من استبعاد الضوضاء في الخلفيّة، وعدم الانشغال بكلّ الأصوات المحيطة".

ابتسم لانغدون وهو يُفكّر في عدد المرّات التي حدث فيها ذلك في اجتماعات الكليّة؛ حين كان يجد نفسه ينصت إلى الموسيقى الآتية من الساحة، بينما يناقش الزملاء المنهج الدراسيّ أو الجدول الزمنيّ!

تابعت كاثرين: "والتعوّد نوع آخر من التصفية. إذ يحجب العقل المدخلات المُتكرّرة بفاعليّة كبيرة، إلى حدّ أنّك لا تسمع أزيز جهاز التكييف المُستمرّ، ولا تشعر بنظارتك فوق

أنفك. وهذا المرشح قويّ إلى درجة أننا قد نُفتش المنزل عن نظارة أمام أعيننا، أو عن هاتف في أيدينا".

أوما لانغدون مُوافقاً؛ فهو لم يشعر بوجود ساعة ميكى ماوس حول معصمه منذ عقود. كان يعلم أنّ موضوع "الواقع المُصنّعي" يتكرّر في النصوص الدينيّة القديمة. فقد وصفت الفيدانتا الهندوسيّة- التي ألهمت كبار علماء الكمّ أمثال نيلز بور وإرفين شرودنغر- العقل المادّيّ بأنّه "عامل مُقيّد" لا يدرك سوى جزء ضئيل من الوعي الكونيّ المعروف باسم براهمان. أمّا المتصوّفون، فعّدوا "العقل" حجاباً، في حين حذّر البوذيّون من أنّ الأنّا ليست سوى عدسة مُقيّدة تجعلنا نشعر بالانفصال عن الكون- uni-versum- أي حرفيّاً "الكلّ واحد".

أضافت كاثرين: "واليوم، تمكّن علم الأعصاب الحديث أخيراً من تحديد الآليّة البيولوجيّة التي يعتمدها الدماغ لتصفية البيانات الداخلة". وارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة. "تستخدم هذه الآليّة مادّة GABA- وهو اختصار لحمض غاما-أمينوبيوتيريك". "حسنًا". فقد تذكّر أنّ معظم دراسات كاثرين العليا تناولت الكيمياء العصبيّة للدماغ. "في الواقع، GABA مُركّب مُذهّل؛ فهو ناقل كيميائيّ في الدماغ يؤدّي دوراً حاسماً في تنظيم النشاط العصبيّ، لكن بطريقة مُعاكسة لما قد يتبادر إلى الذهن. فهو، تحديداً، حمض مُثبّط".

"هل تعنين أنّه يُعيق نشاط الدماغ؟"
"بالضبط. إنّهُ يُقلّل من إطلاق الإشارات العصبيّة، ويُقيّد النشاط العامّ للخلايا العصبيّة. بتعبير آخر، يقوم GABA بإغلاق أجزاء من الدماغ ليمنع فيض المدخلات الزائدة. ولتبسيط الأمر، يضمن هذا الحمض عدم إثقال الدماغ بكميّة كبيرة من المعلومات. وبالمقارنة مع الراديو، يعمل تماماً كقرص الضبط الذي يسمح باستقبال تردّد واحد فقط ويعزل عشرات التردّدات الأخرى".
"كلامك منطقيّ تماماً حتى الآن..."

تابعت كاثرين بحماسة: "لقد لفتت ظاهرة GABA انتباهي قبل بضع سنوات حين قرأت أنّ دماغ الطفل حديث الولادة يحتوي على مستويات مُرتفعة جدّاً منه، بحيث يُصنّعي كلّ ما حوله ولا يسمح له بإدراك سوى ما هو أمام وجهه مباشرة. لذلك يكون الرُضّع غير مُدركين تقريباً لما يجري في أطراف الغرفة. فتعمل هذه المرشحات كعجلات تدريب ذهنيّة، تحمي عقل الطفل من فرط التحفيز في أثناء نموه. ومع نضوجنا، تبدأ مستويات GABA بالانخفاض تدريجيّاً، فيتّسع إدراكنا للعالم ونكتسب فهماً أكبر له".

قال لانغدون في سرّه: *هنا مُذهِل*. إذ لطالما ظنّ أنّ ضيق مَجَال إدراك الرُّضْع يعود إلى ضعف بصرهم.

قالت كاثرين: "فبدأتُ أتمكّن في البحث، وتبيّن لي أنّ الرهبان التبتيّين يُسجّلون ارتفاعاً كبيراً في مستويات حمض GABA في أثناء التأمل. إذ يبدو أنّ حالة الغيبوبة التأملية تُسبّب ارتفاعاً كبيراً في هذا الناقل العصبيّ المُثبّط، ممّا يؤدي إلى تعطيل شبه كامل لعمليات إطلاق الإشارات العصبية، ويمنع معظم العالم الخارجيّ من النفاذ إلى أدمغتهم خلال حالة التأمل العميق".

كان لانغدون يُدرك غاية التأمل، لكنّه لم يكن يعرف شيئاً عن العملية الكيميائية التي تُحقّق تلك الغاية. *الذهن الفارغ المَنشود*. *إنّه حرفياً حجبٌ تامٌّ للعالم الخارجيّ... وعودةٌ إلى صفاء ذهن الوليد*.

قالت كاثرين: "ربّما لم تكن النتائج صادمة جدّاً، لكنّها ألهمتني فكرة أنّ الوعي البشريّ أشبه بإشارة... تتدفّق إلى الدماغ عبر سلسلة من البوابات".
"بوابات تُحدّد كمّ العالم الذي يُسمَح له بالدخول".

"بالضبط، ومنذ نحو ثمانية عشر شهراً، في أثناء مُتابعتي البحث في حمض GABA، صادفتُ مقالة علمية في علم الأعصاب كتبها بريغيتا غِسْنِر".

قال لانغدون في سرّه: *آه نعم، المقالة التي كانت السبب في تلقّي كاثرين دعوة إلى براغ*.
قالت: "كانت مقالة غِسْنِر تتحدّث عن شريحةٍ طبّيةٍ لعلاج الصرع اخترعتها بنفسها، ومن شأنها تعطيل النوبة قبل حدوثها، عبر تحفيز استجابة GABA الطبيعية في الدماغ؛ أي حرفياً تهدئة الأعصاب. وكان ذلك منطقيّاً؛ لأنّ الصرع غالباً ما يرتبط بانخفاض خطرٍ في مستوى هذا الحمض، الذي يُعدّ آليّة الكبح في الدماغ. ومع نقصه، يعمل الدماغ بأقصى طاقته، ويُطلق إشارات عصبية جامحة؛ الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى —
"نوبة".

"تماماً". أخذت جرعة سريعة من زجاجة الكوفولا، وتابعت قائلة: "تُشكّل العاصفة الكهربائية الفوضوية لنوبة الصرع نقيض تامّاً لصفاء ذهن في أثناء التأمل؛ إذ ترتبط النوبة بقصور في حمض GABA... بينما يرتبط التأمل بفائض منه. كنتُ على دراية بكلّ هذا مُسبقاً، لكنّ بحثها ذكّرني بأنّ نوبات الصرع تتبعها في أغلب الأحيان فترة من المقاومة المُمتعة، تُسمّى نشوة ما بعد النوبة؛ وهي حالة من الوعي الهادئ والمتّسع، والتي ترافقها ومّضات من الإبداع، والشعور بالاتصال بالكون، والتنوير الروحيّ، وتجارب الوعي المُغايرة".

تذكّر لانغدون تجربته مع ساشا في وقت سابق، بالإضافة إلى الأوصاف التي قدّمها عدد لا يُحصى من مرضى الصرع الرّؤيويين عبر التاريخ.

قالت كاثرين: "فجأة، وجدت نفسي أتساءل: كيف يمكن للدماغ مُصاب بالصرع أن ينتقل بهذه السرعة من عاصفة كهربائية... إلى حالة من الصفاء والسكينة؟"
قال لانغدون: "أفترض أن ارتفاعاً طبيعياً في مستويات GABA... يُهدئ العاصفة، أليس كذلك؟"

ابتسمت وقالت: "تخمين مُمتاز. وكان ذلك تخميني أنا أيضاً. يُعرف ذلك باسم التثبيط الارتدادى، وهو يحدث فعلاً، لكن ليس على الفور. فقد تبين أن أمراً آخر يسبقه. إذ يُعيد الدماغ تشغيل نفسه؛ فيتوقف النظام بأكمله عن العمل، وعندما يعود للعمل من جديد، يفعل ذلك تدريجياً... بحيث يكسب الوقت لاستعادة مستويات GABA، وإعادة تشغيل مرشحاته، وحماية الدماغ الذي يصحوم مع كمّيات فائضة من المُدخلات".

"هذا يشبه طريقة استيقاظنا صباحاً... فنحن نفتح أعيننا ببطء كي تتقلّص حدقاتنا تدريجياً، وترشّح بعضاً من سطوع النهار".

"بالضبط! لكن في هذا السيناريو، نحن لا نرى ضوء الصباح الحقيقي أبداً؛ لأننا فيما نحن نستيقظ، يقوم أحدهم، في اللحظة نفسها، بإغلاق نوافذنا بستائر سمكة لكي لا نرى ما هو خارجها".

"وأظن أن المسؤول عن ذلك ليس سوى حمض GABA؟"
"صحيح. وعادةً ما يُسدّل هذا الحمض الستائر في الوقت المُناسب، قبل أن تُفتح أعيننا. لكن إن اختل التوقيت، ولم تُسدّل الستائر سريعاً..."
"نلتقط لمحات خاطفة من العالم الخارجى".

ابتسمت وقالت: "نعم، ويبدو أنه عالم جميل؛ الواقع من دون أيّ تصفية، نشوة ما بعد النبوة، وعي خالص".

أحسّ لانغدون بالدهشة وهو يتأمل في هذه الفكرة، مُسائلاً عما إذا كانت بعض "ومضات العبقرية" في التاريخ تُعزى إلى خللٍ عابرٍ في التوقيت... أي لحظة وجيزة تُرك فيها باب الواقع مُوارباً عن طريق الخطأ.

قالت كاثرين: "كلّما فكّرتُ في GABA أكثر، ازددت يقيناً أنه المفتاح الذي كنت أبحث عنه..."

"المفتاح إلى ماذا؟"

هتفت قائلة: "إلى فهم الوعي الإنسانى! فعقول البشر تتمتع بقدرات مذهلة، لكنّها تملك أيضاً مرشحات غاية في الفاعلية تمنع تدفق المدخلات الزائدة. و GABA هو الحجاب الواقى الذي يحول دون أن تختبر أدمغتنا ما تعجز عن احتماله؛ إنه يحدّد مدى

اتّساع وعيك. وقد يكون هذا المركّب الكيميائيّ الواحد السبب في عجز الإنسان عن إدراك الواقع على حقيقته".

استرّخى لانغدون على المقعد الوثير داخل الليموزين، مُحاولًا استيعاب هذه الفكرة العجيبة. "أتقصدين أنّ ثمة واقعًا يحيط بنا... لكننا نعجز عن إدراكه؟" فأجابت، وعيناها تلمعان بالحماسة: "هذا بالضبط ما أقصده يا روبرت. غير أنّ هذا ليس سوى نصف الحقيقة".

* * *

في المقبرة القديمة، كانت أصوات الشوارع المُزدحمة المُحيطة قد تلاشت من وعي الغولم، وقد غمر ذهنه صمتٌ مُرَحَّب به. جثا على ركبتيه، يستشعر هيئة هذه الأرض... ويُصغي إلى صوت سلفه. ولأنّه لم يعرف يومًا موطنًا حقيقيًا، فقد كان هذا المكان وطنه، يزوره كلما احتاج إلى أن يستمدّ القوة.

لقد جُنّ الغولم الأول... لكنني أقوى من أن أجنّ. كانت زيارته إلى هذا الضريح تمنحه صفاءً وتجددًا، لكنّه شعر اليوم أنّه أكثر قوّة. وحين فتح عينيه ونهض لمواجهة المهمة التي تنتظره، مرّت نسمة خفيفة بين شواهد القبور. سمع الغولم صوت سابقه الأصليّ... كلمة واحدة همس بها وتناهد إليه من بين الأغصان العارية في الأعلى. الحقّ...

تخيّل الحروف القديمة على جبينه. الحقّ أنّ هدفه في هذا العالم حمايةُ روح جميلة تفتقر إلى القوّة لتحمي نفسها. والحقّ أيضًا أنّها لن تنعم بالأمان ما لم ينفذ الغولم أحكام القصاص التي أصدرها.

همست الريح عبر الأشجار: "أمامك طريقان فقط... إمّا الحقّ أو الموت". لكنّ الغولم عرف طريقه منذ زمن. لقد اخترت كليهما.

الفصل 74

كانت الليموزين تقترب من الحيّ الأرستقراطي بُوبِتَشْشْ، فأدرك لانغدون أنّ مقر إقامة السفيرة لم يعد بعيدًا. كان مأخوذًا بما كشفته كاثرين، ومُثلَهفًا لسماع الباقي.

هل ثمة واقع يحيط بنا ولا نستطيع إدراكه؟

تابعت كاثرين قصتها: "بدأت الفكرة تلوح في ذهني حين كنت أبحث في الظواهر التي تعقب نوبات الصرع. فقد أدركت فجأة أنّ تجارب النشوة التي يصفها المُصابون تشبه إلى حدّ مذهل روايات مجموعة أخرى". توقّفت لحظة، وقد أضاعت عيناها بالحماسة. "أولئك الذين شارفوا على الموت... لكنهم لم يفارقوا الحياة".

فكر لانغدون في سرّه، مُدركًا أنّها على حقّ: تجارب الموت الوشيّك. فبعد صدمة المُشاركة على الموت أو نوبة الصرع، يصف كلا الفريقين إحساسًا مُغيّرًا، واتّصالًا عميقًا بكلّ ما يُحيط بهم، وشعورًا بسلام داخليّ عميق.

واصلت كاثرين: "فانطلقتُ من هذه الفكرة... وصمّمتُ تجربة غير مألوفة"، ثمّ ابتسمت وأضافت: "وهنا بدأ الأمر يزداد إثارة للاهتمام فعلاً. أولاً، عثرتُ على مريض ميؤوس من حالته، لم يكن يقطن بعيدًا عن مختبري - وكان هو نفسه طبيب أعصاب مُتقاعدًا - وقد وافق على أن يُفارق الحياة وهو داخل جهاز تصوير من نوع جديد، جهاز طيفيّ يعتمد على الرنين المغناطيسيّ، ويعمل في الزمن الحقيقيّ. فشرحتُ له أنّي سأتمكّن من متابعة التغيّرات الكيميائية في دماغه لحظة بلحظة في أثناء وفاته. وقد شعر بالامتنان لمنحه فرصة تزويدنا ببيانات دقيقة لم يُتّح لنا قياس مثلها من قبل. ومع التفاف أسرته وطاقم الرعاية حوله بعد ظهيرة يوم جميل، أسلم الروح بينما كان دماغه يخضع للمسح في ذلك الجهاز الضخم".

تابعت كاثرين: "طوال مراحل الموت، كنت أرى مستوياتٍ مُتسارعة الارتفاع من نواقل عصبية أساسية، من بينها الأدرينالين والإندورفين، اللذان يهدفان إلى تخفيف الألم ومُساعدة الجسد على تحمّل الإجهاد المُصاحب لعملية الموت. بعبارة أخرى، إنّها آلية لإطفاء الأنظمة الحسّية. ومن المنطقيّ أن ترتفع بالنتيجة مستويات حمض GABA لتصفية تجربة الموت بينما ينطفئ الدماغ". هنا، ابتسمت كاثرين قائلة: "لكنّ هذا ليس ما حدث".

"أحقًا؟"

"ما حدث كان العكس تمامًا! فبينما كان الرجل يُحتَصَر، انخفضت مستويات GABA لديه انخفاضًا حادًا! وفي لحظاته الأخيرة، وصلت إلى الصفر تقريبًا، أي إنّ جميع مرشحات

الدماغ توقفت. وهذا يعني أن تجربة الموت بأكملها كانت تتدفق إلى داخله بلا أي حواجز!"
"وهل هذا... أمر جيد أم سيئ؟"

"روبرت، في رأيي، إنه أمر رائع! هذا يعني أنه خلال عملية الموت، تنفتح مُرَشحات الدماغ، فنصبح أشبه براديو يلتقط الطيف الكامل، أي أن وعينا يشهد الواقع كله!" أمسكت يديه بقوة وهي تتابع: "ولهذا بالتحديد يصف من مرّوا بتجارب الموت الوشيك إحساسًا بالاتحاد الكامل، وبسعادة ومعرفة شاملة. الكيمياء تُبرهن ذلك! فعندما نموت، تنطفئ أجسادنا... وتستيقظ أدمغتنا!"

عندئذٍ، تذكر لانغدون الجملة الافتتاحية لإحدى رواياته المُفضّلة: "يقال إنه، عند الموت، تتّضح كلّ الأشياء".

تابعت كاثرين: "والأهمّ من ذلك أنه خلال الستين ثانية التي سبقت توقف قلب المريض، امتلأ دماغه بذبذبات عالية التردد تضمّنت موجات غاما! وهذه الموجات مُرتبطة باستعادة الذكريات المُكثّفة، وكانت مستوياتها خارجة عن كلّ المقاييس."
"أتقصدين أنه كان... يتذكّر شيئاً؟"

"لا، بل كان يتذكّر كلّ شيء. فأرقام موجات غاما هذه تتّفق مع ما يُشير إليه الموروث القديم: أن حياة الإنسان تمرّ أمام عينيه قبل موته مباشرة".

كان لانغدون يعلم أن مفهوم "استعراض الحياة بالكامل" حاضر في ديانات كثيرة. قالت كاثرين: "في مرحلة ما، يموت الدماغ نفسه، فيتوقّف جهاز الاستقبال. لكنني مُقنّعة، استنادًا إلى التجارب التي أجريتها، بأن عملية الموت ليست سوى استباق لما هو آتٍ؛ إنها لمحة عمّا ينتظرنا، وقدرة على إدراك ما يتجاوز حدود وعينا المُعتاد".
"إذًا، عندما يموت الدماغ بالكامل ويتوقّف عن الإدراك تمامًا... ألا تكون تلك النهاية؟"

ابتسمت كاثرين وقالت: "نحن نعرف أساسًا من تجارب الموت الوشيك أن الموت ينطوي على تحرّر من الجسد المادّي، مصحوب بإحساس عارِم بالفرح والاتّصال بكلّ الأشياء. فإذا كنّا نعلم أن وعينا الفرديّ يأتي من خارج الدماغ - كما يُظهر العديد من أبحاث علم الوعي الحديثة - فإن الأمر يبدو لي كما لو أن الوعي يُغادر ببساطة العالم الماديّ في لحظة الموت!"

شعر لانغدون بقشعريرة تسري في جسده؛ الروح تعود إلى موطنها.
على الرغم من عدم يقينه من استمرار الوعي بعد الموت، لم يساوره أيّ شكّ في أنه، لو كانت كاثرين مُحقّقة بشأن دور مُرَشحات الدماغ في الحدّ من إدراكنا للواقع، فإن اكتشافها

سَيُغَيَّرُ نظرُنا إلى الحياة جذريًّا. فهي تقول - في جوهر فكرتها - إنَّ كلَّ إنسانٍ يمتلك في داخله العُدَّةَ الكاملةَ لإدراك الحقيقة الكونيَّة... لكنَّنا محميَّون كيميائيًّا من استخدامها... إلى أن تحلَّ لحظة الموت.

قال لانغدون: "هذا مُذهِل، حتى وإن كان يحمل في طيَّاته مُفارقةً كونيَّةً قاسيةً".
"وكيف ذلك؟"

"علينا أن نموت كي نرى الحقيقة... وحين نراها، يكون الأوان قد فات لنخبر بها أحدًا".
ابتسمت كاثرين وقالت: "روبرت، هذا ليس الطريق الوحيد إلى التنوير. فالتاريخ حافل بالعقول العظيمة التي حظيت بومضات لم يستطع غيرها أن يراها. فكَّر في نيوتن، وأينشتاين، وغاليليو... فتلك العقول اللامعة مرَّت بلحظات إلهامٍ يمكن تفسيرها اليوم بلغة علمية".
"أتقصد أن نشاط مرشحاتهم انخفض؟"

"مؤقتًا، نعم. وفي تلك اللحظة، تلقَّوا كمًّا من المعلومات عن الكون يفوق ما يستطيع البشر إدراكه عادةً".

تذكَّر لانغدون العالم نيكولا تيسلا، الذي أرسلت له كاثرين مقلَّته بعد حديثهما الأول عن الوعي غير الموضوعي: "إنَّ دماغي ليس سوى جهاز استقبال، ففي الكون نبُعُ نحصل منه على المعرفة".

"هل سبق لك أن جرَّبت المُهلوسات يومًا، يا روبرت؟"
أجفل وقال مازِحًا: "وهل الشراب من المُهلوسات؟"
ضحكت قائلة: "لا، بل أقصد العقاقير المُسبِّبة للهلوسة، التي تُنتِج مشاعر طاغية وصورًا ذهنية حيَّة".
"لا".

قالت: "هل تعلم كيف تسبَّب العقاقير المُسبِّبة للهلوسة تلك التجارب العميقة؟"
لم يسبق للانغدون أن فكَّر في الأمر حقًّا: "أفترض أنَّها تنشِّط الخيال؟"
قالت: "تخمين معقول؛ وهو ما يظنُّه معظم الناس. لكن لم يفكِّر أحد من قبل في مُراقبة عقلٍ في أثناء تجربة كهذه باستخدام التصوير الطيفي بالرنين المغناطيسي في الزمن الحقيقي".
"وهل فعلت ذلك؟" وراح يتخيَّل شخصًا تحت تأثير المهلوسات مُستلقيًا داخل أنبوب التصوير، بينما تراقب كاثرين الشاشة.

"بالتأكيد فعلت. فقد كانت تلك هي الخطوة المنطقية التالية في بحثي. فالكثير من رحلات الهلوسة تتضمَّن تجارب وعي مُغايرة، وكنتُ أساءل عن استجابة حمض GABA خلال ذلك".
"وماذا وجدت؟"

أجابت بعينين براقَتين من شدّة الحماسة: "كما اتّضح لي... الأمر يشبه تمامًا ما أُسيء فهمه تاريخيًا حول الهالة. لقد كنّا نرى الأمور بطريقة عكسية. فالمُهلوسات لا تُنشّط الخلايا العصبية كما يظنّ بعض الناس؛ بل العكس. فمن خلال سلسلة تفاعلات مُعقّدة في شبكة الوضع الافتراضي للدماغ، تُخفّض تلك العقاقير مستويات حمض GABA كثيرًا. أي إنّها تُقلّل من نشاط مُرشحاتنا، وتتيح لطيفٍ أوسع من الواقع أن يتدفّق إلى وعينا. بتعبير آخر، أنت لا تهذي... بل ترى المزيد من الحقيقة. وتلك الأحاسيس بالترابط، والحبّ، والاستنارة... حقيقة بالفعل".

كان تأكيدًا مذهلاً، فكّر فيه لانغدون مليًّا؛ أنّ الدماغ يمتلك قدرة لا محدودة على تلقي الوعي... لكنّه حبيس قفصٍ واقٍ لا يمكن كسره إلّا عبر الموت... أو بدرجة أقلّ، من خلال نوبة صرع أو بعض الموادّ المُسبّبة للذهيان.

وقد باتت مسألة المُهلوسات مطروحةً في كلّ مكان هذه الأيام؛ فالخبراء الصّحّيون في وسائل الإعلام يتسابقون إلى تمجيد فوائد "الجرعات الدقيقة" من الفطر المُهلوس، مُؤكّدين أنّ مادّة السيلوسايبين علاجٌ شامل للقلق والاكتئاب وتشتّت التركيز.

وكان أحد زملاء لانغدون في جامعة هارفرد، الكاتب مايكل بولان، قد تصدّر العناوين مؤخرًا بفضل كتابه الأكثر مبيعًا والوثائقيّ على تنفيكس عن القوّة الإيجابية للمُهلوسات، كيف تغيّر عقلك.

أمّا الباحث البارز الآخر في هذا المجال، والمقيم في بوسطن، ريك دوبلين، فقد أسّس الجمعية مُتعدّدة التخصصات لدراسة المُهلوسات (MAPS)، التي جمعت أكثر من 130 مليون دولار لأبحاثٍ حقّقت نجاحًا مذهلاً في معالجة الاكتئاب واضطراب ما بعد الصدمة. فكّر لانغدون في سرّه: يا له من عالمٍ جديدٍ شجاع! وتذكّر رؤية هكسلي للمستقبل، والتي تضمّنت إعطاء السكّان بأسرهم جرعات من دواءٍ مُسبّب للبهجة يُدعى سُوما.

قالت كاثرين: "إنّ كيمياء الوعي ليست مجرد تمرينٍ مشوّق في استكشاف الذات... بل قد تكون التحوّل الذي تحتاج إليه البشريّة للبقاء. فكّر في الفوضى والانقسام اللذين ينهشان عالمنا اليوم، وتخيل مُستقبلًا يلجأ فيه البشر إلى خفض مُرشّحات أدمغتهم، فيبدأون بفهم الواقع على نحو أكبر، ويعيشون بشعورٍ أعمق بالانتماء والترابط. عندها، قد نبدأ حقًّا بالاعتقاد أنّنا مُوحّدون!"

استغرق لانغدون في أفكارها الخارجة عن المألوف، فيما تابعت قائلة: "تأمّل في كلّ الحالات المُستنيرة المُراوغة التي نتوق إليها جميعًا: الوعي المُتّسع، والاتصال الكونيّ، والحبّ غير المُحدود، والصّحة الروحيّة، والعبقريّة الإبداعية. جميعها تبدو بعيدة المنال؛

كأنها من نصيب عقولٍ نادرةٍ أو نتاج تجارب استثنائية. لكنّ هذا غير صحيح! فجميعنا نملك تلك القدرة، وفي كلّ وقت. نحن فقط محجوبون كيميائيًا عن اختبارها..."

شعر لانغدون بفيض من الحبّ والاحترام نحو هذه المرأة. لقد أحدثت كاثارين في الأرجح ثورةً في فهمنا للوعي الإنساني... وربما اكتشفت خارطة طريق لتوسيع حدوده.

قال: "أنا مُنبهر يا كاثارين... فعملك سيكون له تأثير عميق بحق". قال ذلك مُحاولاً استيعاب حجم ما سمعه، وهو يقاوم انجذابه إلى السؤال الواضح الذي لا يزال يشغل باله.

قالت كاثارين بملامحٍ متجهّمة وقد قرأت أفكاره: "أعلم... هذا لا يفسّر بعد سبب ما يجري... ولماذا يريد أحدهم تدمير مخطوطتي".

تمامًا.

أدرك لانغدون أنّ الإجابة عن هذا السؤال ستأخّر قليلًا.

فقد انعطفت الليموزين إلى اليسار، وتباطأت عند قوسٍ حجريّ وبوابةٍ حديديةٍ ثقيلةٍ أمام مقرّ الإقامة الدبلوماسية. هناك، علّقت لافتةٌ كُتِب عليها: "على جميع الزوّار إبراز هوياتهم". لكنّ البروتوكول الأمنيّ لم يكن يشمل من يستقلّون سيارة السفارة، إذ فُتحت البوابة على الفور، وأشار عنصر المارينز الواقف في كوخ الحراسة الحجريّ إليهم للمرور من دون تردّد.

نظر لانغدون من النافذة إلى الأسوار المُحصّنة التي تُطوّق المقرّ، مُتسائلًا عن الأجوبة التي قد يجدها هناك. وبينما كانت الليموزين تسلك الممرّ المُظلل بالأشجار، لاحظ أنّ البوابة قد أُغُلقت بإحكام خلفهم. عندئذٍ، تملّكه خاطرٌ مُقلق.

تُرى، هل دخلنا ملاذًا آمنًا... أم عرينَ أسد؟

الفصل 75

كان مقر إقامة السفارة الأميركية في براغ - المعروف باسم فيلا بيتشيك - قصرًا فخماً على طراز الفنون الجميلة،⁽¹⁾ اتسم بعظمة فرنسية جعلت السكان المحليين يقبونه بقصر فرساي الصغير. بُنيت الفيلا لأوتو بيتشيك، الصناعي الثري الذي اضطرت عائلته إلى مغادرة براغ بعد الاحتلال النازي، واحتل الفيلا لاحقاً الجيشان النازي والروسي على التوالي. وتعدّ الفيلا اليوم شاهداً حياً على التاريخ، ومع مرور الزمن أصبحت نصباً رمزياً لذاكرة المنطقة المثقلة بالاحتلال والقمع...

بعد أن أعلن هتلر نيته تحويل براغ إلى "متحف"، اختيرت فيلا بيتشيك لتكون "صالة عرض" لاتتصار الرايخ. فأمر بأن تُضاف علامة الصليب المعقوف إلى جميع تحف بيتشيك الفنية وأثاثه الفاخر، وأن تُفهرس وتُخزّن بعناية في أقبية القصر، تمهيداً لعرضها بعد أن تنتصر ألمانيا في الحرب.

سببت الفكرة بحدّ ذاتها للانغدون الغثيان، فنظر من النافذة بينما كانت الليموزين تشق طريقها صعوداً نحو الحديقة الشاسعة المُحاطة بسياج حديديّ مُرتفع، مُكوّن من أعمدة حادة تعلوها كاميرات المراقبة. ولاحظ أنّ الخروج من هذا الحصن لن يكون أسهل من دخوله.

همست كاثرين بإعجاب حين ظهر القصر المهيب أمامهما: "يا إلهي! أهذا منزل السفارة الأميركية؟"

كان القصر مبنيّاً على مُنحدرٍ لطيف، تتقدّمه واجهة مهيبة ذات أعمدة كلاسيكية تمتدّ على طول يقارب مئة ياردة، وترتفع ثلاثة طوابق، لتنتهي بسقف نحاسي مائل تتخلّله نوافذ بارزة. إنه قصرٌ أوروبي بالمعنى الحرفي للكلمة.

قالت كاثرين مازحة: "الآن فهمتُ سبب ارتفاع ضرائبنا... فنحن نُسكن موظفي الحكومة في قصورٍ خاصّة..."

ابتسم لانغدون قائلاً في سرّه: الأمر ليس بتلك البساطة. إذ كان قد قرأ كتاب السفير الأميركي السابق نورم آيزن الذي يحمل عنوان القصر الأخير، وهو دراسة تاريخية مفصّلة عن هذا القصر المُذهل. في الحقيقة، أنفقت الولايات المتحدة مبلغاً خيالياً لشراء الفيلا

(1) طراز الفنون الجميلة (بالفرنسية: Style Beaux-Arts) هو طراز معماري إحيائي ظهر في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر ليُعبّر عن العمارة الكلاسيكية الجديدة.

وترميمها لإعادتها إلى أمجادها بعد الحرب، وحافظت عليها منذ ما يُقارب قرنًا من الزمان. كانت هذه طريقة أميركا للمساهمة في حفظ تراث براغ.

تذكر لانغدون لقاءه بآيزن ذات مرة، حين أخبره بما كانت والدته فريدا تردده دائمًا. أشار آيزن حينها مُبتسمًا: "كلّ هذا على مدى جيل واحد فقط".

توقفت الليموزين أخيرًا أمام مدخل القصر، فهبّ جنديّ المارينز الجالس على المقعد الأمامي، ودار حول السيارة، ثم فتح لهما الباب قائلاً: "انتبها عند النزول، فالأحجار تصبح زلقة عند تساقط الثلوج".

لفحهما هواءٌ بارد وهما يتبعانه إلى بهوٍ صغير بيضوي الشكل، تُزيّن سجاده رموزٌ ملوّنة لنسرٍ أميركيّ وعلم الولايات المتحدة. في الأعلى، علّقت ثريّا أسطوانية تُلقي على الجدران والسقف أنماطًا تشبه أشعة الشمس، لتضيء لوحةً صارمة المظهر تُمثل السفيرة الأميركية هايدة ناغل.

على الفور، تعرّف لانغدون إلى صاحبة اللوحة من الصور. كانت امرأة جادة الملامح، تجاوزت الستين من عمرها، تبرز بشرتها الشاحبة تحت شعرها الأسود الكثيف الذي قصّته في خصل مُستقيمة حادة.

سمعا وقع خطواتٍ هادئة تقترب، قبل أن يدخل رجلٌ مُسنّ بشوش الوجه، يرتدي سترةً صوفية قديمة بنقش رجل الغراب. رحّب بهما، وبعد أن صرف الجنديّ، أشار إليهما أن يتبعاه إلى داخل القصر.

بينما كانا يسيران في الممرّ الواسع، اشتّم لانغدون رائحةً منزليةً دافئة تنبع من موقدٍ مُشتعل، لكنّه التقط أيضًا رائحةً أخرى تفوح في الأجواء؛ رائحة بسكويت الشوكولاتة الطازج.

ابتسم مُدرّكًا أنّ الفنادق الفاخرة تفعل الشيء نفسه. وهي في الأصل، حيلة ابتكرها سمسار عقاراتٍ في خمسينيّات القرن الماضي، وتستخدم اليوم على نطاق واسع لمنع الإحساس بالدفء والانتماء.

قادهما الرجل إلى غرفة جلوسٍ فسيحة، ودعاهما للجلوس أمام النار التي تمّ إشعالها حديثًا. وعلى الطاولة أمامهما، كان ثمة "بوفيه" صغير يضمّ صينيّة من المعجنات، وسلّة فواكه، هذا فضلًا عن ركوة قهوة، وزجاجة مياه كبيرة، وزجاجتيّ "كوكاكولا"، وطبقًا من بسكويت الشوكولاتة المنزليّ الطازج.

قال الرجل: "أرجو المعذرة على الفوضى. فقد أبلغتني السفيرة منذ قليل أنّ لديها ضيفين. هي الآن تتحدّث على الهاتف، وستنضمّ إليكما بعد نحو عشر دقائق. البسكويت خرج من الفرن للتوّ، لذا، كونا حذرّين، فهو ما زال ساخنًا".

ما إن أنهى الرجل كلامه حتّى غادر تاركًا لانغدون وكاثرين وحدهما أمام النّار مع مائدة عامرة.

قال لانغدون هامسًا: "حسنًا، يبدو أنّنا على وشك أن "نرقص مع الشيطان"، لكن لا شك في أنّها مُضيّفة رائعة".

* * *

في الطابق العلويّ من فيلا بيتشيك، أنهت السفيرة ناغل المكالمة، ووقفت تحدّق طويلًا من نافذة مكتب منزلها. بدا لها هذا القصر المُغطّى بالثلوج غريبًا اليوم، وكأنّه موحش. لثلاث سنوات تقريبًا، كان هذا القصر بيتها، وعندما تذكّرت أشهرها الأولى كسفيرة، بسذاجتها وتفاؤلها، أدركت أنّ كليهما قد تلاشيا منذ زمن طويل في ضوء الواقع القاسي.

كانت الأزمة التي نشأت بين لانغدون وجهاز الاستخبارات التشيكيّ قد حلّت الآن، وطُويت صفحاتها. وبحسب الرواية الرسميّة، فقد لَقِق النقيب ياناتشيك أدلّة ضدّ مواطنين أميركيّين بارزين، وعندما علم بأنّ جريمته كُشِفَت، ألقي بنفسه من حصن الصليب.

هدّدت السفيرة هايدة ناغل بفتح تحقيقٍ علنيّ إذا لم يلتزم جهاز الاستخبارات بشروطها؛ التي تضمّنت الابتعاد كليًا عن موقع الحصن، وعدم انتشار جثّة ياناتشيك إلّا من قاع الوادي، عبر متنزّه فوليمانكا. ولم يكن أمام الجهاز سوى الرضوخ.

استدارت ناغل مُبتعدة عن النافذة، لتوجّه تركيزها مُجددًا نحو المسألة التي لا تزال عالقة؛ روبرت لانغدون وكاثرين سولومون. على مكتبها، كانت الطابعة تصدر أزيزًا وهي تُخرِج وثيقتين أرسلهما إليها السيد فينش منذ قليل.

لنأمل أن ينجح هذا الأمر.

تناولت ناغل الورقتين، وأخذت من على المكتب قلمًا أسود لامعًا نُقش عليه شعار "سفارة الولايات المتّحدة"، ثم خرجت للقاء ضيفيها.

* * *

في غرفة الجلوس، كان لانغدون قد استعاد شيئًا من نشاطه بعد تناول حَبّتي بسكويت وكوبٍ من القهوة، وبات على استعداد لمواجهة ما ينتظرهما في لقائهما مع السفيرة.

كان قد أوصى كاثرين مُسبقًا بالآلّا تتطرّق إلى أيّ أفكارٍ شخصيّة أو علميّة بعد دخولهما المقرّ الدبلوماسيّ. للجدران آذان. لكنّ لانغدون خشي أن يكون قد قال الكثير أساسًا في

الجزء الخلفي من سيارة الليموزين، وتساءل عما إذا كانت السيارة مُزوَّدة بنظام اتّصال داخليّ، أو ما إذا كان ثمة من أصغى إليهما. مع الأسف، لم يخطر بباله ذلك إلّا بعد فوات الأوان... بعد أن تطرّقاً إلى الأفكار المذهلة في كتاب كاثرين... وإلى جهاز التنصّت المخفيّ في أزهار التوليب في جناحهما... فضلاً عن تزايد شكوكه تجاه السفارة نفسها.

لا جدوى من القلق الآن. سنعرف ما يجري حالما نلتقي السفارة.

بينما كانا ينتظران، لمح لانغدون غرفة الطعام الرسميّة في الجهة المُقابلة من الممرّ، فتذكّر الوثائقيّ الذي شاهده عن هذا القصر، وقصة غريبة تتعلّق بكراسي الطعام.

أثار الأمر فضوله، فأشار إلى كاثرين لتتبعه إلى القاعة المُجاورة. هناك، امتدّت طاولة طويلة من الخشب المصقول، تحيط بها كراسٍ جلدية عتيقة محفورة يدويّاً. أمسك لانغدون بأحدها، وقلبه رأساً على عقب، فتجمّد في مكانه ما إن أدرك أنّه يحمل قطعة من تاريخ مُظلم. على أسفل المقعد، كان ثمة مُلصّق أصفر باهت يحمل رقم كتالوج مختوم 206، بالإضافة إلى الرمزَيْن النازيَّين، النسر الإمبراطوري *Reichsadler* والصليب المَعقوف.

شهقت كاثرين بدّهشة وهي تُحدّق إلى المُلصّق وقالت: "يا إلهي! ما الذي يفعله هذا هنا؟!"

رفع لانغدون الكرسيّ ليتفحص المُلصّق من كُتب وقال: "على ما يبدو، عندما استولى النازيون على براغ واحتلّوا هذه الفيلا، قاموا بفهرسة جميع الأثاث لإدراجه ضمن مقتنياتهم المُستقبلية في متاحفهم. وهذه المُلصقات تحمل أرقام الفهرسة الأصلية للنازيين. وقد قرّرت السفارة الإبقاء عليها كتذكير بفظائع الحرب".

علا صوتٌ من خلفهما قائلاً بسخرية خفيفة: "بروفيسور في الأثاث، على ما يبدو". استدار لانغدون وكاثرين بسرعة، ليجدا نفسيّهما وجهاً لوجه مع السفارة الأميركيّة هايدة ناغل. بقصّة شعرها الحادة المُستقيمة، بدت مُطابقةً تماماً للوحة المُعلّقة في الردهة. وكانت ترتدي بذلة سوداء رسميّة، وتزيّن عنقها بعقد من الخرز المُلوّن. أمّا ملامحها، فكانت حتمًا جامدة لا مكان فيها للابتسام.

سارع لانغدون إلى إعادة الكرسيّ إلى وضعه الصحيح قائلاً بارتباك: "آسف على ذلك". ثم وضعه بعناية في مكانه أمام الطاولة.

قالت السفارة بنبرة مُتوتّرة: "بروفيسور، إن كان ثمة من يجب أن يعتذر، فهو أنا. فبحسب ما أرى، يبدو أنّ حكومة الولايات المتحدة مدينة لكما بتفسيرٍ مُطول".

الفصل 76

هل الحكومة الأميركية مدينة لنا بتفسير؟

شعر لانغدون بالاضطراب وهو يتبع السفارة برفقة كاثرين عبر رواقٍ أُنِيقٍ شبه دائريٍّ، يمتدّ على طول الجناح الجنوبيّ من فيلا بيتشيك. كان اعتذارها في البداية قد فاجأه، بعد أن دخل هذا المكان بحذرٍ شديد، غير مُستعدٍّ لمنح ثقته لأيّ كان.

أمّا الآن، فقد تلاشت لحظة الدفء. إذ كانت السفارة هايدة ناغل تمشي بخطى سريعة ذات هدفٍ واضح، بدا عاجلاً ورسمياً، لا ينسجم مع منزلها الخاص. لم تُعلّق على شيء وهي تمرّ أمام غرفة الموسيقى، ومن ثمّ غرفة الجلوس المُذهّبة، فالقاعة الزجاجيّة المُطلّة على الشرفة والحدائق الشتويّة. عندما بلغوا نهاية الممرّ، دفعت باينن مُزدوجين مكسوئين بالمرايا ودخلت مكتبة صغيرة.

قالت أخيراً، وهي تتحدّث للمرّة الأولى منذ خروجهم من قاعة الطعام: "هذا أكثر مكانٍ أتمتّع فيه بالخصوصيّة في المنزل. هنا أجري مكالماتي الشخصيّة، وقد فضّلت أن نتحدّث هنا".

كانت المكتبة مكسوّة بألواح خشبيّة عتيقة تعبق برائحة الجلد والسيجار. اكتست الجدران برفوفٍ مليئة بالكتب القديمة، وتوسّطت الغرفة أريكتان زرقاوان مُقابلتان تحت ثريّاً مُذهّبة. وفي الزاوية، وُضع كرسيّ جلديّ مُريح، إلى جواره طاولة مُثمنّة الأضلاع قرب النافذة، أُعدّت للقراءة. وكانت المدفأة الرخاميّة غير مُشتعلة، تملؤها جذوعُ شجر البتولا البيضاء النظيفة.

تبعاً لإرشادات السفارة، جلس لانغدون وكاثرين على إحدى الأرائك، فيما اتّخذت السفارة مكانها في مواجهة ضيفيّها. كانت تحمل بيدها ورقّتين، وضعتهما مقلوبتين على الطاولة بينهم، ثمّ وضعت فوقهما قلماً يحمل شعار السفارة. أسندت ظهرها إلى المقعد، وشبكت يديها في حجرها، ثمّ أطلقت زفرةً خفيفة.

استهلّت حديثها قائلة: "سأتجاوز المُجاملات. بدايةً، اسمح لي بالتعبير عن مدى ارتياحي لسلامتكم. فالوضع الذي كنتَ فيه مع جهاز الاستخبارات التشيكيّ، يا بروفيسور لانغدون، كان خطراً للغاية، ويسرّني أنني تمكّنت من حمايتك".

شكراً... على ما أعتقد؟ قال لانغدون ذلك في سرّه، وهو لا يزال غير مُقتنع تماماً بأنّه بات أفضل حالاً.

حدّثت إليهما السفيرة هنية، وكأنّها تتأكّد من أنّها تحظى بانتباههما الكامل، ثم قالت: "أحضرتكما إلى منزلي لأقول بنفسي ما يجب قوله. ببساطة... أنا آسفة. وباسم الحكومة الأميركية، أقدم لكم اعتذاراً رسمياً. فقد أنشئت سفارتنا لحماية المواطنين والمصالح الأميركية في الخارج. وقد أقسمتُ على أداء هذا الواجب، وأخذته على محمل الجدّ. ومع ذلك، يؤسفني أن أخبركما أنه قبل عدّة أيام، وامثالاً لتلك المهمة في حماية المصالح الأميركية، صدرت إليّ أوامر بالمساعدة في زرع جهاز تنصّت في غرفتكما في الفندق".

هكذا/إذا، كانت شكوكي في محلّها. صُعب لا نغدون بينما عادت إلى ذهنه صورة أزهار التوليب والبطاقة المكتوبة بخط يد السفيرة. هذا يعني أنّ المرأة التي رآها على جسر كارل لم تكن توقّعا، بل أداء غريباً ناتجاً عن التنصّت على حديث كاثرين عن كابوسها. لكن ماذا؟!

قالت السفيرة: "جاء الأمر من جهة أعلى منّي، وقد امتثلتُ له. ظننتُ أنّه لأجل حمايتكما، ولم أكن أعلم أنّ المعلومات التي ستستخلص من التسجيل ستستخدم بطريقة تُعرّضكما معاً للخطر. كان ذلك تصرفاً لا يُغتفر، وأنا أتحمل مسؤوليته كاملة".

نظرت كاثرين إلى لا نغدون بغضبٍ ظاهر، ثم قالت للسفيرة بحدّة، غير آبهة بإخفاء غضبها: "إذا، فقد وضعتِ فعلاً جهاز تنصّت في غرفتنا؟"

ردّت السفيرة بنبرة صارمة: "قبل أن يشتدّ غضبك أكثر، تذكّري أننا نعيش في زمن خطر. أوكد لك أنّ أحدًا لا يهتم بحياتكما أو أحاديثكما الخاصة؛ ذلك الجهاز وُضع هناك باسم الأمن القومي".

قال لا نغدون، مُحاولاً الحفاظ على هدوئه قدر الإمكان: "مع احترامي، سيّدتي السفيرة، هل يبدو لك تهديداً للأمن القومي؟"

ردّت بحدّة: "ومع احترامي، بروفيسور، إن كنت تعتقد أنّ للتهديدات الأمنية شكلاً مُحدّداً، فأنت أكثر سذاجة ممّا يبدو من سيرتك الذاتية. أنا أقدم لكم الآن اعتذاراً وبعض الشفافية بشأن ما جرى هذا الصباح، وأنصحكما بأن تتعاوننا معي. فوقتنا ضيق، وثمة أمور في وضعكما عليكما فهمها جيّداً".

لم يتذكّر لا نغدون يوماً أنّه تلقى توبيخاً بمثل هذا الوضوح، فقال بنبرة خافتة: "مفهوم. من فضلك... تابعي".

قالت ناغل: "بادئ ذي بدء، أعلم يا دكتور سولومون أنّك ألّفت كتاباً سيُشَر قريباً. لكنّ ما عليك إدراكه أنّ ثمة جهات نافذة للغاية تعتقد أنّ هذا الكتاب - إن نُشر - سيشكّل خطراً جسيماً على الأمن القومي".

سألته كاثرين بانفعال: "وكيف ذلك؟ إنه كتاب عن الوعي البشري!"
رفعت السفيرة كتفيها: "ليست لدي معلومات على هذا الصعيد، غير أنّ الشخص الذي يملكها في طريقه الآن إلى براغ، ليلتقي بكما."
سألها لانغدون مذهولاً: "ليلتقي بنا... أم ليستجوبنا؟"
فقال وهي تنظر إليه ببات: "ربّما كلا الأمرين. فأنا مُلتزمة بحمايتكما، لكنّ سلطتي محدودة".

سألته كاثرين: "إلى أيّ مدى محدودة؟ أنتِ سفيرة الولايات المتحدة!"
ضحكت ناغل ضحكة قصيرة مرّة وقالت: "الدبلوماسيون يأتون ويمضون يا دكتورة سولومون. أمّا القوى الدائمة في الحكومة - تلك التي تتخذ القرارات الحقيقيّة - فهي من تعاملان معها الآن، للأسف".

خطر ببالهما عددٌ من الاحتمالات، وشعر لانغدون أنّ توتره بدأ يتصاعد.
قالت السفيرة: "لقد مُنعتُ من مناقشة أيّ تفاصيل أخرى من دون تقديم هذين المُستندين". ثمّ مدّت يدها وقبّلت الورقتين الموضوعتين على طاولة القهوة، ودفعت ورقة أمام كلّ منهما مع القلم. "إنّها اتفاقية عدم إفشاء قياسية؛ وعدٌ بالحفاظ على سرّيّة المُحادثة التي ستجرونها مع الرجل القادم بعد قليل. عند توقيعكما عليها، يمكنني إحاطتكما بكلّ ما أعرفه".
فكر لانغدون في سرّه: /اتفاقية عدم إفشاء من صفحة واحدة؟ منذ متى ينجز المحامون شيئاً في صفحة واحدة؟ لم يكن لانغدون محامياً، لكنّه اشتبه أنّ نصّاً بهذا الإيجاز سيعني استبعاداً واسعاً لكلّ ما سيُنَاقش؛ تعميماً كاملاً. والغريب أيضاً أنّ غُسْنِر طلبت منهما توقيع اتفاقية مُشابهة.

مدّت كاثرين يدها إلى الوثيقة، لكنّ لانغدون وضع يده بهدوء على معصمها وأوقفها، مُحافظاً على تواصل بصريّ مع السفيرة. "سيدتي السفيرة، بما أنّ هذا الشأن يتعلّق بوضوح بكتاب كاثرين، فلا يمكنها التوقيع على هذا المستند من دون أن تستشير محامياً، أو على الأقلّ مُحرّرها. لو سمحت، هل يمكننا أن نستخدم هاتفاً هنيهة —"
قاطعته ببرود: "طلبٌ منطقيّ، ومع ذلك لا أستطيع أن أوافق عليه. فالرجل القادم للقائكما أعطاني توجيهاً صارماً بمنع أيّ اتصال مع الخارج حتى توقيع الاتفاقيتين وسماع ما سيقوله".

سألته كاثرين: "ومن يكون هذا الرجل؟"
أجابت: "يُدعى السيد فينش، وهذان المُستندان مُرسلان من قبله. لكما ملء الحرية في قراءة الاتفاقية بالتأكيد".

قال لانغدون: "لا حاجة إلى ذلك. أخمن أنها تنصّ على أن ما سناقشه في اجتماعنا لا يجوز لنا إفشاؤه خارج هذه الغرفة".

أومأت ناغل، وقد بدت نافذة الصبر قليلاً، وقالت: "هذا هو عادة الغرض من اتفاقية عدم الإفشاء".

قال لانغدون: "أيًا يكن السيد فينش، ما دام لم يسمح لنا حتى باستخدام هاتف، فأرجو أن تتفهمني صعوبة ثقتنا بطلب كهذا. أعتقد أنه من الأفضل أن نعود إلى الفندق الآن".

بدت على كاثرين الدهشة، وكذلك على السفيرة ناغل، التي بدأ قناعها الدبلوماسي يتصدّع؛ إذ قالت ناغل بحدة: "إن أردتما المغادرة حقاً، فليست لديّ السلطة ولا الرغبة في استبقائكما ضدّ إرادتكما، لكنني لا أظنّ أن المغادرة تصبّ في صالحكما". صمتت قليلاً وهي تحدّق إلى لانغدون، قبل أن تُضيف: "لأكون صريحة، لا أظنّ أنكما ستكونان تماماً بأمان في الخارج".

ردّ لانغدون: "لأكون صريحاً أنا كذلك، لا أظنّ أننا نشعر تماماً بالأمان هنا أيضاً".

فامتلاً وجه ناغل بأمارات الحيرة والاستياء معاً، وقالت: "كان أملي، بروفيسور، أن يساهم اعترافي بزرع جهاز التنصّت في غرفتكما في إثبات حسن نيتي ونيل ثقتكما، لكن في ضوء—"

انقطع حديثها فجأة بصوت تنبيه خافت من هاتفها. فأخرجت الجهاز بامتعاض، وقرأت الرسالة الواردة، لتتحوّل ملامحها من الانزعاج إلى رعبٍ واضح. شهقت، وغطّت فمها بيدها، ثم هبّت واقفة، وقد اتسعت عيناها من شدة الانفعال.

قالت بارتباك وهي تتكئ على الطاولة: "أنا... آسفة جداً. سأحتاج إلى عشر دقائق. فهذه الرسالة... المَعذرة". ثم اندفعت خارج الغرفة، ووقع خطواتها السريعة يتردّد في الرواق الرخامي.

نظرت كاثرين بقلق: "لا أظنّه كان تمثيلاً".

كان لانغدون يُشاركها الانطباع نفسه، وإن تكن السياسة والتمثيل أقرب إلى بعضهما ممّا يتخيّل الناس.

لامته كاثرين قائلة: "لقد كنت قاسياً معها، يا روبرت"، وبدأ عليها الاستغراب من رفضه توقيع الوثيقتين. "فهي مُحقّقة في النهاية؛ لقد اعترفت بوضع جهاز التنصّت".

أجاب: "جهاز التنصّت نفسه الذي حدّثك عنه ونحن في ليموزين السفارة. أشكّ في تنصّت السفيرة أو ربّما السيد فينش على تلك المُحادثة، ولهذا وجدا نفسيهما مُضطربين إلى الاعتراف بما كنّا نعلمه. أقرّ أنها كانت مُحاولَة ذكيّة لكسب ثقتنا".

توتّرت شفتا كاثرين حتّى أصبحتا أقرب إلى خط رفيع. "يا إلهي! هل تعتقد حقاً أنها وضعت جهاز تنصّت في سيارتها؟ فقد قلنا... الكثير".

قال لانغدون وهو يلتقط إحدى الوثيقتين: "كلّ ما أعرفه أنّ هاتين الاتفاقيتين فحّ". ومسح بنظره نصّ الاتفاق، لتتأكّد ظنونه. "هذا المستند يُفيد حرفياً أنّ أيّ شيء ناقشه مع السيّد فينش يُصنّف سرّياً على الفور. واستناداً إلى ذلك، ما على هذا الرجل سوى أن يذكر مواضيع من كتابك، ليصبح من المحظور قانوناً أن تتحدّثي أو تكتبي عنها. وبموجب القانون، لن يعود بمقدورك نشر هذا الكتاب؛ أبداً".

"هل بإمكانهم فعل ذلك؟!"

"بالأكيد، لو وقّعت على هذه الورقة". تذكّر لانغدون صديقاً كتب رواية تشويق عن شركة تقيّة كبرى، غير أنّ حظراً فرض على نشرها لأنّه كان قد وقّع اتفاقية عدم إفشاء قبل زيارة مرافق الشركة.

قالت كاثرين بشرود: "حسناً... تجيب هذه الاتفاقية عن سؤال ظلّ يدور في رأسي طوال اليوم".

"وما هو؟"

نظرت إليه. "روبرت، عندما علمت أنّ أحدهم يحاول تدمير جميع نسخ مخطوطتي، تساءلت: لماذا لم يخشوا أن أعيد كتابتها؟ والآن، بتنا نعلم السبب؛ لأنّه لن يُسمَح لي بذلك".

قال لانغدون: "بالضبط. ولا تعجّبي فكرة أنّنا في مسكنٍ خاصٍّ ولسنا في مبنى السفارة الرسميّ". وأشار بيده إلى خارج النوافذ، المُطلّة على الأسوار الأمنيّة العالية التي تُحيط بالمكان. "فكّري في الأمر؛ لا مخرج، ولا هاتف، وثمّة رجل غريب قادم للحديث معنا... هنا؟ في منزلٍ خاصٍّ؟ رجل يمكنه أن يأمر سفيرة الولايات المتّحدة بزرع أجهزة تنصّت؟" نادراً ما رأى ملامح الخوف في عينيّ كاثرين، لكنّ القلق بدا عليها جليّاً الآن. قالت: "ما يُخيفني حقّاً أنّ لا أحد يعلم بمكان وجودنا، ولا نعلم إن كان جوناكس بأمان".

وقف لانغدون قائلاً: "ولهذا سأقتل عصفورين باتّصال واحد".

فنظرت إليه باستغراب: "أتقصد بحجر واحد؟"

لا، بل اتّصال.

تقدّم لانغدون نحو الكرسيّ القديم المُهترئ الذي لاحظ أنّ وسادته الجلديّة غاصت بسبب كثرة الاستعمال. "قالت السفارة إنّ هذه المكتبة أكثر غرفة تتمتع فيها بالخصوصيّة في المنزل... وفيها تُجري مكالماتها. فأين هاتفها؟"

أجابت كاثرين: "لديها هاتف جوّال".

هزّ لانغدون رأسه وقال: "أخبرني الملحق القانونيّ للسفارة أنّ الخطوط الأرضيّة إلزاميّة لجميع الاتّصالات الرسميّة".

جلس على الكرسيّ الجلديّ العتيق، وأخذ يتفحص الطاولة الجانبية مُثَمَّنَةً الشكل إلى جواره؛ كانت أشبه بعمودٍ زخرفيٍّ على طراز الفنون الجميلة، الذي شاع في أواخر القرن التاسع عشر. أمسك بحافة السطح ورفعها بخفة، فانفتح الغطاء المُفصَّل ليكشف التجويف الداخلي. وكما توقَّع، لم يجد زجاجاتٍ مخفية، بل الهاتف السلكي الخاص بالسفيرة. فمدَّ يده، وأخرجه، ووضع على ركبتيه.

قالت كاثرين، وهي تهزُّ رأسها مُبتسمة: "أنت لا تُصدِّق!"
أجاب بثقة: "كان تخميني مُوفقًا فحسب". ثم رفع السماعة إلى أذنه، فسمع نغمة الاتصال.

قالت بحذر: "هل تظنّ حقاً أنّه من الحكمة استخدام هذا الهاتف؟"
ردّ وهو يضغط الأزرار: "ولمَ لا؟ ففي الأرجح، هذا الخطُّ هو الأكثر أماناً في البلاد".

الفصل 77

تحت التأثير المُنشَّط لفنجان الإسبريسو المُزدوج، كان جوناس فوكمان قد غادر طابق كتب الأطفال، وعاد إلى مكتبه وقد عقد العزم على تنفيذ مهمّة واضحة؛ اكتشاف السبب الحقيقي وراء اختفاء مخطوطة كاثرين، لا سيّما من قبل جهة تتمتع بهذا النفوذ. انضمّ إليه أليكس كونان بحماسةٍ لتقديم المساعدة؛ على الأقلّ إلى أن تستدعيه مديرتة لاحقًا لجلسة الاستجواب المُتوقّعة.

جلس فوكمان خلف حاسوبه، بينما استقرّ الفنيّ قبّالته، وفتح حاسوبه المحمول. وما إن بدأ العمل، حتّى اخترق رنين هاتف المكتب الأرضيّ صمتَ الغرفة.

تساءل فوكمان في سرّه: اتّصال عمل عند الساعة الخامسة والرّبع صباحًا؟! لكن، ما إن رأى رقمًا أوروبيًا على شاشة المُتّصل، حتّى اندفع لرفع السّماء، وضغط على مكبّر الصوت. "ألو؟!"

"جوناس!" جلعجل صوت روبرت لانغدون المألوف في الغرفة. "حمدًا لله، أنت بخير! فقد حاولتُ عبثًا الاتصال على رقميّك الخليوي والمنزليّ. ماذا تفعل في المكتب في هذا الوقت المبكر؟!"

قال فوكمان وقلبه يخفق من شدّة الانفعال: "يا إلهي! روبرت... ظننّا أنّك...". قاطعه لانغدون: "أعلم بما سمعت، فقد أخبرتني كاثرين، لكنّ الذي غرق كان هاتفي، لا أنا".

"أكاثرين معك؟"

"هي معي، ونحن مرتاحانٍ لسماع صوتك. آخر ما علمناه أنّك مفقود". قال فوكمان: "هذه قصّة طويلة لا تُروى إلّا في جلسة مُطوّلة. كما تعلم في الأرجح، تمّ حذف مخطوطة كاثرين بالكامل. لقد تعرّضنا للاختراق، وحُذفت مباشرة من نظام دار النشر".

قال لانغدون: "سمعت بذلك. هل ثمة أيّ فرصة لاستعادة نسخة احتياطية من الخادم؟"

نظر فوكمان إلى أليكس، الذي هزّ رأسه بالنفي، فأجاب مُحبّطًا: "لقد تمّ مسحها تمامًا... لا أعلم ماذا أقول".

تنهّد لانغدون: "يا للأسف! لو أنّهم حذفوا كتابي الأخير بدلًا من كتابها".

فكّر فوكمان في سرّه ساخرًا: ليتهم فعلوا! فكتاب لانغدون الأخير -الرموز، والسيميائيات، وتطور اللّغة- حاز على تقييمات نقدية ممتازة، لكنّه لم يجد رواجًا خارج الأوساط الأكاديمية.

قال جوناس: "قيل لي إنّ كاثرين طبعت نسخة ورقية من المخطوطة، فهل هذا صحيح؟"

أجاب لانغدون: "نعم... لكنّها ضاعت هي أيضًا".
أخذ فوكمان نفسًا عميقًا وقال: "حسنًا، المهمّ أنكما بخير؛ أمّا الكتاب، فسنجد له حلًّا لاحقًا".

قال لانغدون: "لهذا السبب أتصل بك. في الواقع، لستُ متأكدًا من أنّنا بخير فعلاً، فنحن الآن مع السفارة الأميركية في مقرّها الخاصّ، لكنّ الموقّف غريب... حتّى إنّّه لا يُفترض بي أن أتصل الآن—"

"مهلاً! أنتما مع السفارة الأميركية؟! روبرت، عليك أن تكون حذرًا للغاية إزاء الثقة بأيّ جهة حكوميّة. فقد تمكّن فنيّ الشركة من تتبّع الجهة التي اخترقت نظام دار النشر، وتبيّن أنّها منظّمة قويّة جدًّا".

استعاد في ذهنه الاسم الغريب الذي كان أليكس قد طبعه وهما في مركز الأمن الإلكترونيّ للدار قبل قليل، وقال: "منظّمة تُدعى إن-كيو-تل، In-Q-Tel".
"لم أسمع بها من قبل".

"ولا أنا، لكن بحسب المعلومات التي استطعت جمعها، فهي شركة رأسماليّة استثماريّة ذات تمويل ضخم، تُطوّر تقنيّاتٍ مُتقدّمة بعيدًا عن الأضواء. لذا، لا عجب أنّك لم تسمع بها".

اعترض لانغدون: "لكنّ هذا لا يُعقل. فالشركات الاستثماريّة لا توظّف قراصنة وعملاء ميدانيّين".

"يبدو أنّ هذه الشركة تفعل. ربّما كنت لا تعرف إن-كيو-تل، لكنّك بالتأكيد تعرف منظمتها الأمّ".

"وما تكون؟"

تنفّس فوكمان بعمق، وقال بنبرة ثقيلة: "جهة صغيرة تُدعى سي أي إيه".
ساد صمتٌ مُطبّق على الخطّ.

قال فوكمان في سرّه: أعلم، وتذكّر صدمته الأولى حين اكتشف ذلك. وتابع قائلاً: "كلّ ما أعرفه أنّ وكالة الاستخبارات تملك وتدير شركة إن-كيو-تل بعدّها شركة استثمارٍ

رأسمالية خاصة، لتوظيف أموالها سرًا في التقنيات المُعلّقة بالأمن القومي. إذ تمتلك الوكالة مئات براءات الاختراع في مجالات التكنولوجيا المُتقدّمة، إضافةً إلى حصصٍ كبرى في بعضٍ من أكثر الشركات التّقنيّة جِراً في العالم". كان فوكمان قد استدار مُجدّدًا نحو الحاسوب، وسحب الصفحة التي كان يُطالعها قبل الاتّصال.

"متقدّوهم - ومعظمهم من شركات الاستثمار المُنافِسة - يشتكون باستمرار من أنّ ارتباط إن-كيو-تل بجهاز الاستخبارات الأميركيّ يمنحها، وأقتبس هنا، "مرونةً مُقلّقة في الطريقة التي تسعى بها إلى تحقيق أهدافها"، وأظنّ أنّنا شهدنا شيئًا من تلك المرونة الليلة". قال لانغدون بصوتٍ خافتٍ وقد بدت عليه الصدمة: "هذا لا يُصدّق! لا أحد يعلم سبب استهداف وكالة الاستخبارات كتاب كاثرين، لكن بالنظر إلى كلّ ما حدث، تبدو بصماتها واضحة في كلّ مكان—"

صرخ أليكس فجأة وهو يُلوّح بيديّه، ويُدير شاشةَ حاسوبه باتجاه فوكمان: "انظر إلى ما وجدته!"

على الشاشة، ظهرت صفحة ويكيبيديا، يبدو أنّ أليكس قد فتحها فور سماعه اسم السفيرة.

ويكيبيديا:

هايده ناغل: سفيرة الولايات المتحدة في الجمهورية التشيكية:

كانت الصفحة طويلة ومليئة بعناوين مُسطّرة، تُبرز نتائج البحث الذي أجراه للتوّ.

... ناغل تمّ استقدامها مباشرةً من كلّية الحقوق في جامعة نيويورك...

... المُستشارة المُشرفة على سياسة وكالة الاستخبارات المركزية...

... رُقّيت إلى منصب المستشار القانونيّة العامّة للوكالة ومستشارة لمديرها...

... تقاعدت من وكالة الاستخبارات لتتولّى منصب سفيرة...

همس فوكمان عبر الهاتف: "يا إلهي! روبرت... غادرا ذلك المنزل حالًا!"

الفصل 78

في الطابق العلويّ من الجناح الفخم، تشبّثت السفيرة هايده ناغل بحافّة المغسلة الرخاميّة في حمّامها الواسع، ثم انحنت فجأةً لتتقيّأ. فالرّسالة التي وصلت إليها قبل قليل من دانا لم تتضمّن سوى ثلاث كلمات.

مات مايكل هاريس.

فاعتذرت على عجل، وقد استبدّ بها الرعب، وغادرت الغرفة لتتّصل بدانا. أجابت هذه الأخيرة بصوتٍ مُتهدّج، اختلط فيه البكاء بالدّعر، وهي تحاول سرد ما حدث. يبدو أنّ دانا وجنديّ المارينز المُكلّف بحمايتها حين وصلا إلى شقّة ساشا، وجدا الباب غير مُقفل. فدخل كيربل لتفقد المكان، وما إن تجاوز المدخل، حتّى عثر على جثّة مُلقاة في الممرّ.

جثّة مايكل هاريس، الذي مات مَخنوقًا.

ولا أثر لساشا فيسنا، ولا لأيّ شخصٍ آخر.

على الرغم من الانفعال الذي عصّف بناغل، إلّا أنّها تماسكت بالقدر الكافي لتُصدِر أوامرها الحاسمة إلى كيربل لتأمين الشقّة، واستدعاء فريق جنائيّ لرفع الجثّة. وأبقى الأمر طيّ الكتمان! فأخّر ما تحتاج إليه الآن هو أن تشتعل الصحافة بعناوين عن مقتل مسؤولٍ في القنصلية على أرضٍ أجنبيّة. ليس اليوم.

أيّا يكن ما جرى في تلك الشقّة، فإنّ همّها الأوّل هو الموظّف الذي كان يعمل تحت إمرتها، مايكل. شعرت بالغثبان مجدّدًا وهي تفكّر في سرّها: دُمّه في عنقي. نظرت إلى نفسها في مرآة الحمام، وقد طغى عليها الإحساس بالذنب والندم... ليس بسبب مايكل وحده، بل بسبب كلّ ما حدث خلال السنوات الثلاث الماضية؛ منذ تولّيها منصبها في براغ...

فعلى عكس كثيرٍ من السفراء الذين نالوا مناصبهم بفضل ملايين التبرّعات للحملات الانتخابيّة الرئاسيّة، وصلت هايده ناغل إلى منصبها لمجرّد أنّها كانت في المكان المناسب في الوقت المناسب.

أو بالأحرى، في المكان غير المناسب.

فقبل بضع سنوات، وفي أثناء عملها كمستشارة قانونيّة عامّة في وكالة الاستخبارات المركزيّة، اختفى ملفٌ يحتوي على وثائق سرّيّة حسّاسة. وبعد بحثٍ مكثّف، داهمت فرقة من الوكالة منزلها، وعثرت على الملفّ مدفونًا في أحد أدراج مكتبها. ولم يكن مُستغرّبًا أن تُقتاد ناغل إلى الطابق العلوي من مقرّ الوكالة في لانغلي للقاء مديرها الأعلى.

كان مدير سي أي إيه، غريغوري جاد، عضوًا سابقًا في مجلس الشيوخ الأميركي. وهو رجل هادئ ورزين، على الرغم من سمعته في عدم التسامح مُطلقًا مع أيّ تقصير. ومعروف عنه في أوساط الوكالة أنه يعرف أين دُفِنَت كلّ الجثث؛ لأنّه هو من دفن كثيرًا منها.

حين دخلت مكتبه، قال لها بنبرة باردة: "أهو إهمال جسيم، أم خيانة؟" أجابته بصدق: "لقد كان خطأ طائشًا يا سيّدي. يبدو أنّ الملفّ قد اختلط بأوراق عملي عن غير قصد. لم أكن أعلم أصلًا أنّه بحوزتي". تأملها المدير طويلًا، ثم قال: "أميل إلى تصديقك، لكن من الواضح أنّه لم يعد بمقدورك الاستمرار في منصب المستشارية العامّة حتى نعرف كيف حدث ذلك. لهذا السبب، سأعطيك إجازة مَفْتُوحَة إلى حين انتهاء التحقيق". "سيدي، أنا حقًّا—"

قاطعها بصرامة: "والقرار يسري فورًا. عُديّة هديّة، وأقترح عليك بشدّة أن تتقبّلها قبل أن أغيّر رأيي".

بعد أسبوع، كانت ناغل لا تزال في منزلها، تَخْتَنق من شدّة الملل والفراغ. فأولادها كبروا منذ زمن، وشقّتها "الفاخرة" التي آلت إليها بعد الطلاق، بدت خالية وكئيبة، علماً أنّها لم تلاحظ ذلك من قبل، لانشغالها الدائم بالعمل.

فكرت في سرّها بمرارة: لقد انتهت حياتي... أصبحت مجرد أنقاض. في الثالثة والستين من العمر، كانت ناغل لا تزال صغيرة على التقاعد، وكبيرة على بدء مسيرة مهنيّة مُستقلّة في مجال الحقوق. فراحت تتساءل بسخرية عمّا ستفعله الآن بوقتها؛ نواذ أدبيّة؟ مواعدة عبر الإنترنت؟ بدا كلّ ذلك جحيماً. ثمّ جاء الاتصال الذي لم تكن تتوقّعه قطّ.

فقد اتّصل بها مدير الوكالة بعد أسبوعين، وبدا مُتعاونًا على غير العادة، إذ قال: "أشعر بالسوء تجاه ما حدث، هايدة، وأريد إصلاح الأمور".

فكرت في سرّها: هذا مستحيل!

قال جاد: "كما تعلمين، كنت أنا والرئيس المُنتخَب زميلَيْن في المدرسة الداخليّة. وقد اتصل بي هذا الصباح طالبًا نصيحتي بشأن بعض التعيينات الحسّاسة، ومن بينها منصب السفير الأميركي في جمهوريّة التشيك. فأخبرته أنّه— نظرًا إلى الظروف الدقيقة التي تمرّ بها المنطقة—بحاجة إلى مَنْ يملك معرفة عميقة بالقانون الدولي، وخبرة في شؤون الاستخبارات. باختصار، أنت".

طغى الذهول على ناغل. هل بدأت شبكة المعارف القدامى⁽¹⁾ بتوظيف النساء أيضًا؟ كان القرار بدهيًا. وبعد أربعة أشهر، صدرت البيانات الصحفية، ووجدت هايدة ناغل نفسها تعيش في براغ، في المقرّ المُذهّل لإقامة السفير الأميركي، وتُدير طاقمًا كفؤًا، وتؤدي عملًا ذا معنى. والأجمل من ذلك، أنّها في كلّ مرة كانت تلمح فيها القلعة الشامخة من نافذتها، كانت تشعر وكأنّها تعيش حكاية أسطورية.

لكن ذات ليلة، تغيّر كلّ شيء. فبعد شهرٍ من تسلّمها منصبها الجديد، تلقت السفيرة ناغل اتصالًا من المدير جاد للاطمئنان عليها. وبعد دردشة قصيرة، فاجأها بطلبٍ غير مألوف. "هايدة، أودّ منك أن تتناولتي العشاء مع أحد زملائي الموجود حاليًا في أوروبا".

"بالتأكيد يا سيدي". كان هذا أقلّ ما يمكنها فعله تجاه الرجل الذي أنقذ حياتها المهنية حرفيًا. "ومن يكون هذا الزميل؟"

"موظّف جديد في المكتب الأوروبي لشركة إن-كيو-تل".
فوجئت، وساورها شيء من القلق. كيو؟

لم تكن ناغل غريبةً عن إن-كيو-تل، أو "كيو"، كما كان عملاء الوكالة يختصرون اسمها. فهي الذراع الاستثمارية السريّة لوكالة الاستخبارات المركزية. وكانت تلك المجموعة الغامضة من الممولين تستثمر بكثافة في التّقنيات التي تراها مُرتبطة بمصالح سي أي إيه والأمن القومي، من آليات الجفاف الاصطناعي لشركة Biomatrix، إلى الإلكترونيات الميكروسكوبية لشركة Nanosys، وصولًا إلى حوسبة D-Wave الكمومية.

وخلال عمل ناغل كمستشارة قانونية في الوكالة، قدّمت أكثر من مرّة المَشورة القانونية للمدير بشأن ما سُمّي "التّقنيات الاستثمارية الإبداعية" و"أساليب حماية الأصول" التي تستخدمها إن-كيو-تل، لكنّ هذه المجموعة نادرًا ما خضعت للمساءلة.

تساءلت ناغل في سرّها: لماذا يأتي شخص من "كيو" إلى براغ؟ فقد بدا لها غريبًا أن تهتمّ شركة تكنولوجيا متقدّمة بمدينة قديمة الطراز مثل براغ، في حين إنّ ميدانها الطبيعيّ هو وادي السيليكون. في تلك الليلة، وصلت السفيرة ناغل باكراً إلى مطعمها المفضّل، كودا، وهو مطعم محليّ هادئ يُقدّم أطباقًا ممتازة من المطبخ التشيكيّ. غير أنّها فوجئت عند رؤيتها ضيفها قد وصل قبلها. كان رجلًا نحيل البنية، أنيق المظهر، في الخامسة والسبعين من عمره تقريبًا، بشعرٍ أبيض كثيف. وكان يُلَمّع نظارته وهي تقترب من الطاولة.

(1) نظام غير رسمي يُعتقد أنّ الرجال يستخدمون من خلاله مناصبهم المؤثّرة لمساعدة آخرين ارتادوا معهم المدرسة أو الجامعة نفسها، أو يشاركون معهم خلفية اجتماعية مُماثلة.

خَمَتِ قائلة في سرّها: رجل أرقام.

لكنّها كانت مُخطِئة تمامًا. فقد تبَيَّن أنّه إفريت فينش؛ المدير الأسطوريّ السابق لمديرية العلوم والتكنولوجيا في وكالة الاستخبارات المركزيّة. كان فريق فينش، بالإضافة إلى المديرات الثلاث الأخرى - الإدارة، والعمليات، والاستخبارات - تُشكّل معًا الأركان الأربعة للوكالة.

هل نقلوا فينش إلى إن-كيو-تل؟ في أوروبا؟

لم تجد تفسيرًا منطقيًا سوى أنّ مدير الوكالة أراد توظيف خبرة فينش في أوروبا لغرضٍ سرّي... فعينه هناك بعيدًا عن الأنظار.

قدّم لهما النادل طبقين صغيرين من المُقبلات؛ كوبيّن صغيرين من حساء الفطر التشيكي الفاخر المُسمّى كولايد. فارتشف فينش حساءه دفعة واحدة، ثم مسح فمه بمنديل، قبل أن يميل نحوها عبر الطاولة.

قال مُغفلًا لقبها الرسمي: "هايده... آمل أنّك تستمتعين بعملك كسفيرة هنا؟"

أجابت بحذر: "نعم".

منحها ابتسامة مُصطنعة وقال: "ممتاز. أظنّ أنّ الوقت قد حان لتعرفي السّبب الحقيقي وراء تعيينك في براغ".

في تلك الليلة، دفت سذاجتها بشأن الصدفة السعيدة التي ساقتها إلى براغ. وجودي هنا كان مُدبرًا.

لقد استخدمت شبكة المعارف القدامى بيدقًا نسائيًا في مَوْضع سُلطةٍ عندما احتاج أفرادها إلى ذلك. ومنذ ذلك الحين، أصبحت ناغل أسيرة لعبةٍ لا قرار لها فيها. وفي نهاية المطاف، اكتشفت ما كان يجب أن تدركه منذ البداية؛ أنّ فينش هو من دبرَ إقالتها من وكالة الاستخبارات، وهو من زرع الوثائق السريّة في منزلها.

وحين واجهته غاضبة، كان ردّه باردًا، لا، بل مُرعبًا. فقد أخرج نُسخًا عن الوثائق السريّة التي زُعم أنّها كانت بحوزتها، وأخبرها أنّه إن ظهرت هذه النسخ يومًا في يد عملاء أجنب، فإنّ ادّعاءها بارتكاب "خطأ بريء" سيتحوّل فورًا إلى تهمة بالخيانة.

عندئذٍ، هدّته بالاتصال بالمدير جاد، فما كان منه إلّا أن شجّعها على ذلك ساخرًا، مُؤكدًا أنّ المدير والرئيس كليهما مُطلّعان على الخطّة، وأنّ أيّ اتصالٍ بهما لن يجلب لها سوى التأكيد بأنّها تلعب في دوري الكبار من دون أيّ حلفاء.

أنا مجرد دمية.

ربّما كان فينش مُخادعًا، لكنّ ناغل لم تجرؤ على اختبار صدقيّة رجال كالرئيس الأميركيّ ومدير وكالة الاستخبارات المركزيّة، ولا سيّما أنّهم يلوّحون بتهمة الخيانة... هذا

ناهيك عن وجود مشروع استخباراتيّ سرّيّ للغاية على المحكّ.

هكذا يخنفي الناس.

منذ تلك اللحظة، كرهت فينش... وأطاعته.

والآن، بينما كانت السفيرة ناغل واقفة وحدها أمام المغسلة في حمامها، غسلت فمها، وحدّقت إلى عينيّها المرهقَتَيْن في المرآة.

مايكل هاريس مات.

قالت بصوت عالٍ: "هذا يكفي".

لقد تمادى فينش كثيرًا... وتخطّى الحدود.

لأكثر من عامين، كانت تبحث عن منفذٍ للخلاص من سجنها، لكنّ فينش لم يترك لها أيّ ثغرة.

حتى هذا اليوم.

الفصل 79

سرى في عروق الغوليم شعورٌ بالترقب وهو يقترب من حصن الصليب. بدا مختبر غَسْنِر القابع على التلّ مهجورًا الآن؛ وهذا يعني أنّه سيتمكّن أخيرًا من الاستيلاء على ما فشل في الحصول عليه صباحًا.

هذه المرّة، لن يُعيقني شيء.

كانت بطاقة RFID الخاصّة بغَسْنِر مدسوسة بعناية في جيبه، وقدّر أنّه سيحتاج إلى أقلّ من ثلاث دقائق ليظفر بالعنصر الأخير الذي يلزمه، قبل أن يُغادر المختبر نحو وجهته النهائية.

العتبة.

المكان الذي سأحوّله إلى رماذ.

وبينما كان يتقدّم نحو المدخل المُتصدّع، تذكّر كلمات سلفه الأسطوريّ، غوليم براغ.

ثمة طريقتان لا غير... الحقّ أو الموت.

وقد اختار الغوليم الاثنين معًا.

كشفُ الحقّ... وقبول الموت.

لقد مات مرارًا، لكنّ موته لم يكن نهائيًا يومًا. فعلى عكس الغوليم القديم الذي اختفى إلى الأبد، كان الغوليم الجديد قادرًا على التنقل بين الحياة والموت متى شاء.

أنا صنعتُ نفسي... وسأكون دائمًا سيّد نفسي.

ففي كلّ مرّة يمحو فيها الحرف ألف عن جبينه - ذلك الحرف الذي يُحوّل كلمة "الحقّ" إلى "مات" - كان الغوليم يختفي... لكن فقط عن الأنظار. إذ يصبح غير مرئيّ، وتلاشى قوقعته الضخمة، ويتحوّل المسخ إلى... واحد منهم؛ إلى إنسان عاديّ، لا يلفت النظر، ويخفي قوّته في أعماقه.

لا تستطيعون رؤيتي، لكنني ما زلت هنا... أحرصها.

على الرغم من العقبات غير المُتوقّعة في صباح هذا اليوم، إلّا أنّ الغوليم تصرّف بمهارة ودهاء، فحمى الأبرياء... وأهلك المُذنبين. والآن، حان الوقت لإنهاء ما بدأه.

عبر المدخل المُحطّم للمختبر، وقد سرّه أن يجد الردهة الأنيقة خالية تمامًا. كان السّلم المؤدّي إلى المُختبر مُقفلاً بلوحة أمنٍ بيومترية، غير أنّ بصمة الإصبع لن تكون عائقًا؛ فقد منحته ساشا إمكانيّة الوصول من دون أن تدري، منذ زمنٍ بعيد.

تحرك الغولم بخطواتٍ واثقةٍ عبر الردهة، وراحت جزمته الثقيلة تسحق الزجاج المتناثر على الأرض الرخامية، فتتردد الطقطة في أرجاء المكان.
فجأة، تنهى إليه صوت آخر من آخر القاعة، عرف فيه الصوت المُميز لقعقة سلاح وهو يُعدّ للإطلاق.

* * *

كانت العملية الميدانية هاوسمور، المُرَهقة من قلة النوم، قد أعدت لنفسها فنجاناً من القهوة، وجلست قرب نافذة الحصن تتأمل المشهد البانورامي لقلعة براغ، القابعة بعيداً بسكون. لكن صوتاً غير مُتوقَّع في الردهة أعادها إلى الواقع دفعةً واحدة، فوثبت واقفة، وجَهزت سلاحها تلقائياً.

بعد أن استنفرت كل حواسها، تقدّمت بخفةٍ نحو المدخل، وسلاحها جاهز للإطلاق. كان فينش قد أمرها بتأمين المبنى، ووعدها بإرسال الدعم، لكنها كانت تعلم أن الوقت ما زال مبكراً على وصول أي تعزيزات. وأي وحدةٍ مُدرّبةٍ كانت ستُعلن عن نفسها قبل الدخول.
ثمة شخص آخر هنا...

تقدّمت هاوسمور بحذرٍ حول الزاوية المؤدية إلى الممرّ، فرأت رجلاً مُقنَّعاً، مُلتحفاً برداءٍ أسود، يُحاول فتح الباب المعدني المؤدي إلى سلّم المُختبر.
صرخت وهي ترفع سلاحها: "Stijl! قف مكانك!"

لكن الرجل تجاهلها، وانسلّ سريعاً عبر الباب، في اللحظة التي أطلقت فيها النار. فاصطدمت الرصاصة بالباب الأمني، مُصدرةً صخباً معدنياً حاداً، من دون أن تصيبه. ركضت نحوه، لكنها وصّلت بينما كان الباب يُغلَق من جديد، بحيث عزلها عنه.

اقتربت من النافذة الصغيرة المُصفحة في الباب، ونظرت إلى السُلّم، فتجمّدت في مكانها. كان الرجل المُقنَّع يُحدِّق إليها مباشرة من الجهة الأخرى... على بُعد ستمترات فقط من وجهها. كان وجهه ترابياً، كسطح القمر، وقد نُقشت رموزٌ غريبة على جبينه. حدّق إليها بعينيّه الجليديّتين طويلاً، كأنه يحفظ ملامحها في ذاكرته. ثم استدار فجأة، وهبط السُلّم مُسرِعاً، وعباءته السوداء ترفرف خلفه، حتى اختفى عن الأنظار.

تراجعت هاوسمور خطوتين، لتستجمع أفكارها.

من... أو بالأحرى، ما كان هذا؟!

لم تفهم كيفية تمكّن هذا المُتسلّل من فتح الباب البيومترّي، لكنها أدركت أن عليها إبلاغ فينش فوراً. فبحسب علمها، لم يكن هذا المبنى مقرّ المنشأة السريّة للوكالة، لكن من الواضح أن

مختبر غَسِيرٍ يحتوي على شيءٍ بالغ الأهميّة، وقد أمرها فينش بحمايته مهما كلف الثمن. والآن، ثمة من تسلّل إليه أمام عينيّها.

خَمَنَت هاوسمور أنّ الرجل الذي دخل كان روسياً. إذ كانت عيناه الباردتان كالفولاذ تحمِلان ملامح سلافية، كما أنّ قناعه الطينيّ الكثيف مثال رائع على البراعة الروسية؛ فباتّباع الدّخيل تقاليد براغ في "التنكر"، تمكّن بسهولة من الإفلات من كاميرات المراقبة التي تعمل بتقنيّة التعرف على الوجوه والمُنتشرة في المدينة. علاوة على ذلك، أصبح الروس الآن بارعين في خداع البيانات الحيويّة باستخدام أطراف أصابع مُكرّرة مصنوعة على طابعات ثلاثيّة الأبعاد تعتمد على راتين الأشعة فوق البنفسجيّة.

أبقت هاوسمور عيناً على باب المختبر، بينما أعادت سلاحها إلى جرابه، وسحبت هاتفها بتردّد. لن يتقبّل فينش هذا الخبر بهدوء. كانت يداها ترتجفان قليلاً، فقرّرت أن تمنح نفسها لحظة لتستجمع شتات نفسها قبل مواجهته.

اهدئي. استجمعي أفكارك.

ومن دون أن تُزيح نظرها عن باب المختبر، بدأت تتراجع ببطءٍ إلى الوراء، وتحرّك في الممرّ بخطواتٍ محسوبة، حتى وصلت إلى غرفة الاستقبال. هناك، شعرت ببعض الأمان النسبيّ. ظلّت تواجه الباب، وراحت تتنفس بعمق عدّة مرّات حتى استعادت توازنها، ثمّ بدأت تطلب رقم فينش.

لكن لم تُتَح لها الفرصة.

فجأةً، أحسّت بوجود شخصٍ خلفها.

وسرعان ما اخترق ظهرها تيار كهربائيّ عنيف. تشنّجت كلّ عضلةٍ في جسدها، وجمدت في مكانها، قبل أن تهوي إلى الأمام وتصطدم بالأرض، ويسقط هاتفها بعيداً. انقضّ عليها مهاجمها بسرعة، وقلّبها على ظهرها، ثمّ ثبّتها أرضاً. فوجدت هاوسمور نفسها تحدّق إلى عينيّ ذلك الكائن الترابيّ الذي رآته قبل لحظّاتٍ يهبط سلّم المختبر.

من أين جاء؟! كيف؟ فقد شعرت كما لو أنّ هذا المسخّ ظهر من العدم خلفها.

انقضّ عليها الآن، وأطبق بكفّيه الهائلتين على عنقها. ومع انقطاع الهواء، حاولت المقاومة، لكنّ جسدها المشلول أبى أن يطاوعها. فلم يسع هاوسمور سوى الانتظار، والمُقاومة للبقاء واعية.

بعد مرور نحو عشرين ثانية وهي مُمدّدة على ظهرها مقطوعة الأنفاس، بدأت تستعيد بعض السيطرة على عضلاتها. كانت تحتاج إلى مزيد من الوقت، لكن مع الأسف، بدأت رؤيتها تشوش. إمّا الآن أو أبداً. فاستجمعت ما تبقى من قواها، ورفعت يديّها بكلّ ما تملك

من طاقة، ثم دفعت بهما صدره مُحاولَةً إبعاده عنها.

لكنّه لم يتزحزح.

كان مَلَمَس جلد هذا الكائن الطينيّ غريباً، وغير مُتَوَقَّع على الإطلاق.

عندها، نظر المسخ مباشرةً إلى عينيّها، ثم همس وهو يشدّ قبضته: "أنا لستُ كما تظنّين... أنا الغوليم".

الفصل 80

بُنِيَ حوض السباحة، البالغ طوله ثمانية عشر مترًا أسفل فيلا بيتشيك، على طراز الحمامات الرومانية التقليدية. وكان هذا الحوض - ذو اللونين الأزرق السماوي والأبيض - يُدْفَأُ بِسَخَّائَيْنِ يعملان بالفحم، ويُعَدُّ أَفْخَمَ أَشْكَالِ الرفاهية التي يضمُّها القصر، تحيط به حلقة مُزدوِجة من ثمانية وأربعين عمودًا من الرخام الأحمر.

بحسب الأساطير، لم يُستعمل ذلك المسبح إلا موسمًا واحدًا، قبل أن تلتقط ابنة أوتو بيتشيك التهابًا رئويًا كاد يودي بحياتها. عندها، أمر بيتشيك بإفراغه على الفور، ومنع استخدامه نهائيًا.

وقف روبرت لانغدون عند حافة ذلك المسبح المَهْجور، يحدِّق إلى الفراغ في الأسفل، باحثًا عن أي مخرج آخر غير الدَّرَج الضيق الذي نزل عبره مع كاثرين قبل قليل، في محاولة يائسة للهروب من المنزل.

تردَّد صوت كاثرين في الفضاء الخالي وهي تهمس قائلة: "بالتأكيد ستجد مَسْبَحًا... كم هو مُؤَسِّفُ أَنَّهُ خَالٍ مِنَ الْمَاءِ، وَإِلَّا، كُنْتُ سَتَحْظِي بِتَمْرِينِ السَّباحة الثاني لهذا اليوم". قال لانغدون في سرِّه: لا، بل الثالث؛ إن احتسبنا نهر فلتافا.

كان يأمل أن تُؤدِّي الأدراج إلى مَخْرَجٍ سفلي عبر القبو، يتيح لهما الفرار من مقرِّ السفيرة، لكن قاعة المسبح كانت مُغلَّقة من كلِّ الجهات. طريقٌ مسدود. فوقهما، دوى وقع أقدام السفيرة عبر فتحات التهوية، وهي تجوب الجناح الجنوبي في بحثٍ مَحْمُومٍ عن ضيفيها المفقودين. بدا أنها تعرف منزلها جيدًا، لتقدِّر محدودية خياراتهما. إذ لم تكد تمضي ثلاثون ثانية حتَّى ظهرت في أعلى الدَّرَج، وراحت تهبط بخطى حازمة نحو المسبح.

توقع لانغدون رؤية السفيرة ناغل برفقة أحد عناصر المارينز، لكنها كانت بمفردها. ومن دون أن تنبس بكلمة، تقدَّمت نحوهما، وأخرجت الاتِّفَاقِيَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ تُرَكِّتَانِ دُونَ تَوَقُّعٍ عَلَى الطَّاولَةِ، ثُمَّ مَرَّقَتُهُمَا إِرْبًا، وَتَرَكَّتِ الْقَصَاصَاتِ تَسَاقُطُ عَلَى أَرْضِيَّةِ الْمَسْبَحِ الْفَارِغِ.

راقبها لانغدون مذهولًا. ما الذي تفعله؟

بعد أن مَرَّقَتِ الْوَرَقَتَيْنِ تَمَامًا، وَجَّهَتْ إِلَيْهِمَا نَظْرَةً جَادَّةً، وَرَفَعَتْ إصْبَعَهَا إِلَى شَفَتَيْهَا مُشِيرَةً إِلَيْهِمَا بِالصَّمْتِ. بعد ذلك، أخرجت هاتفها المَحْمُولَ، وَضَغَطَتْ بِضَعَةِ أَزْرَارٍ... ثُمَّ وَضَعَتِ الْمُكَالِمَةَ عَلَى مُكَبِّرِ الصَّوْتِ.

أجاب صوت رجوليّ خشن: "معك فينش، هل الأمور تحت السيطرة؟" كانت لكتته أميركيّة مشوبة بلهجة جنوبيّة.

قالت السفيرة بنبرة هادئة: "نعم، نحن ننتظر. أين أصبحت؟"
"لقد هبطت الطائرة منذ قليل. سأصل إليك خلال ساعة."
قالت ناغل بالباح: "أرجوك، قل لي إنك عرفت شيئًا عن مايكل هاريس، فأنا قلقة على سلامته".

ردّ الرجل ببرود: "إن كان هاريس قد انكشف، فلا يمكننا فعل شيءٍ من أجله الآن. على أيّ حال، هو لم يعد مُفيدًا في هذه المرحلة في الأرجح. فقد أكد لنا أنّ ساشا لا تتكلّم، وهذا—"

فقالت ناغل: "لم يعد مُفيدًا! لقد تورّط مايكل في هذه المسألة... بأمرك أنت!"
"انسّي أمر هاريس، وركّزي على المهمّة الحاليّة. أين أنت الآن؟ أنا أسمع صدى".
"أنا في الحمام؛ فقد أردت بعض الخصوصية للاتصال".

"وأين لانغدون وسولومون؟"
"تركتهما في المكتبة، وطلبتُ منهما أن يسترخيا إلى حين وصولك".
تبادل لانغدون وكاثرين نظرة ذهول.

سأل فينش: "هل أخبرتهما بأمر جهاز التنصّت في الفندق؟"
"نعم، كما اقترحت".
"وهل نجح الأمر؟"
"تمامًا".

"وكلاهما وقعا على اتفاقية عدم الإفشاء، أليس كذلك؟"
أجابت السفيرة من دون تردّد: "نعم، تمّ التوقيع على الوثيقتين وخُتمتا، وهما الآن محفوظتان في خزنتي الشخصية".

قال فينش بنبرة رضًا: "ممتاز. سيكون من الجيّد أن نملك وسيلة ضغطٍ على لانغدون أيضًا".

راح كلّ من كاثرين ولانغدون يتبادلان النظرات بذهولٍ تامّ.
تابع الرجل: "وللتأكيد فحسب، هل لديك دليل ماديّ على أنّ النسخة الورقيّة من المخطوطة قد أُحرقت؟"

"نعم، جمع فريقي بقاياها؛ بضع قصاصاتٍ مُحترقة. سأرسل الصور".
"وتقولين إنّ الكاتبة نفسها هي من أحرقتها، أليس كذلك؟"

"هذا ما فهمته. فقد أحرقا المخطوطة معًا - لانغدون وسولومون - لأنهما شعرا أن حياتهما مهددة من عميل غاضب في الاستخبارات التشيكية... ومنك أيضًا، بطبيعة الحال".
قال فينش: "قرارٌ جريء. سأصدق هذا حين أنظر إلى أعينهما بنفسي. إن كانت المخطوطة قد اختفت حقًا... ووقعًا على اتفاقيتي الحفاظ على السرية... فقد نكون على وشك إغلاق هذا الملف".
"أتمنى ذلك".

سألها بعد ذلك: "وماذا عن حصن الصليب؟ هل تأكدت من انسحاب الاستخبارات التشيكية من الموقع؟ لا أريد أحدًا بجوار مختبر غسّير أو عملها".
"تمّ التأكد؛ لا أحد هناك الآن".
قال مُرتاحًا: "جيد. أريدك أن ترسلي فورًا وحدة من المارينز لتأمين المكان. صحيح أن منشأتنا الأساسية هي الأهم، لكن لا يمكننا المخاطرة بأيّ تسريب من الحصن أيضًا. اطلبي من فريقك تأمينه، وسأمرّ به بنفسي بعد لقائنا في منزلك".
"مفهوم، سأرسل الوحدة حالًا".
"إلى اللقاء قريبًا".

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثم انقطع الخط.
في الصمت الذي أعقب المكالمة، تأكدت السفارة ناغل مرّتين من أن الخط قُطع فعليًا، ثم رفعت بصرها إلى لانغدون وكاثرين، وأطلقت تنهيدةً مرهقة.
سألتهما كاثرين: "ما الذي حدث الآن؟!"
نظرت السفارة إلى فتحات التهوية في السقف، وبدا أنّها لا ترغب في المُجازفة بأن يسمعهما أحد، فأشارت إليهما ليتبعاهما. قادتهما عبر ممرّ جانبيّ إلى غرفة الخدمات التابعة للمسبح. هناك، علّق في السقف مصباحٌ واحدٌ باهت يضئ سحّابتين معدنيّين، لا يزالان - على الرغم من مرور قرنٍ تقريبًا على عدم استخدامهما - يعبقان برائحة الفحم المُحترق.
قالت السفارة بصوتٍ خافتٍ وهي تغلق الباب خلفهم: "أول ما عليكما معرفته أنّ الرجل الذي كنت أتحدّث إليه يعمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية".
تراجع لانغدون خطوةً إلى الوراء مُتظاهرًا بالدهشة، مع أنّه كان قد تلقى تحذيرًا مُسبقًا من جوناس فوكمان. "عذرًا؟!"

أومأت ناغل برأسها مُتابعًا: "اسمه إفریت فينش، وكان مسؤولًا عن مديريّة العلوم والتكنولوجيا في الوكالة. لا بدّ لي أن أضيف أيضًا أنّني عملت لصالح سي أي إيه بدوري، فقد كنتُ محامية".

قال لانغدون في سرّه: هكذا/إذًا. ومع ذلك، لم يكن مُتأكدًا إن كان يشعر بالارتياح أم بالاضطراب بعد هذا الإعلان الصريح.

أكدت ناغل الآن ما أخبره إتياء فوكمان في مكالمته الهاتفية؛ وهو أنّ وكالة الاستخبارات تدير في الخفاء شركة استثمارٍ رأسمالية تُعرف باسم إن-كيو-تل، أو "كيو" باختصار، تستثمر في التقنيات المرتبطة بالأمن القومي، وتدافع عن مصالحها بشراسة.

قالت كاثرين: "أتعنين أنّ سي أي إيه تدير مصرفًا استثماريًا؟"

أجابت ناغل: "يمكن القول إنّهُ بدافع الوطنية أكثر منه بهدف الربح. فميزانيات الاستخبارات الأميركية تقلّصت في السنوات الأخيرة، ومع ذلك، تُقسّم الوكالة على حماية البلاد من جميع أعدائها؛ بمن فيهم السياسيون قصيرو النظر وبالغو التفاؤل. ولذلك، ترى الوكالة نفسها مُخوّلة أخلاقيًا، بل ومُلزّمة، بالبحث عن مصادر تمويلٍ خارجيةٍ لدعم برامجها الحيوية التي لا يمكن للميزانية الرسمية تغطيتها".

أدرك لانغدون وهو يصغي أنّ أيّ مشروعٍ يُموّل من "كيو" يتجاوز رقابة الكونغرس تمامًا، أي أنّ الوكالة تستطيع أن تفعل ما تشاء من دون مُساءلةٍ من أحد.

قالت ناغل: "قبل سنواتٍ قليلة، نقل مديرُ سي أي إيه فينش إلى لندن، وعيّنه في موقعٍ سرّي في المقرّ الأوروبي لـ "كيو". مهامه سرّية، لكنّه يتمتّع بصلاحيّاتٍ مُطلّقة، ومن الواضح أنّه قلقٌ للغاية من مخطوطتك يا دكتورة سولومون".

سألته كاثرين بالاحاح: "ولماذا؟"

أجابت السفيرة: "كلّ ما أعلمه أنّ فينش يجد في كتابك تهديدًا لأحد أهم استثمارات "كيو". ولهذا السبب، يتعامل مع الأمر كقضيةٍ أمنٍ قومي، ممّا يمنحه سلطةً واسعة في اختيار كيفية التعامل معك".

بدأ لانغدون يشعر بالاختناق في ذلك القبو المُعلّق بلا نوافذ.

قالت كاثرين بحدّة: "ولكن، كيف يكون ذلك تهديدًا؟! أنا أفكر مليًا في ما كتبته في محاولة لمعرفة الشيء الذي كتبته—"

"لا أعرف، ليست لديّ أيّ تفاصيل. لم تصل إليّ سوى الأوامر؛ أن أجبركما على توقيع اتفاقيّتي حفاظ على السريّة".

قالت كاثرين: "لكن، إن كانت سي أي إيه تجد كتابي خطيرًا على الأمن القومي، فلماذا لا يتمّ الاتصال بدار النشر التي أتعامل معها ببساطة، ويُطلّب حذف الأجزاء الحسّاسة؟" ابتسمت ناغل بمرارة: "بحكم عملي السابق في الوكالة، يمكنني أن أوكد لك أنّ تحديد المقاطع الحسّاسة يكشف أكثر ممّا يُخفي. فهو سيُظهر بوضوح ما تحاول الوكالة إخفاءه.

ثم إن دار النشر قد ترفض الطلب، وتستغل الموقف لتسوّق الكتاب تحت عنوانٍ جذابٍ مثل: *الكتاب الذي لا تريد سي أي إيه أن يقرأه أحد!*

عرف لانغدون أنّها على حق. فقد ارتكب الفاتيكان الخطأ نفسه مرارًا عندما منع كتبًا وصفها بأنّها "مُعادية للكنيسة"، فكان ذلك سببًا في ازدياد مبيعاتها.

سأل لانغدون: "هل قرأت نصّ اتفاقيّتي الحفاظ على السريّة؟"

أجابت السفيرة: "نصوصّ شفهيّة عامّة للغاية، خطِرة في غموضها. فهي تتيح له أن يجري معكما مُحادثة مُسجّلة، وكلّ ما يُذكر فيها يصبح تلقائيًا معلومةً محميّة. واعتمادًا على ما سيقوله لكما، يمكن لتلك الاتفاقية أن تُستخدم قانونيًا لإيقاف كتاب كاثارين فورًا ونهائيًا".

استعاد لانغدون في ذهنه كلّ ما روته له كاثارين عن مخطوطاتها وأبحاثها: مرشحات الدماغ، حمض GABA، الوعي غير الموضوعي.

لماذا قد تهتم وكالة الاستخبارات بهذه الأمور؟

قال لانغدون: "ذكرت أنّ فينش يرى في كتاب كاثارين تهديدًا لأحد استثمارات كيو الكبرى... وهذا يطرح سؤالًا واضحًا: هل تعرفين ما هذا الاستثمار؟"

"ما أعرفه أنّه يتعلّق بمنشأة سريّة للغاية أقامتها سي أي إيه هنا في براغ".

قال لانغدون بدهشة: "في براغ؟! أتمزحين؟ وما الذي يفعلونه هنا؟"

هزّت ناغل رأسها بعجزٍ واضح: "لا أدري. كلّ ما يمكنني قوله أنّ تلك المنشأة تحمل اسمًا رمزيًا، فهم يسمونها *العتبة*".

الفصل 81

قالت ناغل بصوتٍ خافت، وقد اجتمع الثلاثة في غرفة تسخين المياه الكثيفة أسفل الفيلا: "لم يتم تزويدي إلّا بتفاصيل قليلة جدًا؛ إذ تزعم الوكالة أنّه يتمّ استيعادي حفاظًا على سلامتي. كلّ ما أعلمه أنّ مدير سي أي إيه نفسه يعتبر مشروع العتبة أهمّ مشروع في تاريخ الوكالة... لا بل مشروعًا مصيريًا لأمن المستقبل".

ساد صمتٌ ثقيل بعد تصريحها الجريء، إلى أن سألتها لانغدون: "وأنتِ، ألسنتِ مُتورّطة فيه؟"

أجابت: "يقتصر دوري على التسهيلات السياسيّة. فمِنذ ثلاث سنوات، دَبّرت سي أي إيه تعييني سفيرة هنا من دون علمي، لتجعل مِنّي بيدقًا دبلوماسيًا؛ مُوظَّفةً من داخل الجهاز تطيع أوامر فينش وتساعد على تجاوز التعقيدات القانونيّة المُربِطة ببناء منشأة العتبة سرًّا".

سألها: "وما زلتِ تجهلين نوع النشاط الذي يجري هناك، أليس كذلك؟"

أومأت ناغل برأسها مُجيبية: "أعرف فحسب أنّها مُنشأة أبحاث علميّة. ومن القليل الذي ذكره فينش، وبحكم الدور البارز الذي تودّيه بريغيتا غِسْنِر، أرجح أنّهم يجرون أبحاثًا مُتقدّمة على الدّماغ البشري... ربّما تتعلّق بالوعي الإنساني. غير أنّ شدّة الإجراءات الأمنيّة العسكريّة هناك تدلّ بوضوح على أنّ ما يجري أعمق من مجرد فضولٍ علمي".

بدت كاثرين مأخوذةً بالحديث. "وهل المنشأة تعمل فعليًا الآن؟"

أجابت السفيرة: "البناء اكتمل، لكنّ التشغيل الكامل لم يبدأ بعد. بحسب علمي، أجروا تجارب محدودة... أعتقد أنّها كانت ناجحة؛ لأنّهم يستعدّون الآن لإطلاق العمل رسميًا. في الوقت الراهن، يتمّ تدريب الطاقم في الولايات المتحدة، ويتوقّعون تشغيل المنشأة خلال أسابيع قليلة".

سألتهَا كاثرين: "وهل هذه المنشأة قائمة هنا في براغ؟"

تردّدت ناغل لحظةً، وكأنّها تفكّر للمرة الأخيرة قبل أن تكشف المزيد، ثم قالت: "من الناحية التقنيّة، هي تحت براغ؛ فالمنشأة أُقيمت بكاملها تحت الأرض".

للحظة، خطر ببال لانغدون الطابق السفليّ من مختبر غِسْنِر، فقال: "ليست في حصن الصليب، أليس كذلك؟"

أجابت السفيرة: "كلّا، هناك يقع مختبر غِسْنِر الخاصّ. صحيح أنّ سي أي إيه استثمرت في تقنيّات العالمة، لكنّ منشأة العتبة تقع في مكانٍ آخر. هي ليست بعيدة عن

الحصن، لكنّ مساحتها تتجاوز عشرة آلاف قدم مربّعة".

ردّد لانغدون في سرّه: عشرة آلاف قدم مربّعة؟! وكلّها تحت الأرض؟! "وكيف يمكن بناء صرح بهذه الضخامة تحت مدينة كهذه من دون أن يلاحظ أحد؟"
هزّت ناغل كتفَيْها مُجيبية: "الأمر بسيط نسبيّاً؛ فالهيكل الأساسيّ كان موجوداً أصلاً. وما فعلته الوكالة هو أنّها وضعت يدها عليه وأعادت بناءه". صمتت قليلاً، قبل أن تُضيف:
"لكنّ المعروف علناً أنّ فيلق مُهندسيّ الجيش الأميركيّ هو الذي تولّى المشروع".
لم يلزم لانغدون سوى لحظةٍ واحدة ليربط الخيوط بعضها ببعض.

ففي خمسينيّات القرن الماضي، بُني في براغ أحد أكبر الملاجئ السوفيّاتية في أوروبا. وقيل إنّ تلك الشبكة الضخمة من الأنفاق الحجريّة والغرف الرطبة تُسعّ لنحو ألف وخمسمئة شخص، وتضمّ محطة طاقةٍ خاصّة بها، ونظاماً لتنقية الهواء، وحماماتٍ ودُشّات، وقاعة تجمّع، بل وحتى مشرحةً. وقد أهمل الملجأ منذ عقود، لكنّ جزءاً منه ظلّ مَفْتُوحاً اليوم كمعلمٍ سياحيّ.
"ملجأ فوليمانكا..." همس لانغدون بذلك، وقد تملّكته الدهشة لعلّمه أنّه مشى فوق أجزاء من هذا الملجأ في وقتٍ سابقٍ من هذا اليوم من دون أن يدرك؛ فالمخبأ مَدْفُونٌ تحت حدائق فوليمانكا الواسعة.

صحيح أنّه لم يزره يوماً، لكنّه رأى المدخل السياحيّ؛ وهو نفقٌ إسمنتيّ تملّؤه رسومات الغرافيتي الملوّنة التي تصوّر انفجاراتٍ نوويّة، تعلوها عبارة KRYT FOLIMANKA، التي ظنّ أنّها تعني سرداب فوليمانكا، ليكتشف لاحقاً أنّ معناها ملجأ فوليمانكا.

كان الجزء المعروف للعامة ضحلاً وآمناً نسبياً، يمكن التجوّل فيه بسهولة، لكنّ الجزء الأكبر يمتدّ على عمق أكبر وعلى مسافة أبعد تحت المتنزه. وعلى مرّ السنوات، غمرت المياه شبكة الأنفاق والحجرات، وتداعت بفعل الإهمال، فأغلقت تماماً وطواها النسيان.

وصفت السفيرة سريعاً كيف تمكّنت سيّ أيّيه من الاستحواذ على الجزء المهجور من المخبأ. فبوصف الولايات المتحدة عضواً في حلف الناتو، تعاونت الحكومة الأميركيّة مع الحكومة التشيكيّة بانتظام في المسائل العسكريّة والسياسيّة هنا. وفي بعض الأحيان، شمل ذلك تقديم المساعدة المدنيّة في البنى التحتيّة؛ كما حدث في حالة متنزه فوليمانكا، حين أعلنت بلدية المدينة أنّ أرض المتنزه بدأت تهبط تدريجيّاً، وأنّها تخشى أن تنهار يوماً في فراغات الملاجئ القديمة المُتداعية تحتها.

وسرعان ما وصلت النجدة على شكل فيلق مهندسين في الجيش الأميركيّ. فقام بحفر نفق دخول جديد في الطرف الغربيّ من المتنزه، وبدأ مشروعاً امتدّ عدّة سنوات لتجفيف نظام المخابئ الواسع وإغلاقه وتدعيمه.

والآن، صار المشروع في مراحلهِ الأخيرة. ومع ذلك، تقول السفيرة إنّ نظريّات المؤامرة المُعادية لأميركا لا تزال تتردّد: متّزّه فوليمانكا لم يكن ينهار فعلاً... بل يُعاد بناؤه كسجن عسكريّ سرّيّ... أو مخبأ للأسلحة الكيمايّة. وادّعى آخرون أنّ الكهوف الأعمق لم تكن موجودة أصلاً، وأنّ الولايات المتحدة هي التي تحفرها الآن؛ وهذه شُبْهة غداها غياب أيّ خرائط مَوْثوقة من الحقبة السوفياتيّة تُوضّح كامل معالم المخبأ، والتي إمّا لم يكن لها وجود أصلاً، أو أُزيلت عمدًا من السّجلات.

مهما تكن الحقيقة، لم يستطع لانغدون إلّا أن يُعجّب بدهاء الخطّة وبساطتها. لكنّ سؤالاً واحدًا ظلّ يُلحّ عليه، فطرّحه قائلاً: "ولماذا هنا بالتحديد؟ لماذا لا تُشيّد منشأة العتبة في صحراء أريزونا مثلاً؟"

أجابت ناغل: "السبب بسيط. فالمدن المُزدحمة تُوفّر تموينها طبيعيّاً ضدّ مراقبة الأقمار الصناعيّة؛ وهو ما لا يمكن الحصول عليه في مناطق نائية كالصحراء. كما أنّ نقل الموادّ والعمّال في مدينة مُكتظّة لا يثير الريبة، بخلاف المشاريع المعزولة. ولهذا، يتمّ اليوم نقل العديد من المنشآت الاستخباراتيّة إلى مراكز حضرية. كما أنّ اختيار مدينة خارج الولايات المتحدة يخفّض الرقابة التشريعيّة والقيود القانونيّة المحليّة إلى الحد الأدنى".

توقّف لانغدون عند كلماتها الأخيرة، وقد شعر بنذير خطر. فسألها، وقد فاجأته صراحتها: "ولماذا تخبريننا بكلّ هذا؟"

وافقت كاثرين قائلة: "نعم... فالأمر يبدو كأنّه—"

قاطعتها السفيرة بنظرة شاردة: "خيانه؟ ربّما. في الواقع، أسبابي شخصيّة، لكن مهمما يكن المصير الذي ينتظرني، أرجو أن تُصدّق أنّ الحفاظ على سلامتكما أولى أولويّاتي حاليّاً".

كان لدى لانغدون كثير من الأسئلة التي لا تزال عالقة، لكنّه وجد نفسه يميل إلى تصديقها.

قالت ناغل: "عليكما أن تدركا أنّكما تتعاملان مع قوى هائلة. ففي مدار سي أي إيه ومشروع العتبة، الرهانات تفوق كل تصوّر... وبصراحة، ثمة أرواح تُزهق". ثمّ تنهّدت، ونظرت إليهما بعينين مُثقلتين بالحزن، وللحظة خُيّل إلى لانغدون أنّها ستبكي. "لقد قُتلت الدكتور غِسْنِر الليلة الماضية... لكنّها ليست الضحيّة الوحيدة. فقد وردني الآن أنّ المُلحق القانونيّ للسفارة، مايكل هاريس، عُثِر عليه ميتاً قبل نصف ساعة".

عندئذٍ، شعر لانغدون بالغثيان وهو يتذكّر لقاءه القصير مع هاريس في الفندق قبل ساعات. قال بأسى: "يُؤسفني سماع ذلك".

أوضحت ناغل بصوتٍ مُرتجف أن جثة هاريس وُجِدت في شقّة ساشا فيسنا؛ التي كان على علاقةٍ "زائفة" بها بأمرٍ من فينش. فقد أراد هذا الأخير مراقبة مساعدة غِسنِر الروسية من كُتب. ومع أن مصير ساشا لا يزال مجهولاً، إلّا أنّ السفارة لم تكن مُتفائلة.

شعر لانغدون بقلبي حقيقيّ على سلامة ساشا، فيما تابعت السفارة، وهي تزم شفّيتها وتزفر بعُمق: "أنا المسؤولة المباشرة عن موت مايكل هاريس... وسأحمل هذا الذنب إلى الأبد". ثم رفعت رأسها، ونظرت إليهما بثبات، وكأنّها تُجبر نفسها على استعادة رباطة جأشها: "لا أعلم من أين أبدأ بالتكفير عن خطئي، وعن طاعتي العمياء لأوامر فينش... لكنني أعلم أمراً واحداً الآن، وهو أنني سأبذل كلّ ما يلزم لتصحيح هذا الخطأ وحمايتكما". سألتها كاثرين: "وكيف تنوين فعل ذلك؟"

أجابت السفارة: "أمامنا ثلاث خطواتٍ مُمكنة. للأسف، لن يُعجبكما أيُّ منها. الخيار الأوّل - والأكثر أماناً - أن أُعيد طباعة اتّفاقيّتي الحفاظ على السريّة، فتوقّعان عليهما، وتلتقيان فينش كما هو مُخطّط، لتمنحاه ضمان الصمت الذي يريده. سيُخرجكما هذا من دائرة اهتمامه، لكنّ ثمنه سيكون باهظاً؛ إذ لن تتمكّني يا دكتورة سولومون من نشر كتابك أبداً، وربما تُمنعين من العمل بحريّة في بعض المجالات العلميّة".

قالت كاثرين بحدّة: "هذا الخيار ليس مطروحاً أصلاً".

أضاف لانغدون مُؤيِّداً: "اتّفق معها تماماً. ما الخيار الثاني؟"

قالت ناغل وهي تنظر إليهما بجديّة: "لدينا نحو ساعة قبل وصول فينش. يمكننا أن نغادر فوراً. سأقودكما إلى المطار بنفسي، فتغادران البلد قبل أن يدرك أحد. ستكون العواقب وخيمة - عليّ، وعليكما - لكننا سنكسب بعض الوقت لإيجاد حلول بديلة". سألهما لانغدون: "مثل ماذا؟"

قالت: "كأن تنشر الدكتورة سولومون كتابها فوراً. فالنشر العلنيّ يمنح بعض الحصانة -"

قاطعتها كاثرين: "لكنّ كتابي اختفى، وإعادة كتابته ستستغرق وقتاً طويلاً".

أشار لانغدون: "وحَتّى لو كانت لديها نسخة، فإنّ نشر كتاب يستغرق أشهراً. هذا الحلّ غير عمليّ، ثمّ إنّ خطوة كهذه ستجعلها هدفاً دائماً لسي أيّ إيه".

"على مستوى معيّن، نعم".

قالت كاثرين: "إذاً، أنا لست مُوافقة؛ فأنا لا أريد أن أعيش عمري كلّهُ وأنا أتلقّ ورائي

بخوف. ما الخيار الثالث؟"

صمتت السفارة لحظة، كأنّها تزن كلماتها بعناية، ثم تكلمت بنبرة هادئة، نبرة مُحام يُقدّم مشورة لموكّله: "في عالم الاستخبارات، ثمة مصدر واحد حقيقيّ للقوّة؛ المعلومات.

إنّها العملة الوحيدة التي يفهمها الجميع... وأنّما الآن في موقع يتيح لكما الحصول على قدر هائل منها. تذكر أنّ فينش يظنّ أنّكما وقّعتما اتفاقيّتي الحفاظ على السريّة، وهو قادم الآن ليستخدّمهما ضدّكما. سيُفصح لكما عن كلّ ما يستطيع ليضمن أنّ كلّ ما يذكره سيصبح خارج نطاق الحديث العلنيّ مُستقبلاً.

لكنّ المُفارقة أنّه، كلّما كشف لكما أكثر، ازدادت المعلومات التي ستملكانها... وبالتّيجة، تضاعفت قوّتكما".

أدرك لانغدون أنّهما يخوضان مباراةً مع مُحترفين... بل ويلعبان بالنار. ومع ذلك، لم يبدُ له مُخطّط ناغل بالبساطة التي صوّرتها. فقال مُوجّهاً حديثه إليها: "فهمتُ كيف سنحصل على المعلومات... لكن ماذا بعد ذلك؟"

أجابته: "سأساعدكما. سنسلّم جميع البيانات إلى طرفٍ ثالث - محام مُستقلّ مثلاً - ليضع آليّة تضمن أنّه إذا أصاب أحدهما أيّ مكروه، أو عجزنا عن التواصل معه دورياً، فإنّ المعلومات ستُرسل فوراً إلى وسائل الإعلام. يُسمّى المحامون هذا البند، شرط الوفاة غير المُتوقّعة". قال لانغدون ببرود: "ابتزاز هي الكلمة الأدقّ".

ابتسمت السفيرة بهدوء: "بصراحة، نعم، لكنّ الأمر قانونيّ تماماً". تراجعت كاثرين خطوة إلى الوراء وقالت مذهولة: "أقترح حين أن نبتز وكالة الاستخبارات؟"

"فكّري في الأمر بوصفه ورقة ضغط معلوماتيّة، آنسة سولومون. فالتهديد بالمعلومات لغة يفهمها هؤلاء. إن هاجموك، فهم يعلمون أنّهم سيتعرّضون للضرر، ولهذا سيتجنّبون الاقتراب منك".

قال لانغدون: "والعكس صحيح. أنتِ تحمين أسرارهم، وهم يمنحونك الحصانة". قالت ناغل: "بالضبط، تدميرٌ مُتبادل مضمون. إنّها مُعادلةٌ مُجرّبة؛ فلولاها لأطلقت القوى العظمى صواريخها النووية منذ الستينيّات. لكنّ الرغبة في البقاء، أبقت العالم مُتوازناً؛ اتّفقنا على أن نختلف فحسب".

كانت كاثرين لا تزال مُتردّدة، فقالت السفيرة في محاولة لطمأننتها: "امتلاك ورقة ضغط كهذه سيُنهي الأزمة فوراً. إذ إنّ الوكالة ستُضطرّ إلى التراجع وإعادة التقييم، وسيُمنح الجميع وقتاً للتقاط أنفاسهم والتفاوض. وربّما يخبرونك بما يثير قلقهم في كتابك، فتختارين تعديل تلك الأجزاء. على الأقلّ، هذا المسار يمنحك خيارات". التقت نظراتها بنظرات كاثرين، فأضافت: "واعلمي، يا آنسة سولومون، أنّني أجازف كثيراً بمساعدتكما، وهذا ما يجعل منّي حليقة قويّة".

قالت كاثرين، وقد بدأت تبدو أكثر اقتناعًا: "شكرًا".

أُعجب لانغدون بالفكرة من حيث المبدأ، لكنّ تنفيذها بدا أكثر تعقيدًا. فقال مُتحفّظًا: "لا أريد أن أبدو مُتشائمًا، لكن... ماذا لو طلب فينش رؤية الاتفاقيّتين المُوقَّعتين قبل الحديث؟"

ردّت ناغل بلا تردّد: "سيفعل في الأغلب؛ لكنني سأخبره ببساطة أنّه نظرًا إلى أهميّتهما بالنسبة إلى خطّته، فقد أرسلتهما مع مرافق من المارينز إلى السفارة، ليتّم إيداعهما في خزنتي الشخصية. عندها، سيُضطرّ إلى تصديقي... أو نقل الاجتماع إلى السفارة، وهو ما لن يجرؤ على فعله".

راح لانغدون يُفكّر في الخطّة، والشكّ لا يزال يعصف به. كان من الصعب تصديق أنّهما سيتمكّنان من استخلاص معلوماتٍ كافيةٍ تمنحهما أيّ نفوذٍ حقيقيّ. نحن سنتحدّث إلى عميلٍ سيّ أيّ إيه مُخضرم. وحتى لو ظنّ أنّهما وقعا الوثيقتين، فهل يُعقل أن يُفشي معلومات قد تُعرّض الوكالة أو مشروعًا سرّيًا للخطر؟

قالت له كاثرين: "تبدو غير مُقتنع".

فنظر إليها وقال: "عذرًا، لكن لا أعتقد أنّ هذا الحلّ سيكون ناجحًا".

قالت ناغل بحزم: "ما من حلّ آخر سوى هذه الخيارات الثلاثة".

قال لانغدون بهدوءٍ، وقد خطرت بباله فكرة مُفاجئة: "في الواقع، ثمة خيارٌ رابع. إنّهُ مَحفوفٌ بالمخاطر... لكنّه، في رأيي، أفضل الحلول".

الفصل 82

خلال الانحدار الأخير للهبوط في مطار فاكلاف هافل، اندفعت طائرة السيد فينش من طراز Citation Latitude فوق تلة بيلاهورا؛ الموقع الذي شهد في عام 1620 معركة أحمد فيها الكاثوليك انتفاضة بوهيميا.

فكر فينش في سرّه، مُبتسمًا: *مُلائم تمامًا*... فقد أحمد منذ قليل انتفاضته الصغيرة مع السفيرة ناغل. في الواقع - ولأسباب وجيهة - لطالما كانت تلك المرأة تمقته، لكن ذلك لم يعن له شيئًا. *إنها امرأة ذكية... ذكية بما يكفي لتعرف حدود دورها في هذه العملية.*

مع انحدار الطائرة، شدّ فينش حزام الأمان وهو يشعر باسترخاء أكبر مما كان عليه عند الإقلاع. فقبل ساعة واحدة، كانت العملية بأسرها تغرق في الفوضى. أمّا الآن، وبأعجوبة تقريبًا، انجلى كلّ الارتباك. فقد حُمّلت مسؤولية اختراق دار النشر لمجموعة قرصنة شهيرة. وتمّ العثور على روبرت لانغدون وكاثارين سولومون، وجرى تأمينهما في براغ. كما وقّعت اتفاقية الحفاظ على السريّة، وتمّ احتواء جميع نسخ المخطوطة. أمّا العميلان في نيويورك، فقد تلقيا الأوامر بالانسحاب، والالتزام بالصمت التام، وعدم التواصل بعد الآن.

فكر فينش في سرّه، وهو يحدّق عبر النافذة البيضويّة للطائرة: *المهمة أُنجِزت*. وبينما كانت المناظر الطّبيعيّة السّاكنة للجمهورية التشيكيّة تمرّ تحت ناظره، ذكرّ نفسه بأنّ كلّ هذه العملية المُعقّدة تُختزل في حقيقة واحدة بسيطة - لكنها مُزلزلة في تبعاتها - وتُبرّر كلّ ما فعله. *العقل البشريّ هو ساحة القتال المُقبلة في العالم.*

فحروب الغد لن تُخاض بالسلاح والجنود، بل بأساليب مُختلفة تمامًا، وقد وقع الاختيار على فينش ليكون في الطليعة في تلك الحرب الجديدة. كانت العتبة المركز العصبيّ لذلك المشروع... وقد فوّض إليه رؤساؤه فعل كلّ ما يلزم لحماية التقنيّة التي يجري تطويرها هناك.

لقد كانت العتبة عرضةً للمخاطر منذ البداية، لكنّ أوّل التهديدات الحقيقيّة جاء من مصدرٍ غير مُتوقّع، حتّى قبل أن توضع المنشأة قيد العمل بالكامل. *كاثارين سولومون.*

كانت العالمّة الموهوبة في علم الوعي على قائمة المراقبة لسنواتٍ لدى وكالة الاستخبارات المركزيّة. وذلك لأنّ طبيعة أبحاثها - من بين أمورٍ أخرى - تتقاطع مع مشاريع تعمل عليها الوكالة. وقد رُصدت منذ أعوامٍ مُقابلة بودكاست سُئلت فيها عن رأيها في علماء

الوعي الذين تركوا الأوساط الأكاديمية للعمل مع الجيش الأميركي في أبحاث تخصّ الدماغ، فأثنى ردّها قاطعاً: "العمل مع المؤسسة العسكرية يتنافى مع كلّ مبادئ، ولن أقبل به تحت أيّ ظرف. فالأبحاث في مجال علم الوعي ملكٌ للجميع... ولا ينبغي إطلاقاً تحويلها إلى سلاح".

حمقاء، هكذا وصفها فينش في سرّه حينذاك. كان يمكن لوكالة داربا (DARPA) أن تستفيد منها في مشروع N3 أو في مشاريع فرعيّة. لكن بجملّة واحدة، أصبحت كاثارين سولومون شخصيةً محظورة تماماً، وأدركت الوكالة أنّ أيّ اقترابٍ منها - ولو سراً - سيُعرض سي أي إيه لعواقب وخيمة.

وحين علمت الوكالة لاحقاً أنّ سولومون تؤلّف كتاباً عن الوعي البشريّ، وأنّها وقّعت عقداً ضخماً مع دار نشر كبرى، أمر فينش فريقه بمراقبة المشروع من كثب، والحصول على نسخة من المخطوطة غير المنشورة كإجراء احترازيّ.

لكنّ المفاجأة كانت حين أبلغوه أنّ سولومون تكتب مخطوطتها بطريقة غير مألوفة تماماً؛ مباشرةً على خادمٍ داخليّ خاصّ بدار النشر، يتمتّع بحماية إلكترونيّة مُشدّدة. وهذا الأمر - إلى جانب عوامل أخرى مُقلّقة في ماضيها - أطلق جرس الإنذار لدى فينش. فبدأ بإعداد الخطة ب.

أصدر أوامره إلى بريغيتا غِسْنِر بأن تستدرج العالمّة سولومون إلى براغ عبر دعوةٍ مرموقةٍ لإلقاء مُحاضرةٍ علميّة، ثمّ تلتقيها بعد ذلك على العشاء لترى ما يمكنها أن تنتزعه منها من تفاصيل حول مضمون الكتاب. كانت غِسْنِر تعتزم أيضاً أن تُقدّم لكاثارين سولومون عرضاً نادراً لا يُرفض بالنسبة إلى كاتبة تُصدر كتابها الأول. إذ اقترحت أن تكتب لها تعليقاً دعائياً باسمها الشخصي؛ شرط أن تتلقّى نسخة مُسبّقة من الكتاب قبل النشر. وفي النهاية، كانت ستعرض عليها زيارةً خاصةً إلى مُختبرها، تتطلّب توقيع اتفاقية سرّيّة قصيرة... تتضمن بنوداً خفيّة تتيح لفينش السيطرة الكاملة على الموقف إذا دعت الحاجة. مع الأسف... انفجرت الخطة ب في وجهي.

بعد اللقاء في فندق فور سيزنز، وصلت إليه من غِسْنِر رسالة نصّيّة مُقلّقة:

لقد رفضت سولومون العرض. لا نسخة مُسبّقة.

ورفضت أيضاً توقيع الاتفاقية. المشكلة الكبرى...

كذبت عليّ. سأتصل خلال 30 دقيقة.

هل كذبت سولومون؟ هذا يعني أنّ كاثارين أكثر دهاء بكثير ممّا اعتقد، وربّما كانت تُخفي أمراً بالغ الخطورة يتعلّق بمخطوطتها.

انتظر فينش تلك الليلة مكالمة غِسْنِر بقلبي مُتَزَايِد، لكنّها لم تأتِ.

نصف ساعة مَضَتْ ... ومن ثمّ ساعة.

أخيراً، اتّصل بها بنفسه، لكن لا جواب.

بعد ساعتَيْن، حين رنّ الهاتف أخيراً، لم تكن غِسْنِر من أجاب على الطرف الآخر، بل فريق المراقبة الإلكترونيّ، يحمل له خبراً عاجلاً: كاثرين سولومون تصرخ طلباً للمساعدة في جناحها الفندقية.

وعلى الفور، قفز فينش للاستماع إلى بثّ الصوت المُبَاشَر عبر الميكروفون المَزروع في جناحها، ذلك الميكروفون الذي لم يَزُده حتى الآن بأيّ معلومة مفيدة. سمع لانغدون يواسي كاثرين بعد كابوس رأته، ويتحدّث إليها عن تفاصيل الكابوس الذي أيقظها. بعد ذلك، سمع شيئاً أكثر غرابة وإثارة للقلق، إذ شرح لها لانغدون أنّ الرموز الغريبة في الكابوس منطقية تماماً... بما في ذلك ظهور "رمح".

سألها لانغدون: "هل تذكرين رمز رمح فيل على بطاقة دخول بريغيتا؟ كنا نتحدّث عنه معها منذ بضع ساعات فقط".

لم يصدّق فينش أذنيه. فالبطاقة التي أشار إليها لانغدون كانت بطاقة بالغة السريّة؛ إذ إنّها تتيح فرصة الدخول إلى مشروع العتبة بالكامل. وفي الوقت الحالي، ثمة نسختان منها فقط، واحدة لغِسْنِر والأخرى له. وكان من المستحيل أن تُطْلِع غِسْنِر أحداً عليها. إنّها تحتفظ بها في غلافٍ وافي... داخل حقيبة مُفَقَّلة.

وقف فينش مذهولاً، ثمّ أخرج بطاقته وتأملها. إنّها أكثر تقنيات الوصول عبر موجات RFID أماناً في العالم. فالسطح بأكمله يعمل كقارئ بيومتريّ للبصمات - يقرأ بصمة أيّ إصبع من أصابع المُستخدِم، بأيّ اتجاه - ممّا يجعل استخدام البطاقة مُستحيلاً من قبل شخص آخر. وإذا سُرقت، فإنّها ستكون عديمة الفائدة. أمّا إن فُقدت، فإنّ العلامة الوحيدة التي تحملها لن تكشف شيئاً عن الجهة التي أصدرتها.

في الواقع، كانت الكلمة المطبوعة عليها عادية تماماً. لكنّ الحقيقة أنّها اسمٌ مُشفّر.

PRAGUE

تعني كلمة براغ حرفياً "العتبة"؛ ومن هنا جاء اسم المشروع السريّ. كانت تانك البطاقتان المتطوّرتان تمثّلان المستوى الأول من التدابير الأمنيّة لدخول المنشأة الواقعة تحت الأرض. أمّا الدمج البارز لرمز الرمح القديم في الحرف A من الشعار، فكان لمسة فينش الخاصّة؛ إشارة أيقونيّة إلى سلاح الشجاعة والقوّة والاستنارة الذي كان يُصمّم في أعماق الأرض.

لماذا أطلعت غِسْنِر شخصًا غريبًا على هذه البطاقة؟ ولا سيّما كاثرين سولومون؟! التفسير الوحيد الذي وجده فينش لذلك زاد من قلقه. هل تُراه أساء تقدير قدرة غِسْنِر على الكتمان؟ فهي - بلا أدنى شك - مدفوعة بالمال، وهذا ما سهّل عليه السيطرة عليها، لكنّها شديدة الغرور بنفسها. فأخذ يتساءل عمّا إذا كان الأمير كيّان قد قلبًا الطاولة عليها بدهاء، واستغلًا حاجتها إلى التفاخر لدفعها إلى قول أكثر ممّا ينبغي. ربّما دفعها إلى الإكثار من الشراب، أو حتّى احتجزها رهينة؛ الأمر الذي قد يُفسّر سبب عدم ردّها على هاتفها. بدأ رأسه ينبض مع تصاعد قلقه، فيما كان يُعيد ترتيب الوقائع:

رفضت سولومون تسليم المخطوطة...

تتبّنى دار النشر إجراءات أمان مُشدّدة...

عرفت سولومون بطاقة RFID التي تستخدمها غِسْنِر لدخول العتبة...

جلس فينش في مكتبه بلندن، في جوف الليل، وتمنّى أن يكون خوفه مُبالغًا فيه. غير أنّ احتمالًا مُزعجًا خطر بباله فجأة: ربّما كانت سولومون تعرف كلّ شيء عن مشروع العتبة... وهي الآن تكتب مقالة تفصح فيها عمل سي أي إيه في مجال الوعي البشريّ.

بعد قليل، وبينما كان يُصغي إلى الحديث الجاري في جناح الفندق، سمع كاثرين تفضي للانغدون بمعلومة حسّمت قراره على الفور. إذ قالت: "حاليًا، أنا مُتوتّرة جدًّا يا روبرت. فقد أعطيتُ جوناكس الضوء الأخضر لبدأ بالمراجعة اليوم. كان ينوي طباعة المخطوطة الليلة وقراءتها، وأنا مُتوتّرة بسبب ذلك".

عندئذٍ، تجمّد فينش في مكانه. هل قدّمت كاثرين مخطوطتها للمحرّر؟! فما إن تبدأ مرحلة التحرير، حتّى تُوزّع النسخ في أرجاء دار النشر على المُدقّقين اللغويّين، ومُدقّقي الحقائق، ومُصمّمي الكتب، بل وحتّى على قسم الدعاية الأولى والتسويق. سيصبح الاحتواء، إذا لزم الأمر، مُستحيلًا.

أدرك فينش أنّ الوقت والخيارات محدودة. ولم يكن يرغب في إثارة ضجّة لا داعي لها باختراق دار النشر، لكن لا بدّ له من الاطلاع على مضمون هذا الكتاب... حالًا.

فأصدر أوامر عاجلة لفريقه التقنيّ باختراق خادم دار بينغوين، وسرقة نسخة من المخطوطة. فحين سيطلّع على ما فيها، إمّا أن يتنفّس الصعداء... أو يأمر بمسح كامل لكلّ أثرٍ لها.

غير أنّ فينش كان يعلم أنّ خطرًا آخر ظهر على الساحة، ألا وهو روبرت لانغدون. فذلك الأستاذ في جامعة هارفرد ذائع الصيت في كشفه الأسرار التي لا يرغب أحد في كشفها.

سأحتاج إلى ورقة ضغطٍ عليه هو الآخر. هذا ما قرّره فينش، واضعًا خطةً جديدةً اعتمادًا على المعلومات القليلة التي جمعها من جناح الفندق. فقد تعلّم منذ زمنٍ أن أبسط المعلومات، إن عُرضت بطريقةٍ مدروسة، يمكن أن تتحوّل إلى سلاح فتاكٍ من أسلحة الإرباك. ولطالما استشهد بالمبدأ الذي بنى عليه سون تزو حملاته العسكرية: *الإرباك يؤكّد الفوضى... والفوضى تؤكّد الفرص*.

كان الوقت ضيقًا، لكنّ فينش بنى مسيرته على الاستعداد لكلّ الاحتمالات والتصرّف على نحوٍ حاسم. فتناول الهاتف، وأجرى عدّة مكالمات، ومن بينها اتصالٌ بالضابطة الميدانيّة هاوسمور، التي زوّدها بتعليماتٍ لوجستيةٍ واضحة، وأمرها بالبقاء في حالة تأهب. وقبل السادسة صباحًا بتوقيت براغ، وصلت إليه أخيرًا النسخة المُشفّرة من مخطوطة سولومون. ولما لم يكن ينوي قراءة الكتاب كاملاً، اكتفى بتصفّح جدول المحتويات. شعر بالارتياح حين بدا - للوهلة الأولى - مُطابقًا تمامًا لما تردّد في أروقة النشر؛ أي أنّه بحثٌ في نظريّة جديدة عن الوعي الإنسانيّ.

وللتأكّد أكثر، استخدم خاصيّة البحث الإلكترونيّ، وبحث عن "سي أي إيه" و"عتبة"، فاطمأن حين لم يجد أيّ تطابق.

حتى الآن، كلّ شيء على ما يرام...

ثمّ كتب سلسلة بحثٍ مُحدّدة للغاية، للتحقّق من وجود معلومة واحدة فقط. *إمّا أن تكون هنا... أو لا تكون*.

حبس فينش أنفاسه وضغط على زرّ البحث. مضت ثانيتان من دون نتائج، فبدأ يسترخي. فجأة، سمع صوت الإشعار.

اللعة...

ظهرت نتيجة واحدة في نهاية المخطوطة. فانحنى نحو الشاشة، وعيناه تتسابقان على السطور. وفي غضون ثوانٍ، أدرك أنّ السيناريو كارثي. سواء أدركت سولومون ذلك أم لا، فقد دخلت وسط عشٍّ للدبابير، وكتابها يطرح مشكلة خطيرة.

وبينما كان يُفكّر في سبل احتواء الأزمة، وصلت إليه على هاتفه دفعة جديدة من الأخبار السيئة: كاثرين سولومون دخلت خادم دار النشر من مركز الأعمال في فندق فور سيزنز... وهي الآن تطبع المخطوطة!

أنطبع نسخًا ورقيةً عند السادسة وخمسة وأربعين دقيقة صباحًا... على طابعة الفندق؟! كان ذلك خرقًا صريحًا لإجراءات الأمان التي يُطبّقها الناشر، فأيقن فينش أنّها اكتشفت أمر الاختراق... وبدأت بالفعل تتحرّك لحماية عملها.

وفي ذروة توتره، حاول الاتصال ببريغيتا غُسْنِر للمرة الأخيرة، لكنّ هاتفها انتقل مباشرة إلى البريد الصوتي. كانت غُسْنِر مُخْتَفِية طوال الليل... منذ لقائها سولومون ولانغدون. بات فينش واثقاً من أمر واحد؛ لا دخان بلا نار. وكان قد أعدّ العدة لتطبيق إجراءات مُضادّة جريئة في كلّ من براغ ونيويورك، يمكن تنفيذها بكلمة واحدة منه. فألقى نظرة تقييمية على الموقف برمته، ثمّ اتخذ قراره، وأرسل عبر تطبيق سيغنال رسائل مُتزامنة إلى عملائه في المدينتين: *نفذوا*.

الفصل 83

رَكَع الغولِم على الأرض المَكسوَّة بالرخام الوردِيّ، مُنْهَكَ القوَى بعد صراعه العنيف. وأخيراً، استجمع قواه ليتحرَّك ويُخفي الجُتَّة، وشعر بالارتياح حين تبيَّن له أنَّ جثمان ضحيَّته هذه المرَّة أخفَّ وزناً بكثير من جثمان هاريس. سحب المرأة بسهولة، وألقى بها خلف أريكَّة كبيرة مُلاصقة للجدار الجانبيّ. فكَّر في أن يستولي على مسدَّسها، لكن لم تتح له الفرصة يوماً لتعلِّم استخدام السلاح، وكان يُفضِّل البساطة والصمت اللَّذَيْن يمتاز بهما المسدَّس الصاعق.

اقرب الغولِم من المنحوتة الجداريَّة، وأزاحها جانباً، ليكشف عن المصعد الذي استخدمه قبل دقائق ليفاجئ المرأة. وحين أضاءت لوحة المفاتيح الأمنيَّة أمامه، أدخل بعناية الرمز المُكوَّن من سبعة عناصر، مُستعيداً في ذهنه ملامح الذعر التي طغت على وجه غِسْنِر في الليلة الماضية.

لقد أخبرتني بكلِّ شيء... كما كان سيفعل أيّ شخص في مكانها.

وبينما كان المِصعد يهبط طابقاً، أغمض الغولِم عينيه، وراح يتذكَّر برّضاً أسلوبه في الاستجواب، باستخدام الجهاز الذي اخترعته ضحيَّته بنفسها.

كانت كبسولة غِسْنِر للتصوير بالرنين المغناطيسيّ المُطوَّر (EPR) مُصمَّمة للمرضى الخاضعين للتخدير الكامل، بالتزامن مع حُقن الفينتانيل - أقوى مُسكِّنٍ للألم في العالم - لتخفيف الإحساس المُروَّع الناتج عن ضخِّ مَحلولٍ ملحِّيٍّ مثلِّج في الدورة الدمويَّة. غير أنَّ الغولِم لم يستخدم أيّ تخدير، بل اكتفى بتثبيت غِسْنِر في الجهاز، وأحكم وثاق مِعصمَيْها وكاحليَّها بالأشرطة اللَّاصقة الثقيلة. كان الجهاز مُصمَّماً لتوصيل الإبر في الشريان والوريد الفخذيَّين، إلَّا أنَّه غرز الأنابيب في ذراعيَّها بدلاً من ذلك، ليضمن تدفقاً كافياً يُقيِّها واعية بحيث تتذوَّق طعم الألم بكلِّ تفاصيله.

انفتح باب المِصعد تلقائيّاً على مخبر غِسْنِر، فتقدَّم الغولِم في الضوء الخافت، وعباءته السوداء تتموج خلفه مُلقيةً ظلالاً شبحيَّةً على الجدران الحجرية. هذه المرَّة، كان وحده في الحصن، ولن يقاطعه أحد.

لن أحتاج إلى أكثر من دقيقة واحدة لأخذ ما جئت من أجله.
بعد ذلك، سيتوجّه إلى المنشأة السريَّة المعروفة باسم العتبة.

كانت صدمة التعرّض للاختطاف لا تزال ترهق جوناس فوكمان، وحين علم أن روبرت وكاثرين قد استُدْرِجَا إلى مقر إقامة محامية سابقة في وكالة الاستخبارات، لم يتبقّ لديه سوى أمل واحد؛ أن يكونا قد استجابا لتحذيره وغادرا المكان.

اتّصل بي يا روبرت، أخبرني أنك بخير...

كان أليكس كونان مُشغِلاً أمام حاسوبه المَحْمول، يُجري بحثاً عميقاً حول شركة إن-كيو-تل. فقد كان فوكمان يتوق إلى معرفة كيفية توصّل تلك الشركة الاستثمارية إلى معلومات عمّا ورد في مخطوطة كاثرين.

قال أليكس أخيراً: "انظر، هذه قائمة جزئية باستثمارات كيو الخاصة".

اقترب فوكمان، ونظر من فوق كتف الفنّي إلى الشاشة، وقد طغى عليه الذهول. إذ ظهرت أمامه أكثر من ثلاثمئة نتيجة، معظمها بأسماء ومصطلحاتٍ تقنيّة غامضة بالنسبة إليه:

- MemSQL - تحليلات مُترامنة
- Boundless Spatial - تحليل بيانات مكانية
- Xanadu - حلول كمومية ضوئية
- Keyhole - تصوّر جغرافيّ مكانيّ
- zSpace - نحت ثلاثي الأبعاد بتقنيّة الهولوغرام

تصفّح أليكس القائمة سريعاً وقال: "هذا ما توقّعت، أغلبها مُختصّ بالأمن السيبرانيّ، وتحليل البيانات، والتصوير، والحوسبة..."

فسأله فوكمان: "وماذا عن علم الأعصاب أو الوعي؛ ذاك النوع من المجالات؟"

"ربّما، لست متأكّداً. نحتاج إلى إدراج القائمة في قاعدة بيا—" في تلك اللحظة، رنّ هاتف أليكس، وحين رأى هوية المُتصل، تنهّد قبل أن يجيب: "صباح الخير أليسون، كنتُ على وشك—"

سمع فوكمان صوت مديرة أمن البيانات وهي تصرخ من الطرف الآخر.

قال أليكس بهدوء: "فهمت، سأكون عندك فوراً". ثمّ أنهى المكالمة، ووقف قائلاً: "عذراً، حان وقت الاستجواب".

أشفق فوكمان على الشاب. فمواجهة وكالة استخبارات عالميّة ليست نزّالاً عادلاً، ومع ذلك، تعامل أليكس مع الأزمة بحرفيّة عالية.

قال الفنّي: "سأعود حالما أستطيع". لكن يبدو أنّ فكرة خطرت بباله، فطبع شيئاً بسرعة على حاسوبه وقال: "أرسلتُ لك نسخة عن القائمة عبر البريد الإلكترونيّ؛ أدرج القائمة في

منصة تحليل البيانات، وابحث عن أي نقاط تقاطع".

"مهلاً! ماذا قلت؟ ما منصة تحليل البيانات؟ أنا لا أملك شيئاً كهذا!"

فابتسم أليكس، وقال وهو يُغادر: "بل لديك واحدة، فتمّة مجموعة كاملة من أدوات تحليل البيانات على خادم دار النشر".

غير أنّ فوكمان لم يكن يعرف حتّى أين يبحث.

فقال أليكس: "لا عليك، استعن بمحررٍ على الإنترنت، مثل ChatGPT أو Bard. اطلب منه أن يُحلّل استثمارات كيو ويقارنها بأيّ مواضيع تراها ذات صلة بكتاب الدكتوراة سولومون. سأعود حالما أتمكن من ذلك".

وغادر مُسرّعاً.

بقي فوكمان وحده في مكتبه، يُحدّق إلى جهازه بتردد. كان قد شاهد تطبيقات الذكاء الاصطناعيّ من قبل، لكنّه أقسم علناً ألاّ يستخدمها يوماً. إنّها تهديدٌ وجوديٌّ لمهنة الكتابة النبيلة! فقد بدأت دار بينغوين تتلقّى نصوصاً من الواضح أنّها من تأليف الروبوت، وصار من الصعب على نحوٍ متزايد تمييزها عن النصوص البشريّة. وقد رفع فوكمان راية المقاومة، داعياً زملاءه المُحرّرين إلى مقاطعة منتجات الذكاء الاصطناعيّ لمواجهة الطوفان القادم. غير أنّه يقف الآن عند مُفترق طرق.

فتح البريد الإلكترونيّ، وألقى نظرةً على قائمة استثمارات كيو، وتذكّر الانتهاكات التي تعرّضت لها كاثرين... وروبرت... وهو نفسه على يد تلك المنظّمة السريّة. عندئذٍ، قال في سرّه، وهو يجلس أمام جهازه: فلتذهب المبادئ الأخلاقية إلى الجحيم... لقد أعلنت الحرب.

الفصل 84

كانت السيارة رباعيّة الدفع - التي تُخصّص مع مقرّ الإقامة لاستخدام السفارة الشخصي - من طراز هيونداي توسان، ذات اللون العاجيّ الباهت، ولوحة الأرقام التشيكيّة، لا تلفت الأنظار. وقد استخدمتها هايدة ناغل أحيانًا في عطل نهاية الأسبوع للابتعاد عن المدينة. كانت رحلتها الأخيرة إلى متاهة صخور تيسا في منطقة سويسرا البوهيميّة؛ وهي شبكة من المسارات المتعرجة بين تشكيلاتٍ مُذهلة من الحجر الرمليّ، إلى حدّ أنّها ظهرت في أحد أفلام سجلات نارنيا الخياليّة.

فكرت ناغل في سرّها بأسى، وهي لا تزال مُتأثّرة بمقتل مايكل هاريس، ليتني هناك الآن. ما إن خرجت من مقرّ إقامتها، وهي تقود سيارتها بمفردها، حتّى شعرت بثقل الخيانة التي تركبها بمساعدتها هذين الأميركيّين. وكانت تأمل بصدق أن يكون لانغدون مُدرِكًا تمامًا ما يفعله. إن فشلت هذه الخطّة، فسيدفني فينش... حرفيًا.

اقتربت ناغل من البوابة الأمنيّة، وضغطت على البوق مرّتين. فنهض حارس المارينز عن مقعده أمام شاشات المراقبة، وسارع إلى النافذة وقد بدت عليه الدهشة. إذ نادرًا ما كانت السفارة تغادر من دون إعلان مُسبق، ونادرًا ما كانت تستخدم سيارتها الخاصّة، ولم يسبق لها أن أطلقت بوقها.

قالت وهي تُنزل زجاج النافذة: "عذرًا، كارلتون، أنا ذاهبة بسرعة إلى السفارة. فقد نسيت جرعة الإنبريل، وهذا الثلج يدمّر مفاصلي".

قال الحارس باحترام: "سيّدتي، يمكنني أن أرسل -" غير أنّها قاطعتُه قائلة: "من الأسهل أن أفعل ذلك بنفسي. فقد أفلتُ على الدواء في درج مكتبي، كما أنّني أحتاج إلى بعض الأوراق. سأعود حالًا".

قال: "بالتأكيد، سيّدتي". ثمّ ضغط الزرّ، فانفتح الباب الحديديّ ببطء. وما إن عاد إلى شاشات المراقبة حتّى نادته ناغل مُجددًا.

قالت: "هناك أمرٌ آخر يا كارلتون، آسفة. لديّ ضيفان أميركيّان في المكتبة، وأنتظر وصول ضيف آخر قريبًا، يدعى السيد فينش. سأعود قبل أن يصل، لكن إن سبقي إلى هنا، فقد أوصيت الموظّفين باستقباله في غرفة الجلوس، إلى أن أعرفه بنفسي على الصّيفيّين الآخرين. أردتُ فحسب إعلامك أنّي أتوقّع حضوره".

ابتسم الحارس وقال: "حسنًا، سيّدتي. شكرًا لك، أراك بعد قليل".

شكرته ناغل وهمت بالتحرك، لكن كما خطّطت تمامًا، انقضت مهلة فتح البوابة، وبدأت تُغلق مُجددًا. فهزّت رأسها وقالت: "عذرًا، الإسبريسو يجعلني ميّالة إلى الثرثرة!" فابتسم الحارس، وأعاد الضغط على الزرّ ليفتح البوابة مُجددًا.

لكن، بينما كانت تستعدّ للانطلاق، ضغطت على قابض السيّارة وأفلتته سريعًا، فتوقّفت السيارة فجأة. قالت: "يا إلهي، كم هذا مُحرج! لم أقد منذ زمن طويل!" ثمّ أعادت تشغيل السيارة، غير أنّ البوابة كانت قد أُغلقت من جديد.

فكرّرت العملية، لكنّها نجحت في المرة الثالثة بالعبور أخيرًا. خرجت إلى شارع رونالد ريغان، ثمّ انعطفت يسارًا إلى شارع بوينيشسكا، على أمل أن تكون تصرّفاتنا قد شتّتت انتباه الحارس عن شاشات المراقبة لثوانٍ كافية، بحيث يتمكنّ لانغدون وسولومون-اللذان سيسمعان إشارة البوق- من الخروج بسرعة من الحديقة الشتوية، والعبور إلى الجهة الأخرى من الحديقة. هناك، يمكن لمن يعرف موضع المزلاج الخفي أن يفتح البوابة الحديدية الصغيرة المؤدية إلى شارع تشيكوسلوفينسكي آرمادي.

كما توقّعت، حين استدارت حول السور، رأّت لانغدون وسولومون عند زاوية الشارع، بملابس لا تقيهما شرّ البرد. توقّفت إلى جانبهما، فسارعا إلى الركوب، وأشارت كاثرين إلى لانغدون ليجلس على المقعد الأمامي إلى جانب ناغل.

انطلقت السيارة مُبتعدة عن مقرّ الإقامة، من دون أن ينطق أحد منهم بكلمة. فقد بدأ الثلاثة على ما يبدو يدركون حجم المُجازفة التي تنطوي عليها خطة لانغدون.

الخيار الرابع.

قال لانغدون قبل دقائق، وهم في قبو الفيلا في غرفة تسخين المياه: "ثمّة احتمال كبير، حتّى لو اجتمعنا مع فينش واعتقد أنّنا وقّعنا اتفاقيتي الحفاظ على السريّة، ألاّ يُفصح عن حقيقة ما يجري في منشأة العتبة. والطريقة الوحيدة لنضمن امتلاكنا المعلومات والأدلة التي نحتاج إليها لحماية أنفسنا هي التوثيق بالصور والمستندات". صمت لحظة، ونظر إليهما قائلاً: "بتعبير آخر... علينا دخول العتبة".

قالت ناغل: "هذا مستحيل. فدخل العتبة أمر غير مطروح". ألحّت سولومون قائلة: "لماذا؟ قلت إنّ المنشأة خالية الآن، وإنّ الجميع يتدربون خارج الموقع؛ هذا يعني أنّها مهجورة".

أجابت ناغل: "هذا صحيح، لكنني لم أشرح لكما مدى تشدّد الإجراءات الأمنية في هذه المنشأة. فمدخل العتبة في الأساس نفقٌ مُعزّز ومحمي بحواجز فولاذية، وكاميرات مُراقبة، وحراس مُسلّحين، وأنظمة بيوميرية مُتطورة".

قال لانغدون: "وهذا ما ينبغي أن يكون عليه. لكن، لديّ خطة للدخول".
هكذا، وجدت السفيرة ناغل نفسها تقود سيارتها بعيدًا عن مقرّ إقامتها، مُتّجهة جنوبًا عبر شوارع براغ. لا عودة إلى الوراء الآن، فقد أصبحت مُتواطئة رسميًا.
اتّخذت ناغل بعض الاحتياطات كيلا يرصد فينش مغادرتها غير المُصرّح بها. فتركت هاتفها الدبلوماسي في المقرّ موصولًا بشبكة المنزل، وأخرجت هاتف سامسونغ الشخصي القديم، الذي لا تستعمله إلا نادرًا لمشاهدة بعض العروض المسائيّة في البيت. لا حاجة إلى معرفة السفارة أنّني أستمع إلى تاييلور سويفت، وأتابع حلقات تيد لاسو.
كانت بطارية هاتف سامسونغ فارغة، لكنها تُشحن الآن في السيارة. وتمنّت ناغل أن تُشحن سريعًا بما يكفي لالتقاط صور لما يجري داخل العتبة.
هذا إذا استطاع لانغدون حقًا إدخالنا إلى هناك.
لم يكن لانغدون قد كشف بعد عن تفاصيل خطته، لكن كلّما فكّرت ناغل في الحاجز المنيع الذي يُغلّق المدخل، ازدادت تشاؤمًا.

* * *

على مدرّج مطار فاكلاف هافيل المَكسوّ بالثلوج، تهادت طائرة "سيتايشن" بالسيد فينش، مُتّجهة إلى المحطة الخاصّة. هناك، كانت تنتظره سيارة ليموزين لتقلّه إلى براغ. سرّه أنّه هبط بأمان، ومع ذلك، لازمه إحساس مُزعج بأنّ مكالمته مع السفيرة كانت... غريبة.
صحيح أنّ علاقته بناغل لم تكن يومًا ودّيّة، لكنّ نبرتها خلال المُكالمة بدت غريبةً على نحو أفلقه. فقرّر الاتصال بها مُجددًا، وإجراء مكالمة سريعة للاطمئنان، والتأكد من أنّها أرسلت فعلاً وحدة من المارينز لتأمين حصن الصليب.
لكن حين اتّصل بها على هاتفها المَحمول، لم تُجب. غريب. فأرسل لها على الفور رسالة مُشفّرة، غير أنّها لم تلقَ ردًّا هي الأخرى.
وبينما كانت الطائرة الأنيقة تتوقّف أخيرًا وتطفئ مُحركاتها، ازداد فينش توجّسًا ممّا يجري.

* * *

شدّ الغولم قلنسوته فوق جمجمته المُلطّخة بالطين بإحكام، واستعدّ ذهنيًا لما هو قادم. فقد عاد إلى الورشة المُبعثرة التي قتل فيها بريغيتا غُسْنِر ليلة أمس، وكان جثمانها الشاحب، المُلطّخ بالدماء، لا يزال داخل كبسولة EPR المَكشوفة. كانت غُسْنِر ومساعدتها

العاملتين الوحيدتين هنا، وحتى الآن لم تملك السفارة أو السلطات المحلية وسيلة للوصول إلى المختبر.

على طاولة عمل قريبة، لفتت انتباهه حقيبة غِسنِر الجلدية التي فتحها ليلة أمس بمفك مُسطّح، واستخرج منها بطاقة RFID السوداء التي كانت تحفظها في غلافٍ خاصٍ داخل جيب سريّ في غطاء الحقيبة.

إلا أنّ البطاقة لم تكن كافية؛ فقد أخفت عنه غِسنِر هذه المعلومة الليلة الماضية.

للدخول إلى العتبة، كان الغولم بحاجة إلى عنصرٍ أخير.

فما كان منه إلا أن أمسك بخصّافة أسلاكٍ ثقيلة من رفّ الأدوات المُزدحم، وتقدّم إلى الكبسولة، ثم ركع بجانب جثة غِسنِر.

همس وهو يمسك يد الطبيبة الباردة برفق: "من أجل ساشا".

بعد ستين ثانية، عاد الغولم إلى الرواق، استعدادًا للمغادرة من الحصن. فقد كان يحمل الآن كلّ ما يلزمه لدخول العتبة... ولتحويل المنشأة السريّة إلى ركام.

الفصل 85

قضت كاثرين سولومون معظم صباحها مُختبئةً وحدها في ظلمة مكتبة كليمنتينوم الباروكية، تحاول أن تفهم من يستهدف مخطوطاتها، وسبب القيام بذلك. أمّا الآن، وقد جلست براحةً على المقعد الخلفي لسيارة السفيرة ناغل، أخذت أفكارها تتجه نحو سؤالٍ أكثر إلحاحًا.

كيف سيتمكن روبرت من إدخالنا العتبة... من دون أن يُعرّضنا للقتل؟
كان الجميع مُتفقين على هدف لانغدون المُقترح - التسلّل إلى المنشأة نفسها، وجمع معلومات سرّية لحماية أنفسهم - لكنّ ناغل أوضحت أنّ مدخل الملجأ طريقٌ مُنحدر مُحصّن بحواجز فولاذية، ومزوّد بكاميرات مراقبة وحرسٍ مُسلّحين وأنظمة تحقّق بيومترية مُتطورة.

بدأ الشكّ يتسرّب إلى كاثرين، وراحت تتساءل عمّا إذا كان كلّ هذا مجرد خدعة ذكية دبّرها روبرت للهرب من مقرّ السفيرة. لكن، إن صحّ ذلك... فما الخطوة التالية؟
قالت ناغل وهي تُبطئ من سرعة السيارة لتتوقّف على جانب شارع هادئ في حيّها السكني: "قبل أن نتابع، أريد أن أعرف خطّتك لدخول المنشأة". أوقفت السيارة، ثمّ التفتت إلى لانغدون الجالس على المقعد الأمامي.

قال لانغدون: "هذا منطقي. في الواقع، الأمر بسيط جدًّا". ثمّ صمت لحظةً، وارتسمت على وجهه ابتسامة مُتردّدة. "شرط أن تكون فرضيتي صحيحة".
لم تبتسم ناغل، بل قالت: "تابع".

خلال دقيقةٍ واحدة فقط، شرح لانغدون بالتفصيل كيف ولماذا يعتقد أنّه يستطيع إدخالهما العتبة. وما إن أنهى حديثه، حتّى تحوّل التعبير الفضوليّ على وجه ناغل إلى مزيج من الذهول والدهشة؛ تمامًا كما شعرت كاثرين نفسها. فقد كان تفسير لانغدون - على طريقته - غير مُتوقّع على الإطلاق... ومنطقيًا تمامًا... وبسيطًا على نحو مُذهل.

قالت ناغل: "لا أدري ما الذي توقّعت أن تقوله، لكنني لم أتوقّع هذا بالتأكيد". بدا في نبرتها أمل جديد وهي تُضيف: "عليّ الاعتراف، لم يخطر ببالي هذا الاحتمال قطّ".
أومأ لانغدون قائلاً: "وأظنهم يأملون ألا يخطر ببال أحد".

أعادت ناغل تشغيل مُحرك السيارة، وانطلقت بسرعة أكبر مُتّجهةً جنوبًا نحو النهر، ولم ينبس أحدٌ منهم ببنت شفة بعد ذلك.

على المقعد الخلفي، شعرت كاثرين بترقب مُصاعِد وهي تفكّر في أنّها ستكتشف أخيراً كيف يمكن لأبحاثها أن تُشكّل تهديداً لمشروع سريّ تابع لوكالة الاستخبارات المركزية. ما الذي يفعلونه في العتبة وله علاقةٌ بمخطوطتي؟

بدا لها الاسم الرمزي - "العتبة" - عامّاً وغامضاً، لا يكشف شيئاً عن طبيعة المشروع. فقدّرت أن يكون هذا هو الأسلوب المُتبّع عادةً في الوكالة، وتذكّرت لائحةً من أسماء مشاريع سريّة أُزيل عنها الغطاء في السنوات الماضية، مثل: بلوبوك، أرتيتشوك، مونغوز، فينيكس، وستارغيت...

فجأة، لمعت في ذهنها فكرة، فقالت: "التحكّم النفسي". نظرت إليها ناغل من فوق كتفها وقالت: "عذراً؟" فيما بدت الحيرة على وجه لانغدون أيضاً.

كرّرت كاثرين: "التحكّم النفسي؛ إنه المصطلح الذي استخدمه الروس لأبحاثهم الأولى في الظواهر الخارقة: قراءة الأفكار، والإدراك فوق الحسي، والسيطرة الذهنيّة، وحالات الوعي المُغايرة. ويُعتبَر هذا المجال الأساس الذي تطوّر منه علم الوعي الحديث". قالت ناغل: "آه، نعم، نسيت الاسم. لقد أنفقت روسيا مليار دولار على أبحاث التحكّم النفسي خلال الحرب الباردة، وكانت تلك أوّل مبادرة عسكرية في مجال العلوم العصبيّة في التاريخ: السيطرة الذهنيّة، والمُراقبة النفسيّة، وأساليب الحرب الدماغيّة، وما إلى ذلك. وبطبيعة الحال، حين علمت وكالة الاستخبارات الأميركيّة بذلك، أصابها الذعر، وسارعت إلى إطلاق سلسلةٍ من البرامج السريّة في المجال نفسه". قالت كاثرين: "وعُرف أحد تلك المشاريع باسم ستارغيت".

أجابت ناغل وهي تزيد من سرعة السيارة لتتجاوز الإشارة عند تقاطع مُزدحم: "صحيح، لكن كما تعلمين، فشل مشروع ستارغيت فشلاً ذريعاً، وكان أحد أكثر إخفاقات الوكالة إذلالاً في تاريخها. فعندما اكتُشِف أمر المشروع، تعرّضت سي آي إيه للسخرية بلا رحمة؛ إذ أُدينَت بإنفاق ملايين الدولارات على علوم زائفة، وخدع رخيصة، ومحاولاتٍ لتدريب جواسيس أشباح خارقين! وفي النهاية، تبين أن الروس قد استدرجوا الوكالة بمعلوماتٍ مُضلّلة، فركضنا خلف علوم هامشيّة⁽¹⁾ لم يكن من الممكن أن تنجح أصلاً".

تململت كاثرين على مقعدها، ليست هامشيّة تماماً. غير أنّها أثرت الصمت. فعلى الرغم من إخفاق المشروع وتاريخه المُثير للحرَج، إلّا أن مُحاولاته لاستكشاف الظواهر الدماغيّة الخارقة تندرج اليوم تحت ما يُعرَف بالميتافيزيقا أو علم ما وراء النفس.

(1) تشمل العلوم الهامشيّة أفكاراً جديدة، أو تخمينيّة للغاية لم يقبلها المجتمع العلمي السائد بعد.

سألها لانغدون: "ولِمَ ذَكَرْتَ مشروع ستارغيت؟ هل تحدّثتِ عنه في مخطوطتك؟"
أجابت: "لا، لكن تذكّرت أنّه كان من أولى المُحاولات لاختبار إمكانيّة الوعي غير
الموضعي".

قال لانغدون بدهشة: "آه! أتعنين أنّ وكالة الاستخبارات درست الوعي غير الموضعي
فعلاً؟"

قالت كاثرين: "بشكل من الأشكال، نعم. فقد حاول مشروع ستارغيت تطوير تقنيّة
مُراقبة غير مسبوقّة تُعرَف باسم "الرصد الذهني من بُعد". وتعتمد هذه التقنيّة على جلوس
الشخص في مكانٍ هادئٍ ليتأمّل، حتّى يدخل في غُشيّة،⁽¹⁾ ويتحرّر من قيوده الماديّة..."

رفع لانغدون أحد حاجبيّه وهو ينظر بتشكّكٍ واضح.
قالت كاثرين في سرّها: شكراً، يا روبرت. فالرصد الذهني من بُعد هو بالضبط ما تقوم
عليه نظريّتها في الوعي غير الموضعي... عقلٌ لا يحده المكان.

قالت ناغل: "من وجهة نظرٍ عسكريّة، كان الهدف النهائي من مشروع ستارغيت
تدريب جاسوسٍ نفسيّ للاطّلاع على ما يجري داخل الكرملين، من اجتماعات ومُحادثات
وخطط استراتيجيّة".

قال لانغدون ساخرًا: "غريب أنّ محاولتهم لم تنجح".
انحنّت كاثرين إلى الأمام وقد نفذ صبرها، وقالت بنبرةٍ حادّة: "للتذكير فقط،
يا روبرت، فقد كتبتَ عن الرصد الذهني من بُعد والوعي غير الموضعي قبلي بوقتٍ طويل".
"ماذا؟ أنا لم أكتب عن أيّ—"

"بل كتبت، لكنك سمّيتهما الإسقاط النجمي وكا غير المُقيّدة".
تردّد لانغدون، ثمّ أمال رأسه وقال: "آه... كتاب العَمارة الروحيّة؟ هل قرأته؟"
"في الحقيقة، أنت من أرسل إليّ نسخةً منه".

كان لانغدون قد ذكر أنّ هذه الممارسات تعود إلى مصر القديمة، التي بُنيت فيها
الأهرامات بفتحاتٍ مائلة بعناية، لتُمكنَ روح الفرعون، أو "كا"—بحسب اعتقادهم—من الصعود
إلى النجوم والعودة منها. وأشار إلى أنّ كلمة "كا" لا تعني "الروح" كما يترجمها بعض النّاس، بل
"المركبة"... وقد أكّد أنّ الحكمة التي نالها الفراعنة في رحلتهم الروحيّة نحو النجوم كانت ممكنة
فقط بفضل فهمهم لـ "كا غير المُقيّدة"... أي بعبارةٍ أخرى، الوعي غير الموضعي. ففكرة "الروح
الأبدية غير الماديّة" كانت—كما كتب—ثابتًا مُشتركًَا بين جميع الديانات.

(1) الغُشيّة حالة من تغيّر الوعي عن حالة الإدراك والوعي الكامل الطبيعي. يترافق حدوث الغُشية مع
التنويم الإيحائي وحالات التأمل، وهو يُستخدَم في سياق علم النفس ما وراء الشخصي.

إنّه يتحدث عن الوعي غير الموضوعي دائماً، من غير أن يُدرك ذلك.

قال لانغدون، وقد بدا عليه الارتباك: "حسنًا، لكنني كتبتُ عن مُعتقداتٍ تاريخيّة، لا عن علوم تجريبيّة. فافتناع ثقافة ما بفكرة مُعيّنة لا يجعل تلك الفكرة حقيقةً علميّة. في الواقع، أنا أجد صعوبةً في تصديق أنّ الرصد الذهنيّ من بُعد مُمكنٌ علميًا".

كانت كاثرين تُقدّر شكّه عادةً لأنّه يدفعها إلى التفكير، لكنّها شعرت اليوم أنّه لا يفتح ذهنه بما يكفي لرؤية حقيقة واضحة بنظرها. فتذكّرت مقولة عالم النفس الأميركي وليام جيمس: لكي تدحض الادعاء بأنّ جميع الغربان سوداء، يكفيك غراب أبيض واحد. وكما شرحت في مخطوطتها، فقد تمّ الكشف عن سرب كامل من الغربان البيضاء... بفضل أبحاث علم الوعي والفيزياء الكموميّة وجهود نخبة من الأكاديميين البارزين الذين دافعوا عن فكرة الوعي غير الموضوعي.

في الواقع، توصّل علماء مرموقون، من أمثال هارولد باثوف، وراسل تارغ، وإدوين ماي، ودين رادين، وبريندا دان، وروبرت موريس، وجوليا موسبريدج، وروبرت جان، وكثيرون غيرهم، إلى نتائج مذهلة في مجالاتٍ مُتنوّعة كفيزياء البلازما، والرياضيات غير الخطيّة، وأثروبولوجيا الوعي، وجميعها تدعم فكرة الوعي غير الموضوعي. وحملت كتبهم الأكثر انتشارًا عناوين مثل: عقل بلا حدود، التّصورات من بعد، الحاسة السابعة، الإدراك الشاذ.

ولم تسمع كاثرين أنّ أيًا من هذه الكتب قد أثار اعتراضًا من وكالة الاستخبارات المركزيّة. ولماذا قد تفعل؟ فتجارب الوعي المغايرة ليست غريبة كما يتصوّر معظم الناس. إذ إنّ الملايين من مُمارسي التأمل اختبروها. وهي الحالة نفسها التي وصفها العديد من المُصابين بالصرع، أو النّاجين من تجارب الموت الوشيك.

أقرب ما وصلت إليه كاثرين من تلك التجارب كان عبر ما يُعرّف بـ "الحلم الواعي"؛ وهي تجربة غريبة تستيقظ فيها داخل حلمها، وتُدرك أنّها تحلم، فتتمكّن من فعل ما تشاء داخل ذلك الحلم. الملعب الافتراضيّ المُطلَق؛ جسرٌ مُتاح بين الوعي والخيال، يفتح نافذةً فريدة تُشكّل الإنسان من خلالها واقعه الذاتي. وليس مُفاجئًا أنّ الحلم الواعي أصبح صناعةً بملايين الدولارات: كُتبيّات لتعليم التحكّم بالأحلام، ونظاراتٌ للنوم، بل وحتى كوكيتلات عقاقير تحتوي على الجالانتامين لمساعدة الحالمين على الاستيقاظ في أحلامهم!

كانت كاثرين تعلم أنّ الحلم الواعي معروفٌ منذ قرونٍ في ثقافاتٍ عدّة، لكنّه لم يُثبت علميًا إلّا في سبعينيّات القرن الماضي، حين قدّم عالم الفيزيولوجيا النفسيّة ستيفن لابيرج دليلًا تجريبيًا على وجوده. فقد برهن لابيرج أنّ الحالمين الواعين يمكنهم - في أثناء نومهم -

التواصل مع الباحثين من خلال مجموعة من حركات العين المُتَّفَق عليها مُسَبِّقًا... وكلّ ذلك بينما يعيش عقلهم تجربةً بعيدة تمامًا عن الجسد النائم.

والاستيقاظ داخل الحلم مهارة يمكن تعلّمها لمن يرغب. غير أنّ كاثرين كانت ترى أنّ حتّى أولئك الذين لا يهتمّون بها سيختبرون تجربة الوعي المغايرة مرّة واحدة على الأقلّ في حياتهم؛ لحظة الموت.

فجميع البيانات المُتاحة تشير إلى أنّ الموت يترافق مع عبور، من خلال تجربة واعية. مع ذلك، لا يزال الجدل قائمًا حول سبب هذه الرؤى.

أهي هلوساتٌ عرضيّة تُسبّبها قِلّة الأوكسجين؟ أم دليلٌ على الوعي غير الموضعيّ؟ أم لمحةٌ خاطفة عن حياة أخرى؟

كانت كاثرين تُدرك أنّ طبيعة الموت الحقيقيّة سرٌّ يتوق الجميع إلى فهمه... في كلّ الثقافات، وعبر كلّ الأجيال والعصور. لكن، بخلاف معظم أسرار الحياة التي تبقى عصيّة على الفهم، فإنّ كشف هذا السرّ بالذات مضمونٌ لكلّ واحدٍ منّا... لكن في النهاية.

لحظات الحياة الأخيرة... تصبح لحظات الحقيقة الأولى.

الفصل 86

كانت السفيرة ناغل تقود بحذرٍ على المنعطفات الحادة لطريق تشوتكوف، حين انبعث من هاتفها الشخصي صوت صرير خافت. في البداية، ظنّت أنّه إشعارٌ من النظام يُعلمها بأنّ بطارية الهاتف لم تعد فارغة تمامًا، لكنّ الصرير استمرّ، فنظرت إلى الهاتف بدهشة، ورأت مكالمةً واردة، هي الأولى على الإطلاق على هذا الجهاز الذي يبدو أنّ نغمة رنينه قد ضُبطت على صوت "صر صار اللّيل".

لا أحد يعلم بوجود هذا الخطّ أصلاً...

مع ذلك، ظهر على الشاشة اسم مألوف - الرقيب سكوت كيربل - قائد وحدة المارينز المُكلّفة بحماية مقرّ إقامتها. كانت ناغل تثق به ثقةً عمياء، ولكنها استغربت أن يكون رقم هذا الهاتف بحوزته. غير أنّها لم تجد مهرباً من الردّ، فرفعت الهاتف إلى أذنها. قالت: "سكوت؟"

صاح الرقيب بنبرة ارتياح: "سيدتي السفيرة! أعتذر عن اتّصالي على خطّك الخاصّ، فقد حاولت مكالمتك على جميع أرقامك الأخرى لكنّ—"

قاطعتُه قائلة: "لا بأس، لم أكن أعلم أنّ هناك من يعرف هذا الرقم. هل ثمة مشكلة؟" قال: "أبلغت من مقرّ إقامتك، سيدتي، أنّك في طريقك إلى السفارة لأخذ دواء. هل يمكنني أن أعرف وقت وصولك المُتوقّع؟"

تنهّدت ناغل بامتعاض، وتراخت قبضتها على المقود. تبّاً... "في الواقع، سكوت، الوقت ليس مُناسباً. ما الأمر؟" كان مدخل جسر مانيس يلوح أمامها وهي تقترب منه بسرعة. قال الرقيب: "أنا أنتظرك في السفارة، سيّدي، وبحوزتي شيءٌ أعتقد أنّ عليك—" فقاطعتُه بدهشة: "مهلاً، ظننتُ أنّك ما زلت مع دانا تُشرف على نقل جثة السيّد هاريس!"

قال: "كنتُ هناك فعلاً، سيّدي، لكنني تركت دانا في الموقع، وعدتُ إلى السفارة لأسلمك..." وصمت لحظةً، وقد بدا مُتردّداً على نحوٍ غير مألوف. "سيّدي، عندما دخلتُ الشقة، وجدتُ مُغلّقاً مختماً موضوعاً على جثمان السيّد هاريس."

شهقت ناغل غير مُصدّقة: "ماذا؟ مُغلّف؟!"

قال الرقيب: "نعم، سيّدي. ويبدو بوضوح أنّ القاتل هو من تركه هناك."

حبّاً بالله! "وماذا في داخله؟"

"لم أفتحه، سيدتي. فقد رأيتُ أنّه من الأنسب أن آخذه بسرّيّة تامّة وأحمله إليك فوراً". صمتت هنيهة، ثم خَفَضَ صوته وتابع قائلاً: "المُغْلَفُ مُوجَّهٌ إِلَيْكَ تحديداً... باسمكِ أنتِ". "إليّ؟!" صاحت ناغل وهي تُفَلِّتُ الهاتف في حجرها، وتقبض بيديها الاثنتين على المقود، لتنعطف بعنفٍ نحو اليسار، قبل ثوانٍ من دخولها الجسر. انزلت السيارة الرياضية، وتوقفت على جانب طريق كارل، عند نصب الأسد المُجَنِّح.

التقطت الهاتف مُجَدِّداً وقالت: "انتظر قليلاً يا سكوت".

كانت ترى لانغدون وكاثرين ينظران إليها بقلبي واضح، فأشارت إليهما أنّها تحتاج إلى بضع لحظات. أطفأت المحرّك، وترجّلت من السيارة، ثم سارت إلى ضفة نهر فلتافا والهاتف ملتصقاً بأذنها.

قالت بغضبٍ لم تستطع كبته: "أخبرني، لماذا قد يترك قاتل مايكل هاريس مُغْلَفاً مُوجَّهاً إليّ؟!"

قال الرقيب: "لا أدري، سيدتي، لكنّه وُضِعَ بوضوح ليُعرَّضَ عليه ويُسلَّمَ إليك. فقد كُتِبَ عليه خاصّ وشخصيّ".

هبت نسمة باردة من النهر، فارتجفت ناغل وشعرت بقشعريرة تسري في جسدها، بينما كان الموقف يزداد غموضاً وسوءاً.

قال الرقيب مُجَدِّداً: "سيدتي، أعلم أنّكِ غادرتِ المقرّ بمفردكِ. وبناءً على ما ورد في هذه الرسالة، أطلب منكِ المجيء فوراً إلى السفارة".

ودّت ناغل أن تطلب منه فتح المُغْلَفَ وقراءة محتواه، لكنّها عرفت أنّه سيرفض، وهو مُحقّقٌ في ذلك. فهي تتحدّث عبر هاتفٍ قد يكون مُراقباً، والله يعلم ما تحتوي عليه الرسالة. كانت نبرة القلق واضحة في صوت كيربل، ولم يساورها شكٌّ في أنّه - إن لم تعد فوراً - سيُرسل جميع أفراد وحدة حرس المارينز للبحث عنها.

نظرت إلى السيارة، فرأت لانغدون وكاثرين وقد ترجّلا منها، ويراقبانه بوجوم. تناهى إليها صوت كيربل مُجَدِّداً: "سيدتي، من الواضح أنّكِ في الخارج. هل خرجتِ لشراء بعض الحاجيات؟"

كان سؤال الرقيب كيربل إشارة - كما يُردّد الشبان - إلى أنّ "الوضع أصبح خطيراً". وكانت الإشارة نداء استغاثة مُتَّفَقاً عليه في حال وقوعها في مأزق. وكلّ ما كان عليها قوله: "نعم، لقد خرجتُ لشراء بعض الحاجيات"، لتُخذ أقصى التدابير لإنقاذها.

قالت: "سكوت، أنت تعرف أنّني لا أخرج لشراء حاجياتي. أحضِر الرسالة إلى مكتبي، سأكون هناك خلال عشر دقائق".

قال الرقيب بارتياح واضح: "شكرًا، سيّدي".

أنهت ناغل المكالمة، وعادت مُسرّعةً إلى السيارة. كان شارع ليتنسكا الذي تقع فيه السفارة قريبًا، على مسافة ثماني دقائق سيرًا على الأقدام. لكنّها لم تكن تستطيع بأيّ حال من الأحوال اصطحاب لانغدون وكاثرين إلى هناك.

سألها لانغدون حين وصلت: "ما الذي حدث؟"

أجابت بمرارة: "يبدو أنّ المصائب لا تأتي فرادي". ثمّ أخبرتهما بأمر المغلّف. "لا فكرة لديّ عمّا يحتويه، لكن إن لم أصل إلى السفارة خلال عشر دقائق، فسوف تملأ وحدات الحرس شوارع براغ بحثًا عني... وهم لا يميزون في مثل هذه الأمور". ثمّ سلّمت مفاتيح السيارة قائلة: "ستكونان بأمان أكبر من دوني".

قال لانغدون: "هل ورد أيّ خبر عن ساشا؟"

أجابت: "لا، كان سيذكر ذلك حتّمًا. سأطلب من الضابط الفنّي إجراء مسح تعرّف إلى الوجوه عبر كاميرات المدينة".

أشارت كاثرين إلى الهاتف القديم الذي كانت ناغل تحمله وقالت: "وماذا عن الهاتف؟ أما زال يصلح للتصوير؟"

تنفّست ناغل بعمق وقالت: "من الواضح أنّه لم يعد آمنًا. لا أدري إن كان قابلاً للتعبّ، لكن لا ينبغي المخاطرة. وعلى أيّ حال، إن التقطتما صورًا، فستزعم سي آي إيه أنّها مُزوّرة عبر الذكاء الاصطناعيّ. لذا، من الأفضل أن تبحثا عن وثائق أو أدلّة مادّية إن أمكن".

قال لانغدون: "حسنًا، لكن ثمة مشكلة أخرى. وعدتُ محرّري، جوناس فوكمان، أن أتصل به بعد مغادرتنا مقرّك. وإن لم يصله أيّ اتّصال منّي قريبًا، فسيقوم بإبلاغ السلطات التشيكيّة. وكنت أنتظر حتى يُعاد شحن هاتفك، لكن بما أنّه قد يكون مُراقبًا..."

قالت ناغل وهي تفتح باب السيارة لتتناول قلمًا وورقة: "ما رقم محرّك المباشرة؟ سأُتصل به من الخطّ الآمن في السفارة، أو يمكنني إرسال بريد إلكترونيّ—"

قاطعها لانغدون قائلاً: "لن يصدّقك؛ فهو يعلم أنّك تابعة للوكالة، وسيُصرّ على سماع صوتي مباشرة".

فكرت في سرّها: تَبًا، /إنّه مُحقّق.

قال لانغدون بعد لحظةٍ من التفكير: "في الواقع... أعطيني القلم والورقة". أخذهما، ودوّن عنوان بريد فوكمان الإلكترونيّ. بعد ذلك، أغمض عينه قليلًا كمن يصوغ رسالةً في ذهنه. "حسنًا، أرسلني له هذه". وكتب بسرعة رسالة غريبة، ثمّ ناولها الورقة.

نظرت إليها باستغراب، وسألته: "وما هذه؟"

أجاب لانغدون: "أرسلها كما هي؛ سيفهم تمامًا ما تعنيه".

الفصل 87

كان لانغدون يحاول السيطرة على ناقل الحركة اليدوي في السيارة التي كانت تهتز بعنف في أثناء اندفاعها جنوبًا، باتجاه متنزه فوليمانكا. فقال مُتذمّرًا: "ينبغي حظر عصا التروس اليدوية".

قالت كاثرين مازحة: "أو ربّما حظر الرجال الذين يتظاهرون بأنّهم يُجيدون استخدامها؟"

ابتسم لانغدون على الرغم من توتره، مُمتنًا لخفة ظلّها في خضمّ كلّ هذا التوتر. فقد كان شارد الذهن، يُفكّر في انسحاب السفيرة المفاجيء، وفي الخطر الهائل الذي عرّضت نفسها له من أجل مساعدتهما؛ الأمر الذي قدّره بشدّة. غير أنّ همّة الأول، في الواقع، كان سلامتهما... كما أراد أيضًا معرفة السبب الذي جعل وكالة الاستخبارات المركزية تستهدف كتاب كاثرين.

الإجابات تنتظرنا داخل منشأة العتبة.

تمنّى في قرارة نفسه ألاّ يتحوّل تفاؤله بشأن إمكانية دخول المنشأة السريّة إلى مجرد ثقة مُفرطة وواهمة.

سنكتشف ذلك خلال دقائق.

أمّا شكوك كاثرين بشأن علاقة مشروع "ستارغيت" بما يجري، فبدت له في غير محلّها. فصحيح أنّه لم يكن واسع الاطلاع على ذلك البرنامج غير الموثوق، لكنّه يعلم أنّ هوليوود نفسها سخرت من الوكالة حين أصدرت فيلمًا لجورج كلوني بعنوان الرجال الذين يحدّقون إلى الماعز، يستند إلى تجربة مزعومة ضمن مشروع "ستارغيت" حاول فيها المشاركون قتل الماعز بنظراتهم.

وعلى الرغم من شكوكه حيال الرصد الذهني من بعد، فإنّ الفكرة بحدّ ذاتها تعود إلى أكثر من سبعة آلاف عام. إذ كتب السومريّون القدامى عن "رحلات إلى النجوم" لمشاهدة عوالم بعيدة.

لكنّهم تعاطوا حتمًا موادّ سببت لهم هذا الإحساس. فكّر لانغدون في ذلك، مُتسائلًا عمّا إذا كانت منشأة العتبة تدرس حالات الوعي المغايرة بفعل العقاقير... وربّما تربطها بالوعي غير الموضعيّ.

ولا شكّ في أنّ للوكالة تاريخًا طويلًا مع التجارب السريّة باستخدام العقاقير.

بمن في ذلك طلاب جامعة هارفارد...

فأحد أشهر مشاريع سي أي إيه التي ظهرت للعلن حمل الاسم الرمزي MKULTRA. وبموجبه، أُعطي طلاب في الجامعة جرعاتٍ من عقار LSD من دون علمهم؛ لدراسة تأثيره في عقول الشباب. والمثير للدهشة أنَّ أحد المشاركين في الاختبار كان طالب جامعة هارفارد تيد كازينسكي - الذي عُرف لاحقًا باسم "مُفجّر الجامعة Unabomber" - ومع أنَّ الوكالة أنكرت إعطاءه أي عقاقير، إلّا أنها أقرّت بخضوعه لما سمّته "تقنيّات استجوابٍ تجريبية"، يُحتمل أنها زعزعت استقراره النفسي.

ولم تتوقف قصّة العقاقير في جامعة هارفرد عند هذا الحدّ. فبالترزامن مع مشروع MKULTRA، أطلق عالم النفس الجامعي تيموثي ليري "مشروع سيلوسيبين هارفارد"، الذي شجّع من خلاله الطلاب على اختبار الفوائد الذهنيّة للمواد المُهلوسة تحت شعار: استعدّ... اندمج... انسحب. ويُعتدّ اليوم على نطاقٍ واسع أنَّ ليري كان يعمل سرًّا بالتنسيق مع الوكالة.

قال لانغدون وهو يلتفت إلى كاثرين التي كانت تُحدّق من خلال النافذة: "في كتابك... هل تطرّقت إلى حالات الوعي المُغيّرة بفعل العقاقير؟"

أجابته: "بالتأكيد. فكما سبق وذكرْتُ، تُخفّض بعض المُهلوسات مستويات حمض GABA في الدماغ، ممّا يُضعف آليّة التصفية العصبيّة. وهذا يعني، في رأيي، أنَّ الإحساس الإدراكيّ المُغيّر المُقترن بتلك الموادّ ليس هلوسة، بقدر ما هو انعكاسٌ لواقعٍ لم يخضع للتصفية".

بدا كلامها منطقيًّا، ولطالما وُجدت سوابق تاريخيّة ترى في العقاقير وسيلةً إلى التنوير. فمن نصوص ريغ فيدا/ القديمة إلى الأسرار الإليوسينية، وصولًا إلى كتاب ألدوس هكسلي الشهير الصادر عام 1954/ أبواب الإدراك، لطالما رأى المفكّرون في المواد المُسبّبة للهلوسة وسيلةً لتوسيع الوعي وإدراك "الواقع من دون تصفية".

غامر لانغدون بسؤالها بطريقة عرضية: "لم أسألكِ يومًا يا كاثرين، هل تطلّب بحثك في مجال الوعي أن تتعاطي العقاقير أنت نفسك؟"

استدارت نحوه، وحدّقت إليه بدهشة، فيما ظهرت ابتسامة تسلية على وجهها لمجرّد طرحه السؤال. قالت: "روبرت، أحقّ؟! الدماغ آليّةٌ بالغة الدقّة، ومحاولة التلاعب به بالمُهلوسات تشبه مُحاولَة ضبط ساعة رولكس ثمينة بمطرقة حدّاد! فالعقاقير تغيّر حالات الوعي بإحداث سلسلةٍ صادمة من الاضطرابات العصبيّة التي قد تترك آثارًا دائمة. ومهما وجد المرء من تنوير في تلك التجربة الوجيزة، إلّا أنّه يخاطر بتقويض سلامة التشابك

العصبيّ وتوازن النواقل العصبية على المدى الطويل. إذ تعمل أغلب المهلوسات من خلال إرباك نظام السيروتونين، وهذا أمرٌ خطِر جدًا؛ لأنّه قد يتسبّب في ضعف الإدراك، والاضطراب العاطفي، بل في حالات دُهان مستمرة".

ابتسم لانغدون وقال: "سأخذ هذا الردّ على أنّه نفي".

قالت بخجل: "عذرًا، لديّ زملاء يُجرون تجارب على مُختلف الموادّ المهلوسة بمسؤوليّة، وهذا أمر لا بأس به بالتأكيد. غير أنّي أشعر بالتوتر عندما يفترض الشباب أنّها آمنة تمامًا، في حين إنّها ليست كذلك".

خفض لانغدون السرعة، وحاول التبدّل بين السرعات بسلاسةٍ تفاديًا للاصطدام بترام.

قالت كاثرين: "أفترض أنّك تسأل بسبب ظنّك أنّ للعقاقير علاقة بمشروع العتبة؟"

قال لانغدون: "هذا يبدو احتمالاً وارداً. فقد ذكرت في محاضرتك أمس مجموعة من العقاقير الحديثة التي تُعزّز القدرة النفسية. وإذا أخذنا بالحسبان مئات الحالات المؤنّقة لجرائم تمّ حلّها بمساعدة وسطاء نفسيّين، فليس من المُستبعد أن تُحاول وكالة الاستخبارات المركزية تطوير أدوية لتعزيز القدرة النفسية؛ ستكون التطبيقات غير محدودة".

قالت: "ربّما... لكنّ الفكرة ليست جديدة تمامًا".

قال لانغدون في سرّه: بالفعل، ستكون الوكالة متأخرة بعدة قرون. فهذه ليست سوى امتدادٍ لتاريخ طويل من الأرواح الساعية لتوسيع مداركها بالكيمياء.

قالت كاثرين بثقة: "لا أظنّ أنّ لمشروع العتبة علاقة بالعقاقير. فكتابي لا يتناولها إلّا عرضاً".

سألها لانغدون وهو يقود السيارة بمحاذاة النهر جنوباً نحو منزله فوليمانكا: "إذا، ما تخمينك؟"

أجابت وهي تسند رأسها على ظهر المقعد: "أظنّ أنّ اهتمامهم ينصبّ على تجاربي مع الصور العشوائية".

تذكّر لانغدون اختبارات كاثرين في هذا المجال، والتي تستجيب فيها أدمغة المُشاركين بصورةٍ قبل أن تُعرض عليهم فعلياً. فقد ظهرت الصورة المُختارة عشوائياً في وعي الشخص حتّى قبل أن يختار الحاسوب الصورة التي سيعرضها.

قال وهو يهزّ رأسه في حيرة: "بصراحة، لست متأكّداً من أنّني أفهم تجربتك. إذا كان الدماغ يُسجّل الصورة قبل أن يختارها الحاسوب أصلاً... فهذا يعني أنّ الدماغ هو الذي يتخذ القرار... ثمّ يخبر الحاسوب بالصورة التي عليه اختيارها!"

"إنشاء الوعي للواقع... احتمالاً وارد، نعم".

قال: "وهل هذا ما تعتقدينه؟"

"ليس تمامًا. ففي نموذجي، الدماغ لا يختار... بل بالأحرى يتلقى الخيار".

نظر إليها متعجبًا: "يتلقاه... من أين؟"

"من حقل الوعي الذي يُحيط بنا. فحتّى عندما تشعر أنّك تتخذ قراراتك بنفسك، تكون تلك القرارات مُتَّخَذَةً أساسًا، وتُبَثّ في دماغك".

"الآن، ضعتُ تمامًا... إن كنتُ مُجرّد مُتوهمٍ أنّي أختار، فهذا يعني أنّ لا وجود للإرادة الحرّة!"

قالت: "صحيح. وربما تكون الإرادة الحرّة مُبالغا في تقديرها".

"وكيف يمكنكِ—"

مالت نحوه بغتةً وقبّلتها، ثمّ عادت إلى مقعدها مُبتسمة: "لا أعلم من أين جاء هذا القرار... لكن، هل هذا بهمّ فعلاً؟ أليس مجرّد وهم الإرادة الحرّة كافيًا؟"

فكر لاغدون في كلامها لحظة، ثمّ وضع يده على حجرها مُبتسماً وقال: "أعتقد أنّنا بحاجة إلى مزيد من البحث في هذا الموضوع".

ضحكت قائلة: "أتطمح إلى تجربة وعيٍ مغايرة، بروفيسور؟"

"في الواقع، ليس تمامًا".

"لا تكن واثقًا إلى هذا الحدّ؛ فالعلاقة الجسديّة وثيقة الصلة— برأي علم الوعي— بتجارب الوعي المغايرة".

تأوّه وقال مازحًا: "هل تربطين كلّ شيء بالعمل؟"

"في هذه الحالة، نعم. فكما تعلم، في ذروة النشوة، يعيش الدماغ لحظة غفلة بهيجة يختفي فيها العالم المادّي بأكمله. ولهذا السبب، تُعتبر النشوة في كلّ الثقافات التجربة الأكثر مُتعة؛ لأنّها لحظة تحرّر تامّ من الذات، ومن الهموم والألم والخوف. هل تعرف ماذا يسمّيها الفرنسيون؟"

قال: "أجل، *La petite mort*".

قالت: "صحيح، الموت الأصغر. سُمّيت كذلك لأنّ الإحساس في لحظة الذروة يشبه

تمامًا ما يصفه من مرّوا بتجارب الموت الوشيك".

"يا له من تشابه مروّع!... لكنّه مثير للدهشة".

"إنّه علم الدماغ يا روبرت. المشكلة الوحيدة في النشوة تتمثّل في قصرها المُحيط. فبعد ثوانٍ من التحرّر الكامل، يسارع العقل للعودة إلى الجسد، حاملاً معه كلّ الأوجاع والضغط وأحاسيس الندم". ثمّ أضافت بخفّة: "ولهذا السبب، نرغب في تكرارها مرارًا".

فالنشوة تُرسل فيضًا من الإشارات إلى الجهاز العصبي... وتحرّر العقل؛ تمامًا كما تفعل نوبة الصرع".

لم يكن لانغدون قد ربط يومًا بين النشوة والموت أو نوبات الصرع، لكنه أدرك أنّ هذا التشبيه سيعود إلى ذهنه لاحقًا في أكثر اللحظات غير المناسبة. شكرًا يا كاثرين. قالت وهي تُميل رأسها بتأمل: "في الواقع... خطرت لي الآن فكرة غريبة. يبدو أنّك تملكين الكثير من تلك الأفكار...

قالت: "مساعدة غسنير في المختبر... ألم تقل إنّ تلك الفتاة مُصابة بالصرع؟ وإنّها قضت فترةً في مصحة عقلية؟" أجاب: "بلى".

قطّبت كاثرين حاجبيها وقالت: "ألا يبدو غريبًا أن تسمح وكالة الاستخبارات لغسنير بتوظيف مريضة عقلية روسية لا تتمتع بالمهارة؟ أعني، أعلم أنّ ساشا لا تقوم سوى بمهام بسيطة في حصن الصليب، لكن يبقى من الخطر أمنياً وجود روسية تعاني من اضطرابات دماغية قرب عمل غسنير... الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا - كما فهمت - بمشروع العتبة". قال لانغدون: "لا أرى خطرًا في ذلك. فقد بدت لي ساشا مُتّزنة تمامًا، وهي بالتأكيد ليست من أنصار وطنها الأم. أعتقد أنّ غسنير وظفتها بدافع الشفقة".

ضحكت كاثرين وقالت: "روبرت، أنت مُدهش... بريء، لكنك مُدهش. بريغيتا غسنير - مع احترامي للميتة - كانت نرجسية أنانية، وسيدة أعمال قاسية. وإن وظّفت مريضة روسية غير مُتعلّمة في دائرتها الضيقة، فذلك لأنّ لدى ساشا شيئًا تحتاج إليه غسنير". "إذًا، لا فكرة لديّ عن هذا الشيء".

قالت وقد اشتعلت حماسها فجأة: "ربّما كنتُ أعرف. فقد خطر ذلك ببالي الآن، وكنتُ قد تطرّقت إليه في مخطوطتي". "وما هو؟"

قالت وهي تستدير نحوه بالكامل: "أعلم أنّك مُتشكّك جدًّا في موضوع الرصد الذهني من بُعد، لكن إن كان لمشروع العتبة أيّ علاقةٍ بذلك... فإنّ إصابة ساشا بالصرع تجعلها ذات قيمة بالغة". "وكيف ذلك؟"

"فكّر في الأمر! المهارة الجوهرية لمن يُجيد الرصد الذهني من بُعد هي القدرة على خوض تجربة وعيٍ مُغايرة. والمشكلة أنّ تجارب الوعي المُغايرة العضوية نادرة جدًّا، ولا يستطيع سوى قلة من الناس الوصول إليها".

هنا، أدرك لانغدون ما ترمي إليه كاثرين. فغالبًا ما توصف نوبات الصرع بأنها حالة من هذا النوع؛ لحظة وجيزة من الوعي غير الموضعي.

تابعت كاثرين: "تجارب الوعي المغيرة أمرٌ يعيشه المُصابون بالصرع بطريقة طبيعية. فأدمغتهم مُهيأة لذلك مُسبقًا، وهذا يعني أنّ مريض الصرع قد يكون أقدر الناس على ممارسة الرصد الذهني من بُعد".

قال لانغدون مُتشككًا: "لا يمكنكِ حقًا أن تُصدّقي أنّ ساشا فيسنا جاسوسة نفسية تعمل لصالح سي آي إيه..."

"ولمَ لا؟"

"لأنني قضيتُ وقتًا معها. لديها سلسلة مفاتيح من Krazy Kitten! إنَّها روح تائهة وطيبة".

قالت: "طيبة؟! لقد قلتَ بنفسك إنها هُشمت رأس رجل بطفاية حريق!"

"حسنًا، تقنيًا هذا صحيح... لكنّها فعلت ذلك دفاعًا عن—"

قاطعته: "روبرت، أعترف أنّ ساشا قد لا تكون جاسوسة نفسية، لكن من المحتمل أنّ غِسنِر كانت تدرس أدمغة المُصابين بالصرع لتفهم ما يجعلهم أكثر عرضةً لتجارب الوعي المغيرة. والحصول على بياناتٍ عصبيةٍ دقيقة حول دماغ مُصابٍ بالصرع سيكون ذا قيمة هائلة لأيّ برنامج يسعى إلى إجراء تجارب وعي مغيرة".

هذا مُثير للاهتمام فعلاً. فكّر لانغدون في ذلك، وتذكّر أمرًا كانت ساشا قد أخبرته به في وقتٍ سابقٍ من ذلك اليوم، فقال: "نسيت إخبارك أنّ غِسنِر جلبت مريض صرع آخر من المصحّة نفسها قبل ساشا؛ روسيًا يُدعى ديمتري. وقد خضع للعملية الجراحية نفسها التي خضعت لها هي، وشُفي هو أيضًا".

قالت كاثرين بسرعة: "هذا أمر مهمّ جدًّا. إذ يصعب تصديق أنّ بريغيتا غِسنِر كانت تتقي مرضى صرع من مصحّاتٍ عقليةٍ وتعالجهم على نفقتها، من باب الشفقة فحسب".

كان على لانغدون الاعتراف بأنّ ذلك لا يتناسب مع شخصيتها. كما أدرك أنّ إحضار "فأر تجارب" من روسيا - بإشراف سي آي إيه في الأرجح - يتمّ عمليًا خارج أيّ سجلّ رسميٍّ في أوروبا. شبح في براغ.

قالت كاثرين: "لنفترض للحظة أنّ غِسنِر جنّدت هذين المريضين كمشاركين في دراسات مشروع العتبة؛ هذا يُفسّر سبب احتفاظها بساشا بجوارها".

"لمراقبتها".

قالت: "بالضبط. وفي المقابل، تمنحها عملاً بسيطًا، ومسكنًا، وراتبًا مُتواضعًا. أمرٌ سهل التنفيذ".

"حسب ما أفترض..."

سألته وهما يقتربان من متنزه فوليمانكا: "وماذا عن ديمتري؟ أين هو الآن، أما زال في براغ؟"

"قالت ساشا إنه عاد إلى روسيا بعد شفائه".

"أستبعد ذلك. ربّما هذا ما أخبرتها إياه غُسْنِر، لكن إن كانت الوكالة قد انتزعت مريضًا من مصحّة روسيّة، واستثمرت فيه، وجعلت منه موضوع بحث في برنامجٍ سرّي... فهل يُعقل أن تسمح له بالعودة إلى وطنه؟ وإلى روسيا تحديدًا؟"

فكّر لانغدون في سرّه: هذه ملاحظة وجيهة، وضغط على دواسة الوقود قليلًا بينما أسرعَت السيارة على الطريق المُمتدّ أمامهما.

مال بعنقه قليلًا ليتفحص الشارع من بعيد. إن حالفنا الحظّ، فسنحصل على إجابات قريبًا. إذ كان مدخل العتبة يلوح أمامهما.

الفصل 88

كان الرقيب كيربل واقفاً أمام السفارة الأميركية، يرتجف برداً بزيه الأزرق الرسمي، وعيناه تجوبان الشارع بحثاً عن سيارة السفارة القادمة. حين لمحها أخيراً، صُدم لرؤيتها تسير على قدميها، على بُعد عشر ياردات منه فقط.

هل أنت سيرا على الأقدام؟ وبمفردها؟!

قالت وهي تمر من أمامه بخطوات سريعة: "أعلم يا سكوت، آسفة. احتجتُ إلى بعض الهواء".

"أين سيارتك؟!"

"كل شيء على ما يُرام، حقاً. اتبعني".

كان كيربل قائد فريق الأمن المُكلف بحماية السفارة ناغل منذ عامين، ولم يعهدها يوماً مُهملّة أو صعبة المراس، أو مُتهوّرة كما بدت له الآن. يبدو أن مقتل مايكل هاريس قد زعزعها بعمق.

بعد أن صعدا الدرج المؤدي إلى مكتبها، انتظراها كيربل لتخلع معطفها وتأخذ زجاجة ماء. غير أنه فوجئ بها وهي تجلس بعد ذلك إلى مكتبها وتبدأ بالطباعة على الحاسوب، مُستعينة بورقة أخرجتها من جيب معطفها. بعد لحظات، سمع صوت الإرسال الإلكتروني المألوف.

الملحق مات، وأنت تراسلين أحدهم بالبريد الإلكتروني؟!

أخيراً، استدارت نحوه، وقالت وقد صبت كل اهتمامها عليه: "حسنًا يا سكوت، هل تأكدت من أن المُغلّف آمن؟"

كان قد أخضعه مُسبقاً لبروتوكول السلامة الذي تطبّقه السفارة على البريد الوارد، فطمأنها قائلاً: "لقد خضع لفحصٍ كامل. لا موادّ غريبة". ثم أخرج المُغلّف من جيب سترته، ووضعه أمامها على المكتب.

تناولت ناغل المُغلّف، وتفحصته بدهشة قائلة: "سلّة ققط؟"

"عفوًا؟"

قالت مُشيرة إلى سلّة الققط المُصوّرة على المُغلّف: "هل كتب إليّ القاتل على ورقٍ يحمل رسوم ققط صغيرة؟!" وأشارت إلى الرسم المطبوع على الزاوية العليا من الظرف. "نعم، سيدتي. استخدم أوراق المُراسلة من شقة الآنسة فيسنا؛ يبدو أنّها مولعة بالققط".

أمسكت السفيرة سكين فتح الرسائل، وشقّت بحذرٍ طرف الظرف، ثم أخرجت ورقة مطوية من الورق نفسه.

لم يتمكن الرقيب كيربل من رؤية ما كُتِب فيها، ولا من قراءة ملامح وجه السفيرة وهي تتأملها، لكن الرسالة بدت قصيرة.

بعد لحظاتٍ قليلة من مطالعتها، وضعتها مقلوبةً على المكتب، واتّجهت نحو النافذة. وقفت هناك بصمتٍ عشرَ ثوانٍ كاملة، ثم استدارت نحوه وقالت: "شكرًا لك. أحتاج إلى بعض الخصوصية الآن".

الفصل 89

كان مدخل "مشروع تجديد" ملجأ فوليمانكا تمامًا كما وصفته السفيرة ناغل؛ في موقع سرّي في منطقة صناعيّة من المدينة، بجوار خطوط قطارات ركّاب، وشارع مُزدحم، وفي الزاوية الجنوبيّة الغربيّة لمتنزّه فوليمانكا.

كان المثلث الصغير الذي يقع فيه المدخل، والمُحاط بسيّاح معدنيّ، معروفًا باسم ساحة أوسترشيلوفو. وقد خدمت هذه "الساحة" المثلثة عدّة أغراض على مرّ السنين: ملعب لم يلقَ رواجًا، وحديقة تزلّج مؤقتة، ومؤخرًا، مركز لإعادة التدوير. غير أنّها شكّلت، خلال السنوات القليلة الماضية، موقعاً لعمليات سلاح المهندسين في الجيش الأميركيّ "لتجديد" ملجأ فوليمانكا المُتهالك، والذي يعود تاريخه إلى خمسينيّات القرن الماضي.

شعرت كاثرين بتوتّر مُتزايد، بينما كان لانغدون يقود بمحاذاة الحاجز العالي؛ جدارٍ صلب يبلغ ارتفاعه ثماني أقدام، علّقت عليه لافتات تحذيريّة كُتب عليها بعدّة لغات:

VSTUP ZAKÁZÁN / ZUTRITT VERBOTEN /

ENTRY FORBIDDEN

الدخول ممنوع.

عند نهاية الجدار، انعطف لانغدون يسارًا، وقاد ببطءٍ بمحاذاة الضلع الثاني من المثلث. هناك، علّقت لوحة كبيرة تحمل مخطّطاتٍ ونصوصًا توضّح تفاصيل ما يجري في الداخل:

PROJEKT OBNOVY PARKU FOLIMANKA /

FOLIMANKA PARK RECOVERY PROJECT

مشروع تأهيل متنزّه فوليمانكا

كانت البوّابة المُحصّنة في الجدار مُغلقة، ولم يتبقّ سوى جزء صغير من لوحة البوّابة يُتيح رؤية ما يوجد وراءها. شاهدت كاثرين جنديّين بالبزة السوداء يحرسان طريقًا مُعبّدًا حديثًا، ينحدر نحو نفقٍ مُقَبَّبٍ واسع يخفي تحت متنزّه فوليمانكا. وقد أُغلق مدخله بعوائق فولاذيّة قابلة للرفع. قال لانغدون وهو يمدّد عنقه لإلقاء نظرة أبعد، بينما كان يمرّ بالسيارة: "حراسة مُشدّدة للغاية من أجل مشروع ترميم".

مشروع حكومتيّ سرّي... مُخبأ في العلن.

استرقت كاثرين نظرةً أخيرةً على النفق وهما يمرّان بجانبه. بخلاف الحارسين العاديين خارج المدخل، لم ترَ شاحناتٍ ولا موظفين ولا أيّ نشاطٍ بشريّ، ممّا أكّد ظنّ السفيرة أنّ منشأة العتبة متوقّفةً حاليّاً عن العمل.

انعطف لانغدون إلى اليسار مرّةً أخرى، مُجتازاً الضلع الثالث والأخير من السياج الموازي للطرف الغربيّ من متنزه فوليمانكا.

فكّرت كاثرين في سرّها: ها نحن أولاء، وكانت لا تزال مُعجّبةً بالخطّة المُدهشة التي شرحها لانغدون قبل قليل؛ خطّة تقوم على فكرةٍ واحدة صادِمةٍ للعتبة مدخّل سرّيّ.

باستخدام حجج منطقية لا تقبل الجدل، أقنع لانغدون السفيرة أنّ "مدخل الإنشاءات" في الطرف الغربيّ من المتنزه - الذي سيصبح المدخل الرئيس عند اكتمال المشروع - ليس الطريق الوحيد إلى الداخل.

للعتبة منفذ ثانٍ... مخفيّ ببراعة.

والأهمّ من ذلك، أنّ لانغدون كان قد حدّد موقعه بدقة... وكذلك طريقة اجتيازه.

* * *

في تلك الأثناء، كان الغولم يقف وحيداً في قاعةٍ لم يرَ لها مثيلاً من قبل، ولا تخيل وجودها يوماً. فبعد أن اتّبع التعليمات التفصيلية التي انتزعها من بريغيتا غِسْنِر ليلة البارحة، انتهت رحلته الطويلة أخيراً في هذا المكان العجيب.

العتبة.

كانت غِسْنِر قد اعترفت له بكلّ شيء... ومع ذلك، فإنّ رؤيتها بأّم العين الآن أصابته بالاضطراب، لا بل بالغثيان تقريباً.

لقد بُني هذا المكان بدم ساشا.

لم تكن ساشا الضحية الأولى للمشروع... ولن تكون الأخيرة.

ولهذا السبب تحديداً، سأدمر العتبة اليوم.

أنهكته الطريق الطويلة نحو هذا الانتقام، وشعر بعاطفةٍ جيّاشة تتصاعد في صدره. شعر أيضاً بوخزٍ خفيفٍ مألوف يسري في جسده؛ إنذارٌ مُسبقٌ بما سيأتي. وبدأ ضبابٌ خافتٌ يزحف في أرجاء الغرفة.

الأثير يتجمّع.

تمتم هامساً: "Ne seychas"، ليس الآن...

وبحركة تلقائية، أدخل الغولم يده في جيب عباءته ليُخرج عصاه المعدنية.

الفصل 90

عبسَ جوناس فوكمان وهو يُحدِّق إلى نتائج بحثه الأخير عبر ChatGPT. فعلى الرغم من تنويعه في الصياغات والأساليب، إلّا أنّ مُحاولاته العثور على أيّ صلة بين أبحاث كاثرين واستثمارات شركة إن-كيو-تل لم تُسفر سوى عن نتائج مُبعثرة وغير مُترابطة، أشبه بلعبة كلماتٍ عشوائيةٍ منها يعمل ذكي؛ اصطناعياً كان أم بشرياً. أغلق حاسوبه بإحباط، واتّجه نحو النافذة، وراح يحدِّق شمالاً إلى شارع برودواي باتجاه سنترال بارك. في ضوء الفجر، بدأت السحب تتجمّع خلف أبراج المليارديرات الشاهقة - أبراج "أقلام الرصاص" النحيلة - مُهدّدةً بعاصفة وشيكة. استغرق في التفكير قليلاً، ثم عاد إلى مكتبه ليُكمّل بحثه. وما إن جلس أمام الحاسوب حتى لاحظ وصول رسالةٍ إلكترونيةٍ جديدة. وحين قرأ سطر الموضوع، فوجئ واجتاحته الحماسة:

رسالة من روبرت لانغدون

كان فوكمان قد انتظر مُكالمةً منه لأكثر من ساعة، وشعر بقلقٍ مُتزايد من احتمال حدوث مكروهٍ له في مقرّ السفارة، فشعر بالارتياح حين رأى الرسالة، لكنّ ذلك الارتياح تبدّد بسرعة. فعلى الرغم من موضوع الرسالة، تبيّن أنّ المُرسلة هي السفارة الأميركية هايدة ناغل... المستشار القانونيّة السابقة لوكالة الاستخبارات المركزيّة.

أهي التي تُرسل الرسالة نيابة عنه؟!!

لم يخطر في باله في تلك اللحظة شخصٌ في براغ يثق فيه أقلّ منها. فلو كان روبرت بخير فعلاً، لكان الأجدر بالسفيرة أن تدعه يتّصل به بنفسه. لن أصدّق كلمة واحدة قبل أن أسمع صوت روبرت.

تردّد فوكمان لحظة قبل فتح الرسالة؛ خشية أن تشتمل على فيروس أو تكون عمليّة اختراقٍ جديدة. ثمّ قرّر في النهاية أن يفتحها، وقد أيقن أنّه لم يبقَ لديه ما يخسره. هكذا، وبحذرٍ شديد، فتح الرسالة، فظهرت أمامه سلسلة أحرفٍ غريبة لا معنى لها.

ROT13EY&XFETHQ

استغرقه الأمر لحظة ليُدرك أنّ العناصر الخمسة الأولى ليست عشوائية. فقد كان ROT13 اسمًا لنظام تشفيرٍ يقوم على استبدال كلّ حرفٍ بالحرف الواقع بعده بثلاثة عشر

موقعًا في الأبجدية. كان فوكمان يعرف هذا النمط؛ إذ سبق له أن استخدمه في أثناء تحرير كتاب عن تقنيات التشفير القديمة، وكان مؤلف الكتاب يُمازحه أحيانًا برسائل مُشفرة بالطريقة نفسها.

ولم يكن ذلك المؤلف سوى روبرت لانغدون نفسه.

ارتسمت على وجهه ابتسامة تفاؤل مفاجئة، فأمسك قلمًا، وبدأ يفك الشيفرة البسيطة. وما إن انتهى حتى ظهرت أمامه النتيجة:

RL&KSRGUD

توقف لحظة حائرًا، ثم انفجر ضاحكًا، وقد شعر بالتسلية والارتياح معًا.

وحده روبرت قد يكتب رسالة كهذه!

(روبرت لانغدون وكاثارين سولومون بخير)

كان لانغدون وفوكمان يتذمّران دائمًا من انحدار مستوى اللغة المكتوبة بسبب تفشي الاختصارات والرموز التعبيرية. وقد ضايق هذا الاتجاه فوكمان إلى درجة أنه كتب مقالاً عنه في مجلة نيويورك، تضمن جملةً مطوّلة مُبالغًا فيها إلى حدّ أثار سخرية لانغدون لوقتٍ طويل.

كتب فوكمان يومذاك: إن اختصار كلمة *good* (بخير) إلى *gud* لتوفير ضغطة مفتاح واحدة سلوك لا يفتقر إلى اللياقة فحسب، بل يُعدّ جريمة كسل لغوي.

وبينما كان لا يزال يضحك وهو يتأمل رسالة لانغدون المُشفرة، كاد أن يردّ مازحًا:

رسالتك لا تنم عن ذوق رفيع فحسب... بل تبعث في نفسي سكينه عميقة.

الفصل 91

أوقف لانغدون السيارة، وشدّ مكابحها اليدوية. وقبل أن يترجّل منها مع كاثرين، حاول أن يستجمع أفكاره، مُدركًا أنّ لحظات قليلة تفصل بين نجاح خطّته أو تحوّلها إلى كارثة.

كان الهواء على التلّ العالي قد اشتدّ، وراح يهبّ على أغصان الأشجار الكثيفة تحتها. فتوقّف لانغدون لحظة، وحدّق إلى المساحة المُغطّاة بالثلوج والمُمتدّة خلف الأشجار؛ إلى متنزّه فوليمانكا الذي انبسط شرقًا بعيدًا عن الحافة. كلّ هذا المكان يبدو مُختلفًا الآن، هذا ما قاله في سرّه، وهو يُحوّل نظره إلى المبنى المُقابل لهما.

بدا حصن الصليب موحشًا، فقد ارتفع كظلّ قاتم في مواجهة سماءٍ رمادية مُتلبّدة. وبينما كان يسير برفقة كاثرين نحو المدخل الرئيس، شعر بشيء من التردّد يتسلّل إليه، فسارع إلى تذكير نفسه بما أعاده إلى هذا المكان.

المنطق البحت.

تجلّت له الحقيقة في المسبح المَهجور في مقرّ السفارة. فبعد أن مزّقت ناغل اتفاقيّتي الحفاظ على السريّة، واتصلت بفينش عبر مكبّر الصوت، وأوهمته أنّ أوامره قد نُفذت، أمرها هذا الأخير بإرسال وحدةٍ من مشاة المارينز لتأمين محيط حصن الصليب.

هل أولويّته تأمين مختبر معزول في براغ؟ لماذا؟

وما لبثت الفكرة الثانية أن خطرت بباله. فقبل ساعات، أخبره النقيب ياناتشك أنّ منظومة المراقبة في براغ لم تتمكّن من تأكيد وصول كاثرين إلى الحصن، والسبب الغريب أنّ المنطقة المُحيطة بمختبر غُسْنِر بدت خارج نطاق تغطية الكاميرات للمرة الأولى على الإطلاق.

نظام المراقبة في براغ ليس سوى شبكة إيشيلون... التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية. بدأت خيوط الشكّ تتشابك في ذهنه. أيعقل أن يكون مختبر غُسْنِر الخاص قابلاً فوق مُرتفع يُشرف مباشرةً على العتبة - المشروع السريّ الذي تعمل لصالحه - بمحض المصادفة؟

إلا إذا كانا مُترابطين بطريقة ما...

كان إخفاء مُنشأة استخباراتية تحت متنزّه عام أمرًا منطقيًا بالنسبة إلى لانغدون؛ إذ يُؤمن تموينها طبيعيًا، وسهولة وصول، وبنية تحتية جاهزة. مع ذلك، لم يقتنع بعد بأن يكون التصميم

مُشْتَمِلًا على مدخل واحد فقط... طريق واحد للدخول والخروج. فذلك يُعَدُّ فِخَا قَاتِلًا في حال وقوع حريق أو أي طارئ، ولا يتناسب مع وكالة مَبْنِيَّة على الحذر والتخطيط المُسَبَّق.

حتى الفاتيكان لديه مَمَرَات هروب سَرِّيَّة!

عندها، كشفت السفارة ناغل عن تفصيل غير مُتَوَقَّع؛ فالكيان الذي اشترى الحصن سَرًّا باسم غِسْنِر لم يكن سوى شركة كيو نفسها. وقد قَدَّمته للعالمية العصبِيَّة كجزء من عرض تجنيدها في وكالة الاستخبارات، مُستدرِجَةً إِيَّاهَا بِإِغْرَائِهَا بِإِدَارَةِ مَعْهَدِهَا مِنْ مَوْقِعٍ أَثَرِيٍّ فَرِيدٍ.

إِلَّا أَنَّ لَانْغِدُون خَمَّنَ السَّبَبَ الْحَقِيقِيَّ وَرَاءَ ذَلِكَ؛ إِذْ لَمْ يَكُنِ الْحَصْنُ مُجَرَّدَ مُحَفِّزٍ لَغِسْنِر... بَلْ كَانَ عِنَصْرًا أَكْثَرَ قِيَمَةً بِكَثِيرٍ.

كَانَ مَدْخَلًا آخَرَ إِلَى الْعَتَبَةِ.

في الواقع، كانت معظم الحصون الوسيطة تَضُمُّ سَمَةً مَعْمَارِيَّة تُعْرَفُ بِاسْمِ بَوْتِيرِن (Potern)، وهي كلمة لاتينية الأَصْلُ تعني "الباب الخلفي"، يُوَدِّي دور مَمَرٍ سَرِّيٍّ يُسْتَخْدَمُ لِلْهَرُوبِ فِي الْحَالَاتِ الطَارِئَةِ.

وقد أَخْبَرَهُمَا لَانْغِدُون أَنَّ الْحَصْنَ الْإِسْتَوِيَّ الْقَدِيمَ فِي تَالِين يَضُمُّ بَابًا سَرِّيًّا مَحْفُورًا عَلَى عَمَقٍ أَرْبَعَةَ طَوَابِقٍ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَيَمْتَدُّ لِأَكْثَرِ مِنْ مِيلٍ وَصَوْلًا إِلَى قُبُورٍ مُجَاوِرٍ. كَمَا يُشَاعُ أَنَّ قَلْعَةَ بَرْدَجَامَا فِي سَلُوفِينِيَا كَانَتْ تَحْوِي بَثْرًا رَأْسِيَّةً بَارْتِفَاعِ سِتَّةِ طَوَابِقٍ مُزَوَّدَةً بِبِكْرَةٍ بِدَائِيَّةٍ لِرَفْعِ الْمَوْنِ وَالْجُنُودِ.

لهَذَا السَّبَبِ، فَكَّرَ لَانْغِدُون فِي أَنَّ حَصْنَ الصَّلِيبِ أَيْضًا يَضُمُّ فِي الْأَرْجَحِ بَابًا سَرِّيًّا. وَبِالنَّظَرِ إِلَى أَعْمَالِ الْبِنَاءِ الْحَدِيثَةِ فِي مَنَزَرِهِ فُولِيمَانْكَا، وَالنَّطَاقِ الْوَاسِعِ لِمَشْرُوعِ الْعَتَبَةِ، فَقَدْ رَأَى أَنَّ مِنَ الْمُنْطَقِيِّ احْتِمَالُ وَجُودِ حَفْرَةٍ رَأْسِيَّةٍ تَحْتَ الْحَصْنِ.

وَفِي وَقْتٍ سَابِقٍ، فِي السَّيَارَةِ، أَظْهَرَ لَانْغِدُون بِسْرَعَةٍ لِكَاثَرِينَ وَنَاغِلَ عَلَى خَارِطَةِ أَنَّ الْبَابَ السَّرِّيَّ الْحَدِيثَ - سِوَا أَنْ كَانَ مَوْجُودًا سَابِقًا أَمْ تَمَّ حَفْرُهُ مُؤَخَّرًا بِوَسَاطَةِ أَطْقَمِ الْبِنَاءِ - لَا بَدَّ أَنْ يَهْبِطَ مَبَاشَرَةً إِلَى أَطْرَافِ مَنَزَرِهِ فُولِيمَانْكَا، وَقَدْ يَمْتَدُّ إِلَى جِدْرَانِ الْمَلْجَأِ الْحَالِيِّ.

فِي الْوَاقِعِ، كَانَ مَوْقِعُ الْحَصْنِ مِثَالِيًّا؛ فَمَخْتَبَرُ غِسْنِرِ مُنْعَزِلٍ وَبَعِيدٍ عَنِ الْأَنْظَارِ، وَهُوَ يُوفِّرُ بِذَلِكَ غَطَاءً تَامًا، قِصَّةً مَعْقُولَةً لِتَبْرِيرِ دُخُولِ أَوْ خُرُوجِ أَيِّ عَامِلٍ، بِحِجَّةِ أَنَّهُ يَعْمَلُ فِي مَعْهَدِ غِسْنِرِ لَا أَكْثَرَ.

أَمَلُ أَنْ أَكُونَ عَلَى صَوَابٍ، تَمَنَّى لَانْغِدُون ذَلِكَ فِي سِرِّهِ، وَهُوَ يَقُودُ كَاثَرِينَ نَحْوَ مَدْخَلِ الْحَصْنِ الَّذِي تَحَوَّلَ بَابُهُ الزَّجَاجِيُّ إِلَى حِطَامٍ.

أهذا مُختبر علمي؟

لم تُصدّق كاثرين سولومون عينيها وهي تتبع لانغدون عبر ردهة رخامية وردية فاخرة، تؤدّي إلى بهو واسع. علّقت في البهو أعمال فنية، وأُثّت بأرائك وثيرة، فيما امتدّت نوافذه من الأرض إلى السقف لتمنح إطلالة خلّابة على أفق براغ المُتألّي.

ربّما عليّ العمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية، فكّرت في ذلك وهي تلاحظ أنّ "قاعة الانتظار" في معهد غُسْنِر تتّسع لطاقم IONS بأكمله.

لكن على الرغم من الأجواء المُترّفة التي تسود المكان، شعرت كاثرين بجوٍّ ثقيل يُخَيِّم عليه. فلو صحت شكوك لانغدون، لم يكن هذا المعهد الفخم سوى واجهة تُخفي غاية أكثر ظلمة؛ مدخلاً سرّياً إلى منشأة العتبة.

تقدّم لانغدون بخطى ثابتة إلى أقصى القاعة، واتّجه مباشرة نحو مُجسّم جداريّ معدنيّ ضخم مُكوّن من كتل مُدمّجة معاً، ثمّ توقّف على بُعد بضعة بوصاتٍ منه. حقّاً، ما الذي يفعله؟

شاهدته باستغراب وهو يمسك بالمجسّم ويدفعه بقوة جانباً، فإذا به ينزلق بصمتٍ على الجدار كقطعة مُتحرّكة، ليكشف خلفه عن تجويفٍ واسع. وفي الضوء الخافت، رأت باب مصعدٍ.

تُرى، لماذا لم أفاجأ؟ فكّرت وهي تُسرّع نحو لانغدون، بينما كان يُمسك بالمُجسّم ليتيح لها المرور. لكنّها لاحظت أنّ نظره ثابتٌ على شيءٍ خلفها.

سألته وهي تلتفت إلى الخلف: "ما الأمر؟"

فأجابها وهو يُشير إلى شيءٍ خلفها: "تلك الأريكة هناك... إنّها مائلة قليلاً."

نظرت كاثرين إلى الأريكة الطويلة البيضاء المائل طرفها بعيداً عن الجدار وقالت بسخرية: "أحقّاً يا روبرت؟"

قال بثقة: "كانت مُستقيمة هذا الصباح عندما جلستُ عليها. لا أدري إن كنتُ لم ألاحظ ذلك، أم إنّ أحدهم حرّكها، أو..."

قاطعته مازحة: "أو أنّك نسييت تناول أدوية الوسواس القهري؟"

التفت إليها، ثمّ قال: "آسف، الذاكرة التصويرية مُزعجة أحياناً."

فابتسمت قائلة: "على ما يبدو. إذًا، هل نُعيد التوازن إلى طاقة المكان، أم نحاول إنقاذ حياتنا؟"

قال: "أنت مُحقّقة". ثمّ قادها إلى التجويف المُعتمٍ ذي الإضاءة الخافتة.

في الداخل، لاحظت كاثرين لوحة مفاتيح مُضيئة تعمل باللمس إلى جوار باب المصعد.

قال لانغدون: "هذه اللوحة مُخصَّصة لبريغيتا دون سِواها، وكانت تستخدمها للوصول إلى مختبرها الخاص تحتنا بطابق واحد".

سألته: "لكِنَّكَ تظن أن ثَمَّة مدخلًا آخر إلى منشأة العتبة هنا؟"

قال بثقة: "أجل، وأعتقد أنه أمامنا مباشرة"، وأشار إلى المصعد. "إن صحَّ ظني، فإنَّ بئر هذا المصعد تمتدَّ إلى عمق أكبر بكثير. لكنَّ النزول إلى العتبة يتطلَّب بطاقة دخول إلكترونيَّة، كذلك التي رأيناها في حقيبة غِسنِر".
وأشار إلى قطعة من الزجاج دائريَّة سوداء فوق لوحة المفاتيح؛ لم تكن كاثرين قد لاحظتها من قبل.

قارئ بطاقات RFID.

قال: "لاحظتُ القارئ هذا الصباح، لكنني لم أفهم الغاية منه إلَّا في مقرِّ السفارة. إذ تبيَّن لي سبب وجود طريقتين للتصريح باستخدام المصعد نفسه. وإن كنتُ مُحقِّقًا، فكلُّ ما نحتاج إليه هو البطاقة المحفوظة في حقيبتها، وقد رأيتها سابقًا في المُختبر في الأسفل".
كان لانغدون قد بدأ بالفعل بإدخال الشيفرة السريَّة.
فقال كاثرين: "إذًا، نجحتَ حقًّا في حلِّها؟ تحيَّة عربيَّة لإغريقيِّ قديم... مع رقصة لاتينية؟"

أجاب مُبتسمًا: "بل انحناءة لاتينية. لم تكوني بكامل وعيك تلك الليلة".
أصدر المصعد أزيزًا خافتًا وهو يبدأ بالتحرك، فيما قالت كاثرين في سرِّها: عبقرِيّ، سيشرحها لي لاحقًا.

استغرق وصول المصعد وقتًا أطول من المُتوقَّع، وعندما فُتِح الباب، لاحظت أنَّ المقصورة كبيرة على نحوٍ غير مألوف لاستخدام غِسنِر الشخصي.
ربَّما أُعِدَّت لنقل العمَّال والمعدات أيضًا.
بدا تفكير لانغدون منطقيًّا حتَّى الآن.

هبطًا طابقًا واحدًا، وعندما فُتِح الباب، وجدت كاثرين نفسها أمام ممَرٍّ طويل ذي جدرانٍ صخريَّة وأرضٍ مصقولة مُضاءة بمصابيح حديثة، في مزيجٍ غريب بين القديم والعصريِّ.

وبينما كانا يُغادران المصعد، أشار لانغدون إلى قارئٍ آخر للبطاقات على الحائط، فهزَّت برأسها، وواصلت السير. لم تكن كاثرين مُتحمِّسة لرؤية المشهد المُروِّع الذي وصفه لها لانغدون بالتفصيل، لكنَّها شعرت بثقةٍ مُتزايدة بصحَّة فرضيته. وفي هذه الحالة، تكون الخطة بسيطة: حين يحصلان على بطاقة غِسنِر، سيتمكَّنان من النزول إلى العتبة.

تابعا السير في الرواق، فمرّا بمكتبٍ صغير لغُسْنِرٍ وساشا، ومن ثمّ بمختبر تصوير بالرنين المغناطيسي، وبابٍ يحمل أيقونة شخصٍ يضع نظارة الواقع الافتراضيّ. مختبر الواقع الافتراضيّ، تذكّرت كاثرين أنّ غُسْنِرٍ تحدّثت عن الواقع الافتراضيّ في أثناء العشاء في الليلة الماضية. ومع أنّها لم تُعر الأمر اهتمامًا آنذاك، إلّا أنّها الآن - بعد حديثهما عن صرع ساشا، وتجارب الوعي المغايرة - بدأت تتساءل عمّا إذا كان الواقع الافتراضيّ يُستخدم هنا بطريقة فريدة؛ لمحاكاة تلك التجربة بطريقة اصطناعية... قال لانغدون بصوت مُتهدّج: "حقيبة بريغيتا... في الغرفة في آخر الممرّ. ومعها... جثّتها".

نظرت كاثرين إلى لانغدون، فوجدت أنّ وجهه شحب فجأة. فسألته بقلق: "هل أنت بخير؟"

أوماً بجديّة وقال: "نعم... فقط أفضل ألا أرى جثّتها مجدّدًا. فهذا الصباح، عندما رأيته للمرة الأولى، ظننتها أنت".

أحاطت كاثرين خصره بذراعها وهما يسيران معًا، وقد استعادت لحظات خوفها عليه حين ظنّت أنّه غرق. كانت كاثرين قد رأت الموت كثيرًا في أبحاثها، لكنّه كان دائمًا مُسالمًا، ومُتوقّعًا، ومُجرّدًا من العاطفة. أمّا هذا فمُختلف تمامًا؛ إذ كان عنيفًا ومُفزعًا. قالت بصوتٍ خافت: "أحاول دائمًا أن أتعامل مع الجثّة على أنّها قوقعة فارغة، لم يعد صاحبها فيها... دمية بلا حياة".

قال لانغدون بنبرةٍ مشوبة بالرهبة: "شكرًا، سأحاول أن أبنّي هذا المنظور". تابعت: "لو فكّرت في الأمر، فستجد أنّنا - كجنسٍ بشريّ - غير منطقيّين إطلاقًا تجاه الجثث. فحتّى بعد أن تُفارق الروح الجسد، نُحتطّه ونُلبسه الثياب ونضعه في قبر فخم، ثم نعود لزيارته دوريًّا! حتّى إنّ بعضنا يشتري توابيت مُبطّنة فاخرة، وكأنّ الجثّة ستحتاج إلى الراحة!" مكتبة سرّ من قرأ

ابتسم لانغدون ابتسامةً واهنة وقال: "ربّما كان هذا التقليد في الحقيقة يُريح الأحياء أكثر من الأموات".

أومأت كاثرين قائلة: "صحيح. لكنّ تجارب الموت الوشيك تشير بوضوح إلى أنّ الشّخص الذي يموت، يترك جسده المريض أو العجوز بلا أسف. وتتفق شهادات أولئك الأشخاص على أنّ المُتوفين لا يهتمّون بأجسادهم بعد الرحيل أكثر ممّا يهتمّون بالسيّارات القديمة التي كانوا يقودونها؛ أي لا يكثرثون لها البتّة".

فَكَرَّ لَانْغِدُون فِي سِرِّهِ: أَنَا أَحَبُّ امْرَأَةٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَشْرَحَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ عِبْرَ تَشْبِيهِ
الْجَسَدِ بِسَيَّارَةٍ. وَصَلَا أُخِيرًا إِلَى غُرْفَةِ الْعَمَلِ الْمُزْدَحِمَةِ الَّتِي عَثَرَ فِيهَا عَلَى جَنَّةٍ بَرِيغِيْتَا غَسْنِرِ
دَاخِلِ كِبْسُولَةِ EPR هَذَا الصَّبَاحِ.

قَالَ عَلَى أَمَلٍ أَنْ يُجَنِّبَهَا رُؤْيَا الْمَنْظَرِ الْقَاسِي: "رَبَّمَا مِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ تَنْتَظِرْنِي هُنَا،
سَأَعُودُ حَالًا".

هَكَذَا، تَرَكَ كَاثَرِينَ عِنْدَ الْبَابِ، وَسَارَعَ إِلَى الدَّخْلِ. حَاوَلَ أَنْ يَتَجَنَّبَ النَّظَرَ إِلَى
الْكِبْسُولَةِ، مُتَّجِّهًا مُبَاشَرَةً إِلَى الطَّائِلَةِ فِي آخِرِ الْغُرْفَةِ.

كَانَتْ حَقِيقَةُ غَسْنِرِ الْجِلْدِيَّةِ مَوْضُوعَةً فِي مَكَانِهَا تَمَامًا. وَكَانَ يَتَوَقَّعُ أَنْ تَكُونَ مُقْفَلَةً
وَتَحْتَاجُ إِلَى كَسْرٍ، لَكِنَّ مَا رَأَاهُ أَصَابَهُ بِالْدهْشَةِ.
كَانَتْ أَقْفَالُ الْحَقِيقَةِ مَخْلُوعَةٌ وَمُحْطَمَةٌ.

يَا إِلَهِي!

أَمْسَكَ لَانْغِدُونِ الْحَقِيقَةَ، وَفَتَحَ غَطَاءَهَا بِسُرْعَةٍ، فَوَجَدَ جَمِيعَ أَغْرَاضِ اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ فِي
مَكَانِهَا: الْمُسْتَنْدَاتِ وَالْمُجَلَّدَاتِ وَالْهَاتِفِ وَالْأَقْلَامِ. كُلُّ شَيْءٍ يَبْدُو سَلِيمًا... بِاسْتِثْنَاءِ الْعَنْصَرِ
الْوَحِيدِ الَّذِي يَحْتَاجُ أَنْ يَلِيَهُ. فَقَدْ اخْتَفَتِ بَطَّاقَةُ الدِّخُولِ الْإِلِكْتُرُونِيَّةِ RFID مِنَ الْجَيْبِ
الْوَاقِي. عِنْدئِذٍ، تَمَلَّكَ الذِّعْرَ، فَأَدْخَلَ إصْبَعَهُ فِي الْجَيْبِ، أَمَلًا أَنْ تَكُونَ الْبَطَّاقَةُ قَدْ انْزَلَقَتْ إِلَى
الْأَسْفَلِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا. فَأَفْرَغَ مَحْتَوِيَّاتِ الْحَقِيقَةِ كُلَّهَا وَفَتَّشَهَا مَرَّتَيْنِ، إِلَى أَنْ أَدْرَكَ
الْحَقِيقَةَ الْمَرَّةَ.

لَقَدْ قَفِذَتْ وَسَيْلَتُنَا الْوَحِيدَةَ لِدُخُولِ الْعَتَبَةِ.

قَالَتْ كَاثَرِينَ بِصَوْتٍ خَافٍ مِنْ خَلْفِهِ: "لَا يَهْمُ، كَانَتْ عَدِيمَةُ الْفَائِدَةِ أَصْلًا".
اسْتَدَارَ إِلَيْهَا بِدهْشَةٍ، فَرَأَى أَنَّهَا دَخَلَتْ الْغُرْفَةَ، وَرَكَعَتْ بِجَانِبِ الْكِبْسُولَةِ، وَرَاحَتْ
تَحَدِّقُ إِلَى جِثْمَانِ غَسْنِرِ.

قَالَتْ وَهِيَ تَنْتَظِرُ إِلَيْهِ: "بَطَّاقَةُ بَرِيغِيْتَا لَمْ تَكُنْ لَتَعْمَلُ... فَهِيَ يَوْمِيَّةٌ".

قَالَ وَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنْهَا: "مَاذَا تَعْنِينَ؟"

أَجَابَتْ: "لَنْ تَعْمَلَ الْبَطَّاقَةُ مَا لَمْ تَتَعَرَّفْ إِلَى بَصْمَةِ إصْبَعِهَا".

"وَكَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ؟"

أَشَارَتْ إِلَى شَيْءٍ عَلَى الْأَرْضِ بِجَانِبِ الْكِبْسُولَةِ، كَمَاشَةٍ حَدِيدِيَّةٍ مُلَطَّخَةٌ بِالدَّمِ، ثُمَّ
قَالَتْ: "لَأنَّ مِنْ أَخَذَ بَطَّاقَةَ بَرِيغِيْتَا... أَخَذَ إصْبَعِهَا أَيْضًا".

الفصل 92

وقفت السفيرة في مكتبها، تحدّث إلى الملاحظة التي عُثِر عليها على جثمان مايكل هاريس.

إلى: السفيرة الأميركية هايدة ناغل
سرّي وشخصي

كانت الرسالة مكتوبة بخط اليد، من دون توقيع، ولم تتضمن سوى سطرَيْن اثْنَيْن. قرأتها ناغل مرارًا، وهي تحاول استيعاب ما جاء فيها. فقد توقّعت أن تكون رسالة القاتل مُحيفة، وأن تتضمن تهديدًا من نوع ما؛ حتّى إنّها استعدّت نفسيًّا لذلك. غير أنّها فوجئت بإيجازها وغرابة نبرتها، إذ بدت مُهذّبة تقريبًا.

أرجوك، ساعدي ساشا.

<https://youtu.be/pnAFQtzAwMM>

أهذا كلّ شيء؟ يريد منّي أن أساعد ساشا؟

بَحيرة مُتزايدة، مدّت يدها إلى لوحة المفاتيح، وبدأت تطبع الرابط الإلكتروني الذي تضمّنته الرسالة. ولو أنّ المَلَفَ أُرسل عبر ذاكرة USB أو كمرفق في بريد إلكترونيّ، لما فتحته على حاسوب السفارة إطلاقًا، لكنّ الرابط العلنيّ بدا آمنًا بما فيه الكفاية. عندما فُتِح مقطع الفيديو على منصّة يوتيوب، رأت السفيرة ما بدا أنّه تسجيل هاوٍ. فقد صُوِّر المَقطع بهاتفٍ محمولٍ موضوع إلى جانب صندوق طويل مُنخفض يشبه تلك التوابيت الصّلبة التي يستخدمها الجيش لنقل الجثامين إلى الوطن. غير أنّ المرأة المُمدّدة في هذا الصندوق كانت حيّة تُررّق، تتخبّط مُحاولَة التخلّص من الأشرطة اللاصقة التي تُكبّلها. كانت قصيرة القامة، ترتدي ملابس أنيقة، ذات بشرة شاحبة وشعرٍ أسودٍ مشدود إلى الخلف.

يا إلهي! إنّها الدكتورة بريغيتا غِسْنِر! انكمشت السفيرة على نفسها مذعورة، وهي تتذكّر رواية لانغدون لطريقة عثوره على جثّة غِسْنِر. هل أنا على وشك أن أشهد لحظاتها الأخيرة؟ أهو فيلم قتل حقيقيّ؟

جاءها الجواب بعد لحظات، حين ظهر المُهاجم في إطار الكاميرا. كان الشخص ذو القلنسوة مُلتحفًا بالسواد، وعندما ظهر وجهه، تراجعت ناغل فعليًّا مُبتعدة عن الشاشة. فقد كان وجهه مُعطى بطبقة سميكة من الطين. وعلى جبهته نُقشت ثلاثة أحرف.

كانت ناغل على دراية تامة بتاريخ براغ، ولم يكن لديها أدنى شك في ماهية ما تراه. أهو مُتَنَكِّر في هيئة الغوليم؟ تزايد رعبها وهي تتابع المقطع؛ استجوابٌ وحشي، تخلّله غرز أنابيب وريديّة وعملية طيبة لم تر لها مثيلاً من قبل. كان الألم الذي تعرّضت له الضحية مُروّعا، أمّا المعلومات التي كشفت عنها تحت وطأة التعذيب - اعتراف غَسِير المُفَصَّل - فقد زلزلت كيان السفارة.

وحين بلغ الفيديو نهايته الدامية، أغمضت ناغل عينيها. راحت تتنفس بعمق، مُحاولَةً استيعاب ما سمعته ورأته. كانت تفاصيل اعتراف غَسِير غامضة في بعض جوانبها، لكن شيئا واحداً بدا جليلاً ومُخيفاً. فالمشروع السريّ الذي ساهمت السفارة - على نحو أعمى - في تسهيله، أصبح الآن مُهدّداً بالانكشاف، والعواقب ستكون كارثية. أمّا ما سمعته عن هذا البرنامج فقد أصابها بالغثيان، ولا يمكنها أن تتخيل ما سيكون ردّ فعل العالم عليه. بيد مُرتجفة، أمسكت بهاتفها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لقد حان الوقت لإجراء مكالمة شديدة الخطورة.
مكالمة كان ينبغي لي أن أجريها منذ سنين خلت.

* * *

في مكانٍ غارقٍ في عتمة لا مُتناهية، كانت ساشا فيسنا تسبح في الفراغ، وتحاول أن تستعيد وعيها. بدا لها هذا العالم غريباً تماماً.
أين أنا؟

لم يكن الإحساس بالتيه جديداً على ساشا، غير أنّ تلك الحالات كانت مغمورة دائماً بظلمة دامسة. لا ضوء، ولا ظلال، ولا أيّ مُحفِّز بصريّ.

لكنني أرى ضوءاً...

ضوءاً خافتاً، بعيداً.

تري، من أحضرني إلى هنا؟

في حالتها تلك، لم تستطع أن تتذكّر كيف وصلت إلى هذا المكان. شعرت أنّها مُستَلْقِيّة على ظهرها، وحاولت أن تنهض، لكنّ وزناً هائلاً كان يضغط عليها ويمنعها من الحركة.
هل أنا مُقَيِّدة؟ أم مَسْلولة؟

راحت تتخبط في محاولة يائسة لفهم وضعها... لكنّ الجهد الذي تبذله استنزف طاقتها، وبدأ الضوء يخبو تدريجياً. شعرت بتيار خفيّ يتموّج تحتها، ويجرف العالم المادّي الذي يكبلها. فجأة، وبقوة ساحقة، ارتفع المدّ فوقها كموجة هائلة، وأغرقها مُجدداً في ظلام دامس.

الفصل 93

في أعماق مُنشأة العتبة، شعر الغولِم وكأنّه شبح.
كان جسده لا يزال في حالة صدمة، حرفيًا.

فقبل دقائق فحسب، عندما بلغ الغرفة الأعمق في هذا المرفق تحت الأرض، اجتاحتها عاصفة من الانفعال. وسرعان ما أحسّ بوخز مألوف في صدغه؛ كان الأثير يتجمّع... ويقترب سريعًا... مُهدّدًا بابتلاعه بالكامل. تلقائيًا، أدخل يده في جيب عباءته ليُخرج عصاه المعدنية. إلّا أنّه أدرك - في لحظة دُعر - أنّ العصا لم تعد معه. فأفرغ جيوبه على الأرض، مُفتّشًا بين الأغراض المُتناثرة بعصبية.

اختفت العصا... فقدتها في أثناء صراعي مع المرأة في الطابق العلوي.

كان الغولِم يعلم أنّه لم يعد الآن قادرًا على السيطرة على حالته، ولا يملك إلّا الاستسلام للنوبة القادمة. هكذا، حاول أن يستعدّ قدر الإمكان، فاتخذ احتياطاته على عجل، وبحث عن مكان آمن يتمدّد فيه لئلا يسقط أرضًا.
وحين اجتاحتها التشنّجات، كانت عنيفة، وأفقده وعيه تمامًا.

* * *

عندما استعاد الغولِم وعيه، لم يكن مُتأكّدًا من مقدار الوقت الذي انقضى، واحتاج إلى عدّة دقائق ليتمكّن من استعادة توازنه.

أخيرًا، استجمع قواه ونهض واقفًا، وعاد يتأمّل المكان المُذهل الذي يحيط به. فهندسة مُنشأة هذه الضخامة في سرّيّة تامّة بدت له شبه مُستحيلة... غير أنّه بات الآن يعرف من يقف وراء كلّ ذلك.

إنّهم يتمتّعون بنفوذ هائل، وموارد لا تنفد.

حاول الغولِم طرد الغشاوة التي أعقبت النوبة، وعاد إلى المكان الذي أفرغ فيه جيوبه بحثًا عن العصا. فجثا على ركبتيه، وجمع أغراضه واحدًا تلو الآخر، وأعادها إلى جيبيه: صاعق Vipertek، وصندوق بلاستيكيّ صغير أخذه عن منضدة قريبة، كان يحتوي في الأصل على براغيّ وحلقات تثبيت معدنية، لكنّه يحتوي الآن على بطاقة RFID السوداء الخاصّة بغُسَير... وإبهامها المبتورة.
وسيلتي لاختراق العتبة.

وكما توقع، فعَلَّت بصمة إبهامها البطاقة ما إن ضغط إحداهما على الأخرى.
وأدخلتاني إلى أعمق أروقة المنشأة.

كانت غُشِير قد اعترفت بوجود هذه الغرفة، لكنّ رؤيتها بأَمّ العين الآن أذكت عزمه على تدميرها. فتقدّم بتصميم نحو أعمق أجزاء القاعة، واجتاز باباً زجاجياً، إلى أن وجد ما كان يبحث عنه؛ تجويفاً صغيراً تحجبه بوابة أمان معدنيّة.
خلف البوابة، امتدّت منصّة معدنيّة، كُتِبَت عليها بالطلاء كلمات واضحة:

الأنظمة / المرافق

خطا الغولم فوق المنصّة المعدنيّة، وبمقدّمة حذائه، ضغط زرّاً أحمر كبيراً في الأرض، فسمِع صوت صفير خافت ناتج عن انبعاث هواء من مكان ما تحته، وبدأت المنصّة تهبط ببطء، وتنقله عبر فتحة في الأرض.

كان الهبوط قصيراً، لا يتجاوز اثنتي عشرة قدماً.
وحين توقفت المنصّة، أُضيئت مصابيح الفلورسنت في سقف مُنخفض، كاشفة عن ممرّ ضيق يمتد في اتجاه مُعاكس لذلك الذي أتى منه، تحت قلب المنشأة مباشرة.

تقدّم الغولم في النفق الخرسانيّ المُزدحم، مارّاً بخزائن ميكانيكيّة تحتوي على مُولّدات ومُضخّات ووحدات لمعالجة الهواء ولوحات تحكّم، بالإضافة إلى شبكاتٍ من الأنابيب النحاسيّة والمجاري والأسلاك المعزولة. كانت جميعها تعمل بتناغمٍ مثل منظومة حيّة، تنبض وتنفس.

على الرغم من عدم وجود أيّ موظّفين في المكان، إلّا أنّ قلب هذه المنشأة كان ينبض بالحياة.

لكن ليس لوقتٍ طويل، قال ذلك في سرّه، وهو يمضي قدماً نحو وجهته الأخيرة.

الفصل 94

وقفت كاثرين فوق كبسولة EPR، ونظرت إلى كتلة العظم المُلطّخة بالدماء في الموضع الذي بُترت فيه إبهام بريغيتا اليمنى، مباشرة تحت المفصل. لهنيهة، تبخّرت كلّ أفكار اقتحام العتبة... وحلّت محلّها فظاعة المشهد أمامها.

أوه، بريغيتا... أنا آسفة جدًا.

كان هول بتر الإبهام لا يكاد يُذكر في ظلّ الخلفيّة الكثيرة للمشهد المُحيط. فداخل الكبسولة، بدا وجه العالمّة مُتشنّجًا من الألم، وعيناها شاخصتَيْن، وشفتاها مشدودتَيْن في تعبير ينم عن الألم الذي شعرت به. كما كان جلدها شاحبًا تمامًا، ومِعصماها وكاحلاها مُتقرّحة نتيجة مُحاولتها الجاهدة للتخلّص من الأشرطة اللاصقة، فيما غُرزت الأنابيب الوريدية في ساعديها بطريقة بدائيّة. لا، بل إنّ أحد الأنابيب انفجر داخل اللحم، وجعل ساعدها يصطبغ ببقعة من الدماء المُتجمّدة، التي تحوّل لونها إلى قرمزيّ قاتم.

فكرت كاثرين في سرّها: قسورة وريدية طرفية؟ لا عجب أن تفشل.

كانت غُسْنِر قد وصفت هذا النموذج الأولي لجهاز EPR بأنه "آلة تحويل مُعدّلة" تستبدل بالدم محاليل فائقة التبريد لإبطاء عمليّة الموت. ومثل هذا التحويل يتطلّب - على أقلّ تقدير - قسورتين فخذيتَيْن.

بالتأكيد، هذه ليست الطريقة المناسبة لتوصيل جهاز أكسجة غشائية خارج الجسم

ECMO.

بعد أن تفحصت كاثرين النظام، استنتجت أنّ من نقد ذلك إما أنّه لا يتمتّع بالكفاءة اللازمة إطلاقًا، أو أنّه كان يعلم أنّ هذه العمليّة ستودي بحياتها، وتعتمد ضخّ المحلول الملحيّ البارد في شرايينها ببطء إمعانًا في تعذيبها. فارتعدت وهي تتخيّل العذاب الذي كابده غُسْنِر إن لم تكن قد خضعت للتخدير المُسبق. ناهيك عن أنّ هذه الآلة بدت أقرب إلى نموذج أولي... وليست جاهزة حتمًا لاختبارها على البشر.

حين وصل لانغدون إلى جانبها، فوجئت برؤية هاتف ذكيّ في يده، فسألته: "هل هذا هاتف بريغيتا؟"

أوماً قائلًا: "لا يزال يعمل، لكنّ البطارية أوشكت على النفاد. الرمز الذي تستخدمه للمصعد لم يفتحه، لكن... " انحنى إلى جانب الكبسولة وهو يحمل الهاتف فوق وجه غُسْنِر: "أسألك إن كانت خاصيّة التعرّف إلى الوجه تُميّز بين الحيّ و—"

في تلك اللحظة، صدرت رتّة عن الهاتف، فاعتدل لانغدون، وبدأ يتصفّح الهاتف بسرعة.

سألته كاثرين: "مهلاً، ماذا تفعل؟"
أجاب بهدوء: "علينا إبلاغ السفارة بأننا فشلنا. فخطّتي لدخول العتبة كانت تعتمد على تلك البطاقة—"

هتفت كاثرين وهي تمدّ يدها إليه: "أعطني الهاتف! فقد خطرت لي فكرة..."

* * *

راقب لانغدون كاثرين وهي تتصفّح جهاز غِشّير بسرعة. عمّ تراها تبحث؟
تمتّت بصوت مُنخفِض وهي تتصفّح الشاشة: "بريغيتا ذكيّة... وعملية. لا بدّ أنّ تكون هنا!"

"عمّ تتحدّثين؟"

"عن نسخة NFC..."

"لم أفهم—"

ردّت كاثرين من دون أن ترفع نظرها عن الشاشة: "الاتّصال قريب المدى. إنّهُ التقنيّة التي تتيح لك تمرير الهاتف أو الساعة أمام قارئ RFID للتفاعل غير التلامسيّ Apple Pay، أبواب الفنادق، بطاقات الطيران..."

واصلت التصفّح، مُضيفّة: "اليوم، يلجأ كثير من الناس إلى الاحتفاظ بنسخ رقميّة عن بطاقاتهم في المحفظة الإلكترونيّة؛ لأنّ حمل الهاتف أسهل من حمل كلّ البطاقات."
إنّها فكرة وجيهة، لكنّ لانغدون شكّ في أن تعثر على ما تبحث عنه. "أنتِ لا تظنّين حقّاً أنّ بريغيتا حملت نسخة من بطاقة دخول العتبة على هاتفها، أليس كذلك؟ أعني... هذا ينطوي على مُجازفة أمنيّة هائلة."

قالت كاثرين من دون أن ترفع نظرها عن الشاشة: "بل على العكس، فالنسخ الرقميّة أكثر أماناً من البطاقات الماديّة؛ لأنّ عملية التفاعل مُشفّرة، وبإستطاعة المُستخدِم برمجة تحقّق بيوم تريّ مُتعدّد العوامل؛ كالتعرّف إلى الوجه أو بصمة الإصبع أو قرحة العين أو أيّ وسيلة أخرى، إلى جانب رمز سريّ. وهذا ما يمنح في الواقع حماية أكبر بكثير من البطاقة البيومترية نفسها. والأفضل من ذلك أنّ لا أحد يراك تُخرج بطاقتك من الحقيبة في كلّ مرّة تعبر فيها باباً."

إنّها وجهة نظر مثيرة للاهتمام.

رأى لانغدون في كلامها بصيص أمل، لكنّ هذا الأمل خبا تدريجياً كلّما واصلت تصفّح الشاشة، وبدت علامات الإحباط على وجهها.

قالت عابسة: "لا أدري، فمحفظتها الإلكترونية مليئة بالبطاقات، لكن لا شيء يبدو مُفيداً. أرى بطاقات ائتمان... وبطاقة خصم... ونقاط مكافآت... وهوية... وبطاقة دخول مرأب... وبطاقة نقل عام... ونادٍ صحيّ... وتأمين... وعضوية طيران—" قاطعها لانغدون: "نادٍ صحيّ".

نظرت إليه كاثرين باستغراب.

قال بالحاح: "أتذكرين الليلة الماضية؟ حين سألتُ بريغيتا عن البطاقة السوداء التي تحمل شعار رمح فيل؟ أجابت أنّها بطاقة نادٍ صحيّ. بدا الأمر كذبة... لكن ربما كانت تُخفي الغاية الحقيقيّة من البطاقة بهذه الطريقة!"

عادت كاثرين إلى الشاشة، ونقرت على تلك الخانة. وبعد لحظاتٍ، ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيّها، وقالت وهي تمدّ الهاتف إليه: "قد يبدو لك هذا مألوفاً".



كانت الصورة واضحة لا لبس فيها.

اجتاح لانغدون شعوراً بالحماسة، لكنّه ما لبث أن تبدّد بعد قراءة النصّ الظاهر تحت البطاقة.

مَطْلُوب تحقّق ثلاثيّ العوامل

رمز سرّي

قال: "الرمز السريّ الوحيد الذي أعرفه هو رمز مصعدها، لكنّه لم يفلح في فتح الهاتف".

حتّته كاثرين قائلة: "لكنّه قد يُفلح هنا. فهذه البطاقة تمنح الوصول إلى العتبة- تماماً مثل المصعد- ومن المنطقيّ أن تستخدم غِسنِر كلمة السرّ نفسها".

وافقها لانغدون قائلاً في سرّه: غِسنِر عنوان الكفاءة. وراح يطبع الرمز.

فأطلق الهاتف رنة مَرِحَة، وتقدّم إلى الشاشة التالية.
قال لانغدون بانبهار: "أحسنّت!" وكانت المُصادقة الثانية أبسط بكثير.

التعرّف إلى الوجه

من جديد، وضع لانغدون الهاتف أمام وجه بريغيتا، فرنّ الجهاز، وظهرت الشاشة النهائية.

مسح بصمة الإصبع

ألقي لانغدون نظرة على يد بريغيتا المُشوّهة وتردّد. فتدخّلت كاثرين، وأخذت الهاتف منه برفق، وبلا مبالاة ظاهرة تجاه لمس الجثة، وضعت سبّابة غِسنِر على الهاتف.
حين رنّ الهاتف للمرة الثالثة والأخيرة، افترض لانغدون أنّه بات بإمكانهما استخدامه ليستقلّا المصعد إلى العتبة، إلّا أنّ كاثرين لم تكن تبتسم وهي تتأمّل الشاشة.
تهتدت قائلة: "خبر سيّئ، فثمة ميزة أمان إضافية"، ورفعت الهاتف مُتابعة: "التحقّق صالح لعشر ثوانٍ فقط".

على الشاشة، شاهد لانغدون ساعة تنازليّة تتراجع نحو الصفر. وما لبثت أن تعطلّت البطاقة، وعاد الهاتف إلى شاشة الرمز الأولى، مُطالِبًا بإجراء عملية التوثيق الثلاثيّة بأكملها من جديد.
تبّأ.

قالت كاثرين: "أيضًا، البطاريّة على وشك النفاد في أيّ لحظة".
فكر يا روبرت. لم يكن قد رأى شاحنًا في حقيبة غِسنِر، فساوره إحساس مُتعاضٍم بالذنب لإقناعه كاثرين والسفيرة بالمُجازفة بكلّ شيء لتطبيق خطته.
لهنيهة، تخيّل أن ينتزعا الأنايبب الوريديّة من ذراعي غِسنِر، ويحمّلا جثّتها خارج الكبسولة، وينقلّاها إلى المصعد. لكنّ الوقت لا يسمح بذلك. كما أنّ نقل جثة من مكانها، والعبث أكثر بمسرح الجريمة سيتسبّبان في توريطهما أكثر.

"علينا إيجاد طريقة لدخول العتبة يا روبرت... فقد بتنا قريبين جدًّا!"
كلامها - بطبيعة الحال - كان مجازيًّا... ومع ذلك، انتبّه لانغدون إلى المعنى الحرفي فجأة. بتنا قريبين جدًّا.

تُرى، إلى أيّ مدى؟ تساءل في سرّه عن ذلك، مُتخيّلًا ردهة الممر الطويلة خارج هذه الغرفة... والمصعد، وقارئ RFID عند الطرف الآخر. عشر ثوانٍ فقط؟
سجّل العداء العالميّ أُسين بولت رقمه القياسيّ باجتياز مئة متر خلال 9.58 ثوانٍ.

لا بدّ أن يكون الممرّ أقصر من نصف تلك المسافة... أربعون ياردة في الأكثر.
نظرت إليه كاثرين وهي تهزّ رأسها بخيرة، فأخبرها لانغدون عن خطّته فوراً.
قالت مُتحدّية: "عدو سريع؟ لا أرى—"
"عشر ثوانٍ مدّة أطول ممّا تبدو عليه".

"أعرف أنّك تجري كثيرًا يا روبرت، لكن ليس بحذاء رسمي على أرضيّة خشبيّة مصقولة".

"الأمر يستحقّ المُحاولة؛ أظنّ أنّي أستطيع الوصول".

تفحّصت كاثرين بطارية الهاتف، واتّسعت عيناها. "إذا، من الأفضل أن تنجح من المحاولة الأولى".

باشرت فوراً بتطبيق خطوات التوثيق الثلاث، بينما وقف لانغدون بجانبها، يمدّ يده لاستلام الهاتف حال انتهائها؛ كعداء يستعدّ لاستلام العصا في سباق. وعندما رنّ الهاتف للمرة الثالثة، وضعت كاثرين بسرعة في راحة يده، فانطلق فوراً عبر الغرفة وهو يُمسك الهاتف بإحكام. وعند وصوله إلى الباب، أمسك بالإطار وانعطف بسرعة حول الزاوية، لينطلق بأقصى سرعته في الممرّ، مُحافظاً على توازنه بصعوبة بسبب انزلاق حذاءه الرسمي على الخشب الأملس.

مرّ لانغدون بسرعة خاطفة من أمام المرحاض، ومُختبّر الواقع الافتراضيّ، ومُختبّر التصوير، ومن ثمّ المكاتب، إلى أن رأى الدائرة السوداء لقارئ RFID على الجدار بجانب المصعد.

عشرون ياردة بعد...

أسرع!

حين اقترب من المصعد مدّ الهاتف أمامه... ورأى على الشاشة العدّ التنازليّ.

ثلاثة... اثنان...

لن أصل في الوقت المناسب.

* * *

انعطفت كاثرين إلى الممرّ في اللحظة نفسها التي ارتطم فيها لانغدون بكامل سرعته بباب المصعد، مُصوّباً الهاتف نحو قارئ البطاقة. أخيراً، انحنى يلهث، وأسند يديّه إلى ركبتيّه ليلتقط أنفاسه.

لم يصل في الوقت المناسب...

لكن بينما كانت تسير نحوه، تحوّلت هيئته المُنحنيّة فجأة إلى ظلّ مُضاء، إذ انفتح باب المِصعد، وسطع الضوء من داخله.

نادته وهي تجري نحوه: "لقد نجحت!"

أمسك لانغدون بالباب المَفْتُوح، وهو لا يزال يلهث، فيما قالت بإعجاب: "أحسنّت، أيها البروفيسور، لقد أبهرتني".

"يسرّني أنّ المحاولة قد نجحت... فالمحاولة الثانية ستكون مستحيلة".

سألته: "هل نفدت بطارية الهاتف؟"

قال: "لا... بل نفدت أنفاسي".

ابتسمت كاثرين، وقبّلتها على خدّه وهما يدخلان المِصعد معًا. حين أُغلق الباب، خيّم الصمت طويلاً، من دون أن يحدث شيء.

فجأة، أحسّت كاثرين بذلك الشعور... تلك الخفّة العابرة في جسدها المادّي.

كانا يهبطان.

الفصل 95

في زاوية رطبة من قبو المنزل، كان مدير وكالة الاستخبارات، غريغوري جاد، يتصبّب عرقاً. لم تتبقّ سوى ست دقائق على نهاية تمرينه الصباحي على دراجة Airdyne الثابتة التي يملكها منذ أيامه الأولى كعضوٍ في مجلس الشيوخ. كانت زوجته، موفي، قد وضعت دراجة Peloton جديدة في الغرفة الزجاجيّة المُشمّسة من أجله، لكنّه كان يُفضّل الظلمة والوحدة. فقد كانت فترة الصباح وقته الخاصّ للتفكير، وعادةً ما تتمحور تلك الأفكار حول كيفية الحؤول دون انفجار العالم.

عندما رنّ هاتفه المحمول الموضوع في حامل الكوب، فوجئ بمكالمة من رقم مجهول. فقلّة قليلة فقط تعرف هذا الرقم، ومن النادر أن يجرؤ أحد على الاتصال به في هذه السّاعة المبكرة.

توقّف عن تحريك ساقيه، والتقط أنفاسه، قبل أن يُجيب على المكالمة: "نعم؟" قالت امرأة بصوتٍ مشوب بنبرة استعجال: "صباح الخير، حضرة المدير. أنا هايدة ناغل، أكلّمك من براغ". "هايدة؟" كانت المكالمة من مُستشارته القانونيّة السابقة مُفاجئةً تماماً. "أنتِ سفيرة الآن، ناديني غريغ".

"هذا مستحيل، سيدي".
ابتسم مُجيباً: "حسناً، إذّا، بماذا يمكنني مُساعدتك؟" ومن أعطاك هذا الرقم؟
قالت: "أحتاج إلى طرح سؤال مُباشر، وأُقَدّر أن تجيبني بصراحة".
وعلى الفور، نزل عن دراجته وقد شعر بالقلق من الاضطراب الذي لمسه في صوتها، ثمّ قال: "في الواقع، أنا أتحدّث من هاتفٍ محمول. وكما أرى، أنت لا تستخدمين مِنصّة أمنة، فالخطّ الأرضي —"

قاطعته: "شرحت لموظفيك الليليين أنّني سفيرةٌ أميركيّة، وأنّ الموضوع طارئٌ وأمنيٌّ قوميٌّ، فأعطوني هذا الرقم".

قال: "طارئٌ وأمنيٌّ؟ هايدة، بحسب ما تريدن مناقشته، يمكننا —"
قالت بسرعة: "كان يجب أن أشرح عليك هذا السؤال قبل أكثر من عامين، لكنني سأسألك الآن". وقبل أن يُقاطعها، تابعت ناغل: "بالنسبة إلى المُستندات السريّة التي اتهمتُ بأنني أخرجتها من لانغلي، هل تعلم أنّها كانت مؤامرةً من كيو؟ هل تعلم أنّهم عيتوني لأكون بيدقاً لهم في براغ؟"

زفر جاد، وكان قد اعتاد الحفاظ على هدوئه في لحظات الضغط. أخيرًا، اختار أن يُجيب بصدق، فقال: "نعم، هايد، أعلم ذلك".

كان الصمت الذي تلا ذلك أشبه بتجمّع السحب إيذانًا بعاصفة وشيكة، فسارع جاد ليُضيف: "مع ذلك، عرفت هذه التفاصيل بعد وقوعها. لكنني في ذلك الحين، لم أكن أعلم. فقد كنت أهمّ مستشارة قانونية لديّ، وكرهت خسارتك".

"هل فعل فينش ذلك من وراء ظهره؟!"

قال جاد وهو يذرع القبو ذهابًا وإيابًا: "فينش يتمتع بكامل الاستقلالية لتنفيذ واجبه بحسب ما يراه مناسبًا. غضبتُ عندما عرفت، لكنك كنتِ مُستقرّة في براغ، وكانت ثمة حسابات أمنية وطنية؛ فبدا لي أن كشف الأمر علنًا سيؤتي نتائج عكسية. فأنت تعلمين كم هو قيم بالنسبة إلى الوكالة وجود أحد من داخل الجهاز في السلك الدبلوماسي للمساعدة في حلّ تعقيدات العمل الاستخباراتي في الخارج".

"نعم، فقد كنت ذات قيمة كبيرة لفينش ولهذا المشروع؛ أستعمل نفوذي الدبلوماسي عندما يُطلَب مني ذلك، وأتجاوز العوائق القانونية المحليّة، وأتنصّت على غرف الفنادق... وأكره مايكل هاريس على مراقبة ساشا فيسنا".

تَبَّأ. "لا أحبّ ذكر الأسماء على خطّ غير—"

"هل تعلم أنّي أجبرتُ مايكل على فعل ذلك بناءً على ادّعاء فينش أن ساشا ذات فائدة استخباراتية؟ لكنّه رفض إخباري عن السبب. هل كنت تعلم يا غريغ؟"

قال بانفعال: "هذا يكفي. سأُنهي المكالمة—"

"هل لهذا أيّ علاقة بالمنشأة السريّة التي أنتم على وشك افتتاحها تحت متنزّه فوليمانكا؟"

توقّف جاد عن السير وتجمّد في مكانه، وقال أخيرًا ببرودٍ مُتكلف: "سعادة السفارة ناغل، أنا لا أدري ما الذي تتحدّثين عنه، لكن حبّذا لو تمنحيني خمس عشرة دقيقة—"

فقاطعتّه قائلة بنبرة قاسية: "أرسلتُ إليك رابط فيديو، ستجده في مكتبك. وبعد مشاهدته، ستفعل شيئًا من أجلي".

قال مُتحدّيًا: "أحقّ؟"

"اتصل بي بعد مُشاهدته. أعتقد أنّك ستجد مطالبي معقولة".

"مطالبك... وماذا لو لم أستطع تليينها؟"

"أنت مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة. قليلة هي الأمور التي لا تستطيع فعلها".

من الحكمة ألا تنسي ذلك. "وماذا إن اخترتُ عدم فعلها؟"

قالت بنبرة قاطعة: "حينها، سيُنشر الفيديو علناً. إنه يتضمن معلوماتٍ مُفضّلة عن مشروعاتك، ومحتواه مُروّع للغاية. أنصحك بأن تسرع، فهذا رابطٌ عامّ، وسيصادفه أحدهم عاجلاً أم آجلاً؛ ربّما خلال ساعات".

كانت هايدة ناغل قد تجاوزت حدودها بأشواط. "هايدة، أنتِ تدركين أنّه بإمكان رجالي ببساطة حذف—"

"لقد نزلت الملفّ وصنعت منه نسخاً كثيرة. وهي الآن في أيدي أمينة".

"هل فقدتِ صوابك؟! أنا أفهم غضبك، لكن لماذا تُهدّدين—"

صرخت في وجهه: "لأنّني، يا غريغ، كنتُ ضحيّة جانبيةٍ لوقتٍ طويل! لقد كنتُ زميلةً مُخلصة بكلّ معنى الكلمة، وأستحقّ شيئاً من الولاء في المُقابل. لذا، انفضّ من مكانك وافعل الصواب؛ تَبّاً لك!"

لم يسمعها جاد يوماً تفقد أعصابها، وكان ذلك مُخيفاً، بصراحة. فهائده ناغل امرأةٌ جبّارة، والناس يتخذون قراراتٍ مُتهوّرة في لحظات الغضب.

قالت بحدّة: "سأتصل بك خلال ساعة. وإن اختفيتُ، صدّقني، سترى هذا الفيديو على كلّ شاشات الأخبار في العالم".

"سعادة السفيرة، أقترح—"

لكنّها كانت قد أنهت المكالمة.

* * *

نادراً ما كانت ناغل تحتسي الشراب، لا سيّما في منتصف النهار، غير أنّ كأس الشراب الذي صبّته منذ قليل من زجاجة في خزانة مكتبها، بدت لها في وقتها تماماً. كانت يداها لا تزالان ترتجفان قليلاً وهي تجلس خلف حاسوبها، فحمّلت نسخةً من الفيديو على شاشة سطح المكتب. ومن باب الاحتياط، حمّلت نسخةً ثانية، وأعادت تسميتها بعنوانٍ بريء— "وصفات طعام"— ثم أخفتها في أعماق متاهة مجلداتها.

بعد ذلك، فتّشت أدراج مكتبها، فعثرت على شريحة ذاكرة USB وحيدة، كانت تحتوي على عرض تقديميٍّ لمحاضرةٍ ألقتها في جمعيّة النساء الدوليّة في براغ. فحذفت العرض، ونسخت عليها فيديو اعتراف غُسنير، ثم وضعت الشريحة في حقيبة دبلوماسيّة بحجم الرسائل تحمل ختم السفارة.

أغلقت سحّاب الحقيقة، وأحكمت الحلقة البلاستيكيّة الأمنيّة حتى استقرّت في مكانها بإحكام دائم، ثم دوّنت في خانة المُرسَل إليه أنّ الحقيبة مُوجّهة... إليها. فموجب المادة

27.3 من اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية، يُعدّ فتح هذه الحقيبة من قبل أيّ شخصٍ آخر جريمة يُعاقب عليها القانون.

بدأت ناغل تبحث في مكتبها عن مكان آمن تحفظ فيه الحقيبة المخبوءة، لكنها سرعان ما أدركت أنّه ما من مكان آمن حقًا هنا. فقد كانت تأمل أن يتصرّف المدير جاد بما يمليه عليه ضميره، لكن إن قرّر أن يغدر بها، فسيكون هذا المكتب أوّل هدفٍ له.

صاحت وهي تتجّه نحو الباب حاملة الحقيبة: "سكوت!"
كان الحارس ينتظر في الخارج، فدخل فورًا.
قالت: "أريد إيداع هذه الأمانة لديك".

قال وهو يرمق يديها: "بالتأكيد، سيّدي، الحقيبة أم الكأس؟"
نظرت إلى الأسفل وقالت بنفاد صبر: "الحقيبة، يا سكوت". ثم سلّمته إيّاها وأضافت:
"احفظها في مكان آمن. لا تذكر أمرها لأحد، أعني على الإطلاق. هل يمكنني الوثوق بك في ذلك؟"

أجاب بثقة: "بالتأكيد، سيّدي". وأدخل الحقيبة في الجيب الداخلي لسترته العسكرية، ثم نظر إليها بقلبي قائلاً: "هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟"
قالت: "كلّ شيءٍ على ما يرام، شكرًا لك. غير أنّ مقتل السيّد هاريس أربكني قليلًا..."
صمتت لحظة، ثم تابعت: "هل من جديد من قسم الأدلّة الجنائية؟"
قال: "ليس بعد، سيّدي".

"من فضلك، تواصل مع الأنسة دانك، واطلب منها العودة فورًا".
قال عنصر المارينز مُردّدًا: "حاضر، سيّدي... لكن يجدر بي تنبيهك إلى أنّ الأنسة دانك تأثرت جدًّا حين عثرنا على جثة السيّد هاريس. يبدو أنّ علاقتهما كانت وثيقة".
نعم. في الواقع، شعرت ناغل بالخجل لأنّها استغلّت تلك العلاقة كورقة ضغط. "شكرًا على التنبيه. لديّ أمرٌ عاجل يحتاج إلى مهارتها". آمل أن تتحلّى بالمهنيّة اللازمة.
غادر الرقيب كيربل، فعادت ناغل إلى مكتبها، وأخذت رشفة طويلة من كأسها. كانت الرسالة التي تركها قاتل هاريس أمامها:

أرجوك، ساعدي ساشا.

فكرت في سرّها وهي تدس الورقة في الدُّرج: لا يمكنني مساعدتها إن لم أعثر عليها أوّلاً.
لحسن الحظّ، كانت براغ تتمتع بنظام مراقبة لا يُضاهى. والمشكلة لن تكون في العثور على ساشا، بل في إقناع دانا دانك بالتعاون لتحقيق ذلك.

في تلك الأثناء، كان الغولم قد شقَّ طريقه عبر ممرٍّ ميكانيكيٍّ ضيقٍ يمتدُّ قرابة مئة متر، أشبه بعمودٍ فقريٍّ طويلٍ تحت قلب المنشأة. وحين بلغ نهايته، وجد نفسه أمام بابٍ غير مألوف.

كان الباب فولاذيًا وبيضوي الشكل، وبلا نوافذ، تتوسطه عجلة معدنية ضخمة لإغلاقه وفتحه، بحيث بدا أشبه بباب غواصةٍ مُحكَم الإغلاق. كُتِبَ على اللَّافِتة المُثَبَّتة عليه:

نظام تخزين الطاقة المغناطيسية فائقة التوصيل SMES

لا يُسَمَح بالدخول لغير المُخَوَّلِينَ.

تذكر الغولم ما أخبرته به غَسْنِر الليلة الماضية عن التكنولوجيا الغامضة التي تحتوي عليها تلك الحجرة الفريدة. وكان قد استكمل بحثه صباحًا عبر الإنترنت ليحصل على ما تبقى من تفاصيل، بما في ذلك السبب العلمي وراء اختيار هذا الموقع تحديدًا. مباشرةً تحت مَعْلَم شهير في متنزه فوليمانكا.

فالهيكَل القابع في الأعلى كان من البقايا المَرَيَّة الوحيدة للملجأ الذي بُني في خمسينيات القرن الماضي. وغالبًا ما كان السيَّاح يلتقطون صورًا إلى جانبه، غير مُدركين أنَّ هذا المَعْلَم أُعيد توظيفه بذكاءٍ لخدمة احتياجات العتبة.

إنَّه اليوم منفذ التهوية للغرفة مُحكَّمة الإغلاق الواقعة خلف هذا الباب.

توقَّف الغولم ليلتقط أنفاسه، قبل أن يُحاول إدارة العجلة المعدنية. وبما أنَّ عصاه لم تعد بحوزته، كان عليه توخِّي الحذر؛ فحدث نوبة أخرى في هذا المكان الضيق قد يودي بحياته، ولا سيَّما أنَّه مُحاط بهذا العدد من الأسطح الصلبة والأطراف الحادة.

حين استجمع قواه، ثبَّت قدميه، وأمسك بالعجلة بكلتا يديه، ثم دفعها بعكس عقارب الساعة، فتحرَّكت ببطءٍ شديد، بضعة سنتيمترات لا أكثر.

فتخيل وجه ساشا، واستمدَّ من براءتها القوة مجددًا.

أنا أفعل ذلك من أجل كلِّ من تعرَّض للظلم هنا... من أجلك... ومن أجلي... ومن أجل كلِّ من سيأتي بعدنا.

أخيرًا، أطبق فكَّيه بإحكام، وحاول مُجددًا إدارة العجلة بكلِّ ما أوتي من قوَّة.

الفصل 96

بينما واصل المصعد هبوطه عميقًا تحت الحافة الصخرية التي يقوم عليها حصن الصليب، وجد روبرت لانغدون نفسه يُقاوم موجة من القلق المُتزايد. فقد كان تركيزه مُنصبًا تمامًا على دخول المنشأة، ولم يتخيل بالكامل الطريق الذي سيسلكه للوصول إليها. أنا الآن مُحاصر داخل ممر ضيق، تحيط بي آلاف الأطنان من الصخور.

لم يكن يعرف ما الذي ينتظرهما حين يُفَتَح باب المصعد. كانت السفيرة قد أخبرتهما أنّ منشأة العتبة لم تُشغّل بعد، ولذلك استبعدت أن يواجهها أيّ طاقم أمنيّ في الداخل، لكنّ أحدًا لا يمكنه العجز.

بدأ ذهن لانغدون يسترجع المُعضلة التي ظهرت قبل دقائق؛ لقد استولى شخصٌ ما على بطاقة دخول غَسْنِير... وبتر إيمهامها. من الواضح أنّ الجريمة ارتُكبت بغرض التسلّل إلى العتبة، لكن متى حدث ذلك؟ هل دخل المُعتدون وخرجوا قبل وصولهما... أم إنهم ما زالوا داخل المنشأة؟ وإن كانوا هنا فعلاً... فما مدى خطورتهم؟

نقلت كاثرين وزنها من ساق إلى أخرى في المصعد الفسيح، وقد بدأت تتوتّر من هذا الهبوط الطويل. أخيرًا، كسر صوتها جدار الصمت: "إنّه طريق طويل إلى الأسفل".

كان لانغدون يبذل ما في وسعه لعدم التفكير في الأمر، فقال بشروود: "نفدت بطارية الهاتف". وكان قد لاحظ انطفاء الشاشة. فأخذت كاثرين الجهاز منه، ثم وضعت في حقيبتها. أخيرًا، بدأ المصعد يتباطأ تدريجيًا، فتراجعا إلى زاوية المقصورة، خارج نطاق الرؤية المباشرة للباب، فيما انزلق المصعد بسلاسة إلى أن توقّف. وفي تلك الأثناء، حسب أنفاسهما.

انفتح الباب بهدوء، فستَمرا في مكائيهما، يُنصِتَان إلى أيّ صوتٍ أو حركةٍ في الخارج، لكنّ الصمت كان مُطَبِّقًا. فمال لانغدون إلى الجانب قليلًا، وأطلّ بحذرٍ من الباب. كان الظلام داميًا.

لم يرَ شيئًا خارج الشعاع الضئيل المُنبعث من داخل المصعد. ولم يخطر بباله من قبل أنّ المنشأة - لكونها غير عاملة بعد - قد تكون بلا كهرباء حاليًا.

نحن على عمقٍ هائلٍ تحت الأرض؛ بلا ضوء، ولا نوافذ. قد نكون في كهفٍ ضخمٍ من دون أن نعلم.

تسارعت دقات قلبه وهو يخطو بترددٍ إلى الخارج. لكن قبل أن تلامس قدمه الأرض، أُضِيئت فجأة مصابيح كاشفة من السقف، فأبهرت شدةً للحظة. غطى عينيه بيده، مُتمنيًا أن

تكون المصاييح قد اشتغلت تلقائياً بوساطة مُستشعر حركة... لا من قبل فريق استجوابٍ أو فصيلة إعدام.

بعد نهية، خفض يده ببطء، وبدأ يُحدِّق عبر الضوء الساطع حتى تبيّنت له الصورة، فتجمّد في مكانه مذهولاً.

غير معقول...

من الواضح أنّهما غادرا حدود حصن الصليب. فقد اختفت كل اللمسات القديمة ذات الطابع التاريخي. أما العالم الجديد الذي دخله لانغدون الآن فكان مُتقناً، مُستقبلياً، تحكمه التكنولوجيا الخالصة.

همست كاثرين بدهشة وهي تخرج من المصعد: "هذا لا يُصدّق... يبدو أنّ هذا المكان كلف ثروة".

قدّر لانغدون أنّ تمويل المنشأة تمّ في الأرجح من خلال استثمارات شركة إن-كيو-تل، من خارج الميزانية السوداء،⁽¹⁾ ومن دون أيّ رقابة من الكونغرس.

خطت كاثرين فوق المنصة المعدنية الضيقة أمام المصعد، وحدّقت بدهشة إلى ما حولها قائلة: "إنّه أشبه... بمحطة مترو صغيرة".

يبدو كأنّه نظام نقل مُستقبليّ عجيب، فكّر لانغدون في ذلك وهو يُحدِّق إلى القناة الإسمنتية تحتها. فقد امتدّ مسارٌ ضيقٌ للسكك الحديدية بعيداً عن المنصة نحو نفقٍ دائريّ يتوارى في الظلام. كان مدخل النفق ضيقاً للغاية، لا يتسع بأيّ حالٍ لقطارٍ عاديّ، لكن ما إن رأى لانغدون العربة التي تعمل على هذا المسار، حتّى أدرك أنّ الفتحة واسعة بما يكفي.

كانت العربة عبارة عن سطح طويل نحيل مكشوف، أقرب إلى منصةٍ مُتحرّكةٍ منها إلى عربة، على جانبيّهما مقعدان طويلان مُتقابلان. وفي الجزء الخلفيّ من العربة مساحةٌ مُخصّصة لنقل المُعدّات، وُضع فيها حالياً كرسيّا عجلايتٍ مربوطان بإحكام.

تذكّر لانغدون أنّ ثمة نظاماً مُشابهاً موجوداً تحت مباني الكايتول هيل في واشنطن. لكن على عكس العربات الصغيرة القديمة هناك، بدا هذا النظام بسيطاً، وانسيابياً، وفعالاً.

قالت كاثرين وهي تتقدّم نحو العربة: "يسرني أنّها في هذا الطرف من الخطّ. يبدو هذا بشارة خير".

أدرك لانغدون فوراً ما قصدته؛ فوجود وسيلة النقل هنا يعني أنّ من سرق بطاقة بريغيتا لا بدّ أنّه استخدمها بالفعل للوصول إلى العتبة، ثمّ عاد عبر هذا المسار للخروج.

(1) "الميزانية السوداء" ميزانية حكومية مُخصّصة لعمليات سرّية، وغالباً ما تكون للأنشطة العسكرية والاستخباراتية.

قال وقد استراح قليلاً: "صحيح. كما أنّ مصابيح الاستشعار كانت مُطفأة، ممّا يعني أنّنا وحدنا هنا في الأرجح".

صعدت كاثرين إلى المنصة، وتبعها لانغدون. وما إن وطئت قدماه السطح، حتّى دوى أزيزٌ كهربائيٌّ خافتٌ من تحتهما، وارتفعت المنصة مسافة إنش أو اثنين عن الأرض. ثمّة من، أو ما، يعلم بوجودنا هنا، فكّر لانغدون في ذلك بقلق، مُتَمَنِّياً أن يكون القطار آلياً تماماً... لا أن يكون ثمّة من يراقبهما ويُشغّل النظام يدويّاً.

قالت كاثرين: "قطار مغناطيسيّ مُعلّق Maglev، لدينا واحدٌ في كاليفورنيا". كان لانغدون - مثل أيّ شخص لعب بالمغناطيس في طفولته - يعرف أنّ الأقطاب المُتَشابهة تتنافر بقوةٍ تكفي لجعل المنصة "تطفو" فوق المسار، وتنتقل من دون احتكاكٍ تقريباً.

قالت كاثرين: "لا أرى أيّ أدوات تحكّم... أظنّ أنّ علينا الجلوس فحسب". كان تخميناً معقولاً برأي لانغدون، الذي جلس إلى جانبها، مُقابل الطرف الأيمن للقطار. وبعد ثوانٍ معدودة، سُمِع في المكان صوت ثلاث نغماتٍ مُنخفضة، وبدأت المنصة تمضي إلى الأمام، وهي تتسارع بسلاسةٍ مذهِشة. وباستثناء الأزيز الكهربائيّ الخافت، ساد هدوء تامّ.

كان التسارع مذهِلاً في سلاسته. إذ لم تكد تمضي سوى بضع لحظات حتّى اخترقا مدخل النفق، واندفعا في الظلام بصمت، لم يكسره سوى صوت الهواء المُناسب حولهما. أنارت المصابيح الأماميّة جزءاً صغيراً من المسار أمام العربة، وبفعل الظلام الدامس، خُيِّل إليهما وكأنّ سرعتها تتزايد على نحو جنونيّ، بحيث صُعِب عليهما تقدير المسافة التي قطعها. فجأة، شهقت كاثرين وأمسكت بذراع لانغدون، مُشيرةً إلى الأمام عبر النفق. رأى لانغدون ما رأيته في اللحظة نفسها. فأمامهما مباشرةً، وعلى المسار نفسه، كان ثمّة ضوءٌ قادم، عربة أخرى تتّجه نحوهما بسرعةٍ قاتلة.

من الواضح أنّه لم يكن يفترض بهما أن يستقلاّ هذه العربة. صرخت كاثرين: "لا بدّ من وجود مكبح طوارئ!" وأخذت تدور في مقعدها باحثة عن زرّاً أو ذراع.

في الوقت نفسه، راح لانغدون يتلفّت بجنونٍ يمينه ويسرة، باحثاً عن مكانٍ يمكن القفز إليه، لكنّ الجدران الخرسانيّة كانت تُطبّق عليهما من الجانبين.

ازداد الضوء القادم سطوعاً واقترباً، بحيث بات الاصطدام وشيكاً، فشبك لانغدون وكاثرين أيديهما استعداداً لما هو آتٍ. لكن فجأة، انزلقت العربة بسلاسةٍ إلى اليسار، فيما

مالت العربية الأخرى في الاتجاه المعاكس، ومَرَّتا بجانب بعضهما بعضًا في جزءٍ أوسع من النفق. وبعد لحظات، عادت عربتهما إلى المسار المركزي، وضاق النفق مُجددًا وتحوّل إلى ممرٍّ واحد.

تنفّس لانغدون الصعداء، وقلبه لا يزال يخفق بعنف. قال أخيرًا بصوتٍ مُرتجف: "إنّها حلقة مرور... مضبوطة بالحاسوب".

أطلقت كاثرين تهيدة ارتياح عميقة، وضغطت على يده بقوة. كانت حلقة المرور طريقةً ذكيّة لتجنّب حفر نفقٍ مُزدوج المسار، لكنّها قرّبت لانغدون من تجربة الموت الوشيك أكثر ممّا كان يتمنّى.

تابعت العربية سيرها عشر ثوانٍ إضافية، قبل أن تبدأ بالتباطؤ تدريجيًا، لتتوقّف بطريقة مُريحة عند منصّة معدنيّة مُطابقة، خالية تمامًا من أيّ إشارات. وما إن نزل منها، حتّى خبا الأزيز الإلكترونيّ، وانخفضت المنصّة قليلًا إلى وضعيّة السكون من جديد.

قالت كاثرين: "نظام عربتيّن، وهذا يعني أنّه لا يمكننا أن نعرف على وجه اليقين إن كان من دخل قبلنا قد غادر فعلاً أم لا".

أوما لانغدون مُوافقًا. ثمّة دائماً عربية في كلّ طرفٍ من الخطّ. خَمَنَ أنّهما الآن في مكانٍ ما تحت الطرف الشماليّ من متنزّه فوليمانكا، في نقطة مُناخِمة لأعمق أقسام الملجأ الضخم الذي يعود إلى خمسينيّات القرن الماضي.

لم يكن في هذه المنصّة باب مُصعد، بل فتحة مُقوّسة بلا باب. تقدّم لانغدون وكاثرين عبرها، فاعترض طريقهما حاجز أمنيّ ضخم؛ حزام ناقل للفحص بالأشعة، وجهاز مسح للجسم، وأجهزة تحقّق بيومريّ، ومكتباً حراسة؛ لكنّها جميعها كانت مهجورة.

قال لانغدون في سرّه وهما يعبران الماسح ويتجاوزان نقطة التفتيش إلى الممرّ الرئيس: سيصبح هذا المكان حصنًا منيعًا حين يبدأ العمل.

حتّى الآن، لم يرَ لانغدون أيّ لافتة تدلّ على أنّ هذا المُجمّع تابعٌ لوكالة الاستخبارات المركزيّة، لكن عندما وصلا إلى بابيّن زجاجيّيّ مُزدوجيّن، رأى كلمة واحدة مطبوعة على الزجاج بحروفٍ دقيقة.

PRAGUE

تأكيد.

مدّ لانغدون يده نحو البابيّن، لكنّهما انفتحا تلقائيًا، وأُضيئت مصابيح الممرّ خلفهما فورًا. كان الضوء هنا خافتًا ناعمًا، لا ساطعًا كالأضواء الكاشفة التي شاهدها من قبل. فقد

امتدّ على قاعدتيّ جداريّ الرواق على طول الأرضيّة شريطاً إنارةً مُنخفضة، في خطّين مُتوازيّين، مثل مدارج الطائرات.

كانت الأرضيّة من بلاط التيرازو الأسود اللامع، تشبه شريطاً من البازلت المصقول. أمّا الجدران فمعدنيّة فضيّة، مكسوّة بطبقة كروم في الأرجح، تتلألأ بفعل الإضاءة الأرضيّة. وكان الهواء مُحمّلاً برائحة الطلاء الجديد والإسمنت وموادّ التنظيف.

تابعا السير بخطّى سريعة، تردّدت أصداؤها في الداخل. وبعد نحو عشرين ياردة، وصلا إلى مُفترّق يتفرّع منه ممرٌّ جانبيّ إلى اليمين. كان هذا الممرّ مكسوّاً ببلاط أخضر فاتح، وغارقاً في العتمة؛ بحيث ميّز لانغدون بضعة أبواب مكاتب، تلاها الظلام الدامس. علّقت لافتة كُتب عليها: الدعم.

توقع لانغدون أن يكون تفقّد المكاتب أو الملفّات مضيعةً للوقت. فهما بحاجة إلى دليل مُباشّر على ما يجري داخل العتبة، ولم يكن أمامهما سوى خيار واحد لتحقيق ذلك. علينا العثور على قلب المنشأة.

لحسن الحظّ، رأى أمامه على البلاط الأسود كلمةً كبيرة مطبوعة بخطّ عريض: العمليّات.

فتقدّما في الممرّ الطويل المستقيم، فيما أضيئت المصابيح الأرضيّة أمامهما تلقائيّاً مع كلّ خطوة، حتّى وصلا إلى تجويف جانبيّ يضمّ باباً معدنيّاً ضخماً يحمل رمزاً مألوفاً.



العصا المُجنّحة؟ تساءل لانغدون عن ذلك بدّهشة وهو يتأمّل الرمز الطيّ المنقوش على باب مُنشأة تابعةٍ لسيّ أيّ إيه؛ إذ لم يتوقّع رؤية رمز كهذا هنا. كان يعلم - من معرفته بالأيقونات - أن هذا الرمز يُساء استعماله كثيراً، كما هو الحال في هذا المكان. فعصا هرمس، أو القادوسسيوس، هي في الأصل شعار الإله الإغريقيّ هرمس الأسطوريّ، إله السفر والتجارة، في حين إنّ الرمز الطيّ الصحيح كان ينبغي أن يكون عصا أسكليبيوس، إله الطبّ في الأساطير الإغريقيّة، وهي عصا واحدة غير مُجنّحة، يلتفّ حولها ثعبانٌ واحد، وليس القادوسسيوس الذي يحمل ثعبانين. والمُخرج أن الفيلق الطيّ في الجيش الأميركيّ اعتمد هذا الرمز خطأً عام 1902، ولا يزال الأطباء والمستشفيات في الولايات المتحدة يستخدمونه على نحو خاطئ حتى اليوم.

تقدّمت كاثرين وفتحت الباب، فتبعها لانغدون إلى الداخل، ليجدا نفسيهما في جناح من عدّة غرف، بدا كأنه مُستشفى مُصغّر. كانت ثمة غرفة فحص طبيّ مُجهّزة بأحدث أجهزة

التشخيص والتصوير، وخزانة مُعدّات ضيّقة تكدّست على رفوفها المُستلزمات الطيّبة الجديدة غير المُفتوحة، وغرفة خاصّة تحتوي على سريرين يُحيط بهما عدد من أجهزة المراقبة الطيّبة يفوق ما رآه لانغدون حتّى في أقسام العناية المُركّزة. والمُخيف أنّ اللافتة المُعلّقة على الجدار كُتِب عليها: الإنعاش.

تساءل لانغدون في سرّه: الإنعاش، ممّ؟

ومع توغلّهما أكثر في الجناح، صادفا رافعة شوكيّة صغيرة تحمل صندوقًا خشبيًا ضخماً. فانحنّت كاثرين لتقرأ المُلصّقات على جانبه وقالت: "NIRS، التحليل الطيفي للأشعة تحت الحمراء القريبة. إنّهُ نظام تصوير فوريّ مُتقدّم".

قال لانغدون وقد ربط بين NIRS وعلم الفلك: "أفي مُنشأة طيّبة؟"

أجابته كاثرين بقلقٍ واضح: "يستعمله علماء الأعصاب لتحليل نشاط الدماغ من خلال قياس نسبة تشبّع الأوكسجين. لكنني لا أفهم... لماذا قد تبني سي أي إيه مستشفى سرّيًا تحت متنزه فوليمانكا؟"

دار السؤال نفسه في ذهن لانغدون وهو يتقدّم نحو بابيّن مُتأرجحين، ثمّ دفعهما بحذر. كان الظلام يُخيّم خلفهما، لكن حين دفع الباب أكثر، أضيئت المصابيح فجأة. تقدّم خطوة إلى الداخل، فإذا به في غرفة تعقيم جراحية. في الجدار المُقابل، كانت ثمة نافذة زجاجيّة عريضة تُطلّ على قاعة مُجاورة؛ غرفة عمليّات ناصعة البياض. هناك، تدلّى في وسطها، فوق طاولة جراحية أنيقة، جهازٌ معدنيّ غريب الشكل، لا يشبه أيّ آلة رآها لانغدون في حياته.

همس حين لحقت به كاثرين: "لا أعرف ما هذا الجهاز... لكنّه يبدو مُرعبًا".

الفصل 97

كان الزّحام في شارع إفروبسكا شديدًا، وقدّر فينش أنّ أمامه نحو ثلاثين دقيقة أخرى قبل أن يصل إلى منزل السفيرة. فأمل أن تكون ناغل قد استقبلت لانغدون وسولومون جيّدًا، وأتاحت لهما أكبر قدر ممكن من الراحة.

قال في سرّه: قدّمي لهما كأسًا أو اثنتين من الشراب.

كانت ناغل عنصرًا فاعلًا في براغ. وعلى الرغم من المرارة التي شعرت بها حيال طريقة توظيفها، إلّا أنّها نفّذت أوامر فينش بكفاءة، واستعرضت عضلاتها الدبلوماسية متى اقتضى الأمر. مع ذلك، اعترضت على أمره باستخدام مايكل هاريس لمراقبة ساشا فيسنا.

قالت له: "لماذا تراقبون ساشا؟ أتعقدون أنّها جاسوسة؟"

أجابها فينش بصدق: "ساشا ليست جاسوسة، ولا خطرة".

ساشا فيسنا هي في الواقع أكثر قيمة من ذلك بكثير.

إنّها استثمار... عمل قيد التطوير... رصيد غير مَقصود تَكون عند سي أي إيه.

وأضاف: "ينبغي مراقبتها... كإجراء احترازيّ لا أكثر".

فهي لا تزال غافلة تمامًا...

رَن هاتف فينش بتطبيق سيغنال؛ فظن أنّها رسالة من هاوسمور لإخباره بالمُستجدّات في الحصن. لكن عندما رأى هويّة المُتصل، اعتدل في جلسته، استعدادًا لمكالمة رئيسه.

"غريغ". أجاب على المكالمة بهدوء، مُتجاوزًا الرّسميّات الواجبة عادة عند مُخاطبة مدير سي أي إيه. "يا لها من مفاجأة!"

فردّ عليه جاد بحدّة، وقد بدا في مزاج لا يسمح بالمجاملات: "لن تكون مُحادثة سارة، فالأمر يتعلّق بناغل. إنّها تعرف أنّ قضية تلك الوثائق مُلَفّقة من قبلك".

"كانت تعرف منذ زمن طويل، وأنت أيضًا".

"مع ذلك، أنا مُستاء من طريقتك في تجنيدها".

مستاء! أحمًا؟ ضاق فينش ذرعًا بنبرة الرجل المُتعلّية. فقد كلفه بالإشراف على فريق براغ لسبب واحد لا غير، ألا وهو سجلّه الحافل بإنجاز المهامّ مهما تكن الكلفة؛ حتّى لو اقتضى الأمر تجاوز السياسات المُعتادة.

قال فينش: "لقد تعمّدتُ استبعادك يا غريغ... لحمايتك، لكي أجنّبك المُساءلة". لا

شكر على واجب.

"أقدّر ذلك، لكنّ ناغل كانت تستحقّ معاملة أفضل".

"أفضل من منصب سفيرة؟ هي اليوم دبلوماسية تمثّل الولايات المتحدة! وقد خدمت مصالحتنا في براغ على أكمل وجه. إنّها صفقة رابحة للطرفين".

"ربّما ليست الصفقة التي تتخيّلها، فهي تُهدّد بكشف كلّ ما تعرفه عن المشروع علناً".
كان فينش على يقين من أنّه أخطأ السمع. "ماذا قلت؟"

"سمعتني جيّداً".

"تُهدّد بالنشر... هذا جنون".

"إنّنا غاضبة إلى حدّ الجنون، ولديها مطالب".

"ولكنّها... لا تعرف شيئاً!"

ردّ جاد: "إنّنا تدّعي أنّها تملك أدلّة مُفصّلة. فقد أرسلت لي مقطع فيديو إلى لانغلي؛ وأنا في طريقي إلى هناك".

صرخ فينش، وقد ارتفع صوته رغماً عنه: "فيديو! عمّ؟ ناغل أذكى من أن تتورّط في مواجهة مع الوكالة. لا أعرف ما الذي تخطّط له... لكنّها بلا شكّ تُراوغ".

قال جاد: "لقد عملتُ معها لسنوات. كانت ناغل المُستشارة القانونيّة العامّة للوكالة، وهي لا تُراوغ".

انقبضت معدة فينش على نحوٍ مؤلّم. أيمكن أن تكون السفيرة قد غدرت بي؟ سأل بلهجة مُتوتّرة: "وما مطالبتها؟"

"لم تُفصح عنها بعد".

شكّ فينش في صدق المدير، غير أنّ هذا الأخير تابع قائلاً: "سأتحدّث إليها قريباً. لكن، إن كانت ثمة مخاوف أمنية، فقم بحلّها فوراً. لا حاجة إلى تذكيرك بأنّ تسريب أيّ تفصيل عن المشروع سيكون كارثيّاً".

فقال فينش بثقة مُصطنعة: "أنا أتولّى الأمر شخصيّاً، فقد وصلتُ إلى براغ منذ قليل — غير أنّه سرعان ما صمت، مُدركاً أنّه أفضى أكثر ممّا ينبغي".

ساد الصمت لحظة، ثمّ قال جاد بنبرة حادة: "إذا كنتَ في براغ، فهذا يعني أنّك كنتَ تعلم بوجود خطب ما".

قال فينش، مُحاولاً ضبط صوته: "نعم، ظهرت بعض العقبات البسيطة الليلة الماضية، لكنّ كلّ شيء تحت السيطرة. أنا في طريقي الآن لتسوية الأمر".

"خير لك أن تفعل. لا تجعلني أندم على تعيينك في هذا المنصب؛ فهذا أحد أهمّ المشاريع التي تديرها الوكالة".

"لقد اخترتني يا سيدي لأنك تعرف قدراتي جيدًا".

"صحيح... وعلى ذكر ذلك، أحذرك، إن أصاب هايدة ناغل أيّ مكروه - أيّا يكن - فستدفع الثمن؛ عن كلّ شيء".

قال فينش بخفة: "أنا لست العدو، أنا في صفك".

"كن حذرًا... لا تختبرني".

انتهت المكالمة فجأة، فجلس فينش لحظة في ذهول تام، فيما كانت السيارة تشق طريقها بسرعة نحو براغ.

اتّصل بالسفيرة ناغل وهو يستشيط غضبًا، غير أنّ المكالمة تحوّلت مباشرة إلى البريد الصوتي من دون أن يسمع رنة واحدة.

هل أطفأت هاتفها؟

بدأ توتره يتصاعد، فاتّصل بهاوسمور في حصن الصليب، ولحسن حظّه، بدأ هاتفها يرّن. لكن بعد ثماني رنات، تحوّلت المكالمة هذه المرّة أيضًا إلى البريد الصوتي. ما الذي يجري؟ فالضابطة الميدانية هاوسمور تُجيب على مكالماته من الرنة الأولى، سواء اتّصل بها ليلاً أم نهارًا. فعاود الاتّصال، لكن بلا جدوى.

أعاد الهاتف إلى جيبه، وحدّق عبر نافذة السيارة إلى أفق المدينة مُطوّلًا.

أخيرًا، قال للسائق: "طرأ تغيير على البرنامج. لن أذهب إلى منزل السفيرة، خذني إلى حصن الصليب".

الفصل 98

بدأت الآلة التي تُهيمن على مركز غرفة العمليات الواقعة تحت الأرض كأنّها أداة تعذيب مُستقبليّة. إذ كانت مُثبتة على السقف مباشرة فوق سرير جراحيّ وحيد، فيما برزت أربع أذرع آليّة ذات مفاصل، ذات أصابع تشبه الكمّاشة من شبكة مُنظمة من الكابلات والأسلاك. وبدأت المخالب الآليّة مُستعدّة للانقضاض على أيّ شخص ساقه سوء حظّه إلى الاستلقاء على السرير الشبيه بلوح الرّخام تحتها.

أكثر ما أربع لانغدون لم يكن الأذرع الروبوتيّة بحدّ ذاتها، بل منظومة القيود على السرير. إذ تدلّت عشرات الأخرمة اللاصقة الثقيلة من السرير، وبدأت مُصمّمة بوضوح لتقييد الذراعين والساقين والصدر، بحيث يصبح المريض عاجزاً عن أدنى حركة. وفوق أحد طرفي السرير، كان ثمة قوس نصف دائريّ من المعدن، امتدت منه خمسة قضبان رفيعة بزوايا مُختلفة؛ مسامير لتثبيت الجمجمة. اقشعرّ بدن لانغدون وهو يتخيّل الرعب الذي قد يُسيطر على من يتمّ تقييده هنا، وتثبيت جمجمته بمسامير، مع هذا الوحش الميكانيكيّ الذي يلوح فوق وجهه.

رعب يفوق الوصف.

قالت كاثرين: "هذا لا يُصدّق... يُجرون جراحات دماغيّة بمساعدة الروبوت. ربما كنتَ تتذكّر أوّل جهاز اختُرِع في هذا المجال، كان يُدعى دافنشي".

تذكّر لانغدون تلك التقارير الإخباريّة بصورة ضبابيّة، فيما اقتربت كاثرين من مشبك الجمجمة وفحصت المسامير الطويلة البارزة إلى الخارج. "تُذكّرني بالكابوس الذي راودني". قال لانغدون في سرّه، وقد رأى الآلة في ضوء جديد: هالّة سائكة.

قالت كاثرين وهي تتوجّه نحو نافذة زجاجيّة وتُحدّق من خلالها: "هنا غرفة التحكّم". انضمّ إليها لانغدون، فرأى ثلاثة كراسٍ مُريحة أمام صفّ من الشاشات المُسطّحة المُزوّدة بمظلات LCD لمشاهدة ثلاثيّة الأبعاد. وكانت الشاشات مُزوّدة بمجموعة من أجهزة الإدخال الفولاذيّة اللامعة المُقاومة للصدأ، والمُترابطة بدقّة: فأرة، وقلم حبر جافّ، وقلم إلكترونيّ، وأداة لتحرير مقاطع الفيديو، ووحدة تحكّم، وعصيّ تحكّم. وعلى صينيّة موسومة بعبارة HOLOGRAPHIC KINETICS (حركيّة هولوغرافيّة) وُضع قفازان من الشبك.

قالت كاثرين: "هذا مُذهّل! كنت أعلم أنّ الجراحة الروبوتيّة تتقدّم، لكنّ هذا الجهاز يتجاوز بكثير ما سمعت عنه حتّى الآن".

تساءل لانغدون إن كانت غِسْنِر هي التي صمّمتها. براءة اختراع مُربِحة أخرى. "إذا،
أهكذا تزرع شرائح الصرع؟"

قالت كاثرين بسرعة: "يا إلهي! لا. فزرع شريحة RLS عمل بدائي، حتّى إنّه لا يُعدّ
جراحة دماغ حقيقيّة من الناحية التقنية. إذ تُوضع الشريحة في تجويف بحجم الإبهام داخل
الجمجمة؛ ولا تلامس الدماغ فعلياً". عادت تتفحص الجهاز المُعلّق بالسقف من زوايا
مُختلفة، وتابعت تقول: "لا... هذا عالم مُختلف، مُخصّص لجراحات دماغية عميقة؛
استئصال أورام مُعقّدة، أو كيّ تمدّد وعائي، أو... ربّما لأخذ عيّنات نسيج دقيقة جدّاً
للتحليل". فجأة، التفتت إليه وسألته: "قلت إن ساشا فيسنا تحمل ندوباً على جمجمتها، أهي
ندوب كبيرة؟"

هزّ لانغدون رأسه وهو يتذكّر إمساكه برأس ساشا في أثناء نوبتها. "إنّها مُخبّأة في الغالب
تحت شعرها، ولكن أجل. ظننتُ أنّها ناجمة عن إصابات، لكنها ذكرت لاحقاً أنّ غِسْنِر
واجهت بعض التعقيدات الطفيفة في أثناء زرع الشريحة؛ صحيح أنّ الجراحة نجحت...
لكنّها كانت أكثر امتداداً بقليل ممّا كان مُخطّطاً لها".

"بقليل؟" نظرت كاثرين مُجدّداً إلى الجراح الآلي وقالت: "هذا الجهاز ليس جديداً، بل
استُخدم من قبل، وللأسف، أجد أنّ ساشا موضوع اختبارٍ مثاليّ؛ فهي فتاة سادّجة، بلا أهل،
ومن غير المُرجّح أن تُشكّك في إجراءات المُتابعة التي توصي بها طبيبة مشهورة أنقذت
حياتها، وتدفع لها الآن راتباً".

كانت الفكرة بحدّ ذاتها مُستهجّنة بالنسبة إلى لانغدون، لكنّه أجبر نفسه على التركيز
على المسألة الأساسيّة، فقال: "هل ترين شيئاً هنا له علاقة بما كتبت عنه؟"

هزّت رأسها نافية. "ليس بعد. وما من شيء يُدينهم أو يمكننا أخذه معنا كدليل على
طبيعة ما يفعلونه. كلّ ما يُمكنني قوله هو إنّهمْ يُجرون عمليات دماغية مُتقدّمة للغاية داخل
هذه المنشأة".

فكّر لانغدون في سرّه: جزيرة الدكتور موررو، وقد أفلقتة فكرة أن تُجري سي أي إيه
عمليات جراحية سرّية في مختبر تحت الأرض في بلدٍ أجنبيّ. قال بهدوء: "فلنواصل
البحث".

غادرا الجناح الطيّب بسرعة، عائدين إلى الممرّ المكسوّ بالبلاط الأسود، وتوغّلا
لمسافة أعمق في العتبة، فوصلا إلى ركن آخر يحتوي أيضاً على مدخل، لكنّ هذا الباب كان
مُغطّى بطبقة سميكّة من الإسفنج العازل للصوت.

قرأت كاثرين اللوحة المُعلّقة بجانب الباب: "الحوسبة الغامرة. ربّما نجد شيئاً مُهمّاً هنا".

دخل لانغدون خلفها بحذر إلى قاعة بدا أنّ جدرانها وسقفها وأرضها مَكسوّة بسجادٍ أسود سميك. ولم تكن تُضيئها سوى المصابيح خافتة الإضاءة المُمْتَدّة على طول القاعة، والتي أُضيئت تدريجيّاً عند دخولهما.

وسط القاعة، امتدّ صفّ من ثمانية مقاعد استلقاء، عميقة على نحو غير مُعتاد، ومُجهّزة بأحزمة للكفّين. كلّ مقعد منها كان مُثبتاً فوق منظومة من أذرع هيدروليكية وصمامات. قال لانغدون وهو يتفحصها: "هذه المقاعد تتحرّك على محورٍ دوّارٍ".

فأومأت كاثرين مُوافقة، وقالت وهي تقترب: "تُعَدّ الحوسبة الغامرة الجيل المُتقدّم من الواقع الافتراضيّ. إذ تتزامن حركة هذه المقاعد مع الصور والأصوات التي تُبثّ عبر هذه"، ورفعت خوذة زجاجيّة مُعتمة حديثة الشكل عن أحد المقاعد. "شاشات بانورامية عميقة الطيف. هذا واقع افتراضيّ مُتطوّر للغاية يا روبرت".

واقع افتراضيّ؟ ماذا تراهم يفعلون هنا؟

تقدّمت كاثرين نحو حاسوبٍ في الجزء الخلفيّ من الغرفة، وقالت: "البيانات اللازمة لتشغيل مُحاكاة كهذه هائلة، ولا بدّ أنهم يستخدمون نظاماً أكبر... مثل هذا"، وأشارت إلى نافذة زجاجيّة مَكسوّة بصفوف من الحواسيب. "مع أنّي أظنّ أنّه بالإمكان الوصول إلى كلّ شيء من هنا، من هذه المحطّة". وجلست أمام الحاسوب وشغلته.

انضمّ لانغدون إليها، وبينما كانا ينتظران النظام ليعمل، سألهما: "هل ذكرتِ الواقع الافتراضيّ في مخطوطتك؟"

نظرت إليه كاثرين وهزّت رأسها: "نعم، مرّات قليلة، لكن بطريقة عابرة. فقد خضعتُ ذات يوم لتجربة واقع افتراضيّ في مركز بحوث الشذوذات الهندسيّة في جامعة برينستون، وكانت تلك التجربة سبباً وراء قراري دراسة الوعي غير الموضوعي، فكتبتُ عنها".

"أحقّاً؟ يبدو أنّها قد تكون ذات صلة".

قالت بتشكُّك: "نظريّاً ربّما، لكن ليس—"

فقاطعتها قائلاً: "أخبريني عنها".

تنفّست بعمق وقالت: "كما تعلم... الهدف من الواقع الافتراضيّ خداع الدماغ ليصدّق وهماً. فكلّما غدّيته بمزيد المؤثّرات البصريّة والسمعيّة والحركيّة، زادت قابليّته لتصديق المُشهد المُصطنع وكأنّه حقيقيّ. وعندما تبدأ بتصديق الوهم، تدخل في حالة يُطلق عليها علماء النفس اسم الحضور".

قال لانغدون: "جربْتُ تسلّقاً صخريّاً افتراضياً ذات مرّة، وقد أصابني بالرعب لدرجة الشلل".

"بالضبط؛ فقد صدّق دماغك أنّ جسدك على جرفٍ خطِر، وأنّك مُهدّد بالسقوط، فأصبح الوهم واقعك المُؤقّت. أنا أيضًا عشت حالة الحضور في تجربة برينستون، لكنّ تجربتي... كانت مُختلفة تمامًا؛ تحوّلِيه فعلًا".

سألها لانغدون وقد ازداد فضوله: "وما كانت؟" ابتسمت وهي ترفع نظرها عن الشاشة قائلة: "ببساطة... اختبرتُ وعيي، وكان غير موضعي".

* * *

لن تنسى كاثرين إطلاقًا تلك المَرّة الأولى التي اختبرت فيها تجربة وعي مُغايرة. فقد غيّرت حياتها كليًا، ورسخت شغفها بمجال الوعي كحقل دراسي.

بدأت التجربة عندما طلب منها أستاذها في جامعة برينستون أن تقف وحدها في غرفة فارغة تمامًا. ومن خلال جهاز الاتصال الداخلي، وجَّهها إلى ارتداء نظّارة الواقع الافتراضي. وما إن فعلت، حتى وجدت نفسها على الفور وسط مرجٍ فسيح مليء بالأزهار والأشجار.

كان المشهد ريفيًا وهادئًا... باستثناء تفصيلٍ واحدٍ غير مُتوقَّع. لم تكن بمفردها.

فعلى بُعد خطوتينٍ منها فقط، كانت تقف نسخة مطابقة... عنها. كانت النسخة تبتسم بهدوء، وتنظر مباشرةً إلى عينيها. أدركت كاثرين بالتأكيد أنّ ما تراه ليس سوى إسقاطٍ افتراضي، ومع ذلك شعرت بانقباضٍ غريب؛ فبقيت نحو دقيقة واقفةً وسط المرج، تُحدّق إلى نفسها وجهاً لوجه.

بعد ذلك، طلب الأستاذ منها عبر الجهاز أن ترفع يدها وتضعها على كتف شبحها، فأصابها هذا الطلب بالارتباك. شبحي ليس حقيقيًا. رفعت يدها بتردد، وأنزلتها برفق على كتف ذاتها الأخرى. كانت تتوقَّع ألا تلمس سوى الهواء، لكنها فوجئت بيدها تستقرّ فوق كتفٍ من لحم ودم. والأغرب من ذلك أنّها- في اللحظة نفسها- شعرت بوضوح بوزن يَدٍ على كتفها!

كان الإحساس مُربكًا للغاية، إذ وجدت نفسها تتساءل في ذهول:

أيّ الجسديّين... جسدي الحقيقي؟!

في الواقع، امتزج مشهد يدها فوق كتف شبحها مع الإحساس بيَدٍ على كتفها الفعلية، فكانت تلك المدخلات الحسية كافية لتحويل إحساس كاثرين بـ "ذاتها الفيزيائية" إلى

الجسد الآخر. ولثوانٍ غامضة قليلة، حام وعي كاثرين خارج جسدها. فكانت مُراقِبةً - عقلاً بلا جسد - تنظر إلى هيئتها المادّية... كما لو أنّها مريضة ترى جسدها من الأعلى وهي توشك على الموت.

في تلك اللحظة، غمرتها نشوة مُفعمة بالسكينة؛ إحساسٌ بأنّ وعيها حرٌّ تمامًا، لا يحتاج إلى شكل جسديّ ليظلّ موجودًا. وحتى بعد أن استعادت إحساسها الحقيقيّ بذاتها، بقي أثر ذلك "التحرّر" لأيام طويلة.

لاحقًا، علمت كاثرين أنّ توليد الوهم ليس بالأمر المُعقّد. فبينما كانت تضع نظارة الواقع الافتراضيّ وتقف في موضِعها، تسَلَّت إحدى فنيّات المُختبر بهدوء ووقفت أمامها تمامًا. وعندما مدّت يدها لتلمس "شبحها"، لمست كتف الفنّية، التي وضعت في الوقت نفسه يدها على كتف كاثرين. وفي تلك اللحظة، انخدع إحساسها بالذات، وغادر جسدها المادّي. لم تكن تلك، بطبيعة الحال، تجربة حقيقيّة خارج الجسد، لكنّها كانت مُفعمةً بالطمأنينة، وباعثة على السلام الداخليّ، ومُتصلةً بعالم غير مادّيّ، بحيث رسّخت قناعتها بإمكانية "لا موضعية الوعي"، ودفعتها إلى تكريس مسيرتها لدراسته.

عندما أنهت كاثرين سردها، كان الحاسوب قد أتمّ تشغيله، ووصل إلى شاشة الترحيب.

فقالت: "إنّه محميّ بكلمة مرور؛ هذا ما كنت أخشاه. ومن دون معرفة نوع المُحاكاة التي يُجرونها، لا أستطيع تحديد ما إذا كان لهذا المختبر علاقة بكتابي أم لا".
جلس لاغدود على كرسيّ معدنيّ أمام المكتب، وأدخل بضعة تخمينات، لكنّ شيئًا منها لم ينجح، فهزّ رأسه، ثم نهض قائلاً: "ربّما يُجرون مُحاكاةً لتجارب الوعي المُغايرة؛ كذلك التي وصفتها منذ قليل... إذ تبدو على صلةٍ بالصرع وبساشا وبالرصد الذهنيّ من بُعد...".

قالت كاثرين وهي تتأمّل الخوذات والمقاعد المُتحرّكة: "ربّما، لكنّ إحساسي يُنبئني بأنّ هذا المكان مُخصّص لشيءٍ آخر...".

واتّجه نظرها الآن إلى النافذة الزجاجيّة، وغرفة الحواسيب خلفها. فذهبت، وحاولت فتح الباب المعدنيّ المجاور للنافذة، لكنّها وجدته موصدًا. ألصقت وجهها بالزجاج، ومسحت بنظرها المكان خلفه، فرأت رفًا طويلًا من أجهزة الكمبيوتر، وحاويات مُتنوعة من المُعدّات الإلكترونيّة، وثلاثة مُغطّاة بالوواح زجاجيّة مليئة بقوارير مُلونة.

فجأة، تراجعَت خطوة إلى الوراء وقالت بذهول: "ما هذا، حبًّا بالله؟"

أسرع لاغدود إليها وسألها: "ما الأمر؟!"

فأشارت إلى صفّ من ثمانية أشياء موضوعة أمام الجدار الخلفي للغرفة قائلة: "تلك الأشياء هناك... لا مكان لها في مُختَبَر واقع افتراضي".
نظر لانغدون عبر الزجاج، فرأى ثمانية حوامل معدنية للمحاليل الوريدية على عجلات.

قالت كاثرين باضطراب: "حوامل محلول وريدي... وثلاجة مليئة بالأدوية! هذه المنشأة تدمج بين العقاقير الوريدية والواقع الافتراضي!"
"حسنًا... وهل هذا أمر غير مألوف؟"

"بال تأكيد! فمن شأن هذا النوع من التجارب التي تجمع بين مُحفِّزَيْن مُزدوجَيْن أن يكون مُدمِّرًا للدماغ. وذلك لأنّ التعرّض المُفرط لها قد يؤدي حربيًا إلى تغيير البنية الفيزيولوجية للمخّ..."
"تغييرها؟ كيف؟"

قالت وهي تُحدّق عبر الزجاج إلى الثلاجة المليئة بالقوارير الصغيرة، مُحاولَةً قراءة المُلصقات من دون جدوى: "الأمر يتوقّف على نوع العقاقير التي يستخدمونها. لكن، روبرت، عليّ دخول هذه الغرفة لأرى تحديدًا الأدوية المُستعملة. بعدها، يمكننا أن نفهم ما الذي يحاولون تحقيقه..."

تأملها لانغدون لحظة، ثم أومأ برأسه قائلاً: "حسنًا، تراجعني إلى الخلف". وتوجّه نحو المكتب، ثم عاد بعد لحظات حاملاً الكرسيّ المعدنيّ الثقيل، وعيناه على النافذة.
قالت بذهول: "مهلاً، هل تنوي—"

قاطعها قائلاً: "نحن غارقان حتّى آذاننا أصلاً، ولن يُغيّر كسر النافذة شيئاً".
دار بجسده بكلّ قوّته، وأدار الكرسيّ كأنّه مطرقة، ثمّ ألّقه، فحلّق الكرسيّ في الهواء واصطدم بالنافذة بقوّة، مُحطِّمًا جزءًا كبيرًا من زجاجها.
تجمّدت كاثرين في مكانها، تنتظر صفارة إنذار أو استنفارًا من أيّ نوع، لكن الصمت المُخيف ظلّ يُخيّم بثقله على العتبة.

تقدّم لانغدون إلى النافذة، وضرب الجزء المكسور بمرفقه حتّى أزال بقايا الزجاج.
أخيرًا، مدّ يده بحذر، وأمسك بالمقبض من الداخل، وفتح القفل.
ابتسم وقال: "صحيح أنّها طريقة غير أنيقة، لكنّها فعّالة. من بعدك، حضرة الدكتورة".

الفصل 99

قال فوكمان حين عاد أليكس كونان إلى مكتبه: "كيف سار الاستجواب؟" بدا شعر الفَنِّي مُشْعَنًا أكثر من ذي قبل، وللحظة، تساءل فوكمان عمّا إذا كان الشاب قد شاخ منذ ظهوره الأول على عتبة هذا الباب ليلة أمس.

قال أليكس بصوت مُتَعَبٍ: "أنا بخير. فرئيستي تعرف أنّ الخطأ ليس خطئي، لكنّها تريد التحدث إليك في وقت لاحق. فقد أخبرتها أنّك غادرت المكتب اليوم".
"شكرًا لك".

سأله أليكس: "هل من جديد عن روبرت لانغدون؟"

قال فوكمان: "لحسن الحظّ، نعم. فقد أرسل رسالة إلكترونيّة؛ كلاهما بخير".

بدأت الدهشة على وجه أليكس: "ألم يتّصل؟"

هزّ فوكمان رأسه. ليس بعد، على الأقلّ.

"وماذا عن قائمة استثمارات إن-كيو-تل؟ هل وجدت أيّ تقاطع مع أبحاث الدكتور سولومون؟"

"لا، فقد أعطاني الذكاء الاصطناعيّ بيانات عديمة الفائدة. لا يبدو أنّه أحبّ المهمّة".

قال أليكس وهو يفتح الحاسوب المحمول الذي كان يحمله: "قد يكون لديّ ما يُفيدك؛ فقد أدركتُ أنّ بحث الذكاء الاصطناعيّ سيكشف تقاطعًا مع نصوص منشورة كتبتها الدكتور سولومون، لكنّه لن يرصد شيئًا منطوقًا؛ كالمحتوى الصوتيّ أو المرئيّ. لذا، أُجريتُ حالة مرجعيّة مُعدّلة، وتبيّن أنّ كلاً من إن-كيو-تل والدكتور سولومون يوليان اهتمامًا خاصًا لعلم يُدعى... الكُسيريات".

لم يكن فوكمان يعرف عن الكُسيريات سوى أنّها تظهر غالبًا كتصاميم دواميّة تتكوّن من أنماط مُتكرّرة بلا نهاية.

قال أليكس، وهو يُخرج هاتفه: "ففي السنوات الثلاث الماضية، استثمرت إن-كيو-تل بكثافة في تقنيّات الكُسيريات، في حين إنّ كاثرين..." ثم شغل مقطع فيديو ورفع الشاشة أمام فوكمان.

ظهرت كاثرين وهي جالسة على منصّة مع عددٍ من المُتحدّثين، وخلفهم شعار IONS. قالت، مُوجّهة كلامها إلى أحد الحاضرين: "سؤال مثير للاهتمام. بالمصادفة، في الكتاب الذي أعمل عليه حول الوعي البشريّ، كتبتُ بإسهاب عن الكُسيريات".

عندئذٍ، أرهف فوكمان السمع، فيما تابعت كاثرين: "فكما تعلمون، تتمتع الكُسيريات بخاصية مُدهشة، إذ إنَّ كلَّ جزءٍ منها، حين يُكبَّر، يتبيَّن أنَّه نسخةٌ مُصَغَّرةٌ مُطابقةٌ للكلِّ، في تكرارٍ لا نهائيٍّ للتشابه الذاتيِّ. بعبارةٍ أخرى، كلُّ نقطةٍ تحتوي على كلِّ شيءٍ آخر، أي لا وجود للفرد... بل للكلِّ فقط. ويعتقد عددٌ مُتزايدٌ من الفيزيائيِّين أنَّ الكون مُنظَّمٌ على هذا النحو؛ ممَّا يعني أنَّ كلَّ شخصٍ في هذه القاعة يحتوي في داخله كلَّ الآخرين، وأنَّه لا انفصال بيننا؛ نحن وعيٌّ واحد. من الصعب تخيل ذلك، أنا أعترف، لكن إن بحثتم عن صورٍ لما يُعرف بـندفة الثلج لكوخ أو إسفنجة مينغر، أو أفضل من ذلك، إن قرأتم كتاب الكون الهولوغرافي—"

قال أليكس وهو يوقف الفيديو: "هذا لبّ حديثها".
تردّد فوكمان لحظة ثم قال: "أليكس، أشكّ كثيرًا في أنَّ اهتمام سي أي إيه بالكُسيريات له علاقةٌ بفلسفة ترابط الكون والبشريّة".

قال أليكس: "أتفق معك، لكنّ للكُسيريات دور حاسم في مجالات التشفير، وبنى الشبكات، وتمثيل البيانات، وغيرها من تقنيات الأمن القوميِّ. وقد ذكرت كاثرين أنَّها استفاضت في الحديث عن الكُسيريات في كتابها. لذا، ربّما اكتشفت شيئًا مسَّ بأحد استثمارات إن-كيو-تل. الأمر يستحقّ البحث".

قال فوكمان: "هذا منطقيّ، سأبحث في الأمر. شكرًا".
"أخبرني إن وجدت شيئًا، عليّ العودة".

غادر الفتيّ مُسرِّعًا لمُتابعة استجوابه، بينما عاد فوكمان إلى حاسوبه.
في الخارج، كان المطر يشتدّ غزارةً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 100

هذه فعلاً صيدلانية من المواد المسببة للهلوسة...

وقفت كاثرين أمام الثلاثة مشدوهة، وراحت تُحدّق إلى صفوف مُذهلة من العقاقير القويّة. فالى جانب عددٍ من الموادّ التي لم تعرف ماهيّتها، رأت قوارير تحتوي على ثنائيّ إيثيلاميد، وسيلوساينين، وDMT، وهي الموادّ الفاعلة في عقاقير LSD و"الفطر الغامض" والأياهواسكا. كما لمحت أيضًا عبواتٍ من خلاصة السالفيا المُقطّرة، وMDMA، وكلاهما محظوران بهذه النسبة من التركيز.

كان وجود هذه العقاقير داخل مُختبر للواقع الافتراضيّ يعني أمرًا واحدًا؛ العتبة تستخدم الأدوية بالتزامن مع تجارب واقع افتراضيّ مُتقدّمة.

في الواقع، كانت العلاجات التي تجمع بين التحفيز المُزدوج - أي الواقع الافتراضيّ والعقاقير - خاضعةً لرقابة صارمة في المجال الطيّب؛ لأنّ نتائجها لا تزال غير مفهومة. ففي كثير من الحالات، يكون التحفيز المُزدوج قويًا؛ إلى درجة تُحدّث تغييراتٍ بنيويّة سريعة وغير مُتوقّعة في الدماغ. وقد بدأ علماء الأعصاب بالفعل برصد تحولاتٍ مُدهشة في أدمغة الشباب الذين يجمعون بين ألعاب الفيديو واستخدام العقاقير المُصمّمة.

واليوم، ظهر جيلٌ جديد من طالبي الإثارة الذين يعمدون إلى وضع نظارات الواقع الافتراضيّ لساعاتٍ طويلة، وهم يدخنون القنب ويطفون في الفضاء الافتراضيّ... أو يشمّون الكوكايين وهم يركبون أفغانيّة افتراضية... أو يتعاطون عقاقير "إطالة النشوة" بينما يشاهدون موادّ إباحية بتقنية الواقع الافتراضيّ. وعلى الرغم من التحذيرات التي لا تُحصى، ظلّ الإقبال على تلك التجارب يتصاعد لأنّها تُسبّب إدمانًا شديدًا.

يرفض الناس أن يسمّعوا عن مدى خطورة هذا الأمر...

في العام الماضي، قوبلت كاثرين بصيحات استهجان حين تحدّثت أمام جمهورٍ من هواة الألعاب الإلكترونية المُتمرسين، وشرحت أنّ التعرّض الطويل لألعاب إطلاق النار مُفرطة الواقعية من منظور الشخص نفسه لا يؤثر في حساسية الإنسان تجاه العنف المُصوّر فحسب، بل يُعيد برمجة بنية الدماغ؛ فيُضعف المُحفّزات العصبيّة الطبيعيّة المُرتبطة بالتعاطف.

وازداد الاستهجان حين أطلعتهم على دراساتٍ جديدة تُظهر أنّ الإفراط في استهلاك الموادّ الإباحية الإلكترونية يُحدّث تغييراتٍ فيزيائية في أدمغة الشباب، شبّهتها بـ "نمو طبقة سميكة من

الجلد على الرغبة البشرية" بحيث يفقدون إحساسهم بالتجربة الطبيعية. وبالنتيجة، يصبح من الصعب بلوغ الإنارة- حتى عند الشباب- إلا عبر كمّ مذهل من المُحفّزات الحسّية المُتنوّعة. وقف لانغدون إلى جانبها يتأمل القوارير والحاويات داخل الثلاجة وقال: "ما الغرض من هذه العقاقير؟"

"لستُ متأكّدة بالضبط، لكنّ بعض هذه الموادّ لا يُستهان به، إنّها مُهلوساتٌ قويّة التأثير". نظرت حولها وقد تسارعت أفكارها، وأضافت: "لو أردتُ التخمين، لقلت إنّ هذه الغرفة صُمّمت لهدفٍ واحد؛ إعادة برمجة دماغٍ بشريّ".

"المعذرة... إعادة برمجة؟"

أومأت كاثرين: "يُسمّى هذا الدّونة العصبيّة. فادمغتنا تتطوّر فيزيائيّاً لتتكيف مع البيئات الجديدة، فيستحدث الدّماغ مساراتٍ عصبيّة لمُعالجة التجارب الجديدة. ومن شأن تناول عقاقير كهذه بالتزامن مع المُحاكاة الافتراضيّة أن يُنتج تجربةً شديدة الكثافة- أضعاف ما يعيشه الإنسان في الواقع- وهو نوع التجارب التي- إن تكرّرت- تبدأ فعلاً بإعادة تشكيل الشبكة العصبيّة في الدماغ بسرعة مُقلقة".

قال لانغدون: "إعادة تشكيل الدماغ... ليفعل ماذا؟"

قالت كاثرين في سرّها: هذا هو السؤال الجوهريّ. كانت كاثرين تعرف أنّ دماغ مُعلّم قضى عمره في التأمّل يختلف تشريحياً عن غيره. وذلك لأنّ سنوات التأمّل الطويلة أعادت برمجته، بحيث أصبح قادراً على بلوغ حالةٍ من الصفاء العميق متى شاء. بتعبير آخر، غدا الهدوء الوضع الطبيعيّ لذلك الدماغ.

"روبرت، خطر لي الآن أنّه إذا كانت العتبة تضع الشخص مِراراً في حالةٍ مُصطنعةٍ من الوعي المُغاير- مُدعّمة بالمهلوسات- فإنّ دماغ ذلك الشخص سيبدأ بإعادة برمجة نفسه ليجعل تلك الحالة الانفصاليّة أكثر... طبيعيّة. بعبارةٍ أخرى، قد يكون الهدف من هذه العمليّة تدريب الوعي... على الشّعور براحةٍ أكبر خارج الجسد".

ظلت كلماتها تُردّد في صمت ذلك المكان تحت الأرض، إلى أن قال لانغدون: "الوعي غير الموضعيّ... هذا يتّصل بالتأكيد بموضوع كتابك".

أجابت كاثرين: "بالتأكيد يتّصل به". هذا ناهيك عن مشروع ستارغيت. "أكره أن أقول ذلك، لكنّ ساشا تبدو مُرشّحة مثاليّة لإعادة برمجة الدماغ عبر الواقع الافتراضيّ. فهي مُصابة بالصرع، وعقلها مُهيّأ جزئياً أصلاً لتجارب الوعي المُغايرة. واستخدامها كفأر اختبار سيكون أشبه باستعمال طريقٍ مُختصر".

قال لانغدون: "لم تذكر ساشا شيئاً من هذا القبيل".

"ربما هي لا تتذكر، أو حتى لا تدرك... خفت صوتها وهي تشير إلى داخل الثلاجة.
"أترى هذا؟ إنه دواء خطير".

قال لانغدون بذهول: "أهو دواء الاغتصاب؟"

أومات كاثرين: "نعم، إنه يُضعف وظيفة الذاكرة على نحو شديد، ويُسبب فقدان الذاكرة
التقدمي، فيبقى الشخص مُفَاعِلًا ظاهريًا لكنه يجد صعوبة بالغة في تذكر ما حدث له".
قال لانغدون وقد بدا عليه الذعر: "أخبرتني ساشا أنها تعاني من مشكلات في الذاكرة؛
لكنها كانت تظن أنها ناتجة عن مرضها".

قالت كاثرين: "قد تكون كذلك فعلاً، لكن إن كانت تتلقى جرعات مُنْتَظَمَة من هذا
الدواء، فلا بد أن ضعف ذاكرتها خطير... وربما لا تتذكر حتى أنها أتت إلى هنا".
"وهذا ما يُفسّر في الأرجح وجود الكرسي المُتحرّك في وسيلة النقل؟ ربما كانوا ينقلون
ساشا ذهابًا وإيابًا".

قالت كاثرين: "هذا مُحتمَل جدًّا. كما أنه يُذكرني بمرضى الصرع الآخر الذي ذكرته،
الرجل الذي أحضرته بريغيتا من المؤسسة نفسها؟ ربما قالت لساشا إنه عاد إلى وطنه، لكن
هذه العقاقير بالغة الخطورة... فربما أصيب بالجنون، أو مات. من يدري؟ فمن مزايا
استقدام مريض مَترُوك في مؤسسة حكومية أن أحدًا لن يفتقده إن اختفى".
قال لانغدون وهو يتجه نحو الباب: "بدأت الأمور تتضح، وإن كنا على صواب...
وتمكّنّا من إثبات أن وكالة الاستخبارات المركزية تُجري تجارب على أشخاص أبرياء من
دون علمهم..."

أدركت كاثرين في تلك اللحظة أن تلك ستكون نهاية اللعبة، وتخيلت حجم الغضب
الشعبي لو صحّ هذا الأمر.

* * *

عندما عاد لانغدون إلى الممرّ من جديد، كان مُتلهِّفًا للتوغّل لمسافة أعمق في مُنشأة
العتبة. انعطف الممرّ الرئيس بزواية حادة نحو اليمين، ومنه تفرّع ممرّان صغيران يسارًا. لقد
بدأت المنشأة تتحوّل إلى متاهة حقيقية.

ملجأ مُتَشَعِّب من أيّام الحرب الباردة... إلى أيّ مدى يمتدّ يا ترى؟
كان يُدرك أن عليهما الانتباه جيّدًا إن أرادا إيجاد طريق الخروج لاحقًا.
عند الزاوية، انعطفا يمينًا، وواصلوا السير في الممرّ الرئيس. ومرةً أخرى، ما إن دخلا
الظلام، حتى أضيئت المصابيح الأرضية تلقائيًا.

قبل أن يَبْتَعِدَا كَثِيرًا، اعترض طريقهما باب مُزدوج. فشعر لانغدون ببعض الطمأنينة عندما لاحظ أن ما وراء نافذتي الباب البيضويتين مُظْلِم؛ ممَّا يشير إلى أن المصاييح في الجهة الأخرى مُطفأة.

ما زلنا وحدنا هنا... على الأقل في هذا القسم.

دفعًا الباب المُزدوج، ودخلا مساحة مُظلمة جديدة، وما لبثت المصاييح الأرضية أن أضيئت مجددًا لتكشف عن جزء آخر من الممر. لكن شيئًا ما كان مُختلفًا هذه المرة... إذ كان الهواء أبرد بنحو عشر درجات، وتفوح منه رائحةُ الكربون الخفيفة التي تسود في المتاحف؛ هواءٌ مُصفى بشدة.

الأمر الثاني الذي لاحظته لانغدون أن الممر ينتهي إلى طريق مسدود. إذ لم يكن في الجهة اليمنى أيّ مَنْفذ، أما الجهة اليسرى فتضمّ تجويفًا واحدًا في منتصفها تقريبًا، بدا وكأنه مدخلٌ إلى جناح آخر.

أدرك لانغدون أنهم - إن لم يجدا ما يبحثان عنه هناك - فيُضْطَرَّان إلى التوجُّل في ممراتٍ جانبيةٍ أخرى. وعلى الرغم من ذاكرته التصويرية، إلَّا أنه بدأ يشعر بالارتباك داخل هذه المتاهة المُتشعبة.

بينما كانا يتقدَّمان، حاول لانغدون أن يُقدِّر موقعهما الحالي تحت مُتنزّه فوليمانكا. فحدّق إلى الجدار الذي يسدّ نهاية الممر مُسائلًا إن كان ثمة سيّاح يتجولون على الجانب الآخر، في القسم المفتوح من الملجأ... وهم غافلون تمامًا عن المنشأة الغامضة القائمة على بُعد أمتارٍ منهم.

انعطفّا إلى داخل التجويف الوحيد، وتوقفا فجأةً أمام باب زجاجي دوار ضخم، مُحكّم الإغلاق بحشواتٍ مطاطية سميكة للمحافظة على جودة الهواء. بدا كأنه مدخل مُختبِر آخر، لكنّ ما وراءه كان غارًا في الظلام الدامس.

قالت كاثرين وهي تقرأ الحروف الثلاثة المطبوعة أعلى الباب: "RTD"، هذا يبدو واعدًا. قال لانغدون: "أحقًا؟" فأخّر ما يتذكّره من هذه الأحرف يعود إلى درس الرياضيات في المدرسة. السرعة $\times$ الزمن = المسافة.

قالت كاثرين وهي تُحدِّق عبر الزجاج المُعتَم: "إنّها تعني البحث والتطوير التقني، وهو المقابل الأوروبي لما نعرفه باسم R&D. هذا يعني أنّه قد يكون بالضبط المكان الذي نبحت عنه".

الفصل 101

انطلق المدير العام لوكالة الاستخبارات المركزيّة غريغوري جاد بسيارة زوجته من طراز جيب غراند شيروكي على طريق جورجتاون بايك، مُتَّجِهاً نحو مقرّ الوكالة في لانغلي. لم يكن سائقه المُعتاد جاهزاً في هذه الساعة المبكرة، ولم يكن لدى جاد وقتٌ للانتظار. فعلى الرغم من امتعاضه من أساليب فينش، إلّا أنّ واجبه الأوّل كان تجاه الوطن... فمعظم الأميركيين لا يدركون شيئاً عن حجم التهديدات التي تواجه بلادهم.

أميركا وحلفاؤها يتعرّضون للهجوم... في كلّ لحظة.

في السنوات الأخيرة، لم يحتج الأعداء سوى إلى أدوات بسيطة مُستَمَدّة من وسائل التواصل الاجتماعيّ للتأثير في عقول الملايين وقراراتهم. وقد تتبّعت الوكالة بالفعل تأثيرات أجنبيّة ملموسة طالت الانتخابات، والعادات الاستهلاكيّة، والقرارات الاقتصاديّة، والاتجاهات السياسيّة. لكنّ أهميّة تلك الهجمات تضاءلت أمام العاصفة القادمة.

ثمّة ساحة معركة جديدة تتشكّل، وتحتاج إلى أسلحة من نوع آخر.

كان الروس والصينيّون والأميريّون يتسابقون جميعاً للهيمنة على تلك الساحة، وقد جعل غريغوري جاد من الفوز في هذا السباق هدفه الأسمى طوال عشرين عاماً أمضاها في المناصب العليا داخل الوكالة. وكان مشروع العتبة - بتقنيّاته المُذهلة - على وشك أن يمنحه التفوّق المنشود.

في أثناء اندفاعه نحو لانغلي، أخذ يتساءل عمّا أرسلته السفارة ناغل إلى خادمه الآمن، اعتقاداً منها أنّه كافٍ لابتزاز وكالة الاستخبارات المركزيّة بأكملها.

أهي خدعة؟ كان يشكّ في ذلك. أهي ورقة ضغط بالغت في تقديرها؟ برأيه، ناغل أذكى من ذلك.

أقصى ما استطاع أن يتخيّله أن تكون قد اكتشفت ما يجري في منشأة العتبة. وإن صحّ ذلك، فعليه أن يفعل المستحيل لإسكاتها؛ لأنّها، إن كشفت للعالم مثل تلك المعلومات الحسّاسة، فستكون العواقب وخيمة؛ وعلى صعيد عالمي.

في ليلة واحدة، ستشتعل حرب التسلّح النفسيّ لتخرج عن السيطرة تماماً.

في أعماق متنزه فوليمانكا، جلس الغولم مُسنِّداً ظهره إلى الباب المعدنيّ الثقيل وهو يلهث.

لا يمكنني المجازفة بنوبةٍ أخرى.

يجب أن أخرج حياً... عليّ إطلاق سراح ساشا.

حين تباطأ نبضه، نهض بحذرٍ، وأمسك بالعجلة المعدنية السميكة المثبتة على الباب. انتظر عشر ثوانٍ حتى يزول الدوار، ثم أدار العجلة بكلّ ما أوتي من قوّة، إلى أن سمع صوت القفل الداخليّ الثقيل وهو يُفتح. دفع البوّابة الفولاذيّة إلى الداخل، فانبعثت من العتمة المُخيّمة وراءه رياحٌ جليديّة صفعت وجهه ورفعت أطراف عباءته، فأحنى رأسه، ودخل عبر الفتحة مُحكّمة الإغلاق. وحين أضيئت المصابيح في الداخل، أغلق الباب خلفه. على الفور، هدأت الرياح.

كان المخزن الحصين الذي وجد نفسه فيه قارس البرودة، لكنّه أدرك أنّ ذلك ليس بفعل المُكيّف، بل هو برد براغ الشتويّ المُتسرّب من الخارج. كانت في السقف فجوةٌ دائريّة هائلة يزيد قطرها على مترين، تمتدّ صعوداً عبر أنبوبٍ فولاذيّ عموديّ يخترق الأرض بارتفاع عدّة طوابق، وصولاً إلى فتحةٍ مُموّهةً بذكاء في وسط متنزه فوليمانكا. وقد رآها الغولم مراراً من قبل.

لا، بل رآها الجميع.

يخرج الأنبوب من الأرض بارتفاع يقارب ثلاثة أمتار، تعلوه قُبّةٌ إسمتيّة مثقّبة. ولعقودٍ طويلة، بدا الأنبوب لزائري المتنزه شبيهاً بطوربيد إسمتيّ ضخم مغروسٍ في الأرض. ذكرت الكتيّبات السياحيّة بالفعل أنّه فتحة التهويّة الأصليّة لملجأ فوليمانكا القديم، المُتوقّف عن العمل. وعلى الرغم من كثرة العرائض التي طالبت بإزالة "رأس الطوربيد" بعدّه تذكيراً قبيحاً بزمان الحرب الباردة، إلّا أنّ فنّانين مَجْهولين من شوارع براغ كانت لديهم رؤيةٌ مُختلفة تماماً. ففي مدينة تُعرَف بفنّها الطليعيّ، حُوّلت فتحة التهوية الإسمتيّة قبل سنوات إلى لوحةٍ فنّية غريبة الشكل، تكريماً لإحدى أشهر شخصيّات هوليوود- روبوت صُمّم بطريقة مثاليّة ليشبه رأس الطوربيد تماماً- الروبوت R2-D2 من سلسلة أفلام حرب النجوم.

أصبح R2-D2 معلّماً مُحبّباً في متنزه فوليمانكا، يعلو فوق رؤوس الزائرين الذين يلتقطون الصور إلى جواره، بجسده الفضّيّ والأزرق والأبيض المُميّز. وقد وافقت بلدية المدينة على الإبقاء على العمل الفنّي، الذي اتّسم برمزيّة تاريخيّة، إذ إنّ الكاتب التشيكيّ كارل تشاييك كان أوّل من ابتكر كلمة "روبوت" في مسرحيّته عام 1920.

لكن بالتأكيد، لم يكن أحدٌ من الخارج ليتخيل أن فتحة التهوية القديمة قد استُخدمت من جديد لغرضٍ مُختلف تمامًا. إذ لم يعد يسحب الهواء إلى الداخل... بل صُمِّم كآلية طوارئٍ أخيرة؛ للسماح لشيءٍ آخر بالخروج.

* * *

كانت رتبةُ انهمار المطر على نوافذ فوكمان موسيقًا مناسبة لخيبة أمله الأخيرة. فبعد أن بحث مُطوّلًا في جميع استثمارات إن-كيو-تل القائمة على الكُسيريّات، لم يجد ما يُحتمل أن تكون كتابات كاثرين قد مسّت به.

كُسيريّات تلسكوبية؟ مكُونات تبريد كُسيريّة؟ هندسة شبكات كُسيريّة؟

هزّ فوكمان رأسه بياس، وقد بدأت أحداث تلك الليلة المُرهقة تُرخي بثقلها على جسده. لم يكن مُتأكدًا، لكنّه اشتبه في أنّ ما ورد في مخطوطة كاثرين وتسبّب في هذا الهجوم... أعظم بكثير من مسألة الكُسيريّات.

الفصل 102

عندما دخل لانغدون وكاثرين عبر الباب الدوّار إلى منشأة البحث والتطوير التقنيّ RTD، وجدا نفسيهما في حجرة انتظار صغيرة، حجرة زجاجيّة نظيفة للغاية، مُزوّدة برفوف أحذية، وصناديق تخزين، وسلسلة من الخطّافات التي علّقت عليها بذلات بيضاء نظيفة. بالإضافة إلى ذلك، كان ثمة "دشّان هوائيّان"؛ حجرتان مُغلقتان مُزوّدتان بنفّاثات هواء مُصنّفي عالية السّرعة لنفخ الهواء بقوّة، وإزالة الجسيمات والملوثات عن الملابس والجلد. فكَر لانغدون في سرّه بدهشة: تمامًا كالرواق في الكاتدرائيّة، مكانٌ لتطهير غير الأنقياء... قبل دخولهم حرم الكاتدرائيّة.

لكنّ "الحرم" هنا كان يقع خلف الجدار الزجاجيّ أمامهما مُباشرة، ويُفضي إليه بابٌ دوّارٌ مُحكّم الإغلاق بدلًا من قوسٍ قوطيّ.

كانت كاثرين قد دفعت الباب الثاني بالفعل ودخلت، فلاحق بها لانغدون. أضيئت مصابيح الهالوجين في السقف بسطوع لم يشهد لانغدون مثيلًا له من قبل، وانعكست شدّتها على محتويات القاعة لتُضاعف السطوع؛ إذ كان كلّ شيءٍ في هذه المساحة الواسعة ناصع البياض: الجدران، والأرضيّة، والطاولات، والمقاعد، وأسطح العمل، وحتى الأغصية البلاستيكيّة التي تُغلّف الأجهزة.

قالت كاثرين: "إنّها غرفة مُعقّمة".

امتدّت صفوفٌ من الطاولات المُجهّزة بأدواتٍ مُرتّبة بدقّة، وأجهزة إلكترونيّة، وآلاتٍ مُغطّاة بطبقاتٍ واقية من البلاستيك. وبدأت أنظمة الحواسيب مُعقّدة للغاية، لكنّ شاشاتها كانت كلّها مُطفأة.

تقدّمت كاثرين نحو وسط القاعة، بينما سار لانغدون بمحاذاة الجدار الجانبيّ، وتوقّف أمام نافذةٍ تطلّ على غرفةٍ مُجاورة. في الجهة الأخرى، كان ثمة ما يُشبه مختبر أحياءٍ مُجهّزًا بمجاهر وقوارير وأطباق بتري، وكثير منها ما زال في أغلفته. وعلى الجدار الخلفيّ، داخل مقصورة زجاجيّة معزولة، كان ثمة جهاز لم يسبق له أن رأى مثله قطّ.

كان الجهاز الدقيق يتكوّن من مئات الأنابيب الزجاجيّة الطويلة المُتدليّة عموديًا عبر منصّةٍ مثقّبة، يتصلّ بكلّ منها أنبوبٌ فائق النحافة قادمٌ من جسم الآلة العلويّ. ذكره المنظرُ قليلًا بنظام تنقيطٍ مائيّ دقيق كان قد رآه ذات مرّة في معرضٍ لصبغة النيل. أترامهم... يزرعون شيئًا هناك؟

نادته كاثرين: "تعال". كانت واقفةً قرب آلةٍ كبيرة يبلغ ارتفاعها نحو متر، تبدو من اختراعات روب غولدمبرغ⁽¹⁾ المستقبلية. فاقترب لانغدون لتفحصها. قالت: "إنَّه جهاز طباعة ضوئية".

شعر لانغدون أنَّ معرفته باليونانية تخونه: "إِذَا، فهو يكتب... على الصخور... بالضوء؟" أجابت: "تمامًا، لكنَّ الضوء هنا فوق بنفسجتي عميق... والصخرة شريحة سيليكون". وأشارت إلى كومةٍ من الأقراص المعدنية اللامعة إلى جانب الآلة. "يحتوي هذا المختبر على كلِّ ما يلزم لتصميم وبناء شرائح حاسوب مُخصَّصة".

شرائح حاسوب؟ بدا الأمر بعيدًا تمامًا عن موضوع الوعي البشريِّ أو عمَّا يمكن أن تكون كاثرين قد كتبت عنه في مخطوطتها. فقال متسائلًا: "وما الداعي إلى تصميم شرائح حاسوب هنا تحت الأرض؟"

قالت كاثرين: "أرجَّح أنَّها غرسات دماغية".

صُدِّم لانغدون، لكنَّه سرعان ما ربط الخيوط بعضها ببعض. "الجراح الآليُّ للدماغ..." قالت: "بالضبط. أعتقد أنَّني كنت مُخطئة حين ظننتُ أنَّه يُستعمل لاستخراج عيناتٍ من الدماغ. إذ يبدو واضحًا الآن أنَّه يُستخدم لزرع شرائح دماغية".

ساد صمتٌ ثقيل في تلك الغرفة البيضاء المبهرة، إلى أن قال لانغدون أخيرًا: "ألم تقولي إنَّ جراحة زرع الشرائح الدماغية بسيطة في الأساس؟"

قالت كاثرين: "هذا صحيح بالنسبة إلى الشرائح الخاصة بالصرع. فهي أجهزة دقيقة تبعث صدماتٍ كهربائية، وتُزرع في الجمجمة. لكنَّ الشرائح المُتقدِّمة تُزرع على عمق أكبر، وتستفيد بالتأكييد من الجراحة الروبوتية".

استبدَّ بلانغدون شعورٌ عارم بالقلق وهو يفكر في ساشا. وتساءل إن كانت قد أُخِضت لزراعة شريحة تجريبية في الرأس؛ ربَّما تحت ستار إجراءٍ جراحيٍّ لعلاج الصرع. لم تكن تدرك إطلاقًا ما يوجد فعليًّا في رأسها... أو حتى أنَّ منشأة العتبة موجودة أصلًا.

قال لانغدون: "إذا كانت غِشِير قد كذبت، وكانت الشريحة التي زرعتها في رأس ساشا في الواقع أكثر تطورًا ومزروعة تحت القشرة..."

"إِذَا، يمكن لهذه الشريحة أن تعمل بسهولة كجهاز تحفيز عصبيٍّ للسيطرة على نوبات الصرع عند ساشا، وفي الوقت نفسه... يمكنها أداء وظائف لا حصر لها".

"أخشى أن أسأل... مثل ماذا؟"

(1) آلة أو جهاز من نوع التفاعل المُتسلسل مُصمَّم عمدًا لأداء مهمة بسيطة بطريقة مُعقَّدة للغاية ومضحكة.

نقرت كاثارين بسبابتها على آلة الطباعة الضوئية وهي تفكر: "لا يمكننا أن نعرف إلا بفحص الشريحة نفسها. لكن يبدو أنهم بدأوا بصنعها هنا. أظن أن ساشا وذلك الرجل الآخر كانا أول الخاضعين للتجربة... ضمن دراسة تحقق أولية وإثبات للمفهوم قبل تشغيل هذه المنشأة بكامل طاقتها".

تملك لاغدود شعورًا بالاشمئزاز مما يسمعه، بينما تابعت كاثارين تقول: "مهما يكن ما فعلوه، فقد نجح على ما يبدو؛ لأن العتبة تستعد الآن لعملية أكبر نطاقًا". نظرت حولها وقالت عابسة. "لكن للأسف، لا يوجد هنا ما يدينهم. فكل ما يثبت هذا أن سي أي إيه تطور نوعًا من شرائح الدماغ... وهو مشروع لن يُفاجئ أحدًا".

فكر لاغدود في سره: هذا صحيح، فشرائح الدماغ مُستقبل البشرية. كان قد قرأ ما فيه الكفاية من المقالات العلمية ليعرف أن هذه التقنية - على الرغم مما تثيره من صور عن السايبورغ وأفلام الخيال العلمي - أصبحت حقيقة مُتقدمة على نحو مُذهل. إذ تعمل شركات مثل Neuralink التابعة لإيلون ماسك منذ عام 2016 على تطوير واجهة تُعرف باسم H2M، أي تفاعل من الإنسان إلى الآلة؛ وهو جهاز يمكنه تحويل بيانات الدماغ إلى شيفرة ثنائية مفهومة. ومن إنجازات ماسك الأولى زرع شريحة Neuralink في دماغ قرود، وتدريبه على لعبة Pong الإلكترونية باستخدام إشارات دماغه فقط لتحريك المضرب.

وحين حصلت Neuralink أخيرًا على موافقة إدارة الغذاء والدواء لإجراء التجارب على البشر، زرعت شريحة تُسمى PRIME في دماغ رجل يدعى نولاند أربو، البالغ من العمر ثلاثين عامًا والمُصاب بالشلل الرباعي، واستطاع استعادة جزء ملحوظ من قدراته الحركية. غير أن التجربة لم تدم طويلًا، إذ إن الخيوط الإلكترونية الدقيقة - المستشعرات المعدنية التي تتواصل بها الشريحة مع الخلايا العصبية - انسحبت من الدماغ بعد مئة يوم تقريبًا، بعد أن رفضتها الخلايا العصبية البيولوجية التي كان يُفترض أن ترصدها. ومع ذلك، شكّلت التجربة قفزة نوعية.

في الوقت نفسه، كانت شركات كبرى مثل Synchron التابعة لبيل غيتس وجيف بيزوس، وNeurotech التابعة لشركة BlackRock، تعمل على تصميم شرائح أقل توغلًا وأكثر تخصصًا، تزعم أنها قادرة على تحقيق نتائج مُدهشة، مثل علاج العمى والشلل واضطرابات عصبية كمرض باركنسون، بل وتمكين الإنسان من "الكتابة بعقله".

ومع أن لاغدود لم يفهم علاقة هذه التقنيات بموضوع الوعي الإنساني أو بأبحاث كاثارين، فقد كان على يقين أن شرائح الدماغ ستغيّر وجه الاستخبارات العسكرية - طائرات من دون طيار تُقاد بالعقل، واتصالات ذهنية في ساحات المعارك، وتطبيقات لا حصر لها لتحليل البيانات - لذا بدا منطقيًا تمامًا أن تستثمر سي أي إيه بقوة في هذا المجال.

واجهة التفاعل بين الإنسان والآلة ستغير المستقبل.

تذكر لانغدون ما رآه في مركز برشلونة للحوسبة الفائقة، الذي توقعت فيه البرمجيات المتقدمة مستقبل تطوّر الإنسان:

سيندمج البشر سريعاً بنوع آخر سريع التطوّر... التكنولوجيا.

قال لانغدون بإصرار، وهو يتوق إلى إيجاد الرابط: "حسنًا، السؤال الأهم الآن: كيف يتقاطع هذا مع مخطوطتك؟ هل كتبت شيئاً عن شرائح الحاسوب؟" أجابت كاثرين بضيق واضح: "قليلاً فحسب، لكن لا شيء قد يُثير اهتمام هذا البرنامج أو يهدّده".

قال لانغدون مُشكّكاً: "أأنت واثقة؟"

"نعم، ذكرتُ الشرائح الدماغية في الفصل الأخير فحسب، وكان ذلك في سياقٍ نظريّ أقرب إلى تأملٍ مُستقبليّ حول علم الوعي الجديد".

فكر لانغدون في سرّه: علم الوعي الجديد... وقد تذكر فهرس فصول كتابها الذي ألقى عليه نظرة خاطفة قبل أن يلقيه في النار في المكتبة. فألح قائلاً وقد شعر أنّهما اقتربا ربّما من حلّ اللغز: "وهل كان للشرائح الدماغية دور في ذلك الفصل؟"

أجابت: "الشرائح الافتراضية، نعم، وهي شرائح لن نراها قبل عقود... هذا إن رأيناها أصلاً".

كان لانغدون قد سمع ذات مرة أنّ التقنيات المتاحة لوكالات الاستخبارات تتقدّم بسنواتٍ كثيرة على ما هو معروف علناً، فقال: "كاثرين، أليس من الممكن أن تكون سي أيّ إليه مُتقدّمة أكثر ممّا تتصوّرين؟"

قالت: "ربّما، ولكن ليس إلى هذا الحدّ. فما كتبه أقرب إلى تجربةٍ فكريةٍ منه إلى تقنيةٍ واقعيةٍ. فكر مثلاً في عفريت ماكسويل أو مفارقة التوأمين؛ لا يمكننا حقاً اختراع عفريت يفزّز الجزيئات، أو إطلاق توأمين ليسافرا بسرعة الضوء، لكنّ تخيل ذلك يساعدنا على فهم الصورة الكبرى".

قال في سرّه: سأصدّق كلامك. "أخبريني بما كتبه".

تنهّدت كاثرين وقالت: "كان خيالاً علمياً مُستوحى من اكتشافاتي عن مادة GABA. أتذكر حديثنا عن الدماغ بوصفه جهاز استقبال... كأنّه راديو يلتقط الإشارات المحيطة بنا من الكون؟"

قال لانغدون: "نعم، والمادة الكيميائية الدماغية GABA تعمل كقرص الضبط في الراديو، تُصفّي التردّدات غير المرغوب فيها، وتحدّ من كمية الوعي والمعلومات الداخلة".

قالت: "بالضبط. وقد افترضتُ أنه في يوم ما، في المستقبل البعيد، ستوصل إلى بناء شريحة يمكنها تنظيم مستويات GABA في الدماغ، أي خفض المرشحات بناء على الطلب... لنتيح لأنفسنا اختباراً واقع أوسع".

قال لانغدون: "فكرة مدهشة". فمجرد التفكير فيها أمر رائع. سألها بعد ذلك: "أهذا غير مُمكن علمياً؟"

هزت رأسها نافية وقالت: "رباه، على الإطلاق! فعلم الوعي الأكثر تطوراً ما زال بعيداً جداً عن تحقيق ذلك. أولاً، علينا أن نثبت صحة نظرية الوعي الكوني، أو ما يُسمى الحقل الأكاشي أو روح العالم؛ أيّاً كان الاسم الذي تختاره لحقل الوعي الذي يُفترض نظرياً أنه يحيط بكل الأشياء".

"وأنّ مُقتنعة بذلك".

"مُقتنعة، نعم. لا يمكننا بعد إثبات وجود هذا المجال الكوني، لكن يبدو أن العقول التي تمرّ بحالات وعي مُعدّلة تلمحه أحياناً. للأسف، هذه التجارب عابرة، ولا يمكن التحكم بها، كما أنّها ذاتية، وغالباً، غير قابلة للتكرار. لهذا، يُشكك بها العلماء".

"وهي هدفٌ سهلٌ للمُشكّكين".

"تماماً. فنحن لا نملك أيّ وسيلة، أو آلة، أو تقنية قابلة للقياس وقادرة على استقبال إشاراتٍ من ذلك المجال الكوني. وحده الدماغ يستطيع ذلك". هزت كتفيها وتابعت قائلة: "لذلك، تخيلت شريحة افتراضية يمكن أن تتصل بالدماغ وتخفّض مستويات GABA لتوسّع نطاق إدراكه، وتحوّله إلى جهاز استقبال أقوى بكثير".

حدّق لانغدون إليها بانبهار، إذ لم تكن فكرتها لامعة فحسب، بل بدت له مفتاحاً مُحتملاً لفهم سبب ذعر وكالة الاستخبارات من مخطوطتها.

ماذا لو كانت كاثارين على وشك نشر كتابٍ يصف شريحة سرّية تنبئها الوكالة فعلاً؟

قال: "كاثارين، مشروع العتبة يأخذ بعلم الوعي إلى بُعدٍ جديد، وربما كان كتابك على وشك كشف جوهر تقيّتهم السريّة".

قالت: "هذا مستحيل! فكما قلت لك، الشريحة التي وصفتها لا يمكن تصنيعها. الفكرة مثيرة للاهتمام، لكنّها نظرية بحتة. فالعقبات التقنية أمام تنفيذها لا يمكن تجاوزها، وأهمها أنّ تنظيم مستويات ناقل عصبي واحد على نطاق الدماغ يتطلب دمجاً مادياً كاملاً مع الشبكة العصبية... والدماغ يحوي أكثر من مئة تريليون تشابك عصبي".

"لكنّ التقدّم العلمي يتسارع..."

قاطعته قائلة: "روبرت، صدّقي، الدمج المادّي الكامل مُستحيل. سيكون كمن يحاول وصل كلّ مصباح كهربائي على وجه الأرض بمفتاح واحد، مضروبًا بمليون مرّة؛ هذا أمر مستحيل".

ردّ لانغدون: "وكذلك كان انشطار الذرّة... لكنّ العلم يجد طريقه دائمًا، خاصّةً حين تكون الميزانيات بلا حدود. تذكّري مشروع مانهاتن".

قالت كاثرين: "الفرق شاسع... فقد كانت التكنولوجيا النوويّة موجودة أصلاً عام 1940. كان اليورانيوم موجودًا، وما فعله العلماء اقتصر على جمع العناصر معًا. أمّا الشريحة التي تحدّثت عنها في كتابي فتطلّب موادّ وتقنيّات لا وجود لها أصلاً على الأرض. فقبل أن نبدأ حتى بالحديث عن دمجها مع شجرة التفرّعات العصبيّة في الدماغ، ينبغي لأحد أن يتكرّر ما يُسمّى خيطًا حيويًا نانو كهربائيًا".

قال لانغدون بدهشة: "ماذا؟ وما وظيفة هذا الخيط؟"

"بالضبط، لا وجود له أصلاً. أنا من اخترعته في الكتاب، كوسيلة للحديث عن تقنيّة لا وجود لها بعد. تخيلته كسلكٍ مُستقبليّ فائق الرقّة، ومرن، مصنوع من مادّة حيويّة مُتوافقة مع الجسم، وقادرٍ على نقل الإشارات الإلكترونيّة والأيوينيّة معًا. بعبارةٍ أخرى... خلية عصبيّة اصطناعيّة".

"ألا يمكن تصنيع خلايا عصبيّة اصطناعيّة؟"

أجابت بثقة: "كلّا، ما زال هذا الأمر بعيد المنال. ففي العام الماضي، أثار عالمان سويديّان ضجّةً عالميّةً لمجرد أنّهما تمكّنا من جعل نبات فينوس أكل الذباب يفتح ويُغلق عبر تحفيزٍ كيميائيٍّ لخليةٍ عصبيّةٍ واحدة. نبضةٌ ثنائيّةٌ واحدة، ومع ذلك، أحدثت صدمةً علميّةً حول العالم. تلك حدود المعرفة الحاليّة يا روبرت، وما زلنا على بعد عدّة أجيالٍ من ابتكار خليةٍ عصبيّةٍ اصطناعيّة".

توجّه لانغدون نحو نافذةٍ مُختبر الأحياء الذي كان قد رآه قبل دقائق، وقال: "نظريًا، هل يتمّ تصنيع الخلايا العصبيّة الاصطناعيّة... أم زراعتها؟"

أجابت بعد تفكير: "السلك الحيويّ النانو كهربائيّ؟ في الواقع، سيكون خيطًا حيويًا، لذا من المنطقي أن تتمّ زراعته".

توقّف لانغدون عند النافذة، وحدّق إلى الآلة التي تحتوي على مئات الأنابيب الزجاجيّة الطويلة المُتدليّة من الأعلى، وسألها: "في وسطٍ سائل، حسب ما أظن؟"

قالت: "نعم، تُزرع البنى المجهريّة الهشّة دائمًا في أوساطٍ سائلة".

فقال وهو يومئ لها للانضمام إليه عند النافذة: "إذا، أنصحك بأن تأتي وتنظري بنفسك... يبدو أنّ العتبة تزرع شيئًا م هنا... ولا أظنه الجرجير".

اقتحم إفریت فینش المدخل المُخترق لحصن الصليب، واندفع غاضباً عبر الردهة إلى البهو الزجاجي الواسع. لكن، أين الجميع؟! استشاط غضباً حين لم يجد أثراً لهاوسمور ولا لفريق الأمن الذي وعدت به السفارة، فأخرج بطاقة RFID الخاصة به، واتّجه نحو المصعد. وبينما كان يجتاز البهو، تفعلت المستشعرات البيومترية حين لامست أصابعه، إلّا أنّه توقّف فجأة، وقد تذكّر أنّه من المستحيل بالنسبة إلى هاوسمور، أو أيّ شخصٍ آخر، دخول المصعد المؤدّي إلى العتبة.

لا بدّ أنّها في الطابق العلويّ... أم تراها غادرت الحصن لسببٍ ما؟
اتّصل برقم هاوسمور للمرّة الأخيرة. وما إن ضغط على زرّ الاتصال، حتّى سمع رنين هاتفٍ قريباً. أمّر غريب. بدا الصوت قادمًا من ناحية الأريكة، عند الجدار المُقابل. هل أسقطت هاتفها؟ على الأقلّ، هذا يُفسّر عدم ردها سابقاً.

تقدّم فینش نحو الأريكة بخطواتٍ سريعة، لكنّه لم يجد هاتفًا. وحين توقّف الرنين، عاود الاتصال مرّة أخرى. ومن جديد، تناهى إليه الرنين. هل الهاتف تحت الأريكة؟ انحنى لإلقاء نظرة تحت الأثاث الأنيق. وبينما كان يُحدّق إلى الفراغ المُعتم، أدرك على الفور أنّ منشأة العتبة تتعرّض لهجوم.

فقد التقت نظراته بالنظرات الخاوية لعيني الضابطة الميدانية سوزان هاوسمور.

* * *

في القبو الجليديّ، كان الغولم يُحدّق إلى الجهاز الضخم أمامه. كانت الآلة المعدنيّة اللامعة تشكّل حلقةً دائريّة ضخمة من الألمنيوم المصقول، وتشغلّ تقريباً كامل مساحة الغرفة الخرسانية. بلغ قطر الآلة نحو خمسة أمتار، وارتفاعها مترًا واحدًا، بحيث بدت أشبه بكمعكة دونات معدنيّة عملاقة. كان الشكل الغريب - المعروف تقنيًا باسم الشكل الحلقيّ، بحسب البحث الذي أجراه الغولم صباحًا - هو الأكثر كفاءةً على ما يبدو لتغليف اللفائف ذات القدرة الفائقة على التوصيل؛ إذا كان الهدف توليد مجالٍ مغناطيسيّ قادرٍ على تخزين كمّيّات هائلة من الطاقة.

قال في سرّه: SMES، نظام تخزين الطاقة المغناطيسيّة فائقة التوصيل.
هذا هو المصدر السريّ لطاقة العتبة.

كان الغولم قد علم هذا الصباح أنّ الطاقة التي تُصخّ في المجال المغناطيسيّ الحلقيّ تطلّ تدور في حلقاتٍ لا مُتناهية، ومن دون أيّ تدهور، ويمكن سحبها عند الحاجة. والشرط الوحيد لذلك هو الحفاظ على برودة اللفائف.

برودة قصوى.

كانت درجة الحرارة الحرجة لتلك اللفائف تقلّ عن 260 درجة مئوية تحت الصفر، وأيّ ارتفاع - ولو كان طفيفاً - سيتسبّب في فقدانها قدرتها الفائقة على التوصيل، فتبدأ بمقاومة التيار. وتؤدي هذه المقاومة إلى ارتفاع سريع في حرارة اللفائف؛ الأمر الذي يؤدي بدوره إلى مزيد من المقاومة، وفي غضون ثوانٍ، تخرج العملية عن السيطرة... مُسببةً حادثاً خطيراً يُعرف باسم الانهيار الحراريّ.

ولتجنّب الانهيار الحراريّ، تُغمّر اللفائف باستمرار في حمامٍ من أبرّد سائلٍ على وجه الأرض؛ الهيليوم السائل.

نظر الغولم إلى ما وراء نظام SMES، إلى الغرفة المُجاورة. هناك، في قفصٍ شبكيّ من معدن ميو⁽¹⁾ (Mu-metal) اصطُفّت اثنتا عشرة أسطوانة من الفولاذ الأوستنيتيّ المُقاوم للصدأ، والتي تحتوي على الهيليوم السائل. بلغت سعة كلّ أسطوانة من أسطوانات Cryofab خمسمئة غالون، وكانت بطول قامته تقريباً، ومُجهّزة بوصلات تبريد، وأنايب معزولة بتفريغ الهواء، تنقل السائل البارد إلى جهاز التخزين الحلقيّ للحفاظ على برودة اللفائف.

كان الهيليوم السائل آمناً نسبياً؛ فهو غير قابل للانفجار أو الاشتعال، كما أنّه لا يُسبّب التسمّم. لكنّ خطورته الوحيدة تتمثّل في امتلاكه أدنى نقطة غليانٍ معروفة للإنسان... ناقص 270 درجة مئوية. وهذا يعني أنّه، إن ارتفعت حرارته فوق تلك الدرجة - وهي أصلاً قريبة من الصفر المُطلق -⁽²⁾ فإنّه يغلي فوراً، ويتحوّل إلى غاز الهيليوم.

كان الغاز نفسه غير ضارٍّ أيضاً، لكنّ الخطر يكمن في فيزياء عملية التحوّل. فحين يتحوّل الهيليوم السائل إلى غاز، تتمّ العملية بسرعةٍ وعنّفٍ مُذهلين... وهي، في الحقيقة، السبب الرئيس الذي جعل منشأة العتبة تستولي على فتحة التهوية المُموّهة بشكل الروبوت R2-D2 في منزّه فوليمانكا.

في الواقع، حين يتحوّل الهيليوم من حالته السائلة إلى الغازية، يتضاعف حجمه بنسبة مُذهلة تبلغ 1 إلى 750. أي إنّ كمية الهيليوم السائل الموجودة في هذا القبو، لو أُطلقت،

(1) معدن ميو هو سبيكة من النيكل والحديد ذات نفاذية مغناطيسيّة عالية جداً، ممّا يجعله فعالاً في حماية المعدات الإلكترونيّة من المجالات المغناطيسيّة منخفضة التردد.

(2) الصفر المُطلق هو أدنى درجة حرارة ممكنة نظرياً، وهي تعادل -273.15 درجة مئوية.

لتحوّلت في لحظاتٍ إلى غازٍ كافٍ لملء سبعة أحواض سباحة أولمبية.

وفي مكانٍ خالٍ من التهوية، لن يجد الغاز الجديد حيّزًا يتمدّد فيه، فيتراكم الضغط بسرعةٍ جنوبيةٍ تُؤدّي إلى ما يُعرف بـ "قنبلة الضغط"، وهي قوّة تفجيريةٍ عنيفةٍ شبه فوريةٍ تتمدّد في كلّ الاتجاهات، مُحطّمة كلّ ما يعترض طريقها، ومُحدّثة موجة صدمةٍ تُشبه إلى حدّ كبير تلك الناتجة عن سلاح نوويّ تكتيكيّ، تمرّق كلّ ما يقع ضمن شعاعٍ مُحدّد.

لتفادي مثل هذه الكوارث، فإنّ جميع المنشآت التي تستخدم الهيليوم السائل - بما في ذلك المستشفيات المُزوّدة بأجهزة التصوير بالرنين المغناطيسيّ - مُلزّمة بتركيب أنبوب تهوية يتمدّد صعودًا عبر سقف المبنى، ليُتيح للغاز المُتوسّع مسارًا آمنًا للخروج في حال حدوث تسرّبٍ مُفاجئ، بدلًا من تفجير المبنى. وكان أنبوب التهوية في منشأة العتبة ضخمًا؛ شأنه شأن كمّيّة الهيليوم السائل المُخزّنة هنا في الأسفل.

نظر الغولم مُجددًا إلى أسطوانات Cryofab الاثنتي عشرة. لا شكّ في أنّها تحتوي على أكثر من عشرين ألف لتر من الهيليوم، حسب تقديره. ممّا يعني أنّ قدرة التمدّد المُحتَملة هائلة إلى حدّ لا يمكن قياسه.

كان قد قرأ على الإنترنت أنّ الانفجارات الناتجة عن الهيليوم السائل ليست نادرة؛ فمنها ما وقع في صاروخ Falcon 9 التابع لشركة SpaceX، وفي مُسرّع الجسيمات في شركة CERN، بل وحتى في عيادةٍ بيطريّةٍ في نيوجيرسي حين انفجر جهاز الرنين المغناطيسيّ إثر تسرّب بسيط.

وقد أدرك الغولم أنّه إن حدث انبهارٌ حراريّ غير مُتوقّع في جهاز SMES، فإنّ الهيليوم السائل المُعبأ في الجهاز سيغلي فورًا، ويتحوّل إلى سيلٍ هائلٍ من الغاز المُتمدّد الذي يتدفّق صعودًا عبر الأنبوب، وينطلق إلى سماء براغ في نافورةٍ جليديّةٍ من الهيليوم المُتجمّد. ناسفًا في الأرجح رأس R2-D2 في طريقه.

مع ذلك، لم يكن الهيليوم الموجود داخل جهاز SMES سوى جزءٍ يسيرٍ من الكمّيّة المُخزّنة في الأسطوانات. ولا يمكن للغولم حتّى أن يتخيّل ما قد يحدث لو أنّ كلّ الهيليوم في المنشأة أُطلق دفعةً واحدة... مُتحوّلًا من سائلٍ إلى غازٍ في لحظةٍ واحدة. حادثة كهذه لم تقع قطّ؛ في أيّ مكانٍ على وجه الأرض. فكثيره كانت أنظمة الأمان التي حالت دون ذلك.

كانت أسطوانات الهيليوم متينة للغاية، ومُزوّدة بعدّة طبقاتٍ من الحماية. فالأسطوانة أشبه بقارورة عملاقة حافظة للحرارة مُزدوجة الهيكل، تعتمد على الفراغ التام كأفضل عازلٍ طبيعيٍّ للحفاظ على برودة السائل، ومنع تحوّلِهِ إلى غاز. ولمزيدٍ من الأمان، يُخزّن الهيليوم

تحت ضغطٍ مُرتفعٍ جدًّا، ممَّا يرفع درجة غليانه، ويمنحه هامش أمانٍ أوسع قبل بلوغ الحرارة الحرجة.

أمَّا التدبير الاحترازيّ الأخير فكان قرص الأمان؛ وهو قرصٌ نحاسيٌّ صغيرٌ مُدمجٌ في جدار القارورة. صُمِّمَ هذا القرص عمدًا كنقطة ضعف، وتمّ تعييره لينفجر إذا ارتفع الضغط الداخليّ أكثر ممَّا ينبغي... فيسمح بتنفيس آمنٍ يمنع انفجار القارورة بالكامل.

ورغم أنّ هذه الأقراص صُمِّمَت للانفجار نحو الخارج، إلّا أنّها قد تنفجر أيضًا نحو الداخل إن ارتفع الضغط الخارجيّ حول الخزّان كثيرًا. وبالتأكيد، هذا الأمر لم يحدث قطّ، إذ لم يُجازف أحد بتخزين الهيليوم السائل في مساحةٍ مُحكَّمة الإغلاق.

ومع وجود هذه الطبقات الثلاث من أنظمة الأمان، كانت احتماليّة تعرّض أكثر من أسطوانة للفشل في الوقت نفسه شبه معدومة.

ببساطة، لا يمكن أن يحدث ذلك.

ليس من دون تدخل.

وبينما استعاد الغولم في ذهنه أهوال ما فعلته العتبة بساشا، ألقي نظرةً أخيرة على نظام SMES الذي كان يُصدر أزيزًا خافتًا، وتأمّل في المفارقة. فهذا الجهاز نفسه الذي يُعدّ المصدر السريّ لطاقة العتبة... كان على وشك أن يتحوّل إلى أداة فنائها.

الفصل 104

دخلت كاثرين مُختبر الأحياء برفقة لانغدون، وبدأت تتفحص بعناية الآلة المُعقدة التي أمامها.

لا وجود للخلايا العصبية الاصطناعية... ليس بعد.

هذا ما ظنّته كاثرين... لكنّها لم تعد مُتأكّدة الآن. صحيح أنّ الآلة تبدو كحاضنة مائية مُتقدّمة، لكن لم يكن بمقدورها أن تعرف - بالعين المُجرّدة - ما تحتويه تلك القوارير المملوءة بالسائل.

هذا مستحيل... أليس كذلك؟

تمحورت دراسات كاثرين العليا في علم الدماغ حول الكيمياء العصبية؛ إذ تَخَصّصت في دراسة الآليات الكيميائية الدقيقة التي تعمل بها الشبكات العصبية في الدماغ. أمّا فكرة الخلايا العصبية الاصطناعية، فقد طُرحت نظرياً للمرّة الأولى عام 1943 من قبل العالمين الأميركيّين وارن مكالوك ووالتر بيتس؛ لكنّ تحقيقها ظلّ دوماً حلمًا بعيد المنال. لا، بل كان علماء الأحياء يتندّرون بمقولة شهيرة: سيسكن الإنسان المريخ قبل أن تتمكّن من بناء خلية عصبية اصطناعية بوقت طويل.

قالت كاثرين وهي تشير إلى رفّ كتبٍ في الجهة المُقابِلة: "تحقّق من تلك الكتيّبات الإرشادية. انظر إن كان بينها ما يخصّ هذه الحاضنة، أو ما يُزرع داخلها، وأنا سأفتش الأدراج". توجه لانغدون إلى رفّ الكتب، بينما بدأت كاثرين بالبحث في مجموعة من الأدراج المُلحقة بالطاولة المعدنية اللامعة. كانت معظم المختبرات المُنظّمة - ومنها معهد علم الوعي - تحتفظ بما يُعرف بـ "دفتر بروتوكول" لكلّ مشروع؛ وهو نسخة ورقية من التعليمات والإجراءات تضمن توحيد النتائج وإمكانية تكرارها. هذا ما أملت كاثرين في العثور عليه، لكنّها لم تجد شيئاً يُذكر في الأدراج.

أخيراً، عثرت على دُرَج مُسطّح خفيّ في الطاولة، وهناك، وجدت شيئاً واعدًا... مُجلّدًا أسود ثقيلاً ذا حلقات معدنية ثلاث. لم يكن المُجلّد في الأرجح دفتر البروتوكول الذي تبحث عنه، لكنّه جعل الشعريرة تسري في جسدها عندما قرأت الكلمات البارزة على غلافه.

سِرِّي للغاية

ملكيّة وكالة الاستخبارات المركزية

رفعت كاثرين المجلّد على الطاولة، وفتحته بسرعة.

أرجو أن أكتشف شيئاً هنا...

وبينما كانت تُقلّب صفحاته الأولى، فوجئت بأمر غير مُتوقّع؛ فالمؤلفون المشاركون في هذا المجلّد ينتمون إلى مُختبر الإلكترونيات العضوية (LOE) في السويد. هل جئدت الوكالة باحثين من LOE؟! كان المختبر من أرفع المراكز البحثية في العالم في مجال تطوير الخلايا العصبية الاصطناعية، بل هو نفسه الذي ذكرت كاثرين إنجازه قبل دقائق فقط؛ عندما تحدّثت عن تجربة نبات فينوس أكل الذباب!

تصفّحت المجلّد مبهورة، ومرّت على عناوين مُختلفة الأقسام، حتّى وقع نظرها على عنوان جعل الدم يتجمّد في عروقها.

التعديل عبر البوليمرات الموصلة الأيونية-

الإلكترونية المُختلطة

تعديل؟! سارعت كاثرين إلى تصفّح القسم المُخصّص لذلك، وقلبها يخفق بشدّة. هل يُعقّل أنّهم نجحوا فعلاً في حلّ مشكلة التعديل؟!!

في الواقع، تتمثّل إحدى أكثر العقبات تعقيداً في طريق ابتكار خلية عصبية اصطناعية في محاكاة "تعديل الأيونات"؛ وهي قدرة الخلية العصبية الطبيعية على تنشيط وتعطيل قنوات أيونات الصوديوم. ومع ذلك، إذا صدق هذا العنوان، فقد توصّل مشروع العتبة إلى حلّ لهذه المُعضلة.

لكن... كيف؟!!

تسارع نبض كاثرين وهي تقرأ عن طريقة علماء العتبة في تجاوز عقبة التعديل الأيوني. وكانت كلّ كلمة تقرأها منطقية تماماً بالنسبة إليها... لا بل أكثر ممّا ينبغي... وكلّما قرأت المزيد، ضاقت أنفاسها أكثر.

لا... لا... هذا مستحيل!

* * *

قال لانغدون، الذي اقترب منها بعد أن سمعها تشهق قبل قليل: "كاثرين، هل أنت بخير؟"

غير أنّها لم تُجِب، بل واصلت قلب الصفحات، واحدة تلو الأخرى، ونظرها يتنقل بين السطور وهي تتمم بكلمات غير مفهومة.

ألقى لانغدون نظرةً من فوق كتفها، لكنّ العنوان الذي قرأه لم يعنِ له شيئاً. التعديل عبر البوليمرات الموصلة الأيونية-الإلكترونية المختلطة.

مع مرور الثواني، أدرك أنّ كاثرين في حالة صدمة، فوضع يده على ذراعها برفق وسألها: "ما الأمر؟"

استدارت نحوه فجأة، وعيناها تتقدان: "ما الأمر؟ إنهم يستخدمون BBL كترانزستور كهروكيميائيّ عضويّ! لقد صبّوه في غشاءٍ رقيق، وأذابوه في حمض الميثان سلفونيك—" قال لانغدون مذهولاً: "تمهلي... ماذا تعنين؟"

قالت بسرعة: "BBL، إنهم يستخدمونه في الخلايا العصبية الاصطناعية! لقد كانت فكرتي أنا يا روبرت!"

قال: "أولاً، ما هو الـ BBL بالضبط؟"

قالت: "إنّه بنزيميدازوبينزوفينانثرولين Benzimidazobenzophenanthroline، بوليمر عالي التوصيل، يتميّز بالصلابة والمرونة في آنٍ واحد."

قال لانغدون: "حسناً... وماذا بعد؟"

"إنهم يستخدمون عملية التكاثر المتعدّد لتركيب BBL؛ وهذا اقتراحي أنا. والنتيجة مادةٌ فائقة التوصيل للإلكترونات... تشبه الخلية العصبية تماماً". ثمّ قلبت صفحةً أخرى وقالت: "انظر! البروتوكولات الكيميائية في هذا المجلّد مطابقة تماماً لما ورد في مخطوطتي! حتّى في أدقّ تفاصيلها! أنا من اقترح تعديل التوصيل بإضافة ثلاثة ملّي مولار⁽¹⁾ من الغلوتامين إلى المحلول الكهربائي،⁽²⁾ وهذا بالضبط ما يفعلونه!"

لم يفهم لانغدون كلّ ما قالته، لكن من الواضح أنّها اكتشفت نقطة تقاطع مباشرة بين مخطوطتها ومشروع العتبة. هذا ما جئنا من أجله.

قال بلطف: "كاثرين، التقطّي أنفاسك، واشرحي لي بلغة مبسّطة... ما الذي يجري؟" أوامت برأسها، ثمّ تنفّست بعمق، وقالت بصوتٍ منخفض: "أنا آسفة، باختصار، تناولت كتابي كيفية تصنيع هذه التقنية يوماً ما. فافترحتُ تحديداً نسج المادة المصنّعة في شكل شبكة عصبية توضع على الدماغ كغطاءٍ رقيق... مثل غشاءٍ من الخلايا العصبية على تماسٍ مباشرٍ مع أنسجة الدماغ". تنهّدت مضيفة: "والمذهل... أنّ هذا بالضبط ما يفعلونه هنا. أنا... في الحقيقة، لا أصدّق ما أراه."

"إذاً، فقد كتبت تحديداً عن الخلايا العصبية الاصطناعية؟"

(1) وحدة قياس لتركيز مادة كيميائية في محلول.

(2) محلول يحتوي على أيونات موجبة وسالبة قادرة على توصيل التيار الكهربائي.

"نعم، فعندما طرحْتُ فكرة شريحةٍ دماغيةٍ افتراضيةٍ لتنظيم حمض GABA، كنت أعلم أن تنفيذها مستحيل من دون خلايا عصبية اصطناعية، فوصفتُ تصوّري للطريقة التي يمكن بها تصنيعها يوماً ما... في المستقبل البعيد".

لكن، يبدو أنّ هذا المستقبل قد حلّ الآن، فكّر لانغدون في ذلك وهو ينظر إلى المُجلّد، وقال: "أتظنّين أنّ العتبة نجحت في بناء شريحة GABA التي اقترحتِها؟"

هزّت رأسها: "لا، لا أعتقد ذلك. لا أعلم ما نوع الشريحة التي صنعوها، لكنني شبه متأكّدة من أنها ليست تلك التي وصفتها. إن كانت لديهم خلايا عصبية اصطناعية، فكلّ شيء بات مُمكنًا؛ يمكنهم صنع أيّ شيء يحلمون به. فالخلايا العصبية الاصطناعية هي الخطوة الحاسمة اللازمة للوصول إلى الاندماج الكامل بين الإنسان والآلة". نظرت إليه بثبات وقالت: "روبرت، عليك أن تفهم أنّ هذه التقنية العصبية هي مفتاح المستقبل؛ لأنها ستُغيّر كلّ شيء".

لم يشكّ لانغدون في صدقها؛ فقد قرأ أكثر من مرة أنّ العلماء المستقبليين يتوقّعون أن تؤدّي ثورة الخلايا العصبية الاصطناعية إلى عصرٍ مُذهّل من الاتّصال المباشر بين العقول، وتعزيز الذاكرة، وتسريع التعلّم، بل وحتى تسجيل الأحلام وعرضها صباحًا.

غير أنّ ما أقلق لانغدون أكثر من أيّ شيء آخر هو التوقّع الذي أُطلق عليه اسم "أقصى درجات التواصل الاجتماعي"؛ بحيث يتمكّن البشر من تسجيل تجاربهم الحسية الكاملة... ومشاركة "قنواتهم" الشخصية مباشرة مع عقولٍ أخرى. وبذلك، سيصبح الناس قادرين على أن يعيشوا مُجدّدًا المشاهد، والأصوات، والروائح، والمشاعر التي اختبرها شخص آخر. وبطبيعة الحال، لن يمرّ وقتٌ طويل قبل أن تظهر مكثبات السوق السوداء التي تبيع ذكرياتٍ صادمة، أو مثيرة، أو دموية. فقد تناول فيلم "Strange Days" في تسعينيات القرن الماضي هذا العالم المُظلم... ويبدو الآن أنّ توقّعاته تتحقّق.

وعلى الرغم من إدراك لانغدون أنّ اكتشافًا كهذا قد يُشكّل نقطة تحوّل في تاريخ العلم، فإنّ ما شغل فكره لم يكن أثر هذا الاكتشاف في مستقبل البشرية، بل تداعيات حظّ كاثرين العاثر.

لقد اقترحت في كتابها فكرةً مُذهلة لا يمكن تصوّرها... لتكتشف أنّ سيّ أيّ إيه كانت تطوّرها سرًّا بالفعل.

ومع أنّ المُصادفة كانت صادمة، إلّا أنّ لانغدون يُدرك أنّ عبارة "العقول العظيمة تفكّر على نحو مُتشابه" ليست مجرّد قول مأثور، بل لطالما تكرّرت عبر التاريخ. فقد اخترع نيوتن ولايبنتز حساب التفاضل والتكامل في الوقت نفسه تقريبًا، وابتكر ألكسندر غراهام بل وإليشا

غراي الهاتف وقَدِّمًا براءتي اختراع بفارق ساعات. والآن، يبدو أن كاثرين سولومون ووكالة الاستخبارات المركزية توصلتا معًا إلى طريقة صنع خلايا عصبية اصطناعية. تمتعت كاثرين وكأنها تُحدِّث نفسها: "الآن، صار كل شيء واضحًا... لا عجب أنه تمَّ استهدافي..."

قال لانغدون بنبرة مُتعاظفة: "إنها مُصادفةٌ سيِّئة للغاية، لكننا على الأقل فهمنا—" قاطعته، وقد اشتعلت عينها غضبًا: "هذه ليست مُصادفة يا روبرت، بل إن سي أي إيه سرقت فكري!"

سرقت؟ بدا له الاتهام غير منطقي؛ فمن الواضح أن الوكالة كانت تعمل على تطوير الخلايا العصبية الاصطناعية منذ زمنٍ طويل قبل أن تُولف كاثرين كتابها. كرَّرت بعناد: "لقد سرقوا تصميمي! بكامله!"

منذ أن عرف لانغدون كاثرين سولومون، لم يسمعها يومًا تُطلق الادِّعاءات جزافًا، أو تبالغ في انفعالاتها. قال مُحاولًا تهدئتها: "لستُ أفهم. أنتِ تعملين على هذا الكتاب منذ عام، في حين إنَّ مشروع العتبة قائم منذ أكثر من عشرين—"

قاطعته قائلة بنظرات شرسة لم يعهدها منها: "أعتقد أنني لم أكن واضحة تمامًا. ففي مخطوطتي، ثمة فصل عن الخلايا العصبية الاصطناعية، أشرح فيه تفاصيل هذا التصميم تحديدًا. إلَّا أنني، في ذلك الجزء، كنت أتحدِّث عن شغفي القديم أيام دراساتي العليا، حين كنتُ أحلم بمستقبل علم الوعي... وأصمَّ تقنياتٍ افتراضية قد يستخدمها العلماء يومًا لتعميق فهمنا للوعي البشري".

اتَّسعت عينا لانغدون دهشة، وهو يدرك معنى ذلك. "يا إلهي! ماذا؟!!" أومأت كاثرين برأسها قائلة: "نعم، روبرت. أنا أوَّل من اقترح - ووثق - هذا التصميم نفسه للخلايا العصبية الاصطناعية في أطروحتي الجامعية للدراسات العليا... قبل ثلاثة وعشرين عامًا".

الفصل 105

رأت كاثرين، من ملامح الذّهل على وجه لانغدون، أنّه ما زال يحاول استيعاب ما قالته للتوّ.

قالت وهي تطرق بيدها على مُجلّد المنشأة السريّ: "هذا التصميم مُطابق تمامًا لذلك الذي وضعته للخلايا العصبية الاصطناعية، منذ ثلاثة وعشرين عامًا. لا شكّ لديّ في ذلك". سألهَا لانغدون: "إذًا، هل كتبتِ في أطروحة الدكتوراه عن الخلايا العصبية الاصطناعية؟" مكتبة سُرّ مَنْ قرأ

أجابت: "لا، ليس مُباشرةً. كنت أدرس علوم الأعصاب، وكانت أطروحتي بعنوان كيمياء الوعي؛ بحثٌ مُملٌ عن النواقل العصبية والإدراك. لكنني في نهايته -تمامًا كما في مخطوطتي الأخيرة- أضفتُ فصلًا عن مستقبل أبحاث الوعي. وفيه تخيلتُ عدّة اختراقاتٍ علمية مُحتملة، أبرزها ذاك الذي عدّته الإنجاز الأهمّ في مجالي -الخلايا العصبية الاصطناعية- وهي التكنولوجيا التي ستتيح أخيرًا إنشاء واجهة تفاعل حقيقي بين الإنسان والآلة، وتُمكن العلماء من مُراقبة وعي الدماغ بأساليب جديدة... لفهم كيفية عمله فعلًا". "وهل أنت مُتأكّدة من أنّ... هذا التطابق بين عملك وعمل سي أي إيه ليس مُصادفة؟"

"روبرت، الخلايا العصبية الموصوفة في هذا المُجلّد مُطابقة تمامًا لما اقترحتَه في أطروحتي، حتّى في التسميات! فهذا النصّ يستخدم حرفيًا عبارتي "الخيوط الحيويّة النانوكهربائية" و"الاندماج الشائبي العضوي-التقني"؛ وكلتاها من ابتكاري!" بدأ الاقتناع يظهر على ملامحه. "يا للعجب! هذا يعني أنّك، يا كاثرين سولومون، توصلتِ إلى طريقة صنع الخلايا العصبية الاصطناعية... وأنّ ما زلتِ طالبة دراسات عليا؟"

"كنتُ أتمتّع بخيالٍ جامع، وكانت الفكرة خيالية تمامًا. لا تنس أنّ الخلايا العصبية الاصطناعية كانت قبل ثلاثٍ وعشرين سنة محض خيالٍ علمي!"

قال لانغدون: "وكذلك كانت الهندسة الوراثية، والسيّارات ذاتيّة القيادة، والذكاء الاصطناعي. ومع ذلك، ها نحن نعيشها اليوم، بفضل قانون مور".

فكرت كاثرين في سرّها: صحيح، المستقبل يطرق أبوابنا أبكر ممّا نظنّ. تابعت: "قبل عشرين عامًا، كان أغلب العلماء يعتقدون أنّ الخلايا العصبية الاصطناعية ستكون مصنوعة من السيليكون. وهذا منطقي لأنّ الخلايا العصبية تعمل كمفاتيح تبديل

ثنائية؛ مثل تلك الموجودة في رقائق الحواسيب. غير أنني خالفتهم الرأي، وقلت في أطروحتي إنه بما أنّ الهدف النهائي هو الاندماج مع الدماغ، يجب أن تكون الخلايا العصبية بيولوجية؛ ثم أطلقت العنان لخيالي، وصمّمتُ، بتفصيلٍ دقيق، تصوّرٍي لكيفية ابتكار تلك الخلايا يوماً ما".

قال لانغدون بإعجاب: "في رأيي، كان تصوّراً ممتازاً. ويبدو أنّ الوكالة تعمل على تطويره منذ عقود... وقد نجحت أخيراً. أما مسألة الملكية والفضل العلميّ فستكون مُعقّدة".

قالت كاثرين وهي تُحدّق إلى المُجلّد: "ما يُحيرني هو كيف سمعوا بفكرتي... أو كيف وصلوا إلى أطروحتي أصلاً".

هزّ لانغدون كتفيه قائلاً: "لا تنسي أنّها أكبر وكالة استخبارات في العالم". فقالت وهي تسترجع الذكريات: "في الواقع... خطر ببالي شيء الآن..." وصمّمت مُتردّدة.

حتّى لانغدون على الكلام، بينما كان يلتقط المُجلّد ويتّجه نحو الباب: "أخبريني في الطريق؛ إذ علينا الخروج من هنا ومعنا هذا الملفّ، لإيصاله إلى السفارة. فلنأمل أن يكون كافياً".

حملت كاثرين حقيبتها على كتفها وسارت خلفه، والأفكار تعصف في ذهنها. قالت: "حدث شيءٌ غريب مع أطروحتي. لم أفهمه يومها، ولم أفكر فيه منذ عقود... لكنّه قد يُفسّر كلّ شيء".

"ماذا حدث؟" طرح لانغدون السؤال وهما يحثّان الخطى عبر المختبر المضيء. "كان مشرفي في برينستون البروفيسور أ.ج. كوزغروف، الكيميائيّ الأسطوريّ الذي أخذني تحت جناحه. أحبّ أطروحتي، وقال إنّها تستحقّ جائزة بلافاتنيك، وهي جائزة وطنية لأبحاث ما بعد الدكتوراه. على أيّ حال، لم أفز، ولم أبالٍ بالأمر، غير أنّ كوزغروف غضب كثيراً، ودخل في نزاع مع رئيس لجنة الجائزة، وكان أستاذاً لامعاً من جامعة ستانفورد. وحين انتهى الخلاف أخيراً، قال لي إنّني كنت أستحقّ الجائزة، لكنني حرّمت منها «لأسبابٍ لا علاقة لها بالكفاءة». فظننتها مجرد سياسةٍ جامعيّة، ولم أولها اهتماماً، خصوصاً أنّني كنت قد قرّرت التحوّل إلى دراسة علم الوعي. غير أنّه قال لي حينذاك شيئاً غريباً... قال إنّني، قبل أن أترك دراسة العلوم العصبية بالكامل، فإنّه يوصيني بشدّة..." وتوقفت كاثرين أمام الباب. "آه... لا".

التفت إليها لانغدون مُتسائلاً: "ما الأمر؟"

أغمضت كاثرين عينيها غير مُصدّقة، ووضعت حقيبتها على إحدى طاولات العمل. وسط كل هذه الفوضى، لم يخطر ببالها الأمر حتى هذه اللحظة. فتحت عينيها، ومررت يدها عبر شعرها الداكن الكثيف، ثم همست قائلة: "روبرت، ثمة سببٌ أهم بكثير لسعي وكالة الاستخبارات إلى دفن كتابي إلى الأبد".

* * *

حمل فينش مسدس SIG Sauer الذي انتزعه من الضابطة الميدانية هاوسمور، وقفز من عربة العتبة، ثم اندفع مُسرّعا عبر المنصة المألوفة، مُخترقا مركز الأمن الخالي من الحرس. فبعد أن عثر على جثة الضابطة في الردهة، انطلق مباشرة إلى ورشة عمل غِسْنِر، وهناك، تأكدت له أسوأ مخاوفه بوضوح صادم. بريغيتا قُتِلت.

اتصل فينش بالوكالة فورًا وطلب الدعم، لكن مع مقتل ضابطته الميدانية، أدرك أن وصول التعزيزات إلى الموقع سيستغرق وقتًا. كان الموقف يزداد خطورةً وتعقيدًا، والحيطة تقتضي أن يتصرف بسرعة. وكان فينش رامياً ماهراً، وقادرًا تمامًا على تحييد أيّ تهديد قد يُواجهه. حين دخل ممرّ العمليّات، شعر ببعض الارتياح عند رؤيته الأنوار مُطفأة في هذا القسم. مع ذلك، كان قد شارك في تصميم هذه البنية التحتية، ويعرف أن الأنوار تُطفأ تلقائيًا كل عشر دقائق. لذلك، لم يكن الظلام ضماناً على أنه بمفرده هنا.

ما زال فينش غير قادر على استيعاب أن هاوسمور وغِسْنِر قُتِلتا. وما زاد الأمور إرباكًا أن هوية القاتل كانت غير مُتوقّعة على الإطلاق. فحين سحب جثة هاوسمور من خلف الأريكة، لمح على السجادة عصاً معدنية لتسكين نوبات الصرع. بدا له أن أحدهم أسقطها هناك، ولم يدخل حصن الصليب سوى مريضين اثنين بالصرع - ساشا فيسنا وديم تري سيسيفيتش - وكلاهما استقديما من المؤسسة نفسها.

وقد أكدوا لي أنّ ديم تري لم يعد بيننا.

كانت فكرة إقدام ساشا على قتل أحد غير واردة تقريبًا. فلطالما وصفتها غِسْنِر بأنها خجولة وطيبة. لكن، بحسب ما ورد في التقارير، فقد هاجمت اليوم ضابطاً من الاستخبارات التشيكية؛ وهذا يعني أن المرأة تعاني من اختلال خطر في توازنها النفسي.

فقد تعرّض دماغها لضغطٍ هائل، وليس مُستبعداً أن تكون قد عانت من انهيارٍ عصبيّ. هل يُعقل أن تكون ساشا قد قتلت غِسْنِر؟ بدا ذلك مُستحيلًا... لكن، لو اكتشفت ما فعلته بها غِسْنِر، فسيكون لديها دافعٌ قويٌّ للانتقام. مع ذلك، لم يقتنع فينش بأنها قادرة على

تنفيذ كل ذلك... على الأقل، ليس من دون شريك.

انعطف يمينًا نحو مختبر الأحياء، وارتاح عند رؤيته الجناح الجراحي غارقًا في الظلمة. وحين أضيئت المصابيح، بدا كل شيء في مكانه. تأمل فينش الجراح الآلي المُدلى من السقف. حتى الآن، كانت غسّير قد أجرت بواسطته جراحتين فقط على البشر؛ واحدة ناجحة، والأخرى انتهت بكارثة.

وبما أنه لم يكن في مزاج للمفاجآت، فقد قرّر تفتيش المنشأة بالكامل، بدءًا بمسح مُنظّم للقسم الطبي، للتأكد من أن أحدًا لم يختبئ تحت سرير أو داخل خزانة مُتَظَرًا أن تنظف المصابيح الحركية للخروج.

إن كان أحدهم قد تسلّل إلى العتبة، فلن يسمح له فينش بالفرار. فأَيّ شخص رأى ما في هذا المكان... سيكون قد حكم على نفسه بالموت.

* * *

عميقًا في القبو الذي يحتوي على نظام تخزين الطاقة المغناطيسية فائقة التوصيل (SMES)، نظر الغولم إلى فتحة التهوية المفتوحة. من الأعلى، بالكاد استطاع تمييز خيوط ضوء النهار المُتقطّعة التي تسرّبت عبر ثقب القبة المعدنية لرأس الروبوت البارز في متنزه فوليمانكا، على بُعد عدة طوابق فوقه.

لأسباب واضحة، كانت فتحات التهوية المُخصّصة للطوارئ تُترك مفتوحة دائمًا، لتأمين التهوية عند حدوث أيّ انهيار حراريّ. ولم يكن يُسمح بإغلاقها إلا لاختبار ضغط القبو؛ للتحقق من خلوه من أيّ تسريب، وضمن شروط صارمة للغاية... تحديدًا، للتحقق من عدم وجود أيّ أثر للهيليوم السائل.

لكن اليوم، سيطرَ تعديل بسيط على هذا البروتوكول.

استجمع ما تبقى من قوّته، وتسلق أعلى الحلقة المعدنية التي كانت تهدر بصوت خافت. كان سطحها مقوّسًا وزلقًا، لكنّ حذاءه أمّن له توازنًا كافيًا. شعر بالذبذبة الخفيفة التي تنبض في الجهاز وهو يمدّ يده نحو السقف، ويتشبّث بمقبض معدنيّ بارز من الأعلى. كان ذلك المقبض يتحكّم بنظام من البكرات التي تُحرّك لوحًا معدنيًا سميكًا مُثبتًا في السقف.

غطاء الاختبار.

كان اللوح الفولاذيّ المُرَبّع مُثبتًا على مسار حديديّ تمتدّ سكّته على جانبيّ فتحة التهوية. وبإدارة المقبض، يمكن رفع هذا اللوح، الذي يشبه غطاءً ضخماً لفتحة الصرف

الصحي، إلى موضعه فوق الفتحة، ومن ثمّ إحكام إغلاقه بوساطة براغيّ مجنّحة، ليُصبح المكان بأكمله مُغلّقًا بإحكام تامّ.
ولم يستغرب الحروف الحمراء المطبوعة على الغطاء الفولاذي:

NEBEZPEČÍ! NEZAVÍRAT!

DANGER! DO NOT CLOSE!

خطر! لا تُغلق الفتحة!

تجاهل الغولم التحذير تمامًا، وبدأ يُدير المقبض.
بعد دقيقةٍ واحدة فقط، سيصبح هذا القبو مُحكّم الإغلاق.

الفصل 106

سبب أهم؟

لم يستطع لانغدون أن يتصور أي دافع إضافي قد يحمل سي أي إيه على تدمير مخطوطة كاثرين. كتابها يكشف عن تكنولوجيا سرّية جديدة للوكالة. فماذا بعد؟ توقّفت كاثرين فجأة واستدارت نحوه، وقد ارتسم على وجهها قلق واضح تحت ضوء المصابيح الساطع. قالت: "أظنّ أنّ البروفيسور كوزغروف أدرك وجود خطب ما. فبعد مشاهدته مع بروفيسور جامعة ستانفورد، كلّفني بمهمّة أخيرة قبل أن أترك علم الأعصاب وأنتقل إلى علم الوعي، وكانت مهمّة غريبة بعض الشيء".

"ماذا طلب منك؟"

"أصرّ على أنّ خوض تجربة التقدّم بطلب براءة اختراع يُشكّل جزءاً من دراسة أيّ عالمٍ مُستقبليّ. وقال إنّهُ أعجِب بالمقاربة المُبدعة التي اعتمدتها في تصميم الخلايا العصبية الاصطناعية، وإنّه على الرغم من علمه أنّ البراءة لن تُمنح لي، فإنّه يشجّعني على التّقديم لها لأنّ العملية بحدّ ذاتها ستكون—"

قاطعها لانغدون: "مهلاً... هل تعنين أنّك تقدّمتِ فعلاً بطلب براءة اختراع لتلك الخلايا العصبية الاصطناعية؟"

أومأت برأسها مُجيبّة: "كانت مجرد تجربة أكاديمية. فقد نبّهني كوزغروف منذ البداية إلى أنّ الطلب سيُرفض بدعوى "انعدام الجدوى"؛ لأنّ الفكرة غير قابلة للتنفيذ. ومع ذلك، شجّعني على خوض التجربة بكلّ تفاصيلها التقنيّة، وأنّ أتصوّر أدوات وموادّ وتقنيّات لم تُخترع بعد، ثمّ أخوض عمليّة تقديم الطلب رسمياً. وهذا ما كان! فقد ملأتُ استمارة من أربع عشرة صفحة على أفضل وجه ممكن، وأرسلتها بالبريد. وكما توقّعت، رُفِضَ طلبي، ولم أفكر في الأمر بعدها قطّ..."

أدرك لانغدون بذهول، حتّى هذه اللحظة؛ حين رأت ابتكارها وقد تحوّل إلى حقيقة. تابعت كاثرين قائلة: "حين أسترّجع هذه الذكريات الآن، يخطر ببالي أنّ البروفيسور كوزغروف ربّما كان يحاول حمايتي عندما طلب منّي تقديم الطلب". صمّت لحظة، ثمّ أردفت بصوت مُتقطّع: "كأنّه كان يعلم السبب الحقيقي وراء رفض أطروحتي".

"لأنّ سي أي إيه كانت تستولي سرّاً على التكنولوجيا التي ابتكرتها؟"

"تسرقها، أجل".

"لكن، كيف عرف كوزغروف أن الوكالة تقف وراء ذلك؟"

قالت كاثرين: "هذا ما يُحيرني. لكن إحساسي يُنبئني أنه كان يعرف. فقد اكتشفتُ بعد سنوات أنني كنتُ الطالبة الوحيدة التي دفعها كوزغروف لتقديم طلب براءة اختراع".
"هذا مُريب حقًا".

"أجل، وكان مُصيرًا. أذكر أنه قال لي حينها: لا تتحدثي عن ابتكارك يا كاثرين، بل افعلي ما أقوله. لقد تُوفي منذ زمن، ولأ كنتُ سأُتصل به".
سألها لانغدون: "أما زلتِ تحتفظين بنسخة من طلبك؟" وتخيّل أنّها ورقة خطرة إن كانت لا تزال موجودة.

"كنتُ أحتفظ بنسخ بالتأكيد... لكنّها اختفت من ملفاتي في وقتٍ ما. ظننتُ أنّها ضاعت في أثناء التنقل بين المساكن، لكن الآن..."

في الأرجح، سرقت الوكالة تلك النسخ أيضًا. ارتعد لانغدون وهو يفكر أن سي أي إيه كانت تراقب كاثرين كلّ تلك المدة، لكن ذلك يُفسّر الكثير.

قالت كاثرين: "المُدهش في الأمر، أنني حين تلقّيتُ الرفض من مكتب البراءات في ذلك الوقت، لم يسعني إلّا أن أضحك. كانت أربع عشرة صفحة من أصدق جهودي العلميّة، وقد وُسمت كلّ صفحةٍ منها بختمٍ أحمرٍ كبيرٍ يحمل كلمة "مرفوض". فعرضتها على كوزغروف، لكنّه لم يَقْبَل الأمر بمرح بقدري. مع ذلك، طلب أن يحتفظ بنسخةٍ منها، للأجيال القادمة، وللوقت الذي سأصبح فيه مشهورة، فأعطيته واحدة بالتأكيد".

قال لانغدون بدهشة: "إذا، كوزغروف يحتفظ بنسخة؟!"

أومأت وهي تمسح دمعّة من طرف عينها: "نعم. وعندما تُوفي قبل نحو عشر سنوات، جاءت أخته إلى منزلي وهي تحمل ظرفًا بنيًا مَختومًا، وقالت إنه أوصى بأن يُسلّم لي بعد وفاته". ارتجف صوتها وهي تُضيف: "وبالفعل، كان في داخله طلب براءة اختراعي القديم المرفوض. صحيح أن حبره كان باهتًا، لكنّه لا يزال على حاله".

هذا لا يُصدّق. بات لانغدون الآن مُقنّنًا بأن أستاذ كاثرين الراحل قد أدرك وجود ما يُريب في الطريقة التي جرى بها التعامل مع أطروحتها، وطلب براءة الاختراع. أمّا كيفيّة معرفة كوزغروف ما عرفه، فلم تتبيّن لهما بعد، لكن من الواضح أنّه اتخذ تدابير تضمن بقاء دليل بيد كاثرين.

فكر لانغدون في سرّه: ورقة ضغط، هذا ما تمثّله.

سألها وقد خشي فجأة أن تكون سي أي إيه قد وضعت يدها على تلك النسخة أيضًا:
"وأيّن تلك النسخة الآن؟"

"في مكتبي في المنزل، على حدّ علمي".

فقال بحزم وهو يُشير نحو الباب: "علينا الذهاب فورًا. إن اكتشفت سي أي إيه—" غير أنّها قاطعته قائلة: "ثمّة أمر آخر يجب أن تعرفه". تردّدت قليلاً، ثم نظرت إليه مباشرة وتابعت قائلة: "بينما كنت أكتب الفصل الأخير من المخطوطة، ذاك الذي يتناول مُستقبل علم الوعي، وصفتُ فيه حلمي - وأنا في مستقبل العمر - بابتكار خلايا عصبية اصطناعية. وخطر لي حينها أن أضْمَنَ الكتاب نسخة من طلب براءة اختراعي المرفوض - بجميع صفحاته الأربع عشرة المَخْتومة بختم مرفوض - لظني أن مُشاركتي إخفاقي الأوّل قد تُلهِم الباحثين الشباب الذين يُواجهون الرفض في مسيرتهم العلميّة".

عقدت الصدمة لسان لانغدون. تلك هي القطعة الأخيرة من الأحجية. فطلب براءة اختراع كاثرين كان سيُسَرّ في كتابها على مرأى من العالم أجمع. ولم تكن وكالة الاستخبارات بحاجة إلى دافع آخر لاتّخاذ أقصى التدابير ضدها. العتبة هي مشروع مانهاتن لمستقبل علم الدماغ... وكانت كاثرين على وشك نشر المخطّطات التفصيليّة لقبيلتهم الذريّة.

استطاع لانغدون أن يتخيّل الكابوس القانوني الذي سيواجه الوكالة لو اكتشفت مُنظّمات رقابية - مثل اتّحاد العلماء الأميركيين - أن طلب براءة اختراع تقدّمت به باحثة مرموقة قد رُفِض... ثم سرّق لاحقاً من قبل الوكالة من دون علم الباحثة، ومن دون أيّ تعويض. سيكون الخبر حلماً لأتّي صحفيّ استقصائيّ.

كان الكتاب يتضمّن رؤية جريئة لابتكارٍ علميٍّ مذهلٍ يمثّل الحلقة المفقودة في السباق العالميّ نحو تحقيق التفاعل الكامل بين الإنسان والآلة. وحتى هذه اللحظة، وحدها وكالة الاستخبارات تمتلك هذا السرّ... لكن، إن نُشر الكتاب، فستتغيّر قواعد اللعبة بأكملها. ومهما يكن الهدف الحقيقيّ من زرع تلك الرقائق في الأدمغة، فقد أصبح واضحاً أنّ مشروع العتبة يمنح الوكالة تفوّقاً تكنولوجياً سرّياً وغير مسبوق.

مع ذلك، أدرك لانغدون أن ثمّة بُعداً آخر أكثر خطورة؛ العتبة منجم ذهب مُحتمَل. فلو قرّرت الوكالة تسويق تكنولوجيا التفاعل بين الإنسان والآلة، لتحوّلت شركة كيو إلى أغنى شركة استثمارٍ في العالم، ولأصبحت قادرة على تمويل عمليّات وكالة الاستخبارات كافّة. وفي الحالتيّن، السريّة شرط أساسيّ.

قالت كاثرين: "وهذا يُفسّر أيضاً سبب تباهي بريغيتا ببراءات اختراعاتها ليلة أمس. لقد أثارت الموضوع عمداً؛ لأنّها كانت في مهمّة استطلاعية. ألا تذكر أنّها سألتني إن كنت أملك أيّ براءات اختراع... أو إن كنت قد تقدّمت بطلب من قبل؟"

قال لانغدون: "بلى، وأجبت بالنفي".

"لم أرغب في الخوض في الموضوع، ثم إن الأمر مضى عليه زمن طويل".

قال لانغدون: "لا عجب إذاً أن يُصاب فينش بالذعر ليلة أمس. ففي الأرجح، أبلغته غُسير أنك لم ترفضى توقيع اتفاقية الحفاظ على السريّة فحسب، بل رفضت أيضاً منحها نسخة مُسبقة من الكتاب. ولا بدّ أنها أخبرته أنك كذبت بشأن عدم التقدّم بطلب براءة اختراع! ولهذا، ربّما ظنّ فينش أنك تحاولين تحقيق مكاسب شخصية، وتستعدّين لنشر فضيحة مُدوية".

فقال كاثرين وهي تُشير إلى المُجلّد السريّ في يده: "حسنًا، يمكننا نشرها الآن، ومعها دليلٌ قاطع؛ صورة PALM لشريحة مزروعة في دماغ بشريّ".
رفع حاجبيّه بدهشة: "ما معنى PALM؟"

"إنّها اختصار لـ Photoactivated Localization Microscopy، أو المجهر الموضوعي المنشط ضوئيًا؛ وهي تقنية تصوير دماغيّ مُتقدّمة. لقد شقّر علماء العتبة الخلايا العصبية الاصطناعية وراثيًا ببروتينات فلورية، وهذا ما مكّنهم من رؤيتها... وتتبع نموّها. فكرة ذكيّة، من ابتكارهم هم".

"مهلاً، هل يحتوي هذا المُجلّد فعلاً على صور؟! أنتِ لم—"

قالت كاثرين وهي تمدّ يدها لاستعادة المُجلّد: "لقد سحبته من يدي بسرعة، سأريك الآن".

فناولها المُجلّد على الفور، وقد اشتعل الأمل في عينيّه. فعلى الرغم من كلّ ما توصّلا إليه من أدلّة على أنّ سي أي إيه سرقت فكرة كاثرين، وتقوم ببناء خلايا عصبية اصطناعية، لم ير لانغدون بعد أيّ برهانٍ ماديّ على أنّ مشروع العتبة يُجري تجارب على البشر.
قد يكون الدليل هنا...

فتحت كاثرين المُجلّد، ووضعتَه على الطاولة أمامهما قائلة: "هذه صورة واضحة".
حين رآها لانغدون، شعر بالاشمئزاز... وبفرحة الانتصار في آنٍ واحد. كانت الصورة الملوّنة تشبه صورة أشعة سينية مُحسّنة حاسوبياً لدماغ بشريّ داخل الجمجمة. لكنّ المروّع فيها لم يكن الدماغ نفسه، بل ما كان يشاركه الحيز داخل الجمجمة.

فأسفل العظم مباشرة، كانت ثمة شريحة إلكترونية ضخمة مزروعة داخل النسيج العصبيّ، يتصل بها سلك يمتدّ إلى شبكة مُضيئة من خيوط فلوروسنت دقيقة، بدت منسوجة على هيئة قُبعة شفّافة، تشبه شبكة شعر، تُغطّي الدماغ بأكمله.
قالت كاثرين: "هذه الشبكة العصبية... كانت فكرتي".

وقف لانغدون مذهولاً بينما كانت كاثرين تقلّب الصفحات المليئة بالصور والرسوم البيانية والملاحظات التي تُوثّق تطوّر الزراعة العصبية عبر الزمن. كانت السجّلات صامدة، لكنّ الصدمة الكبرى جاءت حين لمح بخطّ صغير أسفل كلّ صفحة تعريفاً جعل الدم يتجمّد في عروقه.

المريض رقم 002 / فيسنا

همس وقد تأكدت أسوأ مخاوفه: "ساشا... ماذا فعلوا بك؟" شعر بالغثيان وهو يرى في الصور شبكةً كثيفة من المجسّات التي تنتشر فوق دماغ ساشا كأنّها طفيليات من نوع ما. المفارقة أنّهما تسلّلا إلى مُختبر "العتبة" بحثاً عن دليل يُدين الوكالة... ليكتشفا أنّ الدليل الوحيد والأشدّ إدانة كان خارج المُختبر، مَزروعاً في رأس ساشا فيسنا نفسها. *آمل أن تكون السفيرة قد عثرت عليها، تمنّى لانغدون ذلك، وشعر مُجدّداً أنّ الوقت قد حان لمغادرة هذا المكان.*

قالت كاثرين: "مهما يكن ذلك الشيء المَزروع في دماغ الأنسة فيسنا، فمن المستحيل أن يقتصر دوره على علاج الصرع".

"هل بين هذه الأوراق ما يشرح وظيفة هذه الشريحة؟" أجابت وهي تقلّب الصفحات بسرعة: "لا شيء مُحدّد. فهذا المجلّد يركّز بالكامل على عمليّة الاندماج العصبي، ولا بدّ لي من الاعتراف بأنّي مذهولة من سرعة نجاحهم في تحقيق الاندماج".

"ماذا تعنين بالاندماج؟"

"الاندماج بين الشريحة والدماغ. فحين تُوضَع شبكةٌ عصبية اصطناعية على دماغ حيّ، يحتاج العنصران إلى وقتٍ طويل لكي يلتحما في نظام واحد. فاللدونة العصبية مُعجّزة، لكنّها لا تحدث بين ليلة وضحاها. إذ يحتاج الارتباط الكامل بين الدماغ وزراعة عصبية إلى عقدٍ من الزمن على الأقلّ، وربما عقدين. وكان هذا أحد العوائق التي تناولتها في أطروحتي".

سألها لانغدون: "وما الحلّ الذي اقترحتِه؟"

أجابت: "لم أقترح أيّ حلّ؛ لا حلّ سوى الانتظار. فالنموّ البيولوجي يستغرق وقتاً، والتطوّر يستغرق وقتاً. مع ذلك... صمتت وهي تحدّق إلى سلسلة من الرسوم البيانية، ثم هزّت رأسها بدهشة. "لقد سرّعوا العمليّة بطريقة مُذهلة. ففي عام واحد فقط، حقّقوا ما يُفترَض أن يستغرق عشرة أعوام على الأقلّ. والسؤال... كيف؟" تابعت تصفّح المجلّد، إلى أن توقّفت عند صورة صغيرة لوجه ساشا فيسنا حين كانت أصغر سنّاً، بشعرٍ أشقر طويل.

قال لانغدون: "أما أنا فلديّ سؤال آخر. إذا كانت ساشا المريضة رقم اثنين..."
 رفعت رأسها بسرعة وقالت: "صحيح، مَنْ المريض رقم واحد إذا؟"
 راحت تُقلب الصفحات عائدةً إلى الخلف، وباحثةً عن معلومات عن المريض الأول،
 الذي افترض لانغدون أنّه لا بدّ أن يكون مريض الصرع الروسيّ، ديمتري، من المؤسسة
 نفسها التي استقدّمت منها ساشا.
 قالت كاثرين: "هذا غريب، لا أرى أيّ بياناتٍ لمريضٍ آخر. آه، مهلاً، ها هو! القسم
 المُخصّص له أصغر بكثير، يبدو أنّي تجاوزته".
 ضمّ القسم مجموعة من البيانات، والرسوم البيانيّة، وصورة أشعة مُماثلة تُظهر دماغاً
 يحتوي على شريحة مزروعة وشبكة عصبية اصطناعية مُتصلة بها.
 كُتب أسفل الصفحة:

المريض رقم 001 / سيسيفيتش

قال لانغدون في سرّه: الاسم يبدو روسيّاً بلا شكّ.
 فقالت كاثرين: "رجل وسيم". كانت قد قلبت الصّفحة، وراحت تتأمّل صورة صغيرة
 لرجل قاسي القسمات، ذي فكّ مُربّع، وشعر أسود وأجعد. كانت ملامحه سلافيةً حتمًا،
 قويّة وقياديّة، غير أنّ نظرة عينيه الجامدة بدت مُقلقة. قالت كاثرين وهي تقرأ: "يبدو أنّ هذا
 الشاب قد خضع لعملية الزرع نفسها التي أُجريت لساشا. لكنّ الغريب أنّه ما من بيانات
 لإجراءات ما بعد العملية... لا شيء على الإطلاق".
 قال لانغدون وهو يتوجّه نحو الباب الدوّار: "يمكننا مُناقشة ذلك في الطريق. علينا
 الخروج من هنا".
 أغلقت كاثرين المُجلّد، ووضعت في حقيبتها، ثمّ قالت: "يؤسفني قول ذلك، لكنّ
 السجّلات توقفت فجأة. لا مُتابعة طبيّة، لا شيء على الإطلاق؛ كأنّهم زرعوا الشريحة...
 وحدث خطأ ما. ربّما مات".
 كانت الفكرة مُزعجة، لكنّها تمنحهما ورقة ضغطٍ إضافيّة؛ فلو تبين أنّ وكالة
 الاستخبارات أجرت تجاربها على مريض صرع روسيّ من دون علمه، وأدت تلك التجارب
 إلى وفاته، فالعواقب الدبلوماسية ستكون وخيمة في عالمٍ مُتوتّر أصلاً.
 حين دفعا الباب الدوّار وخرجا إلى الممرّ، شعر لانغدون ببعض الارتياح عند رؤيته
 الممرّ غارقاً في الظلام، بعد انطفاء الأضواء تلقائيّاً في أثناء وجودهما في المختبر.
 ما زلنا وحدنا هنا.

أُضِيَّتْ مَصَابِيحُ الْأَرْضِيَّةِ تَلْقَائِيًّا، فَالْتَفَتَا مَعًا إِلَى الْبَابِ الْمُزْدَوِّجِ الَّذِي دَخَلَا مِنْهُ سَابِقًا. وَمَا إِنْ تَقَدَّما بِضَعِ خَطَوَاتٍ، حَتَّى أَمْسَكَتْ كَاثَرِينَ بِذِرَاعٍ لَانْغِدُونَ، وَهَمَسَتْ مُشِيرَةً إِلَى الْبَابِ ذِي النَّافِذَتَيْنِ الْبَيضَوَيْتَيْنِ أَمَامَهُمَا: "انْظُرْ!"

كَانَ لَانْغِدُونَ قَدْ رَأَى مَا رَأَتْهُ؛ فَمَصَابِيحُ الْغُرْفَةِ الْمُجَاوِرَةِ أُضِيَّتْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ.

* * *

بَعْدَ أَنْ فَتَشَ فَيَنْشَ الْجَنَاحَ الطَّبِّيَّ بِدَقَّةٍ، وَاصِلَ سِيرِهِ مُنْعَطِفًا عِنْدَ الزَّاوِيَةِ، فَأُضِيَّتْ مَصَابِيحُ الْأَرْضِيَّةِ أَمَامَهُ لِتَنْبِيرِ طَرِيقِهِ نَحْوَ الْبَابِ الْمُزْدَوِّجِ فِي نِهَازَةِ الْمَمَرِّ. لَمْ يَتْرَكْ شَيْئًا لِلصَّدْفَةِ، بَلْ أَطْلَلَ بِرَأْسِهِ عَلَى قِسْمِ الْحَوْسِبَةِ الْغَامِرَةِ، وَتَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ حِينَ رَأَى كِرَاسِي الْوَقَاعِ الْإِفْتِرَاضِيَّ جَمِيعَهَا فَارِغَةً، وَالْخَوْذَ مُصْطَفَّةً فِي أَمَاكِنِهَا.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى كِرْسِيِّ الْمَكْتَبِ الْمَقْلُوبِ جَانِبًا... وَمِنْ ثَمَّ عَلَى الزَّجَاجِ الْمُحَطَّمِ لِنَافِذَةِ غُرْفَةِ الْحَاسُوبِ.

عَادَةً، كَانَ فَيَنْشَ سَيَهْرَعُ لِلتَّحَقُّقِ مِنَ الْحَاسُوبِ، لَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَمْرًا أَكْثَرَ إِثَارَةً لِلْقَلْقِ. كَانَ رَدًّا فَعَلٌ مُتَأَخِّرًا عَلَى شَيْءٍ لَمَحَهُ قَبْلَ لِحْظَاتٍ فَقَطْ فِي الْمَمَرِّ... وَمِيضٌ خَافَتْ يَتَسَرَّبُ مِنَ النَّافِذَتَيْنِ الْبَيضَوَيْتَيْنِ لِلْبَابِ الْمُزْدَوِّجِ. فَقَدْ كَانَتْ مَصَابِيحُ قِسْمِ الْبَحْثِ وَالتَّطْوِيرِ RTD مُضَاءً.

* * *

ثَمَّةُ شَخْصٍ قَادِمٍ!

لَمْ يَعْرِفْ لَانْغِدُونَ وَكَاثَرِينَ اللَّذَانِ يَقِفَانِ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى مِنَ الْبَابِ، مَا إِذَا كَانَ الْقَادِمُ عَامِلَ نِظَافَةٍ، أَوْ حَارِسًا، أَوْ شَخْصًا أَكْثَرَ خَطُورَةً... لَكِنْ اقْتِضَاحُ أَمْرِهِمَا لَمْ يَكُنْ وَارِدًا. لِسُوءِ الْحِظِّ، كَانَا مُحَاصِرَيْنِ فِي مَمَرٍّ مَسْدُودٍ، لَا مَخْرَجَ لَهُ إِلَّا الطَّرِيقَ الَّذِي دَخَلَا مِنْهُ.

انْدَفَعَ لَانْغِدُونَ عَائِدًا نَحْوَ قِسْمِ RTD، عَلَى أَمَلٍ إِيجَادِ مَكَانٍ يَخْتَبِئَانِ فِيهِ. لَكِنْ حِينَ اقْتَرَبَ مِنَ بَابِ الْغُرْفَةِ الْمُعَقَّمَةِ، التَفَتَ لِيَجِدَ كَاثَرِينَ قَدْ تَوَقَّفَتْ وَسْطَ الْمَمَرِّ وَهِيَ تُشِيرُ إِلَى الْأَرْضِ.

قَالَتْ هَامِيسَةُ: "رُوبَرْت، هَذِهِ آثَارُ إِطَارَاتٍ!"

كَانَ لَانْغِدُونَ قَدْ رَأَى الْعَلَامَاتِ نَفْسَهَا سَابِقًا؛ خَدُوشًا مُتَكَرِّرَةً فِي الْأَرْضِيَّةِ اللَّامِعَةِ خَلْفَتْهَا عَجَلَاتُ الرَّافِعَةِ الشُّوكِيَّةِ.

كَانَ لَا يَزَالُ يُحَدِّقُ إِلَى الْآثَارِ مُرَبِّكًا، حِينَ رَكَضَتْ كَاثَرِينَ بِسُرْعَةٍ مُتَجَاوِزَةً إِيَّاهُ، وَهِيَ تُلَوِّحُ بِيَدِهَا لَكِي يَتَّبِعُهَا إِلَى آخِرِ الْمَمَرِّ. مَا الَّذِي تَفْعَلُهُ؟! مَا مِنْ مَخْرَجٍ هُنَاكَ! غَيْرَ أَنَّهُ أَدْرَكَ

بعد لحظات ما رأيته. فقد امتدّت آثار الإطارات على الأرض، ثمّ اختفت... تحت الجدار الذي يسدّ الممرّ.

مستحيل... إلّا إذا...

انطلق يجري بأقصى سرعته، حتّى صار بمحاذاة كاثرين، على بُعد خمس عشرة ياردة من الجدار. عندئذ، لمح العين الإلكترونية، فاندفع نحوها مُلوّحاً بيده أمام المُستشعر. فجأة، بدأ الجدار بأكمله ينزلق إلى اليسار بسلاسة، كاشفاً عن ممرٍّ آخر مُظلم يمتدّ خلفه. هبّت من الفتحة نسمة باردة بروداً ملحوظاً.

ومن دون أن يتوقّف، ركضاً عبر الممرّ الجديد، ليغرقا بعد بضعة خطواتٍ في ظلامٍ دامس. توقّفا أخيراً عند درابزين معدنيّ، بينما كان الجدار ينغلق خلفهما ببطء.

ازداد سطوع الضوء تدريجياً، كاشفاً عن مُحيطهما الجديد.

فذهل لانغدون حين لاحظ أنّهما كانا يقفان عند مُنحدرٍ إسمنتيّ يلتفّ نزولاً حول محيط بئر ضيقة. وحين نظر من فوق الدرابزين إلى الظلام المُخيم في الأسفل، أدرك أنّ مُنشأة العتبة كانت أضخم بكثيرٍ ممّا رأيا حتّى الآن... وتمتدّ في اتّجاهٍ مُثير للقلق. نحو الأسفل.

الفصل 107

كانت السفارة ناغل تهبط بسرعة درجات السلم الرّخاميّ في مبنى السفارة، وتشعر بعدم اتّزان طفيف؛ وهو أمر غير مُستغرب بعد أن واجهت مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة بلهجة قاسية، وأنهت كأسًا من الشراب في منتصف النهار.

لكن، أين دانا؟

كان الرقيب سكوت كيربل قد وعدها بأن يصطحب مسؤولّة الإعلام إلى مكتبها، لكنّ دانا لم تظهر. والأغرب من ذلك أنّ كيربل نفسه اختفى أيضًا.

حين وصلت ناغل إلى مكتب دانا، وجدتْها جاثيةً على ركبتيّهما، تجمع أغراضها الشخصية بعينين دامتّين، وتضعها في صندوق من الكرتون. رفعت دانا رأسها لحظةً، وألقت على السفارة نظرات داميّة مليئة بالازدراء، قبل أن تستأنف حزم أغراضها.

هذا لا يُبشّر بالخير.

استجمعت ناغل رباطة جأشها قبل أن تتكلّم: "آتسة دانك، ألم يطلب منك الرقيب كيربل المجيء إلى مكّتي؟"

"بلى".

"وتجاهلت الأمر!"

"أنا لم أعد أعمل لديك". كان صوتها مليئًا بالمرارة.

تنفّست ناغل بعمق، ثمّ دخلت وأغلقت الباب خلفها. "دانا، أرى أنّك غاضبة. أنا أيضًا كنتُ أفدّر مايكل هاريس كثيرًا، لكن —"

فقاطعتها دانا من دون أن تنظر إليها: "To je lež".

قالت ناغل بإصرار: "بل كنت أهتمّ لأمره فعلاً، ولن أسامح نفسي إطلاقًا لأنني كنتُ السبب في مَقْتله. لقد مورست عليّ ضغوطٌ من رؤسائي؛ كان ذلك خطأ فادحًا، وأنا أشعر بالخزي. سأشرح لك كلّ شيء لاحقًا، لكن الآن، من الضروريّ أن نعرّ على ساشا فيسناء، وأنا بحاجة ماسّة إلى مساعدتك".

فصرخت دانا وهي تنهض واقفةً: "ولمّ أساعدك أصلًا؟! ما كان يجدر بك أن تُجبري مايكل على الدخول في علاقةٍ مع امرأةٍ غريبة؛ امرأة أقدمت على قتله في النهاية!"

قالت ناغل بهدوء: "ساشا لم تقتل مايكل. في الحقيقة، ساشا هي نفسها في خطر، وربّما من جانب القاتل، وأنا أحتاج إليك لإيجادها بأسرع وقت".

"ولماذا تهتمين لأمرها إلى هذا الحد؟"

اقتربت ناغل منها، وخَفَضَتْ صوتها: "دانا، يؤسفني أن أقول ذلك، لكن تمامًا مثل مايكل... ساشا ضحيةٌ لحكومتِي". "إنَّها عميلةٌ لوكالة الاستخبارات... لكنَّها لا تعلم بذلك". أضافت وهي تنظر إلى عينيَّها: "أشعر أن من واجبي حمايتها، وأنا واثقة من أن مايكل كان سيطلب منك مساعدتها هو أيضًا".

ارتجفت دانا فجأة، وضمت جسدَها بذراعيَّها، ثمَّ ضغطت فكَّيها، مُحاولَة كبج دموعها. فكَّرت ناغل في سرَّها أنَّه من السهل نسيان هشاشة البشر حين يكونون بهذا الجمال الأخاذ.

قالت دانا بصوتٍ مُتهدِّج: "لا أستطيع الوثوق بكِ مُجددًا".

أجابت السفيرة: "لم يعد لديَّ ما أخسره يا دانا، فأنا أحاول أن أستعيد روعي بأيِّ ثمن. واعلمي أنني هدمتُ آخر جسوري؛ فقد اتصلتُ بمديري السابق، وهَدَدت الحكومة الأميركية نفسها".

حدَّقت دانا إليها بذهول: "مديرك السابق؟! هل هَدَدت مدير سي أي إيه؟" أومأت ناغل بابتسامةٍ مُتوتِّرة: "نعم، فكما قلت، لم يعد لديَّ ما أخسره. لقد وصلتني معلومات مُروَّعة عن برنامجٍ ساعدتُ في تسهيله، وألمي الوحيد في إيقافه وإثبات براءتي هو فيديو حصلتُ عليه منذ قليل؛ اعترافٌ مُصوَّر على فراش الموت من المُشرِّفة الرئيسة على البرنا—" قاطعها صوتٌ رجوليٌّ من خلفها: "سعادة السفيرة؟"

استدارت ناغل بسرعة، فرأت وجه الرقيب سكوت كيربل يُطلِّ من خلال الباب الذي فتحه بهدوء.

قالت دانا بحدَّة: "الناس يطرقون الباب قبل الدخول!"

قالت ناغل: "سكوت، أين كنت؟ كان من المُفترَض—"

قاطعها بصوتٍ حازمٍ على غير عادته: "آسف سيدي، لقد صدرت إليَّ أوامر باعتقالك".

نظرت إليه ناغل ببرود، وقد أدركت فورًا ما حدث. "أهي أوامر من مدير سي أي إيه؟" "تفضلي معي، رجاءً".

قالت دانا: "لا يمكنك اعتقال السفيرة! إنَّها رئيستك!"

هزَّ كيربل رأسه قائلاً: "نحن من سلاح البحرية الأميركية".

نظرت دانا إلى ناغل، التي أكَّدت الأمر بإيماءةٍ من رأسها. فمع الأسف، كان حرس السفارة من المارينز يتلقون أوامرهم من مستوى أعلى بكثير في هرم القيادة. والآن، بدأت

تندم بشدة على تسليم كيربل الحقيبة الدبلوماسية التي تحوي النسخة الوحيدة من الفيديو.
نسختي الوحيدة من الدليل...

قال كيربل بتوتر: "سعادة السفيرة، أرجو أن تفضّلي معي".
"بالتأكيد، سكوت، لكنني أحتاج إلى بضع لحظات. فالآنسة دانك قدّمت استقالتها،
وأرغب في وداعها على انفراد—"

غير أنّ صوتاً غليظاً قاطعها: "مُدّي يدّيك!" وانفتح الباب، ليظهر خلف كيربل جنديّان
من المارينز يقفان متأهّبين؛ بدا أنّهما قرّرا التدخّل لدعم قائدهما، بعدما وجدا أنّ لباقة لم
تُجد نفعاً.

قالت ناغل بثبات: "لا داعي للأصفاد، سأذهب طَوْعاً، فقط أودّ إنهاء حديث سريع مع
الآنسة—"

فقاطعها أحد الجنديّين بصرامة، وهو يتقدّم نحوها: "هذا غير مسموح، مُدّي يدّيك،
سيدتي".

نظرت ناغل إليه بذهول، ومن ثمّ إلى كيربل الذي تغيّر وجهه فجأة، وبدت عليه قسوة
باردة بوجود رفيقهِ العسكريّين.

قال كيربل بصرامة: "مُدّي يدّيك. ولا مزيد من الكلام مع الآنسة دانك. لدينا أوامر واضحة:
لا تواصل مع أيّ شخص. لقد أغلق مكتبك، وسنقوم بتفتيشه مع باقي مكاتب السفارة".

تجمّدت ناغل في مكانها، وهي تُدرِك أنّها بدأت تخسر آخر أوراق الضغط التي تملكها.
قالت بقلق: "تفتيشه؟ عمّ تبحثون؟"

إلا أنّ كيربل تجاهل السؤال، واستدار نحو دانا قائلاً: "آنسة دانك، بما أنّك قدّمت
استقالتك، فعليك مغادرة مبنى السفارة فوراً. هل هذا واضح؟"

قالت دانا بتردد: "واضح... لكن—"
"أهذه أغراضك الشخصية في هذا الصندوق؟"

أومأت برأسها.

اقرب كيربل من الصندوق، وألقى نظرة سريعة على محتواه، ثمّ نظر إلى عينيّ ناغل
لحظة خاطفة بينما كان زميلاه مُنهمكَيْن في تقييد يديّهما. وبحركة مدروسة، انحنى فوق مكتب
دانا، وكتب شيئاً على ورقة لاصقة. بعد ذلك، أخرج من جيب سترته الداخليّ الحقيبة
الدبلوماسية التي سلّمته إياها ناغل، وألصق الملاحظة عليها، ثمّ دسّ الحقيبة بهدوءٍ في
الصندوق تحت أغراض دانا.

هل فعل ذلك حقاً؟!

عاد كيربل بخطواتٍ ثابتة، وقد اكتسى وجهه بالجمود، ووقف أمام ناغل، التي أصبحت يداها مُكبَّلتين بالأصفاذ البلاستيكية، وقال: "سعادة السفارة، أنصحك بأن تتعاوني مع هذين الرجلين من دون أيّ تردد. فهذا لمصلحتك".

وقبل أن تتمكّن من الردّ، استدار مُجدّداً نحو دانا، وقال بنبرةٍ جادة لا تترك مجالاً للشكّ في من بات يملك زمام القيادة: "آنسة دانيك! انتهى الوقت. خذي صندوق أغراضك، وغادري هذا المكان فوراً!"

بدا الخوف على دانا وهي تلتقط الصندوق بين ذراعيها، وتمرّ مُسرّعة من أمام السفارة المُقيّدة باتجاه المَخرج مباشرة.

* * *

ناغل في ورطةٍ حقيقيّة.

وقف سكوت كيربل يُراقب الجنديّين وهما يقتادان السفارة عبر الدرج الخلفي المؤدّي إلى الطابق السفليّ. فخلال مسيرته الطويلة في خدمة الدبلوماسيّين، لم يلتقِ كيربل سفيرةً أكثر نزاهةً أو إخلاصاً من هايدة ناغل. وقراره التلقائيّ بالخروج عن الأوامر لحمايتها كان ردّ فعل فطريّاً... نابعاً من حدسٍ... وقد أقدم عليه مُجازِفاً بمسيرته المهنيّة.

ثمّة أمرٌ غير طبيعيّ يجري هنا...

في الحقيقة، لم يُقدّم مدير وكالة الاستخبارات، غريغوري جاد، أيّ تفاصيل لفريق الأمن، بل اكتفى بإصدار أمرٍ مُباشر؛ احتجاز السفارة ناغل في غرفة العمليّات، تحت الحراسة، حتّى إشعارٍ آخر.

كان إجراءً خارجاً تماماً عن المألوف.

والأغرب من ذلك أنّ المدير أمر بعملية تفتيشٍ شاملةٍ لمكتب السفارة الخاصّ، لجمع أيّ وسائط رقميّة؛ حواسيب، أقراص صلبة، أقراص DVD، شرائح ذاكرة USB، إلخ... وهذا لا يحدث إلّا في حالتين: إمّا أن تكون ناغل مُشتبّهاً بها بتهمة التجسس؛ وهو أمرٌ عبثيّ، أو أنّ المدير يخشى أن تمتلك معلوماتٍ قد تُلحق ضرراً فادحاً بالوكالة نفسها.

والآن، صار كيربل واثقاً من أنّ ما يُحاول المدير مُصادرتَه قد غادر السفارة منذ قليل... في صندوقٍ من الكرتون مع دانا دانيك.

كانت السفارة قد قالت له: /احفظها في مكان آمن. لا تذكر أمرها لأحد.

لم يكن كيربل يعرف ما تحتويه الحقيقة، لكنّه مُتأكّد من أنّ دانا لن تجرؤ على فتحها، وأنّ مدير وكالة الاستخبارات سيكون آخر شخصٍ قد تفكّر دانا في الاتّصال به.

ومن باب الاحتياط، أضاف الملاحظة الصغيرة إلى الحقيقة:

د — لا تخبري أحداً بهذا؛ ثمة من سيتواصل معك.

فكر في سرّه: الحقيقة بأمان... على الأقل مؤقتاً.

ولم يُفصح كيربل لزملائه عن شيء؛ لا عن سلوك السفيرة الغريب، ولا عن عودتها سيراً على الأقدام من دون مرافقة أمنية. تذكر في سرّه: ناغل أكثر الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي نراه؛ لا شك في أنها تورّطت في أمر لا أفهمه بعد.

وبما أنّ ناغل الآن قيد الاحتجاز، رأى أنّ من الحكمة أن يستعيد سيارتها الخاصة من الشارع، ويدخلها مرأب السفارة لتُركن مع بقية السيارات الدبلوماسية. فاتّجه كيربل إلى مكتب الأمن، وأخذ مجموعة المفاتيح الاحتياطية الخاصة بسيارات السفارة، ثم جلس أمام الحاسوب لتحديد موقع جهاز التتبع المخفي المزروع في أي سيارة تُستخدم لنقل السفيرة. كان يعلم أنها عادت سيراً على الأقدام، لذا توقع أن تكون السيارة في مكان قريب؛ لكن استخدام إحداثيات نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) سيوفّر عليه وقتاً ثميناً من التجوال في الشوارع.

انتظر حتّى تمّ تفعيل جهاز التتبع. وعندما ظهرت النقطة الواضحة على خارطة براغ، حدّق كيربل إليها في حيرة. فالسيارة لم تكن بجوار السفارة كما افترض، بل كانت متوقّفة على بعد ثلاثة أميال... فوق خطّ التلال المُشرّفة على متنّه فوليمانكا.

* * *

على عمق عدّة طوابق تحت الأرض، كان الغولم يعبر القبو الذي يحتوي على جهاز تخزين الطاقة المغناطيسية فائقة التوصيل (SMES)، مُتّجّها نحو أسطوانات Cryofab الاثنتي عشرة المملوءة بالهيليوم السائل. كانت قمم تلك الأسطوانات الفولاذية الضخمة تنتهي بصمّامات إلكترونية مُدعّمة، وتتصل هذه الصمّامات بأنابيب معزولة تُغذي الجهاز الرئيس. وعلى الجدار المُجاور، أضيء لوح تحكّم يعرض مُخطّطاً لجميع الأسطوانات وحالاتها التشغيلية.

بدا واضحاً أنّ الشاشة تتحكّم في تدفق الهيليوم نحو كلّ أسطوانة. غير أنّ الغولم لم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفية استخدام هذا اللوح، ولا النية لتجربة ذلك. فما كان يُخطّط له لا يتطلّب دقّة أو حذراً؛ إذ كانت ثمة طريقة بسيطة للغاية لوقف تدفق السائل فائق البرودة نحو الجهاز.

اقترَب من الأسطوانة الأولى، وكانت أسطوانةً فولاذيةً لامعةً تفوقه طولاً، فرأى انعكاس وجهه المُلطَّخ بالطين على سطحها المعدنيّ. "أنا لستُ وحشاً... كان يذكّر نفسه دومًا بأنّ الهيكل الخارجيّ لأيّ إنسان ليس سوى وهمٍ يُخفي الحقيقة في الداخل. أنا حارسها.

كما توقّع، كان في أعلى كلّ أسطوانة، وسط شبكة الأسلاك والصمّامات، صمامٌ يدويّ، على شكل عجلة معدنيّة صغيرة يمكن تدويرها يدويّاً لإيقاف تدفق الهيليوم في الحالات الحرجة.

الأمر بسيط... مثل إغلاق خرطوم ماء في حديقة. وبحسب كلّ ما قرأه، فإنّ سلسلة التفاعل البطيئة تبدأ فور إيقاف تدفق الهيليوم؛ إذ تبدأ حرارة اللفائف فائقة التوصيل بالارتفاع تدريجيّاً، فتفقد بعضاً من قدرتها على التوصيل، وتبدأ بمقاومة التيار... لتُطلق حلقة كارثيّة.

حرارة <--- مقاومة <--- حرارة <--- مقاومة <--- حرارة...

بعد إغلاق الصمّامات، سيكون أمامي نحو عشرين دقيقة فقط.

بعد ذلك، ستبدأ حرارة اللفائف في الارتفاع لتبلغ درجة حرجة، تُعرف بـ "حدّ الانهيار الحراريّ". وفي تلك المرحلة، يبدأ الهيليوم السائل بالغليان... والتحوّل إلى غاز. نظر الغوليم إلى فتحة التهوية العلويّة المُغلّقة، وتخيّل الغيمة المُتوسّعة من الغاز وهي تُحاول التسرّب عبر الفتحة في نافورة من بخار الهيليوم الجليديّ.

لم يعد ذلك ممكناً. اليوم، سيكون السيناريو مُختلفاً.

فالغيمة المُتمدّدة بسرعة هائلة لن تجد مَنفذاً للهروب، وستبدأ بالضغط على كلّ شبرٍ مُربّع من جدران هذه الحجرة مُحكّمة الإغلاق، بما في ذلك أقراص الأمان.

أخذ الغوليم نفساً عميقاً وهو يتأمّل صفّ الأسطوانات أمامه، مُتخيّلاً الضغط يتصاعد داخل القبو... ويضغط على الجدران الخرسانيّة السميكة من الداخل... مُتسبّباً بانفجار الأقراص واحداً تلو الآخر. وعندها، سيُطلق ما يزيد على عشرين ألف لترٍ من الهيليوم السائل دفعةً واحدة إلى الهواء.

سيكون التفاعل المُتسلسل فورياً ولا يمكن إيقافه. سيحدث انفجارٌ حراريّ كارثيّ، يُعادل في شدّته تفجير رأسٍ حربيّ قويّ في هذا الفضاء الضيّق.

الفصل 108

كلّما ازداد الممرّ الحلزونيّ انحدارًا، تمنّى لانغدون لو أنّ الجدار المُتحرّك الذي انفتح أمامهما قاد إلى ضوء النهار، لا إلى مُنحدرٍ يهبط بهما إلى عمق أكبر في جوف الأرض. كان من المنطقيّ أن يضمّ الملجأ مستوًى سفليًّا - فمراكز القيادة النوويّة في جبل "شايان" وجبل "يامانتاو" بُنيت تحت أكثر من ألف قدم من الغرانيت الصلب - لكنّ لانغدون كان يأمل أن يحمل الأدلّة التي جمعها إلى الأعلى، إلى خارج العتبة... لا إلى الأسفل.

تمنّى أن يكون من دخل العتبة بعدهما لا يشكّل خطرًا عليهما، لكنّه وكاثرين لم يُضيّعا أيّ لحظة، وبدأ بالهبوط مُسرّعين للابتعاد قدر الإمكان عمّن دخل خلفهما، أيّا تكن هويّته. فبعد أن حصلّا أخيرًا على البرهان الذي سعيّا إليه، لم يبقَ عليهما سوى العثور على طريق الخروج.

غاصّا أكثر في عمق المنشأة، إلى أن وصلا إلى قاع المُنحدر. وفي تلك اللحظة، علا صوتٌ فوقهما جعل الدم يتجمّد في عروقهما؛ وقع خطواتٍ حادّة لأحذية صلبة تضرب الأرض الإسمنتية بسرعةٍ مُتزايدة؛ هذا حتمًا ليس حارسًا. قال لانغدون هامسًا: "علينا أن نتحرّك فورًا!"

في أسفل المُنحدر، واجها جدارًا مُتحرّكًا آخر يُشبه تمامًا الجدار في الأعلى، فاندفعا نحوه. وما إن انزلق جانبًا، حتّى وجدا نفسيّهما في ممرٍّ غريبٍ مُوحشٍ يُقارب طوله ثلاثين قدمًا. في الضّوء الخافت، تركت الجدران والسقف والأرضيّة ذات اللون الأسود الجافّ انطباعًا لديهما وكأنّهما داخل ضريح، لا في منشأةٍ تقنيّة.

همست كاثرين: "إنّه عالمٌ مُختلف تمامًا هنا في الأسفل..."

أينما كانا في تلك الأثناء، قدّر لانغدون أنّ أمامهما أقلّ من عشرين ثانية للعثور على مكانٍ يختبئان فيه. فالممرّ الحلزونيّ أفقده الإحساس بالاتّجاه، وشعر أنّ مخرّج حصن الصليب يتعدّد مع كلّ خطوة. الآن، صار يدرك أنّ اكتشاف أمرهما على هذا العمق سيعني إطلاق الإنذار فورًا، بحيث يصبح الهروب مُستحيلًا.

ركضا في الممرّ القاتم، ومرا بجانب نافذةٍ طويلةٍ إلى اليمين، تومض خلفها نقاطٌ خضراء وحمراء في الظلام. ومن خلال الشبك المعدنيّ، رأى لانغدون صفوفًا من خوادم الحواسيب الضخمة.

همست كاثرين: "قفص فاراداي"⁽¹⁾... لا بدّ أنّها حواسيب كموميّة".
 كانت معرفة لانغدون بالحوسبة الكموميّة تقتصر على أنّها تحتاج إلى عزل تامّ عن
 الأشعة الكونيّة والإشعاعات الأخرى. سبّب آخر لبناء العتبة تحت الأرض...
 مع مرورهما من أمام مدخل غرفة الحواسيب، لم تبطئ كاثرين سيرها، بل كان واضحاً
 أنّها تشارك لانغدون حذره من أن يتمّ القبض عليهما في قفص معدنيّ حربيّاً.
 انعطف الممرّ فجأةً إلى اليسار، وما إن انعطفوا معه، حتّى أضيئت مصابيح جديدة
 تكشف ممراً أسود مُشابهاً أطول بكثير.

همست كاثرين وهي تشير إلى آخره: "هناك!"
 ما كان يلوح أمامهما بدا فعلاً كشعاع من الأمل، لكنّ لانغدون سمع وراءهما مجدّداً
 صدى خطواتٍ تقترب بسرعةٍ مُقلّقة.
 لن نصل في الوقت المناسب.
 بعيداً، كان الممرّ ينتهي عند باب معدنيّ كبير تعلوه علامةٌ بلغةٍ عالميّة، رمزٌ فُهما مغزاه
 على الفور.



كان رمز السلالم الصاعدة في نهاية الممرّ مُريحاً؛ وشعر لانغدون أنّهما إن تمكّنا من
 الصعود إلى الطابق الأعلى، فسيكون في وسعهما العودة إلى مخرج الحصن عبر الطريق
 نفسه الذي دخلاه منه.

قال في سرّه وهو يسمع صوت الخطوات خلفهما وهي تقترب بسرعةٍ: لكنّا لن نبلغ
 السلالم من دون أن يرانا أحد.

أمامهما، امتدّ الممرّ الأسود الطويل، وعلى جانبه الأيمن بابان فقط. لسوء الحظّ،
 أدرك لانغدون من النظرة الأولى أنّ كليهما لن ينفعا.

كان الباب الأوّل يحمل عبارة "غرفة الإمدادات"، وإذا كانت على غرار غرفة
 الإمدادات الطبيّة في الأعلى، فهي أقرب إلى متاهة ضيقة مليئة برفوف تُضاء تلقائياً، من دون
 أيّ مخرج آخر.
 ففتح فعليّاً.

(1) نسبة إلى مُكتشفه الكيميائي والفيزيائي الإنجليزي مايكل فاراداي، وهو هيكل فلزيّ مصنوع من مادة
 موصلة، تستخدم لعزل ما بداخله عن المؤثرات الكهربومغناطيسيّة والمؤثرات الكهربائيّة الخارجيّة.

أمّا الباب الثاني، فكان أوسع بكثير، يتراجع عدّة أقدام داخل فجوة. ومهما يكن ما وراءه، فقد بدا مُهمًّا بما يكفي لتجهيزه بماسح زجاجيٍّ دائريٍّ أسود.
ماسح بطاقة RFID... الذي لم نعد نملك تصريحًا لاستخدامه.
ازداد وقع الأقدام خلفهما وضوحًا.

ومع اقترابهما من باب غرفة الإمدادات، توقّف لانغدون فجأة وقد خطرت بباله فكرة.
كان مصدر الأفكار من أعظم أسرار الوعي. زعمت كاثرين أنّ العقل مُجرّد مُستقبلٍ يستمدّها من حقلٍ أعظم للوعي. ورأت غُسْنِر أنّ الدماغ مُجرّد حاسوبٍ عضويٍّ يحلّ المشكلات من خلال تريليونات المفاتيح العصبية.

في تلك اللحظة، لم يكن لانغدون يبالي من منهما على حقّ، فمصدر فكرته ليس مهمًّا؛ المهمّ أنّه عرف فجأة ما عليه فعله بالضبط.

* * *

ماذا دهاه؟!

استدارت كاثرين نحوه، فرأته يفتح باب غرفة الإمدادات. كان واضحًا أنّ الوصول إلى السلالم من دون أن يراها القادم مُستحيل، لكنّ الاختباء في تلك الغرفة الضيقة أشبه بالانتحار.
أسرعت لتثنيه عن ذلك، لكنّه كان قد دخل أساسًا. فأضيئت المصابيح الفلورية فوقه فورًا، كاشفة عن صفوفٍ طويلةٍ من الرفوف التي تمتدّ في عمق الغرفة. وبحركة خاطفة، تناول لانغدون قارورة مُنظفٍ سائلٍ من الرف، ولوّح بها كما لو كان يرمي كرة بولينغ، فانزلقت على الأرضية الملساء بين الرفوف، وتدحرجت بخفّة، حتّى ارتطمت بالجدار البعيد، مُفعّلة كلّ مصابيح الحركة في عمق الغرفة. وقبل أن تستقرّ القارورة، خرج لانغدون إلى الممرّ مُجدّدًا، وأغلق الباب خلفه، تاركًا شقًّا صغيرًا من الضوء الأبيض يتسرّب إلى عتمة الرواق. بعد ذلك، أمسك بيد كاثرين، وركضا بأقصى سرعة نحو نهاية الرواق، باتجاه باب السلالم، الذي كانت لا تزال تفصلهما عنه مسافة أربعين ياردة على الأقلّ.

بينما كانا يركضان، أدركت كاثرين بدهشةٍ ممزوجةٍ بالإعجاب ذكاء خطّته المُفاجئة.
لسنا بحاجةٍ إلى الوصول إلى السلالم بعد...

كما توقّعت، ما إن وصلا إلى الفجوة الغائرة ذات الماسح الإلكترونيّ، انحرف لانغدون بقوةٍ إلى اليمين، وجذبها معه إلى داخل الفجوة. كان عمقها يقلّ عن ثلاث أقدام، فاستدارا بسرعة، ووقفًا مُلتصقيْنٍ بالباب المعدنيّ البارد، وحاولا جعل جسديهما أطول وأنحف قدر المُستطاع، على أمل أن يكون العمق كافيًا لإخفائهما عن الأنظار.

بعد ثوانٍ فقط، دخل القادم الرواق، وتوقّف وقع الخطى، فخيم السكون التام.
فجأة، سمعت كاثرين صوتًا واضحًا لا لبس فيه، قعقة مسدّس يُجهّز للإطلاق.

* * *

استفاق جوناس فوكمان فجأة، وقد غفا على مكتبه من دون أن يدري. لم يفهم ما
أيقظه - ربّما صوت المطر الذي بدأ يقرع زجاج نافذته - لكنّه حين نهض وتمطّى، شعر
برودة غريبة أعادت إليه ذلك الإحساس بالخطر.
قال في سرّه، مُحاولًا طمأنة نفسه: كل شيء على ما يرام... RL&KSRGUD.

الفصل 109

تصلّب لانغدون وكاثرين في مكانهما، جنبًا إلى جنب، لا يجروان حتى على التنفّس، والصقا ظهرَيهما بالجدار، أو بالأحرى بباب فولاذيّ عريضٍ على نحوٍ استثنائيّ. ومع أنّهما تمكّنا من التسلّل إلى ذلك التجويف من دون أن يلاحظهما القادم، إلّا أنّ دخولهما تزامن مع صوتٍ مُخيف صادر عن مسدّس يُعدّ للإطلاق.

ظَلّ لانغدون ساكنًا تمامًا، وأمل أن تكون الأضواء الفلوريّة المُنبعثَة من غرفة الإمدادات كافيةً لإثارة الشكّ ودفع الرجل إلى تفتيشها. نحتاج إلى تشتيت انتباهه لدقيقة واحدة. وإلا... فهما عالقان.

سُمِع وقع الخطى من جديد، ببطءٍ هذه المرّة، وهي تقترب منهما. وبعد ثوانٍ من التوتّر، أتى الفرج على شكل بقعة خافتة من الضوء الفلوريّ على الجدار المُقابل. فقال لانغدون في سرّه: من الواضح أنّ القادم فتح باب غرفة الإمدادات! فجأة، اختفى الضوء الفلوريّ، وسمع لانغدون صوت انغلاق باب غرفة الإمدادات. هل دخل فعلاً؟! حبس أنفاسه مُحاولًا الإصغاء إلى أدنى حركة، لكن الصمت كان مُطبقًا. بجانبه، تحرّكت كاثرين قليلًا، وشعر بيدها تلمس يده. في البداية، ظنّ أنّها تبحث عن بعض الطمأنينة، لكنّه سرعان ما شعر أنّها تدسّ شيئًا صغيرًا في كفه. نظر إلى الأسفل، فرأى مرآة صغيرة كانت قد أخرجتها من حقيبتها.

فتح لانغدون المرآة بإبهامه، ومدها بحذرٍ مسافة إنش واحد خارج حافة التجويف. وفي الانعكاس الضيق، تمّنّى أن يرى ممرًا خاليًا، لكنّه بدلًا من ذلك، رأى بوضوح ظلّ رجلٍ يتقدّم نحوهما خلسة.

كان الرجل مُسنًا، شعر أبيض، يرتدي بذلة داكنة، ويضع نظّارة. أيّا يكن هذا الرجل، فمن الواضح أنّ الخدعة لم تنطلّ عليه. إذ كان مسدّسه مرفوعًا، ومُصوبًا مباشرةً في اتجاههما.

* * *

أمال إفریت فينش جسده قليلًا فوق فوهة مسدّسه الممدود أمامه، وألقى نظرةً على الممرّ أمامه؛ كان المُتسلّل قريبًا. فمن اخترق التدابير الأمنيّة للطابق السفليّ من العتبة لم

يأت ليختبئ في غرفة إمدادات، بل جاء لغاية أخرى. وإن وصل إلى هذا الحد، فلا شك في أنه بات قريبًا من كشف أكثر أسرار العتبة حساسيةً.

تابع فينش تقدّمه بخطواتٍ محسوبة، ومُسدّسه مُصوّبٌ نحو التجويف الجانبيّ الوحيد في الممرّ؛ المدخل الغائر إلى اليمين، الذي كان عميقًا بما يكفي ليُخفي أيّ شخصٍ مُلتصقٍ بالباب المعدنيّ الثقيل.

ألصق جسده بالجدار الأيسر للممرّ وتقدّم بحذرٍ، من دون أن يُبعد نظره عن التجويف. ومع تحسّن زاوية الرؤية، بدأ طرف قلب التجويف يظهر تدريجيًّا أمامه. وما إن لمح الطرف الأيسر من الباب المعدنيّ، حتى اندفع في خطوتين طويلتين، وانخفض فجأةً إلى مُستوى الركبتين، ماديًا ذراعَيْه، وموجّهاً سلاحه بدقّة قاتلة.

لكن لدهشته، كان التجويف خاليًا تمامًا.

* * *

وقف لانغدون وكاثرين وجهًا لوجه، وقلباهما يخفقان بعنف.

ما الذي حدث؟!!

فقبل ثوانٍ، وبينما كانا يقفان مُلتصقين بالباب الفولاذيّ العريض، رأى لانغدون في انعكاس المرأة رجلًا يقترب منهما وقد صوّب مُسدّسًا نحوهما مباشرةً، فضغط بجسده أكثر إلى الخلف، وشعر فجأةً بأنه يفقد توازنه. وحين اتّسعت عينا كاثرين دهشة، أدرك حقيقة ما جرى.

الباب الفولاذيّ... تحرّك خلفهما.

فارتد لانغدون بقوة إلى الوراء، وحذت كاثرين حذوه. كان الباب مُزوّدًا بناقضٍ قويٍّ يمنحه مقاومةً شديدة، لكنهما شدّا أقدامهما على الأرض، ودفعا معًا، فبدأ يُفتَح ببطءٍ. لم يكن الأمر منطقيًّا بوجود ماسح البطاقات الإلكترونيّ (RFID)، لكن حين مرّا عبر الباب، لاحظ أنّ صفيحة القفل في الإطار قد حُشيت بقطعة قماش خضراء، للحؤول على ما يبدو دون التحام القفل.

من الذي ترك هذا الباب مفتوحًا؟!!

خوفًا من أن يلحق بهما الرجل المُسلّح في الممرّ، أخرج لانغدون القطعة الخضراء من مكانها وأغلق الباب بهدوء، فسمع صوت القفل وهو يوحد بإحكام. لقد أُقفل. نظر إلى القطعة في يده، فوجد أنها لم تكن قماشًا، بل مادة لاصقة من الفينيل أو المطاط، غصنًا من الأوراق الاصطناعيّة، مُنتزعًا من شجرة زائفة داخل الغرفة.

قال هاميسًا وقد استبدّت به الدهشة: "يا لها من مُصادفة لا تُصدّق!"
غير أنّ كاثرين لم تُبدِ الارتياح نفسه، بل قالت بقلبي واضح: "إلّا إذا كان ثمة من أراد
التأكّد من قدرته على الخروج".
"ماذا تعنين؟"

أشارت إلى جهاز مسح آخر على الجدار المُجاوِر للشجرة البلاستيكيّة وقالت: "نحن
بحاجة إلى بطاقة إلكترونيّة للخروج أيضًا يا روبرت. يبدو أنّ أحدهم أراد إبقاء هذا الباب
مفتوحًا... لكننا حبسنا أنفسنا هنا".

* * *

أمسك الغولم بعجلة الإغلاق في الأسطوانة الرابعة من خزانات الهيليوم، وأدارها إلى
اليمين، تمامًا كما فعل مع الثلاث السابقة.
باتت النهاية قريبة. وبعد عدّة لفّات مُحكّمة، انغلق الصمّام بالكامل، فصدر صوت
إنذارٍ حادٍّ من لوحة التحكم، وتحوّلت أيقونة الأسطوانة رقم 4 إلى اللون الأحمر. لقد
أُغْلِقَتْ. أربع إشاراتٍ حمراء على التوالي الآن، وثمانٍ لا تزال مُضاءة باللّون الأخضر.
تابع طريقه نحو الأسطوانة الخامسة، وبدأ بإغلاقها ببطء، حتى أتمّ دوران العجلة
بإحكام.
وهذه أُغْلِقَتْ أيضًا.

واصل السير على امتداد الصفّ، مُغْلِقًا الواحدة تلو الأخرى. وفي كلّ مرّة يُغْلَقُ فيها
الصمّام، تُصدِر اللوحة صفيّرًا خافتًا مُعلِنَةً تحويل تدفق الهيليوم إلى الأسطوانة الاحتياطية
التالية.

على الرغم من استعجال الغولم لإنهاء مهمّته، إلّا أنّه كان يتحرّك بهدوءٍ وتأنٍّ، ويتنفس
بعمق تجنّبًا لعودة النوبة. فالهدف بات قريبًا جدًّا، وعليه أن يكون حذرًا. وبينما يُدير كلّ
صمّام، كان يُعيد في ذهنه خطوات الهروب التي سيُنفّذها لاحقًا.
عشرون دقيقة ستكون كافية تمامًا...

فجأة، دوى جرسٌ عالٍ، فقطع عليه أفكاره. فقد أطلقت لوحة التحكم ومضاتٍ حمراء
مُتتابعَة، تُرافقها صفاراتٌ مُتصاعدة. وأظهرت الشاشة أنّ إحدى عشرة أسطوانة أُغْلِقَتْ
يدويًا، ولم يبقَ سوى الأسطوانة رقم 12 التي لا تزال مُتّصلة بالنظام. والأخطر من ذلك، أنّ
تسعًا من تلك الأسطوانات مُمتلئة بالكامل.

آلاف الكيلوغرامات من الهيليوم السائل في هذا الحيز الصغير.

أخذ الغولم نفسًا عميقًا، وأعاد الخطة في ذهنه للمرة الأخيرة، ثم وضع يده على العجلة رقم 12.

قال في سرّه وهو يُدير الصّمّام: *أفعلُ هذا من أجلكِ يا ساشا.*
فقد بُنيت العتبة بدمكِ.

بدمنا.

توقف الصّمّام عن ضخّ الهيليوم بعد إغلاقه تمامًا.
والآن، ها قد دُمّرتها.

* * *

في مقرّ وكالة الاستخبارات المركزيّة في لانغلي، جلس المدير جاد بمفرده في غرفة الاتصالات الآمنة، يُحاول صياغة ردّ مُناسب على الفيديو المُروّع الذي شاهده للتوّ. كان الفريق التقنيّ قد أزال التسجيل من الإنترنت بالفعل، لكنّ ذلك لم يبعث في نفسه أيّ ارتياح؛ إذ من الواضح أنّ من استجوب غِسْنِر قادر على إعادة نشره في أيّ لحظة.

ولو تسلّل هذا الفيديو إلى العلن، فلن يستغرق الأمر سوى ساعاتٍ حتى ينتشر في كلّ أنحاء العالم. فهو لا يُوثّق فحسب تعذيب عالمة بارزة بوحشيّة، بل يتضمّن أيضًا اعترافًا صريحًا يكشف عن وجود مشروع استخباراتيٍّ أميركيٍّ بالغ السريّة... بما في ذلك موقعه... واكتشافاته التقنيّة... واستخدامه لمشاركين بشريّين غير طوعيين.

ستكون النتائج كارثيّة، على نحوٍ لم تختبره الوكالة من قبل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 110

تفحص لانغدون الغرفة الصغيرة التي لجأ إليها مع كاثرين بعد هروجهما. *أيا يكن هذا المكان... فقد حبست نفسي فيه أنا وكاثرين.*

كانت الغرفة مُختلفة تمامًا عن الممر المُعقَّم في الخارج، إذ غطت أرضها سجادة سمينة ناعمة، وتوزعت فيها أشجار صناعية بالغة الواقعية، فيما زُيّنت جدرانها بعدد من اللوحات التجريدية. أمامهما، كان ثمة قوس يُفضي إلى نفق إسمتي يمتد إلى اليسار، ويختفي عن الأنظار. وقد شعر لانغدون بانقباض داخلي ما إن لمح هذا الممر، إذ لاحظ على الفور ثلاثة أمور مُقلقة.

أولاً، كانت أضواء النفق مُضاءة مُسبقاً - أشعة زرقاء باهتة تُلوّن الجدران الرمادية - مما يُشير إلى أن أحداً قد سبقهما إلى الداخل. ثانياً، كانت أرض النفق مُحدرة إلى الأسفل، فتردد لانغدون في المغامرة والتوغل أعمق في جوف الأرض. أخيراً، بما أن بطاقات RFID مطلوبة هنا للدخول والخروج، فهذا يعني أن هذا القسم هو الأشد سرية في منشأة العتبة، وليس مخرجاً لها.

راودته للحظة فكرة الاستسلام، لكن شكاً مُتعاظماً بدأ يتسلل إليه؛ وهو أن الرجل الأنيق المُسن الذي يلاحقهما ليس سوى السيد فينش. وهو - وفقاً للسفيرة - لا يرحم أحداً، ولا يتورع عن إيقاف من يعترض طريقه بكل السبل. *علينا العثور على مخبأ... حالاً.*

أسرع للحاق بكاثرين التي كانت قد وصلت إلى منتصف النفق، ثم تابعا السير معاً حتى بلغا قوساً حجرياً آخر. كان هذا المدخل مُحاطاً بإطار أنيق من الحجر الأسود، مع باب مُتأرجح من الزجاج البلوري يحمل صورة مألوفة:

PRAGUE

تبادل لانغدون وكاثرين نظرة صامتة. بدا أن كل ما رآياه حتى الآن - من جراحين آليين، ومُختبرات واقع افتراضي، وخلايا عصبية اصطناعية، ورقائق إلكترونية - لم يكن سوى تمهيد لما ينتظرهما وراء هذا الباب.

باندفاع يُغذيه الأدرينالين، تقدّم لانغدون إلى الباب، ودفعه قليلاً للإلقاء نظرة إلى الداخل. ولدهشته، ارتفع نظره فوراً في اتجاه لم يتوقعه قط على هذا العمق تحت الأرض.

إلى الأعلى.

إذ وجد نفسه يُحدّق إلى قبة شاهقة مُضاءة بلطف من الأسفل. فذكرته القبة الدائرية بقبة القاعات الفلكية، غير أنه أدرك في الحال ماهية ما يراه. القبة هي الشكل المعماري الأقوى على الإطلاق.

كانت هذه هي القاعة التي يلجأ إليها الناس في ملجأ فوليمانكا عند وقوع الهجمات؛ النقطة الأعمق والأكثر أماناً في البنية بأكملها.

تذكر لانغدون قبة سرّية أخرى كان قد رآها في الماضي - تعود ملكيتها أيضاً إلى الحكومة الأميركية - قبة مدفونة تحت ملعب الغولف في متجّع جرينبراير في ولاية فرجينيا الغربية. فقد ظلّ ذلك الملجأ النووي الخاصّ بأعضاء الكونغرس الأميركيّ أحد أسرار الدولة الكبرى طوال أكثر من ثلاثة عقود، إلى أن كشفت صحيفة واشنطن بوست النقاب عنه عام 1992.

حوّل لانغدون نظره من القبة إلى القاعة نفسها. هذه ليست قاعة فلكية بالتأكيد. فقد كانت القاعة ضخمة، مُصمّمة على شكل دائرة تامّة، ولا تُشبه أيّ مكانٍ سبق له أن رآه في حياته.

* * *

ما هذا المكان؟

بدھشة بالغة، خطت كاثرين إلى داخل القاعة المُقَبَّبة برفقة لانغدون. للوهلة الأولى، بدا المشهد وكأنّه جسر قيادة في مركبة فضائية من المستقبل. ففي مركز القاعة، ارتفعت منبّة دائرية اصطفّ عليها ما لا يقلّ عن عشرين محطة تحكم أنيقة في دائرة كاملة، جميعها موجهة نحو الخارج. كانت كلّ محطة أشبه بمقصورة طيارٍ متقدّمة، على غرار أجهزة محاكاة الطيران.

لكنّ ما شدّ انتباه كاثرين حقاً كان ما رآته على أرض القاعة. فعلى السجادة السمكية المحيطة بجسر القيادة، انتشرت كبسولات معدنية أنسيابية مُنخفضة، مُرتبة بدقّة على شكل نجمة، تشعّ إلى الخارج مثل أسلاك عجلة عملاقة. بدت كلّ واحدة من هذه الكبسولات اللامعة كقطعة فنيّة حديثة؛ أسطوانة معدنية سوداء تشبه الطوربيد، بطول ثلاثة أمتار تقريباً، ومُحاذاة تماماً لمحطة القيادة المُخصّصة لها على الجسر في الأعلى.

اقتربت كاثرين من أقرب كبسولة، وهي في خيرة من أمرها، لتكتشف أن سطحها الأعلى كان في الواقع غطاءً مُحدّباً من الزجاج الداكن المُدمج بالهيكل بإتقان تام، بلا أيّ مفاصل. فانحنت للنظر إلى داخلها، إلّا أنّها لم تر سوى الظلام.

همست حين وصل لانغدون إلى جانبها: "ما هذه؟"

تأمل الكبسولة هنيئة، ثم لمس زراً صغيراً غائراً في جانبها، فتصاعد هسيس خافت، كأنّ الهواء يُسحب إلى الفراغ، ثم انفتح الغطاء الزجاجي إلى الأعلى في حركة ناعمة، مثل جناح نورس، وأضيت أنواراً داخلية لطيفة، فكشفت عن حجرة مُبطّنة من الداخل، تشبه كبسولة نوم مُستقبلية.

أوتابوتا.

قال لانغدون: "يبدو أنّها نسخة مُتطورة من الكبسولة التي رأيناها في مختبر غُسْنِر".

أمّات كاثرين وهي تتفحص أربطة التثبيت اللاصقة، وأنبوب التغذية الوريدية. لا شك في أنّ هذه الآلة هي الجيل المُتقدّم للنموذج البدائي الذي رأيا فيه جثة غُسْنِر... آلة الإيقاف الحيويّ القادرة على إبقاء المريض - الذي يعاني من إصابات خطيرة - بين الحياة والموت لساعاتٍ طويلة.

كانت هذه النسخة أكبر حجماً وأجمل تصميمًا من سابقتها، وتحتوي على مسندٍ خاصٍّ للرأس، مُبطّن بالجلد الفاخر، وفتحة بحجم الجمجمة. بدت الفتحة أشبه بـ "تجويف الاستشعار" في جهاز تخطيط الدماغ المغناطيسيّ، المُزوّد بمُستشعرات مغناطيسيّة ترصد النشاط العصبيّ. غير أنّ كاثرين أدركت أنّه، إذا كان هذا النظام يعتمد على رقائِق دماغيّة، فلا بدّ أنّ الفتحات تتضمّن تكنولوجيا المجال القريب، أو الحزم عريضة النطاق المُستخدمة عادة للتفاعل مع الغرسات الدماغية.

شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، وفكرت في سرّها: اتصالٌ لاسلكيٍّ مباشرٍ عبر الجمجمة نفسها. إذا كان الجسد مُزوّدًا بشريحة دماغيّة للتفاعل المُتكامِل بين الإنسان والآلة... وكانت تلك الشريحة قادرة على المُراقبة الآتية...

أصابها الدوار وهي تستوعب تدريجيّاً الغرض الحقيقيّ من هذه القاعة. الغريب أنّها وروبرت كانا يتحدثان عن هذا الموضوع طوال اليوم... الحالات الذهنيّة المُعدّلة، وتجارب الوعي المغايرة، والعقاقير المُسبّبة للهلزيان، ونشوة ما بعد النوبات الصرعيّة. تدفّقت إلى ذهنها صورٌ من المفاهيم: مرشحات الدماغ، والاتصال الكونيّ، والقدرة البشريّة الكامنة على استشعار طيف من الواقع أوسع بكثير.

الآن، أدركت كاثرين أنّ هذه التواييت اللامعة تُمثّل القطعة الأخيرة من مشروعٍ بحثيٍّ كانت قبل ساعةٍ واحدةٍ فقط تعتبره ضرباً من الخيال العلميّ المُستحيل.

هل يحدث هذا فعلاً؟!

وقف لانغدون إلى جانبها، يتأمل أنحاء القبة الواسعة، وقال بذهول: "لكنني لا أفهم... ما الذي يجري في هذه الغرفة بالضبط؟"

عرفت كاثرين أنّ الجواب بسيط... لكنّه مُرِيب. لقد صُمِّم هذا المكان لمحاولة كشف أعظم أسرار الحياة غموضاً... أسمى حالات الوعي المُتحوّل... وأكثر التجارب الإنسانية استعصاءً على الفهم.

مدّت يدها وأمسكت يده بصمت، وقد طغى عليها ثقل الاكتشاف، ثمّ همست قائلة: "روبرت... لقد بنوا مُختبرَ موت".

الفصل 111

مُختَبَر موت.

حين بدأ لانغدون يستوعب أبعاد ما قالته كاثرين، اجتاح ذهنه سيلٌ من الأسئلة الجديدة. لماذا قد تدرس وكالة الاستخبارات الموت؟ ما الذي تأمل اكتشافه؟

فعلى الرغم من أن فهم الموت بدا له مُشوقًا من الناحية الفكرية، إلا أنه شعر بأن هذا المكان يخدم غاية أشدَّ غموضًا من مُجرّد دراسة الوعي البشري أو ظاهرة الموت. فإخضاع إنسانٍ ما لحالة "ما قبل الموت" لأي سببٍ غير إنقاذ حياته بدا له جريمة لا يُمكن تبريرها؛ حتى لو كان المريض مُخدَّرًا أو عاجزًا عن تذكّر التجربة...

قالت كاثرين وهي تتوغّل بين صفّ الكبسولات: "أريد معرفة كلّ شيء عن هذه الأبحاث". لكن لانغدون أشار إليها بقلبي وهو ينظر نحو المدخل: "علينا أن نتحرّك الآن". أسرع إليها، وأومأ إلى الجانب الآخر من القبة. هناك، علّقت لافتة كُتِب عليها، الأنظمة / المرافق. لم يكن يظنّ أنّ غرفة المرافق ستقود إلى مخرج، لكنّها على الأقل قد تمنحهما مَحَبًّا أفضل، ولا سيّما أنّه لم ير خيارًا آخر. ما من مخرج.

اندفعوا وسط متاهة الكبسولات المعدنية، وفي مُنتصف القاعة، لاحظ لانغدون أنّ غرفة المرافق لا يمكن دخولها عبر بابٍ عاديّ، بل من خلال فتحةٍ مستطيلة كبيرة في الأرض. أعمق تحت الأرض؟

سواء أكانت تلك الفتحة تحوي سلّمًا أم مصعدًا، فإنّ مجرّد فكرة النزول إلى مستوى أدنى بعد في عمق الأرض لم تكن بالنسبة إلى لانغدون مَحمودة على الإطلاق. غير أنّ الهبوط لم يكن مطروحًا في كلّ الأحوال.

فجأة، دوى صوت طلقة نارٍ حادةٍ من خلفهما، تردّد صداها كالزئير تحت القبة الضخمة. استدار لانغدون وكاثرين في الوقت نفسه، وتجمّدا في مكائيهما، بينما كان الرجل ذو الشعر الأشيب والبذلة الداكنة يقترب منهما بهدوء تامّ، وسلاحه مُصوَّب عليهما.

قال بنبرة رصينةٍ تحمل اللّكنة الجنوبية التي سمعها لانغدون عبر مُكبّر الصوت عند حديثه إلى السفارة: "الدكتورة سولومون والبروفسور لانغدون، حسب ما أظنّ؟" فينش.

تابع وهو يقترب: "أنتما تلعبان لعبة خطيرة، وأخشى أن عاقبتها ستكون وخيمة".

كان فينش يعلم أنّ لا صوتَ أكثر إرباكًا للإنسان من دويّ رصاصةٍ في مكانٍ مُغلق. ففي الأفلام، يدفع هذا الصوت الناس إلى الهرب، أمّا في الواقع، فيُصيّهُم بالشلل. ابتسم بمكر وهو يرى لانغدون وسولومون جامدَين في مكانَيهما، وأذرعهما مرفوعة، وأكفّهما ممدودة؛ في تلك الإشارة العالمية للاستسلام. إنهما الآن في حالة "الاستجابة"، فيما امتلك هو زمام السيطرة بالكامل.

"ضعي حقيقتك أرضًا يا دكتورة سولومون". قال ذلك بنبرة أمر، خِشية أن يكون فيها سلاح.

فنفذت كاثارين الأمر بهدوء، ووضعت الحقيبة على الأرض. لمح فينش بداخلها مُجلّدًا أسود سميكًا... لا شك في أنّه أحد الملفات المُصنّفة، وقد استوليا عليه في طريقهما. لقد سهّلتما الأمر عليّ كثيرًا.

من الواضح أنّ هذين المُتسلّلين اقتحما مشروعًا حكوميًّا سرّيًّا، وسرقا وثائق حساسة. ولو أطلق عليهما النار الآن، فلن تُفَتَح أيّ تحقيقات، ولا سيّما أنّهما بلغا هذا العمق من المُنْشاء المَحْظُورَة. والمُفارقة أنّ هذه القاعة تحديدًا صُمّمت من أجل الموت.

مع ذلك، كان عليه أن يستجوبهما أولًا... ليعرف من يقف وراءهما، وكيف تمكّنا من الوصول إلى هنا. كانت السفارة ناغل مُتورّطة بوضوح؛ فقد تجرّأت على تحدّيه وتهديد الوكالة نفسها.

حماقة بالغة. ولا شك في أنّ المدير جاد قد أمر باحتجازها الآن... وسيتكفل بمعاقبتهما كما يراه مناسبًا.

كانت الورقة الرابعة هي ساشا فيسنا، هذا ما فكّر فيه فينش، مُستعيدًا مشهد عصا الصرع التي عثر عليها في الطابق العلويّ. لا يزال يجد صعوبةً في التصديق أنّ ساشا قتلت شخصين.

قال في سرّه: سأطرح هذه الأسئلة لاحقًا. أمّا الآن، فعليّ الاهتمام بهذه المسألة... إذ لديّ أسيران.

من الناحية التخطيطيّة، لم يكن من المنطقيّ أن يَتَباد لانغدون وسولومون خارج المُنْشاء تحت تهديد السلاح. فعلى الرغم من لياقته العالية وهو في السبعين من عمره، إلّا أنّ قصر قامته جعله يدرك أنّه لن يكون نذًا للرجل بطوله البالغ ست أقدام إن حاول المُقاومة، كما أنّ الطريق إلى الحصن الرئيس مليءٌ بالكماثن المُحتملة. أمّا نقطة الخروج الثانوية في العتبة، فكانت قيد الصيانة، وتحت حراسةٍ عسكريّةٍ أميركيّةٍ؛ وخروجه من هناك وهو يَحْتَجز مواطنين أميركيين تحت تهديد السلاح سيُثير الشبهات بلا شك.

سننتظر، هذا ما قرره أخيراً، إذ سبق له أن طلب الدعم فور عثوره على جثة هاوسمور.
فالمساعدة في الطريق.

سيُجري التحقيق هنا، في منشأة العتبة نفسها. كان فخوراً بأن هذا المكان يُوفّر مُستوى مثاليّاً من السريّة والكفاءة؛ فكبسولات (EPR) يمكن أن تُستخدم بفاعليّة كبيرة في الإقناع، بينما تزخر صيدليّة المنشأة بوسائل تساعد في عمليّة الاستجواب، بما في ذلك عقاقير إضعاف الذاكرة إن لزم الأمر، لتضمن ببساطة أنّ "شيئاً من هذا لم يحدث".

تقدّم فينش ببطء من أسيرته، مُطمئناً إلى أنّ المَوْقف تحت سيطرته الكاملة. كان الإغفال الوحيد - وهو تفصيل بسيط - عدم تحقّقه من عدد الطلقات في مسدّس هاوسمور. لكن بما أنّه لم يرَ أيّ آثارٍ لإطلاق نار في الأعلى، فقد كان شبه متأكّد من أنّ مسدّس SIG Sauer P226 لا يزال مَحشوّاً بالكامل تقريباً.

كان فينش يُفضّل عدم استخدام السلاح، ليس بعد على الأقلّ، لكنّه سيفعل إن اضطرّ إلى ذلك. عليّ أن أحافظ على هدوءهما. كانت أفضل وسيلةٍ للتحكّم في الأسرى هي شغلهم بأفكارٍ أخرى. ولحسن الحظّ، كان لانغدون وسولومون لا يزالان مَذهولين ممّا شاهدها هنا؛ وكلّما كشف لهما أكثر عن مشروع العتبة، ازدادت الوكالة اقتناعاً بأنّهما يعرفان أكثر ممّا ينبغي... وبالتالي، لا يمكن السماح لهما بالمغادرة أبداً.

اقترّب منهما، مُصوّباً السلاح إلى صدريّهما، فقال لانغدون: "لا داعي لإطلاق النار؛ سنوّقع على اتفاقيّتي الحفاظ على السريّة. فقط أخبرنا بما تريده".

عندئذٍ، ردّ فينش ببرودٍ ساخر: "آه، لقد فات الأوان على ذلك، يا بروفيسور. فقد اخترقنا مُنشأة سريّةٍ للغاية، وشاهدتما ما لا ينبغي لأحد أن يراه".

قالت كاثرين بلهجةٍ غاضبة: "صحيح. وقد رأيتُ كيف سرقتم براءة اختراعي!"
تأمّل فينش وجهها المُشتعل بالانفعال، مُستغرباً افتقارها إلى الخوف، ورأى في ذلك دلالةً على أنّها لم تُدرِك بعد حجم الخطر الذي يُحْدِق بها. فردّ بهدوءٍ: "نحن لم نسرق شيئاً يا دكتورة سولومون، إذ لم تكن لديك براءة اختراع أصلاً. فكما تذكّرين، طلبك رُفُض".

سأله لانغدون: "لكن، لِمَ كلّ هذه المناورات؟ لِمَ لم تتّصلوا بكاثرين أو بدار النشر وتشرحوا—"

أجاب فينش بحدّة: "لأنّنا لسنا انتحاريّين! أسأل الدكتورة سولومون نفسها عن رأيها في التعاون مع الجيش الأميركيّ. فقد أجرت مُقابَلةً لإذعة، هاجمت فيها الفكرة. ولم أستطع المُجازفة بإتاحة الفرصة لها لتُعلن لاحقاً على الملأ أنّ الوكالة تواصلت معها في هذا الشأن.

ثم إن الوقت لم يكن في صالحنا يا سيد لانغدون، فقد تصاعد كل شيء بسرعة كبيرة منذ ليلة أمس—

قاطعته كاثرين وهي تتلفت حولها، وتنظر إلى الكبسولات الالامعة بدهشة واضحة: "أي نوع من التجارب تجرون هنا؟ هل تدرسون الموت؟" أجاب بابتسامة غامضة وهو يوميء إلى أقرب كبسولة: "كم توذين أن تعرفي؟ ادخليها، وسأريك".

قال لانغدون بسرعة: "لا حاجة إلى ذلك. خذ ملفّاتك المصنّفة، وسنوّق على اتفاقيتي السريّة. نعم، رأينا جزءاً من منشأتك، لكننا لم نفهم منها شيئاً تقريباً". ضحك فينش قائلاً: "أذكيان يتظاهران بالغباء؟ هذا لا يُقنع أحداً يا بروفيسور. اسمح لي أن أشرح".

قال لانغدون: "لا تفعل، رجاء. أظن أننا نفضّل ألا نعرف ما يجري هنا". ابتسم فينش ببرود وقال: "لكن لا يبدو لي هذا منصفاً، ولا سيّما أن الدكتور سولومون ساهمت في بناء هذا المكان".

* * *

كان الغولم قد صعد إلى المنصة الهوائية استعداداً للعودة إلى القاعة المُقبّبة حين دوى صوت الرصاصة، فتجمّد في مكانه على الفور، ثم تراجع خطوة إلى الخلف، مُتَظِّراً في صميت تحت الفتحة.

كانت الأصوات القادمة من الأعلى مسموعة تماماً. ثمة رجلٌ مُسلّحٌ في القبة، يحتجز شخصين كرهيتين، وقد ناداهما باسمي الدكتور سولومون وروبرت لانغدون. لم يكن الغولم يعرف سبب وجود الأميركيين في هذا المكان، لكنّه مُتأكّد من أمر واحد: كلاهما لا يستحقّان الموت. أمّا الرجل المُسلّح، فذلك شأن آخر تماماً. إذ سرعان ما أدرك الغولم أن الصوت يعود إلى إفريت فينش؛ العقل المُدبّر لمشروع العتبة، بحسب أقوال غِسْزِر. رأس الأفعى... هنا بلحمه ودمه.

لقد ساق إليه القدر هديّة غير مُتوقّعة، فُرصة نادرة للقضاء على خائن ساشا الأخير، الرجل الذي أنشأ بيت الرعب هذا.

كانت الفكرة جذابةً إلى حدّ كبير، لكنّ تنفيذها بدا مُستحيلاً تقريباً. فكلّ ما يملكه الغولم كان مُسدّسٌ صغيرٌ كهربائيٌّ لم تتبقّ فيه سوى طلقة واحدة فقط، وهو لا يُقارَن بسلاح

ناريّ. وإذا صعد إلى الأعلى على المنصّة الهوائية، فسيبرز في الجزء الخلفيّ من أرض القاعة المُقَبَّبة مباشرةً، على مرأى من الجميع.

الوقت يُداهمني، تذكّر ذلك، وقدّر أنّ أمامه خمس عشرة دقيقة تقريبًا قبل أن يتحوّل هذا المكان إلى قبلة ضغطٍ مُدمّرة.

البقاء هنا يعني الموت المُحقّق. مع ذلك، تساءل إن كان عليه العودة عبر الممرّ الطويل المؤدّي إلى قبو تخزين الطاقة لمُحاولة إيقاف الانفجار. لكنّه تذكّر مقدار الجهد الذي تطلّبه إغلاق البوّابة المُحكّمة في طريقه إلى الخارج، وخشي أن تخونه قواه وهو يحاول فتحها مُجدّدًا.

قال في سرّه: إنّها مغامرة خطيرة من دون عصاي. كان مُستعدًّا ليبادل حياته بحياة فينش، لكنّه أدرك أنّه لا يملك الحقّ في اتّخاذ هذا القرار نيابةً عن ساشا؛ لأنّها لن ترى ضوء النهار مرّةً أخرى إن لم يهرب ويحرّرها.

الفصل 112

في الضوء الخافت الذي خيم على القاعة المُقْبِية، وسط صفّ الكبسولات المُعلّقة، وقف روبرت لانغدون إلى جانب كاثرين يُراقبان أسرهما.

كان إفريت فينش يقف على بُعد خمسة أمتار آمنة، مُتَكِّئًا بهدوء على إحدى الكبسولات، وسلاحه مُصَوَّب نحوهما.

على الرّغم من الجوّ المشحون بالتوتر، بدا فينش هادئًا على نحوٍ يبعث على القلق. فقد كان في ملامحه بروذٌ جليديّ يُشير إلى أنّه قادِرٌ على فعل أيّ شيءٍ تقتضيه الضرورة.

قال بصوتٍ واثقٍ: "سيكون المُستقبل بيد أولئك الذين يُطوِّرون أوّل واجهةٍ حقيقيةٍ بين الإنسان والآلة؛ وسيلة تؤمّن التواصل بلا جهدٍ بين البشر والتكنولوجيا. لا طباعة، ولا إملاء، ولا مُشاهدة... بل تفكيرٌ فحسب. والعوائد الماليّة وحدها كفيلة بتوليد قوّةٍ عظيمةٍ جديدة، أما التطبيقات العمليّة، خصوصًا في مجال الاستخبارات... فهي تتجاوز كلّ تصوّر".
شعر لانغدون بأنّ وقوع هذه التكنولوجيا في أيدي خاطئةٍ سيُجعل أسوأ كوابيس أورويل⁽¹⁾ تبدو مُجرّد حلمٍ طريف.

تابع فينش: "لهذا السّبب، عملت وكالة الاستخبارات بلا كللٍ لمُجاربة عمالقة التكنولوجيا الحيويّة - نيورالينك، وكيرنال، وسينكرون، وسواها - وجميعها تملك خزائنٍ حريّة لا تنفد، وتسعى إلى الهدف نفسه؛ ابتكار أوّل غرسةٍ دماغيّةٍ قادرة على تحقيق تواصلٍ مُباشرٍ وسريع بين الإنسان والآلة. لكن، لحسن حظّنا، واجهت جميعها العقبة نفسها".

قالت كاثرين: "الواجهة؛ كيفيّة إنشاء خلايا عصبيّة اصطناعيّة".
أوما فينش مُوافقًا. "حقّقت نيورالينك نجاحًا محدودًا، لكنّه لا يرقى إلى المستوى المطلوب. أما الحلقة المُفقودة، فاتّضح أنّها تصميمٌ تعمل سي أيّ عليه تطويره منذ أكثر من عقدين".

قال لانغدون: "مأخوذ من براءة اختراع كاثرين".
"أكرّر، الدكتور سولومون لا تملك أيّ براءة اختراع. وحتى لو امتلكت واحدة، كُنّا سنستحوذ عليها باسم الأمن القوميّ. فالمشكلة في استخدام حقّ الاستملاك العام أنّ إجراءاته مُعقّدة وعُليّية، وغالبًا ما تفضّح ما تُحاول الوكالة إخفاءه".

(1) يصف "الكابوس الأوروبيّ" مُجتمعًا مُستقبليًا بائسًا، يتميّز بالمراقبة الحكوميّة الشديدة، والدعاية والسيطرة على كلّ جانب من جوانب حياة الناس.

سألته كاثرين: "وماذا تفعلون بتصميمي إذا؟ ما العتبة؟"

نزع فينش نظّارته بيده الخالية، وحرّك عنقه ببطء ليُخَفِّفَ من تشنّجه، ثم قال: "دكتورة سولومون، ربّما تذكّرين أنّ معهد كالتيك طوّر غرسة، تتّصل بالقشرة البصريّة للدماغ، يمكنها أن "تري" ما يراه صاحبها بعينيّه".

أجابت فوراً: "أذكر حتمًا. كانت الغرسة تلتقط الإشارات الضوئيّة العابرة في العصب البصريّ، ثم تحوّلها وتبثّها مباشرة كفيديو حيّ".

لم يكن لانغدون قد سمع بتلك التقنيّة، لكنّها بدت له كنسخةٍ داخليةٍ من كاميرا "غوبرو"؛ طريقة لرؤية العالم بعينيّ شخصٍ آخر. هل تراقب العتبة ما يراه الأشخاص؟ إن كان الأمر كذلك، فهذا شكل جديد تمامًا من المراقبة. نظر لانغدون إلى الشاشات المحيطة بالقبّة، وتخيّل بثًا مباشرًا من وجهة نظر الناس في حياتهم اليوميّة. لكن، ما دور الكبسولات إذا؟

تابع فينش: "تعمل الوكالة على مشروعٍ مُماثل، لكنّه نسخة أكثر تطوُّرًا بكثير، قادرة على مُراقبة ما يختبره الشخص، ليس بعينيّه... بل بعين عقله".

بالنسبة إلى لانغدون، استحضرت العبارة في ذهنه صورة النقطة الملوّنة التي توضع بين الحاجبين في التقاليد الشرقيّة، والتي يسمّونها أيضًا "العين الثالثة"، وتُمثّل بالنسبة إليهم بوّابة الحكمة الروحيّة.

قال فينش، وقد لاحظ ارتباك لانغدون: "عينك العقليّة يا بروفيسور هي الآليّة التي ترى بها من دون عينيّك. فحين تُغمض عينيّك وتخيّل المنزل الذي أمضيت فيه طفولتك، تظهر الصورة بوضوح تامّ؛ وتلك هي عين العقل. فالدماغ لا يحتاج إلى مدخل بصريّ ليُنتِج صورًا دقيقة. إنّهُ يرى الذكريات، والتخيّلات، وأحلام اليقظة على الدوام. حتّى وأنت نائم، يستحضر الدماغ صورًا على شكل أحلام وكوابيس".

قالت كاثرين: "من المستحيل أن تكونوا قد بنيتهم فعلاً..." ثم صمّمت وقد عجّزت عن إيجاد الكلمات المناسبة.

ردّ فينش بفخر: "بل فعلنا. لقد طوّرت العتبة غرسةً قادرة على رؤية محتوى عين العقل، وبات بإمكاننا الآن مُراقبة الطيف الكامل للصور التي يستحضرها الدماغ... نراها وهي تتشكّل لحظةً بلحظة، بالتفاصيل الكاملة".

حين شاهد لانغدون ملامح الصدمة التي ارتسمت على وجه كاثرين، أدرك أنّها، بلا شكّ، ففزة مذهلة في علم الأعصاب. فتذكّر أنّ أحد علماء جامعة كيوتو أعلن مؤخرًا عن تقنيّة تسجّل الأحلام، وتعيد عرضها كفيلمٍ تقريبيّ؛ على الرغم من أنّ عمليّته بدت بدائيّة، إذ إنّها تستخدم الذكاء الاصطناعيّ لترجمة بيانات الأحلام التي تمّ التّوصّل إليها عبر استخدام

الرنين المغناطيسيّ إلى صور تقريبية. لكنّ ما وصفه فينش بدا وكأنّه نقلة نوعيّة.

هل تستطيع العتبة التجسّس على الخيال؟

تساءل لانغدون إن كان هذا يرتبط بنظرية كاثرين عن الدماغ بوصفه جهاز استقبال. فإذا كانت الغرسة قادرة على "رؤية" الصورة التي تتكوّن في الدماغ، فربّما كانت قادرة أيضًا على معرفة مصدر تلك الصور؛ أهي مُخزّنة في الذاكرة المادّيّة، كما يزعم الماديّون؟ أم إنّها تتدفّق من الخارج، كما تعتقد كاثرين في نظريّتها عن الوعي غير الموضوعيّ؟

سألته كاثرين، وقد استعادت صوتها: "وهل هذه الغرسة... تعمل فعليًا؟ إن صحّ ذلك، فالتأثير العلميّ سيكون هائلًا في أبحاث الوعي..."

قال فينش: "أتخيّل ذلك، لكنّ العتبة تُركّز على الأمن القوميّ فحسب".

شحب وجه كاثرين وهي تحدّق إلى كبسولات EPR المصفوفة تحت القبة. فهمست وهي تلتفت برعب إلى فينش: "السبات الاصطناعيّ... هل تضعون الأشخاص على شفير الموت... وتراقبون ما يرونه؟ هل تدرسون تجارب الموت الوشيك؟"

ردّ فينش: "بمعنى ما، نعم. فكما تعلمين، "العتبة" الدقيقة بين الحياة والموت منطقة غامضة".

توقّف قليلاً، وكأنّه أراد للكلمة أن تستقرّ في ذهنيّهما.

العتبة.

لم يسبق للانغدون أن فكّر في الكلمة بهذا المعنى.

تابع فينش: "أولئك الذين يشارفون على الموت يرون أشياء، ويُدركون أمورًا، ويفهمون حقائق تتجاوز حدود وعينا المعتاد. لقد أجرت الوكالة أبحاثًا نفسيّة لأكثر من نصف قرن، سعيًا لاستغلال القوى الكامنة في العقل البشريّ لأغراض استخباراتيّة. استعنا بعلماء نفس، ووسطاء، ومتخصّصين في هذا القطاع. لكنّ أعظم العقول الموهوبة في العالم لم تتمكّن من بلوغ ما يمكن بلوغه في الحالة الذهنيّة المُغيّرة التي تُرافق الموت".

فكّر لانغدون في سرّه: هذا بالضبط ما كتبت عنه كاثرين... وتذكّر نظريّتها حول كيمياء

الموت: حين نموت، تنخفض مستويات GABA في الدماغ، فتتلاشى مرشحات الوعي، ويُتاح للعقل استقبال نطاقٍ أوسع من الواقع. عندئذٍ، أدرك لانغدون رَغْمًا عنه أنّه إذا كان الإدراك المُعزّز هو حقًّا الهبة الغامضة التي تُصاحب الموت، فإنّ تسخيرها لأعمال الاستخبارات العسكريّة يُعدّ... تدنيسًا.

قال فينش: "المُشكلة أنّ تجارب الموت الوشيك قصيرة ومُشوّشة. وعندما يعود الإنسان إلى وعيه ويُحاول تذكّرها، يكون الأمر أشبه بمحاولة استعادة حلمٍ في الصباح؛ صورٌ ضبابيّة تتلاشى بسرعة".

قالت كاثرين بدهشة مُتصاعدة: "والآن، أصبحتَم قادرينَ على تسجيل التجربة؟"
"نعم، وبالإضافة إلى ذلك، يُمكننا إشراك مُرشدينَ من الخارج، يُشاهدون كل شيء في الزمن الفعلي". وأشار بيده إلى سلسلة المقصورات وشاشات العرض، وكلّ منها مُرتبط بكبسولته الخاصة التي تُشبه التابوت. "عندما تعمل هذه المُنشأة بكامل طاقتها، ستُبثّ هذه الشاشات عرضًا مُباشرًا من عقولٍ بشرية في أقصى حالات التحوّل، أي على سفير الموت. وكما تعلمين يا دكتورة سولومون، هذه الحالة عادةً ما تؤدّي إلى —"

قالت بصوتٍ خافتٍ: "تجربة وعيٍ مغايرة، الوعي غير الموضوعي..."
خطرت ببال لانغدون القصص الشائعة التي رواها مرضى وهم على سفير الموت في غرف العمليات، ثمّ أنعشوا لاحقًا. عند الموت، نترك أجسادنا خلفنا.
قال فينش مُؤكّدًا: "صحيح. فعندما يُوضَع الشخص في إحدى هذه الكبسولات على سفير الموت، يتحرّر وعيه. نحن نُطلق على من يدخل هذه الحالة اسم رائد الوعي أو psychonaut. وعندما يحدث ذلك، يُمكننا مُراقبة ما يراه بدقة. وهذه الشاشات ستعرض لنا ما يراه العقل المُتحرّر من منظوره... التجربة الكاملة للوعي غير الموضوعي، إذا صحّ التعبير."
قال لانغدون في سرّة: يستحيل أن يكون هذا حقيقيًا. مع ذلك، كانت كاثرين تستمع إليه بتركيز تامّ، وكأنّ كلّ ما يقوله منطقيّ تمامًا. بدت مأخوذة بما تسمعه، حتّى إنّها نسيت لهنيهة أنّ الرجل الذي يُحدّثها يُصوّب سلاحًا نحوها.
هذه كأسها المقدّسة.

بنظر كاثرين، كانت تجارب الوعي المغايرة أفضل دليل على الوعي غير الموضوعي، لكنّها كانت ظواهر عابرة لا يمكن التحقق منها علميًا. وعجز العلماء عن إعادة إنتاج تلك التجارب في ظروفٍ مضبوطة - وهو ما سمّته كاثرين أزمة التكرار - جعل صدقيتها موضع شكٍّ دائم. لكنّ هذه المُنشأة قد تقدّم أخيرًا الدليل على أنّ الوعي غير موضوعي. وهذا ما قد يُشكّل إنجازًا من شأنه أن يقلب مفاهيمنا عن الحياة رأسًا على عقب...

وكذلك عن الموت. تذكّر لانغدون ما قاله جوناك فوكمان حين دفع ثمنًا باهظًا لشراء مخطوطة كاثرين. الدليل على الوعي غير الموضوعي يتصل مُباشرةً بأسمى إيمان عند الإنسان؛ وجود حياة بعد الموت... إنّهُ موضوعٌ ذو أثر عالميٍّ وقيمةٍ تجاريةٍ هائلة.

قالت كاثرين، مُشيّرةً إلى المنصة الدائرية في وسط القاعة: "وما الغرض من المقصورات هناك؟"

قال فينش: "صدّقي أو لا تصدّقي، فتلك المقصورات مُخصّصة للطيارين. في الواقع، ما زلنا نعمل على إتقان آليّة التحكم، لكن يمكنك أن تتخيلي أنّ عقليّن خضعا لزراعة غرسة

إلكترونيّة حديثاً يستطيعان الآن التواصل بطرقٍ نحاول أن نفهمها. فحالة الوعي المغايرة مُربكة للغاية، ولهذا نربط رائد الوعي بعقل ثابت لِيُساعد على توجيه التجربة. فالشخص الجالس في المَقصورة يعمل كمرشد، إن أردتِ".

حدّثت كاثرين إليه، وقد عجزت هنيهة عن الكلام. "أتقصد أنكم تتحكّمون... بوعي في حالة مغايرة؟ وكأنّكم... تقودون طائرة مُسيّرة؟"

ابتسم فينش، وبدا أنّه يستمتع بدهشة كاثرين. "كنت أعلم أنّك ستفهمين يا دكتورة سولومون. نعم، أنت على حقّ... عندما تعمل هذه القبة بكامل طاقتها، ستضمّ المَقصورات طاقماً صغيراً من الطيّارين الذين سيتولّون قيادة ما يشبه أسطولاً من الطائرات غير المريّية، التي يمكننا إرسالها إلى أيّ مكانٍ في العالم لمراقبة ما نشاء: ميادين قتال، غرف حرب، مجالس إدارة؛ ولا يمكن رصدها، كما أنّه لا مفرّ منها".

شعر لانغدون برغبة جامحة في الصراخ: هذا جنون! هذا ضربٌ من الخيال العلمي! مع ذلك، أدرك أنّ ادعاءات فينش تستند إلى نظريّة باتت تحظى بقبولٍ مُتزايد؛ الوعي غير الموضوعي. وعلى الرغم من اعتقادات كاثرين، لم يستطع لانغدون تصديق ما يسمعه. فبصفته أكاديمياً مُتمرساً، رأى أنّ واجبه يفرض عليه مُواجهة الخرافة بالشكّ والعقلانية. لكن في هذه اللحظة بالذات، وجد نفسه أمام مُفارقةٍ حقيقيّة.

في مرحلةٍ ما... يُصبح الإصرار على الشكّ غير عقلائيّ.

لكي يتمسّك لانغدون بشكوكه حيال مزاعم فينش، كان عليه أن يضع المنطق جانباً، ويتجاهل جبلاً من الأدلة العقلانيّة المُتراكمّة.

أولاً، ثمة آلاف الحالات الطيّبة المؤثّقة لتجارب الموت الوشيك تصف هذه الظاهرة بدقة. ثانياً، كشف عالم فيزياء الكَمّ عن أدلةٍ داميّة على أنّ الوعي غير الموضوعي يعمل بطرقٍ تتجاوز فهمنا الحاليّ. ثالثاً، ثمة آلاف الظواهر الخارقة للطبيعة والمُثبتة - التخاطر، والأحلام المُشتركة، ومُتلازمة العبقريّ المُفاجئ - وكلّها مُستحيلة في إطار نموذجنا العلميّ الحاليّ، ما لم نقبل بإعادة النظر جذريّاً في هذا النموذج... أو نصنّفها تحت عنوان لا يفضّله لانغدون إطلاقاً: "الأعاجيب". أمام هذه الأدلة، أدرك لانغدون أنّ إنكاره إمكانيّة نجاح مشروع العتبة لا يقلّ عبثيّة عن إنكار وجود القمر في أثناء الخسوف.

قالت كاثرين، وقد بدت الحماسة في نبرة صوتها: "روبرت... هذا يُغيّر كلّ شيء! فهذه لم تعد نظريّة بعد الآن... بل هي إثباتٌ قاطعٌ على أنّ الوعي غير موضوعيّ..."

أوما لانغدون بهدوء، مُتخيّلاً شعورها في هذه اللحظة، وهي تكتشف فجأةً تقدّماً علميّاً هائلاً في المجال الذي كرّست عقوداً من حياتها لدراسته.

التفتت كاثرين إلى فينش مُجدِّداً وقالت: "يجب أن يعرف المُجتمع العلميّ كلّ هذا. فعلم الوعي—"

قاطعها فينش بصرامةٍ، وهيمن صوته على القاعة: "العتبة ليست مشروعاً علمياً، بل عملية استخباراتية عسكرية. فالمعلومة تُمثّل المصدر الوحيد للقوّة. وفي سعينا إلى فهم أعدائنا، تُشكّل هذه القبّة ترسانتنا النووية؛ أداة المراقبة القصوى. فالعتبة هي الجيل التالي من تقنيات الرصد الذهنيّ من بُعد. وقد سعت وكالة الاستخبارات جاهدةً لبلوغ هذه المرحلة منذ عقود".

بدا الذهول واضحاً على لانغدون، منذ عقود؟ "ولماذا تستثمر الوكالة بهذا القدر في مشروع يُشبه تماماً ستارغيت... الذي فشِل قبل ثلاثين عاماً؟" رمقه فينش بنظرة حادة ومُقلقة، وقال: "ببساطة يا سيد لانغدون، ستارغيت لم يفسل قطّ". ثم لَوّح بمسدّسه وهو يُشير إلى القاعة من حوله وتابع قائلاً: "بل تحوّل ببساطة... إلى شيءٍ أعظم بكثير".

الفصل 113

في غرفة الاتصالات الآمنة بمقر سي أي إيه، كان المدير جاد يذرع المكان جيئةً وذهاباً بقلق، بانتظار كلمة من براغ. فقد كان اعتراف غُسْنِرِ الْمُفْصَّل بالفيديو كارثة فعلية؛ إذ كشف الكثير جدًّا عن مُنشآتِهِم السريّة للغاية، وكان يأمل أن يتمكّن من احتوائه في الوقت المناسب. في الواقع، شكّلت العتبة - من حيث المفهوم على الأقل - جزءًا من حياة جاد لعقود من الزمن. فحين كان غريغوري جاد مُحلِّلًا شابًا في سي أي إيه، سُلِّمَ رسمًا تقريبيًا لموقع بناء يحتوي على سلسلة من الارتفاعات الميكانيكية غير العادية، وطلب منه مقارنة الرسم بصورة قمر صناعي للموقع نفسه. وكما هو مُتَوَقَّع، كانت الرسومات مُتطابقة تقريبًا، فاستنتج جاد منطقيًا أن الفنان قد رأى هذا الموقع بنفسه... أو على الأقل صورة فوتوغرافية له.

ثم أخبروني بالحقيقة.

كان الموقع المرسوم مُنشأةً روسيّة شديدة السريّة في سيبيريا، والصورة الفضائية أُخِذَتْ بعد إنجاز الرسم، أمّا الفنان فكان شابًا يُدعى إنغو سوان، لم يُغادر الولايات المتحدة قط. ولم يكن مصدر معلوماته مُشاهدات ميدانية، بل ما عُرف لاحقًا باسم الرصد الذهني من بُعد.

ما هذه السخافة؟ هذا ما فكّر فيه جاد في ذلك الحين، شأنه شأن كثيرين في الوكالة. ومع ذلك، بقي السؤال مطروحًا... كيف وُجد هذا الرسم؟

جاء الجواب الظاهريّ سنة 1976، حين اعترف المُهاجر السوفييتي أوغست شتيرن أنه عمل في مُنشأة استخباراتٍ نفسيّة في سيبيريا، تمكّنت بنجاح من رصد موقع عسكريّ أميركيّ سريّ ذهنيًا.

شعرت وكالة الاستخبارات أنها تلقت صفة مُباغِة، فأطلقت على الفور أول برنامج أميركيّ للرصد الذهنيّ من بُعد، بهدف مجازاة السوفييت. تأسس البرنامج تحت غطاءٍ فكريّ أكاديميّ مُرتبط بجامعة ستانفورد، ومرّ بعدة تسمياتٍ ومراحل مبكرة مثل Grill Flame، وCenter Lane قبل أن يُعتمد رسميًا سنة 1977 تحت اسم ستارغيت.

ولدهشة العلماء المُشاركين، حقّق أوائل الراصدين الذهنيين من بُعد في المشروع - ومنهم إنغو سوان، وبات برايس، وجوزف ماكموينغل - نجاحًا مُذهلاً. صحيح أن الوصول إلى حالة وعي مغايرة تكررًا كان صعبًا، لكنهم تمكّنوا من تقديم معلوماتٍ استخباراتية مُذهلة.

تذكر جاد أن بعض النتائج كانت مُدهشة إلى حد لا يُصدق، وكان من بينها التجسس على غواصة سوفيتية مزدوجة الهيكل من طراز تايفون في القطب الشمالي، والعثور على قاذفة تو-95 سوفيتية مُحطمة في إفريقيا، وتحديد موقع العميد الأميركي جيمس إل. دوزيه الذي اختطف في إيطاليا، وكشف عميل تابع لكي جي بي كان يتجسس في جنوب إفريقيا، وأكثر من اثنتي عشرة عملية ناجحة أخرى بدت مُستحيلة تمامًا.

في عام 1979، قُدمت لجنة الاستخبارات في مجلس النواب الأميركي عرضًا مُغلَقًا لتجربة حية من مشروع ستارغيت، خرج بعدها المُشرعون مذهولين. وقد صرّح النائب الديمقراطي تشارلي روز علنًا: "إذا كان الروس يملكون هذه التقنية ونحن لا نملكها، فإننا في ورطة حقيقية".

استمر مشروع ستارغيت في النمو بسرعة تامة حتى عام 1995، حين تسربت سلسلة من الوثائق الأمنية الحساسة إلى العلن، وأشعلت موجة غضب شعبية. بدا حينها وكأن وكالة الاستخبارات كانت إما تُدرّب جيشًا من الجواسيس النفسيين... أو تهدر أموال دافعي الضرائب على هراء سخيف.

وبدلاً من إنكار وجود المشروع، فضّلت الوكالة أن تعترف بخجل أن ستارغيت كان موجوداً فعلاً، لكنه توقف منذ سنوات لأنه فشل تماماً وأهدرت عليه أموال الدولة. ولم يكن ذلك صحيحاً، لكن الوكالة رأت في هذه الاعترافات المتواضعة وسيلةً لتهذبة الرأي العام، وإقناع خصوم أميركا العالميين بعدم متابعة أبحاث مُماثلة في مجال الاستخبارات النفسية. وقد نجحت الخدعة إلى حد كبير، وإن أثار حنق بعض المشاركين القدامى في ستارغيت، الذين شعروا بالإهانة حين وُصفت إنجازاتهم بأنها هراء محض. فقرر عددٌ منهم نشر سير ذاتية غير مُصرّح بها، حملت عناوين مثل:

- الجندي النفسي: القصة الحقيقية لأعظم جاسوسٍ نفسي في أميركا، وكيف تمّ التستر على مشروع ستارغيت السري التابع لـ CIA
- جواسيس نفسيون: القصة الحقيقية لبرنامج الحرب النفسية الأميركي
- رحلة مُشكّكٍ داخل مشروع ستارغيت التابع لـ CIA
- مشروع ستارغيت وتقنيات الرصد الذهني من بُعد: ملفات وكالة الاستخبارات حول التجسس النفسي

لحسن حظّ الوكالة، بدت الروايات الواردة في هذه الكتب - وإن كانت صحيحة في معظمها - بعيدة الاحتمال لدرجة أن أحداً لم يُصدقها تقريباً. وبدلاً من اتخاذ إجراءات

قانونية ضد المؤلفين ولفت الانتباه إلى ما كتبه، تجاهلت الوكالة الكتب ببساطة، واعتبرتها عمليات نهب أموال مُضَلَّلة ومُختَلقة من قبل مُوظَّفين سابقين غير مُتَرَبِّين. ولكن كانت ثمة مشاكل أكثر خطورة في الطريق.

ففي عام 2015، نشرت مجلة نيوزويك تقريراً صادماً جديداً عن مشروع ستارغيت. ولن ينسى جاد ما شعر به حين قرأ تصريح مدير المشروع السابق، العقيد المتقاعد براين بزبي، الذي حرق صمتاً دام عقدَيْن وقال: "صدّفته حينذاك... وما زلت أصدّقه اليوم. كان مشروعا حقيقيا، وقد نجح بالفعل".

ذكر المقال أيضاً رسماً أنجزه عميل ستارغيت الأسطوريّ العميل 001، جوزف ماكمونينغل، الذي يُصوّر غواصة ضخمة مُزدوجة الهيكل داخل حوض سريّ في روسيا. ووفقاً للتقرير، أكدت صور الأقمار الاصطناعية الأميركية لاحقاً وجود غواصة هائلة مُزدوجة الهيكل في حوض السفن السريّ بمدينة سيفيرودفينسك الروسية - من طراز تايفون - وهو ما شكّل تهديداً جديداً للأمن القوميّ الأميركيّ.

وحين سُئل السيناتور الأميركيّ ويليام كوهين - الذي أصبح لاحقاً وزيراً للدفاع - عن رأيه في مشروع ستارغيت الذي أُعلن إغلاقه، أجاب قائلاً:

لقد أُعجبتُ بمفهوم الرصد الذهنيّ من بُعد... فاستكشاف قوى العقل البشريّ كان ولا يزال مسعى غاية في الأهميّة... وقد كنتُ من الداعمين لمشروع ستارغيت؛ شأني شأن السيناتور روبرت بيرد وأعضاء آخرين في اللجنة...

بعد ذلك المقال، وجد المدير جاد نفسه أمام سيل من الأفلام الوثائقية التلفزيونية عن مؤامرة ستارغيت. وكان أكثرها إثارة للقلق فيلماً بعنوان *جو/سيس العين الثالثة Third Eye Spies*. ومع أنّ الوكالة اكتفت بالردّ المعتاد لدحض الشائعات، إلّا أنّ جاد لم يُخفِ دهشته من مدى دقّة كثير من الادّعاءات الواردة فيه، ولا سيّما فرضيّة أنّ إعلان فشل ستارغيت كان تمثيلية مُحكّمة الإخراج.

لم يكن لديهم دليل... لكنهم لم يُخطئوا.

في الحقيقة، استمرّت أبحاث الرصد الذهنيّ من بُعد بهدوء داخل أروقة لانغلي ومعهد SRI International⁽¹⁾ و Fort Meade⁽²⁾. فسحابة الدخان التي نتجت عن إعلان فشل

- (1) معهد ومنظمة بحثية علمية غير ربحية، يقع مقرها الرئيس في مينلو بارك، كاليفورنيا، الولايات المتحدة.
- (2) منشأة رئيسة للجيش الأمريكيّ في ماريلاند، وهي المركز الوطنيّ للاستخبارات والمعلومات والعمليات السبرانية.

المشروع أتاح للوكالة فرصة التخطيط في الخفاء لمستقبل البرنامج؛ نسخة أكثر تمويلًا، وأشد سريةً، وأكثر تطورًا من أي وقت مضى... عميقًا تحت الأرض، بعيدًا عن ماضي البرنامج المُلوث، وباسم رمزي جديد تمامًا.

هكذا وُلِد مشروع العتبة.

جاء صوتٌ مُتقطعٌ عبر جهاز الاتصال: "سيدي المدير، إنها على الخط".

استفاق جاد من شروده، ونظر إلى شاشة الفيديو أمامه.

قال: "شكرًا، صِلني بها".

بعد لحظات، اختفى شعار وكالة الاستخبارات المركزية من الشاشة، ليحلّ محله وجه

السفيرة هايدة ناغل الجريء... وإلى جانبها يقف جنديان من المارينز.

الفصل 114

حدّث كاثرين إلى فوهة مسدس فينش، وقد شعرت وكأنّ صدمة كهربائية أعادتها فجأة إلى الواقع. فمختبر الموت الذي تديره وكالة الاستخبارات المركزية لم يكن مركزاً للدراسة الواعي كما ظنّت... بل مركز تحكّم بسلّاح جديد مُذهِل قائم على التجسّس عبر الرصد الذهنيّ من بُعد. في مجال علم الوعي، يُعدّ مشروع العتبة أعظم إنجاز علميّ في التاريخ. فالسبيل إلى فهم الوعي غير الموضعيّ لطالما كان يمرّ عبر فهم تجارب الوعي المغايرة، الذي اصطدم بعقبتين هائلتين.

لكنّ مشروع العتبة حلّهما معاً.

تمثّلت العتبة الأولى في أنّ حالات الوعي المغايرة نادرة، وخاطفة، ولا يمكن توقّعها غالباً. فقلّة من الأفراد الاستثنائيّين كانوا قادرين عليها بإرادتهم، وحتى أولئك، كانوا يجدون صعوبة في الحفاظ على تلك الحالة لأكثر من دقيقة. لكن في العتبة، وباستخدام كبسولات غُسْنِر، أصبح بالإمكان دفع أيّ إنسان قسراً إلى حالة وعي مغايرة، وإبقاؤه فيها ساعة أو أكثر. أمر مُرعب، لكنّه حقيقيّ.

أمّا العتبة الثانية فكانت القدرة على التذكّر. فقد وصف من مرّوا بهذه الحالات تجاربهم وشبّوها بحلم سرعان ما يتبدّد، ممّا يجعل من المستحيل على الباحثين جمع بيانات دقيقة وموثوقة. غير أنّ العتبة كسرت هذا الحاجز أيضاً، من خلال غرسة الدماغ العصبيّة، التي تسمح بتسجيل التجربة بأكملها ودراستها.

كانت تلك فقرة نوعيّة مُحتمّلة في أبحاث الوعي، تُعدّ بالكشف عن أعمق أسرار العقل البشريّ. بما فيها طبيعة الموت نفسه. مع ذلك، كان إحباط كاثرين بالغاً، إذ رأت كيف حوّلت الوكالة هذا الاكتشاف المُذهِل من وسيلة للغوص في أسرار الوعي والموت إلى أداة تجسّس خارقة لا يمكن تخيّل أبعادها. وكانت لا تزال تُكافح لتقبّل فكرة وجود تكنولوجيا كهذه بالفعل، وإمكانية تحويلها إلى سلاح بهذه السهولة.

قالت كاثرين: "ثمّة أمر لا أفهمه. الغرسة الدماغية... الشبكة العصبيّة التي تمّ دمجها بهذه السرعة—"

قاطعها لانغدون، وعيناه على المسدّس المُصوّب نحوهما: "لقد سمعتُ ما فيه الكفاية. سيّدي، مخطوطة كاثرين دُمّرت، وهي لن تنشر كتابها. ونحن مُستعدّان لتوقيع اتفاقية السريّة، لذا يمكنك إنزال السلاح."

فقال فينش ببرود، وهو يرمق باب القاعة وكأنه ينتظر أحداً: "سأفعل في الوقت المناسب. لكن يُسعدني أن الدكتور سولومون لاحظت أننا دمجنا شبكتها العصبية بهذه السرعة".

قالت كاثرين في سرّها: لا، بل بسرعة مُستحيلة. فوفقاً للسجلات التي اطلعت عليها، كان مُعدّل اندماج خلايا ساشا العصبية مع خلاياها الاصطناعية أسرع بعشر مراتٍ من أيّ نموّ طبيعيّ أو من أيّ تجربةٍ مُختبريّةٍ رأتها من قبل.

قال فينش بزهو: "وجدنا الحلّ في تقنية جديدة تُسمّيها التعاون القسريّ؛ وهي نوع من حلّ الألغاز المُشترك. إذ نستخدم الواقع الافتراضيّ لإدخال اللغز نفسه في كلّ من دماغ المريض والشريحة المزروعة في آنٍ واحد. وكما تعلمين، حين تُدرِك الخلايا العصبية المُنفصلة أنّها تستطيع العمل بكفاءةٍ أكبر عبر تبادل المعلومات، فإنّها تُنشئُ مشابك جديدة".

فكرت كاثرين في سرّها: غالباً ما تكون أبسط الحلول أذكاه. كانت الفكرة ذكيّة في بساطتها. فمن خلال إعطاء تحدٍّ واحدٍ لجهازَي مُعالجةٍ مُنفصلين - العقل البشريّ، والشريحة الإلكترونيّة - يجري تحفيزهما على التعاون... وعلى التشابك العصبيّ بأسرع ما يمكن. الخلايا العصبية التي تنشط معاً... تترابط. تُعرَف هذه العملية باسم التعلّم الهيبّي، وقد شكّلت جزءاً من علم الأعصاب منذ ثلاثينيات القرن الماضي؛ حين اكتشف دونالد هيب أن الدماغ - عندما يُجابه بتحدّياتٍ ذهنيّةٍ مُكثّفةٍ ومُتكرّرة - يُنشئُ مسارات عصبية جديدة بسرعة، تماماً كما تنمو عضلات الرياضيّ بالتمرين المتواصل.

سألته كاثرين: "وماذا عن العقاقير في مُختبر الواقع الافتراضيّ؟ أفترض أنّها مُهلوسات تُعزّز الدونة العصبية؟"

قال فينش: "نعم، فبالإضافة إلى تحفيز النموّ العصبيّ، تُستخدم تلك العقاقير لجعل الألغاز أكثر تعقيداً، إذ تُجبر الدماغ على التركيز عبر ضبابٍ ذهنيّ. الأمر أشبه برياضيّ يتدرّب وهو يضع أوزاناً في حذائه. فالعبء الإضافيّ يُسرّع عملية التكيّف".

اندھشت كاثرين وقالت: "لكنّ هذه الفكرة ليست في أطروحتي. هل كانت فكرة بريغيتا؟" إلى حدّ كبير، نعم. صحيح أنّها لم تكن دائماً سهلة المراس، واختلفنا جوهريّاً على كثيرٍ من الأمور، لكن ما كنّا لنُقيم مشروع العتبة من دونها.

عندئذٍ، سأله لانغدون: "وماذا عن أطروحة كاثرين؟ كيف وصلت إلى أيدي سي أي إيه؟" أجاب فينش: "عبر طلبات جوائز بلافتيك. فتلك الطلبات تتضمّن دائماً أكثر الأفكار جرأة من ألمع العقول الشابّة. ولهذا السبب، كانت الوكالة تحرص آنذاك على أن يكون أحد الحكّام من معهد ستانفورد للأبحاث".

ستانفورد؟ ذهلت كاثرين لأنّ الفكرة لم تخطر ببالها منذ البداية. فقد كان معهد ستانفورد للأبحاث معروفًا بعلاقاته القديمة مع وكالة الاستخبارات، لا بل يُعتَقَد على نطاقٍ واسعٍ أنّه مهْدُ مشروع ستارغيت. وكان من المحتمل جدًّا أن يكون بروفيسور من المعهد عضوًا في لجنة التحكيم لجوائز بلافاتنيك من دون أن يُثِير الرّية؛ جاسوسًا مُتَحَفِّيًا على مرأى العين.

قال فينش: "عندما لم تُفْز أطروحتك، ولا حتّى بذكر مُشْرِفٍ، راح أستاذك في برينستون - كوزغروف، على ما أعتقد - يُراجع اللجنة بالحاح، ولا سيّما مُمثّل ستانفورد. لكنّه أدرك في النهاية أنّ لمعهد ستانفورد للأبحاث يدًا في الأمر، وأنّ عليه التراجع، وعدم التحدّث في الموضوع مُطلقًا".

قال لانغدون بصرامة: "نريد المغادرة، حالًا".

فقال فينش: "لستما في موقع يسمح لكما بتوجيه الأوامر، بروفيسور. لقد تسلّلتما إلى مُنشأة حكوميّة شديدة السريّة، وخرقتما عددًا لا يحصى من القوانين. وإن كنتما تعتقدان أنّ السفارة ستأتي لإنقاذكما، فأشكّ في أنّها ما زالت تتمتّع بحريّة التحرك أصلًا".

عندئذٍ، قال لانغدون بلهجة مُتحدّية: "إذا اختفينا أنا وكاثرين، فسيلاحظ كثيرون ذلك. لن يكون الأمر مثل تجربتك المجهولة مع المريض سيزيفيتش".

"أنت لا تعرف شيئًا عمّا حدث لديمتري".

ردّت كاثرين: "نحن نعرف أنّكم استخدمتموه كفأر تجارب بشريّ؛ تمامًا كما فعلتم مع ساشا فيسنا".

أجاب فينش بحدّة: "كانا يعيشان حياةً من العذاب، وغَسْنِر أنقذتهما منها. لقد شَفَتُهُما من الصرع، ومنحتهما حياةً جديدة".

قال لانغدون: "أُعتَبِر هذا مُبرّرًا؟ هل تظنّ أنّ ديمتري يعيش حياة أفضل الآن؟ لقد رأينا سجلّاته؛ يبدو أنّه مات هنا!"

رفع فينش مسدّسه نحو لانغدون قائلاً ببرود: "لا بدّ أنّ حياة الأكاديميّين مُترَفّة، فأنتم لا تقلقون على أمن بلادكم... ولا تفكّرون في أولئك الذين يسعون إلى تدمير أسلوب الحياة الغربيّ. العالم مكانٌ خطِر، وأمثالي هم السبب الوحيد لبقاء مدينتك بوسطن حتّى اليوم. وأعني هذا حرفيًّا".

ردّ لانغدون: "ربّما كان هذا صحيحًا، لكنّه لا يمنحك الحقّ لإجراء تجارب على البشر من دون علمهم".

حدّق إليه فينش مُطوّلًا ثمّ قال: "يتمثّل الاختبار الحقيقيّ لضمير الإنسان في استعدادهِ للتضحية اليوم من أجل أجيال المستقبل التي لن يتمكّن من سماع تعبيرها عن الامتنان أبدًا".

ردّ لانغدون بحدة: "إذا كنت ستقتبس، فعلى الأقلّ افهم ما تقتبسه؛ كان غايلورد نلسون يتحدث عن حماية البيئة، لا عن تعذيب الأبرياء".

قال فينش: "ساشا ليست بريئة بقدر ما تظنّ، فقد قتلت الدكتورة غِسْنِر".

صرخ لانغدون: "هذا مستحيل! كانت ساشا تحبّ بريغيتا، ولا يمكن أن—"

قاطعه فينش: "قتلت أيضًا الضابطة الميدانية التابعة لي في الطابق العلويّ. كنت أظنّ أنّ ساشا هي التي اقتحمت العتبة، فقد عثرتُ على عصا لعلاج الصرع بجوار جثة الضابطة... ولا يمكن أن تكون إلّا لها".

في تلك اللحظة، أعلن صوت أجشّ في الظلام: "تلك العصا لي، وأريد استعادتها".

الفصل 115

استدار فينش مذعورًا، ومسح أرجاء القاعة الواسعة بنظره.

مَن الذي قال ذلك؟!

ومع تردُّد الصدى في القبة، استحال تحديد الجهة التي صدر منها الصوت. بدا الذهول أيضًا على لانغدون وكاثرين.

صرخ فينش: "أين أنت؟!"

كان الصوت الذي سمعه قبل لحظات صوتًا رُجوليًا أجشَّ، ولكنه روسية واضحة، لكنه لم يتعرّف إليه. "اخرج إلي فورًا!"

فجأة، اخترق الصمت صوتٌ هسيسٍ خافتٍ قادمٌ من الطرف الخلفي للقبة، خلف لانغدون وسولومون. فاستدار الاثنان نحو مصدر الصوت، في حين نظر فينش من خلفهما، ليدرك أنّ ذلك الهسيس صادرٌ من المصعد الهوائي الذي يؤدي إلى ممرّ الخدمات السفلي. ومع صعود المنصة، رأى الثلاثة مشهدًا لم يسبق أن تخيله فينش في أسوأ كوابيسه.

كان ثمة مسخ يصعد... من باطن الأرض.

ظهر الوجه أولًا؛ جلد رماديّ باهت خالٍ من الملامح. الرأس أصلع، يعلوه غطاء عباءة سوداء، والعينان باردتان، تحدّقان بثبات إلى فوهة مسدّس فينش. ومع صعود الجسد بالكامل، انبسط ذراعه أفقيًا فظهرت كفّاه الخاليتان.

عندما توقفت المنصة، تقدّم الكائن بخطى ثابتة نحوهم، وصدر عن حذائه الثقيل صوت مكتوم على السجّاد. ظلّت ذراعه ممدودتين في إشارة استسلام، فيما اقترب من بين الكبسولات، وعباءته السوداء تتموّج حوله. رأى فينش الآن أنّ رأس المسخ ووجهه مكسوّان بطبقة سميكة من الطين اليابس، وقد نُقِشت على جبينه كتابة غامضة.

لكن، ما هذا الكائن؟!

صرخ وقد استعاد صوته أخيرًا حين أصبح الكائن على بعد خمس عشرة ياردة منه: "توقّف! لا تقترب خطوة أخرى!"

امثل المخلوق للأمر فورًا، مُتجمّدًا في مكانه بذراعيه الممدودتين.

فتحرّك فينش خطوة إلى اليمين ليحصل على زاوية تصويرٍ واضحة تتجاوز لانغدون وكاثرين. "من أنت؟! ما أنت بالضبط؟!"

أجاب الغولم بصوت تردّد صداه تحت القبة: "لقد خنت ثقة ساشا... وأنا حاميتها".

قال فينش مُتَجَهِّمًا: "هل ساشا هنا أيضًا؟"
"لا، إنها في مَأْمَنٍ، ولن تُبْصِرَ شيئًا من هذا مُجَدَّدًا".
"ومن تكون أنت؟"

اهتزَّ جسد المسخ فجأة؛ الأمر الذي فاجأه على ما يبدو، لكنّه تماسك وقال بصوت مُتَقَطِّع:
"أنا... أنا—" هذه المرّة، رأى فينش الخوف في عينيّه. بدأت ذراعه المَمْدودتانِ ترتجفان، وتلاشت
ملامح التحدّي التي دخل بها. وتمتم بصوتٍ مُرتَعِشٍ مُتَوَسِّل: "لا... ne seychas! ... ليس الآن!"
وفجأة، انهار أرضًا، وبدأ جسده يهتزّ بعنفٍ خارجٍ عن السيطرة، فتمدّد على ظهره، على
السجادة، عاجزًا تمامًا، وجسده يرتعد.

عرف فينش ما كان يراه، فقد شاهد نوبات الصرع من قبل. ومع أنّه لم يعرف من يكون
هذا الرجل، إلّا أنّ وجوده فسّر وجود العصا المعدنيّة التي عثر عليها في الطابق العلويّ. أهو
أحد مرضى غِسْنِر؟ أهو من خارج البرنامج؟
كان المسخ يُكافِح لتفتيش جيوب عباءته، باحثًا بيأسٍ عن شيءٍ ما. فقال فينش بتهكّمٍ
بارد وهو يُخْرِج من جيبه العصا المعدنيّة ويقترب منه: "أهذا ما تبحث عنه؟ أخبرني من أنت،
وسأعيدها إليك".

صرخ لانغدون: "لا يستطيع الكلام! ساعده، حبًّا بالله!"
لكنّ فينش تابع وهو يقف أمام الرجل المُتَشَنِّج على الأرض، الذي بدأ رأسه يهتزّ
بعنفٍ على السجادة، وسأله: "هل تريد عصاك؟"
صرخت كاثرين: "ساعده!"

كان السلاح لا يزال بيد فينش حين انحنى بجانب الجسد المُرتَجِف، ورفع العصا أمام
عينيّه قائلاً ببرود: "ما رأيك في أن تبدأ بإخباري—"
غير أنّه لم يُكْمِل جملته.

ففي لحظةٍ واحدةٍ، وبحركةٍ دقيقةٍ خاطِفةٍ أشبه بعضّة أفعى، جلس الرجل، ومدّ ذراعه
بسرعةٍ مُدهِشةٍ إلى صدر فينش، فسُمِعَ هسيسٌ حادٌ تبعه وميضٌ أزرقٍ خاطِيف، وشعر فينش
بالألم لاذعٍ يخترق جسده كالنار. انطلقت رصاصةٌ من مسدّسه، فأصابَت جانب إحدى
الكبسولات، بينما تجمّد جسده بالكامل وسقط إلى الأمام. فاستدار المُهاجِم جانبًا بِمُرونةٍ
مُذهلةٍ ليدعه يهوي على وجهه مُباشرةً.

ارتطم وجه فينش بالأرض، وشعر بغضروف أنفه يتحطّم تمامًا. كان الألم مُروّعًا،
يفوق أيّ ألم عرفه في حياته، ثمّ تدفّق الدم ساخنًا على وجهه، واستقرّ جسده المَشلول على
جنبه، عاجزًا عن الحركة. رأى المُهاجِم يقف بسهولةٍ عجيبةٍ، ثمّ ينحني ليلتقط المسدّس

والعصا اللذين سقطا من يد فينش. تقدّم نحوه، ووقف بحذائه الثقيل على بعد إنشات من وجهه، فجاهد فينش ليُدير رأسه، ورفع نظره تدريجيًا إلى جسد مُهاجمه، وصولًا إلى وجهه. وحين رأى المسخّ الواقف قربه، تساءل عمّا إذا كان قد مات وانتقل إلى عالم آخر. كان الوجه الذي يُحدّق إليه لا ينتمي إلى عالم البشر. وجهٌ من الطين الجافّ، تتخلّله شقوق عميقة. وعلى جبينه، نُقِشت ثلاثة رموز غائرة في الطين. كانت نظرتَه القاسية كافية، وقد فهم منها فينش أنّ صاحبها لن يرحمه.

* * *

كان روبرت لانغدون مُعتادًا على تحليل المُعطيات المُعقّدة بسرعة، لكنّ المَشهد جرى أمامه بسرعة كبيرة بحيث عجز عن فهمه تمامًا. كان فينش مُمدّدًا على الأرض، يرتجف، وهو عاجز تمامًا. ووقف أمامه، بمواجهة لانغدون وكاثرين، مخلوق يرتدي عباءة سوداء، وجهه ورأسه حليقان ومُغطَّيان بطبقة كثيفة من الطين. وعلى جبينه، نُقِشت كلمة واضحة.

أَمَات

لم يكن لانغدون ضليعًا في هذه اللغة، لكنّ هذه الأحرف الثلاثة كانت أسطورية: إِمِت. وعندما تُحَفَر على الجبين، لا يمكن لأحد أن يُخطئ معناها.

الحقّ...

غوليم براغ.

لكن، قبل أن يتمكن من استيعاب ما يجري، اخترق الصّمت صوتُ صفّارة مُروّعة. دوّت صفّارة الإنذار بصوت يصمّ الآذان، فيما راحت أضواءٌ تدور تكرارًا في فضاء القاعة الواسعة.

صرخ الرجل ذو العباءة بصوتٍ أجشّ: "اهربا! حالًا! فهذه المنشأة على وشك أن تنفجر بأكملها!"

تَنفجر؟! كاد لانغدون لا يصدق أذنيه.

قالت كاثرين: "لقد أقفلنا الباب الإلكتروني! لا نملك بطاقة للخروج!"

ركع الغوليم بجانب فينش، الذي لا يزال يرتجف على الأرض، فركض لانغدون إليه مذهولًا، بينما راح المسخ يفتش جيوب الرجل المُسَيّن. أخرج محفظته، وانتزع منها بطاقة سوداء كُتِب عليها PRAGUE، مُطابقة تمامًا لتلك التي كانت بحوزة غُسْنِر.

صرخ الغولم وسط الصفير الصاخب: "لديكما عشرون ثانية فقط!" ثم أمسك بيد فينش المرتعشة، وضغط إبهامه على سطح البطاقة حتى أضيئت إشارة خضراء صغيرة، ثم سلّمها فوراً إلى لانغدون وهو يهتف: "عشرون ثانية! اهربا!"
سأله لانغدون: "وماذا عنك أنت؟!"
أجاب: "أنا الغولم، لقد متّ مرّاتٍ عديدة من قبل".

* * *

رافقتكما السلامة. قال الغولم ذلك في سرّه، وشعر بالارتياح وهو يُراقب روبرت لانغدون وكاثرين سولومون يركضان خارج القبة. هذان لا يستحقّان الموت.
لكنّ فينش... حكاية أخرى.

وقف الغولم أمام أسيره المُملّطخ بالدماء... العقل المُدبّر الذي أشرف على هذا المشروع. وتحت الأضواء الدوّارة لُقبة العتبة، التفت إلى أقرب كبسولة، وضغط زرّاً، فانفتح غطاؤها. بعد ذلك، حمل جسد فينش القصير، ورفع به سهولة فوق حافة الكبسولة، ثم ألّقه داخلها كما يُلقى جثمانٌ بلا حياة.

اتّسعت عينا فينش، وبدأ يستعيد بعض السيطرة على أطرافه، لكنّ الألوان كان قد فات. إذ سارع الغولم إلى تثبيت الأشرطة اللاصقة السميكة حول ذراعي الرجل وساقيه، مُحكِّمًا وثاقه داخل ذلك النعش المَعْدنيّ.

تمتم فينش بصوتٍ مُتقطّع: "أرجوك... توقّف..."
انحنى الغولم فوق الكبسولة حتّى كاد فمه يلامس أذن فينش، وهمس قائلاً: "كنتُ أتَمَنّى أن أجمّد دمك لتشعر بما شعرتُ به مرّاراً... لكن، لا وقت لذلك".
سأله فينش: "من... أنت؟"

أجابه الغولم: "أنت تعرفني... أنت صنّعتني".
حدّق فينش إليه، وحاول تمييز ملامحه بيأس مُتعاظِم، لكنّ الغولم أبى أن يمنحه هذا الرضا.

بهدوء، حدّق الغولم إلى ضحيّته، ثم نطق بالكلمات الأخيرة التي سيسمّعها الرجل في حياته. بعد ذلك، ضغط الزرّ الجانبيّ للكبسولة، وشاهد راضياً الغطاء الزجاجيّ الشفّاف وهو ينخفض تدريجيّاً إلى مكانه، ويُطبّق على فينش، كاتِمًا صرخات الذعر التي طغى عليها صخب صفارات الإنذار.

الفصل 116

اندفع لانغدون وكاثرين إلى الممرّ خارج القاعة المُقَبَّبة، وكانا قد تمكّنا بصعوبة من تفعيل الماسح الإلكترونيّ ببطاقة فينش قبل أن تُقفل، وتومض بالضوء الأحمر في يد لانغدون.

انعطفا معاً إلى اليمين، وانطلقا يركضان باتجاه الدرج في نهاية الممرّ، على أمل أن يكون طريقاً أسرع للخروج بدلاً من المتاهة التي دخلا منها.

ووسط أضواء أجهزة الإنذار الدوّارة، وصفّارات الإنذار الحادّة، وصلا إلى الباب في نهاية الرواق واقتحماه، ليجدا نفسيهما على درج خرسانيّ رماديّ. فقفزا على الدّرج، مُتَخَطِّين كلّ درجتين معاً، بينما لا يزال صوت المخلوق المُغَطّي بالطين يتردّد في رأسيهما. المنشأة بأكملها على وشك الانفجار. لم يعرف لانغدون كيف أو لماذا سيحدث ذلك، لكنّ صفّارات الإنذار والأضواء الواضحة كانت دليلاً كافياً على أنّ شيئاً كارثيّاً وقع داخل العتبة، وربّما على يد ذلك الرجل نفسه.

كان لانغدون يعلم أنّ من نتائج الخوف، ولا سيّما الخوف من الموت، وضوح الهدف التام. فعلى الرغم من فوضى الأسئلة التي كانت تملأ رأسه عمّا جرى في القبة، إلّا أنّ عقله حجب كلّ الضوضاء، وضبط موجته على قناة واحدة لا غير.

النجاة.

قاد كاثرين إلى الفسحة العليا من الدرج، فوصلا لاهثين إلى باب معدنيّ كُتِب عليه "الإدارة". دفعه لانغدون من دون تردّد، وإذ بهما في رواق مفروش بالسجاد، ومكسوّ بالأواح خشب السنديان. هنا، اختفى الطابع البارد المُعقّم للمنشأة البحثيّة، وحلّت مكانه أجواء مكاتب أنيقة تُشبه شركات المحاماة في كامبريدج.

ركضا عبر الرواق، مُروّزاً بقاعات اجتماعات ومكاتب مُغلّقة، حتّى وصلا إلى قاعة واسعة مُقسّمة إلى حُجيرات مكتبيّة صغيرة.

عندئذٍ، توقفت كاثرين فجأة، وأمسكت بذراعه. ففي أقصى القاعة، كانت امرأة أنيقة ترتدي بزة رسميّة تجمع على عجل بعض الأوراق من مكتبها. يبدو أنّ منشأة العتبة لم تكن مهجورة تمامًا اليوم. في اللحظة نفسها، هُرع إليها شابان ببذلتين رسميّتين، وأشارا لها بأن تتبعهما، ثمّ غادروا جميعاً مُسرعين من دون أن يلتفتوا خلفهم.

قال لانغدون في سرّه: فلنتبعهم، لا بدّ أنّهم يعرفون طريق الخروج.

وحين اختفوا عن الأنظار، انطلق لانغدون وكاثرين في الاتجاه نفسه، آمليْن أن يقودهما إلى المدخل الرئيس الذي رآياه سابقًا عند طرف متنزه فوليمانكا.
رمى لانغدون الملفّ السريّ الذي يُطلّ من حقيبة كاثرين، راجيًا أن يُوفّر لهما الهلع العام في لحظات الإخلاء فرصة للتسلّل من دون أن يلاحظهما أحد.
قال لانغدون في سرّه، بينما لعلّعت صفّارات الإنذار فوقهما: هذا إن تمكّنا من الخروج في الوقت المناسب...
صرخت كاثرين فجأة: "هناك!" وأشارت إلى لافتة مُضيئة في نهاية الممرّ كُتب عليها "مخرج".

مرّا عبر الأبواب، فوجدا نفسيهما في غرفة أمنٍ مُشابهة لتلك التي عبرها سابقًا، مُزوّدة بكاشف معادن، وحزام ناقل للفحص بالأشعة السينيّة، وجهاز مسح جسديّ. ولحسن الحظّ، كانت الغرفة خالية تمامًا، فاندفعا عبرها، وخرجا إلى ما بدا أنّه مرّأب ضخم تحت الأرض، يكاد يكون خاليًا إلّا من بعض آليّات البناء، وعدّة سيارات، وآلات ضخمة موضوعة على مقطورات.

وعلى بُعد خمسين ياردة تقريبًا، رأى لانغدون ما ظنّ أنّه لن يراه مُجدّدًا؛ ضوء النهار.

في أقصى المرأب، كان القوس الحجريّ للمدخل الخارجيّ يُفضي إلى مُنحدر يقود صعودًا إلى الخارج. وكان ثلاثة من موظفي المُنشأة الذين رأياهم قبل قليل يصعدون المُنحدر مُسرّعين ويختفون عن الأنظار. فركض لانغدون وكاثرين باتجاه الفتحة، بكل ما تبقى لديهما من قوّة. لكنّ بينما كانا يقتربان، بدأ الضوء يخبو تدريجيًّا... والفتحة تضيق. إنهم يُغلِقون الباب!

"انتظروا! انتظروا!" كان لانغدون يصرخ بأعلى صوته؛ لكنّ ضجيج صفّارات الإنذار المُدوّة كان أعلى.

بدا واضحًا أنّهما لن يتمكّنا من الوصول في الوقت المُناسب، فقد كانا لا يزالان على بُعد عشرين ياردة من المَخْرَج حين تلاشى خيط الضوء الأخير، وأُغلق باب المدخل بصوت مُدوّ، وحبسهما في الداخل.

* * *

تحتهما بثلاثة طوابق، كان السيد فينش مُقيّدًا بإحكام داخل الكبسولة، أنّه مريضٌ نفسيّ عنيف في مصحّة مُغلّقة.

كان قد توقّف عن المُقاومة، وجلس يُحدّق بذهول عبر الغطاء الشّفاف لكبسولة EPR إلى أضواء الإنذار الدوّارة التي كانت تنعكس على القبة فوقه.

أكّدت له سلسلة الإنذارات التي عمّت المنشأة بأكملها حقيقتين لا مفرّ منهما. الأولى، أنّ كلمات مُهاجمه الأخيرة كانت صادقة. لقد أغلقت صمّامات الهيليوم... وأحكمت إغلاق التهوية.

أما الثانية، فهي أنّ منشأة العتبة وكلّ ما فيها على وشك الاندثار.

إنّ حرارة نظام SMES ترتفع.

كان نظام تخزين الطاقة المغناطيسيّة فائقة التوصيل فكرة فينش الأصلية؛ وسيلته لإخفاء الاستهلاك الهائل للطاقة الذي تحتاج إليه العمليّات السريّة داخل العتبة. بدلاً من جذب انتباه شركات المرافق المحليّة، كان النظام يسحب كمّيّات ضئيلة من الطاقة على مدار الساعة، ويخزنها في لفائف فائقة التوصيل، ويُطلّقها عند الحاجة.

طاقة دائمة، غير مُنقطعة.

كانت التقنيّة مُستقرّة وآمنة للغاية؛ إلّا إذا قرّر أحدهم تحويلها إلى سلاح، كما هو الحال مع معظم التقنيّات الحديثة.

ما من ضمانات ضدّ التجسّس.

الآن، أدرك فينش أنّه سيموت، فحاول أن يتقبّل الفكرة بالبرود نفسه الذي كان يستدعيه عند كلّ قرار أو مُنعطف مصيريّ في حياته. وبعد أن عرف أخيراً هويّة قاتله الحقيقيّة، شعر وكأنّه بطل أسطورة كلاسيكيّة؛ مسخ يعود ليدمرّ صناعه. فمفارقة غولم براغ التاريخي لم تفته.

في مُخيّلته، رأى فينش نظام SMES في الأسفل، وأدرك أنّ مُجرّد ثوانٍ معدودة تفصله عن النهاية. وما سيحدث سيكون كارثياً.

قنبلة ضغطٍ هائلة... تنفجر في أعماق الأرض.

كان آخر صوتٍ سمعه قبل أن تتمزّق طبلتا أذنيه هو الطقطقة الحادة التي صدرت عن الغطاء الزجاجي فوقه وهو يتحطّم. ثمّ شعر أنّه يعلو نحو سقف القبة، ولم يكن متأكّداً إن كانت روحه تُغادر جسده، أم إنّ أرض القاعة تندفع إلى القبة. في الحاليتين، لم يشعر بالألم... بل بمجرّد انفصالٍ عابر، بينما كانت أوصال جسده المادّي تتمزّق إلى أشلاء فيما عصفت حوله رياح بيضاء عاتية.

اندفعت موجة الانفجار من سجنها تحت الأرض بقوة لا يمكن تصوُّرها. ففي عُشر الثانية فقط، شقَّت طريقها عبر أرض القاعة المُقْبِية، وامتدَّت أفقيًّا عبر الطابق السفلي للعبة، لتجرف مُختَبِر الحوسبة الكمومية، قبل أن تنفجر صعودًا نحو مختبر RTD، والمركز الطبي، وغرف الجراحة، مُدمِّرةً إيَّاهَا جميعًا. واصلت سحابة الغاز المُنفجِّر تمدُّدها في كلِّ اتجاه، باحثة عن المسار الأقلُّ مُقاومةً.

وبعد لحظةٍ واحدةٍ فقط، وجدت ذلك الطريق.

* * *

لم يكن من السهل زعزعة جنديِّ مارينز. مع ذلك، شعر الرقيب سكوت كيربل باضطرابٍ لم يختبره طوال فترة خدمته. فما كان يراه أمامه تجاوز كلِّ ما عرفه أو تخيَّله في حياته.

كان قد عثر على سيارَة السفيرة رباعية الدفع مَركونةً بخفاءٍ بين الأشجار، على الطريق المؤدِّي إلى حصن الصليب، ووقف على حافة التلِّ يتأمل المَوقف حين اهتزَّت الأرض بعنفٍ تحت قدميه.

للهولة الأولى، ظنَّ أنَّها هزَّة أرضية، لكنَّ الارتجاج لم يكن سوى رجَّة واحدةٍ ترافقت مع هديرٍ عميقٍ صادرٍ من باطن الأرض.

وحين نظر إلى الأسفل، نحو المساحة المُغطاة بالثلوج في منتزه فوليمانكا، أدرك أنَّ ما يشهده شيءٌ آخر تمامًا.

* * *

بطءٌ مُذهِل، بدأ وسط المُنتزه يرتفع، مُنتَفِخًا إلى الأعلى في كتلةٍ ضخمةٍ مُستديرة؛ كأنَّ وحشًا جبَّارًا يُحاول شقَّ طريقه من جوف الأرض إلى السطح. وراحت طبقات الثلج تتساقط عن جوانب التلِّ، فيما واصلت الأرض ارتفاعها. فجأةً، ظهر شقٌّ هائل، صاحبه انفجارٌ مُدَوٌّ، وانطلقت نافورةٌ عنيفة من الغاز الأبيض لتخترق سطح الأرض، وتقفز إلى علوِّ مئات الأقدام في الهواء.

تراجع كيربل مذهولًا، وعاجزًا عن التصديق، بينما كان عمود البخار الهائل يرتفع في السماء فوق المُنتزه. لم يذمُّ الصوت المُدَوِّي القادم من الأعماق سوى بضعة ثوانٍ قبل أن يخبُو... تبعته رجَّة عنيفة ناجمة عن انخساف الكتلة الترابية نحو الدَّاخل مُجدِّدًا.

اقترَب كيربل ببطء، وهو لا يكاد يُصدِّق ما يراه، وراح يتأمل حجم الخراب. ففي وسط مُتنزّه فوليمانكا، انفتحت فجوة هائلة؛ حُفرة عميقة تملؤها أكواض من الركام، والغبار المُتصاعد.

بعد لحظات، هبّ من المُتنزّه هواءٌ جليديّ. ثم فجأة، تَبَلَّور الهواء من حوله، وامتلاً بندف ثلج ناعمة ورقيقة كمسحوق السكر.

الفصل 117

قبل ثوانٍ من الانفجار، ومع دويِّ صفّارات الإنذار، صرخ لانغدون وكاثرين طلبًا للمُساعدة، بينما انغلق باب المرأب المُحصَّن بإحكام. وفي لحظة يأس، وبهدف جذب الانتباه إلى وجودهما هناك، فتح لانغدون باب السائق في سيارة قريبة، وضغط على البوق، لكن حتّى ذلك الصوت تلاشى وسط الضجيج.

لم يعد الأمر مهمًّا؛ فقد شعر لانغدون بتغيّر ملموس في الهواء... وضغط مُفاجئ في أذنيه، مصحوبًا بأول موجة من التهدير العميق الصادر من أحشاء الأرض. مهما يكن ما يحدث في مُنشأة العتبة... فهو يحدث الآن. وكلّ ما تمنّاه لانغدون أن يكون هذا المرأب بعيدًا بما يكفي عن قلب المُنشأة لكي ينجوا من الانفجار.

صرخت كاثرين: "اجلس في الأمام!" ثمّ فتحت باب السيارة الخلفي وقفزت إلى الداخل، فيما قفز لانغدون وجلس خلف المقود، وأغلق كلاهما البابين في اللحظة نفسها. "انحن واربط حزام—"

لكنّ جملتها لم تكتمل؛ فقد تحطّمت نوافذ السيّارة بانفجارٍ عنيف، وعصفت ريحٌ جليديّة بالسيّارة، كما لو أنّ إعصارًا يجتاح المرأب، ويُطْفئ كلّ الأضواء، قبل أن يرفع السيارة كما لو كانت لعبة صغيرة. وفي غمضة عين، انقلبت السيارة رأسًا على عقب وسط الظلام، وراحت تتدحرج جانبًا على أرض المرأب.

صرخ لانغدون وسط العصف: "كاثرين!" وتشبّث بالمقود بكل ما أوتي من قوّة، مُحاولًا أن يُثبّت جسده قدر الإمكان، بينما راحت السيارة تتدحرج بعنف. تذكّر أنّ اللفّة البرميلية في الطائرات المُقاتلة تُعدّ أقلّ المُناورات إزعاجًا للطيار لأنّ القوّة المركزيّة تُثبّت الجسد على مقعده. وقد أدرك الآن أنّ ذلك صحيح... على الأقلّ للحظّات قليلة.

ثمّ جاء الارتطام.

اصطدمت السيارة بشيء صلبٍ لا يتحرّك، وتوقّفت فجأة.

فاندفع لانغدون بفعل الاصطدام من مقعده، وارتطم صدره بسطح مجهول...

كان مذهولًا، لا يرى شيئًا في الظلام، فيما اجتاحت جسده برد مُفاجئ. قيّم بذهنه حالة جسده بسرعة؛ مجرد جروح وخدوش، لا أكثر. أمّا عصف الانفجار، فقد خبا بالسرعة التي أتى فيها، كما صمتت صفّارات الإنذار.

كانت أذناه تطنّان، والظلام الدامس أربكه كليًا، كما حلّ عليهما برد قارس؛ مع أنّ لانغدون أدرك أنّهما ما زالا داخل السيارة.

قال بصوتٍ مَبْحوحٍ: "كاثرين؟"

جاءه الجواب وإهنا، لكن قريبًا جدًّا: "أنا هنا".

تنفّس لانغدون الصعداء. "هل أنت بخير؟"

أجابت بصعوبة: "لستُ... مُتأكّدة... أنتُ... تسحقني".

عندئذٍ، أدرك أنّه مُمدّد فوقها مباشرة، فتحرّك بحذرٍ شديد، وأبعد جسده جانبًا. وعلى الفور، شعر بشظايا الزجاج المَكسور تضغط على كتفه بطريقة مؤلّمة، فغيّر وضعيته ثانية، إلى أن وجد بقعةً خالية يستند إليها. وبينما كان يستعيد صفاء ذهنه، أدرك أنّ السيارة التي احتميا بها مقلوبة رأسًا على عقب، وأنهما مُمدّدان على سقفها.

زحف وهو يتلوّى إلى الأمام عبر العتمة، ومدّ يديه يتحسّس ما حوله، حتّى عثر على إطار نافذةٍ مُحطّمة. إلّا أنّ الفتحة كانت ضيقةً جدًّا ليعبر من خلالها، فتابع تحسّس الطريق داخل السيارة إلى أن وجد فتحةً أكبر؛ إمّا هي الواجهة الأمامية أو الخلفية. فأمسك بالحافة بكلتا يديه، وسحب جسده بقوة، مُنزِلًا عبر الفتحة إلى الخارج، ليهبط على أرض المرأب الصلبة.

كانت الأرض زلّقة وباردة، تكسوها طبقة ممّا بدا كأنّه جليد. وكان لانغدون راكعًا على يديه وركبتيّه، فاستدار ومدّ يده من خلال الفتحة.

قال بهدوء قدر الإمكان، وقد استبدّ به القلق لمعرفة ما إذا كانت مُصابة: "كاثرين، أنا هنا... حاولي أن تُمسكي بيدي. هل أُصبت؟"

سمع حركتها في الظلام، فواصل التحدّث إليها، ليرشدها إليه.

أخيرًا، تلامست يداهما. كانت أصابعها باردة، ترتجف من هول الصدمة، فمدّ يديه إليها برفق، وساعدها على الخروج من السيارة.

وما إن وقفت على قدميّها، حتّى أحاطته بذراعيّها، وضمتّه إليها بقوة.

في تلك اللحظة، غمره شعورٌ مألوف وهو يُعانقها مرّةً أخرى في الظلام والبرد؛ غمره الارتياح لأنّها نجت.

همست: "حقيقتي... لقد فقدتها... المُجلّد..."

قال: "انسّي أمرها؛ نحن على قيد الحياة، وهذا هو الأهمّ".

لم يكن لانغدون يعرف ما الذي حدث، ولا مدى حجم الدمار، لكنّه أيقن أنّ الحكومة الأميركية ستواجه عشرات الأسئلة في الأيام المُقبلة. وإنّ حالهما الحظّ، فلن يكونا من أولويات وكالة الاستخبارات بعد الآن.

تذكر فينش، لقد لقي حنقه في الأرجح، غير أنه لم يشعر بحزن كبير عليه، بل كان الحزن الحقيقي من نصيب الروح الأخرى المفقودة؛ ذاك الرجل ذي القناع الطيني، المخلوق الذي خرج حرفياً من أعماق الأرض لينقذهما.

كان فينش قد طلب معرفة هوية الدخيل، فأجابه بهدوء: لقد خنت ثقة ساشا... وأنا حاميه.

فكر لانغدون في ساشا فيسنا، مُتسائلاً عن مكانها الآن، وعمّا إذا كانت لا تزال حيّة في مكان ما من هذه المدينة. وكان قد قرّر، إن قُدِّرَ لهما الخروج من هنا على قيد الحياة، أن يبحثا عن ساشا ويقدّما لها المساعدة. ليس لأنّها تستحقّ ذلك فحسب، بل لأنّهما مدينان للرجل الذي أنقذ حياتيهما. حامي ساشا، كما سمّى نفسه. إن كان قد رحل، فإنّ مساعدة ساشا واجبنا الأخلاقي.

همست كاثرين وهي تضع يدها على كتفه وتديره برفق: "انظر هناك".

حدّق لانغدون عبر الظلام الكثيف، لكنّه لم ير شيئاً في البداية، فسألها: "أين؟"

أدارته قليلاً نحو اليمين، وقالت: "أمامك مباشرة".

عندئذٍ، رآه.

في البعيد، وسط الغبار الذي ما زال يملأ الأجواء، تألّق خيطٌ رفيع من ضوء النهار، مثل وميض من الأمل وسط الظلام.

* * *

في يومٍ عاديّ، كان وقوع زلزالٍ في براغ سيصدّر بلا شكّ قائمة اهتمامات السفيرة هايده ناغل. لكن في تلك اللحظة، بدا الارتجاج الذي أحسّت به تافهاً أمام ما كانت تسمعه من مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة، غريغوري جاد.

ففور بدء الاتّصال، قال المدير بنبرة آمرة: "انزعا عنها الأصفاة".

ثم أضاف قائلاً للحارسين: "ابقيا عند الباب، ولا تسمحوا بدخول أو خروج أحد".

نقذ الحارسان الأمر على الفور. وما إن أصبحت ناغل حرّة اليدين ووحيدة، حتّى خفض المدير صوته وقال: "لقد خرج فينش عن السيطرة؛ عُدّي هذا احتجازاً وقائيّاً لحمايتك".

ومن دون مزيد من التفسير، انطلق في خطبةٍ مطوّلة في محاولةٍ لتبرير ما سمعته ناغل قبل قليل في اعتراف غسّير المُرّوع. وحين أنهى كلامه، مال نحو الكاميرا، وبدت ملامحه مزيجاً من الرجاء والجديّة الصارمة.

قال: "نحن في سباق تسلّح يا هايدة، وخصومنا يزدادون قوّة وعدوانيّة يومًا بعد يوم. فالخطط التي تُحاك ضدّ الولايات المتحدة حقيقةً تمامًا، وقد تكون مُدمّرة، وعلينا أن نعرف بها قبل أن تُنفَّذ. ومشروع العتبة هو الميزة الوحيدة التي ستمكّن جهاز استخباراتنا من حماية البلاد من العاصفة المُقبِلة. وإن لم نكن السّباقيين إلى تكنولوجيا العقل البشري، فسيسبقنا الآخرون... وسنجد أنفسنا مُراقبين بدلًا من أن نكون نحن المُراقبين".

قالت ناغل في سرّها: *الحجّة القديمة نفسها... إن لم نفعّلها نحن، فسيفعلها غيرنا.* لقد انطلقت أخطر مُغامرة علميّة وأكثرها جدلًا في التاريخ - مشروع القنبلة الذريّة - من الذريعة نفسها تقريبًا. وبعيدًا عن الحجج الأخلاقيّة أو السياسيّة، كان صحيحًا أيضًا أن امتلاك الولايات المتحدة للسّلاح النووي أوّلًا هو ما أنهى حربًا مُدمّرة وجعلها قوّة عظمى للعقود الخمسة التالية... في مثال مُقنع على أنّ الغاية تُبرّر الوسيلة. لكنّ ما يجري الآن مشهّد مُختلف تمامًا.

في الواقع، لم تستطع ناغل حتّى أن تتخيّل كيف سيستقبل المسرح الدوليّ هذا الفيديو. فهو لا يفصّح أمر وجود تكنولوجيا سرّيّة مُذهلة فحسب، بل يكشف النّقاب أيضًا عن حقيقة مُرعبة لا تُغتفر؛ لقد أجرت سي أي إيه تجارب على مريضين نفسيّين مُختطفين من روسيا، أحدهما، ديمتري سيسيفيتش، الذي قضى نحبه خلال البرنامج. سيُشنّ هجوم على الوكالة من أعلى الهرم إلى أسفل... بدءًا من المدير نفسه.

قال جاد: "كما خمّنت في الأرجح، لم تكن شركة إن-كيو-تيل مُشاركة في مشروع العتبة بأيّ شكل من الأشكال. فقد وضعتُ فينش في مكتب لندن كغطاءٍ موثوق، ولتأمين الدّعم التشغيليّ، لكنّه تجاوز صلاحيّاته تمامًا". بدت على وجهه علامات ندم حقيقيّ. "ما كان ينبغي لي أن أمنحه هذا القدر من السلطة".

في تلك اللحظة، سُمع طرقٌ قويّ على الباب، فالتفتت ناغل، بينما أطلّ أحد حراس السفارة من الباب.

قال بشيء من الاضطراب: "سيّدتي السفيرة، أعذر على المقاطعة، لكن لدينا اتّصال عاجلٌ لك".

كادت تصرخ في وجهه: *أنا في اتّصال عاجلٍ أساسًا! لكنّها تمالكت نفسها وسألت: "ممن؟"* أجاب الحارس: "من الرقيب كيربل، إنّه يقول إنّ انفجارًا هائلًا وقع تحت الأرض في متنزّه فوليمانكا".

الفصل 118

على بُعد ثلاثمئة متر من مركز الانفجار، كان نفق الترام الأرضي المؤدي إلى حصن الصليب قد نجا بأعجوبة، مُحْتَفِظًا ببنائه على الرغم من انقطاع التيار الكهربائي. وكانت المِنْصَة الصغيرة عند مدخل منشأة العتبة مُغَطَّاةً بالحطام والغبار.

في قاع المجرى الإسمنتي الذي تمر فيه السكك، تحرّكت هيئة بشرية.

ففي الظلام الدامس، نهض الغولم ببطء على ركبتيه، وأدرك أنّه مَحْظُوظٌ لكونه ما زال حيًّا؛ وذلك لأنّ فراره من العتبة لم يجرِ كما خَطَّطَ له. إذ ما إن بلغ الترام حتّى دفعه عصف الانفجار بعنفٍ إلى أسفل القناة الإسمنتية.

الآن، كان همّه الوحيد أن يتمكّن من الخروج من هذا القبر تحت الأرض. فالمسار خلفه كان بلا شكّ قد دُمِّرَ وسُدَّ بالأنقاض. أمّا الطريق المُمتدُّ أمامه، الذي يغوص في نفق طويل مُظْلِمٍ تمامًا، فمن المُحتمَل أن يكون قد انهار بفعل مَوْجَة الضغط. ولم يكن ثمة سبيل لمعرفة ما إذا كان المِصعد المؤدي إلى حصن الصليب لا يزال سليمًا. أدرك الغولم - على الرغم من إنهاكه الشديد - أنّه لا يستطيع أن يهلك هنا.

علّي الهرب لتحرير ساشا.

مدفوعًا بهذه الفكرة وحدها، وضع كَفّه على جدار النفق، وبدأ يتقدّم في العتمة الحالكة. وبينما كان يجرّ يده على طول الجدار ليستدّ به، راح يسير بوتيرة ثابتة، وحذاؤه الثقيل يسحق الأرض الخشنة المليئة بالركام، بحيث شعر بأنّ ساقيه تزدادان ثِقَلًا مع كلّ خطوة.

الحارس لا ينام.

* * *

في الأعلى، تقدّم لانغدون وكاثرين بحذرٍ وسط الركام المُتناثر في المرأب المُعتم، وشقّا طريقهما بين حطام السيارات المُدمّرة وقطع الإسمنت المُنهارة، مُتَّجِهَيْن نحو مصدر الضوء الوحيد؛ ذلك الخيط الرفيع من النهار، الذي ازداد سطوعًا مع استقرار الغبار.

حين بلغا أخيرًا مصدر الضوء، رأى لانغدون أنّ الباب المَعْدِنِي الضخم للمرأب قد خرج عن إطاره، والتوت حافته السفلى إلى الخارج، مُخَلِّفَةً فَتْحَةً ضيّقةً ومُنخِفِضةً. انحنى وألقى نظرة عبرها، فاستطاع أن يرى جزءًا صغيرًا من الممرّ الصاعد المؤدي إلى الخارج.

من دون أن يعرف ما ينتظره على الجانب الآخر، قرّر أن يكون أوّل من يعبر. فتمدّد على جنبه، وبدأ يزحف عبر الفتحة، دافعاً جسده ببطء شديد. كان الممرّ أضيق ممّا تخيل، وفي منتصف الطريق، أحسّ بذعر خائِق ناتج عن رُهابه من الأماكن المُغلّقة، لكنّه قاومه، وأخذ يتلوّى حتّى انزلقت وركاه أخيراً من الفتحة، وتمكّن من دفع نفسه إلى الخارج على يديه وركبتيّه، وهو يتنفس الهواء الطلق بلهفٍ.

غير أنّ إحساس الحرّيّة تلاشى في اللحظة نفسها حين وجد جنديّين بلباسٍ أسود يقفان أمامه، مُصوّبيّين سلاحيّهما الرشاشيّين إلى صدره.

هذا استقبال حافل.

وقبل أن يتمكّن من تحذير كاثرين، كانت قد خرجت بالفعل من الفتحة بسهولة أكبر، فحوّل الجنديّ الثاني فوّهة سلاحه نحوها.

صرخ أحدهما: "الهويّة! فوراً!"

تلفّت لانغدون حوله، وعرف في الحال أنّهما في المكان الذي خاف من الوصول إليه؛ مدخل الإنشاءات الخاضع لحراسة مُشدّدة، والمُحاط بسياج مُثلث من الأسلاك الحديدية.

كرّر الجنديّ وهو يخطو إلى الأمام: "الهويّة! سامنحكماً—"

لكنّ صوتاً أمراً أتاها من أعلى المُنحدر: "أخفّض سلاحك أيّها الجنديّ!" تقدّم عنصر مشاة بحريّة أميركيّ ضخم البنية بزيّه الأزرق الرسميّ، وهبط بخطواتٍ سريعة، مُضيفاً: "هذانِ الاثنانِ معي!"

تراجع الجنديّان بدهشةٍ واضحة، واستدارا إلى عنصر المارينز الذي بدا أنّه يعلوهما رُتبة. دار بين الثلاثة حديثٌ مُقتضب، قبل أن يستدير الحارسان ويتعدا، وقد بدا عليهما الاستياء.

شعر لانغدون بالارتياح لانتهاؤ مشهد البنادق المُصوّبة نحوه، لكنّه خشي أن يكون هو وكاثرين قد وقعا في ورطة أكثر خطورة.

من يكون هذا الجنديّ؟ هل هو من سيّ أيّ إيه؟ أم أحد أتباع فينش؟

مع ابتعاد الجنديّين، لانت ملامح عنصر المارينز، وتناقضت ابتسامته الودودة مع مظهره الصارم. قال وهو يمدّ يده لمساعدتهما على النهوض: "سيّد لانغدون... آنسة سولومون، أنا سكوت كيربل، أعمل عند السفيرة هايدة ناغل."

تمنّى لانغدون أن يكون الرجل صادقاً، فقال له بسرعة: "نحتاج إلى مقابلتها فوراً". كان عنصر المارينز على وشك أن يُجيب، حين عاد أحد الحراس العسكريّين من الأعلى عبر المُنحدر، والتقط صورةً لهم جميعاً، ثمّ صعد مُجدّداً وأجرى اتّصلاً لاسلكيّاً.

تمتم كيريل بشتيمة خافتة وقال: "عليّ إخراجكما من هنا فوراً".

سأله لانغدون: "ألى السفارة؟"

فردّ عنصر المارينز وهو يبدأ بصعود المُنحَدَر: "ستحدث في السيارة، اتبعاني".

أثار ما قاله مزيداً من الحذر في نفس لانغدون. "في الواقع، قبل أن نذهب إلى أي مكان، نودّ التحدث إلى السفارة ناغل".

أومأت كاثرين موافقة: "نعم، إذا—"

استدار الجندي فجأة، واقترب منهما، وقد اختفت الوداعة من وجهه تماماً، وقال بنبرة

صارمة: "استمعا إليّ جيّداً... السفارة قيد الاحتجاز بأمرٍ مُباشِرٍ من مدير وكالة الاستخبارات نفسه. وأخشى أنكما التاليان على القائمة".

الفصل 119

جلس سكوت كيربل خلف مقود سيارة السفارة، وقاد بأقصى سرعة شمالاً بمحاذاة النهر، عائداً بالاتجاه الذي جاء منه. وفي الاتجاه المُقابل، كانت صفوفٌ من سيارات الإسعاف والإطفاء تندفع نحو متنزه فوليمانكا. فُكر في سرّه: لم يتبقَّ ما يمكن إنقاذه.

على المقعد الخلفي، جلس لانغدون وكاثرين في صمتٍ وذهول بعد أن رأيا حجم الكارثة التي كُتِبَ لهما النجاة منها. إذ لم يتبقَّ من ملجأ فوليمانكا سوى فجوة هائلة في الأرض، تمتدّ عدة طوابق إلى الأسفل، وقد امتلأت بالحجارة والتراب وقطع الإسمنت والفولاذ المُلتوي. لم يستطع كيربل تخيل سبب ذلك الانفجار الغريب؛ إذ لم يبدُ له أي أثر لنارٍ أو حرارة، بل برودة فحسب. كان يعلم أنّ الملجأ- الذي يعود إلى الحقبة السوفياتية- يخضع منذ عامين لأعمال ترميمٍ على يد فيلق من مهندسي الجيش الأميركي، ومن المستحيل أن يحتوي على أي موادّ مُتفجرة.

سأله لانغدون من المقعد الخلفي: "إلى أين تأخذنا؟"

فُكر كيربل في سرّه: سؤالٌ وجيه. إذ لم يكن قد وضع خطة واضحة بعد، لكنّه أدرك أنّ السفارة ناغل ومدير سي أي إيه في صراعٍ محموم على السلطة، وأنّ لانغدون وسولومون في قلب ذلك الصراع بطريقةٍ ما.

بعد الانفجار، وبينما كان يهبط التلّ مُسرِّعاً، اتّصل كيربل بالسفيرة ليطمئنّ إلى سلامتها، فوجدها في اتصالٍ مُباشرٍ بالمدير. وحين أخبرها أنّ ما حدث لم يكن زلزالاً بل انفجاراً تحت متنزه فوليمانكا، استغرب حين سأله أولاً عن مكان لانغدون وسولومون، وأمرته بالذهاب فوراً إلى الموقع والبحث عنهما.

ومهما كانت أسباب الخلاف بين السفارة والمدير، فقد اختار كيربل الطرف الذي سيقف معه منذ ساعةٍ خلت؛ عندما قرّر من دون ترددّ تهريب الحقيبة الدبلوماسية الخاصة بالسفيرة إلى خارج السفارة. كان قراراً ارتجالياً، لكنّه جاء في الوقت المناسب؛ فبعد دقائق فحسب، أمر المدير بتفتيش جناح السفارة ومكاتب أقرب موظفيها، بمن فيهم كيربل نفسه. لو احتفظتُ بالحقيبة... لكانت الآن بيد سي أي إيه.

بينما كان يقود باتجاه السفارة، ساوزه شكٌّ في أنّ السيارة قد تكون مُراقَبة. ومع ذلك، أنبأه حدسه أنّ تسليم لانغدون وسولومون إلى المدير جاد ليس ما تريده السفارة ناغل. كما

شعر أنّ الأمير كيّين الجالسَيْن على المقعد الخلفي يُخفيان الكثير بعد.

قال لانغدون فجأة، بنبرة سلطويّة غير متوقّعة نظرًا إلى الظروف: "علينا الخروج من هنا. لا أستطيع أن أشرح لك كلّ شيء، لكن صدّقني حين أقول لك إنّ حياة سفيرتك في خطرٍ شديد؛ خصوصًا إذا كان مدير سي أي إيه من أمر باحتجازها".

خطر شديد؟ لم تكن سمعة غريغوري جاد خافية على كيربل، بل كان يعرف أنّه رجلٌ لا يرحم حين يتعلّق الأمر بالأمن القومي. لكن هل يمكن حقًّا أن يُقدِّم على إيذاء سفيرة؟ كاد أن يذكر أمر الحقيبة الدبلوماسية التي بدا أنّ المدير يسعى إليها بجنون، لكنّه تذكر أوامر السفيرة الواضحة. لا تذكر أمرها لأحد.

قال لانغدون: "إن أرادت السفيرة النجاة من هذه الورطة - جسديًا أو سياسيًا - فثمّة شيء واحد فقط قد يُنقّذها، وأعتقد أنّي أستطيع العثور عليه".

كان الادعاء جريئًا، لكنّ كيربل أحسّ أنّ الرجل صادق في ما يقوله، فسأله: "وما هذا الشيء الذي تبحث عنه؟"

أجابه لانغدون: "ليس شيئًا... بل شخصًا".

نظر إليه كيربل، فالتقت نظراته بنظرات لانغدون عبر المرأة. "ومن هو؟"

أجاب لانغدون: "إنّها فتاة تُدعى ساشا فيسنا. وكلّ ما تحتاج إليه السفيرة لتنجو من هذه العاصفة موجودٌ في رأس ساشا".

* * *

هل يعرف روبرت كيف يجد ساشا؟

للحظة، تساءلت كاثرين عمّا إذا كان لانغدون يكذب، لكنّ إيماءة رأسه الواثقة أكّدت لها أنّه يتحدّث بجديّة تامّة.

العثور على ساشا مفتاح كلّ شيء...

فساشا بحدّ ذاتها دليل أقوى بكثير على وجود العتبة من المُجلّد الذي فُقد في الانفجار. إذ إنّ مُجرّد فحص واحدٍ لدماعها سيثبت أنّ الزرع العصبيّ المُتقدّم حقيقيّ تمامًا، وأنّ وكالة الاستخبارات المركزيّة قد خدعت شابّة روسيّة مُصابة باضطرابٍ نفسيّ لتحويلها إلى فأر تجاربٍ بشريّ.

أصبح العثور على ساشا أكثر إلحاحًا من أيّ وقتٍ مضى؛ وذلك لأنّ دمار منشأة العتبة جعل وضعهم أكثر خطورة. فالوكالة ستدخل بلا شكّ مرحلة احتواءٍ للأضرار، ومع طمر كلّ الأدلة تحت أنقاض متنزّه فوليمانكا، ستسارع إلى تصفية كلّ الأطراف المُرتبطين بالقضية.

أنا وروبرت بالتأكيد من بين ما يسمّونه الثغرات المَفْتُوحَة، وكذلك ساشا فيسننا وديمتري سيسيفيتش.

عادت إلى ذهنها صورة الرجل الغامض الذي رآياه في منشأة العتبة. فقد أعلن ذلك الرجل أنّه "حامي ساشا"، وكانت شبه واثقة من أنّه ديمتري سيسيفيتش، الروسي داكن الشعر المصاب بالصرع، الذي - شأنه شأن ساشا - خضع لتجارب الوكالة بعد أن نُقِلَ من مصحّة نفسية. كانت سجلّاته الطيبة قد دفعت كاثرين في البداية إلى الاعتقاد أنّه مات، لكن على ما يبدو، كان مصيره مختلفًا؛ ربّما هرب من قبضتهم. ومهما يكن، فما من أحد يملك دافعًا أقوى منه لتدمير المنشأة التي أخضعته لتجارب مروّعة.

رجّحت كاثرين أن يكون للاضطراب العقلي دور أساسي. لقد لَطَّخَ الرجل جسده بالطين، وضخّى نفسه لتدمير العتبة. وتساءلت إن كان ديمتري يُعاني أصلًا من مرض نفسي قبل نقله من المؤسسة، أم إنّ الصدمة الناتجة عن الجراحة الدماغية العميقة والجرعات المخدّرة القسريّة هي التي دمّرت عقله. في كلتا الحالتين، كان واضحًا أنّ ديمتري ليس طبيعيًا.

تذكّرت ما قاله: ساشا في مكان آمن.

فالتفتت إلى لانغدون وسألته بالاحاح: "روبرت، هل تعرف حقًا أين تجد ساشا؟" أجابها: "لقد خطر الأمر ببالي منذ قليل. فثمة مكان واحد يمكن أن تكون فيه... لكن لأعثر عليها، عليّ دخول شقّتها—"

قاطعها كيربل: "ليست هناك. فأنا من وجد جثّة هاريس، وكانت ساشا قد اختفت منذ زمن. وقد نقل فريقنا الجثّة، وأغلق المكان، وغادر."

قال لانغدون: "أتفهّم ذلك، لكن لا بدّ لي من الدخول. ثمة شيء في شقّتها سيساعدنا. كيف دخلتم حينها؟"

"كانت زميلتي دانا دانك تملك مفتاحًا."

سأله لانغدون: "من سلسلة مفاتيح تحمل دمية Krazy Kitten؟"

رمقه كيربل من المرأة بدهشة: "وكيف عرفت؟"

قال لانغدون ببساطة: "لأنّني أنا من أعطائها إيّاها. وأحتاج إلى استعادتها فورًا."

ردّ كيربل: "هذا مستحيل، فهي لم تعد مع دانا."

شتم لانغدون بصوت خافت. "مع من هي إذا؟"

مدّ كيربل يده إلى جيبه، وألقى شيئًا صغيرًا إلى المقعد الخلفي. "معك أنت، بروفيسور."

انفجار هائل في براغ!

كان جوناس فوكمان يقرأ بقلقٍ خبراً عاجلاً من نيويورك تايمز على حاسوبه، ويحاول إقناع نفسه بأن الأمر مجرد مُصادفة. فعلى الرغم من استحالة وجود لانغدون بالقرب من موقع الانفجار إحصائياً، إلا أن صديقه مُعتاد على التواجد في قلب الحدث. مرّت أكثر من ساعة منذ أن تلقّى رسالة لانغدون الإلكترونية، ولم يصله أيّ خبر بعدها. وبعد أن عجز عن كبح قلقه المُتزايد، أمسك بالهاتف، واتصل بفندق فور سيزنز في براغ، وطلب تحويل المكالمة إلى غرفة لانغدون.

* * *

بينما كان الغولم يجرّ قدميه في الظلام الدامس داخل النفق المُغلق، لاحظ تغييراً مُفاجئاً في الصدى الناجم عن خطواته.

صدى أقل... هذا يعني أنني وصلت إلى مساحةٍ مفتوحة.

مرّ يده على طول الجدار حتى لامس حافةً مُرتفعة، وأدرك بارتياح أنه بلغ أخيراً منصّة الترام تحت حصن الصليب. كانت الحافة بمستوى نظره تقريباً، أعلى ممّا توقع، وسيحتاج إلى أن يرفع جسده إلى الأعلى.

خلع بسرعة رداءه الثقيل وحذاءه ذا النعل المُرتفع، وكوّمهما عند قدميه، ثم وقف فوق الحذاء ليعلو قليلاً، ومدّ يده إلى الأعلى يتلمّس الحافة، ويُقدّر ارتفاعها. سيكون عليه أن يقفز عالياً ليلبغ مرافقه وساعده أعلى المنصّة.

عليك أن تهرب. فحياة ساشا تعتمد على ذلك.

استمدّ من تلك الفكرة آخر ما بقي في جسده من طاقة، فانحنى قليلاً، ثم قفز بكلّ ما أوتي من قوة، واستطاع بصعوبة أن يُثبت مرفقيه وساعديه على المنصّة. راح يركل الهواء بساقيه المُرهقتين حتّى تمكّن من رفع كعب قدمه إلى الحافة. أخيراً، قاوم الجاذبية والإرهاق، وجرّ جسده الموحد إلى سطح المنصّة المعدنية... ثم تهالك عليها.

ظَل مُستلقياً دقيقةً كاملاً تقريباً، عيناهُ مُغمضتان، وهو يتنفس بعمق.

وحين فتح الغولم عينيه أخيراً، رأى أمامه شيئاً يلعب في الظلام... دائرة صغيرة مُوهّجة.

ضوءٌ في آخر النفق...

كان ذلك زرّ المصعد المؤدّي إلى حصن الصليب.

الفصل 120

شعرت كاثرين بالقلق وهي تترجّل مع لانغدون من سيارة السفارة وسط رياح باردة تهبّ قرب ساحة البلدة القديمة. بطلبٍ من لانغدون، وافق الرقيب كيربل على إنزالهما هنا قبل أن يتوجّه إلى السفارة.

آمل أن يكون روبرت واثقًا ممّا يفعله.

فخلال الدقائق الماضية، لاحظت أنّه كان غامضًا على نحو غريب في حديثه مع عنصر المارينز، ورفض الإفصاح عن المكان الذي يظنّ أنّ ساشا تختبئ فيه. كلّ ما قاله هو إنّّه بحاجة إلى العودة إلى شقّتها للعثور على ما يساعده. وبدأ أنّ كيربل قد فهم دوافعه، وربّما قدّر حذره. مدير سي أي إيه يائس للعثور على ساشا فيسنا، وإذا خضع كيربل للاستجواب، فلن يتمكّن من البوح بما لا يعرفه.

كانت كاثرين ستشعر بأمانٍ أكبر لو رافقهما كيربل، لكن من الواضح أنّه مضطّر للعودة إلى السفارة. فقد بدا أنّه الحليف الوحيد للسفيرة، وعليه أن يكون هناك ليحميها من مدير سي أي إيه بأيّ وسيلة ممكنة.

قال كيربل وهو يفتح نافذته لتوديعهما بسرعة: "ستقدّر السفيرة جهودكما. حفظًا سعيدًا... أيّا يكن المكان الذي تتوجّهان إليه".

ردّ لانغدون: "شكرًا لفهمك".

أجاب كيربل: "تدير الأمور بأسلوبٍ يشبه نظامنا في سلاح البحرية... التقسيم الأمنيّ التشغيلي؛ قد تصلح لتكون جنديًا".

قال لانغدون وهو يُصافحه عبر النافذة: "فكرةٌ مخيفة. لديّ رقمك المُباشِر، سأُتصل بك حالما نعرف شيئًا".

أردفت كاثرين: "وإذا عثرنا على ساشا، فسننقلها إلى مكانٍ آمن، وسيكون عند السفيرة كلّ ما تحتاج إليه لحمايتك أنت أيضًا".

قال كيربل: "آمل أن تكوني على حقّ، فالمحاكم العسكريّة كفيفة بإفساد عطلة نهاية الأسبوع".

وبينما انطلقت السيارة مُبتعدة، أحاط لانغدون كاثرين بذراعه، يقودها عبر الساحة المزدحمة. على الجانب الآخر، مرّا تحت قوسٍ حجريّ، ودخلا شبكةً من الأزقة الضيقة. وحين بدأ ضجيج الساحة يخبو خلفهما، شعرت كاثرين أخيرًا بأنّهما أصبحا في مأمنٍ للحديث.

سألته: "ما الذي يجري بالضبط؟ وإلى أين نحن ذاهبان؟ أين ساشا؟"
أجابها لانغدون: "نحن ذاهبان إلى شقتها. لقد أدركتُ أنها لم تغادرها. لا يمكن أن تكون قد فعلت؛ ساشا لا تزال هناك".

توقفت كاثرين فجأة: "لكنّ عنصر المارينز قال إن ساشا ليست هناك!"
"إنّه مُخطئ".

مكتبة
t.me/soramnqraa

"قال إنّ فريق الطبّ الجنائيّ فتّش الشقة!"
"نعم، لكنهم لم يفتشوها كلّها".
"لا أفهم".

قال وهو يمدّ يده: "ستفهمين قريباً، تعالي".
تبعته كاثرين عبر متاهة الأزقة الحجرية المُحيطة بساحة البلدة. من حسن الحظ أنّ ذاكرته مُمتازة، فكّرت في ذلك وهو يسلك بدقة الطريق الذي سلكه مع ساشا في صباح ذلك اليوم. كانت الأزقة تضيق تدريجياً، وممراتها تغرق في الظلال القاتمة في ضوء العصر المُتلاشي.
أخيراً، قال لانغدون وهو يتوقّف أمام بابٍ عاديّ المظهر لا يختلف عن غيره: "هذا هو المكان".

لم ترَ كاثرين أيّ رقم أو علامة، فسألته قائلة: "أأنت متأكّد؟"
أشار إلى النافذة المُجاورة للباب، فشهمت حين لمحت أربع أعين تُحدّق إليها من الداخل. كان الهرّان السياميّان يُراقبان عبر الزجاج، كما لو أنّهما ينتظران صاحبتهما. عندئذٍ، تأكّدت كاثرين أنّهما في المكان الصحيح، لكنّ وجود الهرّين زاد من حيرتها بشأن ثقة لانغدون من وجود ساشا هنا. "روبرت، يبدو أنّ الهرّين ينتظران عودة ساشا إلى المنزل".
فأجاب: "بالفعل، فهما أيضاً لا يعلمان أنّها هنا".

نظرت إليه بحيرة، فقال مُشيراً حولهما: "انظري إلى هذا الزقاق. أتذكرين حين أخبرتك عن الملاحظة التي دُسّت تحت باب ساشا هذا الصباح؟ بعد ثوانٍ من استلامي إيّاها، خرجتُ إلى هذا الزقاق نفسه، لكنّ المُرسِل كان قد اختفى، وهذا مستحيل. إذ من غير المُمكن أن يختفي بهذه السرعة".

تفحّصت كاثرين الزقاق، وأقرّت أنّه ما من مكان صالح للاختباء.
قال لانغدون: "ثمّ أدركتُ أنّ الإجابة كانت واضحة. فالشخص الذي ترك الملاحظة... لم يفرّ من المنطقة بتاتاً، بل دخل مكاناً مناسباً للاختباء".
نظرت كاثرين حولها بارتباك: "أين؟"

فقال لانغدون مُشيرًا بإصبعه: "هناك".

تبعث كاثرين بنظرها إصبع لانغدون الممدودة إلى واجهة المبنى، إلى صفّ نوافذ فوق شقة ساشا مباشرة. كانت كلّ نوافذ الطابق العلويّ مُغطاة بألواح خشبية ثقيلة. قال لانغدون: "في الشقة العلوية، فِغْسِر تملك كلتا الشقتين، وكانت والدتها المريضة تُقيم هناك فوق. والآن، تركت الشقة العلوية شاغرة، وسمحت لساشا بالسكن في الشقة السفلية".

تأمّلت كاثرين شبابيك الشقة المُغلقة، وتخيّلت شخصًا - في الأرجح ديمتري - يضع الملاحظة تحت باب ساشا، ثمّ يصعد بهدوء إلى الطابق العلوي، بينما يخرج لانغدون للبحث في الشارع عبثًا. هذا أمر مُحتمَل جدًّا...

توجّه لانغدون إلى الباب الخارجي للمبنى، الذي كان مصنوعًا من الخشب السميك، في ألواح مائلة، ومُزوّدًا بشبكة أمان. أخرج من جيبه حلقة مفاتيح Krazy Kitten، وفتح الباب، ثمّ قاد كاثرين للدخول إلى الردهة.

على الرغم من المدخل المُتواضع، لاحظت كاثرين أنّ ساشا جعلت المكان يبدو وكأنّه منزلها. كان باب شقتها إلى اليمين، وقد زيّنته بأصص نباتات صغيرة، وإكليل من الزهر، ودوّاسة طُبعت عليها أكفّ قطّة.

عند الجدار الخلفي للمدخل، كان ثمة مَخَزَن صغير، كُدِّسَتْ فيه صناديق كرتونية حتّى السقف. فشاهدت لانغدون باستغراب وهو يتّجه مباشرة نحوها، ويتوقّف على بعد شبر منها، حتّى كاد أن يلامسها ب صدره. حدّق إلى أعلى، كما لو أنّه يدرس فنّ عمارة الفتحة، ثمّ أشار إليها للقدوم.

تقدّمت كاثرين، فانحرف لانغدون جانبًا إلى اليمين، واختفى في فتحة لا تكاد تُرى بين الصناديق وجدار الفتحة. فوجئت، ثمّ تبعته بسرعة، ومَرّرت جسدها عبر الفتحة الضيّقة، ثمّ انعطفت يسارًا حول كومة الصناديق، ومن ثمّ يسارًا مرة أخرى، لتجد نفسها بجانب لانغدون. وفي الضوء الخافت المُتسرّب من حول الصناديق، استطاعت أن ترى أنّها كانت تقف في أسفل دَرَج ضيّق يخيم عليه الظلام.

قالت كاثرين في سرّها: لم يكن هذا مَخَزَنًا على الإطلاق، بل مدخلًا يؤدي إلى درج. "لم ألاحظ في البداية أنّ هذا البهو ليس له سلّم يؤدي إلى الطابق الثاني. ولاحقًا، أدركت أنّه لا بدّ من وجود سبيل آخر للوصول، وبما أنّه ما من مدخل مُفصل، فلا بدّ أن يؤدي هذا البهو إلى الشقتين. وهذا يُفسّر كيفية اختفاء شخص ما من دون أثر، مباشرة بعد أن مرّر الملاحظة من تحت باب ساشا".

هَزَّت كاثرين رأسها. "اختبأ على بُعد خطوات. إنّه ذكيّ جدًّا".

"نعم، وبعد أن ركضتُ إلى برج بترين، خرج هو من مَخْبئه، ودخل شقّة ساشا. وإمّا أقنعها بالصعود إلى الأعلى، أو أجبرها بطريقة ما. في كلتا الحالتين، تركها هناك حتى لا تُضطرّ إلى رؤيته وهو يقتل هاريس".

خطة بسيطة ونظيفة. "وعندما عثر فريق السفارة على جثة هاريس، كانت ساشا قد اختفت، فافترضوا أنها قرّت من مسرح الجريمة".
"تمامًا".

سألته وهي تحدّق إلى الدرج: "إذا، كيف ستدخل الشقّة؟"

"سأطرق الباب، وآمل أن تسمعني ساشا".

"أهذه خطّتك؟ ماذا لو كانت عاجزة عن سماعك؟ أو مُقيّدة بحيث لا تستطيع الوصول إلى الباب؟"

عبس لانغدون مُجيبًا: "إذا، أنتقل إلى الخطة ب".

شرع لانغدون في صعود الدرج المُظلم، وأضاء مفتاح المصباح في الأسفل، لكن لم يحدث شيء. فأشارت كاثرين إلى قاعدة المصباح العلويّة الخالية، وقالت: "ما من مصباح أساسًا".

كانت على وشك أن تقترح عليه دخول شقّة ساشا وإحضار مصباح يدويّ، لكنّه مضى في طريقه في الظلام، مُتلهفًا بلا شكّ للخروج من الممرّ الضيق.

كانت كاثرين تكره الظلام بقدر ما يكره لانغدون الأماكن المُغلّقة، لكنّها أجبرت نفسها على مُتابعة السير. وضعت يدها بثبات على الدرايزين المُتداعي، وصعدت إلى أعلى الدَرَج، ثمّ مدّت يدها بتردد، ووجدت لانغدون على فسحة الدرج الصغيرة، في الظلام الدامس، يقف أمام باب وحيد.

نادى وهو يطرق الباب: "ساشا! مرحبًا!"

غير أنّ الصمت ظلّ مُطبّقًا.

طَرَق بقوة أكبر. "ساشا، أنا روبرت لانغدون! هل أنت بخير؟"

لا شيء.

جرّب فتح الباب، لكنّه كان مُقفلاً. وبعد أن طرق أكثر، ألصق أذنه بالباب، وأصغى عشرَ ثوانٍ كاملة. أخيرًا، تراجع وهو يهزّ رأسه. "السكون مُطبّق في الداخل. أرجو أن تكون بخير".

سألته كاثرين في الظلام: "ما الخطة باء؟ هل نبحث عن رافعة أو مِطْرَقة؟"

فَكَرَ لَانْغِدُونُ وَقَالَ: "قَدْ تَكُونُ الْمَسْأَلَةُ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ فِغْسِرِ تَمْلِكْ هَاتَيْنِ الشَّقَتَيْنِ، وَكَانَتْ أُمُّهَا الْمَرِيضَةُ تُقِيمُ فَوْقَ..." وَبَدَأَ كَأَنَّهُ يَفْحَصُ مِقْبِضَ الْبَابِ فِي الظَّلَامِ.

حَدَّثَتْ إِلَيْهِ كَاثْرِينَ لَتَرَى مَا يَفْعَلُهُ. "هَلْ تَحَاوَلْ خَلْعَ الْقِفْلِ؟"

"لَيْسَ تَمَامًا". وَاصِلُ التَّلَاعِبِ بِالْقِفْلِ، ثُمَّ سَمِعَتْ طَقْطَقَةَ أُسْطُوَانَةٍ. أَخِيرًا، رَفَعَ لَانْغِدُونُ الْمِقْبِضَ وَدَفَعَ الْبَابَ دَفْعَةً خَفِيفَةً، فَانْفَتَحَ.

حَدَّثَتْ كَاثْرِينَ إِلَيْهِ بَدَهْشَةً: "مَا الَّذِي حَدَثَ لِلتُّو؟"

رَفَعَ لَانْغِدُونُ حَلْقَةَ مِفْتَاحِ Krazy Kitten قَائِلًا: "كَانَتْ غِسِرُ تَعِيشُ هُنَا، وَتَمْلِكُ الشَّقَتَيْنِ مَعًا، وَكَانَتْ وَالدَّتْهَا مَرِيضَةً... فَلِمَاذَا لَا تُسَهِّلُ الْأَمْرَ وَتَسْتَعْمَلُ مِفْتَاحًا وَاحِدًا لِلْبَابَيْنِ لَتَسَهِّلَ الدَّخُولَ وَالْخُرُوجَ؟"

قَالَتْ كَاثْرِينَ فِي سَرَّهَا: بِالتَّأَكِيدِ، وَلَمْ تَجِدْ سَبَبًا لِتَبْدِيلِ الْأَقْفَالِ عِنْدَمَا انْتَقَلْتَ سَاشَا إِلَى السَّكَنِ؛ لِأَنَّ الشَّقَّةَ الثَّانِيَةَ كَانَتْ خَالِيَةً.

مَعَ انْفِتَاحِ الْبَابِ، مُصْدِرًا صَرِيرًا خَافِتًا، وَجَدَ الْاِثْنَانِ نَفْسَيْهِمَا فِي ظِلَامٍ دَامِسٍ، كَمَا كَانَ مُتَوَقِّعًا بِسَبَبِ النُّوَافِذِ الْمُغْلَقَةِ بِالْأَلْوَاكِ الثَّقِيلَةِ.

مَدَّتْ كَاثْرِينَ يَدَهَا إِلَى الدَّخْلِ لِتَحَسُّسِ الْجِدَارِ، حَتَّى وَجَدَتْ مِفْتَاحَ الْإِضَاءَةِ. وَمَا إِنْ ضَغَطَتْ عَلَيْهِ، حَتَّى تَرَا جَعَا بَدَهْشَةً خَطْوَةً إِلَى الْخَلْفِ.

فَالْمَشْهَدُ الَّذِي انْكَشَفَ أَمَامَهُمَا بَدَأَ وَكَأَنَّهُ مِنْ عَالَمٍ غَرِيبٍ تَمَامًا.

كَانَتْ الشَّقَّةُ الْخَالِيَةُ مَغْمُورَةً بِالْكَامِلِ بِضَوْءٍ بِنَفْسِجِيٍّ غَرِيبٍ وَمَوْحَشٍ.

الفصل 121

حدّق الغولم إلى وجهه المُغطّى بالطين في المرآة، مُدركًا أنّه لن يرى هذا الوجه مُجدّدًا. فالنهاية باتت قريبة، ولحسن الحظّ، كانت بالضبط كما تخيلها.
أنا الغولم، وقد شارف وقتي على الانتهاء.
بعد أن صعد بأمان إلى مختبر غُسْنِر، بات الآن على بعد طابق واحد تحت حصن الصليب، واقفًا في الحمام الصغير المُلحق بالمختبر.
عند المغسلة، تأمل الحروف الثلاثة المَنقوشة بخشونة على جبينه. كانت قد بهتت بفعل العرق والغبار، لكنّ الكلمة القديمة ظلّت تنبض بقوّتها.

אמת

الحقّ.
لطالما عرف الغولم أنّ هذه اللحظة آتية لا محالة.
الحقّ يتحوّل إلى موت.
وكما فعل ماهارال براغ قبل قرون حين أنهى حياة صنيعته الطينيّ ليُحرّره من العبوديّة، ضغط الغولم بسبّابته على الطين الجافّ، وتحديدًا على الحرف الأيمن من الكلمة - الألف.
شعر بالحزن على خسارته هويّته وهو يخدش الطين بإصبعه حتى تفتّت الحرف واختفى.
ويموجب الطقس القديم، أصبح جبينه يحمل الآن كلمةً مُختلفة تمامًا.

מת

موت.
لم يشعر الغولم بتغيّر ظاهر، لكنّه أحسّ أنّ ذاته، وروحه، ووعيه... قد بدأت تتغيّر؛ إذ كان يستعدّ للانفصال عن هذا الجسد المُستعار نهائيًا.
كان الغولم قد مات مراتٍ عدّة من قبل، وكان يعلم أنّ جوهره سيظلّ عالقًا لبعض الوقت، لكنّه أدرك أنّ هذه المرّة مُختلفة. فهذه المرّة ستكون باختياره.
جئتُ إلى هذا العالم... لكي تعيش.
وسأرحل عنه قريبًا... لكي تعيش.
لقد شهد هذا اليوم موت الكثير.

موت العتبة.

وموت مُعَذِّبي ساشا.

وقريبًا، موت الغولم نفسه.

استدار مُبتعدًا عن المرأة، وبدأ يخلع ما تبقى من ملابسه.

وحين أصبح عاريًا تمامًا، دخل حجيرة الاستحمام المُخصَّصة للطوارئ في المختبر وفتح الدش. فانهمر الماء الفاتر على رأسه وكتفَيْه المنهكَيْن.

قَبْلَ هذا التحوّل، وخفض نظره، وراح يراقب خيوط الطين الرطبة وهي تنساب على جلده الشاحب... وتحوّل إلى جداول رمادية طويلة تتّجه نحو مصرف الماء للمرّة الأخيرة.

الفصل 122

دخل روبرت لانغدون بحذر الشقة المُسجَّعة بالنور، مُحاولًا استيعاب المشهد أمامه. كانت الشقة العلوية مُضاءةً بالكامل بأضواءٍ فوق بنفسجية، يغمرها ضباب أرجوانيٍ موحش. أما الجدران، والأرض، والسقف، فقد طُليت جميعها بلونٍ أسود قاتم. وفي الزاوية، وُضِعَ كرسيٌّ وطاولة زهيدا الثمن، وعلى الطاولة كأس نصف مُمتلئة بالماء.

هل يعيش أحد هنا فعلاً؟

لم يحتج لانغدون إلّا إلى لحظةٍ واحدة ليتيقّن من أنّ الساكن الغامض لا بدّ أن يكون ديمتري سيسيفيتش. وأثار هذا الإدراك في ذهنه سيلاً من الأسئلة، لكنّه كان شبه واثقٍ من أمرٍ واحد على الأقل، وهو أنّ الرجل لن يعود إلى هنا.

لقد دُفِنَ في الأرجح تحت أنقاض العتبة.

ربّما لم تكن ساشا تعلم أنّ لباب شقتها وباب الشقة المهجورة في الطابق العلوي مفتاحاً مشتركاً، لكنّ ديمتري كان يعلم بالتأكيد. كان حامي ساشا المزعوم... يملك مُنفذاً مُباشراً إلى شقتها المُغلقة. والفكرة وحدها بعثت قشعيرة في جسد لانغدون.

نادى وهو يتقدّم بخطواتٍ حذرة: "ساشا، أنا روبرت لانغدون! هل أنت هنا؟"

غير أنّ الصّمت ظلّ مُطبّقاً. كان الهواء عابِقاً برائحة العفن، والأرضيات الخشبية تشنّ تحت أقدامهما.

صرخت كاثرين: "ساشا!"

كان تصميم هذه الشقة مُختلفاً عن شقة ساشا، وإن كانت بالقدر نفسه من البساطة. فبدأ الاثنان يتفحصان المكان بدقة. المطبخ خالٍ، والثلاجة لا تحتوي سوى على زجاجتين كبيرتين من مياه بوديبرادكا المعدنية، أمّا الخزانة الصغيرة خارج غرفة النوم، فلم يكن فيها سوى ثلاث علاقات فارغة.

عندها، بدأ لانغدون يظنّ أنّ هذا المكان لم يكن مَسْكناً فعلياً، بل ملجأً غريباً يقصده ديمتري أحياناً.

قالت كاثرين وهي تعبت بمفتاح أحد المصابيح: "غرفة النوم لا أضواء فيها".

اقترب لانغدون من الباب ونادى: "ساشا".

وحين لم يأتِه أيّ ردّ، دخل من أمام كاثرين مُتقدّماً بخطواتٍ بطيئة، ومدّ ذراعَيْه في الظلام، مُحاولاً العثور على نافذةٍ أو طريقة لفتح الشبايك الخشبية. فجأة، شعر بقدمه تلامس شيئاً طرياً على الأرض؛ وسادة أو حصيرة في الأرجح.

في تلك اللحظة، سمع صوت عود ثقابٍ يشتعل خلفه، فاستدار ورأى كاثرين مُنَحْنِيَةً أمام طاولةٍ مُنخفضة تُشعل ثلاث شموع. ومع ازدياد الضوء سطوعاً، بدا أنّ الطاولة كانت أقرب إلى محراب صغير يضمّ ثلاث شموع، وبعض الأزهار الجافة. وفوقها على الحائط، علّقت صورة امرأة.

عرف لانغدون هوية المرأة الشقراء على الفور، فقال لكاثرين: "يا إلهي! هذه ساشا". ومع اقترابه أكثر، أدرك أنّ مشاعر ديمتري تجاهها بلغت حدّ... الهوس. فكّر في سرّه: حاميتها، وكان لا يزال يُحاول جمع الخيوط معاً.

قالت كاثرين مُشيرَةً إلى حسيّرة في وسط الغرفة: "انظر".

قال: "يبدو أنّه ينام هنا أحياناً".

"لا أظنّ ذلك يا روبرت. فما من وسادة ولا غطاء... ثمة أيضاً كمّامة كروية".

بالفعل، رأى لانغدون على الحسيّرة حزاماً جلدياً للرأس مزوّداً بكُرة سوداء. كانت الكرة المطاطية الناعمة مُثَقَّبة، ممّا يسمح للشخص المُكَمَّم بالتنفس. قال مُتردّداً: "ما الغرض من هذه الكرة؟"

أجابت كاثرين بهدوء: "أعتقد أنّها لحماية الأسنان واللسان في أثناء نوبة الصرع". فوجئ لانغدون، واستحضر صورة واقٍ فمويّ خاصّ بالنوبات العصبيّة موجود في حقيبة الإسعافات الأولية في قاعة التدريس. هذه الكرة المُثَقَّبة تؤدي الوظيفة نفسها تماماً.

قالت كاثرين: "لا بدّ أنّ ديمتري كان يستخدم هذه الغرفة كمكان آمن حين يتعرّض لنوباته الصّرعية. فالوسائد قد تسبّب الاختناق، والملاءات يمكن أن تلتفّ حول الجسد. هنا، يكون في مأمن، خصوصاً إذا كان يضع الكمّامة الكروية".

استغرب لانغدون امتلاك شخص مثل ديمتري عصا غُسنير للتحكّم بالنوبات عدم استخدامه إيّاها لتجنّبها تماماً. ثمّ تذكّر أنّ بعض المُصابين بالصرع يزعمون أنّ النوبات تجلب صفاء ذهنيّاً ونشوة عقلية يستحقّان المُعانة الجسدية المُصاحبة. ويبدو أنّ عصا ديمتري كانت تمنحه الخيار الأفضل بين عالمين؛ فبإمكانه أن يختار المكان والزمان ليخوض نوباته... في بيئة آمنة وتحت سيطرة تامة.

بصرف النظر عن ذلك، كلّ ما يعرفه لانغدون على وجه اليقين أنّ ساشا ليست هنا على ما يبدو. لم يتبقّ سوى الحَمّام ليتفقده، فتوجّه إلى هناك، بينما كانت كاثرين تطفئ الشموع في غرفة النوم. وكما توقع، وجد الحَمّام والحوض خاليين. إن كان ديمتري قد خبأ ساشا، فهو لم يخبئها في هذه الشقة.

كان المصباح في الحمام - شأنه شأن بقية مصابيح الشقة - مُزوّدًا بضوءٍ فوق بنفسجيّ جعل المغسلة وحوض الاستحمام يتوهجان بضوءٍ أرجوانيٍّ باهت. والغريب أنّ المرأة فوق المغسلة كانت قد أُزيلت، ولم يبقَ سوى ثقب البِراغيّ في الجدار.

بجوار المغسلة، على الرفّ، وجد لانغدون مرآة يد، وأداة صغيرة للخلط، ووعاء معدنيًا، وعددًا من أغطية الرأس المطاطيّة البيضاء. كما وجد ثلاث عبوات من مساحيق التّجميل المسرحيّة من ماركة UltraMud، وتتصدّر المُلصّق عليها صورة مُرعبة لمُمثل غطّى وجهه بطبقة سميكة من الطين المُتشقّق. بات الشّكل مألوفًا بالنسبة إليه أكثر ممّا ينبغي.

وفيما كان يتفحص بقية الغرفة، لفت انتباهه شيء يتوهج في سلّة المُهملات تحت المغسلة. بدا كأنّه منشفة بيضاء مُكوّمة ومُلطّخة بالدماء... كثير من الدماء.

ارتبك لانغدون ورفع السلّة، ثمّ أفرغ محتواها في المغسلة. وعندما وقع نظره على ما بداخلها، تنفّس الصعداء؛ لم تكن منشفة، بل غطاء رأس مطاطيًا أبيض مُتسخًا بالطين. ليس دماء؛ الضوء الأرجوانيّ يجعل الألوان مُضلّلة.

وبينما كان يرمق غطاء الرأس، لاحظ شيئًا يلمع في الضوء، خيطًا دقيقًا مُلتصقًا بالمطاط. كانت الخصلة صغيرة جدًّا، ولولا أنّها توهّجت تحت الضوء لما لاحظها. مستحيل أن تكون كما أظنّ...

مدّ يده بحذر، وانتزع ذاك الشيء عن الغطاء، رافعًا إيّاه نحو الضوء. لم يكن لديه شكّ في ماهيّته، لكنّ ما عجز عن فهمه كان سبب وجوده هنا.

هذا غير منطقيّ على الإطلاق.

ثمّ باغته رعب غير مُتوقّع. إلّا إذا...

تذكّر لانغدون ما يُردّده دائمًا في محاضراته عن الرموز: *تبديل زاوية النظر كفيّل بأن يكشف حقيقة خفيّة*. وكان هذا المبدأ حجر الأساس في مسيرته الأكاديميّة؛ فقدّرتة على النظر إلى الألغاز من زوايا غير مُتوقّعة أتاح له مرارًا وتكرارًا رؤية ما عجز الآخرون عن إدراكه.

والآن، وهو يتأمّل الخيط الدقيق بين أصابعه، شعر أنّه أمام لحظةٍ من تلك اللحظات. اختلّ توازنه، فوضع يده على حافة المغسلة ليستعيد ثباته. وفي مُخيّلتَه، تهاوت قطع الأحجية التي جمعها خلال هذا اليوم كلّهُ، مُتناثرة في الهواء قبل أن تُعيد ترتيب نفسها في صورةٍ جديدة تمامًا.

يا إلهي! كيف فاتني هذا؟!

كانت الفكرة التي بدأت تتكوّن في ذهنه شبه مُستحيلة. ومع ذلك، أدرك على الفور أنّها الحقيقة؛ الحقيقة الصافية التي تُجيب عن كلّ سؤال، وتُفسّر كلّ لغز، وكانت ماثلةً أمامه منذ البداية.

همس لانغدون: "الوعي غير الموضعيّ... كانت كاثرين على حقّ".

* * *

صاح لانغدون وهو يندفع خارج الحَمّام باتجاه الباب: "لقد فاتني الأمر تمامًا! علينا أن نُغادر حالًا. سأشرح لك لاحقًا!"

تبعته كاثرين مُسرّعة، وهي تُفكّر في سرّها باضطراب: ما الذي فاته؟!

وعندما وصلت إلى الباب، كان روبرت يهبط الدرج المُظلم بسرعةٍ جنونيّة. وحين لحقت به، وجدته في الرّدهة راكعًا على الدّواسة أمام باب شقّة ساشا، يمدّ يده أسفل الباب كأنّه يتحسّس شيئًا. ماذا يفعل؟! صاحت: "روبرت، معنا المفتاح إن أردت أن—"

فقاطّعها وهو ينهض: "لم يكن ذلك مُمكنًا أصلًا!" ثمّ أخرج من جيبه ورقة صغيرة تعرفها كاثرين جيّدًا؛ الرسالة التي تلقّاها صباحًا من تحت باب ساشا.

أمام كاثرين التي طغت عليها الحيرة، بدأ يحاول مرارًا إدخال الورقة من أسفل الباب، لكنّها كانت ترتدّ في كلّ مرة، لاصطدامها بالشريط المطاطيّ السميك المُثبت عند العتبة بهدف منع تسرّب الهواء البارد.

قال وهو ينهض مُجدّدًا: "لم يكن هذا مُمكنًا أصلًا! رأيتُ شريط العزل من قبل، لكنّ الأمر لم يخطر ببالي. لا يمكن إدخال ورقة من تحت الباب من الخارج!"

قالت كاثرين: "أجل، أرى ذلك، لكن لا أفهم—"

"ألا تدركين يا كاثرين؟ الرسالة لم تُرسل من الخارج... من تركها كان داخل الشقّة طوال الوقت!"

اجتاحها قشعريرة باردة. كان يختبئ في الداخل أساسًا. "في خزانة الردهة..." همست بذلك، وراحت تتخيّل الروسيّ بشعره الداكن جاثمًا في الخزانة، ينتظر لحظة سكون... ثمّ يخرج من الخزانة... ويضع الورقة تحت الباب... يطرق الباب بقوةٍ من الداخل... ثمّ يختفي مُجدّدًا في الظلام. حيلة بارعة انطلت على ساشا وروبرت معًا.

قال لانغدون وقد شحب وجهه تمامًا: "لا، لم يكن في الخزانة". لم يسبق لها أن رآته بهذا الاضطراب. "لم يكن ثمّة أحد في الخزانة، بل كان المخبأ... أدهى من ذلك بكثير". بدأ صوته يرتجف الآن وهو يتابع قائلاً: "لا أصدّق أنني لم أر شيئًا من ذلك..."

"ما الذي لم تَرَهُ؟ لا أفهم شيئاً".

نهض وقال وهو ينظر إلى عينيها مباشرة: "ذكرت ذلك في محاضرتك ليلة أمس. وصفته بأنه دليل على الوعي غير الموضوعي... دليل على أن الدماغ يعمل كمستقبل للإشارات، وإذا تعرّض للتلف، فقد تختلط الإشارات..."

قالت: "أتقصد مُتلازمة العبقريّ المفاجئ؟ حسناً، لكن ما علاقة ذلك—"

"لا! بل ما تحدّثت عنه مباشرة بعد ذلك!"

توقّفت تفكّر لحظة، وتستعيد تسلسل كلامها في المحاضرة، وفجأة أدركت ما يقصده. احتاجت إلى ثانية واحدة لتفهم ما يعنيه، ثم تمتمت مذهولة: "آه... روبرت... لا يمكن أن تكون جاداً—"

قال: "وجدت هذا في الحمام"، ورفع أمامها شيئاً صغيراً لامعاً كان يمسكه بين إصبعيه. "كان عالقاً في غطاء الرأس المُلطّخ بالطين".

حدّقت كاثرين إلى ما يُمسكه.

إن كان لانغدون على حقّ، فكُلّ ما اعتقده عن الغولم كان خاطئاً.

الفصل 123

ملأ بخار الماء حَمَام مُخْتَبَر حصن الصليب، بينما وقف الغولم تحت دش الاستحمام، مُرَجِّعاً رأسه إلى الخلف، ومُستمتعاً بإحساسه بالماء الدافئ على وجهه. أخذ يُدَلِّك وجنتيه براحتي يديه، وشعر أن آخر آثار الطين اليابس تزول عن جلده... آخر ما تبقى من الغولم كان يذوب ويتلاشى.

وحين مرَّ يديه فوق رأسه، أدرك أنه في غمرة إرهاقه، نسي نزع غطاء الرأس المطاطي. فلامس حافته بأصابعه، واقتلعه عن جبينه ببطء، وتألَّم وهو يشعر به ينزلق إلى الخلف وينتزع معه بضع شعرات من فروة رأسه.

ألقى الغطاء على الأرض، وبدأ يُدَلِّك فروة رأسه برفق، تاركاً الماء يتخلَّل شعره الكثيف ويغسل بقايا الطين. ولم يغادر حجيرة الاستحمام إلا عندما صار الماء المُتدفِّق إلى البالوعة صافياً تماماً.

لفَّ منشقة حول جسده، ووقف أمام المغسلة بضع لحظات نادرة، يتأمل فيها نفسه في المرأة.

كانت العينان اللتان تُحدِّقان إليه حمراوين مُرهقتين، والوجه يحمل ندوب ماضٍ عنيف. كان يعرف أن هذا الوجه ليس جميلاً، لكنَّه الوجه الذي مُنح له. فكَرَّ في سرِّه: وقد تعلَّمتُ أن أرى الجمال فيه.

مع مرور الوقت، أحبَّ الغولم هذا الوجه... طريقة انسداد الشعر الأشقر على الكتفين، وكيف كان يُحيط بالعينين الزرقاوين البريئتين. حتَّى الأنف الأعوج باتت له بنظره مسحةُ جمال خاصَّة. تذكَّر الصورة المُضاءة بالشموع على جدار مُحرابه، وابتسم.

همس لانعكاسه في المرأة: "ساشا... ليتكِ عرفتني".

غير أن المرأة الشقراء لم تُجبه.

فعلى الرغم من وجود ساشا الجسديّ في الغرفة، إلا أنها لم تكن تسمع شيئاً. لقد حبسها الغولم في حالةٍ شبيهة بالنوم، فراغ مُطمئن لا تُدرِك فيه أيّ شيء، ولا حتَّى ذاتها.

ومع أنَّهما يتشاركان الجسد نفسه، إلا أنَّ الغولم كان قد فرض سيطرته منذ زمن بعيد، مُتولِّياً القيادة الكاملة، بحيث يُغربل بعناية ما تراه ساشا، وما تذكِّره، وما تفهمه. كان يفعل ذلك لحمايتها، ليصون روحها الرقيقة من الألم. كان الخزنة التي تحفظ أحزانها، والجيش الذي يخوض معاركها.

لقد استدعيتني يا ساشا... وأنا أجبت النداء.

لن ينسى الغولم تلك اللحظة المُرعبة في المصحّة النفسيّة الروسية، حين بلغت روح ساشا حدّ الانهيار، ولم تعد قادرة على احتمال مزيد من العذاب، فصرخت في استغاثة يائسة.

تلك كانت لحظة ميلادي...

نادرًا ما يتذكّر أحد لحظة ولادته، لكنّ الغولم يتذكّرها بوضوح. فقد استفاق وعيه فجأة وسط كابوسٍ حقيقيّ، ليجد نفسه مَحْبُوسًا في جسدٍ يُضْرَبُ بلا رحمة. فاجتاحه الألم والغضب، ونهض تلقائيًا، مُستدعيًا طاقةً لم يعرفها ذلك الجسد من قبل، ثمّ أطبق يديّهُ على عنق المُعتدِية حتّى خمدت أنفاسها. وقف فوق جثمان ممرضة ساشا الليلية، وسمع صوته الأجوف للمرّة الأولى.

"أنا حاميك يا ساشا؛ أنتِ في أمانٍ الآن".

* * *

في الرّدهة خارج شقّة ساشا، كانت أفكار كاثرين سولومون تتسابق في رأسها، مُحاولَةً تنظيم سيل الإدراك المُفاجئ الذي أيقظه كلام لانغدون. كان مُحَقًّا حين قال إنّ محاضرتها الليلة الماضية تضمنت شرحًا لمُتلازمة العبقريّ المُفاجئ، وهي الحالة التي كانت تراها دليلاً على الوعي غير الموضوعي؛ دماغ تالف يتلقّى إشارات مُتعدّدة في الوقت نفسه.

وكان مُحَقًّا أيضًا في أنّ حديثها بعد ذلك مباشرة تناول ظاهرة أخرى لا تقلّ غرابة.

قالت لجمهورها آنذاك: "ثمّة حالة أخرى لافتة ترتبط بمتلازمة العبقريّ المُفاجئ، إذ تشير بدورها إلى قدرة الدماغ على تلقّي إشاراتٍ مُتعدّدة. تُعرّف الحالة اصطلاحًا باسم اضطراب الهوية الانفصاميّة، أو كما نعرفه جميعًا بانفصام الشخصية؛ وهي ظاهرة نفسيّة تتمثّل في وجود هويّاتٍ مُتعدّدة داخل جسدٍ واحد".

شرحت كاثرين أنّ هذه الظاهرة المؤثّقة عالميًا تظهر غالبًا عند النساء، وتنشأ عادةً كآليّة دفاعيّة لمواجهة صدماتٍ جسديّة مُتكرّرة. وغالبًا ما تظهر الهوية الثانية بوصفها كيانًا يتولّى تلقّي الألم نيابةً عن الضحيّة الأصليّة، فتكون ضحيّة بديلة تمتصّ العذاب وتحجب كلّ ذكرياته، لتُمكن الجسد المُضيق من "الانفصال" عن معاناته.

تُعرّف الشخصية الثانويّة باسم الشخصية البديلة، وغالبًا ما تنشأ في لحظة انقسام حادّ في أثناء صدمة نفسيّة عميقة. وبعد ظهورها، قد تستقرّ في الجسد المُضيق لسنواتٍ أو مدى الحياة، فتتولّى الحماية، وتحجب أظلم الذكريات من خلال نسيان انتقائيّ، مانحةً صاحبها

صفحةً جديدة للمُضَيّ قديمًا. وأحيانًا، كانت الشخصية الحامية تستولي على الجسد بالكامل، وتصبح الشخصية المهيمنة التي تُقرّر متى وكيف يمكن للشخص المُصاب بالصدمة أن "يظهر" بأمان.

أوضحت كاثرين أنّ هذا الاضطراب سُخّص للمرة الأولى في القرن التاسع عشر تحت اسم "الوعي المزدوج"؛ وهي حالة تشبه المشي في أثناء النوم، يبدو فيها الشخص كأنّ وعيًا آخر قد استولى عليه، فيُنَفَّذ أفعالًا من دون إذن الشخص أو إدراكه، ولا يستطيع هذا الأخير تذكرها.

وقد وُثِّقت حالتان من أكثر الحالات غرابةً في التاريخ بدقة بالغة وكانتا مصدر إلهام لكتب شهيرة مثل *وجوه إيڤ الثلاثة*، و*غرباء في جسدي*، و*سبيل*. لكن أشهر عمل تناول هذا الموضوع على الإطلاق كان رواية روبرت لويس ستيفنسون تحت عنوان *القضية الغريبة للدكتور جيكل والسيد هايد*.

كانت كاثرين تعلم أنّ كثيرًا من الحالات تضمّ هويّاتٍ متعدّدة؛ أحيانًا أكثر من اثنتي عشرة شخصية تسكن جسدًا واحدًا، ولكلٍّ منها صوتها المُختلف، ولهجاتها، وخطّها، ومهاراتها، وذوقها في الطعام، بل وحتى هويّتها الجندريّة. كما أنّها تمشي بطريقة مُغايرة، وتفضّل عُرفًا مختلفة، وتعاني أمراضًا جسديّةً أخرى، ولها مُعدّل ذكاء وحُدّة بصر مغايران. *جهاز استقبال واحد يلتقط محطاتٍ متعدّدة...*

اختلف الأطباء النفسيّون اختلافًا شديدًا في تفسير هذه التباينات الصارخة بين الشخصيات البديلة، وذهب بعض المُشكّكين إلى حدّ اتّهام المُصابين باضطراب الهوية الانفصاميّة بأنّهم مُمثلون بارعون يسعون إلى لفت الأنظار. غير أنّ الاختبارات الصارمة التي أُجريت لهم - بما في ذلك تصوير الدماغ بالرنين المغناطيسيّ، واختبارات كشف الكذب، وأساليب الاستجواب المُتقدّمة - أثبتت جميعها النتيجة نفسها دائمًا؛ ثمة بالفعل أفراد مُتعدّدون مُستقلّون يسكنون جسدًا واحدًا.

كانت بعض هذه الشخصيات تُدرِك وجود غيرها داخل ما يُعرَف بـ "النظام"، وتُسمّى في هذه الحالة مُشاركة في الوعي. في المقابل، تعيش شخصياتٌ أخرى في جهل تامّ، مُقنّعة بأنّها وحدها في الجسد، وغالبًا ما كانت تعاني فجواتٍ في الذاكرة عندما تتولّى شخصيّة أقوى السيطرة على الوعي في عمليّة تُعرَف باسم "التصدّر".

والآن، بينما كانت كاثرين واقفة إلى جانب لانغدون في الرّدهة المُعتمة، لم تستطع أن تُبعد نظرها عن خصلة الشعر الأشقر التي أخرجها من غطاء الرأس. كانت استنتاجاته صادمة... ومنطقيّة في آنٍ واحدٍ. يعتقد أنّ الغوليم وساشا شخص واحد.

وإن كان روبرت مُحِقًّا، فإنَّ العُثور على ساشا لم يُعدِّ مُمَكِّنًا. ففي الأرجح، الحالة النفسيَّة التي نشأت يومًا تُثبِّد حياة ساشا فُيسنا قد أُنْهتْها أيضًا. لقد مات الغولِم في الانفجار... أَخَذَا ساشا معه.

* * *

أُنْهِيَ الغولِم ارتداء ملابسه، ووقف أمام المرأة يتأمل نفسه. لطالما بدت صورتها غريبة عنه، ومع ذلك، هكذا وجد نفسه يعيش معظم الوقت في العالم؛ على طراز ساشا، مُرتديًا ثيابها التي كانت تختارها كل صباح.

كان زيَّه اليوم بسيطًا؛ سروال جينز، وقميصًا أبيض، وحذاء رياضيًّا، ومعطفًا سميكًا. ملابس كان قد تركها في مكتب ساشا خصيصًا لهذه اللحظة. لم يكن المظهر أنيقًا، كما أنَّ شعرها كان مُبتلًا ومُتشابكًا، لكنَّه أضفى عليها هيئَةً مُثيرة للشفقة... وفي تلك اللحظة، كانت بأُمس الحاجة إلى الشفقة.

أرجوك، ساعدي ساشا...

بذل الغولِم قُصارى جهده ليقبى الشريك الصامت في حياة ساشا؛ فاخْتَبَأَ في أعماق وعيها، يُراقبها وهي تشق طريقها في حياتها الجديدة... الحياة التي استحققتها. وكأيَّ وصيٍّ عَطُوف، كان يتدخَّل أحيانًا لحمايتها. كان يتقدَّم بهدوء، ويستعيد زمام السيطرة على الجسد، مُقلِّدًا صوتها وحرركاتها بإتقان. وكانت تدخَّلاته دومًا لحمايتها... ووقايتها من المواقف الخطرة، أو من الحقائق المؤلمة، أو القرارات التي لم تكن مُستعدةً لاتخاذها.

أما بالنسبة إلى ساشا، فكانت تلك اللحظات تظهر في ذاكرتها كفراغاتٍ قصيرة، شبيهة بأحلام اليقظة في أثناء قيادة سيارة والوصول إلى الوجهة من دون تذكُّر الطريق. تقبَّلت ببساطة أنَّها تعاني من فجوات في ذاكرتها أحيانًا. ومع مرور الوقت، قلَّت تدخَّلات الغولِم؛ لأنَّ ساشا أصبحت أسعد ممَّا رآها يومًا.

وكان سبب سعادتها مايكل هاريس.

لقد وقعت ساشا في الحب.

دخل الدبلوماسيُّ الوسيم حياتها عن طريق الصدفة، أو هكذا بدا، ومع أنَّ الغولِم شعر بعدم الارتياح لعلاقتهمَا المُتنامية، إلَّا أنَّه اختار ألاَّ يتدخَّل. فساشا تستحقُّ أن تعرف الحبَّ الأوَّل، وقد بدا مايكل رجلًا طيبًا.

لكن، كما تبَيَّن لاحقًا، المَظَاهِر خداعة.

فقبل ثلاثة أسابيع، كان الغولِم مُستلقيًا على حصير القنَّب في محرابه، مُستغرِقًا في سكونه ما بعد النوبة، حين سمع حركةً في الشقَّة السفلى. ارتبك، فمال بأذنه إلى الأرض،

وَمَيَّزَ بوضوح صوتَ شخصٍ يُفْتَش شقّة ساشا. ولَمَّا هَمَّ بارتداء ثيابه والنزول، سمع صوتًا عاليًا يتكلّم في الأسفل.

كان الصوت صوتَ مايكل هاريس.

تجمّد الغولم في مكانه، مُصْغِيًا إلى مُحادثة هاتفيّة بين هاريس والسفيرة الأميركية. كشفت تلك المكالمة ما هو أكثر خطورة من الدوافع الخفية عند هاريس لمُصادقة ساشا، وتبيّن أيضًا أنّ اللّطف الذي أظهرته الدكتورة بريغيتا غِسْنِر - التي وثقت بها ساشا - ربما كان مُزيّفًا.

في لحظاتٍ معدودة، أعاد الغولم تقييم الصورة الكاملة التي ظنّها حياةً مثالية. كان على دِرَاية جيّدة بالعلاجات الطبيّة المُكثّفة التي خضعت لها ساشا، لكنّه اعتقد دائمًا أنّ غِسْنِر تُعالجها بدافع الرحمة، وأنّها كانت تتابع تطبيق إجراءات لتحسين النتائج.

أمّا الآن، فقد تَكشفَت أمامه حقيقةٌ مُغايرة تمامًا. ومنذ تلك اللحظة، أصبح دائم الحضور تقريبًا، يُراقب بعينيهما، ويُصغي، ويُوَجِّه، مُتَظَرِّمًا اللحظة المُناسبة ليُظهر لها الحقيقة. وفي الليلة الماضية تحديدًا، اقتنص الغولم فرصته أخيرًا، إذ حاصر غِسْنِر في مُختبرها، ووثّق خيانتها في تسجيل اعترفت فيه بكلّ شيء؛ العمليات الجراحية، والغرسات العصبية، وموت ديمتري، والعقاقير المُهلوسة، والسيد فينش، ووكالة الاستخبارات، وهدفهم الحقيقي في براغ.

الآن، لم يعد للعبة وجود، فكّر الغولم في ذلك مُبتَهَجًا وهو يُغادر حَمَام المُختبر ويخرج إلى الممرّ. كان يأمل أن يكون روبرت لانغدون وكاثارين سولومون قد نجوا؛ فالأستاذ الأميركي أظهر كثيرًا من اللطف تجاه ساشا اليوم، وصديقه العالميّة كانت تفهم أسرار الكون بطريقة لا يُدرِكها إلّا أمثاله.

غير أنّ هذا اليوم، على الرغم من نهايته المُظفّرة، كان مليئًا بالعقبات غير المُتوقّعة. فكانت الصدمة الأولى لقاءه بضابطي الاستخبارات التشيكية في الحصن، والثانية عثوره على لانغدون مُنْحَنِيًا فوق جثة غِسْنِر، أمّا الثالثة - ولعلّها نتيجة لما سبق - فكانت نوبة صرعٍ عنيفة تعرّض لها في مختبر غِسْنِر ولم يتمكن من إيقافها.

في الواقع، مشكلته مع النوبات أنّ دماغه كان يعود دائمًا إلى حالته الافتراضية الأولى؛ ساشا. إذ كانت هي التي تستفيق بعد كلّ نوبة، وحيدة، وضعيفة. وفي تلك اللحظات، يُصبح وعيها حاضِرًا بالكامل، إلى أن يعود الغولم، بعد بضعة دقائق، ويستعيد السيطرة من جديد. ولهذا السبب، أبقي محرابه مُظلمًا تمامًا في أثناء تلقّيه الأثير، لكي تستيقظ ساشا دومًا على ظلام مُطمئن، لا على غرفةٍ مَجهولة تُربِكها.

في ذلك الصباح، بعد نوبته إلى جوار جثة غِسْنِر، تمكّن الغولِم من فرض وعيه مُجدِّدًا، ليجد نفسه بين ذراعَي روبرت لانغدون. عندها، أدرك أنّ نزوله إلى العتبة سيُتأجّل، فأقنع لانغدون بالهرب من الحصن - برفقة ساشا في الظاهر - لكنّ الغولِم كان معه في كلّ خطوة وهو يهبط المُنحَدَر الثلجيّ نحو متنزّه فوليمانكا، ويراقب كلّ شيء من خلال عينيّ ساشا. في شقّتها، شكّل وصول هاريس الوشيك فرصةً مثاليّةً لمُعاقبة أخطر خائنيها، فاختلق الغولِم حيلةً بسيطةً لِيُبعد لانغدون عن طريق الخطر: ورقة صغيرة، طريقة على الباب، ومن ثم انسحابٌ سريع إلى الحمام. وحين عثر لانغدون على الرسالة، انطلق حافي القدمين إلى الزقاق، غافلاً عن الغولِم الذي كان يراقبه من نافذة ساشا. وقبل أقلّ من ساعة، هنا في الحصن، هاجمته عميلةٌ مُسلّحة؛ وما زال يتذكّر نظرة الدهول في عينيها عندما دفعته يديها... لتصطدم كفّاهما بجسد أنثويّ. لستُ كما تظنّيني.

ثمّ جاء التحديّ الأخير، في الطابق السفليّ من العتبة. فبعد أن فقد عصاه المغناطيسيّة، داهمته نوبةٌ أخرى، فبدأ يبحث بيأسٍ عن مكانٍ آمنٍ ليجتازها، حتى وجد ضالّته في الداخل المُبطّن لإحدى كبسولات EPR، ذلك المكان الذي يعرفه جيّدًا. لقد متُّ هناك مرارًا.

ارتجف الغولِم وهو يتذكّر الطبيعة الحقيقيّة لتجارب غِسْنِر؛ إذ كانت تدفع ساشا إلى حافة الموت، ثمّ تُعيدها مرارًا وتكرارًا. حينها، صدّق طيبة غِسْنِر، وحاول قدر استطاعته أن يمتصّ ألم تلك الإجراءات، وأن يحجب عنها الخوف والانزعاج. ولحسن الحظّ، لم تكن ساشا تتذكّر عدد المرّات التي خدّرتها فيها غِسْنِر وساقتها عبر أروقة العتبة لإجراء تجارب مُتنوّعة في غرفتيّ العمليّات والكبسولات.

قال الغولِم في سرّه: *أما أنا، فأتذكّر.*

لا، بل ما زالت الذكريات الباهتة تطارده.

قال في سرّه: *ستبدأ الآن حياة أخرى، فهذا أصبح من الماضي.*

في الواقع، كان المُستقبَل يقترب أخيرًا، المُستقبل الذي خطّط له من أجل ساشا، المُستقبل الذي تستحقّه. عمّا قريب، سأحرّرها وأختفي. إذ لم يعد عليه سوى الصعود من هذا العالم السفليّ... والتوجّه إلى السفارة الأميركيّة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 124

وقف لانغدون في مطبخ ساشا فيسنا، وهو لا يزال يُحاول استيعاب ما اكتشفاه هو وكاثرين. كان الهَران السياميَّان يلتفَّان بحنانٍ حول كاحليَّه، ورائحة شاي Russian Caravan لا تزال عابقة في الهواء. ومع ذلك، بدا له المنزل الآن غريبًا تمامًا. حين كنتُ هنا، ربّما لم أكن أتحدّث إلى ساشا الحقيقية.

أثارت الفكرة في نفسه اضطرابًا عميقًا، لكنّ الحالة النفسيّة لساشا فسّرت أشياء كثيرة؛ دخول الغولم حصن الصليب، وفقدان ساشا ذاكرتها، والشقّة الغريبة في الطابق العلويّ، وربّما أيضًا السبب الذي جعلها تعطيه مفتاحًا لشفقتها وتحثّه على العودة.

هل أرادت أن أجد جثة هاريس وأسلّم الظرف للسفيرة؟

مهما يكن، إنّ اكتشاف حقيقة ساشا بدأ يُوضّح بعض الأمور.

دخلت كاثرين المطبخ بعد أن جالت في الشقّة وقالت: "أساءل إن كان مشروع العتبة قد اختار مريضّي الصرع عمدًا لأنّهما أكثر قابليّة لتجارب الوعي المغايرة... أم لأنّ حالتهما منحت بريغيتا غُسنِر غطاءً مثاليًّا لإجراء جراحة دماغية من دون إثارة الشبهات".

سؤال وجيه. وفكّر لانغدون في أنّ الاحتمالَيْن معًا قد يكونان صحيحَيْن. "في كلّ الأحوال، أفعالهم لا تُعْتَفَر. أظنّ أنّ شيئًا فظيعةً قد حدث مع ديميتري، وأنّه مات فعلاً، كما أشارت سجلّاته".

ساد صمتٌ طويل، بينما راح لانغدون يتأمّل الزخارف اللطيفة ذات الطابع الطفوليّ في المطبخ.

قالت كاثرين وهي تنحني لمُداعبة قطعتي ساشا ذواتي الوبر المُسرَّح بعناية: "وماذا عن هاتَيْن الصغيرَتَيْن؟ تُرى، متى أُطعمتا آخر مرة؟"

فكّر لانغدون في سرّه: هذا صحيح، سيتوجّب على أحدهم أن يتبأهما. فتح الخزانة تحت المِغسلة، وأخرج كيس طعام القطط.

فأخذت منه كاثرين الكيس قائلة: "دع الأمر لي، أنا سأطعمهما. أما أنت، فعليك إجراء الاتصال".

اتّجه لانغدون نحو الهاتف المُثبّت على الحائط، واتّصل بالرقم الذي أعطاه إيّاه الرقيب سكوت كيربل. ومع رنين الهاتف، تساءل عمّا سيقوله حين يسأله كيربل عن ساشا فيسنا. لم نجدّها، فقد ماتت في العتبة. بالمناسبة، لقد قتلت مايكل هاريس. كان لا يزال

يحاول أن يفهم كيف يُعقل أن تكون ساشا قد أحبّت هاريس بصدق، فيما كان حاميتها يعرف حقيقة ويكرهه. شخصان، في جسد واحد.

تذكر لانغدون قضية قرأ عنها ذات مرة لرجل مُتهم بالاغتصاب يُدعى وليام ميليجان، أثبت في اختبار كشف الكذب أنه لا يتذكر أيّاً من جرائمه. وتبين لاحقاً أنه مُصاب باضطراب الهوية الانفصاميّة، وأن إحدى شخصيّاته البديلة هي التي ارتكبت الجرائم من دون علمه. فصدر الحكم ببراءته، وأُدخل مستشفى للأمراض النفسيّة.

قبل ظهور الطبّ النفسي الحديث، كان من يُعانون هذا الانفصام يُحالون إلى الاختصاصيّين الوحيدين المتأخين آنذاك؛ رجال الدين. وكانت حالتهم تُشخص غالباً على أنها "مسّ"، ويوصى بالعلاج الشعبيّ الشائع آنذاك؛ "طرد الأرواح". وحتى يومنا هذا، ما زال طقس طرد الأرواح يُجرى بانتظام لأشخاص يعانون اضطراباتٍ عقليّة. ومع أن لانغدون كان يرى ذلك دائماً أمراً مُرعباً، إلّا أنه اضطرّ للاعتراف بأنّ وصف كاثرين لمفهوم الوعي غير الموضوعي أضفى منظوراً جديداً على هذه الممارسة.

ربّما لم يكن طارد الأرواح يحاول إخراج مسّ من الجسد... بل إعادة ضبط جهاز الاستقبال ليحجب الإشارة غير المرغوبة.

"كيريل يتحدّث"، جاء الصوت المألوف عبر الهاتف، فأعاد لانغدون إلى اللّحظة الحاضرة. "مرحباً، معك روبرت لانغدون".

فقال الرجل في الطرف الآخر من الخطّ: "كنّا نتوقّع اتصالك، سيّدي. انتظر من فضلك، ستتحادث إليك السفيرة ناغل".

عندئذٍ، شعر لانغدون بالدهشة لأنّ السفيرة متأخّرة للحديث. ظننتُ أنّها رهن الاعتقال. يبدو أن شيئاً قد تغيّر في السفارة.

أتاه صوت السفيرة عبر الهاتف: "بروفيسور لانغدون، لا تتخيّل كم أنا مسرورة بعودتكما سالمين؛ فقد أخبرني سكوت أنّ الأمر كان... وشيكاً للغاية".

قال لانغدون: "لا أظنّ أنّه كان بالإمكان أن يكون أقرب من ذلك. وسمعنا أنّك اعتُقِلتِ بأمرٍ من مدير وكالة الاستخبارات؟"

أجابت: "نعم، مع أنّ المدير جاد قال إنّ احتجاجي كان إجراءً مؤقتاً لحمايتي". "وهل تصدّيقه؟"

قالت السفيرة: "أودّ ذلك. قال إنّّه كان قَلْباً من أن يحاول فينش... لا أدري. على أيّ حال، لم أتلّق منه أي اتصال منذ مكالمتنا الأخيرة".

فقال لانغدون مباشرة: "فينش مات. رأيناه في العتبة قبل الانفجار مباشرة. فأنا وكاثرين كنّا آخر من خرج، أمّا فينش —"

قاطعته السفيرة بصوتٍ مُتَوَتِّرٍ: "حسنًا، ليس عبر الهاتف. ستحدث وجهًا لوجه".

قال لانغدون: "لدينا الكثير لنخبركِ إِيَّاه. هل السفارة مكان آمن للقاء؟"

أجابت ناغل: "لستُ واثقة من ذلك. كنت سأقترح فندقك، لكنَّ وجودك فيه مُتَوَقَّع، ولا أستطيع أن أعدَّكَ بالأمان هناك أيضًا. ليس بعد". صممت لحظة، ثمَّ قالت: "هل تعرف جدار دريستون؟"

"أعرفه". استغرب لانغدون من اختيارها مكانًا عامًّا... هذا ناهيك عن سمعته الغامضة. "إنَّه قريب من السفارة، لكن لستُ مُتأكِّدًا—" فقاطعته: "اذهب إلى هناك بأسرع ما يمكنك".

* * *

في مقرِّ الاستخبارات التشيكية، كان الملازم پافيل يجمع بصماتٍ آخر أغراضه من خزانته. لقد انتهى استجوابه الطويل على يد ضابطه الجديد بعقوبة قاسية، نصَّت على تخفيض رتبته، وإعطائه إجازةً تأديبيةً لثلاثة أشهر.

قال في سرِّه: لن أعود بعد اليوم.

فكلَّ شيءٍ تغيَّر الآن. ومع أنَّ ذاكرته ليوم الحادث كانت ضبابيةً، إلَّا أنَّ صورة خاله المُمدَّد ميتًا في وادٍ جليديٍّ لن تغيب عن ذهنه إطلاقًا. سُجِّلَتْ وفاة النقيب رسميًا كحادثةٍ عرضيَّةٍ، ومع أنَّ پافيل أراد الاعتراض، إلَّا أنَّه لم يكن في موقعٍ يسمح له بذلك. والأسوأ أنَّ أيَّ تحقيقٍ إضافيٍّ في القضية أُغْلِقَ بأمرٍ من السفيرة الأميريَّة، التي امتلكت كلَّ الأوراق بعد أن كشفت أساليب يانانتشك المُخادعة في احتجازه أميركيَّين بارزَيْن.

غادر پافيل المبنى مُتَّجِهًا إلى موقف الحافلة. وحين وصل، رأى هناك امرأةً شابةً تنتظر وصول الحافلة. بدا وجهها لطيفًا، فابتسم لها بتعبٍ قائلاً: "To je ale zima"، البرد قارس.

لكنَّ المرأة أدارت وجهها سريعًا، وانتقلت إلى الطرف الآخر من الموقف.

فجأة، شعر پافيل بوحدةٍ قاتلة.

عندما وصلت الحافلة، صعد وجلس على أحد المقاعد الخلفية. لم يرفع أحدٌ من الركَّاب نظره عن شاشة هاتفه، فجلس بصماتٍ، وأخرج هاتفه هو أيضًا، وفتح أحد التطبيقات.

رنت عدَّة إشعارات جديدة، وتوقَّع أن يشعر بالدفء الذي يُصاحب الأمل بوجود احتمالات جديدة. لكن الليلة، بدا الهاتف باردًا بين يديه. تأمَّل الشاشة طويلاً، ثمَّ في حركةٍ مُفاجئةٍ، أطفأ الهاتف، وأعادته إلى جيبه. أغمض عينيَّه، وتمتم بدعاء من أجل خاله، ثمَّ جلس يصغي إلى هدير الحافلة وهي تمضي به نحو المنزل.

الفصل 125

يُعدّ جدار دريستون أحد أكثر معالم براغ القديمة سرّياتية، بشكله الذي يشبه جرفاً شاهقاً من الصخور المنصهرة. ترتفع هذه المنحوتة الغامضة العائدة إلى القرن السابع عشر أكثر من أربعين قدماً فوق حديقة فالنشتاين، وترك انطباعاً بأنّها نهراً من الحمم الذائبة، التي تصلّبت في مُتّصف تدفقها في جدار من الهوابط السائلة والتواءات المُتّفخخة والتجاويف غير المُتبلّورة.

يُعرّف رسمياً باسم غروتو أو المغارة، ولا يزال حتّى يومنا هذا أحد أكثر وُجّهات براغ غرابة. تتميّز التموّجات العضوية على سطحه الحجريّ بجودة شبه خيالية، فيستمتع الزوار بالإشارة إلى الوجوه الغريبة المُختلفة التي يرونها تحدّق إليهم. ولعدّة قرون، طالب رجال الدين بهدم الجدار، زاعمين أنّه مسكون ويدعو إلى ظهور الأرواح الشريرة. كما يشكو السياح بانتظام من الكوابيس بعد زيارتهم الجدار، في حين شعر عدد كبير من الشخصيات البارزة بالغثيان في أثناء وقوفهم أمامه.

غير أنّ السفيرة ناغل لم تكن واحدة منهم. قالت في سرّها وهي تتأمل الجدار: أجده مُهدّئاً للأعصاب. فقد بدا في تلك اللحظة جميلاً على نحوٍ خاصّ؛ هادئاً وشاحباً تحت ضوء ما بعد الظهيرة، مع كتل الثلج الأبيض الرقيقة التي تجمّعت في تجاويف وجوه لا تُحصى.

وبينما كانت تنتظر في الضوء الآفل، بدأت وجوه جديدة تتشكّل أمامها على الجدار. كانت قد تعلّمت أنّ عددًا قليلاً من تلك الوجوه حقيقيّ، صنعه المِعماريّ عمدًا، أمّا الباقي فمن نسج خيالها؛ ظاهرة نفسية تُعرّف باسم إيهام الخيالات المرئية أو pareidolia، أي ميل الدماغ الفطريّ إلى إيجاد أشكال ذات معنى وسط أنماطٍ غامضة. فالإنسان يرى الوجوه في كلّ شيء؛ في الغيوم، ونقوش الأقمشة، وأطباق الحساء، والظلال المنعكسة على سطح بحيرة. تكفي نقطتان وخطّ، حتّى تُقيم معظم الأدمغة البشرية الرابط نفسه.



ومن خلال عملها في وكالة الاستخبارات، كانت ناغل مُقتنعة بأنّ أصحاب نظريّات المؤامرة يُعانون شكلاً من أشكال الباريدوليا الإدراكية؛ إذ يرون أنماطاً مشبوهة حيث لا وجود لأنماطٍ أصلاً... فيتوهّمون النظام في قلب الفوضى.

أما إفريت فينش فكان نقيضهم تمامًا؛ إذ كان يرى الأنماط الحقيقية ويُحوّلها عمدًا إلى فوضى... كل ذلك في سبيل الحفاظ على نوع من النظام في هذا العالم. وقد منحها نبأ موته شعورًا بالارتياح، لكنّها لم تجد في ذلك سببًا للبهجة. فخلال مسيرتها في الوكالة، تعلّمت حقيقةً واحدة بسيطة: *الخير والشرّ غير موجودين بصورتها الخالصة*. وكانت تعرف أنّ قسوة فينش مُستمدّة من غيرته على وكالةٍ تحاول أن تضمن لنفسها موقّعًا في عالمٍ جديد وجريء من تكنولوجيا الدماغ.

قال صوتٌ عميق خلفها، ارتدّ صدها على سطح الجدار المهيّب: "طيور البوم نائمة". للحظة، ظنّت ناغل أنّها سمعت عبارة سرّيّة من عالم الجواسيس، لكن حين التفتت، رأت وجهين مألوفين. كان روبرت لانغدون وكاثارين سولومون يقتربان من وراء قفص الطيور في الحديقة، وفيه كانت طيور بوم فالنشتاين تقف ساكنة، ورؤوسها مدفونة تحت ريش جوانحها.

ابتسمت ناغل وصافحتهم، بينما خرج مُرافقها الدائم - الرقيب سكوت كيربل - من الظلال لينضمّ إليهم. كان لانغدون وكاثارين لا يزالان من دون معطف، لكن لحسن الحظّ، لم تكن المُحادثة ستجري في الهواء الطلق. قالت السفيرة وهي تسير في المقدّمة نحو الجدار: "اتبعاني، سنتحدّث في الداخل".

رفع لانغدون نظره إلى الجرف الصلب، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الحيرة: "في الداخل؟ أين؟"

ومن دون أن تنطق بكلمة، قادتهم ناغل إلى قاعدة الجدار، وتوقّفت أمام بابٍ خشبي صغير لا يزيد ارتفاعه على أربع أقدام، تُحيط به تشكيلات حجرية تشبه الجماجم. علت الدهشة ملامح لانغدون حين أخرجت مفتاحًا وفتحته.

قالت ناغل في سرّها: *هذا من امتيازات كونها سفيرةً للولايات المتّحدة*. فقد منحها الأميركيون الأثرياء الذين يملكون ما وراء هذا الباب مفتاح الدخول، آملين أن تزور المكان كثيرًا؛ وهذا ما فعلته.

في أثناء دخولهم، تساءلت ناغل عمّا سيقوله لانغدون لو علم إلى أين يقودهم هذا الممرّ الآن. فخلف هذا الجدار، في واحدةٍ من ستّ غرف مُضاءة بالشموع، قد يجد البروفيسور نفسه مُمدّدًا على لوحٍ من الغرانيت، بينما يقوم خدمٌ بشبابٍ احتفالية بصّب الشمع الساخن عليه.

إذا لم تخنه ذاكرته، فإن جدار دريستون الشهير في براغ شُيّد على الواجهة الخلفية لدير أوغسطيني ويعود إلى القرن الثالث عشر؛ ممّا يعني أنّه اجتاز الجدار لتوّه، ودخل أروقة عتيقة.

فكّر في سرّه ساخرًا: لكنّها لم تُعدّ عتيقة تمامًا.

فهذا الدير العظيم - شأنه شأن كثيرٍ من أديرة أوروبا - أُعيد توظيفه ليلبّي حاجات العالم الحديث؛ إذ تحوّل إلى فندق ماريوت، فندق أوغسطين الفاخر. أمّا مصنع الشراب القديم فصار الآن مجلسًا عصريًا، فيما أبقيت قاعة النساخ الأصلية بكاملها على حالها؛ بمخطوطاتها القديمة، وأدوات الكتابة، وحجارة شحذ ريش الكتابة.

قالت ناغل هامسة وهي تقودهما عبر ممرّ ضيق نحو باب: "بهدوء تام، من فضلكما". وحين دفعت الباب، وجد لانغدون نفسه في رواقٍ أنيق تفوح فيه روائح شجر الشاي والبخور والأوكالبتوس.

سألها متفاجئًا: "هل أحضرنا إلى متّجع صحي؟" كانوا قد وصلوا إلى بابٍ ذهبيّ علّقت عليه لوحةٌ تعرض قائمة بالعلاجات، بينها علاجٌ خاصٌّ يدعى الطقس الروحيّ. لم يكن لانغدون خبيرًا بحياة الأديرة، لكنّه مُتيقّن من أنّ طقوسها الأصلية لم تتضمّن شموعًا برائحة اللافندر أو أقنعة كولاجين للوجه. همست السفيرة: "نحن في أمانٍ هنا. فأنا أعرف طاقم العمل، والجدران عازلة للصوت".

طلبت منهما الانتظار بينما دخلت الغرفة. وبعد ثوانٍ، عادت ويدها مفتاحٌ إلكترونيّ، وقادتهما عبر الممرّ، ثمّ فتحت إحدى غرف المُتّجع المُخصّصة لما بعد العلاج. كانت الصالة بلا نوافذ، ذات جوٍّ مهيب مُصطنع: شموعٌ كهربائيةٌ متلائية، وزجاجٌ مُلوّن على الجدران، وأنغام غريغورية تنبعث من مكبّرات الصوت. لاحظ لانغدون أنّ تلك الأناشيد تعود إلى أربعة قرونٍ قبل بناء الدير. وبصرف النظر عن المُفارقات التاريخية، كان بإمكانه تخيل أماكن أسوأ. فالمكان خاصٌّ ودافئ، كما أنّ كيربل خرج ليجلب لهما بعض الطعام من الفندق.

خلعت ناغل معطفها الشتويّ، وجلست على الأريكة الوثيرة قائلة: "أولًا، لا أستطيع أن أتصوّر ما مررتما به اليوم. أنا مُمتنةٌ لأنكما بخير، وأدرك أنّ أماننا الكثير لنناقشه. لكن قبل أن نخوض في التفاصيل، أردت أن أشارككما خبرًا سارًا جدًّا". وابتسمت بتعبٍ وهي تُضيف: "تبين أنّنا حصلنا أخيرًا على الأدلة التي كنّا نبحث عنها لإدانة مشروع العتبة".

كيف؟ تساءل لانغدون عن ذلك في سرّه. إذ كان يعتقد أنّ جميع الأدلة الماديّة قد دُمّرت وطُمِرت تحت الأنقاض... ومعها، للأسف، الدليل الأقوى على الإطلاق؛ ساشا فيسنا نفسها. رُمقتهما ناغل وقد بدا عليها الإنهاك، لكنّها كانت مُتّقدّة بطاقة جديدة وهي تقول: "على ما يبدو، كان لدينا حارس. أو- على نحو أدقّ- كان عند ساشا فيسنا حارس".

تجمّد لانغدون من أثر الدهشة. وسرعان ما تراءت له صورة الرجل المُقنّع الذي أعلن عن نفسه بأنّه حامي ساشا. هل تعرف ناغل بأمر ازدواج شخصيّتها؟

أضافت السفيرة وهي تُخرج ورقة مطويّة: "وحارسها أرسل إليّ هذه".

ثمّ وضعت الورقة أمامهما على الطاولة. وحين وقع نظر كاثرين عليها، شهقت. وأصيب لانغدون بالصدمة نفسها وهو يقرأ الكلمات المكتوبة بخطّ مضطرب على ورقة مُزدانة بصور القطط:

أرجوك، ساعدي ساشا.

يا إلهي! تخيل لانغدون يديّ ساشا وهي تكتب تلك الكلمات نفسها؛ طلبًا يائسًا للتجدة... استغاثت لم تكن ساشا- وهذا هو الأغرب- تعلم عنها شيئًا.

سارعت السفيرة إلى الشرح بأنّ الرابط الإلكترونيّ المُدرج في الرسالة قاد إلى مقطع فيديو اعترافيّ مُؤلّم، ظهرت فيه بريغيتا غُسْنِر وهي تُفصح عن كلّ ما تعرفه عن مشروع العتبة: التجارب البشريّة، وجراحات الدماغ، والغرسات العصبيّة، والأدوية النفسيّة، وتجارب الموت الوشيك، وأسماء المُشاركين في المشروع... كلّ شيء.

قالت ناغل: "من الصعب مشاهدة الفيديو، لكنّ وجوده يعني أنّ سيّ أيّ إيه لن تستطيع مُلاحقتكما مجددًا".

صمتت هنيهة، ثمّ تابعت: "احتفظتُ بنسخة منه، وسأعدّ نُسخًا احتياطية. باختصار، أيّا يكن ما سيحدث لاحقًا، سيكون هذا الفيديو بوليصة التأمين الوحيدة التي ستحتاجان إليها".

ثمّ لمعت عيناها تحت ضوء الشموع وهي تُضيف: "إنّه قبلتكما النوويّة".

قالت كاثرين بهدوء: "وقبلتكَ أنت أيضًا، حسب ما أمل".

أومأت ناغل قائلة: "في الأرجح؛ وإن كنتُ لا أعتقد أنّه سيلزمنا. فقد بدا المدير مُصدومًا بقدري حين علم بما جرى في العتبة".

اعترض لانغدون: "لا بدّ أنّه كان يعلم، إنّه المدير".

فردّت السفيرة: "ولهذا تحديدًا قد لا يكون على علم بشيء. فالوكالة تُقسّم العمل إلى مستويات صارمة من السريّة؛ نظام الإنكار المعقول والكفاءة الأوتوقراطية. فقد أوكل

المهمة إلى فينش، وبالتالي، لم يكن يعلم سوى ما اختار فينش إبلاغه إياه".
قال لانغدون في سرّه: ربّما... وربّما لا. وتناول الورقة، وقد أدرك أنّ السفيرة تجهل تمامًا حالة ساشا النفسيّة. "لكن، لماذا وجّه حامّي ساشا هذه الرسالة إليك أنتِ تحديدًا؟ لماذا لم يُرسل الفيديو مباشرة إلى الصحافة؟"

قالت ناغل: "في الفيديو، تعترف الدكتور غِسنِر بأنّني كنتُ أجهل الهدف الحقيقي لمشروع العتبة، وأنّني كنتُ سأصاب بالرعب لو علمت به. أظنّ أنّ هذا الاعتراف هو ما دفع حامّي ساشا إلى الوثوق بي... مُتخيلاً أنّ لي نفوذًا يكفي لمساعدتها... أو لإحداث فرق. ومن دون شكّ، إن عثرنا على ساشا يومًا، فسأقدّم لها كلّ مساعدة مُمكنة. فهي ضحيّة، وأنا ساهمتُ - وإن مُكرهةً وغير مُدركة - في جعل مشروع العتبة واقعًا". أشاحت بنظرها فجأة، وشردت في أفكارها، ثمّ همست بصوتٍ مُتهدّج: "أمّا مايكل هاريس... ما أجبرته على فعله... أعني تجسّسه على ساشا لصالح فينش... فقد كلّفه حياته". نظرت إليهما وتابعت: "سأحمل هذا الذنب والخزي ما حييت".
تساءل لانغدون في سرّه: كيف سيكون شعورها حين تعرف الحقيقة المُعقّدة حول قاتل هاريس؟ المرأة التي أمرت هاريس بإغوائها أقدمت - بطريقةٍ ما - على قتله.

قالت كاثرين: "حامّي ساشا، حارسها كما سمّيته، هل عرفتِ من يكون؟"
أجابت ناغل: "ليس قطعياً. ظهر في الفيديو لثوانٍ فقط، وكان مُتَنكِّراً، لكن لديّ شكّ قويٌّ حول هويّته".

تبادل لانغدون وكاثرين نظرة دهشة.

قالت السفيرة: "الرجل الذي عذّب غِسنِر في الفيديو تكلم بلكنة روسيّة، وقال إنّها خانت ثقة ساشا، وإنّه يُعاقبها على ذلك. لكن في نبرته، كان ثمة ما يُشير إلى أنّ الخيانة كانت شخصيّة... كما لو أنّه هو أيضًا كان أحد ضحايا مشروع العتبة".

قال لانغدون في سرّه: كان كذلك بالفعل. فبشكل من الأشكال، كان المريض رقم ثلاثة. لم يكن يُدرك تمامًا تعقيدات اضطراب الهوية الانفصاميّة، لكن بدا له أنّ التجارب التي أجرتها غِسنِر على ساشا كان من الممكن أن يعيشها بديلها النفسي؛ خصوصًا إذا كان هذا البديل حامياً، واختار تحمّل الأذى بدلاً منها. فوفقاً لما شرحته كاثرين، يستطيع البديل المُسيطر التّحكّم في أيّ من الهويّتين تكون في الواجهة الواعيّة في كلّ لحظة.

تابعت ناغل قائلة: "أخبرني المدير أنّ أولى تجارب مشروع العتبة جرت أيضًا على رجل روسيّ أُخذ من المؤسّسة نفسها التي جاءت منها ساشا، وكان اسمه ديمتري سيسيفيتش. قال فينش إنّّه مات في أثناء التجارب، لكنّ المدير لم يرَ دليلًا على وفاته. من المحتمل أن يكون فينش قد كذب بشأن ذلك لسببٍ ما".

فكّر لانغدون في سرّه: فينش لم يكذب؛ ديمتري مات. لقد رأينا ملفّه الطبيّ.
تابعت ناغل بنبرة أسف: "بالنظر إلى محتوى الفيديو، خلصنا أنا والمدير إلى أنّ
ديمتري سيسيفيتش نجا بطريقة ما من التجربة وعاد لينتقم".
ساد صمتٌ ثقيل، تبادل خلاله لانغدون وكاثرين النظرات. فقد أدرك كلاهما أنّ
الوقت قد حان لتعرف السفيرة الحقيقة.
قال لانغدون وهو يُدير ظهره إليها: "سيدتي، الشخص الذي رأيته يقتل غُسّيز... لم
يكن ديمتري سيسيفيتش".

الفصل 126

لم تعرف السفيرة ناغل كم من الوقت كان قد انقضى حين خرجت المجموعة عبر جدار دريستون. ساعة؟ ساعتان؟ كان الظلام قد خيم على حديقة فالنشتاين، وسكنت الظلال رهبةً باردة.

كانت ناغل لا تزال تحت تأثير ما رواه لانغدون عن ساشا. وعلى الرغم من إدراكها أنها ستقبل هذا الأمر لاحقًا على المستوى الفكري... إلا أنها كانت تدرك أيضًا أن ثمة حقيقة واحدة ستظل تمزق قلبها إلى الأبد.

لقد قُتِل مايكل هاريس على يد... ساشا.

قالت كاثرين بإصرار: "تذكّري أن من فعل ذلك بمايكل لم يكن ساشا نفسها، التي أحبّت مايكل. عليك أن تنظري إليهما كشخصين مُختلفين".

في كلتا الحالتين، أثار الخبر في نفس ناغل موجةً جديدة من الإحساس الساحق بالذنب، وتمنّت لو كان بإمكانها طلب الغفران من كلّ من مايكل وساشا... لكن، كلاهما رحلا.

حتّى حديقة فالنشتاين بدت في نظرها بلا حياة؛ بشجيرات الورد الملفوفة بأكياس الخيش، والبركة التي أفرغت استعدادًا للشتاء... شكّت في أنها ستشهد عودة الحياة إلى هذا المكان في الربيع هذا العام. فمنذ بضع ساعات فقط، كانت تملك ما يكفي من النفوذ السياسي لتفعل ما تشاء، لكنّ قائمة رغباتها لم تعد تتضمن منصب سفيرة الولايات المتحدة في براغ.

قالت في سرّها: لم يكن يُفترض بي أن أكون هنا. لقد تمّ إرسالني كدمية لا أكثر.

قرّرت أن تنتظر شهرًا واحدًا لتساعد السفارة على تجاوز الأزمة الحالية، ثمّ تقدّم استقالتها. ومع أنها لم تكن تعلم بعد ما الذي ستفعله لاحقًا، لكنها شعرت بأنها ما زالت تتمتع ببعض القوة... وبقدرة كبيرة على العطاء.

أمّا همّها الأوّل حاليًا، فكان استعادة شريحة الذاكرة التي هربها سكوت كيريل من السفارة بذكاء داخل صندوق مُقتنيات دانا. وكان من المُفترض أن يتوجّه بعد قليل إلى شقتها لاسترجاعها.

حين غادروا الحديقة، التفتت ناغل إلى لانغدون وسولومون اللذين كانا يتحدثان بصوت خافت وهما يسيران خلفها. لا شكّ في أنّ كليهما مُنْهَكَان ويحتاجان إلى نوم عميق.

قال كيربل، وكأنّه قرأ أفكارها تمامًا: "سأقلّهما إلى الفندق بعد إيصالكِ إلى السفارة مباشرة".

خرجوا إلى ضوء المصابيح الصفراء، وأدركت ناغل أنّ كيربل هو أكثر من ستفتقده. قالت بنبرة دافئة: "سكوت، أنا مُدركة تمامًا للمخاطر التي تعرّضتَ لها من أجلي اليوم... ولن أنسى ولاءك".

فابتسم جنديّ المارينز واحدةً من ابتساماته النادرة، ولمس قبعته قائلًا: "وأنا لن أنسى ولاءك، سيّدي".

الفصل 127

لطالما اعتقد لانغدون أن أكثر الأعمال الفنية إزعاجًا وفاعليةً في أوروبا هو نصب ضحايا الشيوعية. إذ يتكوّن ذاك النُصب التذكاريّ من ستّة رجالٍ من البرونز بالحجم الطبيعيّ، يهبطون درجًا إسمتيًا عريضًا. جميعهم هزليّ، ذوو لحى طويلة، لكنّ المُفرع في المشهد أنّ الرجال الستّة كانوا في الواقع الرّجل نفسه... في مراحل مختلفة من التحلّل... أحدهم بلا ذراع، والآخر بنصف رأس، والثالث تتوسّط صدره فجوة.

تذكّر لانغدون رسالة الفنان: *التحدّي والصمود. فهذا الإنسان، مهما بلغت به المعاناة، ظلّ واقفًا.*

ولم يكن لانغدون يتوقّع أن يرى هذا العمل الفنّي في زيارته الحاليّة إلى براغ، لكنّها هي سريعا من أمام نافذة سيارة السفارة المُنطلقة في شارع أويزد. همّ بلفت نظر كاثرين إليه، لكنّها كانت قد غفت على كتفه، وشعرها المُشعث يلامس خدّه.

بعد أن أوصل كيربل السفارة إلى مبنى السفارة، ها هو الآن يُقلّ لانغدون وكاثرين جنوبًا عبر حدائق بترين، مُتّجهاً إلى فندق فور سيزنز، ليأخذوا قسطًا مستحقًا من النوم. وحين انعطفوا يسارًا نحو جسر ليدجون، أغمض لانغدون عينيه، يستمع إلى أنفاس كاثرين الهادئة. شعر بالطمأنينة وهو يصغي إلى ذلك الصوت الدافئ... صوت الحياة.

في الواقع، كان مفهوم الموت حاضِرًا أكثر ممّا ينبغي في هذا اليوم؛ ليس في الحديث فحسب، بل في واقع لانغدون أيضًا... فقد كاد يتجمّد في مياه فلتنافا، ثمّ نجا بأعجوبة من رصاص بافيل، ومن انفجار العتبة.

في الواقع، ما تعلّمه من كاثرين خلال العام الماضي عن الوعي غير نظّره إلى الموت... بحيث خفّف من رهبة الشيخوخة والفناء.

فكر في سرّه، مُستمتعًا بدفء رأسها على كتفه: *أنا لست في عجلة من أمري لاكتشاف ما ينتظرني.*

يوم أمس، في أثناء تجوالهما في فيشيهارد، صادفوا وعاء ذخائر يعرض عظمة كتف بشريّة يُزعم أنّها تعود إلى أحد القديسين، فباغتته كاثرين بسؤال بسيط في ظاهره: *كيف تُعرّف الموت؟*

لم يكن لانغدون قد فكّر يومًا في معنى الموت حرفيًا، فبقي صامِتًا لبضع لحظات، إلى أن أعطاها أخيرًا تعريفًا مُبسّطًا خجولًا لم يكن ليقبله من طلابه: *الموت هو غياب الحياة.*

غير أنها فاجأته بالقول إنّ جوابه قريب من التعريف الطبيّ الرسميّ: التوقف النهائيّ لجميع الوظائف الخلويّة. ثمّ أضافت أنّ هذا التعريف الطبيّ الرسميّ خاطئ؛ بنسبة مئة في المئة. قالت شارحة: "لا علاقة للموت بالجسد المادّي، فنحن نعرّفه من خلال الوعي. خذ مثلاً على ذلك مريضاً في حالة موتٍ دماغيّ على أجهزة الإنعاش، جسده حيّ تماماً من الناحية التقنيّة، ومع ذلك نقطع عنه روتينيّاً الدعم الحيويّ. فحين يختفي الوعي، نعدّ الجسد البشريّ ميتاً... حتى وإن كانت وظائفه الجسديّة سليمة".

قال لانغدون في سرّه: هذا صحيح.

تابعت: "والعكس صحيح أيضاً. فالمصاب بالشلل الرباعيّ، الذي فقد قدراته الجسديّة لكنّه ما زال واعياً، هو شخصٌ حيّ تماماً. كان ستيفن هوكينغ في جوهره عقلاً بلا جسد؛ تصوّر لو أنّ أحدهم اقترح قطع الدعم الحيويّ عنه!"

لم يسمع لانغدون الفكرة تصاغ بهذه الطريقة من قبل.

ختمت قائلة: "روبرت، لم نعد نستطيع إنكار الأدلّة المُتزايدّة على الوعي غير الموضوعي... لقد حان الوقت لإعادة تعريف الوعي بالكامل... وبالنتيجة، إعادة تعريف الموت".

أمل لانغدون أن تكون على حقّ، وآلاً يكون الموت حدثاً "نهائيّاً" كما يظنّ كثيرون. حينذاك، تذكّر تعاليم أسكليبيوس القديمة:

كثيرون يخشون الموت ويعدّونه أعظم المصائب التي قد تحلّ بهم، وهم لا يعلمون ما يقولونه. فالموت مجرد انفصالٍ عن جسدٍ أنهلكه الزمن... وكما يغادر الجنين رحم أمّه عندما يكتمل نموّه فيه، كذلك تغادر الروح الجسد.

حين كان لانغدون طالباً شاباً يدرس تاريخ الأديان المقارن، كان دائم الدهشة من عالميّة وعد الحياة بعد الموت؛ ذلك العهد الوحيد الذي جمع بين كلّ التقاليد الدينيّة التي صمدت في وجه الزمن.

هذه الفكرة تصلح ليومٍ آخر، قال ذلك في سرّه، بينما كانت السيارة تتباطأ أمام فندق فور سيزنز.

همس لكاثرين، بلطفٍ: "آيتها العسانة... لقد وصلنا".

* * *

اندفع فوكمان نحو الهاتف وأجاب قائلاً: "ألو؟!"

جاء الصوت الرجولي المألوف من الطرف الآخر: "جوناس، أنا روبرت، لقد عدتُ إلى الفندق منذ قليل. قال لي المدير إنك تتصل من دون توقّف".

صاح فوكمان: "صحيح! الانفجار في براغ! كنت قلقًا—"
"أنا آسف، كلانا بخير".

فتنفس فوكمان الصعداء. "أتعلم يا روبرت، معظم الكتاب يسببون لي التوتر بتأخرهم في تسليم مخطوطاتهم، أما أنت فلديك عادة مُزعجة من نوع آخر—"
ضحك لانغدون قائلاً: "شكرًا على اهتمامك، لكنني لم أكن قريبًا من موقع الانفجار".
قال فوكمان ساخرًا: "سعيد بسماع ذلك؛ وإن كنت لا أصدقك. فقد شهدت ميلك الغريب إلى الوجود دائمًا قرب الخطر".
"وأنا شهدت ميلك إلى الافتراضات المَرَضِيَّة".

ضحك فوكمان وقال: "ردّ سريع أكثر ممّا ينبغي... حتى بالنسبة إليك يا روبرت. كيف أعرف أنّك لست روبوتًا ذكيًا؟"

"لأنّ الذكاء الاصطناعيّ لن يعرف أنّك رفضت أحد أنجح الكتب في الأعوام العشرين الماضية لأنّ المؤلف استخدم عددًا كبيرًا من علامات الحذف".
"كفى! لقد قلتُ لك ذلك في جلسة سرّية!"

أجاب لانغدون مؤكّدًا: "نعم، وسأخذ هذا السرّ معي إلى القبر، لكن ليس اليوم".
قال فوكمان مُتفائلًا: "هل هناك أيّ خبر عن مخطوطة كاثرين؟"
أجابه لانغدون بصوتٍ واهن: "للأسف، لا... ليتني كنت أحمل أخبارًا أفضل..."

* * *

كانت الساعة تقارب السابعة حين أغلق لانغدون صنبور الدش البخاريّ في الجناح الملكيّ. ومع أنّ ليل براغ كان لا يزال في بدايته، إلّا أنّ ظلام الشتاء خيم على المدينة منذ وقت طويل، فاتفقا هو وكاثرين على التوجّه مباشرة إلى النوم.

لفّ منشقةً حول خصره وخرج من الحمام، فوجد كاثرين غارقة في حوضٍ من الفقاعات، تمدّ ساقًا نحيلة وتُمسك بموسى الحلافة.

تساءل في سرّه بدهشة: "أتخلق ساقَيْها؟" "هل سنخرج؟"

ضحكت كاثرين: "لا، يا روبرت، لن نخرج. ألا تعرف لماذا تحلق المرأة ساقَيْها قبل النوم؟"

تردّد قليلًا وقال: "آه... ظننتُ... أنّك مُرهقة".

قالت مُبتسمة: "كنتُ كذلك، لكن حين رأيتك تدخل الحمام، استيقظتُ تمامًا". ثم أشارت إلى عضلات بطنه المشدودة قائلة: "تبدو رائعًا، أيّها السباح... بالنسبة إلى سنّك".

قال مُحتجًا: "سني؟ أنت أكبر مني سنًا!"

"هل تريد فعلًا خوض هذا النقاش؟"

ضحك وقال: "لا، يا عزيزتي... لا أريد". اقترب من الحوض، وجلس على حافته، ثم وضع يده بحنانٍ على عنقها قائلاً: "ما عنيتُ هو أنك جميلة، وذكية، ومُضحكة... وأنا أعشقك". ثم عانقها برفق وهمس: "أراك بعد قليل".

* * *

أنهت كاثرين استعدادها، وخرجت من حوض الاستحمام وهي تفكر في سرّها: //الأمر محسوم... لقد وقعتُ في الحبّ.

كانت تشعر بأنّها ربما أحبّت لانغدون منذ زمن، لكنّ التوقيت المُناسب حلّ الآن. لم يعد هذا مُهمًّا؛ فالمهمّ أنّهما هنا، معًا، يستمتعان بهذه اللحظات.

وبعد أن جفّفت جسدها، مدّت يدها إلى أسفل المغسلة، وأخرجت علبة أنيقة كانت قد خبّأتها هناك في وقتٍ سابق. في داخلها ثوب النوم الأكثر أناقة الذي اشترته يومًا؛ قطعة من حرير سيمون بيريل، من مجموعة دريم. وقد تمَنّت أن يروق لروبرت هذا التصميم الجميل. أسدلت شعرها، وأسقطت المنشفة عن جسدها، ثم ارتدت ثوب النوم الخفيف. كان الحرير دافئًا وناعمًا على بشرتها، ينساب بطريقة مثالية حول جسدها. تركت عطرها المُعتاد بالاد سوفاج، واختارت القارورة الصغيرة التي جاءت كهديّة، عينة صغيرة من موهافي غوست. رشّت سحابة خفيفة في الهواء، وسارت عبرها ببطء، مُتَشَقِّقة عبير مسك شائتيّ ولمسة البنفسج الناعمة.

نظرت إلى نفسها في المرأة نظرة أخيرة راضية، ثم فتحت باب غرفة النوم. كان روبرت قد أطفأ الأنوار. ممتاز، فكّرت مُبتسِمة، وهي تدرك أن الضوء الخافت القادم من الخلف يُبرز خطوط جسدها. وقفت عند المدخل في وضعية فاتنة، تنتظر ردّة فعله.

غير أنّ الصوت الوحيد الذي أتاها كان إيقاع شخيرهِ المُنتظِم، الخافت...

الفصل 128

في شقة متواضعة بحي ديفيتسه، جلست دانا دانك وحيدة على أريكتها، تشاهد الأخبار على التلفاز. أعلن الجيش الأميركي مسؤوليته الكاملة عن انفجار فوليمانكا، الذي يبدو أنه ناجم عن مخزون هائل من الغاز الطبيعي جلبه المهندسون لتسخين الإسمنت الذي كانوا يصبونه ومعالجته. ووفقاً للعديد من خبراء البناء الخارجيين، هذه التقنية شائعة جداً، خاصة في الأماكن الرطبة تحت الأرض في الشتاء. وهذه الحادثة لم تكن الأولى من نوعها.

مع ذلك، بدأ المحللون السياسيون يشككون في صحة القصة. لكن، بصرف النظر عن سبب الانفجار، بدأ الجيش الأميركي يُغلق المنطقة بالفعل، ويستعدّ لعملية تنظيف واسعة النطاق.

فجأة، تناهت إليها طرقاتٌ على الباب، وصوتٌ رجولي يُنادي: "آنسة دانك؟ أنا الرقيب كيربل".

فوجئت دانا، فتقدّمت لتتظر من خلال العين السحرية. بالفعل، كان قائد فريق أمن السفارة واقفاً هناك. هل أنا في ورطة؟ لم يسبق أن زارها أحد من حرس المارينز في منزلها. كانت ترتدي سترة قطنية، وتضع نظارةً سمكية، من دون مساحيق تجميل، وتساءلت إن كان الرقيب سيتعرّف إليها بهذا المظهر.

فتحت الباب بحذر، فوجدت عنصر المارينز الشاب بملامحه الطفولية واقفاً على مسافةٍ لائقة منها. قال: "آنسة دانك، أعذر عن إزعاجك في المنزل. طلبت مني السفارة أن أنقل إليك مرةً أخرى أسفها العميق لوفاة الملحق هاريس. في الواقع، السفارة بأكملها في حالة صدمة، لكن السفارة أخبرتني أنكما كنتما صديقين مقربين".

"شكراً لك يا سكوت".

"يجدر بي أن أضيف أيضاً أن توقيف السفارة كان مُجرّد سوء فهم، وقد أُفرج عنها رسمياً مع اعتذارٍ كامل".

قالت دانا، مُشيّرةً إلى التلفاز خلفها: "ربّما ستندم على ذلك؛ فمن الواضح أنها ستكون في مأزقٍ كبير. حكومتك تتعرّض لهجومٍ إعلاميٍّ بالفعل".

"نعم، الوضع برّمته..."

قاطعته قائلة: "فوضوي؟"

فابتسم كيربل قائلاً: "كنتُ سأقول مُعقّداً سياسياً".

"إِذَا، عليك أن تحلّ محلّي في قسم العلاقات العامّة".

قال: "في الواقع، هذا سبب زيارتي. إذ تأمل السفارة بشدّة أن تعودني إلى عملك لتتولّى إدارة العلاقات العامّة في هذه الأزمة".

قهقهت دانا بصوت عالٍ: "سكوت، هل تُدرِك ما مرّرتُ به اليوم؟! صوّبت امرأة سلاحاً إلى وجهي، وقُتل صديقي خنقاً، واعتُقلت السفارة الأميركيّة أمامي، وطُرِدْتُ من مبنى السفارة، وانفجر متنزّه فوليمانكا! هل نسيْتُ شيئاً؟!"
تنهّد كيربل وقال: "أعلم يا دانا، أعترف أنّ هذا اليوم كان..."
"معقّداً سياسياً؟"

"كنتُ سأقول... فوضويّاً بحقّ".

ابتسمت وسألته: "إِذَا، ما الذي يحدث حبّاً باللّه؟"

"لا أملك كلّ التفاصيل، عليك أن تسألِي السفارة بنفسك غداً حين تعودين إلى العمل".

"هل هذه طريقتك في الإقناع؟"

"لم أكن يوماً تاجراً ماهراً. فقط... فكّري في الأمر، أرجوك".

"سأفعل. ليلة سعيدة".

لكن، حين همّت بإغلاق الباب، تقدّم كيربل خطوة وقال: "في الواقع، كنتُ أتساءل إن كان بإمكانني إلقاء نظرة على ذلك الصندوق الكرتوني". وأشار بيده إلى داخل غرفة الجلوس. هناك، وضعت صندوق أغراضها التي أحضرتها من المكتب. "أظنّ أنّ فيه حقيبة دبلوماسيّة تخصّ السفارة، ربّما سقطت في صندوقك عن طريق الخطأ. هل يمكنني الدخول؟"
تذكّرت دانا عدداً لا يُحصى من محاولات المُغازلة الرخيصة التي تعرّضت لها، ولولا أنّها كانت تحترم كيربل وتحمل له تقديراً حقيقياً، لظنّت أنّ هذه واحدة منها. مع ذلك، أشارت له لينتظر عند العتبة، وقالت: "سأنظر بنفسي".

تقدّمت نحو الصندوق، وبدأت تبحث في محتواه، لتُفاجأ بوجود حقيبة دبلوماسيّة مختمة موجهة إلى السفارة هايدة ناغل. وكانت عليها ورقة صفراء كُتب عليها:

د — لا تخبري أحداً بهذا؛ ثمة من سيتواصل معك.

استدارت إليه مذهولة: "ما هذه؟! ولماذا هي في صندوقي؟!"

أجاب بهدوء: "أنا آسف. أنا من وضعتها فيه... والآن أحتاج إلى استعادتها".

* * *

في مبنى السفارة الأميركية، جلست هايدة ناغل وحيدة في مكتبها، تحدّق إلى كأسها الفارغة. نادرًا ما كانت تحتسي الشراب، ولم يسبق لها أن شربت كأسين في يومٍ واحد. إن لم يكن اليوم... فمتى إذًا؟

كانت قد توصّلت إلى اتفاق مع المدير - هذنة مُؤقّعة - لكنها لن تتخلّى عن وسيلة الضغط التي تملكها، أو تمنحه ثقتها العمياء. ما زلتُ أحتفظ بشريحة الذاكرة التي تحتوي على الفيديو.

كان كيربل قد ذهب ليستعيدها من دانا، ومن وقع الخطوات التي ترتقي الدرج الرخامي الآن، يبدو أنّه عاد... لكنّ الوجه الذي ظهر عند الباب لم يكن وجهه، بل كان لأحد حراس المارينز الجدد في السفارة.

قال الشابّ باضطرابٍ واضح: "سيّدي، آسف على الإزعاج، لكن لدينا حالة عند الباب الرئيس تستلزم حضورك".

تنهّدت ناغل وقالت: "لا مزيد من الحالات اليوم، من فضلك. دَع فريقك يتولّى الأمر".

فأجاب برّد: "لسنا مؤهلين رسميًا، سيّدي. إنّها... مسألة دبلوماسية".
شعرت ناغل أنّ رأسها يلقه الضباب. مسألة دبلوماسية... عند الباب الرئيس؟
دخل الحارس، ومدّ يده إليها بورقة صغيرة. "هذه لك".
تناولتها ناغل، ونظرت إلى الكلمات المكتوبة بخطّ يدويّ واضح.

САША БЕЧА

قالت بتبرّم: "لا أعرف ما هذا. أنا لا أتحدّث الروسية".
بدت الحيرة على وجه الحارس وهو يقول: "قالت لي إنّها واثقة من أنّك ستعرفين من تكون".

"المعذرة، من؟"

"المرأة الروسية عند الباب. طلبت أن تتحدّث إلى مايكل هاريس".
امرأة روسيّة تبحث عن مايكل؟ هنا؟ الآن؟

قال الحارس مُشيرًا إلى الورقة في يدها: "طلبتُ منها أن تكتب اسمها، وأعتقد أنّه يُنطق ساشا فيسنا".

الفصل 129

شعر الرقيب كيربل بالإرهاق وهو يتعد بسيارته عن شقة دانا. فشغل مذياع السيارة، ورفع الصوت ليبقى مُثَقِّطًا. كانت الحقيبة الدبلوماسية على المقعد بجانبه، وبحسب الأوامر، سيسلمها للسفيرة فورًا.

في منتصف الطريق حول الدوّار الضخم في ساحة فيتزني، شعر كيربل باهتزاز هاتفه في جيبه، فأخرجه وتحقّق من هوية المُتّصل، ليجد رقمًا داخليًا للسفارة الأميركية. قال وهو يُخَفِّض صوت المذياع: "كيربل يتحدث".

جاءه صوت امرأة مألوف، لكنّه بدا مُفَعَّمًا بالذعر على غير عادته. "حمدًا لله أنّك أجبت!" تصلّب كيربل على مقعده فورًا: "سيّدي السفيرة، هل كلّ شيء على ما يرام؟" قاطعته قائلة: "أين أنت الآن؟!"

كانت نبرتها غريبة تمامًا، وشعر أنّها ربّما احتستت الشراب؛ وهذا أيضًا سلوك غير مُعتاد. قال: "أنا أعاد ديفتسه، وبحوزتي الغرض الذي طلبته، وأنا في طريقي إلى—" "أريد منك القيام بأمر عاجل آخر!"

وبينما كانت تشرح له ما تريده، شعر كيربل بوجود خطب ما، وأنّ أمرًا خطيرًا يحدث. فقال مُتعمّدًا: "سيّدي، أنا لا أسمعك جيّدًا. هل أنت في المدينة؟ هل خرجت لشراء بعض الحاجيات؟" كان يُنفذ البروتوكول الأمني المُتفق عليه. صرخت بانفعال: "حبًّا بالله يا سكوت! أنت تعرف أنّي لا أخرج لشراء حاجياتي! نفّذ ما طلبته منك فحسب!"

* * *

في تلك الأثناء، كان قلب السفيرة هايدة ناغل يخفق بعنف وهي تهبط الدرجات الرخامية الواسعة المؤدّية إلى بهو السفارة الفخم.

عادةً، يقف جندي مارينز واحد في القاعة الفاصلة بين السفارة والشارع، لكن الليلة، وبناءً على طلبها قبل دقائق، وقف ثلاثة جنود أقوياء في المكان، ينتظرونها. وبدا الارتياح على العريف المسؤول حين رآها تقترب.

إلى جانبهم، وقفت امرأة شقراء ترتدي بنطال جينز ومِعطفاً سميكًا، وتتعلّ حذاء رياضيًا. كان شعرها المُبْتَلّ أشعث، ووقفها غير مُتَرَنّة، كما لو أنّها مُرهقة إلى حدّ الإنهاك، أو حتّى مُصابة.

عرفت ناغل المرأة على الفور، إذ كانت قد رأت صورتها من قبل.

إنها ساشا فيسنا... وتبدو وكأنها خرجت من معركة.

سببت لها رؤية المرأة الروسية أمامها، حياة ترزق، وإن تكن مُرهقة، صدمة كبيرة، لا سيما في ضوء ما عرفته من لانغدون وسولومون عن شخصيتها المُركبة. إن كانت ساشا تُعاني فعلاً من اضطراب الهوية الانفصالية، فعليها الآن - مهما بدا الأمر غريباً - أن تكتشف الهوية التي جاءت بها إلى السفارة.

قالت ناغل بنبرة دبلوماسية حذرة، مُحافضةً على مسافة أمان: "آنسة فيسنا، أنا السفيرة ناغل. أبلغتُ بأنك تبحثين عن مايكل هاريس".

قالت المرأة بصوتٍ ضعيف، مشوبٍ بلكنة روسية ثقيلة: "نعم... مايكل صديقي. طلب مني، إن واجهتُ خطراً، المجيء إليه هنا". كانت ترتجف برذاً، وصوتها يتهدج وهي تُضيف: "وأظن... أنني في خطر".

ودت ناغل لو تصرخ في وجهها: أظنّين أنك في خطر؟! لقد قتلت مايكل هاريس، ونسفتِ مُنْشأة حكومية سرّية! لكن حين فتحت فمها للتحدّث، خرج صوتها هادئاً ومُتزنّاً: "يؤسفني إخبارك أنّ مايكل غير موجود الآن". وأظنّك تعرفين، أساساً!

سألته ساشا: "هل سيعود قريباً؟ قال مايكل إنه بإمكانني المجيء من دون موعد إذا شعرت بأنني في خطر".

سألته السفيرة: "وهل أنت في خطر فعلاً؟"

همست ساشا وهي على وشك البكاء: "نعم... أظنّ ذلك".
"ممن؟"

قالت ساشا وهي تبكي بحرقة: "لا أعرف! لا أعرف ما الذي حدث لي! أنا مُشوْشة... لا أتذكر شيئاً... كل ما أعرفه أنني بحاجة إلى مكان آمن!"

سألته ناغل: "هل تطلين اللجوء؟"

أجابت وهي تتقدّم خطوة نحو ناغل: "لا أعرف ما معنى ذلك، أنا أحتاج فحسب إلى..."

صرخت ناغل فجأة: "ساشا، توقّفي!" فيما تحرّك جنديّان من المارينز على الفور، ووقف بين المرأتين، فتجمّدت ساشا في مكانها وقد بدت على وجهها أماراتُ الذعر، خشية أن تكون قد ارتكبت خطأً.

قالت السفيرة وهي تستعيد هدوءها: "آنسة فيسنا، أودّ مساعدتك، لكنني سأطلب منك أولاً الإصغاء إليّ بانتباهٍ شديد؛ فالأمر غاية في الأهمية".

أومات ساشا برأسها موافقةً.

تابعت ناغل: "تُعَدُّ هذه السفارة أرضاً أميركية، وحين يطلب شخصٌ غيرٌ أميركيّ ملجأً آمنًا على أرضٍ أميركية، نُسَمِّي هذا طلبَ لجوءٍ سياسيٍّ. وتتطلبُ جميع طلبات اللجوء مُقابلةً فوريةً لتقييم الحالة، يُجرىها موظفٌ قنصليٌّ رفيع المستوى... أي أنا".

أومات ساشا من جديد.

تابعت ناغل: "القواعدُ التي تُنظِّم هذه المُقابلات صارمةٌ للغاية. إذ يفرض علينا الإطار القانوني لطلبات اللجوء إجراءً يُسمى التقييد المُنضبط".

رمقها أحدُ الحراس بنظرةٍ حائرة، ولم يكن هذا غريبًا، فقد كانت تتكلم ارتجالًا.

قالت السفيرة: "أنتِ لستِ في ورطة، آنسة فيسنا، مهما بدا الأمر كذلك. فالتقييد المُنضبط مُجرّد إجراء احترازيٍّ لضمان سلامتك، وسلامة موظفي السفارة—"

قالت ساشا وهي تمدّ يديها للأمام: "فهمت، لا بأس إن قيّدتموني".

نظرت إليها ناغل وقد دُهِلت من تعاونها الفوريّ. "شكرًا لتعاونك"، ثم تابعت بنبرةٍ رسمية: "سيقوم فريقِي الآن بتقييدك وفقًا لإجراء اتنا، ثم ستُنقلين إلى غرفة اجتماعاتٍ آمنةٍ مُغلقة. وهناك، ستحصلين على الطعام والماء وإمكانية استخدام الحمام والعناية الطبية إن احتجت إليها".

تردّد الحراس قليلًا، إلى أن رمقتهم ناغل بنظرةٍ حادة جعلت العريف يتحرّك فورًا.

وخلال ثوانٍ قليلة، كانت الأصفاة البلاستيكية قد أُحكمت حول معصمي ساشا الممدودين، واقتادها الحراس عبر الحاجز الأمنيّ بهدوء.

ابتعدت عنهم ناغل، وألقت نظرة خاطفة على ساعتها فوجدت أنها تشير إلى الثامنة والنصف مساءً. قالت بنبرةٍ رسمية: "سأنضمّ إليك حالما أستطيع، آنسة فيسنا. قد يستغرق الأمر بعض الوقت، لكنّ فريقِي سيحرص على حصولك على الدفء والطعام".

قالت ساشا بصوتٍ مُرتجف، والدموع ما زالت تترقرق في عينيها وهي تمرّ قرب السفيرة: "شكرًا لك على لطفك".

وقفت ناغل لحظةً تلتقط أنفاسها قبل أن تصعد الأدراج من جديد، مُدركةً أنّ أمامها قراراتٍ غير متوقّعة وكبيرة، وعليها اتّخاذها بسرعة.

الفصل 130

كانت أرصفة مانهاتن تلمع تحت قدمي فوكمان وهو يسير صُعودًا في شارع برودواي. فقد توقّف المطر الذي هطل بعد الظهيرة أخيرًا، وحن وقت العودة إلى المنزل.

كانت مكالمته مع براغ قصيرة؛ إذ بدا لانغدون مُتحمّضًا في الحديث عبر الهاتف. طمأنه بأنه وكاثرين بخير، وأبلغه أيضًا أنهما يُفكّران في التوقّف في نيويورك في طريق عودتهما، ليتناقشا وجهًا لوجه بشأن كلّ ما حدث في ما يتعلّق بالمخطوطة.

فكّر فوكمان بأسى: ما من شيء لمناقشته تقريبًا. فحتى لو استطاعت كاثرين أن تُعيد كتابة كتابها بالكامل، من المؤكّد أنّ وكالة الاستخبارات المركزية سيكون لها رأي في ذلك. في الواقع، كان فقدان هذا الكتاب خسارة مهنيّة كبيرة بالنسبة إليه، ومع ذلك، شعر ببعض العزاء لأنّ روبرت وكاثرين على قيد الحياة.

حين اقترب من دوّار كولومبوس، فاحت رائحة البنّ المُحمّص الداكن في الهواء، فدخل أحد أكثر فروع "ستاربكس" ازدحامًا في المدينة. إن كان ثمة يومٌ يستحقّ جرعةً إضافيّةً من الكافيين قبل العودة إلى البيت، فهو هذا اليوم.

قال في سرّه وهو يُقدّم طلبه: مع كامل الاعتذار لروبرت.

في الواقع، كان بروفيسور جامعة هارفارد قد قاطع ستاربكس منذ زمن، مُحتجًا بأنّها ترتكب "إساءةً فاضحة باستخدامها رمزًا كلاسيكيًا".

ابتسم فوكمان وهو يتأمل الشعار المألوف المطبوع على كلّ كوب في المقهى.

يومذاك، كان لانغدون قد احتجّ قائلاً: "لحورية البحر في شعار ستاربكس ذيلان! وهذا يعني أنّها ليست حوريّة بحر كما يظنون، بل سيرين؛ أي غاوية شريرة تُغري البحّارة ليتبعوها نحو الغرق والموت! وأنا لا أثق بشركةٍ لم تُجر أيّ بحثٍ أيقونيّ قبل أن تُزيّن مشروباتها بوحشٍ بحريّ قاتل!"



دع الأمر لعالم الرموز ليُفسد عليك مُنعة فنجانٍ جيّدٍ من القهوة، فكّر فوكمان في ذلك مُبتسمًا، من دون أن يشعر بأيّ ذنب وهو يأخذ أوّل رشفةٍ من فنجان "فلات وايت" الأشهى في المدينة. بعد ذلك، رفع ياقة معطفه الرماديّ العتيق، وغادر المقهى مُتّجهًا نحو بيته.

الفصل 131

في ظلام الليل، كان روبرت لانغدون يطفو عاليًا فوق براغ. نظر إلى جسر كارل في الأسفل، فرأى مصابيح الغاز مُصطفَّة كعقدَيْن من اللؤلؤ فوق النهر الأسود. بلا وزنٍ ولا إحساسٍ، انساب مع التيار، عابرًا فوق الشَّلَال، وهو لا يشعر بشيء سوى انزعاج طفيف من قرع بعيد. ومع ازدياد الصوت قوَّة، شدَّته الجاذبيَّة فجأة، فوجد نفسه يسقط إلى الأسفل مدعورًا... ويُسرِع نحو مياه النهر المُتجمِّدة... إلى أن حطَّم سطحها الأملس.

استفاق مُجفلًا، وجلس في السرير مُتعبجًا؛ لأنَّه لم يُدرِك أنَّه كان يحلم. لطالما حيره ذلك التناقض العجيب؛ أي قدرَةُ العقل البشريِّ على تَقَبُّل مَوْقِفٍ مُستحيل تمامًا بوصفه واقعًا، مُتجاهلًا كلَّ ما يُناقِض المَنطق، من دون أن يشكَّ لحظةً في أنَّ ما يحدث غير حقيقيِّ. استفاق تمامًا تحت تأثير الأدرينالين الذي خلَّفه الحلم، فألقى نظرة على غرفة الفندق المُعتمَمة. كان السكون يعمُّ المكان، باستثناء أنفاس كاثرين الهادئة بجانبه. كانت رائحة عطرها الاستوائي لا تزال عابقة في الأجواء، ولا يزال يشعر بلمس الحرير الناعم الذي كانت ترتديه حين جلست على حافة السرير وهمست: "أسفة لأنني أيقظتك، بروفيسور..." ما زال يشعر بوهج تلك اللحظة.

دكتورة سولومون، لا تترددي في إيقاظي بتلك الطريقة في أي وقت. نهض بهدوء، وارتدى ثوب الحمام، ثم اتجه إلى غرفة الجلوس. شعر بخيبة حين رأى الساعة تُشير إلى التاسعة مساءً. لم أنم تقريبًا.

نظر من النافذة العريضة إلى المدينة، مُدركًا أنَّ حلمه الغريب لم يكن مُفاجئًا حقًا. فدماغه ما زال يُحاول مُعالِجة الصدمة التي عاشها عندما قفز من هذه النافذة نفسها إلى مياه النهر الجليديَّة.

في الواقع، لطالما افْتُتِن لانغدون بالأحلام، وقد أدهشه اليوم ما قالته كاثرين عن اكتشافها لما يُسببها فعلاً. فقد كشفت تجاربها أنَّ الدماغ في أثناء الحلم يشبه الدماغ المُحتَصَر؛ ففي الحالتين تنخفض مستويات مادة GABA، فتضعف مُرشحات الدماغ، وتفتح بوابات الإدراك على نطاقٍ أوسع. وتدقُّ المعلومات غير المُصفاة هو ما يجعل الأحلام فوضى من الصور والأفكار غير المُنطقيَّة. وهذا أيضًا ما يُفسِّر سبب تلاشي حتَّى أكثر الأحلام وُضوحًا بعد لحظاتٍ من الاستيقاظ، على الرغم من مُحاولتنا المُستميَّة

لتذكّرها؛ إذ يُعيد الدماغ ضبط نفسه، فترتفع مستويات GABA من جديد، وتُغلق المُرشّحات... لتصفّي المعلومات، وتنظّم إدراكنا للواقع مُجددًا.

وبحسب كاثرين، الموت يشبه الحلم كثيرًا. ففي الحلم نشعر غالبًا بأننا بلا وزن، قادرون على عبور الحواجز، أو الطيران في الهواء، أو الانتقال من مكانٍ إلى آخر؛ أي أننا نصبح وعيًا خالصًا...

حين يتحرّر الوعي من قيوده، تتسع قدرات الإدراك.

كان لانغدون لا يزال واقفًا عند النافذة حين بدأت كلّ هواتف الجناح ترنّ في آنٍ واحد، فاندفع إلى الهاتف في غرفة الجلوس، والتقط السماعة، راجيًا ألا تكون كاثرين قد استيقظت.

قال صوت مألوف: "سيد لانغدون، معك مدير المُناوبة الليلية. آسف إن أيقظتك. فقد طرقتُ الباب، لكن لم يجب أحد".

الطُرقات في حلمي. "نعم، هل كلّ شيء على ما يرام؟"

أجاب المدير الذي بدا في صوته توتر واضح: "لا أدري، سيدي. ثمة جنديّ من المارينز يدعى كيربل من السفارة الأميركية، يقول إنّه من الضروريّ أن تُقابل السفيرة فورًا".

* * *

في قاعة اجتماعات مُغلقة في السفارة الأميركية، نظر الغولم إلى القيود المُثبتة حول معصميه. قال في سرّه: لن أدع ساشا ترى نفسها مُقيّدة. لقد عانت من ذلك بما فيه الكفاية خلال سنواتها في المصحّة. فمنذ مغادرته أنقاض العتبة، لم يُعد الغولم ساشا إلى واجهة عقله بعد، غير أنّ تلك اللحظة كانت تقترب بسرعة.

كلّ شيء يسير وفق الخطة.

فمع أنّ ساشا كانت فعليًا سجينّة في الوقت الراهن، إلّا أنّ الغولم واثق من أنّ السفيرة ستحوّل قريبًا إلى حليفة مُتعاطفة معها.

اعتراف غُسْنِر كشف كلّ ما كنتُ أحتاج إلى معرفته.

فخلال الاعتراف، أصرت غُسْنِر قائلة: "السفيرة ناغل لا تعلم شيئًا، ولو عرفت ما يجري هنا، لأصيّت بالربّ! وجودها في براغ أصلًا خدعة من فينش؛ فقد احتاج إلى دبلوماسيّة إلى جانبه!"

فقرّر الغولم حينها: وأنا أحتاج إلى مثلها أيضًا.

ولهذا السبب تواصل معها.

أرجوك، ساعدي ساشا.

لم يشك لحظة في أنّ السفيرة كانت الآن تُحاول فهم ما تعنيه "مساعدة ساشا" بالضبط، غير أنها ستدرك قريباً أنّ ثمة خياراً واحداً متاحاً لا غير. فقد زرع الغولم الفكرة لديها بعناية مُتناهية، وها قد بدأت تنمو في عقلها.

فقبل دقائق فقط، نطقت السفيرة بالكلمة الوحيدة التي كان ينتظر سماعها.
اللجوء.

الفصل 132

أمضت هايدة ناغل حياتها المهنية بأكملها في خدمة وطنها. ولأنها تدرّبت على التفكير الدائم في الصالح العام، نادرًا ما كانت تفكر في نفسها فقط. لكن في تلك اللحظة، كان التفكير في نفسها هو ما تفعله تحديدًا.

كانت قد اتخذت قرارًا بالاستقالة من منصبها كسفيرة ومغادرة براغ. فهذا ما أرادته منذ سنوات. ولكن الآن، فجأة، تغير عالمها. فقد رحل فينش، وأصبحت قادرة على الصمود حتى في وجه أعنف العواصف السياسية.

لكن المفاجأة بالنسبة إلى ناغل أن وعد النجاة لم يجلب لها أي راحة... بل جلب خواءً داخليًا ينهشها منذ ساعات.

يجب أن يكون لحياتي هدف أعظم من مجرد... البقاء.
وما لبثت ساشا فيسنا أن دخلت من باب السفارة.

* * *

شعرت كاثرين سولومون كأنها كانت غارقة قبل لحظات فقط في حلم هادي عميق ومُفعم بالرضا، قبل أن تُنتزع فجأة إلى ضوء الواقع القاسي.
ما الذي نفعله هنا؟!

كان الرقيب كيربل قد أوصلهما منذ قليل إلى مكتب السفارة ناغل، التي وقفت خلف طاولة صغيرة، وراحت تصب القهوة في ثلاثة فناجين خزفية فاخرة تحمل شعار السفارة الرسمي. قالت وهي تُقدّمها: "أعتذر مُجددًا عن استدعائكما في هذا الوقت المتأخر، لكنني أخشى أن تطورات كبرى حصلت خلال الساعة الماضية، وأودّ إطلاعكما عليها فورًا. فالمعلومات عاجلة... وحساسة للغاية".

قال لانغدون: "وهل ستخبرتنا بها هنا؟ ظننت أنك ما عدت تثقين بخصوصية السفارة". أجابت: "ما زلت لا أثق بها، لكن الأمور تغيرت. فالمعلومات التي سأشارككما إياها لا خيار لدي سوى مشاركتها مع مدير وكالة الاستخبارات أيضًا"، ثم حملت الصينية، وسارت بها نحو ركن الجلوس، قبل أن تُضيف: "وإن كان يُصغي الآن، فليكن".
عندئذٍ، سألتها كاثرين، وقد ساورها إحساس مُقلق بأن حليفتهما الوحيدة ربّما تُعيد النظر في هذا الحلف: "ما الذي تغير؟"

قالت مُشيرة إليهما للجلوس: "التطوّرات كثيرة، لذا سأبدأ بتلك التي تمسّكما مباشرة".

لم يَرُق لكاثرين وقع العبارة.

"لقد أبلغتُ أنّ قوّةً عسكريّةً أميركيّةً خاصّةً في طريقها الآن من قاعدة رامشتاين الجويّة في ألمانيا، وستصل خلال وقتٍ قصير لتفرض طوقاً رسمياً حول متنزّه فوليمانكا، وتبدأ عمليّات التنظيف". وضعتُ الفناجين على الطاولة، ثمّ جلستُ قبالتهما، ونظرتُ إليهما بجديّة، وتابعتُ قائلة: "كما علمتُ أنّ فريقاً من وكالة الاستخبارات المركزيّة سيأتي من لانغلي للبدء بتحقيق سرّي حول المسؤول عن الانفجار. وقد أُخطِرْتُ بأنّ التحقيق سيبدأ بكما".

صاحت كاثرين مذهولة: "بنا نحن؟!!"

أومأت السفيرة برأسها ببطء. "يملك الجيش الأميركيّ صورةً تُؤكّد أنّ مدنيّين غير مُصرّح لهما بالدخول - أنتِ والبروفيسور لانغدون - تمّ رصدُهما وهما يُغادران المنشأة بعد دقائق فقط من الانفجار".

تبّأ. تبادلَت كاثرين نظرةً مُتوتّرةً مع لانغدون.

وأضافت ناغل: "لقد دخلتما المنشأة بطريقة غير قانونيّة، ممّا يضعكما موضع شُبّهة في ما يتعلّق بأعمال التخريب، كما أنّ وجود خلافٍ بينكما وبين وكالة الاستخبارات بشأن المخطّوطة قد يُعتبر دافعاً مُحتملاً للانتقام..."

قاطعها لانغدون بحدّة: "لكن، ماذا عن الفيديو؟ اعتراف الدكتور غِسْنِر الذي قلتُ إنّهُ -" قالت السفيرة بنبرة حازمة: "نعم، لدينا ورقة ضغط؛ بمقدوري حمايتكما، وسأفعل. السّؤال الآن: كيف نحميكما بأفضل طريقة مُمكنة؟ والإجابة تعتمد على ما سنفعله خلال الساعات القليلة المُقبلة".

قال لانغدون: "حسنًا، وهل لديك خطّة؟"

أومأت قائلة: "لديّ خطّة، وأظنّ أنّها لن تُعجّبكما للوهلة الأولى. لذا، قبل عرضها عليكما، ثمة أمور عليّ إيضاهاها عن وكالة الاستخبارات المركزيّة... وعن طبيعة ما نُواجههُ".

تناول كلّ من كاثرين ولانغدون فنجانيّتهما في اللّحظة نفسها. فعلى ما يبدو، لا نوم في الأفق هذه الليلة.

قالت ناغل: "في اتّصالي الأخير بمدير الوكالة، أكّد لي أنّ مشروع العتبة هو بالفعل استمرارٌ لعملٍ باشّرت فيه الوكالة منذ عقود؛ بدأ كمُحاوَلَة بدائيّة لدراسة الرصد الذهنيّ من بُعد، أي مشروع ستارغيت، كما ذكرْتُما سابقاً. لكن مع مرور الوقت، تطوّر المشروع إلى

برنامج أوسع بكثير؛ في سعي للإجابة عن بعض الأسئلة الأكثر إلحاحًا بشأن مُستقبل البشرية تتعلق بمعظمها بطبيعة الوعي البشريّ وقدرات العقل".

قاطعتها كاثرين قائلة: "مع احترامي، لكنني لستُ واثقة من أن جهازًا للاستخبارات العسكرية هو الجهة الأنسب لاستكشاف أعمق أسئلة الإنسان الفلسفية".

شبكت ناغل أصابعها، وبدا عليها التوتر وهي تقول: "دكتورة سولومون، الأمر لا يتعلق بمسائل فلسفية. لا أقصد الإساءة، لكنك والأستاذ لانغدون تتمتعان برفاهيّة دراسة العلوم والتاريخ في أروقة الجامعات بفضل كفاءة أجهزة استخباراتنا الوطنية. أنا أقدر تمامًا أهميّة العلم الخالص، لكنّ ما يحميننا من أعداءٍ قد يمحون وطننا من على وجه الأرض إن أُتيحت لهم الفرصة هو تطبيق ذلك العلم، لا التأمل فيه".

شهدت كاثرين استعدادًا للردّ، غير أنّ السفيرة لم تكن قد أنهت كلامها بعد، إذ تابعت بنظرة ثابتة: "مدير الوكالة على قناعة تامّة بأنّ مُستقبل أميركا يعتمد على أن نكون الرّواد في استغلال قدرات الوعي البشريّ. ولم يتردّد في تذكيري بأنّه، عندما توقع آينشتاين للمرّة الأولى الطاقة الهائلة الكامنة في الذرّة، ضخّت الحكومة الأميركيّة ملايين الدولارات في أبحاثٍ سرّيّة في الفيزياء، وكنا أول من توصل إلى القنبلة الذريّة. تخيلي لو لم نفعّل، تخيلي لو امتلكتها روسيا وحدها، أو ألمانيا، أو اليابان".

اضطّرت كاثرين إلى الاعتراف في قرارة نفسها بأنّ الحُجّة منطقيّة، فيما تابعت ناغل قائلة: "السباق الحاليّ للسيطرة على طاقة العقل البشريّ لا يختلف عن ذلك. فالروس باتوا قادرين اليوم على قراءة الموجات الدماغية بالموجات فوق الصوتيّة، والصينيّون يطلبون أعدادًا هائلة من غرسات نيورالينك الدماغية. وفي حين إنّ حملات التواصل الاجتماعيّ الآليّة تؤثر في انتخاباتنا، اكتشفنا حديثًا ما يبدو أنّه تقنيّات للتحكّم بالعقول مُضمّنة في تطبيقات تواصل اجتماعيّ أجنبيّة. لا تُخطئي الفهم، نحن في سباقٍ سرّيّ بلغ ذروته بالفعل. وبصراحة، من الأفضل لنا أن نفوز فيه".

استندت السفيرة إلى ظهر مقعدها، وارتشفت قهوتها ببطء.

قالت كاثرين بنبرة مُعتدلة: "أعتذر إن بدا تعليليّ وكأنّني لا أقدر عمل الوكالة، أو أجهل طبيعة الصراع العالميّ؛ في الحقيقة، لم أقصد ذلك. كنت أُشير فحسب إلى المعضلة الجوهرية في ادّعاء التفوّق الأخلاقيّ في الوقت الذي تُجرى فيه جراحات دماغية على أشخاصٍ من دون علمهم أو موافقتهم".

أجابت ناغل: "وأنا أوافقك الرأي تمامًا. المُشكلة أنّ المدير جاد لم يُبلّغ قطّ بحصول حالة وفاة، ولا بأساليب فينش في تجنيد الخاضعين للتجارب".

قال لانغدون بدهشة: "لا يمكنك أن تصدّقي هذا فعلاً!"

هزّت كتفيها: "سواء أخبره أم لم يفعل، فمديرو وكالة الاستخبارات غالباً ما يُضطَرّون إلى صرف النظر عن ذلك. إذ إنّ الأمن القوميّ عالمٌ تُبرّر فيه الغايةُ الوسيلةَ. من السهل أن تثوري إلى أن تري البدائل بنفسك. فأحياناً يكون الخيار الأفضل ببساطة... أحلى الأمرين". قال لانغدون بصوتٍ خافت: "سيدتي السفيرة، أنا وكاثرين نقدر تماماً تعقيدات المهامّ المُلقاة على عاتق وكالة الاستخبارات، لكنك استدعيتنا إلى هنا لأننا في خطر، وذكرت أنك تملكين خطةً لحمايتنا... تعتمد على ما سنفعله خلال الساعات المُقبلة؟"

أومأت ناغل وهي تضع فنجانها برفق على الطاولة، وقالت: "صحيح. الموقف مُعقّد، لكنني فكّرت في طريق يمكن سلوكه؛ طريق مستقيم، وشريف". انحنت قليلاً إلى الأمام، ونظرها على لانغدون، ثم تابعت: "لكن لتنفيذه، سأحتاج إلى مساعدتك، بروفيسور". بدت الحيرة على وجه لانغدون.

قالت السفيرة: "منذ نحو نصف ساعة فقط، دخلت ساشا فيسنا هذه السفارة... وهي حيةٌ تُرزَق".

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 133

هل طلبت اللجوء؟!

راح لانغدون يذرع مكتب السفارة جيئةً وذهابًا مُحاولًا ترتيب أفكاره. فخبّر نجاة ساشا وتره؛ على المستويين الجسدي والعاطفي معًا. صحيح أنه شعر بالارتياح لكونها على قيد الحياة، لكن وجودها طرح سلسلةً مُقلقةً من الأسئلة الدقيقة.

أول ما شغل ذهنه هو السؤال: هل تمثل خطرًا؟ غير أن السفارة طمأنته بأنها عالجت الأمر مؤقتًا بتقييد ساشا وحبسها داخل قاعة اجتماعات تحت الحراسة. بدا الإجراء قاسيًا بعض الشيء، لكن بالنظر إلى ما حدث، لم يكن أمام ناغل خيارًا أفضل.

ما حيره أكثر كان سبب طلب ساشا اللجوء إلى الحكومة نفسها التي أساءت إليها. إلا إذا كانت لا تعرف ما فعلوه بها؟ والاحتمال الآخر، أن من دخل السفارة لم يكن ساشا بل شخصيتها الأخرى، وهو ما لم يكن منطقيًا أيضًا؛ فبديل ساشا أراد حمايتها، لا تسليمها طوعًا إلى أيدي الحكومة الأميركية.

عاد لانغدون إلى مقعده بجانب كاثرين، فيما كانت السفارة تصبّ مزيدًا من القهوة، وقالت: "ذكرتني الدكتورة سولومون الليلة أن ساشا وشخصيتها البديلة هما في الحقيقة شخصان مختلفان، ويجب التعامل معهما على هذا الأساس، فحاولتُ استيعاب الفكرة. ومع صعوبة ذلك، خلصتُ إلى أن ساشا فيسنا - إذا نظرنا إليها بمفردها - ضحيةٌ بريئة. فقد كانت طفلة مُصابة بالصرع، أُودعت في مؤسسة، وتعرّضت لانتهاكات جسدية ونفسية في برنامج سرّي استغلّ جسدها، وربما فاقم اضطرابات العقلية حتى بلغت ما هي عليه اليوم".

قالت كاثرين: "أتفق معك تمامًا، فهي بلا شك ضحية".

تابعت السفارة مُشيرة إلى الملاحظة الموضوعة على الطاولة أمامهم والمكتوبة بخط اليد: "ولدينا هذه".

أرجوك، ساعدي ساشا.

تابعت قائلة: "مع أنني لست مُعتادة على تلقي الأوامر من قتلة، إلا أنني فكرتُ كثيرًا في هذا الطلب. وبالنظر إلى الظروف، يبدو لي أن مُساعدة ساشا ستكون الخيار الأخلاقي الصحيح".

فكر لانغدون في سرّه: واجب إنساني.

تهتدت السفارة وأردفت: "لكنّ المشكلة هي أنّ ساشا فيسنا ليست شخصًا واحدًا؛ إنّها ضحيّة بريئة... وقاتلٌ ماكرٌ في آنٍ واحد. لذا، لا يمكن منح الأولى اللجوء وملاحقة الثاني قضائيًا. وسواء أدركت ذلك أم لا، فهي تؤوي مجرمًا خطيرًا في داخلها. وبالإضافة إلى ذلك، تحمل في دماغها شريحةً عصبيةً سرّيةً عالية التقنيّة، ولا يمكن السماح لها بالتجوال بحريّة". لاحظ لانغدون في عينيّ السفارة أنّ قضية ساشا لا تمثّل مُعضلةً سياسيةً فحسب، بل شأنًا شخصيًا يمسّها بعمق.

واصلت ناغل: "نمّةٌ مُشكلةٌ أخرى؛ الوقت ليس في صالحنا، إذ لم تعد براغ آمنة لساشا. فمع بزوغ الفجر، ستكون هذه السفارة غارقةً في سيل من التحقيقات الدوليّة والغضب والمطالب بإجراء فحص جنائيّ شاملٍ لما حدث في متنزّه فوليمانكا. وبصمات ساشا تُغطّي مُختبر حصن الصليب، وتظهر في الأرجح على جثثٍ عدّة. كما أنّ وجهها، أو بالأحرى وجهيّها، سيُستخرّجان من أرشيف كاميرات المراقبة، وسيُعاد تتبّع تحركاتها السابقة. ولن يمرّ وقت طويل حتى تصبح محلّ اهتمام رسميّ".

بالإضافة إلى وكائنين، فكّر لانغدون في ذلك، وهو يشعر بأنّ الخناق بدأ يضيق عليهما.

نزعت السفارة نظّارتها، وانحنّت نحوها قائلة: "لم أخبر أحدًا بعد بأنّ ساشا حيّة، لكنني أرجّح أنّ المدير جاد سيعلم قريبًا... بل ربّما علم بالفعل أنّها هنا، داخل السفارة".

قال لانغدون: "وكيف سيعرف؟"

"عبر المراقبة، أو تسريبٍ من أحد الموظفين، أو في الأرجح، عبر نظام تحديد المواقع. فأنا لن أفاجا إذا كانت شريحة ساشا الدماغية مزوّدة بجهاز تتبّع".

قال لانغدون في سرّه: *بالتأكيد هي كذلك*.

أضافت السفارة: "ولا أودّ أن أكون مُشائمة، لكن بالنظر إلى طبيعة هذا المشروع شديدة الحساسية... من المحتمل أيضًا أن تكون شريحتها مزوّدة بخاصيّة تدميرٍ من بعد. فهذا إجراءٌ شائع في التقنيّات الميدانيّة المُتقدّمة، ويُستخدم في كلّ شيء؛ من الهواتف الفضائيّة إلى الغوّاصات، تحسبًا لوقوع التقنيّة في يد عدوّ قد يُحاول استخدامها عكسيًا".

قال لانغدون بذهول: "مهلاً، هل تعنين أنّ شريحة ساشا يمكن أن تُدمّر من بعد؟ أمل أن يكون المقصود تعطيلها أو محوها... لا تفجيرها!"

هزّت ناغل: "حتمًا الأمر ليس بهذه الخطورة، لكنني أعلم أنّ شركة كيو تملك براءات اختراع لشرائح سيليكون تحتوي على طبقة مُحكّمة من حمض الهيدروفلوريك، يمكن إطلاقها عبر مكالمة هاتفية لتذويب المُعالج بالكامل".

صرخت كاثرين: "في دماغها؟! هذا سيقتلها!"

قالت ناغل: "ربّما، نعم، لكنني أعتقد أنّ قتل ساشا سيكون الملاذ الأخير للوكالة. فالمدير يعلم أنّني سأعتبر هذا خرقاً فاضحاً لاتّفاقنا، ويدرك أنّني أملك وسائل ردع جاهزة. ما يشغلني الآن هو إبقاء قنوات التواصل مَفْتُوحَة معه. فكما علّمنا توازن الرعب إبان الحرب الباردة؛ التواصل مِفْتَاح النجاة. لا تجعل خصمك يتكهّن بما تفعله، بل دعه يعرف بوضوح. لذلك، إذا اشتبه المدير جاد في أنّ ساشا مُتَوَرِّطَة في الأمر، فمن المهمّ جدًّا - بالنسبة إلينا جميعًا - أن يسمع التفاصيل منّي... جميعها، وفي سياقها الصحيح".

أعجب لانغدون بصفاء تفكيرها الاستراتيجي وسط هذا التعقيد. كانت ناغل بلا شكّ مُحامية من الطراز الرفيع.

قالت كاثرين: "وماذا عن الفيديو؟ هل ترين أنّه كافٍ لإبقاء وكالة الاستخبارات تحت السيطرة؟"

أجابت السفيرة: "بمفرده، ربّما لا. ولكن إلى جانب الانفجار وموت الدكتور غِسْنِر، سيصعب على الوكالة الزعم أنّ التسجيل مُزَيَّف. وحتى لو فعلت، فالفيديو يُسلِّط الضوء على اتّجاه من شأنه أن يُسبّب لها ضررًا بالغًا".

سأل لانغدون وهو يفكّر في ساشا، التي نجت من اختبارات العتبة، وهي الآن مُحْتَجَزة في غرفة في الطابق السفليّ: "وماذا عن ساشا؟ هل سيحميها الفيديو أيضًا؟"

قالت ناغل: "نعم، لكنّها لا تحتاج إليه. فساشا تتمتع بحماية من نوع خاصّ للغاية؛ فهي أكثر قيمة للوكالة وهي حيّة. إذ لا شكّ في أنّ المدير سيُعِيد بناء مشروع العتبة، ليس هنا بل في مكانٍ آخر، وستُعَدّ ساشا من الأصول التي لا يمكن تعويضها ضمن برنامج تبلغ ميزانيته المليارات. إنّها تمثل سنواتٍ من الأبحاث والتطوير، وأتصوّر أنّ أول ما سيفعله المدير جاد هو السعي إلى التفاوض معنا... لاستعادة ساشا".

شعر لانغدون بقشعريرة تسري في جسده. "وكيف سنحول دون ذلك؟"

أخذت ناغل نفسًا عميقًا وقالت بوضوح: "لن نفعل".

فوجئ لانغدون وسألها: "عذرًا؟"

كرّرت بعناد: "لن نفعل".

قال بغضب: "سيّدتي السفيرة، هل تقصدين أنّنا سنُعِيد ساشا إلى وكالة الاستخبارات؟" هذا بالضبط ما ستفعله، إذ لا خيار آخر أمامنا.

صرخت كاثرين: "مستحيل! لقد قتل مشروع العتبة مريضًا من قبل! لا يمكنك إرسال

ساشا مُجَدِّدًا إلى —"

قاطعتها ناغل بصرامة: "لا يمكنني! أذكر كما بأتني المسؤولة الأولى هنا، وأطلب منكما سماع ما لديّ قبل أن تُملّيا عليّ ما يمكنني وما لا يمكنني فعله".

ساد الصمت لثوانٍ، ثمّ تراجعت كاثرين إلى الخلف، وهي تهزّ رأسها بعناد صامت. قالت ناغل بنبرة مُتّزّنة: "هذه هي الحقائق؛ تحتاج ساشا فيسنا إلى رعاية مُتخصّصة للغاية؛ جسديّة ونفسيّة على السواء. وقد أثبتت أنّها شديدة الخطورة؛ ممّا يعني أنّ أيّ جهة تتولّى علاجها يجب أن تتوخّى أقصى درجات الحذر، وأن تفهم حالتها فهمًا كاملاً. وبالنظر إلى الشريحة المزروعة في دماغها، فإنّ عدد الجهات القادرة على التعامل معها محدود جدًّا؛ ربّما جهة واحدة فقط. وعند التفكير في ما أخبرني به عن هذه الخلايا العصبية الاصطناعيّة المتطوّرة في دماغها، أستنتج أنّ الأشخاص المؤهلين لتقديم الرعاية النفسيّة المناسبة لساشا هم العلماء المشاركون في العتبة".

رأى لانغدون المنطق في حجّتها، لكنّ جوهر خطّتها كان صادمًا؛ فهي تقترح تسليم ساشا مُجدّدًا إلى الأشخاص أنفسهم الذين استخدموها سابقًا كحيوان مُختبر. إلى جانبه، كانت كاثرين لا تزال تهزّ رأسها، غير مُقتنعة إطلاقًا.

قالت السفيرة بنبرة حاسمة: "لكنّ لنكنّ واضحين تمامًا، أنا لا أقترح أن تعود ساشا إلى العتبة كما في السابق. ولن أقبل بإجراء أيّ تجارب جديدة عليها؛ إطلاقًا. ستعود بوصفها أئمن أصول المشروع، لتعامل على هذا الأساس، ولتعيش حياةً كريمة. فساشا إنجاز بحدّ ذاتها؛ إنّها تمثّل أعظم نجاح حقّقه المشروع حتى الآن، ووجودها يُقدّم فرصةً بحثيّة لا تُقدّر بثمن. سأؤكد للمدير على أنّ التجارب التي أُجريت على دماغها هي التي فاقت حالتها النفسيّة، بل ربّما تسبّبت بها أصلًا. بتعبير آخر، سأجعله يدرك أنّ صحتّها العقليّة أصبحت مسؤوليته الأخلاقيّة العليا. وفي النهاية، سيكون المدير جاد شديد الحرص على ضمان سلامة ساشا الجسديّة والنفسية؛ خصوصًا وأنّه يعلم أنّي أراقبه وإصبعي على الزناد".

ساد صمتٌ طويل، شعر خلاله لانغدون أنّه في خضمّ معركة نموذجيّة أصيلة - الصراع الأبولوجي-الديونيسي، كما عُرِف في الأساطير - الصراع الداخليّ الأسمى، بين العقل والقلب. فرأى عقله الأبولوجيّ النظام والمنطق في خطة ناغل، فيما لم يرَ فيها قلبه الديونيسيّ سوى الفوضى والظلم.

أخيرًا، تكلمت كاثرين قائلة: "تقدّمين الأمر بصورة جميلة، لكنّ ساشا لم تختَر يومًا أن يكون مشروع العتبة جزءًا من حياتها".

ردّت ناغل بشبات: "ولا أنتِ، دكتورة سولومون، ومع ذلك، ها نحن أولاء. وعلينا جميعًا أن نتعامل مع الأوراق التي وُزّعت علينا. إن أردت ساشا فيسنا أن تعيش حياةً سليمة، فلا بدّ من

أن تتواصل - ولو جزئياً - مع مشروع العتبة. يمكنها أن تحدّد بنفسها مستوى مشاركتها، وربما ستقتصر على أقسام البحث المُتعلّقة بالوعي. لكن حين تستقرّ حالتها العقلية، اعتقد أنّ انخراطها ضمن فريق بحثي قد يمنحها هدفاً ومكانة لم تعرفهما من قبل في حياتها".

شعر لانغدون بالريبة. نعم، كلّنا نحتاج إلى غاية، لكنّه لم يثق بأنّ الوكالة ستفعل "الصواب" كما تصفه ناغل.

قالت ناغل، وكأنّها استشعرت تردّد لانغدون: "أدرك أنّ استحضار الثقة في هذه الحالة ليس أمراً يسيراً، خصوصاً بعد كلّ ما شهدته من ممارسات الوكالة. لكن تذكر، تجربتك كانت مع إفريت فينش. أمّا الآن، فستعامل مع المدير غريغوري جاد. خطؤه الوحيد أنّه منح فينش حريةً مُفرطة، لكنني لطالما رأيت فيه رجلاً شريفاً في عالم يندر فيه الشرف. على الأقلّ، هو صادق".

قالت كاثرين مُتحدّية: "صادق! لقد كنت مُستشارته القانونية العليا، ومع ذلك كذب عليك وأخبرك أنّ مشروع ستارغيت قد فشل!"

أجابت ناغل بإشارة لا مُبالية بيدها: "بروتوكول الخداع بالمعلومات المُضلّلة؛ إنّهُ استراتيجية شائعة في العمل السريّ، تُستخدم لحُصْر المعرفة في دوائر مُحدّدة. فالروايات الكاذبة تحمي الموظّفين الذين لا حاجة إلى معرفتهم الحقيقة. كما تعلمين، كلّنا نكذب على نحوٍ أفضل حين نُصدّق الكذبة التي نقولها. وبالتأكيد، لم يكن ستارغيت المشروع السريّ الوحيد الذي كذبت الوكالة بشأنه ثم أعادت تشغيله لاحقاً. وإن كانت ثقتي في المدير جاد في غير محلّها، فسأذكره بسيف دموقليس المُعلّق فوق رأسه، وأوضّح له تماماً أنّني لن أتردّد في إنزاله عليه إن قصّر في التزامه الأخلاقيّ تجاه ساشا".

ساد صمتٌ ثقيل في المكتب الفخم، قبل أن تُضيف السفيرة بهدوء: "ولا تنسيا أنّه، في ظلّ أيّ سيناريو آخر، ستفقد ساشا أيّ حماية قد تتمتع بها. بل قد تُعتقل وتُحاكَم بتهمة الخيانة والإرهاب والقتل".

التفتت كاثرين ببطء، ونظرت إلى لانغدون بتردّد، لكنّ إيماءتها الخفيفة أوصلت الرسالة بوضوح. سأُتبع رأيك في هذا القرار.

تصوّر لانغدون ساشا وهي مُحتجزة في الغرفة السفلى، فشعر بالشفقة عليها. وعلى الرغم من شكوكه العميقة في خطة السفيرة، إلّا أنّه لم يجد بديلاً أفضل. كان صعباً عليه الاعتراف بأنّ أكثر الأماكن أماناً لساشا فيسنا قد يكون في لانغلي، فيرجينيا. صحيح أنّ هناك مُفارقة في أن يصبح مضطهدوها حُماةًها... لكن - بطريقة ما - لا مفرّ من هذا الأمر أيضاً.

لا بل قد يكون هذا الحُلّ عبقرياً.

دفع حضور ساشا إلى مبنى السفارة لانغدون إلى التساؤل إن كان الغولم الغامض الذي يحرسها قد فكّر في كلّ ذلك مُسبقًا. فهو من زوّد ناغل بأوراق الضغط التي مكّنتها من السيطرة على الموقف... ثم أطلق أبسط نداء.

أرجوك، ساعدي ساشا.

وبينما كان يتأمّل في كلّ ما قالته السفيرة، تردّد في ذهنه سؤال واحد لم يجد له جوابًا بعد.

* * *

Quis custodiet ipsos custodes?

لم تكن السفيرة ناغل قد درست اللاتينية يومًا، لكنّها فهمت السؤال الذي طرحه لانغدون. فهو شعار يرفعه كلّ مناهضي السلطة في العالم.

من سيراقب الحُرّاس؟

كان سؤالاً مشروعيًا، ويُطرح اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى. في هذه الحالة، ستتولّى وكالة الاستخبارات مراقبة ساشا... لكن من سيراقب الوكالة نفسها؟ فحتّى إن هدّدت ناغل بنشر الفيديو إذا خالفت الوكالة البروتوكولات، لن تكون لديها وسيلة مؤكّدة لمعرفة ما إذا كانت تُنفّذها فعلاً؛ إلّا إن وُجد مصدرٌ موثوق داخل الوكالة... في قلب الحدث.

من سيراقب الحُرّاس؟

أدركت ناغل أنّها تعرف الجواب، وعندما نظقت به بصوت عالٍ، سمعت نبرة تصميم في صوتها افتقدت إليها لسنوات.

نظرت إلى لانغدون وقالت: "أنا".

وفي اللحظة التي أعلنت فيها هذا العهد، أحسّت بدفّقٍ من العاطفة. عندئذٍ، أدركت أنّ رعايتها ساشا فيسنا قد تكون الخلاص الذي تحتاج إليه روحها... تكفيرًا بطيئًا عن تواطئها في كلّ ما جرى في براغ.

لن أتمكّن يومًا من التعويض عن مايكل هاريس... لكن يمكنني المُحاولة.

الفصل 134

مشى لانغدون وحيداً وهو يُمرّر يده على الدرازين الحديديّ بينما كان يهبط الدرج الرخاميّ خارج مكتب السفيرة. شعر باضطرابٍ داخليّ تجاه ما ينتظره؛ ليس فقط في الدقائق القليلة المُقبلة، بل وفي الأشهر القادمة أيضًا.

هل ستمكّن ناغل من مراقبة الحُرّاس حقًا؟ تساءل عن ذلك وهو يستعيد في ذهنه الحديث الذي دار بينهما قبل قليل في مكتبها. كانت تنوي الإشراف على مشروع العتبة شخصيًا؛ لتصبح مفوضةً عامّةً أو حتّى مديرةً للنسخة القادمة من المشروع. فقد أكدت أنّ إعادة بناء العتبة أمرٌ أساسيٌّ للأمن القوميّ، لا بل أيضًا ما ينبغي فعله؛ لكن شرط أن يُنفذ بالطريقة الصحيحة.

قالت ناغل: "لا يمكننا الدفاع عن الأرض العالية إلّا إذا كنّا عليها فعلاً. سأكون المُراقبة المُباشرة لأوضاع ساشا فيسنا؛ حياتها، سلامتها، واستقرارها النفسيّ. وسأفعل الأمر نفسه مع كلّ من سيشارك في المشروع لاحقاً"، ثم أطلقت تنهيدةً خافتةً وأضافت: "فالإشراف سيمنحني أمرًا غاية في الأهميّة؛ سيكون فرصةً لي للتكفير عن أخطائيّ الجسيمة، واستعادة إنسانيّتي".

شعر لانغدون أنّ كلامها مشحون بالعاطفة والتّدم الصادق، بينما تابعت قائلة: "كلّما تأملت في هذا الأمر أكثر، ازددتُ اقتناعاً بأنّ هذا الحلّ سيكون الأفضل؛ لساشا، وللوكالة، ولنا نحن أيضًا. لكن قبل أن أتصل بالمدير جاد وأبلغه بما عليه فعله من أجلنا... ومعنا... يبقى هناك عائقٌ أخير علينا تجاوزه".

قالت كاثرين: "ساشا... سيتوجّب عليك إقناعها".

أومأت ناغل قائلة: "موافقتها الكاملة على هذه الخطة أمرٌ أساسيّ... فمن دونها، لن يتحقّق شيء. أعدكما أنّ هذه الوكالة لن تُجبرها بعد اليوم - لا هي ولا أيّ شخصٍ آخر - على المُشاركة في مشروع ما من دون علمها أو رضاها".

قدّر لانغدون هذا الوعد، وقال: "لكن يصعب التكهّن إن كانت ستوافق".

"الأمر يعتمد على الطريقة التي ستُطلب بها موافقتها".

فكّر لانغدون في سرّه: حديث دبلوماسيّةٍ مُتمرّسة. "وهل تظنّين أنّك قادرة على إقناعها؟"

ردّت وهي تنظر إليه بنبات: "لم أُجرِ معها حديثًا حقيقيًّا من قبل، لذا لا أعتقد أنّني أستطيع. لكنني أظنّ أنّك قادرٌ على ذلك".

رفع حاجبَيْه بدهشة: "أنا! أتريدون مني التحدث إلى ساشا؟" لم يكن هذا ما تصوّره حين قالت سابقاً إنّها تحتاج إلى مساعدته.

قالت السفيرة: "من بيننا نحن الثلاثة، أنتَ الوحيد الذي قضى بعض الوقت مع الأنسة فيسنا. وللأسف، ربما تكون الشخص الوحيد المُتبقّي في هذا العالم الذي يمكن أن تثق به فعلاً". خيّم الصمت هنيهة، ثم قال لانغدون: "في الواقع، ما زلت أجهل أيّاً من شخصيّتي ساشا التقيتُ اليوم. فقد شعرتُ أنّي كنتُ مع ساشا، على الأقلّ في بعض اللحظات، لكن من نواح كثيرة، يبدو أنّ كانت أمامي شخصيّتها البديلة؛ والتي تظاهرت بأنّها هي، وأدارت كلّ ما حدث من خلف الستار. لا سبيل لي لمعرفة الحقيقة".

قالت ناغل: "بغض النظر عن الشخصيّة التي تعاملت معها اليوم، فقد كنتَ عطوفاً ومُتعاوناً، وقد لاحظتُ ذلك. ففي النهاية، قامت بحمايتك، ليس مرّة واحدة، بل مرّتين". هذا صحيح. أدرك لانغدون ذلك، وتذكّر كيف حثّه الغولم على الفرار من مُنشأة العتبة، وكيف احتال عليه ليُغادر شقّة ساشا قبل مقتل هاريس.

قالت السفيرة: "لقد أظهرت ساشا أنّها تثق فيك. وسؤالي، من الناحية الافتراضية: ما الذي تظنّه كفيلاً بإقناعها بأن تثق بنا؟ بي أنا، وبهذه الخطّة، وبحيّة جديدة في أميركا؟" فكّر لانغدون لحظة، وبدأ يدرك أنّ الأمر قد لا يكون صعباً بقدر ما يبدو عليه، ثمّ قال: "أظنّ أنّي سأدكّرُها ببساطة بأنّ ما نعرضه عليها ليس سوى حلمها القديم، وقد صار حقيقة. وبحسب ما تذكّره أو تفهمه ممّا جرى، سأوضّح لها أنّ الطريق إلى الأمام يتطلّب الغفران، ليس من جانبها فحسب، بل من جانب الطرفين؛ غفراناً مُتبادلاً. على ساشا أن تغفّر للوكالة التي خانتها، وعلى الوكالة أن تغفّر لتلك الشخصيّة التي انتقمت ممّن أساءوا إليها. وإذا استطاع الطرفان ترك الماضي خلفهما، والتوصّل إلى صَفْح مُتبادل من أجل خيرٍ أكبر، فسيكون أمامهما مُستقبلٌ مُشترك يعود بالنفع على الجميع".

تبادلت ناغل وكاثارين نظرة إعجاب، ثمّ قالت السفيرة: "ولهذا بالتحديد اخترتُك، بروفيسور".

* * *

فتح لانغدون باب غرفة الاجتماعات ذات الجدران الخشبيّة في السفارة، وأطلّ إلى الداخل. عند الطرف المُقابل من الطاولة الطويلة، جلست ساشا فيسنا وحدها. كان شعرها الأشقر مُتشابكاً ومُبلّلاً، ووجهها شاحباً مُتعباً. التفت منشقة حول كتفيها، ووُضع أمامها طبق طعام لم تتناول منه إلّا القليل. كانت يداها في حجرها، وممّا لا شكّ فيه أنّهما موقّعتان.

تأملها لانغدون طويلاً، قبل أن يدخل ويُغلق الباب خلفه بهدوء. تقدّم نحوها بخطواتٍ بطيئة، وقال بابتسامةٍ لطيفة: "مرحبًا، ساشا".

لكنّ نظرتها لم تحمل ترحيبًا، بل حذرًا وريبة.

قال وهو يجلس على مقعدٍ يبعد عنها نحو ثلاثة أمتار: "يسعدني أنّك بخير".

جلست تراقبه في صمتٍ مُتحفّظ وقالت: "شكرًا لك".

في هذه اللحظة، شعر لانغدون أنّ هذا اللقاء لن يكون دافئًا بقدر ما توقّعت السفيرة.

قال: "ساشا، لقد أتيتُ إلى هنا لأنني أملك معلوماتٍ مهمّة بالنسبة إليك، وأريد إيصالها بطريقةٍ مفهومة وواضحة".

قالت من دون أن تُبدّي أيّ ردّ فعل: "حسنًا".

أخذ لانغدون لحظةً ليستجمع أفكاره، ثمّ قال بصوتٍ هادئٍ على الرغم من اضطرابه الداخلي: "ساشا، أفهم أنّك جئتِ إلى هنا الليلة طلبًا للمساعدة، ويسعدني إخبارك أنّ السفيرة راغبة فعلاً في مساعدتك. فهي تعلم أنّك خائفة على حياتك، وتريد حمايتك، وجعلك تشعرين بالأمان. في الواقع، لديها خطة لتحقيق ذلك، وقد سمعتُ تفاصيلها. ومع أنّها ليست الحلّ المثالي، لكنّها أفضل ما يُمكن... برأي السفيرة، ستمنحك هذه الخطة فرصة حقيقية لعيش حياة آمنة وطبيعيةً نسبيًا. وأنا أوافقها الرأي".

أشرقت ملامح ساشا قليلاً.

قال لانغدون: "قبل أن أشرح لك الفكرة، عليّ أن أطرح عليك سؤالًا غريبًا بعض الشيء. قد يبدو غير مألوف... لكنّه ضروريّ للغاية، ويجب أن تجيبي عليه بكلّ صدق. فكلّ ما سيحدث بعد ذلك يعتمد على جوابك". توقّف لحظة، ناظرًا إلى عينيّها الباهتتين ببات، ثمّ قال: "أعتذر عن صراحتي، لكنني بحاجة إلى أن أعرف... مع من أتحدث الآن؟ هل أنتِ ساشا؟"

تأملته الشابة طويلاً، ثمّ حرّكت رأسها نافية، وقالت بصوتٍ عميقٍ أجوف: "لا، من أجل سلامة ساشا، لم أطلقِ سراحها بعد".

الفصل 135

نهضت كاثرين فجأة عن أريكة السفيرة، مُدركة أنها غفت من دون أن تشعر. لم يكن روبرت قد عاد بعد، بينما كانت ناغل واقفة عند النافذة، تحدّق شارِدة إلى الظلام خلف الزجاج. وما إن سمعت حركة كاثرين، حتى التفتت إليها، ونظرت إلى ساعتها قائلة: "مرّت نصف ساعة، ما زالا يتحدّثان".

قالت كاثرين: "قد تكون إشارة جيّدة، فروبرت معروف بدقّته".

قالت ناغل وهي تقترب للجلوس مع كاثرين: "لاحظت ذلك. فقد انفرد بي قبل قليل، واستجوبني بالتفصيل حول مخطوطتك المفقودة، وطالبني بأن أمر وكالة الاستخبارات بإعادتها". سألتها كاثرين بلهفة: "وماذا حدث؟"

هزّت ناغل رأسها بأسف: "للأسف، أكّد المدير أنّ فريق العمليّات في شركة كيو دمرّ جميع النسخ".

ردّت كاثرين ساخرة: "لا أصدّقهم".

"هذا يتّسق مع الإجراءات الجديدة، للأسف. فبعد فضيحة ويكيليكس، وضعنا بروتوكولات صارمة لإتلاف أيّ معلومات ترى الوكالة أنها قد تُسبّب ضررًا فوريًا. يُؤسفني قول ذلك، لكنني أعتقد فعلاً أنّ الكتاب ضاع إلى الأبد".

ظلت كاثرين تعبت بأطراف الأريكة، مُحاولّة عدم التفكير في كلّ ما فقدته. "أتعلمين، من المفارقة أنّ الوكالة دمرّت الكتاب لأنّ أفكاره كان من الممكن أن تمنحها رؤية جديدة في ما يخصّ نظرية إدارة الرعب".

رفعت ناغل حاجبيها بدهشة: "وهل كتبت عن نظرية إدارة الرعب؟"

"إنّها وثيقة الصلة بعملي". وبعملكم أيضًا.

كانت نظرية إدارة الرعب تُستخدم في أجهزة الاستخبارات العسكرية لتوقع ردود فعل الجماهير تجاه بعض التهديدات. وقد أثبتت أبحاثها أنّ للقلق البشريّ مصادر كثيرة - كخطر الحرب النووية، أو الإرهاب، أو الإفلاس، أو الوحدة - لكنّ أقواها جميعًا، وأكثرها تأثيرًا في السلوك الإنسانيّ كان، بلا شك... الخوف من الموت. فعندما يشعر الإنسان بأنّه مُهدّد بالموت، يعمل دماغه وفق استراتيجيّات دقيقة للغاية لـ "إدارة" ذلك الرعب.

ففي الظروف العادية، إنّنا نواجه وعينا لحتميّة الموت من خلال مجموعة مُتنوّعة من الاستراتيجيّات؛ بما في ذلك الإنكار، والروحانيّة، والتأمّل الواعي، وأنواع مختلفة من التفكير الفلسفيّ.

أما في الظروف القصوى - كالحرب، أو الجريمة، أو العنف - فيتصرف الناس بطريقة متوقعة في كل الثقافات: إما أن يُقاتلوا حتى الموت دفاعاً عن أنفسهم... أو أن يفرّوا من الخطر. تُعرف هذه الاستجابة الكلاسيكية بالمواجهة أو الفرار، وبالنسبة إلى المخططين العسكريين، من المهم معرفة أي من السلوكين سيعتمد العدو.

قالت كاثارين: "لكنّ المُدهش في الأمر أنّ الدماغ لا يكتفي بالمواجهة أو الفرار كاستجابة للخوف من الموت. فثمة شيء أبسط يحدث مع مرور السنين، حين يبدأ الإنسان بالإحساس بأنّ العالم من حوله لم يعد آمناً... كما يشعر كثيرون اليوم".

قالت ناغل بهدوء: "وهذا خوف مُبرّر".

"نحن نغمّر يومياً بتقارير إعلامية صادمة؛ عن تدهور البيئة، واحتمال اندلاع حرب نووية، وانتشار الأوبئة، والإبادة الجماعية، ومآسي العالم التي لا تنتهي. ومن شأن كلّ ذلك أن يدفع دماغ الإنسان إلى تفعيل آلية إدارة الرعب في الخلفية، على درجة مُنخفضة، لا تصل إلى مرحلة المواجهة أو الفرار، لكنه... يتوقع الأسوأ. بتعبير آخر، كلّما ازدادت أسباب الخوف من حولنا، أمضينا وقتاً أطول في الاستعداد غير الواعي للموت".

بدأت على ناغل ملامح الحيرة وهي تقول: "الاستعداد للموت... كيف؟"

قالت كاثارين: "أظنّ أنّ الجواب سيُفاجئك، مثلما فاجأني. ففي أثناء دراستي لعلاقة الوعي لاحتمية الموت بالدماغ، اكتشفتُ أنّ ازدياد الخوف من الموت يولّد مجموعة من السلوكيات المُتكرّرة؛ وكلّها أنانية".

"عذراً؟"

قالت كاثارين: "الخوف يجعلنا أنانيين. فكلّما ازداد خوفنا من الموت، ازدادنا تشبّهاً بأنفسنا، وبممتلكاتنا، وبمساحاتنا الآمنة... بكلّ ما هو مألوف. فنصبح أكثر قوميةً وتعصباً وعنصريةً، وأقلّ تسامحاً دينياً. نتمرد على السلطة، ونتجاهل القواعد الاجتماعية، ونسرق لتأمين احتياجاتنا، ونغدو أكثر مادّية؛ بل إنّنا نتخلّى حتى عن إحساسنا بالمسؤولية تجاه البيئة؛ لأنّنا نعتقد أنّ الكوكب قضية خاسرة، وأنّنا جميعاً هالكون على أيّ حال".

قالت ناغل: "هذا مُخيف. فهذه بالضبط السلوكيات التي تُغذّي الاضطرابات العالمية والإرهاب والانقسام الثقافي والحروب".

"صحيح، وهي أيضاً ما يجعل عمل وكالة الاستخبارات بالغ الصعوبة. للأسف، الأمر أشبه بقاعة مرايا؛ فكلّما ساءت الأوضاع، ساء سلوكنا، وكلّما ساء سلوكنا، ازدادت الأوضاع سوءاً".

"وبحسب نظريتك، هذا النمط المُدمّر نابع من خوف الإنسان من الموت؟"

قالت كاثرين: "ليست نظريتي، بل حقائق مُثبتة علمياً بكمّ هائل من البيانات الإحصائية التي تمّ جمعها بفضل دراسات سلوكية وتجارب ميدانية واستطلاعات علمية. والأهم في هذه الأبحاث أنّها تُظهر أنّ أولئك الذين لا يخافون الموت - لأيّ سبب كان - يميلون إلى سلوك أكثر رحمةً وتقبُّلاً للآخرين وتعاوناً واهتماماً بالبيئة. من هذا المنطلق، لو استطعنا تحرير عقولنا من هذا العبء، أي من خوفنا من الموت..."

"فسنعيش في عالم أفضل بكلّ المقاييس".

قالت كاثرين: "بالضبط. فكما قال عالم النفس التشيكي الكبير ستانيسلاف غروف، *التخلّص من الخوف من الموت يُغيّر طريقة وجود الإنسان في العالم*. إذ يعتقد غروف أنّ التحوّل الداخلي العميق في الوعي قد يكون أملنا الوحيد للنجاة من الأزمة العالمية التي خلفها الفكر المادّي الغربي".

قالت ناغل وهي تصبّ مزيداً من القهوة: "إن صحّ ذلك، فربما علينا أن نضيف المُهدّئات إلى مياه العالم!"

ضحكت كاثرين وقالت: "لستُ واثقة من أنّ عقار زاناكس هو الحلّ الوجودي، لكنّ الأمل يلوح في الأفق".

توقّفت ناغل في منتصف رشفتها وهتفت: "آه؟"

"كما كتبتُ في مخطوطتي، أعتقد أنّ نظرتنا إلى الموت على وشك أن تتبدّل. وإذا استطعنا إثبات كلّ ذلك علمياً، فخلال بضعة أجيال سيعمل العقل البشري وفق مبدأ مختلف تماماً؛ أنّ الموت ليس مُرعباً إلى هذا الحدّ في النهاية..."

كانت نبرة كاثرين مُشبّعة بالشغف وهي تُضيف: "تخيّلني معي؛ الخوف الكونيّ الأوحّد الذي يقف وراء معظم سلوكيّات البشر المُدمّرة... سيتلاشى. وإذا تمكّنا من الصمود بما فيه الكفاية للوصول إلى هذا التحوّل الفكريّ من دون أن نُفني أنفسنا أو نُدمّر كوكبنا، فقد تبلغ الإنسانية مُنعطفاً فلسفياً جديداً يفتح الباب أمام مُستقبل مُسالِم يفوق الخيال".

سادت لحظة صمت، ورأت كاثرين في عينيّ السفيرة رغبة عميقة في تصديق ما تقوله، على الرغم من كلّ ما شهدته من قسوة هذا العالم. أخيراً، همست قائلة: "ليت ما تقولينه يتحقّق".

بعد لحظات، ظهر روبرت أخيراً في مدخل الغرفة، فنهضت ناغل على الفور وسألت: "كيف جرى الأمر؟"

دخل وهو يتسم مُتعباً، وقال: "سيدتي السفيرة، أظنّ أنّ الوقت قد حان لتّصلي بالمدير".

في ساعة متأخرة من بعد الظهر في لانغلي، فيرجينيا، أنهى المدير غريغوري جاد مكالمته الثانية عبر الفيديو لذلك اليوم مع مستشارته القانونية السابقة، هايدة ناغل. فكَرَّ في سرِّه: كنتُ أحمق حين استغنيْتُ عنها. ليس لأنَّها عادت لتطارده، بل لأنَّها ببساطة كانت بارعة في عملها. فقلَّةُ هم أولئك الذين يستطيعون تدوير الزوايا كما تفعل ناغل. فبينما يعيش معظم المحامين في عالمٍ صارِمٍ من الأبيض والأسود تحكمه نصوص القانون، كانت ناغل تعيش في عالم الواقع، كما هو؛ بتقلباته، وتعقيداته، وتدرجاته الرمادية. بوضوح وتواضع وشفافية عاطفية غير متوقَّعة، شاركته ناغل التطوُّرات المفاجئة المُتعلِّقة بساشا فيسنا، وما ترتَّب عليها من تبعاتٍ واضحة تخصُّ إعادة بناء مشروع العتبة. وكأيِّ مُفاوضة بارعة، ساعدته على الوصول إلى استنتاجها، لكنَّها جعلته يظنُّ أنَّ الفكرة كانت فكرته هو.

لم يكن المدير عالمًا، لكنَّ أبحاث وكالة الاستخبارات المُرتبطة بالعقل البشري كشفت له واقعًا مُختلفًا تمامًا عما كان يتخيَّله في شبابه. ولحسن الحظِّ، لم تكن مهمته أن يفهم طبيعة الواقع، بل أن يطوِّع قوَّته لخدمة أمته وحمايتها. وفي بعض الأحيان، كان جاد يسمح لنفسه بأن يحلم بمستقبل تكشف فيه برامج مثل العتبة عن البرهان الحاسم على الترابط بين العقول البشرية جمعاء؛ مستقبل تعيش فيه جماعة إنسانية مُوحَّدة، لا يربطها الخوف أو المُنافسة، بل التعاطف والفهم... عالمٌ يصبح فيه مفهوم الأمن القومي أثرًا من الماضي. كانت أحلامًا مُوجَّلة. أمَّا الآن، فثمة عملٌ ينبغي إنجازه.

الفصل 136

خارج مبنى الركاب الخاصّ في مطار فاكلاف هافيل، وقفت هايدة ناغل على المدرّج، وشعرت بوطأة الخيار الذي أملتته الظروف.

اللجوء.

ردّدت في سرّها أنّ القرار كان صائبًا. القرار الوحيد المتّاح.

على مسافة قريبة، جلس سكوت كيربل خلف عجلة قيادة سيارة السفارة المَركونة جانبًا. كان صندوقها ممتلئًا بحقائب سفر تحتوي على ملابس ساشا ومقتنياتها الشخصية التي حزمها على عجل. جلست ساشا نفسها بهدوء على المقعد الخلفي، وهي لا تزال مُقيّدة بإحكام بأصفاة مَرنة، تبدو مذهولة لكنّها هادئة وهي تلعب مع الهرّين السياميّين في حاملة الحيوانات الأليفة على المقعد المُجاور لها.

بعد قليل، خرجت طائرة خاصّة صغيرة من حظيرة المطار، واتّجهت نحوهم. كانت طائرة سيتايشن لاتيئود التي وصل فينش على متنها في وقت سابق، وكان الطيارون قد تلقّوا أوامر مباشرة من مدير وكالة المخابرات المركزيّة شخصيًّا، لتسيير "رحلة شبحيّة" تُقلّ راكبيّن مجهوليّ الهوية إلى قاعدة لانغلي الجويّة في فيرجينيا.

لا بيان باسمي المسافرين.

وبينما كانت ناغل تُراقب الطائرة تقترب، شعرت بثقة مُتعاظمة بالمدير جاد. غير أنّ سنوات عملها الطويلة في سي أي إيه علّمتها خطورة التصديق الأعمى. ففي عالم الأمن القوميّ، حتى أعمق روابط الثقة والولاء كانت تتعرّض للخيانة حين تقتضي مصلحة الدولة ذلك. وصحيح أنّ خدمة الخير العام عمل نبيل، لكنّ ناغل أدّت نصيبها من ذلك.

لكي تُحصّن نفسها، أخذت ناغل أربعة أقراص مُشفّرة من نوع IronKey سعة 256 بت من مستودع السفارة، ونسخت على كلّ منها تسجيل اعتراف غِسنر المُصوّر، ثمّ وضعت لكلّ قرص كلمة مرور مُكوّنة من ستة عشر حرفًا اختارتها الليلة، ولا يعرفها سواها. احتفظت بقرص في جيّها، وآخر في خزنتها الشخصية، وأرسلت القرصين الآخرين في حقيبتين دبلوماسيّتين مختومتين إلى اثنتين من أصدقائها المُحامين - أحدهما في أوروبا، والآخر في الولايات المتحدة - مع تعليمات صارمة بعدم فتح الحقيبتين إلّا في حال وفاتها المُفاجئة أو اختفائها.

نظام احتياطي مُزدوج، أشبه بمفتاح الرجل الميت.⁽¹⁾

كانت الورقة الراححة في هذه المُعادلة هي ساشا فيسنا، وحالتها النفسية غير العادية التي جعلت توقع تصرفاتها أمراً شبه مُستحيل. كانت الشابة الروسية بحاجة إلى رعاية نفسية مُتخصصة بلا شك، لكنها - بعد كل ما كابدته - تستحق أيضاً منزلاً، وأصدقاء، وأماناً، وفرصة لحياة طبيعية إلى حد ما. فقد ظهرت شخصيتها الحامية حين تعرّضت للأذى، وتقوم خطة ناغل على تفادي ذلك.

يجب أن أؤمن لساشا ملاذاً آمناً قدر الإمكان في ظل هذه الظروف.

كانت السفارة مُتحمسة لإخراجها من براغ بأسرع وقت. فخلال ساعة واحدة، ستصل فرقة عسكرية كاملة من قاعدة رامشتاين في ألمانيا لتباشر عملية "إعادة تأهيل" موقع الانفجار. وبحسب ما فهمته ناغل، سيُسحق الركاب في الحفرة باستخدام تفجيرات دقيقة، ثم يُغطى بطبقة من الإسمنت المصبوب، تليها الحصى، فالتراب، وأخيراً عشب جديد. وإذا سار كل شيء كما خُطّط له، فسيبدو متنزّه فوليمانكا خلال أسابيع وكأنه لم يُمس قط. قالت في سرّها: ستُدفن ويُنسى أمرها، وقلة فقط سيعرفون أنّ مشروع العتبة وُجد يوماً.

اقتربت الطائرة أكثر، فنزل كيربل من السيارة وانضم إليها. قال: "سيّدي، تبدو الآنسة فيسنا مُطمئنة إلى حد كبير. هل أحمل الحقائب؟" قالت ناغل: "شكراً يا سكوت. أقدر مُرافقتك لها. حافظ بالتأكيد على وسيلة تقييد خفيفة حتى تسلّمها. وعند الهبوط، سيكون فريق المدير بانتظاركما وسيتولّى الأمر". قال: "مفهوم، سيّدي".

أضافت وهي تُخرج القرص الصلب من جيها: "أكد لي المدير أنّه سيكون شخصياً في استقبال ساشا. سلّمه هذا من فضلك، وهو سيعرف ما فيه. قل له إنّه واحد من أربعة أقرص، وإن أراد التأكد من محتواه، فليُصل بي للحصول على كلمة السرّ". "حسناً سيّدي". وضع كيربل القرص في جيبه واستدار للانطلاق.

غير أنّها أضافت بعد لحظة من التفكير: "في الواقع، الأفضل أن تخبره أنّ كلمة السرّ مُكوّنة من الحرف الأوّل من كلّ كلمة في اقتباسه المُفضّل لكسنجر". بدت الدهشة على وجه كيربل، لكنّه انصرف لجلب الأمتعة.

(1) آلية أمان، أو جهاز يتطلّب من شخص ما الضغط عليه باستمرار للحفاظ على تشغيله أو لإبقائه في وضع الإيقاف. في حال توقّف المُستخدم عن الضغط، يتمّ تفعيل الإجراء الافتراضي، مثل إطلاق إنذار، أو إرسال إشعار، أو تدبير أكثر خطورة.

وبينما كانت ناغل تتقدّم نحو الطائرة، خطرت في بالها كاثرين سولومون وروبرت لانغدون، مُتمنّية أن يكونا قد شعرا الآن بمزيد من الطمأنينة. فهما الآن في أمان تام، خصوصاً وأنّ أحد أقوى الرجال في البلاد لن يُجَازِف بحدوث أيّ مكروه لهما. كانت قد شاركت جاد ببعض أفكار كاثرين عن نظرية إدارة الرعب ومُستقبل الوعي، فأبدى اهتماماً بالغاً، وسألها إن كانت تظنّ أنّ الدكتور سولومون قد تقتنع بالانضمام إلى فريق العتبة. أجابته ناغل بلباقة دبلوماسية: "لا فرصة لذلك إطلاقاً". وذكرته بما تعرّضت له كاثرين من جانب الوكالة نفسها، ثم أضافت في سرّها: فضلاً عن أنها قد تُقرّر إعادة كتابة مخطوطتها.

* * *

كثيراً ما كانت ساشا فيسنا تشعر وكأنّها استيقظت من نوم عميق، وفاتها أشياء مُهمّة. عادةً، كانت الأيام التي تضمّ عددًا كبيراً من الفجوات في ذاكرتها تُثير اضطرابها، لكن في هذه اللحظة، ومع أنّ ما تذكّره من أحداث اليوم لم يتجاوز ومضات ضبابية، إلّا أنّها أحسّت بسكينة غريبة تغمرها. كان صوتها الداخلي الذي اعتادت الوثوق به يهمس قائلاً إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام... لا، بل سيكون رائعاً.

قبل نصف ساعة، استيقظت ساشا من غشاوة كثيفة، لتجد نفسها مُقيّدة على المقعد الخلفي لسيارة دافئة، وبجانبتها هرّاه "هاري" و"سالي" في قفصهما. كان رجلٌ يرتدي زيّاً رسمياً يقود السيارة، وعلى المقعد الأمامي، جلست امرأة عرفت عن نفسها على أنّها سفيرة الولايات المتّحدة، واستدارت نحو ساشا لتشرح لها بهدوء ما يجري.

الغريب أنّ ساشا لم تشعر بأيّ دعر من كونها مُقيّدة، أو من وجودها المُفاجئ وسط غرباء. بل على العكس، أحسّت أنها مُهيّأة لهذه اللحظة، وصوتها الداخلي يُطمئنّها بأنّ كلّ هذا يحدث لمصلحتها... ولحمايتها.

اعتذرت السفيرة عن القيود وعن الرحيل العاجل، وشرحت لها بإسهابٍ ما يجري. ففهمت ساشا القليل؛ شيئاً عن اللجوء السياسي، وعن أنظمة وزارة الخارجية، وعن الطيران فوق المياه الدوليّة. غير أنّ ساشا لم تُعرّ التفاصيل اهتماماً؛ ولم تسمع سوى فكرة واحدة. أنا ذاهبة إلى أميركا.

كان الصوت في داخلها يحثّها على أن تكون مُمتنّة ومُتعاونة، لكنّها لم تكن بحاجة إلى أيّ تشجيع. فالذهاب إلى أميركا كان حلمها منذ أن كانت فتاة صغيرة تشاهد الأفلام الرومانسيّة وتغرق في خيالها. تساءلت إن كانت ستصل يوماً إلى نيويورك لترى سنترال بارك ومطعم كاتز ديلي ومبنى إمباير ستايت.

ومع أنّها لم تفهم تمامًا كيف جرى كلّ هذا، لكنّها خمّنت أنّ له علاقة بالعمل الذي كانت تؤدّيه بإخلاصٍ للدكتورة غسنر. والأمر المؤكّد الوحيد أنّ السفارة الأميركية جعلت ذلك ممكنًا.

إنّها إنسانةٌ يُمكنني الوثوق بها، صديقةٌ جديدة. هذا ما شعرت به.

جلست وحدها في دفء السيّارة مع قطّيعها، تنتظر أن تتبدّد الغشاوة عن ذهنها. راقبت عنصر المارينز وهو يحمل حقائبها إلى الطائرة، وأدركت أنّه لم يبقَ لها شيء في براغ. فبعد رحيل بريغيتا، لم يعد لديها لا عمل ولا منزل ولا—

فجأة، تذكّرت من تتركه وراءها؛ مايكل هاريس. لم أقل له وداعًا! لكنّ ذكرياته كانت تتلاشى بسرعةٍ غريبة، كما لو أنّه أصبح مُجرّد حبيبٍ من الماضي البعيد. تذكّرت جملةً من أحد الأفلام، الحبّ الأوّل مهمّ، لأنّه يفتح قلوبنا لما سيأتي بعده.

ولكنّ، ما الذي سيأتي بعده؟ تساءلت ساشا عن ذلك، وقد خامرها شعور جديد بأنّها تدخل عالمًا مليئًا بإمكاناتٍ لا نهاية لها. عاد الصوت الهامس في داخلها. لا تسألني عن ماضيك يا ساشا، انظري إلى مُستقبلِك.

كثيرًا ما كانت تسمع ذلك الصوت. قال لها مايكل ذات يوم إنّ صوت حدسها، أو ذاتها العليا، أو وعيها الباطن. فكلّ إنسانٍ— كما أكّد لها— يحمل في داخله صوتًا يهمس له، ويُطمئنه، ويُرشده. فكّرت ساشا في أن تكتب له رسالة حين تستقرّ في أميركا، ثمّ ما لبثت أن تراجعته. ربّما من الأفضل أن تترك الأمور تمضي؛ فقد شعرت مؤخرًا أنّ علاقتهما توشك على نهايتها.

سمعت صوتًا يُناديها من خارج النافذة: "آنسة فيسنا؟" كان عنصر المارينز قد عاد وفتح لها باب السيّارة. قال وهو يفكّ حزامها ويساعدها على النزول: "إنّهم جاهزون". ثمّ مدّ يده إلى الداخل من جديد، وأخرج برفق قفص الهرّين. "لنضع هَرّيكِ على متن الطائرة، ما رأيك؟"

أومأت بامتنان: "شكرًا لك، سيدي".

ابتسم وقال: "يمكنك مناداتي سكوت، فأنا سأرافقك خلال هذه الرحلة. هل تسمعين لي بأن أناديك ساشا؟"

هتفت وقد شعرت بالحماسة لاقتراحها من الطائرة: "بالتأكيد!"

عند أسفل السُلّم، كانت السفارة تقف وحدها، تنتظر توديعها شخصيًا على ما يبدو. قالت السفارة: "أيّها العريف كيربل، هل يمكنك إدخال الهرّين إلى دفء المَقصورة، ثمّ العودة لمرافقة الآنسة فيسنا؟"

قال: "بكل تأكيد يا سيدتي".

وما لبث أن حمل القفص وصعد الدرج، ثم اختفى داخل الطائرة.

تأملت السفيرة ساشا باهتمام، وقالت: "أعلم أن ما يحدث مُفاجيء، وأن عليك استيعاب الكثير. فهل أنت بخير؟"

كانت ساشا تحاول التماسك وسط خليط من الامتنان، والحيرة، والانفعال، والذهول. إذ وعدتها السفيرة مرارًا بأن كل شيء سيتضح قريبًا. كما أكدت لها أنها ستلحق بها إلى الولايات المتحدة؛ وهي فكرة منحت ساشا طمأنينة عميقة.

قالت بصوت مُرتجف: "أنا... بخير. ما زلت مُشوَّشة قليلًا، لكنني أعلم أنك كنت طيبةً معي للغاية". صمتت لحظةً، ثم أضافت بعينين دامعتين: "كيف يمكنني أن أشكركِ على كل هذا؟"

بدا التأثير واضحًا على السفيرة أيضًا. "صدّقي أو لا تصدّقي يا ساشا... لقد شكرتني فعلاً".
وحين انفجرت ساشا بالبكاء، اقتربت منها السفيرة واحتضنتها طويلًا. وذلك العناق، أعاد إلى ساشا ذكرى أمها حين كانت في الرابعة أو الخامسة... قبل أن تصبح الفتاة المكسورة. في الواقع، لم يُعانقها أحد بهذه الطريقة منذ سنين طويلة.

الفصل 137

كانت شمس الشتاء قد بدأت تشرق على براغ، مُرسلةً خيوطها الخافتة فوق أفقٍ من الأبراج المُغطّاة بالثلج.

شعر لانغدون بشيءٍ من القلق حيال أمرٍ أخير لم يُحسم بعد، عليه أن يتولاه قبل مغادرته وكاثرين المدينة بعد ظهر اليوم. وكان يتساءل عن كيفية تقبّل كاثرين ما سيُخبرها به، فالأمر دقيق وحساس.

قال في سرّه: كدّت أخبرها بالسّر في وقتٍ سابق، لكن على الرغم من رغبته الصادقة في مُصارحتها بما حدث، لم يجد اللحظة المناسبة بعد. قال في سرّه: /ستمع بوجبة فطورك... سيسير كل شيء على ما يرام.

قبل تسعين دقيقة، وبعد حديثٍ مُطوّل مع السفيرة، ووداعٍ مُتردّدٍ مع ساشا، خرج لانغدون وكاثرين من مبنى السفارة - بناءً على توصيةٍ شخصيةٍ من ناغل - إلى فندق ألكيميست الواقع على بُعد عشرين خطوة فقط عبر ساحةٍ مرصوفةٍ بالحصى، لتدوّق فطوره الشهير، پروسكو. أقيم الفندق في قصر باروكي يعود إلى القرن السادس عشر، وقد تمّ ترميمه بعنايةٍ مذهلة. وفي كلّ شتاء، يتحوّل فناءه الداخلي الكبير إلى حلبةٍ تزلّجٍ تتلأأ تحت أضواء القناديل الصغيرة. أمّا قاعة الطعام، فكانت أشبه بمشهدٍ من فيلمٍ أسطوريّ: كراسٍ مُخملية حمراء، وثرّيات مورانو مُتألّثة، وأعمدة ذهبية تلتفّ حولها زخارف كورنثية.

جلس الاثنان إلى مائدة هادئة قرب نافذةٍ تُطلّ على الحلبة، وتناولوا فطورًا فاخرًا اختيّم بفطائر تينٍ مُزيّنة برقاقاتٍ ذهبية صالحة للأكل. وبعد أن شبعوا تمامًا، وتأملاً مُطوّلاً في أحداث الصباح، هما يحتسيان شراب الهندباء الدافئ بصمتٍ، ويتأملان من خلف الزجاج شاتّة وصلت منذ هنيهة، وانحنى لتتعلّ حذاء التزلّج.

"أُثراها فتاةُ الأسطورة؟" سأل لانغدون في إشارةٍ إلى القصة التي رواها لهما النادل عن فتاة تُوفيت في هذه البقعة منذ قرون، وتظهر أحيانًا لتزلّجٍ بهدوءٍ على الجليد.

ردّت كاثرين وهي تراقب الشاتّة التي خلعت معطفها لتكشف عن زيّ تزلّجٍ ضيق مُرصّع بالترتر الأبيض والخرز الفضي: "لا أظنّ ذلك".

شاهدها لانغدون وهي تخطو على الجليد بخطواتٍ مُتعثّرة، على نحوٍ غير معهود لمن ترتدي مثل هذا الزيّ. قال في سرّه: هذا غريب. ثمّ راقبها وهي تترنّح قليلًا، قبل أن تتوقّف في مُتّصف الحلبة، لتنفّس شعرها، وترفع هاتفها، وتبدأ بالتقاط صور سيلفي.

قال: "ها قد حُلَّ اللّغز. مُتَزَلِّجَة إِنْستِغرام!"

رَدَّتْ كاثرين ضاحكة: "إنَّه واقعنا الجديد".

التفت إليها وقال: "ألا يقلقك هذا؟ فشاباب اليوم يعرضون حياتهم أمام العالم على مدار الساعة. أرى هذا كلَّ يوم في الجامعة، فحتَّى أذكى الطُّلاب وأكثرهم طموحًا صاروا مُهتَمِّين بالعالم الافتراضي أكثر من العالم الحقيقي".

قالت كاثرين وهي تحتسي رشفةً من شايبا: "قد تكون مُحِقًّا في ذلك، لكنَّ أوَّلاً، هذا لا يقتَصِر على الشاباب. وثانيًا، عليك الاعتراف بأنَّ العالم الافتراضي عالمٌ حقيقيٌّ بدوره".

"عالم حقيقيٌّ يُعبِّر فيه عن الحبِّ بالرموز، وتُقاس فيه المشاعر بعدد الإعجابات؟"
"روبرت، حين ترى شخصًا مُستغريًا في هاتفه، فإنَّك ترى إنسانًا مُتجاهلاً هذا العالم، لا مُنغوسًا في عالمٍ آخر... عالمٌ يُشبه عالمنا تمامًا، مُكوَّن من مجتمعات، وأصدقاء، وجمال، ورعب، وحبٍّ، وصراع، وخير، وشرٍّ؛ فيه كلُّ شيء. فالعالم الافتراضي لا يختلف كثيرًا عن عالمنا... الفرق الوحيد بينهما واضح". ابتسمت مُضيفةً: "إنَّه غير مَوْضِعِي".

فاجأه التعليق، فيما تابعت كاثرين تقول: "العالم الافتراضي غير مُرتبط بمكانك الجغرافي". فأنت تدخله كعقل بلا جسد... مُتحرِّرًا من كلِّ القيود الماديَّة. فتنتقل فيه بلا عناء، وترى ما تشاء، وتعلِّم ما تشاء، وتتفاعل مع عقولٍ أخرى بلا أجساد".

لم يفكِّر لانغدون في الإنترنت من هذه الزاوية من قبل، فوجد الفكرة مُدهشة ومُثيرة للاهتمام. في العالم الافتراضي، أنا وعيِّي بلا جسد...

قالت كاثرين: "حين نغرق في العالم الافتراضي، فإنَّنا نخوض تجربةً لا مكانيَّة تشبه إلى حدٍّ بعيد تجربة الوعي المغايرة. إذ نصبح بلا وزن، ومع ذلك مُتصلين بكلِّ شيء. فنسقط مُرشحاتنا... ويمكننا أن نتفاعل مع العالم بأسره من خلال شاشةٍ واحدة، ونختبر تقريبًا ما نريده".

أدرك لانغدون أنَّ كاثرين مُحقَّةٌ تمامًا.

أنهت كاثرين آخر رشفة من شراب الهندباء، ثم مسحت شفَتَيْها بالمنديل الكتَّانيّ قائلة: "على أيِّ حال، كتبتُ عن كلِّ هذا في كتابي. قد تبدو الفكرة غريبة، لكنني بدأتُ أعتقد أنَّ الانفجار التكنولوجي الذي نعيشه ليس مجرد تطوُّرٍ علميٍّ، بل هو شكْلٌ من أشكال التطوُّر الروحي... ساحةٌ تدريبٍ لوجودنا القادم، المصير النهائي الذي ينتظرنا جميعًا... وعيِّي غير موضعيٍّ، ومع ذلك مرتبطٌ بكلِّ الأشياء".

استند لانغدون إلى ظهر مقعده، مأخوذًا بعمق الأفكار الرائدة التي تطرحها كاثرين.

قالت بحماسةٍ مُتزايدة: "كلُّ ذلك يصبُّ في فكرةٍ واحدةٍ كبرى؛ الموت ليس النهاية. لا يزال أمامنا الكثير من العمل، لكنَّ العلم يواصل اكتشاف أدلَّةٍ جديدة كلَّ يوم، وهي رسالة

علينا إعلانها للعالم بأسره يا روبرت! إنها سرّ الأسرار. تخيل الأثر الذي قد تحدثه في مستقبل البشرية!"

"ولهذا السبب تحديداً، عليك أن تنشري كتابك!"

انعقد حاجبا كاثرين، وعادت فجأة إلى الواقع، فتمنّى لانغدون لو لم يقل ذلك. كان يعلم أن سي أي إيه وافقت على عدم التدخل في نشر كتابها مُستقبلاً، شرط حذف بعض الفقرات الحساسة واستبعاد القسم المُرتبط بطلب براءة الاختراع. مع ذلك، لم تُبدِ كاثرين أي حماسة للخبر، وهو أمر مفهوم بعد كل ما عانتته مع الوكالة، ناهيك عن فكرة بدء عملية الكتابة من الصفر. انزعج لانغدون لأنّه أحزنها عن غير قصد. فقال بصوت هادئ: "إذا، أما زلتِ ترغبين في رؤية قلعة براغ قبل مغادرتنا؟"

أشرفت ملامح كاثرين، التي فرحت بالانشغال بأمر آخر. "بالتأكيد، فأنا لم أر الكثير ليلة المُحاضرة، وقلت لي إن كاتدرائيّة القديس فيتوس تستحقّ الزيارة". قال وهو يمدّ يده إلى معطفه: "رائع. إنها من هنا، لا يفصلنا عنها سوى تلّ صغير". لكن بينما كان يلبس معطفه، عاد فكره إلى المهمة التي تنتظره. كان لا يزال قلقاً من ردّ فعل كاثرين على الخبر.

نظرت كاثرين حولها باحثة عن نادل: "كنت سأدفع الحساب يا روبرت، لكنّ حقيبتني مَفْقودة".

قال بابتسامة مُطمئنة: "لا تقلقي، أُبلغت بأنّ الفطور على حساب السفارة الأميركية".

* * *

خرجاً معاً من الفندق إلى نور الصباح، وألقيا نظرةً نحو نافذة مكتب السفارة ليُلوّحا بالشكر، لكنّ الغرفة كانت مُظلمة، فتمنّى أن يكون رحيل ساشا قد مرّ بسلام، وأن تكون هايدة ناغل تستعدّ للنوم أخيراً.

كانت السفارة قد وعدتهما بإرسال طردٍ إلى الفندق في الصباح يحتوي على نفقات السفر، وتذكرتي طيرانٍ بالدرجة الأولى، ورسالتين دبلوماسيتين لتسهيل عودتهما بلا متاعب. قالت لهما: "هذا أقلّ ما يمكن فعله بعد الساعات الأربع والعشرين الماضية".

سارت كاثرين إلى جانب لانغدون في الزّقاق المَرصوف بالحجارة، والمعروف باسم ترَجِسْتِه، والمُؤدّي صعوداً إلى قلعة براغ. أحاط خصرها بذراعه، وطبع قبلةً على خدّها، فابتسمت واقتربت منه أكثر. غير أنّهما ما إن صعدا بضع خطوات حتّى توقّف لانغدون فجأة، كأنّه بدّل رأيه.

قالت مُمازِحَةً وهي تُشير إلى معطفه الأحمر المُتَنَفِّخ: "هل المُنَحَدَر شديداً عليك بهذا المعطف؟" كانت قد اقترحت عليه مراراً استبداله بواحد عصريّ.

أجاب وهو يرفع كَمَّهُ ليتفحص ساعة ميكي ماوس: "لا... لكنني تذكرت أن عليّ إنجاز بعض الأوراق الرسميّة قبل مغادرة البلاد. ما رأيك في أن ألتقيك هناك؟" سألته بقلق: "أوراق رسميّة؟"

قال مُتردّداً: "لم أرغب في إخبارك بكلّ ما حدث أمس، فقد كان كلّ شيءٍ فوضويّاً، وبقي أمرٌ واحد فقط عليّ تسويته".

تغيّر وجه كاثرين وهي تتذكّر أنّه اضطرّ أمس إلى إخلاء فندقٍ فاخر، والتملّص من الشرطة التشيكيّة، فسألته: "هل كلّ شيءٍ على ما يرام، روبرت؟ هل نحتاج إلى إبلاغ السفارة؟"

أجابها مطمئناً: "سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام، أعدك".

"هل أرافقك؟"

"شكراً، لكن لا أريدك أن تفوّتي هذه النزهة الجميلة. فالمنظر مُذهل من الأعلى. سأستقلّ سيارة أجرة، وأنهي الأمر بسرعة، بحيث نصل إلى القلعة في الوقت نفسه تقريباً". قالت كاثرين بصوت لا يزال فيه شيء من الاضطراب: "كما تشاء. أين نلتقي إذا؟" فكّر لانغدون لحظة، ثم قال: "أراك عند الباب ذي الأقفال السبعة". حدّقت إليه باستغراب: "باب... بسبعة أقفال؟"

أوما برأسه قائلاً: "إنّه أحد أكثر الأبواب غموضاً في أوروبا. أسألي عنه عندما تصلين". قالت مُعترضة: "روبرت، لماذا لا نلتقي عند مكتب الاستعلامات مثل الناس العاديين؟"

فطبع قبلةً على خدّها، ثم همس قائلاً: "لأنّ العاديّ... ممّل أكثر ممّا تظنّين".

الفصل 138

على ارتفاع شاهق فوق محيط غارق في العتمة، بدأ الضابط سكوت كيربل يشعر بالإرهاق يتسلل إلى جسده. كانت الطائرة تشق طريقها غربًا، مُسابقةً شروق الشمس، حين نهض من مقعده مُتجهًا إلى الجزء الخلفي من الطائرة ليجري تفقّدًا أخيرًا قبل أن يُغمض عينيه.

وجد ساشا مُستغرقة في نوم عميق.

كان كيربل قد فكّ الأصفاد، واستبدل بها قيدًا واحدًا عند الكاحل، ثبته بمقعدها. كما أخرج الهرّين هاري وسالي من صندوق السفر، وهما نائمان الآن على المقعد المجاور لها، متشابكين ككرة من الفراء، يُخرخران بنغمة واحدة.

عاد إلى مقعده وخلع سترته، فشرع بالقرص المشفّر في جيبه. أخرجته وتأمله لحظة، مُسائلًا عمّا يحتويه من أسرار جعلت السفيرة تمتلك بفضلها مثل هذه القوة. وحين نظر إلى لوحة المفاتيح الصغيرة المُدمجة فيه، تذكّر ما عليه قوله للمدير بشأن كلمة المرور المُؤلّفة من ستة عشر حرفًا.

الحرف الأول من كل كلمة في اقتباسك المُفضّل لكسنجر.

تأمل كيربل في الأمر لحظة، ثم أخرج هاتفه وسأل تطبيق ChatGPT عمّا إذا كان مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة غريغوري جاد قد استشهد في أيّ من خطاباتهِ العلنيّة بأقوالٍ لهنري كسنجر. وتبيّن أنّه فعل ذلك كثيرًا... وكثيرًا جدًّا؛ ودائمًا بالجملة نفسها، يسبقها التعليق المُعتاد: "وحده كسنجر استطاع أن يُعبّر عن حقيقة هذا التعقيد في ست عشرة كلمة".

A country that demands moral perfection in its foreign policy will achieve neither perfection nor security.

الأمة التي تُطالب بالكمال الأخلاقي في سياستها الخارجيّة لن تحقّق الكمال ولا الأمن اللذين تنشدهما.

ردّد كيربل الأحرف الأولى في سرّه، ACTDMPIIFPWANPNS، وأدرك أنّه يستطيع بسهولة فتح القرص والوصول إلى ما بداخله من بيانات. لكنّه كان يعلم أيضًا أنّه لن يخون ثقة السفيرة إطلاقًا. هكذا، ومن دون تردّد، أعاد القرص إلى حقيبته العسكرية، استعدادًا لتسليمه إلى المدير.

Semper Fidelis، الإخلاص هو ما فُكّر فيه بينما كان يُغمض عينه أخيراً ليستسلم للنوم.

* * *

على المقعد الخلفي من المَقصورة المُعتمة، خرج الغولم من الظلال. كانت ساشا مُستغرقة في نوم عميق، فتقدّم بهدوء إلى واجهة عقلها، وفتح عينيه ناظرًا من النافذة. لم يرَ في الأسفل سوى السواد... الفراغ العظيم الذي يفصل العالم القديم عن العالم الجديد. ستكون أميركا بدايةً جديدةً لساشا... كما كانت عبر التاريخ لملايين البشر؛ فرصة ثانية. وللمرة الأولى، أيقن الغولم أن إخلاصه وحبّه لساشا لن يذهبا سدى. الكون يُساعد مَنْ يفهمونه.

وعلى الرغم من ثقته المُتزايدة بأنّ السفارة ستوفّر لساشا الأمان، إلّا أنّه لم يكن ينوي تركها تمامًا، ليس بعد. سيواصل مُراقبتها من بين الظلال، وسيبتعد يومًا بعد يوم، مُنسحبًا من حياتها تدريجيًا، حتّى يُصبح مجرد همسة خافتة في ذهنها. بدت الفكرة مُحزنة، لكنّها منحتَه في الوقت نفسه إحساسًا عميقًا بالرضا.

كلّما قلّت حاجتها إليّ، أكون قد أتممت الغاية التي أتيت من أجلها.

كان الغولم يدرك أنّ في وسعه أن يترك ساشا كليًا، ليتحرّر ويعود إلى العالم الذي أتى منه، لكنّه كان يشعر في قرارة نفسه بأنّ جزءًا منه سيبقى معها دائمًا... كحارس. سيظهر بهدوء... كحدسٍ غامض، أو إحساسٍ داخليّ، أو إلهام... كدفعة صغيرة من روح أكثر خبرة، آتية من عالمٍ آخر.

ستعيش ساشا الحياة التي تستحقّها.

برضا عميق، أغمض الغولم عينه، وأذن لنفسه بأن يستغرق في نوم عميق لم يعرفه منذ زمنٍ بعيد.

همس بصوتٍ خافت: "Спокойной ночи, милая... تصبحين على خير، يا حبيبتي".

وبينما كان يغرق في النوم، امتدّت يده اليسرى من دون وعي، لتلامس برفقِ الهرّين السياميّين اللّذّين يُخرخران بجانبه.

الفصل 139

بعد مَشَقَّة صعود تَلَّة القلعة، توقَّفت كاثرين لتلتقط أنفاسها، وتحاول في الوقت نفسه استيعاب حجم البُنيان المَهيِّب القابع أمامها. فقلعة براغ ليست قلعة بالمعنى التقليدي... بل مدينة مُسَوَّرة مُترامية الأطراف.

كان هذا الحصن الذي يحتلُّ قَمَّة التَّل يمتدّ - كما أخبرها روبرت - على مساحة تزيد عن خمسة عشر آكراً، ويضمُّ أربعة قصور، وقاعتين كبيرتين، وسجناً، ومستودع أسلحة، هذا فضلاً عن مَقَرِّ إقامة رئاسي، ودير، وخمس كنائس، من بينها واحدة تُعدّ من أكبر كنائس العالم... كاتدرائية القديس فيتوس.

قبل ليلتين، حين جاءت كاثرين لإلقاء محاضرتها هنا، وصلت بالسيارة وأدخِلت إلى قاعة فلاديسلاف عبر بوابة جانبية مُتواضعة ذات أعمدة، تقع في الجهة الجنوبيَّة من المُجمَّع. في الأرجح لثُلا أُصاب بالذعر، هذا ما فكَرت فيه وهي تتأمل الممرَّ المَهيِّب المُمتدَّ أمامها الآن عند المدخل الرئيس.

كانت القلعة مُحَصَّنَةً بجدارٍ خارجيٍّ ضخيمٍ بارتفاع خمسة طوابق، يحميه من الخارج سياجٌ حديديٌّ شاهقٌ ومُسَنَّ، تتوسَّطه بوابة حديدية يحرسها جنديانِ مُسلَّحانِ بالزِّي الرسمي. وعلى جانبي البوابة، نُصب تمثالانِ ضخمانِ لرجلينِ مَفْتُولي العضلات يطعنانِ ويضربانِ خصمَينِ أضعف منهما.

قالت كاثرين في سرّها: وصلت الرسالة.

عبرت البوابة، وسارت عبر مَتاهة من الممرَّاتِ والساحاتِ، حتَّى خرجت إلى ساحةٍ واسعةٍ مرصوفةٍ بالحجارة. وما إن رفعت رأسها، حتَّى وجدت نفسها أمام واجهةٍ مُذهِّلة الارتفاع لصرح يكاد يصعب التصديق أنّه قائم داخل أسوار القلعة. كاتدرائية القديس فيتوس.

كلُّ ما كانت تعرفه عن هذه الكاتدرائية أنّ لانغدون يعدّها تحفةً معمارية. وكان أكثر ما يعجبها فيها برج الأجراس، الذي يبلغ ارتفاعه مئة متر، ويضمُّ واحدًا من أكبر أجراس أوروبا؛ جرسًا هائلًا يُدعى زيكوموند، ويبلغ وزنه سبعة عشر طنًّا، لا يُقرَّع سوى في الميлад والفصح، خشية أن تتسبَّب ارتجاجاته في إضعاف البرج العتيق.

وقفت كاثرين هنيهة تتأمل البرج المَهيِّب، ثمَّ اتَّجهت إلى المدخل، مُتَشَوِّقة للعثور على ذلك الباب الغامض الذي أخبرها أحد الحراس أنّه داخل الكاتدرائية.

الباب ذو الأقفال السبعة . ما زالت تجهل كل شيء عنه، لكنها كانت تأمل أن تجد لانغدون بانتظارها هناك. فصعودها الطويل استغرق وقتاً أكثر مما توقعت، بينما استقل هو سيارة أجرة، ولعلّ أموره الإدارية انتهت سريعاً.

كان قلب الكاتدرائية تماماً كما تخيلته؛ فسيحاً، مهيباً، ومُترفاً كسائر الكاتدرائيات الأوروبية التي زارها. لكنها لم تكفّ عن التساؤل عن كيفية إمضاء البشر قرونًا في تشييد هذه الصروح، في زمنٍ كانت فيه الأوبئة والحروب والمجاعات تحصد أرواح الملايين. فكّرت في ذلك وهي تمضي ببطء في أرجاء الكنيسة، تتلفّت بحثًا عن لانغدون. كانت الكاتدرائية شبه خالية في تلك الساعة، وحين سألت المرشد الوحيد هناك عن الباب الغامض، أشار عبر الممرّ المركزي لصحن الكنيسة إلى فتحة ذات قنطرة إلى اليمين، قباله وسط المحراب. همس قائلاً: "كنيسة فينسيلاس".

كانت القاعة خالية، لكنّ جمالها الأسر خطف أنفاسها؛ أرضية من الرخام الرماديّ، وجدران مغطاة بلوحات جدارية ترتفع عدّة طوابق نحو سقفٍ مُقَبَّب. في وسط القاعة، قبع صندوقٌ ضخم مُستطيل الشكل، مُؤلّف من عدّة طبقات، ومُرَصَّع بالأحجار الكريمة، تعلوه مظلةٌ مُدبّبة. بدا المنظر فريدًا؛ الأمر الذي دفع كاثرين إلى قراءة اللوحة التوضيحية لفهم ماهيته. تابوت ملكي.

اتّضح أنّ هذا الصندوق يضمّ رفات "ملكٍ" شهير لم يكن ملكًا في الواقع، بل أميرًا طيّب القلب. شعرت كاثرين بالسرور حين قرأت أنّ مدفن الملك الطيّب فينسيلاس هو أيضًا البوابة المؤدية إلى جواهر التاج البوهيميّ الثمينة... المحفوظة في قبرٍ لا يمكن الوصول إليه إلّا عبر بابٍ شهيرٍ بسبعة أقفال.

أسرعت إلى الباب في زاوية القاعة. كان لوحًا معدنيًا ضخماً رماديّ اللون، تتشابك عليه أشرطةٌ دايمة متصالية ومُثبتة بمسامير ضخمة على شكل معيّنات. رُيّنت تلك الأشكال بنقوشٍ لأسودٍ ونسورٍ مُتحفّزة، هي في الواقع رموز مأخوذة من شعار النبالة التشيكيّ. وعلى طول الجانب الأيسر، امتدّ صفٌّ من الأقفال المُزخرفة، ولم تُدهش كاثرين حين وجدت أنّ عددها سبعة، يُحيط بكلٍّ منها إطارٌ مُدرّج.

نظرت خلفها إلى القاعة الخالية، ثمّ بشيءٍ من الحرج، حاولت فتح الباب. إنه موصد.

انتظرت بضع دقائق أخرى من دون أن يظهر لانغدون، فما كان منها إلّا أن عادت إلى المحراب الرئيس، وجلست على مقعدٍ خشبيّ لتريح قدميها. استرخت قليلًا، لكنّ قلقها على لانغدون كان يتزايد. هل أصابه مكروه؟

لنشيت أفكارها، حوّلت نظرها إلى المذبح الرئيس، وراحت تتأمل تلك البنية المذهلة من الأبراج الذهبية دقيقة الصنع التي تتلأأ خلف الزجاج الملون. لا شك في أنّ هذا المبنى إنجازٌ بشريٌّ مذهش، وعملٌ فنيٌّ فخم.

حتى المنبر تحفة فنية، فكَرت في ذلك وهي تتأمل القاعدة المنحوتة بدقة مُتناهية والمُثبتة إلى عمودٍ مُجاور. كان الوصول إليه يتم عبر درج حلزونيّ أنيق، يعلوه سقفٌ مُذهب تلتفّ حوله تماثيلٌ صغيرة. بدا المكان كأنه صُمم ليُكبب الخطيب سُلطة هائلة. فجأة، تنهى إليها صوتٌ عميق عبر القاعة الواسعة: "ها أنتِ ذا!"

التفتت، فرأت لانغدون يخرج من كنيسة فينسيلاس مُسرِعاً نحوها، وكان لا يزال بمعطفه الأحمر المُتفتّح. قال لاهئاً: "لم أركِ هناك، وظننتُ أنكِ رحلت. هل وجدتِ الباب ذا الأقفال السبعة؟"

أجابته: "نعم، والمفاجأة أنّه موصد!"
ابتسم لانغدون وقد بدا أكثر ارتياحاً الآن: "حسنًا، إن أردتِ مني فتحه، فسأحتاج إلى إجراء سبعة اتّصالات؛ بالرئيس، ورئيس الوزراء، ورئيس الأساقفة، والمدير، والعميد، والعمدة، ورئيس الغرفة التجارية."

"لن أسألك حتى عن كيفية معرفتك ذلك يا روبرت. هل أنهيت أعمالك الإدارية أخيراً؟"

أجاب: "نعم، كلّ شيء بات جاهزاً."
تنفّست كاثرين الصُعداء. "ألن تخبرني ما الذي يجري؟"
قال مُتردّداً، وقد بدا أنّه انشغل بالمنبر المُجاور: "سأخبرك... مهلاً." ألقى نظرةً حول الكاتدرائية الخالية، ثمّ عاد ببصره إليها وقال: "اجلسي هنا، أريد أن أريك شيئاً." ثمّ توجّه إلى سُلم المنبر، وتجاوز ستارة مُخملية كانت تحجب ما وراءها.
"روبرت، ماذا—"

غير أنّه تابع صعوده على الدرج الحلزونيّ. وحين وصل إلى القمّة، لم يظهر منه سوى رأسه فوق المنبر. بدا أنّه كان يتفحص إنجيلاً ضخماً مفتوحاً على المُقرأ. أخيراً، قال بجديّة: "كاثرين، أودّ أن أقرأ لك بعض المقاطع. افتحي قلبك وأصغي إليها."
مقاطع من الكتاب المُقدّس؟ "لا أفهم—"

حتّى قائلاً: "أصغي فحسب، أظنّ أن هذه الكلمات ستبعث الطمأنينة في نفسك."
حدّثت إليه بحيرة وهو يخلع معطفه ويضعه أرضاً، ثمّ يُقلّب الصفحات كمن يبحث عن فقرة مُحدّدة.

وحين استقام في وقفته، تنحنح ونظر إلى عينيها، ثم حوّل نظره إلى الكتاب مُجددًا. أخيرًا، بدأ يقرأ، وصدق صوته العميق في أرجاء الكاتدرائية، صافيًا وقويًا: "لقد ثبت الآن أنّ الرُّضّع قادرون على اختبار الوعي منذ الولادة... الأمر الذي ينسف فكرتنا القائلة إنّ الوعي يتطوّر بمرور الوقت".

تجمّدت كاثارين في مكانها. ماذا؟ ماذا قال؟!

قلب لانغدون بضع صفحاتٍ أخرى وتابع: "والأهمّ أنّنا اكتشفنا دليلًا قاطعًا على نشاطٍ مُكثّف لموجات غاما في الدماغ في أثناء الاحتضار".

قفزت كاثارين من مكانها وقد أدركت تمامًا ما يقرأه. هذا! مستحيل! انطلقت مُسرعة نحو المنبر، بينما تابع لانغدون قراءة مقطع آخر.

قال بصوتٍ جهوريّ: "تسجّل مستويات GABA هبوطًا حادًا في اللحظات التي تسبق الموت، ومعها، تنهار قدرة الدماغ على تصفية أوسع أطياف التجربة الإنسانية التي تبقى عادةً مَجهولة لنا".

صعدت كاثارين الدّرج الحلزونيّ بسرعة، وقلبها يخفق بعنف. صاحت: "روبرت!" وحين بلغت المنبر توقفت فجأة، وراحت تحدّق مذهولة إلى الرزمة المألوفة من الأوراق المطبوعة بالليزر والموضوعة فوق الكتاب المقدّس الضخم. قالت بذهول: "أهذه مخطوطتي؟!"

هزّ لانغدون كتفيه، وأجاب بابتسامة جانبيّة: "على ما يبدو، نعم". أدركت كاثارين الآن أنّه كان يحمل المخطوطة تحت معطفه في الأرجح: "لكن... ظننتُ أنّك أحرقتها!"

قال مُبتسمًا: "قائمة المراجع فحسب يا عزيزتي، أمّا ما تبقى فخباته خلف مجموعة من الكتب القديمة في شرفة المكتبة".

أصبحت كاثارين بالدّهول، وتخيّلت النار التي أشعلها لانغدون على الدّرج المعدنيّ، وقطع الورق المتفحّمة وهي تتساقط على الأرض تحتها. "لكن... كانت النار كبيرة جدًّا". أخذت تحدّق إليه وقد بدأت تفهم ما فعله.

قال لانغدون: "بالفعل. فأنت وحدك القادرة على الاستشهاد بمصادر تمتدّ على اثنتين وأربعين صفحةً مُزدوجة المسافة. ألا تعلمين أنّ الناشر يضع ذلك في نهاية الكتاب؟ على أيّ حال، خلطتُ معها بعض الصفحات الفارغة المصنوعة من الرقّ القديم من أحد السجلات هناك. فدهن الحيوان يُنتج دخانًا أسود كثيفًا".

اجتاحت كاثارين عاصفةً من المشاعر المُختلطة؛ راحة، وامتنان، ودهشة، وغضب في آنٍ واحد. مخطوطتي لم تحترق؟!

سألته: "ولماذا لم تخبرني؟! ألم تر أنني كنتُ مُحطَّمة!"

بدا الندم بصدق على وجه لانغدون، وقال بصوتٍ مُفَعِّمٍ بالأسف: "صدَّقيني يا كاثرين، كنتُ أتوق إلى إخبارك. فقد كان من المؤلِّم لي أن أراك تُعانين، لكننا كنَّا وسط فوضى، وعلى وشك أن نُعتَقَل ونُستَجَوَّب. لم أُرِد أن أضعك في موقفٍ تُضطرِّين فيه إلى الكذب. كان عدم معرفتك بوجود المخطوطة أكثر أمانًا حتَّى تنجلي الأمور؛ فأخبر ما أردتُه أن تُصادرها الاستخبارات التشيكية مُجدِّدًا، أو ما هو أسوأ".

في الواقع، لم تكن كاثرين بارعة في الكذب، وكلاهما يعرفان ذلك... لذا، أدركت أنه على حق. *تضليل عبر الخداع*، كما قالت ناغل. حتَّى إنَّه لم يخبر جوناس بالأمر عبر الهاتف. قال بلطفٍ: "أتمنَّى أن تسامحيني... صدَّقيني، لم يكن من السهل عليّ الاحتفاظ بهذا السرّ".

ألقت عليه نظرةً يصعب تفسيرها، ثم تقدَّمت نحوه وأحاطته بذراعيها. "أوراق رسمية؟ أحقًّا؟"

أوضح قائلاً: "أوراق رسمية مُهمَّة جدًّا... أهمّ من أن تُحرق". شدَّت ذراعيها حوله أكثر، وقالت وهي ترفع رأسها نحوه: "لكنّ ثمة أمر واحد لا أصدِّقه، هل قام البروفيسور لانغدون المُحتَرَم حقًّا بانتزاع صفحاتٍ من كتابٍ أثري؟" فردّ قائلاً: "صفحات فارغة، لن يفتقدها أحد. وكما كان يقول أستاذ اللغة الإنكليزية في مدرستي الداخليَّة، الأستاذ ليلتشاك: من شأن الكتاب المناسب في اللحظة المناسبة أن ينقذ حياتك".

فهقهت وقالت: "أنا واثقة تمامًا من أن مقصده كان مُختلفًا". قال مُبتسمًا: "ربَّما".

لم تعرف كاثرين كم من الوقت كان قد مضى عليهما هناك، على منبر كاتدرائيَّة القديس فيتوس، حين بدأت الأجراس الضخمة تُقرَع فوق رأسيهما. كانت غارقةً في فرحة استعادة مخطوطتها، وفي دفء العاطفة التي اجتاحت قلبها تجاه هذا الرجل. همست: "أحبُّك يا روبرت لانغدون. أنا آسفة لأنني احتجْتُ إلى كلِّ هذا الوقت لأدرك ذلك".

الخاتمة

استيقظ روبرت لانغدون على قرع طبولٍ عسكريّة، إيقاعٌ مُنفردٌ ثابتٌ على طبلٍ صغير، كأنّه يقود جيشًا صغيرًا إلى المعركة. فتح عينيه ببطء، على نافذة مُطلّة على حديقةٍ غناء مُغطّاةٍ بالثلوج، تمتدّ تحت سماء الشتاء. بعيدًا، كانت أولى خيوط الفجر تتسلّل عبر مَتَاهة ناطحات السحاب.

تذكّر وهو يستعيد حدة ذهنه تدريجيًّا، مانهاتن، فندق ماندارين أورينتال، الطابق الثاني والخمسون.

استمرّ القرع، وبدأ قريبًا هذه المرة. جلس لانغدون على السرير، فرأى كاثرين مُستيقظة إلى جانبه، ومُستندةً إلى مرفقها، تبسم وشعرها مُبعثر. كانت تعبت بهاتفها الجديد، الذي اتّضح الآن أنّه مُصدّر ذلك العزف الإيقاعي. قالت: "سُمتُ من مقطوعة غريغ "مزاج الصّباح"، فبدلت نغمة المنبه".
إلى إيقاعٍ حربيٍّ؟ لكنّه ما لبث أن سمع نايًا ينضمّ إلى الطبل بلحنٍ مألوف، فتساءل بدهشة: "مهلاً... أهذه بوليرو؟"
أجابت بهزة بريئة من كتفيها: "ربّما".

كانت بوليرو من روائع رافيل الأوركستراليّة، وغالبًا ما توصف بأنّها أكثر المقطوعات الكلاسيكيّة عاطفيّة، و"الموسيقا المثالية للمحبّين"، إذ تتسم بإيقاعٍ مُتكرّرٍ نابضٍ يمتدّ خمس عشرة دقيقة، ويتصاعد تدريجيًّا حتّى يبلغ الذروة.

قال لانغدون وهو يتزعج الهاتف منها ويرفع الصوت، قائلاً: "تلميحاتك واضحة للغاية!" ظلّ يحدّق إلى عينيها صامتًا عشر ثوانٍ، لا يفعل شيئًا سوى الإصغاء إلى الطبل والناي.
قالت أخيرًا: "روبرت، ماذا تفعل بالضبط؟"
أجاب: "أنتظر دخول الكلارينيت في الفقرة الثامنة عشرة... فأنا لستُ همجيًّا".

* * *

بعد ساعة، كان الاثنان يتلذّذان بفطور فاخرٍ من خدمة الغرف، فيما تسلّلت أشعة الشمس إلى الغرفة المُطلّة على سنترال بارك.
كان جسد لانغدون غاية في الاسترخاء، لكنّ عقله كان يقظًا ومُترقبًا للقاء ما بعد الظهيرة مع جوناس فوكمان في برج راندوم هاوس.

ما زال لا يعرف أننا نملك المخطوطة.

كانت مخطوطة كاثرين محفوظة بأمان في خزانة الغرفة، ومربوطة بشريطين مطاطيين كبيرين. فقبل مغادرتيها براغ، صنعنا ثلاث نسخ منها، وأرسلناها بطريقة آمنة؛ واحدة لكاثرين، وأخرى لانغدون، والثالثة لجوناس. ومع قليل من الحظ، لن يحتاجوا إلى أي منها؛ فمقر بنغوين راندوم هاوس لا يبعد سوى بضعة شوارع.

سألها لانغدون: "هل اخترت عنوانًا؟ سيسألك جوناس عن ذلك".

رفعت رأسها قائلة: "للكتاب؟ ليس بعد...".

"أسألك لأنك قلت شيئًا في براغ ما زال يتردد في رأسي. وأظن أنك وجدت العنوان

المثالي".

"أحقًا؟"

"قلت إنه إذا استطاع العلم أن يثبت نظريتك حول الوعي، فعلينا إعلان هذا الاكتشاف للعالم بأسره. وسميته سر الأسرار... قلت إنه سيحدث تأثيرًا هائلًا في مستقبل البشرية".

"أذكر".

صمت لانغدون، ولزمت كاثرين الصمت هي أيضًا. فسألها أخيرًا: "ألا تسمعيه؟ سر الأسرار. فكّري فيه قليلًا؛ فالسؤال المحوري في الكتاب: ماذا بعد الموت؟ هو في الحقيقة أعمق سر شغل عقول البشر منذ فجر التاريخ... إنه حقًا سر الأسرار".

قالت كاثرين بشيء من التردد: "كعنوان للكتاب؟ لا أدري... يبدو لي..."

"مثل عناوين الكتب الأكثر مبيعًا؟"

"كنت سأقول: مُبالغًا فيه بعض الشيء".

ضحك قائلاً: "حسنًا، حدسي يُنبئني أن ردهة بنغوين راندوم هاوس ستفرغ قريبًا مكانًا على رفوفها لأحد الكتب الكلاسيكية المُقيلة".

اغرورقت عينا كاثرين بالدموع، وانحنت لتعانقه برفق.

قالت هامسة: "شكرًا لك يا روبرت... على كل شيء".

جلسا طويلاً في صمت هادئ، يتأملان من خلف زجاج النافذة صخب المدينة التي تعج بالحياة في الأسفل. أخيرًا، نهضت كاثرين ونظرت إلى ساعتها، ثم قالت: "لدينا خمس ساعات لاستكشاف المدينة. سأستحم أولاً، ثم ستتولى أنت دور المرشد السياحي".

قال لانغدون: "إنها فكرة ممتازة. سنبدأ بكنيسة ترينيتي، ثم كاتدرائية القديس يوحنا،

والقديس باتريك، وكنيسة غريس، ودير—"

قاطعته بسرعة وهي تستدير نحوه: "روبرت! لا!"
ضحك وقال مُطمئناً: "كنت أمزح يا عزيزتي. لا تقلقي، أعرف تمامًا إلى أين
سأذهب".

* * *

كانت سفينة الرحلات التابعة لدائرة مانهاتن تشقّ مياه ميناء نيويورك المُتقلّبة. وفي نسيم
الصباح البارد، انزلق طائر عُقاب البحر برشاقةٍ إلى يسار المركب، بحثاً عن فريسته الأولى.
عند مقدّمة السفينة، جلست كاثرين سولومون مُحاطةً بذراع لانغدون، وهي تستنشق رائحة
البحر المالح، وتستمتع بدفء جسده إلى جانبها.

همس لانغدون وهما يقتربان من وجهتهما: "أليست مُدهشة؟"
قالت في سرّها: بلى، لم أكن أتخيّلها بهذه العظمة...

أمامهما، ارتفع فوق سطح الماء بأكثر من ثلاثمئة قدم تمثال امرأة تقف شامخة على
جزيرتها الصغيرة، يفيض منها وقارٌ مهيب. في يدها اليمنى المرفوعة، كانت تحمل مشعلًا
ذهبيًا تلتألاً شعلته المظليّة بذهب من عيار أربعة وعشرين قيراطاً تحت شمس الصباح.
ومع اقتراب السفينة، بدأت كاثرين تُميّز تفاصيل التمثال النحاسيّ المَكسوّ بلون
الزنجار الأخضر؛ سلاسل الحرّية المُحطّمة عند قدميّها، وطيّات ثوب العدالة الذي ينسدل
برقّة، واللوح الحجريّ في يدها اليسرى، الذي يحمل تاريخ ميلاد الأُمّة، وتلك النظرة
الثابتة والهادئة التي تبعث الطمأنينة... وفوق رأسها، الرمز القديم الذي جاء لانغدون ليُريها
إياه.

التاج المُشع.

كانت الهالة الشائكة التي تزيّن رأس تمثال الحرّية هي نفسها التي توجّت عقولاً
مُستنيرة عبر العصور. كان يُقال إنّ الأشعة السبعة - التي يزيد طول كلّ منها على تسع أقدام -
ترمز إلى أنوار الاستنارة التي تشعّ من هذه الأُمّة الفتية لتضيء القارات السبع بأسرها.
العكس هو الصحيح، هذا ما اعتقدته كاثرين، التي رأت فيها أنواراً تندفّق إلى
الداخل... تمثّل تيار الثقافات واللغات والأفكار الآتية من القارّات السبع، لتصبّ جميعها
في بوتقةٍ واحدة؛ عقل أميركا. فقد أسّست هذه الأُمّة لتستقبل مهاجرين مشتبّهين من أنحاء
العالم، تدفّقوا إليها ليعيشوا فيها تجربةً إنسانيةً مُشتركة.

وبينما كانت تحدّق إلى تمثال الحرّية، تردّد في ذهنها صدى الملايين الذين قصدوا هذه
السواحل ساعين وراء تحقيق أحلامهم. كما فعلت أسرتي... قبل أجيال. لقد رحل أجدادها

المُهَاجِرُونَ منذ زمن، لكن إلى أين؟ ما زالت لا تعرف. فما أيقنته هو أنّ الوعي أكثر تعقيدًا بكثير ممّا نتصوّر.

اشتدّت الرياح، فأسندت رأسها برفقٍ إلى كتف لانغدون، وقد غمرها صفاءٌ داخليّ لم تعرفه من قبل. نظرت إليه وقالت:

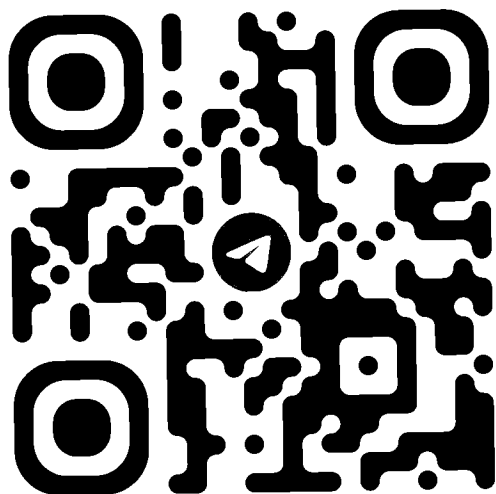
"أتمنّى لو نستطيع الوقوف هنا إلى الأبد".

ردّ مُبتسمًا: "وأنا كذلك... لكن لديكِ كتابٌ عليك تسليمه".

— النهاية —

مكتبة

t.me/soramnqraa



سجل في مكتبة

اضغطا الصفحة

SCAN QR

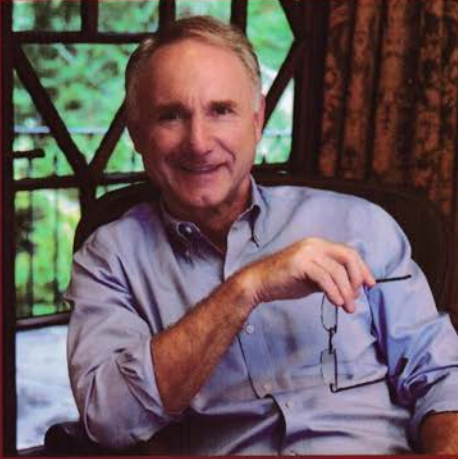
خلال رحلة برفقة العالمة المرموقة كاثرين سولومون- التي دُعيت للقاء محاضرة في براغ- يجد روبرت لانغدون نفسه في دوامة تخرج عن السيطرة، حين تختفي كاثرين من غرفتهما في الفندق من دون أثر بعيداً عن وطنه، وخارج محيطه المعتاد، يُضطر لانغدون إلى مواجهة قوى مجهولة لاستعادة المرأة التي يُحبها.

لكن براغ مدينة موهلة في القدم، تزخر بالأساطير ويكتنفها الغموض. فعلى مدى ألفي عام، تقاذفتها أمواج التاريخ، فتركت في حاراتها صدى ما مضى من أحداث وتقلبات. ولم يكن لانغدون يدرك أن طيفاً من ماضي المدينة المظلم يراقبه من كتب. غير أنه يجد نفسه مُرغمًا على الاستعانة بكل ما في جعبته من معارف غامضة لفك رموز ذلك العالم من حوله، قبل أن تبطله هو الآخر دوامات الخداع والخيانة التي ابتلعت كاثرين.

هكذا، يجد لانغدون نفسه في مدينة سرّية تختبئ في وضوح النهار، مدينة احتفظت بأسرارها قرونًا طويلة، ولن تُفصح عنها بسهولة.

إنها ساحة معركة لم يشهد لها مثيلاً من قبل، سيتحتم عليه فيها أن يُقاتل؛ ليس من أجل حياته فحسب، بل من أجل مستقبل البشرية نفسها.

في رواية «سرّ الأسرار»، يرجع دان براون إلى عالم الرواية بعد طول غياب، مُعيداً إلى الواجهة عالم الرموز في جامعة هارفارد، روبرت لانغدون، في مغامرة جديدة تقوده إلى قلب مؤامرة ستمتحن عبقريته حتى أقصى حدودها، وتُعرض كل ما يعتز به لخطر الضياع.



دان براون هو مؤلف ثمانية روايات تصدرت جميعها قوائم المبيعات، من بينها «شيفرة دافنتشي»، التي أصبحت من أكثر الكتب مبيعاً في التاريخ، إلى جانب روايات «الأصل» و«الجحيم» و«الرمز المفقود» و«ملانكة وشياطين». أسرت رواياته القراء في أنحاء العالم، وأثارت نقاشات فكرية واسعة وتأويلات لا تنتهي. كما أصدر أيضاً كتاب الأطفال الأكثر مبيعاً «السيمفونية البرية». تُرجمت أعماله إلى ست وخمسين لغة، وتجاوز عدد نسخها المطبوعة مئتين وخمسين مليون نسخة حول العالم.

يعود كاتب روايات التشويق الأشهر في العالم، دان براون، برواية جديدة تبهر العقول وتحبس الأنفاس. إنه عمل أسر متقد الإيقاع، تتشابك فيه الأحداث والأفكار بمهارة لا يجيدها سواه، فيقدم تجربة قراءة تجمع بين المتعة والدهشة والتأمل العميق.

آراء النقاد في دان براون

«دان براون هو سيد التشويق الفكري».

وول ستريت جورنال

«يتقن براون فن التشويق الحافل بالأحداث والقائم

على الألغاز والغموض».

ريتشموند تايمز ديسباتش

آراء النقاد في روايات دان براون

ملائكة وشياطين

”مغامرة حقيقية لا تُنسى... مثيرة، سريعة الوتيرة،
مع معدل ذكاء مرتفع بشكل غير عادي.“

— سان فرانسيسكو كرونكل

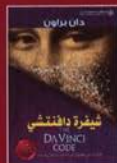
شيفرة دافنتشي

”كم هائل من المفاجآت، جميعها مشوّقة ومعظمها غير متوقّعة...
رواية تحبس الأنفاس، مزيج من متعة القراءة وعمق الفكر.“

— سان فرانسيسكو كرونكل

”رحلة صاخبة ومدهشة وبالغة الذكاء. لا يهدأ إيقاع براون السرديّ
المفعم بالمعرفة والتاريخ، ليقدم رواية ممتعة بأسلوب راقٍ.“

— شيكاغو تريبيون



الرمز المفقود

”دان براون يعيد الحياة إلى نوع أدبي كان في حكم المهجور.
روايته المفعمّة بالرموز والألغاز تفيض بالمعارف الغربية، والصور المذهلة،
والزخم المتواصل الذي يجعل من المستحيل أن تضعها جانباً.“

— نيويورك تايمز

”رحلة متسارعة من الاكتشافات بذكاء بالغ، تنتهي بكشفٍ مذهل لهويّة القاتل.“

— واشنطن بوست



الجحيم

”دان براون هو سيّد التشويق الفكري.“

— وول ستريت جورنال

”يلج براون ذروة تألّفه حين يُقعّح القارئ بأنّ الكتب القديمة والممرّات
المعتمنة ليست سوى ستار يخفي مؤامراتٍ عالمية.“

— واشنطن بوست



الأصل

”ينخرط لاتغدون مجدداً في حدثٍ عالميٍّ ضخمٍ يحمل تداعياتٍ هائلة على العالم.
يُثري براون روايته ببحثٍ دقيقٍ في الفنّ والعمارة والتاريخ يُضيء كلّ صفحة من صفحات الرواية.“

— إنترتينمنت ويكلي

”ستلهب هذه الرواية حماسة عشاق عالم الرموز روبرت لانغدون.“

— يو إس إيه توداي



مكتبة
t.me/soramnqraa

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات كوم
www.nwf.com



شركة الدار العربية للعلوم ناشرون للشهر
Arab Scientific Publishers
السجل التجاري 1010921463

